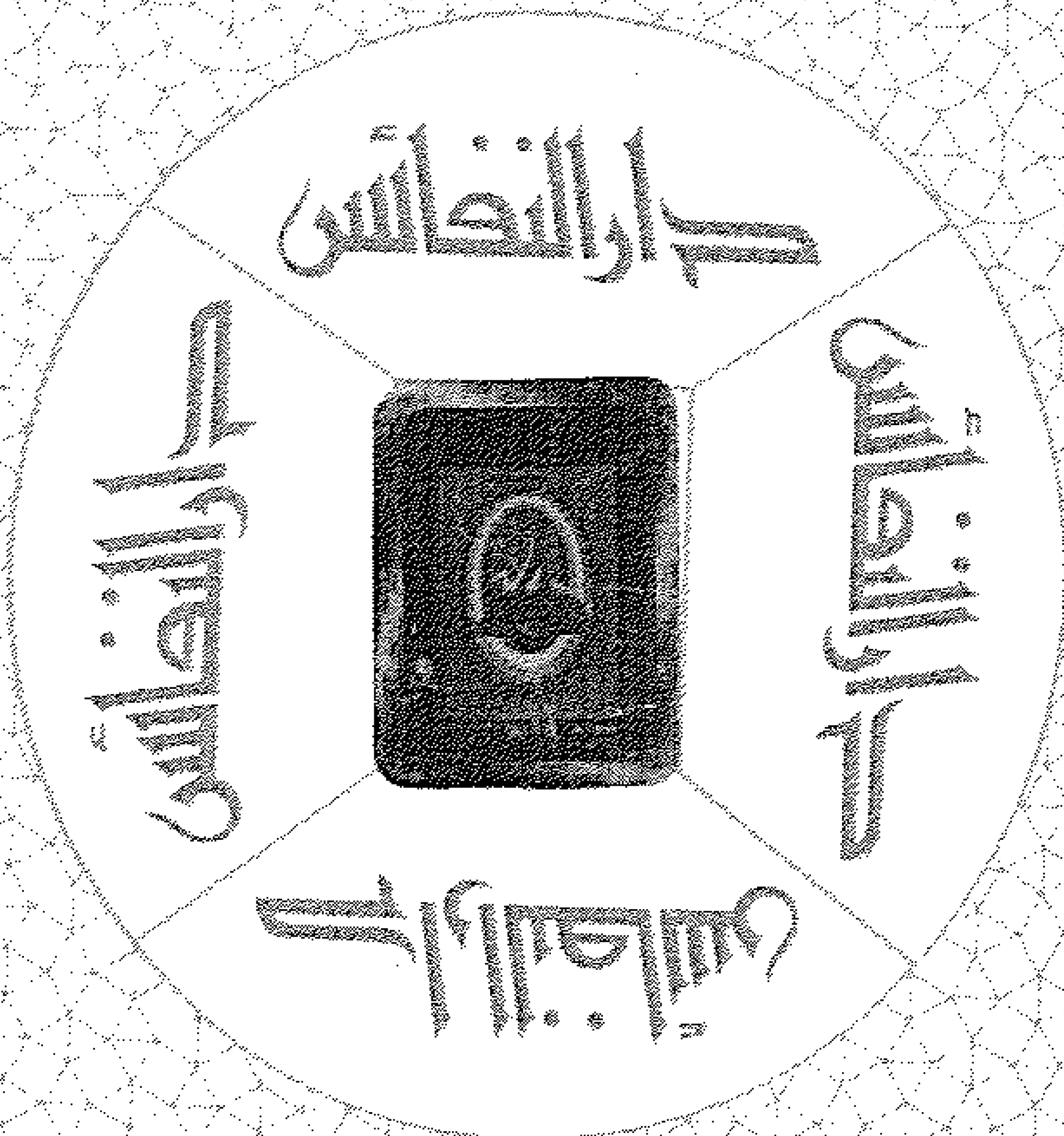
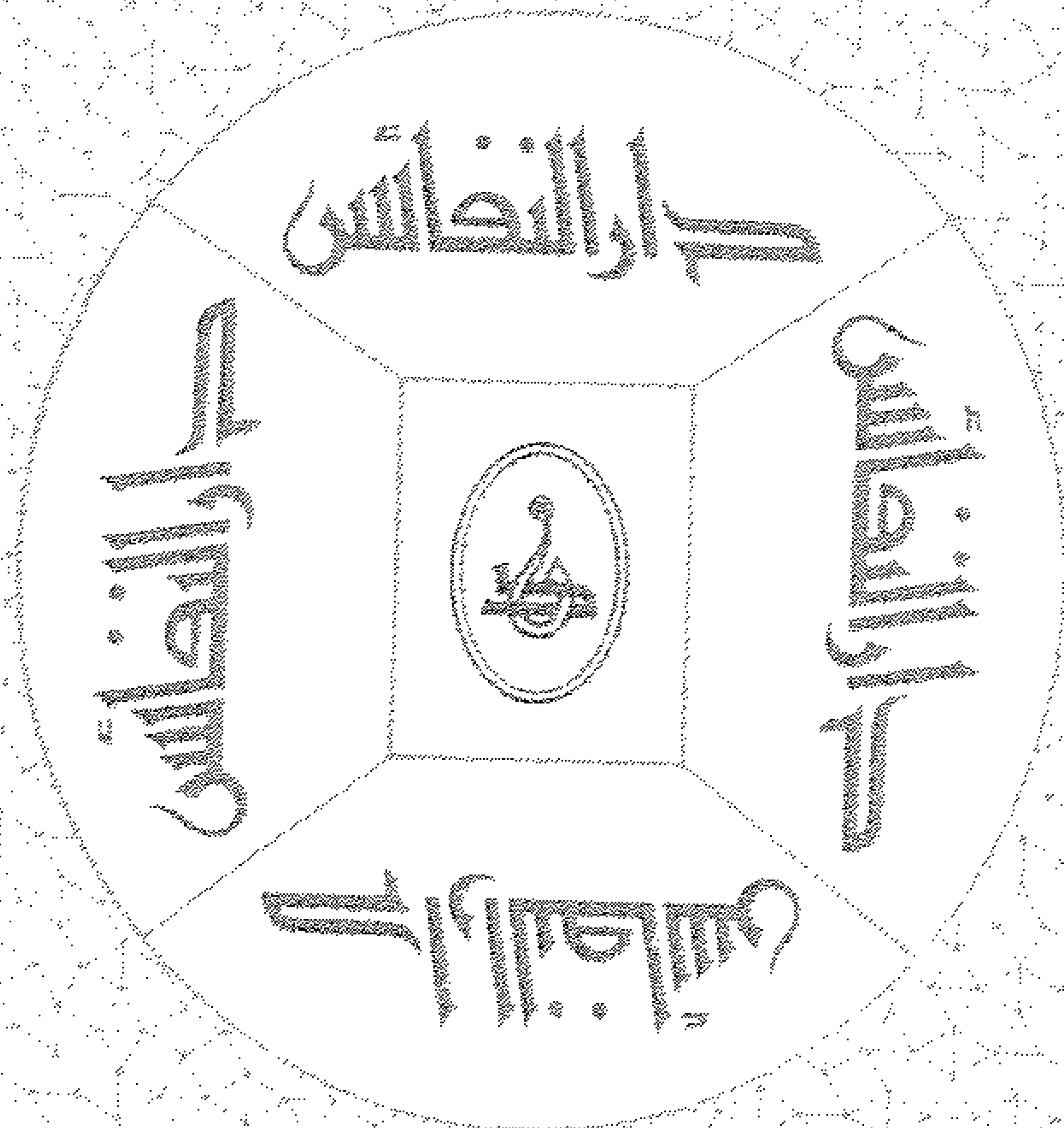
أ. د. محمّد سهيل طقّوش

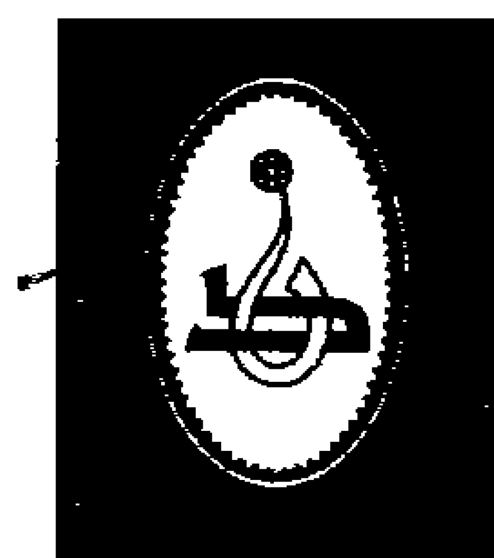
تاريخ المسلمين في الأندلس



دار النفائس


دار النفائس


دار النفائس



تاريخ
المسلمين في الأندلس

٩١ ـ ٨٩٧ هـ/٧١٠ ـ ١٤٩٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

صورة الغلاف: جامع قرطبة

تاريخ

المسلمين في الأندلس

٩١ ـ ٨٩٧ هـ/٧١٠ ـ ١٤٩٢م

تأليف

الدكتور محمّد سهيل طقّوش

أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة الإمام الأوزاعي
كلية الدراسات الإسلامية

دار النفائس

تاريخ المسلمين في الأندلس

تاليــف: أ.د محمد سهيل طقوش

الطبعة الثانية: 1429هـ - 2008م

ISBN 978-9953-18-412-8

Publisher	**نشر**




DAR AN-NAFAES
Printing-Publishing-distribution
Verdun Str - Safiedine bldg.
P.o.Box 14-5152
Zip code 1105-2020
Fax: 009611 861367
Tel: 00961 1 803152 - 810194.
Beirut - Lebanon

دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان - بناية الصباح
وصفي الدين - ص.ب 5152 - 14
الرمز البريدي: 2020 - 1105
فاكس: 009611861367
هاتف: 803152 - 009611810194
بيروت - لبنان

Email: alnafaes@alnafaes.com
Web Site: WWW.alnafaes.com

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبد الله خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، وبعد:

تتناول هذه الدراسة تاريخ المسلمين في الأندلس من جانبه السياسي بين أعوام (٩١ـ ٨٩٧هـ/ ٧١٠ـ ١٤٩٢م). ولاحظت بعد قراءته أن أحداثه تسير على نمط الدول السلطانية التي قامت في المشرق الإسلامي، بمعنى أنها تمر بثلاثة أطوار هي: طور التأسيس والتوسع، وطور المحافظة على المكتسبات المنجزة، وطور التراجع والزوال، وهي تحمل في ثناياها البذرة الجنينية للانحلال التي لن تلبث أن تنمو وتستفحل لتقضي عليها، إنما تبقى مآثرها حية لا تزول.

إذن. فالمقصود هنا أن أخطَّ مسيرة ثمانية قرون من تاريخ المسلمين في الأندلس، حافلة بالنجاح والتعثر في ظل متغيرات داخلية وخارجية متواصلة، وتفاعلات قبلية وعنصرية متعددة ومختلفة الأهواء، وقد شكّلت المجتمع الأندلسي المتباين في توجهاته الاجتماعية والقومية.

وتبدو الأندلس حالة فريدة في حركة الفتوح. فقد كان الاتجاه الإسلامي السائد في أيام عمر بن الخطاب، على الأقل، أن تصل الدابة إلى أي من البلاد المفتوحة، وألا يفصل بينها وبين المدينة ماء، ثم تبين أن بلاد الإسلام تبقى مفتوحة أمام قوى خارجية لا بد من مواجهتها، ولا يُنتظر أن تقف القوى التي أطلقتها حركة الفتوح مكتوفة اليدين أمام هذه التحديات، فكان التوسع إلى أواسط آسيا وإلى حوض نهر السند، واستكمال فتوح شمالي إفريقيا.

أما التوسع باتجاه الأندلس، فقد بدا للوهلة الأولى مغامرة خيالية، لأنه يفصل بينها وبين آخر البر الإسلامي، بحر، غير أن المسلمين تجاوزوا هذه العقبة بعد ذلك بعنايتهم بالأسطول.

وبفعل بُعد الأندلس عن العالم الإسلامي الشرقي، كانت هجرة العرب إليها بعد الفتح محدودة، واقتصرت على ما رافق الحملات العسكرية، لذلك كان طبيعياً أن تكون هجرة البربر إليها كثيفة، وقد شكّلوا الأكثرية بين القادمين، بفعل إسلامهم المبكر، واشتراكهم منذ البداية في الفتوح، بالإضافة إلى قرب ديارهم. ولكن يبقى أن العرب والبربر كانوا يشكّلون أقلية بالمقارنة مع أهل البلاد.

يحتل الأندلسيون مكانة فريدة بين شعوب الأرض قاطبة، إذ كانوا حلقة وصل فاعلة بين الشرق والغرب، وجسراً حضارياً وتاريخياً مهماً، وسداً أوقف زحف البرابرة الجرمان والنورمان في اتجاه المغرب والجزر الرئيسة في البحر الأبيض المتوسط. وأدّى امتداد أفق تاريخهم إلى ارتباطهم الوثيق بأهم الأحداث التي شهدها الألف الثاني الميلادي، إذ كانوا معنيين أساسيين بما يُعرف بالحروب الصليبية، وما يصطلح على تسميته بعصر النهضة الأوروبي، واكتشاف العالم الجديد، وإنشاء محاكم التفتيش، وصعود البروتستانتية، وصراع السيادة على أوروبا بين فرنسا وإسبانيا، والنزاع بين العثمانيين والأوروبيين.

أسس بنو أمية دولة في الأندلس كانت أقوى دول أوروبا وأكثرها سكاناً، فهابها الجميع واسترضاها القريب والبعيد. وإذا كانت الأندلس قد فُتحت عنوة، فإن القيِّمين عليها استمروا في تطبيق العدالة والمساواة في مجتمع متعدد الانتماءات الدينية، ونهضت بفضل وعي مواطنيها الذين حقَّقوا الثروة الاقتصادية الهائلة، بفعل اعتمادهم على الزراعة والصناعة والتجارة، وأنشأوا حضارة استوحت أسسها من الحضارة المشرقية المتأثرة بالحضارة اليونانية القديمة، غير أنها تطورت مع الزمن وتميزت بخصائصها الفريدة.

ودفعت موجة الفتح الأولى بعض النصارى القوط إلى الشمال، فشكَّلوا نواة مقاومة راحت تتطور خلال القرون الثلاثة التالية، وتمخَّضت عن قيام بعض الممالك النصرانية، وحقَّقت الانتصارات، وتمكَّنت من مدِّ نفوذها نحو الجنوب مستغلة النزاعات الداخلية التي عصفت بالأندلس، وإشباع رغبات سكانها المتزايدين، غير أنها لم تشكل، حتى ذلك الوقت، خطراً جديّاً على الخلافة الأموية. وظل الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر المستبد بدولة الخلافة الأموية، يقود الصوائف سنوياً لتأديب هؤلاء، غير أن هذه الانتصارات لم تغيِّر في وضع الأراضي، كما لم تُخفِ عوامل الانقسام الداخلي المتفاعلة منذ الفتح، إذ اندلع الصراع بين العرب والبربر،

ثم بين العرب أنفسهم، وبعدها بين العرب والمولَّدين، وأقدم بعض الحكام على استجلاب العبيد والصقالبة، فشكلوا منهم عصبة أخذت تتطور وشكَّلت بدورها خطراً كبيراً على الوضع العام.

والحقيقة أن عوامل الانفجار كانت موجودة يوم توفي الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر ومهيأة للظهور، لكنها تأجَّلت خلال عهدي ابنيه المظفر عبد الملك وعبد الرحمن شنجول، ثم أُتيحت الفرصة لقيام المنافسة بين العصبيتين، البربر والعبيد المرتزقة، الأمر الذي أوقع البلاد في الفتنة، ودبَّت الفوضى، وفشلت جهود الأمويين في تأمين الحد الأدنى من الهدوء، والمحافظة على إرثهم، والإبقاء على وحدة البلاد، فانهارت دولتهم في أوائل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وقام على أنقاضها نظام سياسي جديد فيما سمي بملوك الطوائف، فاستقل حكام الولايات بما كان تحت أيديهم، وتلقَّبوا بألقاب الملوك، وقد وُجد في إحدى مراحل هذا النظام تسعة وثلاثون دولة.

جاء انهيار الخلافة الأموية في وقت حرج، فقد أخذ الفرنسيون يتدفقون على الممالك النصرانية في الشمال لأسباب دينية ودنيوية، ولم يستطع ملوك الطوائف صدَّهم، ووقف الخطر القادم من الشمال الذي أخذ يتهدَّدهم، نظراً لضعفهم وتفرُّقهم ومعاداة بعضهم للبعض الآخر، فدفعوا الجزية إلى ملوك النصارى، لكن هذه الجزية لم توقف اندفاع هؤلاء الملوك وأطماعهم في استرداد ما بأيدي المسلمين وطردهم من الأندلس، بل إنها قدَّمت لهم الأموال التي ساعدتهم على التسلح واستقدام المرتزقة وتقوية الجيش، الأمر الذي أتاح لهم احتلال طليطلة في عام (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م).

وبسقوط عاصمة الثغر بدا واضحاً أن ميزان القوى بدأ يميل لصالح ممالك الشمال النصرانية، فتعالت أصوات تنادي بالرحيل عن الأندلس، واختار بعض الأندلسيين أن يلتمسوا المساعدة من عدوة المغرب، وكان نجم المرابطين قد علا في سماء المغرب الأقصى بزعامة يوسف بن تاشفين، فلبَّى هذا نداء المساعدة، وتمكَّن من إنزال الهزيمة بالملك القشتالي ألفونسو السادس في معركة الزلَّاقة التي حدثت بعد مرور عام على سقوط طليطلة.

لكن شعور السلطان المرابطي أن بعض ملوك الطوائف يميل إلى الاتفاق مع ألفونسو السادس، وقناعته بأنه أحق بحكم الأندلس من أهلها، أدَّى إلى استيلائه على

السلطة، واقتدى بملوك الطوائف، فتحكَّم بالبلاد والعباد، فلا هو تركهم يقررون مصيرهم، ولا هو حماهم في كل الأوقات، إذ سقطت بلنسية بأيدي النصارى، بعد ثلاثة أعوام من بداية عهد المرابطين في الأندلس، كما لم يتمكَّن من استعادة طليطلة على الرغم من أنه حاصرها، وأعطى ألفونسو السادس السبب لحضِّ الفرنسيين على مساعدته، وفتح للبابوية أبواب شبه الجزيرة الإيبيرية وأدّى الدعم الفرنسي لمملكة أراغون إلى احتلال سرقسطة في عام (٥١٢هـ/ ١١١٨م).

وكادت الأندلس أن تضيع مجدداً مع ضعف دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين في المغرب، في الوقت الذي نشطت فيه الممالك النصرانية في حرب الاسترداد. فأعاد الموحدون ضم الأندلس إلى دولتهم في عام (٥٥٦هـ/ ١١٦١م) وأخذوا يجاهدون النصارى، كما انهمكوا بتصفية حساباتهم مع أسلافهم، الأمر الذي أتاح للقوات الصليبية القادمة من إنكلترا وألمانيا والمتوجهة إلى المشرق، مساعدة البرتغاليين على احتلال أشبونة في عام (٥٨٧هـ/ ١١٩١م) بينما قدم الفرنسيون لاحتلال طرطوشة على الساحل الشرقي. وأفشل الموحدون والأندلسيون محاولة ألفونسو السابع للسيطرة على وسط البلاد واحتلال قرطبة وجيان. ومني خليفته ألفونسو الثامن بهزيمة منكرة في معركة الأرك في عام (٥٩١هـ/ ١١٩٥م)، إلا أن الرعب، الذي دبَّ في أوصال الممالك النصرانية الشمالية وأوروبا، جاء عندما سقطت شلبطرة، حامية قشتالة، بعد ستة عشر عاماً من هزيمة الأرك، وعندها تولت البابوية إعداد حملة صليبية بعد أن وحَّدت الممالك النصرانية الشمالية، كان نتيجتها الانتصار الكبير في معركة العقاب في عام (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م)، ثم اجتاج القشتاليون والبرتغاليون والأراغونيون وسط الأندلس واستولوا على بياسة وأبدة وقرطبة وجيان وإشبيلية وعدد آخر من المدن الأندلسية. ولم يبق بعدُ إلا مملكة غرناطة في أقصى الجنوب، وارتحل إليها أكثر من مليوني شخص من أنحاء الأندلس.

ومنذ منتصف القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلاي، بدأت مجموعة من التطورات المحلية والدولية تتفاعل لتحديد مستقبل مملكة غرناطة. فانتصار العثمانيين في أوروبا، ونجاحهم في فتح القسطنطينية أتاح للبابوية التدخل بقوة في شبه الجزيرة الإيبيرية، فَحضَّت القشتاليين على تجديد الحرب ضد مملكة غرناطة. واندلعت المعارك هناك في عام (٨٦٦هـ/ ١٤٦٢م)، وتمكَّن القشتاليون بمساعدة

الأوروبيين من احتلال جبل طارق. وطرأ تطور حاسم، بعد ذلك بعام واحد، عندما اعتلت إيزابيلا عرش قشتالة. وكانت قد تزوجت من فرديناند ملك أراغون، فتوحَّدت بذلك المملكتان. وكانت إيزابيلا ملكة ناجحة ولكن متعصبة، وقد تمكَّنت من إزالة آخر سلطة إسلامية سياسية في شبه جزيرة إيبيريا، ولو بطرق لا تليق بكبار الملوك، فعيَّنت زوجها قائداً عاماً لجيوش قشتالة، وحشد هذا أكثر من إثنين وخمسين ألف جندي في الحرب ضد مملكة غرناطة، وكان حصار مالقة من أصعب ما واجهه من مقاومة، إلا أن حصار بسطة في عام (٨٩٤هـ/ ١٤٨٩م) كاد يدفعه إلى الاستسلام التام بفعل المقاومة التي استمرت ستة أشهر، وبسبب ما أنفقه من أموال باهظة على الحرب، لكن غرناطة ظلت صامدة على الرغم من سياسة الأرض المحروقة التي اتبعتها جيوشه، غير أن النزاع الداخلي فيها فتَّ في عضدها وأنهكها حتى سقطت استسلاماً في (١ ربيع الأول ٨٩٧هـ/ ٢ كانون الثاني ١٤٩٢م)، ولم يكن استسلامها نصراً إسبانياً عندما قبل أهلها معاهدة التسليم التي ضمنت فيها إيزابيلا للغرناطيين ما لم تضمنه لهم سلطتهم الإسلامية، مع فارق مهم هو أنها كانت تنوي الغدر.

الواقع أن محاولة عرض تاريخ المسلمين في الأندلس بكتاب واحد، هو مغامرة، لأن أحداث قرن واحد منه تملأ بكثرتها صفحات كتب عديدة، كما أن أحداثه بعامة تقود إلى الاستنتاج بأن الحرب هي قدر الإنسان الأندلسي، إلا أن الحرب لا تعني الاقتتال دائماً، وتحت صراع الحضارات الذي لا يقل أهمية كان الصراع الفكري الذي لا يقل ضراوة عن القتال.

لقد أحجم المؤرخون المسلمون، في العصر الحديث، عن الاهتمام بتاريخ المسلمين في الأندلس، وركَّزوا أبحاثهم ودراساتهم على التاريخ الإسلامي الشرقي، وربما يعود ذلك إلى أن المشرق الإسلامي كان مهد الدعوة الإسلامية ومقر الخلافة الراشدة والخلافتين الأموية والعباسية، كما ترعرعت فيه الحضارة الإسلامية وازدهرت. ونظر المسلمون بعامة إلى الأندلس على أنه قطر مفتوح أُلحق بالخلافة المشرقية. وكان تاريخ إسبانيا، من جهة أخرى، غامضاً بالنسبة للأوروبيين، حتى القرن التاسع عشر، حين بدأت الدراسات الخاصة بالأندلس تظهر تباعاً، ويُنشر التراث الأندلسي بفضل جهود المستشرقين. وبدأ الإنسان الأوروبي، وقد بهرته هذه الاكتشافات وتوضَّح له تفوق الحضارة الأندلسية على الحضارة الأوروبية؛ يهتم

بتاريخ المسلمين في الأندلس، لكن أغلب ما كتبه المؤرخون الفرنسيون والإسبان يتصف بالتحامل الشديد، وبذلك تكون كتاباتهم بعيدة عن الحقيقة.

وازداد اهتمام المؤرخين المسلمين المحدثين بتاريخ المسلمين في الأندلس عندما نضج الوعي الإسلامي، ومع ذلك فإن أغلب الدراسات الحديثة اقتصرت على جانب معين، كما أن بعضها جاء مختصراً لا يروي غليل الباحث فضلاً عن القارىء. وعليه، فإن المكتبة العربية والإسلامية ما زالت بحاجة إلى مثل هذه الدراسة الشاملة، وهذا الذي دفعنا للكتابة في هذا الموضوع لنعطي صورة شاملة وكاملة، بحيث تنجلي للقارىء مرحلة مهمة من مراحل تاريخنا الإسلامي هي، من دون شك، مرحلة مضيئة بقدر ما هي قاتمة.

اعتمدتُ في هذه الدراسة على مصادر أساسية ومراجع متنوعة مبيَّنة في ثبت المصادر والمراجع، وآمل بما اعتمدتُ عليه أن يُجلي الحقيقة التاريخية.

أما تشكيل الموضوعات، التي يراها القارىء بعناوينها، فقد قسمتها إلى أربعة أبواب موزعة على ستة عشر فصلاً.

وأنا على ثقة بأن القارىء سيجد في هذه الدراسة متعة وفائدة وعبرة، كما سيلمس موضوعية في معالجة الأحداث.

وأسأل الله أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن ينفع بها القارىء العربي والمسلم، إنه سميع مجيب.

أ. د. محمد سهيل طقوش

الباب الأول

الفتح الإسلامي للأندلس، وعهد الولاة الأمويين

٩١ ـ ١٣٨هـ/٧١٠ ـ ٧٥٦ م

الفصل الأول : أوضاع الأندلس قبل الفتح الإسلامي

الفصل الثاني : الفتح الإسلامي للأندلس

الفصل الثالث : الأوضاع الداخلية في الأندلس، في ظل حكم الولاة

الفصل الرابع : الأوضاع الخارجية في الأندلس، في ظل حكم الولاة

الفَصْل الأوَّل

أوضاع الأندلس قبل الفتح الإسلامي

المدلول الاصطلاحي لكلمتي إسبانيا والأندلس

من المفيد، قبل دراسة تاريخ المسلمين في الأندلس، أن نلمَّ إلمامة وجيزة بأوضاع هذا البلد الطبيعية والسياسية والاجتماعية والدينية، في محاولة لاستجلاء الجذور التاريخية لإسبانيا وسكانها قبل الفتح الإسلامي، بفعل أن تلك الجذور كانت عوامل محرِّكة لمسار التطور التاريخي الذي أتاح للمسلمين فتحها.

عُرفت إسبانيا، أو شبه جزيرة إيبيريا[١]، بأسماء عديدة على مر العصور التاريخية، نُسب بعضها إلى أسماء أنهارها، وبعضها الآخر إلى أسماء شعوب وقبائل سكنت في ربوعها، أو ارتبطت باسم أحد الكواكب، فضلاً عن معلومات مبهمة وصلت إلينا بواسطة كتب التاريخ والجغرافية، وأسطورية أحياناً أخرى.

لقد سُميت في القديم بـ «إيبيريا» نسبة إلى نهر إبرو، أو إلى قبائل تحمل الاسم نفسه سكنت حول هذا النهر، ثم عُمِّم اسمها على كل شبه الجزيرة من واقع انتشارها في أرجائها[٢].

وعُرفت البلاد أيضاً باسم بيتيكا نسبة إلى نهر بيتي، وهو نهر قرطبة الذي أطلق عليه المسلمون اسم الوادي الكبير. وكان اليونانيون قد نزلوا على ضفته وعمَّموا اسمه على كامل شبه الجزيرة، على الرغم من أن الرومان أطلقوه على الجنوب فقط[٣].

---

(١) تتألف شبه جزيرة إيبيريا من دولتي إسبانيا والبرتغال الحاليتين.

(٢) البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز: جغرافية الأندلس وأوروبا ص ٥٧. الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار ص ٢. مكي، الطاهر أحمد: الأندلس تاريخ اسمه وتطوره. مجلة الثقافة. السنة الثانية، العدد ٢٢، القاهرة ١٩٥٧م ص ٢٥. مؤنس، حسين: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ص ١٣٨، ١٣٩.

(٣) البكري: ص ٥٧. الحميري: ص ٢.

وأطلق اليونانيون على البلاد اسم إشبانية، وذلك إما نسبة إلى اسم رجل ملكها في القديم كان يدعى إشبان بن طيطش، وإما نسبة إلى شعب بهذا الاسم، أو اشتقاقاً من اللفظ الفينيقي سبان الذي يعني ساحل أو بلاد الأرانب، وكانت شبه الجزيرة غنية بها، والمعروف أن الفينيقيين هم أول الشعوب المتحضرة التي نزلت في هذه البلاد(١).

وعُرفت البلاد عند اليونانيين أيضاً باسم هسبيريا، وهي تسمية شاعرية مشتقة من كلمة هسبيروس وتعني الكوكب الأحمر، أو نجمة المساء. إنها كناية عن أرض الغرب أو المغرب، إذ كانت شبه الجزيرة تقع في أقصى غرب العالم المعروف آنذاك، وتشرف على المحيط الأطلسي ـ بحر الظلمات ـ الذي كان يُعتقد أن لا عمران وراءه(٢).

وأطلق المسلمون على إسبانيا اسم الأندلس، وقد عرَّبوا الاسم من لفظ الأندليش الذي تسرَّب إليهم من المغرب عن طريق البربر، ويعني بلاد الوندال أو الڤندال، نسبة إلى هذه القبيلة الجرمانية التي غزت إسبانيا في مطلع القرن الخامس الميلادي واستقرت في سهلها الجنوبي بيتيكا، ولأن هذا السهل قد نُسب للوندال وصار يُعرف بڤاندلوسيا أو الأندلس، وكان أول ما فتحه المسلمون من أقاليم شبه الجزيرة، وتقع فيه المدن التي أدَّت أدواراً سياسية بارزة في أيام الحكم الإسلامي، مثل قرطبة التي اتخذوها عاصمة لهم، وإشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية وغيرها، لذلك أطلقوا اسمه على سائر شبه الجزيرة التي أضحى معظمها تحت سيطرتهم، وهذا يعني أن لفظ الأندلس لا يشمل جغرافياً كل إسبانيا لأن سيادة المسلمين لم تنتشر بصورة مطلقة على جميع أجزاء البلاد، فكان من الطبيعي أن يتقلص مدلوله الجغرافي تبعاً للتراجع التدريجي للحكم الإسلامي فيها، نتيجة ضغط المقاومة الإسبانية حتى أضحى قاصراً على آخر تمثيل إسلامي في مملكة غرناطة في جنوب شرقي شبه الجزيرة، وعندما انتهى التواجد الإسلامي فيها، في أواخر القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلاي، عاد اسم الأندلس مرة أخرى ليدل فقط على مديريات سهل إيبيريا الجنوبي الواقع جنوبي نهر الوادي الكبير(٣).

---

(١) البكري: ص ٥٧. الحميري: ص ٢. ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب جـ ٢ ص ٢.

(٢) البكري: ص ٥٨. مؤنس: ص ١٤٠. مكي ص ٢٦.

(٣) رمضان، عبد المحسن طه: الحروب الصليبية في الأندلس ص ١٢٤، ١٢٥. بيضون، إبراهيم: الدولة العربية في إسبانيا ص ٦١، ٦٢.

الوضع الطبيعي

تقع إسبانيا، أو شبه الجزيرة الإيبيرية، في الجنوب الغربي من أوروبا[(١)] على مثلث من الأرض يضيق كلّما توجهنا نحو الشرق، ويتسع غرباً، مقابل السواحل الشمالية للمغرب، حيث يفصل بينهما ما كان يُعرف قديماً ببحر الزقاق أو مضيق جبل طارق، الاسم الذي غلب عليه منذ الفتح الإسلامي للأندلس، وتتصل في الشمال بفرنسا ـ بلاد الفرنجة قديماً ـ بواسطة سلسلة جبلية تُعرف بجبال البرينيه[(٢)]، وهي جبال شاهقة تمتد من منطقة برشلونة في الشرق حتى مدينة بيونة في المغرب، وتتخللها شعاب ضيقة وممرات وعرة أشهرها ممر الرونسڤال. وباستثناء تلك الناحية، فإن المياه تحيط بشبه الجزيرة من كل جانب، مما حدا بالجغرافيين المسلمين إلى وصفها بالجزيرة تجوزاً، إذ يمتد البحر المتوسط على طول ساحليها الشرقي والجنوبي من السطوح الشرقية لجبال البرينيه حتى مضيق جبل طارق، الذي يفصل شبه الجزيرة عن شمالي إفريقيا بما لا يزيد عن إثني عشر ميلاً، ويلتقي عنده البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الأطلسي الذي يُطوّق شبه الجزيرة من ناحيتي الغرب والشمال، حتى الحد الغربي لجبال البرينيه حيث يُعرف في هذه الناحية الشمالية بالبحر الكانتبري أو بخليج بسكاي، وبذلك تنعزل شبه الجزيرة عن جيرانها[(٣)].

والواقع أن جبال البرينيه تشكل سداً يحول بين اتصال إسبانيا وفرنسا، وأن منطقة

---

(١) ذكر الجغرافيون اليونان والرومان أن شبه جزيرة إيبيريا تقع في غرب أوروبا وليس في جنوبها الغربي، فجعلوا حدَّها الشمالي الشرقي حداً شرقياً، والساحلين، الشرقي والجنوبي، ساحلاً واحداً هو الجنوبي، في حين ظل ساحلاها الغربي والشمالي في وضعهما السليم. وقد تبنى الجغرافيون المسلمون هذا التصور الخاطىء. Strabo: The Geography II p 3 - 7/ trans. by H.L. Jones. Leob Classical Library, London 1923. الحميري: ص ٢. ابن عذاري: جـ ٢ ص ١. المراكشي، عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين ص ٧، ٨. ابن الشباط، محمد بن علي المصري التوزري: وصف الأندلس وصقلية ص ٩٩، ١٠٢، ١٦٣. المقري، أبو العباس أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب جـ ١ ص ١٣٧، ١٣٨.

(٢) يُطلق على هذه الجبال لفظ البرتات وهو مشتق من اللفظ اللاتيني Portus، بمعنى ممر أو مدخل أو باب، وذلك نسبة إلى ممرات هذه الجبال. وقد استخدم الجغرافيون المسلمون هذا اللفظ وقالوا برت وبرتات وعرَّبوها إلى أبواب.

(٣) ابن الشباط: ص ١٠٢. المراكشي: ص ٦. المقري جـ ١ ص ١٣٧، ١٣٨.

جبل طارق تجعل الاتصال مع المغرب أكثر سهولة ويسراً، لذلك أضحت شبه جزيرة إيبيريا تُقبل بوجهها على شمالي إفريقيا وتُولي ظهرها لأوروبا، وهذا ما أجمع عليه الجغرافيون المسلمون الذين عدُّوها امتداداً لإفريقيا، وليست رقعة من القارة الأوروبية. والمعروف أن شبه الجزيرة تتشابه مع المغرب في كثير من المعالم النباتية والحيوانية وبخاصة منطقتي طنجة وسبتة(١).

وعلى الرغم من أن إسبانيا تتكوَّن، في معظمها، من هضبة كبيرة تعرف بالمسيتا وهو ما يجعلها تبدو وكأنها وحدة جغرافية، إلا أن كثرة الجبال التي تمتد في معظمها في اتجاه أفقي من الشرق إلى الغرب، فضلاً عن الأودية العميقة فيما بينها، قد فتَّتت هذه الوحدة، وأعاقت الاتصال بين الأجزاء المختلفة لشبه الجزيرة، فنشأت وحدات محلية تنفصل كل منها عن الأخرى بحواجز طبيعية، مما أثَّر على الأوضاع السياسية(٢).

ويلاحظ تنوع الخصائص الجغرافية لإسبانيا من تباين سطح الأرض، وتعدُّد الأقاليم المناخية، والغطاء النبائي، حيث تسود البلاد ثلاثة أنماط مناخية. ففي الشمال الغربي مناخ محيطي حيث ينهمر المطر بغزارة على مدار السنة وينتج عنه نشوء مراعٍ غنية. ويسود في الوسط مناخ قاري شبه جافٍ تغطيه أعشاب قليلة. ويعتدل المناخ في الجنوب الشرقي صيفاً، وهو أدنى إلى الجفاف في الشرق. وبوجه عام، تعيش معظم البلاد في ظل المطر.

أدَّت هذه الأنماط المناخية إلى تنوع الحياة الزراعية، من أقاليم تعتمد كلياً على مياه الأمطار، إلى تفاوت من مكان لآخر، إلى مناطق تعتمد على مياه الأنهار التي تفيض أحياناً وتجف أحياناً أخرى مع ما تسبِّبه من أخطار في كلتا الحالتين.

الوضع السياسي

تعاقبت على إسبانيا، على مر العصور، شعوب عديدة. فقد غزاها الكلتيون في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وهم من السلالات الهندو أوروبية، وعرفهم الرومان باسم الغاليين، واستوطنوا الأجزاء الشمالية الغربية، فتزاوجوا من الإيبيريين

---

(١) العدوي، إبراهيم أحمد: المسلمون والجرمان، الإسلام في غرب البحر المتوسط ص ١١١.

(٢) المقري: جـ ٢ ص ١٢٩. Peers: Spain, a Companion to Spanish Studies. P.29.

الذين كانوا قد قدموا من إفريقيا، ونشأ جيل جديد أطلق عليه علماء السلالات الكلت ـ الإيبيريين[١].

ونزل الفينيقيون في سواحل إسبانيا الشرقية، في القرن العاشر قبل الميلاد، وبنوا فيها عدداً من المدن مثل قادس وعدرة ومالقة وطرشيش، التي ربما أطلقوا اسمها على المنطقة المعروفة بالأندلس، وقد اتخذوها محطات تجارية على خطوط تجارتهم البحرية التي أقاموها لأنفسهم على امتداد سواحل البحر الأبيض المتوسط.

وفي عام ٨٥٠ ق .م، أسسوا مدينة قرطاجة على الساحل الشمالي لإفريقيا قرب مدينة تونس الحالية، واتخذوها مركزاً رئيساً لحماية مستوطناتهم المنتشرة في الساحل الغربي للبحر الأبيض المتوسط[٢].

وفي القرن الخامس قبل الميلاد، بدأت السواحل الشرقية لإسبانيا تتلقى المؤثِّرات الحضارية اليونانية، في الوقت الذي شرع فيه القرطاجيون في تأسيس امبراطورية لهم في غربي البحر الأبيض المتوسط، فاصطدموا باليونانيين وحلُّوا محلهم، وأسسوا على ساحل إسبانيا مدينة قرطاجة الحديثة.

وبرزت، في القرن الثالث قبل الميلاد، قوة روما التي نازعت قرطاجة على السيادة، وتطورت العلاقات العدائية بين الطرفين إلى حروب طاحنة عُرفت بالحروب البونية، ابتدأت في عام ٢٦٤ق.م. وانتهت في عام ١٤٩ق.م بتدمير قرطاجة، وورثت روما ممتلكاتها وبسطت سيطرتها على إسبانيا التي أضحت جزءاً من الامبراطورية الرومانية. وعندما انتشرت الديانة النصرانية في أرجاء الامبراطورية الرومانية تقبَّلها الإسبان، مما زاد في ترابطهم مع الرومان[٣].

وفي مطلع القرن الثاني الميلادي، بدأت الامبراطورية الرومانية بالتآكل والتصدع بفعل الفساد الذي استشرى في أجهزتها، وقاربت نهاية رحلتها الطويلة. وبدت بوضوح الظواهر الحقيقية لانحطاط سلطتها عندما تعرَّضت لضغط القبائل الجرمانية[٤]، التي كانت تعيش خلف الحدود الطبيعية التي يشكلها نهرا الراين

---

(١) Chapman, C.E: A History of Spain PP. 7, 8. O'callaghan, J.F: History of Medieval Spain P. 27.

(٢) تاريخ الحضارات العام ـ روما وامبراطوريتها ـ الجزء الثاني ص ٥٠ـ ٥٣.

(٣) المرجع نفسه: ص ٦٤ـ ٦٦.

(٤) نذكر من بين هذه القبائل: القوط، الوندال، الفرنجة، الألآن، السويفي، الأنغلز، السكسون وغيرهم.

والدانوب[١]، وقد دفعت هؤلاء قلَّة الموارد وضغط قبائل الهون الآسيوية البربرية.

وفي ظل الصراع الداخلي بين هذه القبائل الجرمانية، فقد طرد القوط الوندال، من مواطنهم في بولندا الحالية، فالتجأ هؤلاء إلى سلوفاكيا، ثم عبروا نهر الراين في عام ٤٠٦م واستقروا في غالة لمدة قصيرة اجتازوا بعدها جبال البرينيه في عام ٤٠٩م واستقروا في إسبانيا[٢].

وخرج القوط من مواطنهم في منتصف القرن الثاني الميلادي سالكين اتجاهين:

الأول: نحو المنطقة التي تقع في جنوب أوكرانيا الحالية، فبسطوا سلطانهم على الأراضي التي استوطنوها حتى أخرجهم الهون منها في عام ٣٧٥م، فاحتموا بالامبراطورية الرومانية، وقد عُرف هذا الفرع بالقوط الشرقيين.

الثاني: في اتجاه داسيا ـ رومانيا ـ وقد عُرفوا بالقوط الغربيين. وعندما تعرضوا لضغط الهون في عام ٣٧٦م، خرجوا من المنطقة، وسمحت لهم السلطات الرومانية بعبور الراين وأسكنتهم في المناطق الشمالية من أراضيها بهدف الاستعانة بهم لصدٍّ غارات قبائل الهون على الأراضي الرومانية. لكن هؤلاء، وقد لمسوا ضعف الامبراطورية، انتشروا في ربوعها بحثاً عن الأقوات، وعاثوا فساداً فيها. ودخلوا روما في عام ٤١٠م بزعامة ملكهم ألاريك، ثم غادروها باتجاه الجنوب من أجل السيطرة على مخازن القمح في ولاية إفريقيا، لكن ألاريك مرض في الطريق وتوفي[٣]. وانصرف قومه عن إيطاليا حيث أعطتهم السلطات الرومانية إقليم أكويتانيا في غالة، ويضم الأطراف الجنوبية من غالة والأطراف الشمالية من إسبانيا، وأسسوا هناك أول مملكة قوطية غربية عاصمتها مدينة تولوز[٤]، ودام سلطانهم حتى عام ٥٠٧م عندما أخرجهم كلوفيس، زعيم الفرنجة، منها وأجبرهم على النزوح خلف جبال البرينيه فاصطدموا بالوندال وطردوهم من السهل الإسباني إلى إفريقيا، وفرضوا سيطرتهم على باقي القبائل الجرمانية الصغيرة المنتشرة في البلاد، وبخاصة قبائل السويفي في

(١) إن الموطن الأول للقبائل الجرمانية كان البلاد المحيطة ببحر البلطيق، ومن هناك راحوا يتحركون جنوباً ليحلوا محل الكلت حتى استقروا في المناطق الواقعة بين نهري الألب والراين.

(٢) Camb Med.History: I. PP. 266 - 268.

(٣) Bury, J.B: History of the Later Roman Empire I.P. 180.

Deanesly, M: A History of Early Medieval Europe PP. 27, 28.

(٤) *Bradley, H: The Goths PP. 106, 107.*

مقاطعتي جليقية وأشتوريس في شمال غربي إسبانيا، وأسَّسوا دولة مستقلة[١]. وبدت إسبانيا في مطلع القرن السادس الميلادي كوحدة سياسية، لأول مرة في تاريخها، تحت سيادة عنصر واحد.

واتخذ القوط مدينة ماردة عاصمة لهم، وتقع في الجنوب الغربي بعيداً عن الخطر الفرنجي، غير أنهم صادفوا معارضة من جانب سكانها الرومان الكاثوليك، والمعروف أن القوط اعتنقوا الديانة النصرانية على المذهب الآريوسي[٢].

ولم تكد تمضي بضع سنوات حتى تعرَّض القوط لخطر آخر تمثَّل في جهود الامبراطور البيزنطي جستنيان (٥٢٧ـ ٥٦٥م) إعادة إحياء الامبراطورية الرومانية. وبعد أن نجح في استرداد إفريقيا من الوندال، وإيطاليا من القوط الشرقيين، تطلَّع نحو إسبانيا، فبسط نفوذه على جنوبي البلاد وجنوبها الشرقي بما في ذلك قرطاجنة ومالقة وقرطبة.

ظلَّت السيادة البيزنطية على إسبانيا مدة سبعين عاماً بين مدٍّ وجزر[٣] ما دفع الملك القوطي ليوفيجيلد (٥٦٧ـ ٥٨٦م) إلى نقل عاصمته من ماردة، القريبة من نفوذ خصومه البيزنطيين، إلى طليطلة البعيدة عن التواجد البيزنطي، وسعى بعد وفاة جستنيان إلى استرداد ما احتله البيزنطيون، وأخمد ثورة البشكنس ـ الباسك ـ، وسيطر نهائياً على مملكة السويفي في عام ٥٨٥م.

وفي الوقت الذي فتح فيه المسلمون شمالي إفريقيا، كانت إسبانيا المقابلة تشهد تطورات سلبية متلاحقة أدَّت إلى انحلال وضعف دولة القوط. وتجلَّت مظاهر الانحلال السياسي بين أفراد الطبقة الحاكمة، ذلك أن نظام الحكم القوطي كان ملكياً قائماً على مبدأ الانتخاب، حيث يجتمع النبلاء ورجال الدين، بعد وفاة الملك، لاختيار خلف له من بينهم. وتأكد هذا المبدأ في مجمع طليطلة الرابع الذي انعقد في عام ٦٣٣م، وفي مجامع تالية، أهمها المجمع الثامن في عام ٦٥٣م. ونظراً لطبيعة التنظيم القبلي حاول بعض الملوك الخروج على هذا المبدأ وجعل نظام الحكم وراثياً، مما أدَّى إلى إثارة التنافس بين الطامعين في العرش، حتى أضحى تاريخ الملكية القوطية، في أواخر عهد الدولة، سلسلة من المؤامرات والاغتيالات والحروب الداخلية.

---

(١) Camb. Med. Hist: I. P. 484.

(٢) Bradley: P. 61.

(٣) *Bury: II.P. 287. Camb. Med. Hist.: II. PP. 163,164.*

ولم يلبث هذا الصراع الداخلي أن دخل مرحلته الأخيرة في عهد إخيكا، واستمر في عهد خلفائه، وأدّى إلى ضعف الدولة وسقوطها بيسر في أيدي المسلمين.

فقد خرج إخيكا على قرارات المجامع المتعددة حين أشرك معه ابنه غيطشة ـ ويتيزا ـ في الحكم تمهيداً لتعيينه خلفاً له، وأقدم، في الوقت نفسه، على سمل عينيٍّ الدوق تيودوفريدو، مرشح المعارضة، فانسحب هذا من الحياة السياسية مع ابنه رودريك[1].

توفي إخيكا في عام (٨٣هـ/ ٧٠٢م)، فخلفه ابنه غيطشة متجاهلاً مبدأ الانتخاب المتفق عليه، مما أثار حفيظة النبلاء ورجال الدين.

بدأ هذا الملك حياته السياسية بإصلاح أوضاع الدولة التي بلغت مرحلة خطيرة من الانهيار، فتقرَّب من المعارضة، وعيَّن تيودوفريدو حاكماً على مقاطعة بيتيكا، ومع ذلك لم يستطع أن يزيل الحقد من نفوس خصومه، كما ألَّب عليه النبلاء ورجال الدين عندما حاول أن يحدَّ من نفوذهم ويُقلِّص امتيازاتهم، ويُخفِّف الضغط الاقتصادي عن اليهود؛ مما دفعهم إلى إعلان الثورة على حكمه، وحاكوا المؤامرات للتخلص منه، فاضطر إلى محاربتهم، حتى تقدَّمت به السن وعجز عن متابعة أعماله العسكرية[2].

ومما زاد أوضاع البلاد تفاقماً تدخل زوجة غيطشة في سياسة الدولة، إذ أقنعت زوجها بتعيين ابنه الصبي أخيلا ـ وقلة ـ خلفاً له، مكرراً ظروف اعتلائه السلطة، كما عيَّنه حاكماً على مقاطعتي طرّكونة وناربونة في الشمال[3]، وبفعل صغر سنه، عيَّن عمَّه خشندس وصياً عليه.

وبهذا الشكل، تأزَّمت الأمور من جديد بعد وفاة غيطشة في عام (٩١هـ/ ٧١٠م)، ذلك أن ابنه وخليفته أخيلا امتنع عن الذهاب إلى طليطلة لاستلام الحكم، وظلَّ قابعاً في مقر حكمه في الشمال، فاضطرت والدته إلى ملء الفراغ فأدارت الشؤون

---

(١) يسميه المؤرخون المسلمون لذريق.

(٢) Lane - Poole: The Moors in Spain: PP. 7, 8.

Gibbon, E: The History of the Decline and Fall of the Roman Empire V.P. 473.

(٣) بروفنسال، ليفي: تاريخ إسبانيا الإسلامية ص ٤٦. يسمي ابن القوطية أولاد ويتيزا كما يأتي: ألمند، أرقلة وهو أخيلا ثم أرطباس. ص ٧٣. ولعل أرطباس هو أوپاس. لكن صاحب أخبار مجموعة يسمي إثنين فقط هما ششبرت وأبة. ص ٥.

العامة بمساعدة أخي زوجها المطران أوپاس، لكن النبلاء ورجال الدين رفضوا تقديم الولاء لهذه الأسرة الحاكمة، وأعلنوا عدم الخضوع للصبي أخيلا، كما خشوا من استبداد الوصي بالحكم؛ فامتنعوا عن طاعته، واستقلَّ بعضهم في الأطراف والنواحي، وسادت الفوضى وعمَّ الارتباك في البلاد.

واشتدت حركة التمرد في طليطلة، الأمر الذي دفع أفراد الأسرة الحاكمة إلى مغادرتها خوفاً من بطش المعارضة، وفرُّوا إلى مقاطعة جليقية في الشمال الغربي من البلاد، فخلت السلطة السياسية مجدداً. عندئذٍ اجتمع كبار النبلاء ورجال الدين واختاروا رودريك خليفة لغيطشة[1].

واجه رودريك، خلال حياته السياسية، عدة صعاب لم يتمكَّن من تجاوزها وأدَّت إلى نهاية الحكم القوطي، لعل أهمها:

- كان رودريك بحاجة إلى المال للإنفاق على الحملات العسكرية وإخضاع الثورات التي اندلعت ضد حكمه في جهات عديدة، وعندما حاول الاستيلاء على خزائن أسلافه الموجودة في كنيستي سان بيدرو وسان بابلو في طليطلة، واجه معارضة من جانب رجال الدين، عندئذٍ لجأ إلى فرض مزيد من الضرائب ومصادرة بعض ثروات الكنيسة[2].

- واجه الملك القوطي انقسامات سياسية حادة، وبخاصة في الشمال، نتج عنها فتن وحركات عصيان، فقضى معظم أيام حكمه القصيرة الأمد ينتقل من جبهة إلى جبهة أخرى لإخمادها، لذلك لم يشعر بالخطر القادم من الجنوب إلا بعد فوات الأوان. ومما زاد الأمور تعقيداً هروب العبيد من الخدمة العسكرية، ويدل هذا على ضعف القوط المتجذِّر وإلى الحد الذي وصل إليه تدهور قوتهم. والمعروف أن غالبية أفراد الجيش القوطي كانت، منذ أواخر القرن السابع الميلادي، تتألف من العبيد المجنَّدين، وذلك بفعل أن القوط ركنوا إلى حياة الدعة والترف، فهجروا مهنة الحرب التي فُطروا عليها، وفقدوا صفاتهم العسكرية، ولم يعودوا أولئك الغزاة الأشداء.

- تعرَّض رودريك لضغط عسكري من جانب خصمه أخيلا الذي عدَّه مغتصباً

(١) إبن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر القرطبي: تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧٣. مؤلف مجهول: أخبار مجموعة ص ٥. المقري: ج ١ ص ١٤٠.

(٢) أخبار مجموعة: ص ٧. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٣. الحميري: ص ٦، ٧.

للسلطة، فأعدَّ جيشاً كبيراً، بقيادة مستشاره ريكيسندو، ودفعه نحو الجنوب إلى طليطلة لخلعه واستعادة العرش، وعلى الرغم من انتصار رودريك فإن هذا النصر كان قصير الأمد، فضلاً عما تلاه من ازدياد الفوضى في البلاد[1].

ـ تابع رودريك سياسة أسلافه التقليدية في جمع المال، فأرهق البلاد والعباد بالضرائب الفادحة حتى عمَّ الفقر على الرغم من غنى البلاد بالموارد الاقتصادية.

ـ عمل رودريك على تدبير المؤامرات والدسائس ضد أبناء غيطشة وتشويه سمعة والدهم، كي ينفر الناس عنهم ولا يعطفوا عليهم، واستعان برجال الدين الذين عقدوا المجامع الدينية لهذه الغاية، وأصدروا القرارات التي تحرص على توجيه الاتهامات، من كل نوع، إلى الملك السابق، وإلصاق كل أعمال الظلم به، التي لحقت بسكان البلاد، من ذلك عطفه على اليهود الذين احتكروا الشؤون الاقتصادية بدون رعاية لمصالح الناس.

ـ انقسمت البلاد في عهد رودريك، وظهر حزبان كبيران متعارضان في توجهاتهما وأهدافهما، الأمر الذي وضع البلاد في جو مشحون قابل للانفجار في أي وقت.

ـ تعرَّض حكم رودريك لأخطار خارجية. ففي الشمال طمع الفرنجة بالتمدد باتجاه الأراضي الإسبانية، فراحوا يشنُّون الغارات عليها. وفي الجنوب أضحى المسلمون على مشارف شبه الجزيرة بعد أن فتحوا طنجة، وهادنهم يوليان حاكم سبتة.

ـ دفعت هذه الأوضاع المتردية، وتلك المضايقات التي تعرض لها أفراد الأسرة الحاكمة السابقة، إلى الالتفات نحو الخارج لطلب المساعدة لاسترداد حقهم المسلوب، وكان المسلمون آنذاك قد أتموا فتح المغرب ووصلوا إلى بحر الزقاق، ورنت أبصارهم إلى الجهة المقابلة في أرض إسبانيا، ومن ثَمَّ توافقت مصالح الطرفين، المصلحة الإسلامية بفتح الأندلس ومصلحة أبناء غيطشة للقضاء على حكم رودريك، فضلاً عن اتفاق مصلحة الطرفين معاً، مع رغبة سكان البلاد الأصليين واليهود للتخلص من دولة القوط نفسها التي أضحى حكمها أسوأ ما شهدته إسبانيا من عهود.

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٧.

الوضع الاجتماعي

يستطيع الباحث أن يدرك بيسر طبيعة المجتمع القوطي في إسبانيا قبل الفتح الإسلامي، وهو بالضرورة انعكاس واضح للنظام الروماني الموروث، ولسياسة الملوك القوط التي فشلت في تحقيق الوحدة الاجتماعية والانتمائية.

والواقع أن الحالة الاجتماعية في إسبانيا، عندما احتلها القوط، كانت في غاية السوء. فقد وُجدت في المجتمع الإسباني آنذاك مجموعة قليلة العدد من الأُسر النبيلة تملك الإقطاعات الكبيرة والضياع الواسعة التي يعمل في فلاحة أرضها آلاف المزارعين من الأرقاء والعبيد الذين شكّلوا الطبقة الدنيا ذات الجذور اللاتينية.

وازدادت الحالة الاجتماعية سوءاً تحت حكم القوط، بفعل استمرار حال الانقسام الطبقي في المجتمع الإسباني، وسيطرة طبقات المجتمع بعضها على بعض في ظل عدم المساواة في البنية الطبقية، وحظر التحول أو الانتقال إلى طبقة أعلى إلا في نطاق ضيق. والمعروف أن القوط حافظوا على التركيب الاجتماعي نفسه الذي وجدوه قائماً في إسبانيا أيام الرومان.

ووجدت في المجتمع الإسباني آنذاك عدة طبقات اجتماعية كان أهمها:

طبقة النبلاء: إنهم الأمراء القوط وعلى رأسهم الملك الذي مثَّل رأس النظام القوطي، بالإضافة إلى بقايا طبقة النبلاء الرومان الذين تحالفوا معهم للمحافظة على مكتسباتهم وامتيازاتهم. كان أفراد هذه الطبقة قليلي العدد، وشكَّلوا فئة أرستقراطية حاكمة ومتميزة، نعموا بامتلاك الإقطاعات الكبيرة والضياع الواسعة، وفُقِدَ الانسجام الحضاري بينهم وبين بقية السكان بفعل عدم اختلاطهم بهم. والواضح أن هذا الاختلال أوجد نوعاً من التنافر بين الطرفين، وفشلت هذه الطبقة في خلق مجتمع متجانس وطني الانتماء.

كانت البلاد، حتى منتصف القرن السابع الميلادي، تُحكم وتُدار من جانب إدارة مشتركة من هذه الطبقة. فالنبلاء القوط مسؤولون عن السكان القوط، والنبلاء الرومان يمارسون سلطانهم على السكان الرومان، في حين كان الملك القوطي وموظفوه الكبار يقررون السياسة العامة للدولة.

كان ملَّاك الأراضي الكبار يشرفون على إقطاعاتهم ومزارعهم بواسطة وكلاء ومديري أعمال في مقاطعاتهم. والواقع أن أفراد هذه الطبقة كانوا أغنياء جداً، بنوا

ثروتهم على حساب الطبقات الفقيرة المعدمة، وقد نجح بعضهم في الاحتفاظ بثروته حتى الفتح الإسلامي.

طبقة رجال الدين: استغل رجال الدين مركزهم الديني المتميز فاستمتعوا بقسط وافر من النفوذ والسلطان. فامتلكوا الأراضي الواسعة والضياع والقصور الحافلة بالعبيد، وأضحوا على درجة عالية من الثراء، فتناسوا المُثل العليا التي نادوا بها حين كانوا فقراء، وساعدهم على بلوغ تلك الدرجة تديُّن الإسبان بعامة وسيطرة الدين في العصور الوسطى على مجمل الحياة. وتمتَّع رجال الدين بمركز مرموق لدى الحكام مما جعل لهم تأثيراً مكَّنهم من توجيه القوانين والنظم بما يكفل لهم كسب مزيد من النفوذ والامتيازات، والقدرة على التدخل في الشؤون السياسية والعسكرية، وصياغة الحياة العقلية والاجتماعية وفقاً لتوجُّه الكنيسة وغاياتها، فكانوا يحضرون المجالس الوطنية التي كانت تنظر في الشؤون العامة للدولة، ويصادقون على انتخاب الملك، وادَّعت هذه الفئة لنفسها الحق في عزله إذا أبى الإذعان لقراراتها[١].

الطبقة الوسطى: تألفت هذه الطبقة من فئة التجار وصغار الملّاك والمزارعين الأحرار الذين ينتمون إلى أصول قوطية ورومانية. عاشوا في المناطق الريفية والحضرية، ومنهم العمال في المدن الذين ينتظمون ضمن النقابات، ولا يحق لهم التحول عنها أو الانتقال إلى مدينة أخرى، وحُرموا من دخول السلك الكهنوتي والقضائي[٢].

واضطر العديد من سكان الأرياف والمزارعين الأحرار، بفعل ظروفهم الاقتصادية الصعبة، أن يتنازلوا عن أراضيهم للنبلاء، وارتضوا بالعمل والبقاء كمستأجرين مقابل تمتعهم بحمايتهم، فعرفوا بالمحميين[٣]. والمعروف أن القوط، حين احتلوا إسبانيا، ألزموا كل مزارع أن يتنازل عن ثلث أراضيه لصالح القوطي الذي يريد احتراف هذه المهنة، وفي حال رفض القوطي أن يعمل بالزراعة، يقوم المزارع باستغلال الأرض، ويقدم ثلث إنتاجها للنبيل القوطي، واتسعت هذه القسمة في الأرض وإنتاجها حتى شملت المنازل والماشية ومختلف أنواع الزراعة. ومع مرور الزمن، اغتصب النبلاء الأرض كلها وعدوها ملكاً للدولة، وأجبروا المزارعين الأحرار على العمل فيها

(١) دوزي، رينهارت: المسلمون في الأندلس جـ ١ ص ٢٧، ٣٥، ٣٦.
(٢) المرجع نفسه: ص ٢٨.
(٣) Ballestros, Y. Beretta, Antonio: Historia de Espana y su influencia en la Historia I. P.40.

كأنهم أقنان أو عبيد، وأضحى هؤلاء، بمرور الزمن، مرتبطين بالأرض وبأصحاب الأملاك من النبلاء، مدى الحياة. وكان على أصحاب هذه الطبقة تقديم عُشْر محاصيلهم إيجاراً، إضافة إلى تأدية بعض الخدمات الشخصية للنبيل، وضريبة الرؤوس أو الجزية، وقد وقع عليهم عبء الإنفاق على الدولة، الأمر الذي أدى إلى ضعفهم وإفلاسهم فأصيبوا بالبؤس والشقاء.

طبقة الشعب الدنيا: تكوَّنت هذه الطبقة من المزارعين البسطاء والعبيد الأرقاء، وارتبطوا بالأرض وأُلحقوا بالضياع، وللسيد عليهم حق الحياة أو الموت. ومن البديهي أن نشير إلى أن هؤلاء جميعاً كانوا مسخَّرين لرفاهية الفئات الرفيعة من النبلاء والأسرة الحاكمة وكبار رجال الدين، وكانوا يُستخدمون في الأغراض الزراعية والأعمال المنزلية على حد سواء، فرزحوا تحت شقاء الحياة وبؤسها، وسُلبت منهم كل الحقوق المدنية، وهم أكثر عدداً من أفراد الطبقات الأخرى، وأقل حقوقاً[١].

الوضع الديني

انتشرت الديانة النصرانية في ربوع إسبانيا الرومانية على المذهب الكاثوليكي الذي كان يدين بطبيعتين للمسيح، واعتنقها الشعب بحماس بالغ، ثم دخلها القوط الآريوسيو المذهب الذي يقول بالطبيعة الواحدة، ولكنهم لم يفرضوا مذهبهم، فكان أفراد كل مذهب يمارسون شعائرهم الدينية في كنائسهم الخاصة بحرية، بمساعدة رجال الدين التابعين لهم.

وأدرك أحد ملوك القوط، وهو ريكاريد (٥٨٦ ـ ٦٠١م)، عندما حاول إصلاح أوضاع الدولة، وقد اعترضته هذه الظاهرة الدينية الانقسامية التي أدَّت إلى حدوث مشكلات بين السلطة والكنيسة؛ أن الإصلاح الحقيقي يبدأ بتوحيد المذهب الديني، وأن الأقلية القوطية يجب أن تتحول إلى الكثلكة مذهب الأكثرية.

وهكذا أعلن مجمع طليطلة الديني الذي انعقد في عام ٥٨٧م، تخلي ريكاريد عن المذهب الآريوسي واعتناقه المذهب الكاثوليكي الذي أضحى المذهب الرسمي للدولة، وتبعه في هذا التحول سائر القوط، فتوحَّدتِ الكنيسة الإسبانيةِ تحت ظل الملكية القوطية[٢]. أعقب هذا التحول المذهبي تبني اللغة اللاتينية كلغة رسمية في

---

(١) دوزي: جـ ١ ص ٢٩، ٣٠.

(٢) Thompson, E.A: The Goths in Spain PP. 311, 312. Isidoro of Seville: History of the Goths, Vandals and Suevi P. 5.

إسبانيا، وتوثَّقت نتيجة ذلك العلاقات مع البابوية التي أضحى تأثيرها كبيراً في شؤون البلاد، كما أصبح لأسقف طليطلة مركز هام لا يقل عن مركز الملك نفسه.

وتعدُّ هذه الخطوة عاملاً فعّالاً ساعد على امتزاج الشعبين القوطي والإيبيري الروماني، وعلى الرغم من ذلك، فقد حرص القوط على التفرُّد بالحكم بوصفهم شعباً متميزاً. ومن جهة أخرى استمر السكان في النظر إليهم على أنهم دخلاء على البلاد، وقد فرضوا سلطتهم عليهم بالقوة، ثم إن القضاء على الازدواجية المذهبية التي أثارت كثيراً من الجدل، لم يحقق الغاية المرجوة بشكل فوري لأنه أمدَّ رجال الدين بالقوة وحوَّلهم إلى مشاركين في ممارسة السلطة، يُملون وجهات نظرهم وقرارتهم على الأمراء الحاكمين، وأضحت اجتماعات المجامع الكنسية، التي كانت تُعقد بشكل دوري في طليطلة، تضارع المجامع الملكية.

بالإضافة إلى الديانة النصرانية، كان ما يزال في إسبانيا عدد من السكان الوثنيين، ولكنهم تعرَّضوا للاضطهاد لحملهم على اعتناق النصرانية. فقد فرض مجمع طليطلة الثالث في عام ٥٨٩م على كل أسقف أن يتعاون مع القاضي المحلي في مكافحة الوثنية في منطقته، وكان البشكنس من جملة الجماعات الوثنية التي تعيش في منطقة الشمال الشرقي المتاخمة لجبال البرينيه، وفشل رجال الدين في حملهم على اعتناق النصرانية طيلة العهد القوطي[١].

وعاشت في إسبانيا جماعة يهودية كبيرة شكَّلت أحد عناصر السكان في المجتمع القوطي، ويبدو أنهم استوطنوا إسبانيا في وقت مبكر قادمين من الشرق على أثر الاضطهادات المتعددة التي تعرضوا لها في فلسطين على أيدي الرومان، فانتشروا في البلدان الواقعة على سواحل البحر الأبيض المتوسط، ولقَّبوا أنفسهم بالسفرديم، وأرجعوا أصولهم إلى قبيلة يهوذا الملكية[٢].

انتشر اليهود في مناطق عديدة من إسبانيا، لكنهم تركَّزوا في الأماكن الحضرية المتقدمة مثل العاصمة طليطلة، وفي المناطق الجنوبية، وعلى طول ساحل البحر الأبيض المتوسط في الشرق. امتلكوا الضياع الواسعة، وعملوا في الزراعة والتجارة والصيرفة، فحقَّقوا قدراً وافراً من الثراء أتاح لهم التحكم في الحياة الاقتصادية، ومن خلالها بالشؤون السياسية. ويبدو من التشريعات العديدة التي صدرت بحقهم في

---

(١) Thompson: PP. 308, 310.

(٢) Katz, Solomon: The Jews in the Visigothic and Frankish Kingdom of Spain and Gaul PP. 3 - 5.

عهود مختلفة أن فعاليتهم التجارية كانت مهمة بقدر أهمية نشاطهم الزراعي[1].

لم يتعرض اليهود، في مستهل الحكم القوطي، للمضايقات، وسُمح لهم بحرية العقيدة وممارسة شعائرهم الدينية بحرية، ومع الامتداد الزمني للحكم القوطي، شعر القوط بوطأة اليهود من واقع تصرفاتهم التي عُدّت شاذة ومعادية، مثل: استغلال الغير، تعاطي الربا الفاحش، السيطرة على الحياة الاقتصادية، التآمر السياسي للمحافظة على المكتسبات المنجزة، الاستعلاء على النصارى، بالإضافة إلى اتجاه المجتمع الإسباني نحو الوحدة الدينية، نتيجة لذلك ظهر في إسبانيا اتجاه معادٍ لليهود. وبدأ هؤلاء يتعرضون لشتى أنواع المضايقات والاضطهاد، ولعل الملك ألاريك الثاني (٤٨٤ ـ ٥٠٧م) هو الذي افتتح هذه السياسة، وتقرَّر في مجمع طليطلة الثالث ٥٨٧م حرمان اليهود من الوظائف العامة، واقتناء العبيد من النصارى، كما فُرض التعميد على أطفالهم من الزواج المختلط[2].

وخطا الملك سيسبوت (٦١٢ ـ ٦٢١م) خطوة أخرى حين أمر، في عام ٦١٣م، بتعميد اليهود خلال عام واحد، أو نفيهم ومصادرة أملاكهم في حال الرفض[3]، فاعتنق كثير منهم الديانة النصرانية رياءً، وهرب الرافضون إلى غالة وشمالي إفريقيا.

لم تُحقِّق هذه التشريعات هدفها الخاص بتنصير اليهود، لكن مجمع طليطلة الرابع، الذي انعقد في عام ٦٣٣م، أصرَّ على أن اليهود الذين تمَّ تعميدهم لا يحق لهم أن يعودوا إلى دينهم الأصلي، على أن يُفصل من عاد منهم إلى دينه عن أبنائهم، وأن يُباعوا أرقاءً، كما أصرَّ على تعميد اليهودي الذي يتزوج من نصرانية وإلا فُصلت عنه زوجته[4].

وتصاعدت الحملة ضد اليهود في المجمع الثاني عشر، الذي انعقد في عام (٦١هـ/ ٦٨١م) في عهد الملك إيرفيغ (٦٠ ـ ٦٧هـ/ ٦٨٠ ـ ٦٨٧م)، فحرموا من امتلاك مزارع النصارى، ووصلت ذروة التضييق عليهم في عهد الملك إخيكا، الذي اتهمهم بالتآمر ضده مع يهود من خارج البلاد، فأصدر عدة قرارات تشريعية تهدف إلى شلِّ القدرة الاقتصادية لهم، والحد من قابليتهم في الحصول على المعيشة اللائقة، ما حملهم على بيع عبيدهم وممتلكاتهم إلى الدولة، كما مُنعوا من مزاولة العمل التجاري

(١) Thompson: P 316.

(٢) Ibid: PP. 101, 111. Katz: P. 11.

(٣) Camb. Med. History: II. PP. 181, 182. Gibbon: V. PP. 473, 474.

(٤) Thompson: PP. 236, 237, 246. Katz: P. 127.

على مختلف أنواعه، الداخلي والخارجي، وتعرَّضوا للأذى الجسدي، من السخرية بهم إلى ذبحهم فرادى وجماعات في عمليات مدبرة[١].

كان الأساس في تلك التشريعات المتتالية هو موقف النصرانية المتأصل من اليهودية منذ أيام الامبراطور الروماني أُغسطس قيصر، حيث كان حق اليهود في البقاء تنحصر غايته في أن يكون هؤلاء شهوداً على الحقيقة النصرانية، وذلك عن طريق إخضاعهم، وحيث أن اليهود بعامة رفضوا رسالة المسيح، فلم يكن لهم أن يتوقعوا من التسامح درجة أفضل من تلك، ولما كانت النصرانية لا تبيح دم اليهود فقد كانت تعدُّ إذلالهم فضيلة، وبذلك، اكتسب التشريع القمعي دعماً لاهوتياً[٢].

واستطاع اليهود، في كثير من الأوقات، تخفيف القيود المفروضة عليهم عن طريق رشوة النبلاء ورجال الدين، لكنهم مع ذلك تأثَّروا، إلى حد كبير، الأمر الذي دفع العديد منهم إلى الفرار من البلاد، كما اشترك بعضهم في العديد من الحركات المناوئة للسلطة[٣].

إن هذه النبذة، التي ذكرناها عن وضع اليهود في إسبانيا، تفسر لنا، إلى حدٍ بعيد، الموقف الإيجابي الذي سوف يتخذه هؤلاء فيما بعد من الفتح الإسلامي، معتقدين أن ذلك الفتح سيخلِّصهم من الوضع المتردي الذي كانوا يوجدون فيه.

والواضح أن عدم التكافل الاجتماعي الذي ساد في دولة القوط، والتضييق الذي تعرَّض له اليهود، والظروف السيئة التي عاش في ظلها أفراد الطبقة المتوسطة والدنيا بالإضافة إلى العبيد؛ أدَّت إلى تفكُّك المجتمع وانهياره، يضاف إلى ذلك أن ثورات العصيان والمؤامرات المستمرة، التي كان يقوم بها النبلاء من أجل الوصول إلى العرش أو الانسلاخ عن المملكة والحصول على الاستقلال؛ أنهكت البلاد وأوصلتها إلى حال يُرثى لها من التردِّي والضعف. ولقد حدث قبل الفتح الإسلامي بسنة واحدة أقوى وأقسى تنافس على الحكم في البلاد، ما زاد في حال التفكُّك والضعف، وسهَّل أمر القضاء على دولة القوط[٤].

---

(١) Thompson: PP. 236, 237, 246. Katz: P. 127.

(٢) شانيدلين، ريموند: اليهود في إسبانيا. مقال في كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، جـ ١ ص ٣٠٢.

(٣) Thompson: P. 246. Katz: P. 127.

(٤) السامرائي، خليل إبراهيم، وعبد الواحد ذنون طه، وناطق صالح مطلوب: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس ص ٢٠.

الفَصْل الثَاني

الفتح الإسلامي للأندلس

فتح المغرب الأقصى[1]

يُعدُّ فتح المسلمين للأندلس امتداداً طبيعياً لفتوح شمالي إفريقيا. والمعروف أن المسلمين وصلوا في فتوحهم إلى المغرب الأقصى المواجه لشبه جزيرة إيبيريا، وأن الوالي الذي فتح تلك الأنحاء هو الذي سيضطلع بمهمة فتح الأندلس، لذلك سنستعرض، بإيجاز، المرحلة الأخيرة من فتوح شمالي إفريقيا، وأعني بها فتح المغرب الأَقصى.

بلغ المدُّ التوسعي على جبهة شمالي إفريقيا ذروته في عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦هـ/ ٧٠٥ ـ ٧١٥م)، أحد أكثر الخلفاء الأمويين تشجيعاً لهذا التوجه، وكان لديه من الظروف المساعدة ما دفعه إلى إعطاء السياسة الخارجية اهتماماً خاصاً، كما أن استقرار الوضع الداخلي أوجد مناخاً ملائماً لتحقيق إنجازات عسكرية على عدة جبهات في وقت واحد، وكانت أعظم إنجازات تلك السياسة التوسعية هي استكمال فتح شمالي إفريقيا والفتح الكبير للأندلس.

كان حسان بن النعمان، والي إفريقيا السابق؛ قد طهَّر منطقة المغرب من النفوذ البيزنطي، وقضى على ثورة البربر الثانية[2]. والواقع أنه لم يكد هذا القائد ينتهي من المشكلات الخارجية ويتفرغ لتنظيم الشؤون الداخلية والإدارية لإمارته حتى تَمَّ

(١) يقابل ما يُعرف اليوم بالمملكة المغربية.

(٢) لقد فتح حسان بن النعمان مدينة قرطاجنة، أقوى القواعد العسكرية البيزنطية، ودمَّرها حتى يحول دون عودة البيزنطيين إليها، وبنى إلى الشرق منها مدينة إسلامية بدلاً منها هي تونس، ثم قضى على ثورة البربر بقيادة الكاهنة. انظر: ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله القرشي: فتوح مصر وأخبارها: ص ٣٣٨، ٣٤٠ ابن عذارى: جـ ١ ص ٢٥، ٢٦.

استبداله بقائد آخر هو موسى بن نصير[1]، وذلك في عام (٨٥هـ/ ٧٠٤م)، وإن كان تنفيذ المهمة قد تَمَّ في وقت متأخر من عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، أو في مطلع عهد الوليد بن عبد الملك.

غادر موسى بن نصير مصر متوجهاً إلى القيروان[2]، واصطحب معه أولاده الأربعة، عبد الله، وعبد الملك، وعبد العزيز، ومروان، الذين سيشكلون فريقاً مساعداً له. وكانت تتنازعه أفكار وتصورات كوَّنها عبر تعايشه مع فتوح إفريقيا متتبعاً باهتمام نشاط القائد السابق حسان بن النعمان، ورأى أن أسباب تعثر المسلمين إنما يعود إلى:

- ضعف البحرية الإسلامية، لذلك قرر العمل على سدِّ هذه الثغرة.

- تجاهل القادة السابقين في إعطاء القيروان حجمها المطلوب بحيث تصبح قاعدة حصينة في قلب إفريقيا تحمي نفسها من هجمات الأعداء، وينطلق المسلمون منها لاستكمال الفتوح.

- الافتقار إلى العدد الكافي من الجند للمحافظة على المكتسبات واستكمال الفتوح، الأمر الذي أتاح للبربر القيام بهجمات ضد القواعد الإسلامية.

- أدرك أن أفضل وسيلة لامتصاص عداء البربر هو استقطابهم والتعاون معهم ضمن الإطار العام الذي وضع أساسه حسان بن النعمان، وبالتالي فإن الحكم الإسلامي يجب أن يستوعب قبائل البربر ويتعايش معهم، سواء في السلم أم في الحرب، وقد بلغت هذه العلاقة ذروتها من النجاح في عهده.

- عدم استكمال فتح شمالي إفريقيا بشكل كامل، فلا زال المغرب الأقصى، بمواقعه المهمة، خارج دائرة السيادة الإسلامية، كما كان الأمر يتطلب بعض الإجراءات التأديبية ضد المتمردين من البربر[3].

لذلك كان عليه تحقيق إنجازين مهمين ليستقر الوضع تماماً للمسلمين في شمالي إفريقيا:

---

(١) يُكنى أبا عبد الرحمن، واختلف عما إذا كان بكرياً أو لخمياً. اصطحبه عبد العزيز بن مروان معه إلى مصر وعيَّنه مستشاراً له بفعل ولاء أسرته الشديد لبني أمية.

(٢) القيروان: أسسها عقبة بن نافع في عام (٥٠هـ/ ٦٧٠م) في منطقة صحراوية إلى الجنوب من قرطاجنة في تونس.

(٣) بيضون: ص ٥٨.

الأول: القضاء على ما تبقّى من جيوب في المغربين الأدنى[1] والأوسط[2] وبخاصة على أطرافهما، حيث تتحصَّن فيهما قبائل بربرية ما زالت تضمر العداء للدولة الإسلامية.

الثاني: استكمال فتوح شمالي إفريقيا بفتح المغرب الأقصى.

والواقع أن مهمة موسى بن نصير لم تكن بالغة الصعوبة، فقد اهتم أولاً بتدعيم مركز القيروان العسكري ثم راح يُثبِّت دعائم النصر الذي حقَّقه سلفه في المغربين الأدنى والأوسط، والتفت إلى فتح قلعة زغوان، وتقع في منطقة جبلية بين القيروان وتونس كما غزا صنهاجة وسجومة في شمالي المغرب الأقصى، وفتح هذه الأخيرة، وأرسل أولاده بكل اتجاه لتثبيت أقدام المسلمين في المناطق المفتوحة[3].

والحقيقة أن فتح سجومة كان إنجازاً على جانب كبير من الأهمية. فهذه البلدة كانت في الغالب قاعدة لقسم كبير من قبيلة أَوْربة، قبيلة كسيلة، ومفتاح الطريق إلى سبتة وطنجة.

واستكمل موسى بن نصير، بعد ذلك، إخضاع المناطق الواقعة جنوبي جبال الأطلس، فسيطر على المغرب الأوسط سيطرة تامة، وأرسل ابنه مروان لمطاردة المتمردين من البربر حتى إقليم السوس الأقصى، وحقَّقت هذه الحملة نجاحاً ملفتاً.

وقاد موسى بن نصير بنفسه حملة هاجمت طنجة، ذات الموقع المهم على المضيق الفاصل بين القارتين الأوروبية والإفريقية، واستولت عليه، وذلك في (٨٩هـ/ ٧٠٨م)، وحوَّلها القائد المسلم إلى مركز عسكري لتموين الحملات المتوجهة إلى المناطق المجاورة، وبرز في هذه الحملة القائد طارق بن زياد.

وانتهت إلى هذا الحد أعمال موسى بن نصير التوسعية في المغرب الأقصى، بعد أن خضعت له جميع أقاليمه باستثناء مدينة سبتة التي فشل في فتحها، وكانت تحت حكم يوليان، الوالي البيزنطي، وسيكون لهذه المدينة وحاكمها دور مثير في تشجيع المسلمين على القيام بمغامرة عسكرية جريئة لفتح إسبانيا.

وحدَّد النصر الإسلامي مستقبل البربر الذين تحولوا إلى الإسلام، وانخرطوا في الجيوش الإسلامية، وقُدِّر لبعضهم أن يصبح أكثر حماسة للإسلام من العرب

---

(١) المغرب الأدنى هو إقليم إفريقيا ويقابل تقريباً تونس الحالية.

(٢) المغرب الأوسط يقابل ما يعرف اليوم بالجزائر. (٣) ابن عبد الحكم: ص ٣٤٢ـ ٣٤٤.

أنفسهم، ويُعِدُّ هذا التحول الذي طرأ على وضعهم بمثابة الخطوة الأولىَ في المسيرة الطويلة نحو الأندلس، لأن موسى بن نصير استغل هذه النزعة عند البربر ووجَّههم إلى الفتوح، ولم يكن أمامه في هذه الحالة سوى عبور المضيق لتحقيق هذا الهدف.

دوافع فتح الأندلس

يتصل فتح الأندلس، في كثير من جوانبه، بسياسة الفتوح في المغرب، وأن الأسباب التي دفعت المسلمين إلى عبور المضيق لها علاقة بالأوضاع التي عاش في ظلها السكان قبل الفتح، وهي دينية وجغرافية وسياسية وشخصية.

فمن حيث الوضع الديني، فقد وصل المسلمون آنذك إلى أوج قوتهم بعد أن سيطروا على شمالي إفريقيا، فكان من الطبيعي أن يكونوا قد فكَّروا بعد وصولهم إلى بحر الزقاق أن يجتازوه وينساحوا في تلك البلاد لنشر الإسلام فيها. والمعروف أن موسى بن نصير قد وضع الخطط لنشر الإسلام في أوسع بقعة ممكنة، والراجح أنه تطلَّع إلى الأندلس بعد تثبيت أقدام المسلمين في المغرب الأقصى، فراح يتابع أخبارها ويستقصي أوضاع أهلها. وأضحت مدينة طنجة مركز عمليات المسلمين في تلك المرحلة الاستطلاعية بسبب قربها منها، وبفعل موقعها على بحر الزقاق المؤدي إلى تلك البلاد.

وأثبت طارق بن زياد حسن ولائه للإسلام من واقع تعبئة شعور مواطنيه من البربر المسلمين للقيام بالعمل الجهادي المقبل، وهو فتح الأندلس، وإرسال ما يصل إليه من أخبارها إلى القيادة العليا في القيروان.

ومن حيث الوضع الجغرافي، فإن المسلمين، بعد استقرارهم في شمالي إفريقيا، تطلعوا نحو الأندلس لأنها تُعدُّ امتداداً جغرافياً لهذه البلاد، وقد ذكرنا رأي الجغرافيين في ذلك.

ومن حيث الوضع السياسي، فقد علم موسى بن نصير، عن طريق واليه على طنجة طارق بن زياد، بأوضاع الأندلس السياسية المتردية بفعل الصراع على السلطة بين رودريك وأولاد غيطشة، بالإضافة إلى تطلُّع السكان إلى المسلمين في شمالي إفريقيا لإنقاذهم من متاعبهم، وبخاصة اليهود الذين كانوا يتعرضون للاضطهاد.

وكتب أولاد غيطشة إلى يوليان يلتمسون مساعدته للإطاحة بنظام رودريك بعد أن سلبهم ملكهم، وربما أوحَوْا إليه بفكرة الاستعانة بالمسلمين بعد أن علموا بأن هؤلاء

قد أشرفوا على البحر عند طنجة، وربما اشتركوا في الوفد الذي ذهب إلى إفريقيا لمقابلة موسى بن نصير وطلب المساعدة منه، معتقدين بأن المسلمين سيكتفون بالغنائم ويعودون إلى شمالي إفريقيا، ويستعيدون، هم، الحكم وأملاك والدهم الخاصة التي تقدر بثلاثة آلاف ضيعة سميت بعد ذلك بـ «صفايا الملوك»[1].

ومن حيث الوضع الشخصي فتجري الرواية التي توردها كل المصادر العربية القديمة[2] وهي اعتداء رودريك على شرف ابنة يوليان. والمعروف أنه كان من عادة أشراف القوط ونبلائهم أن يرسلوا بنيهم وبناتهم إلى القصر الملكي في طليطلة ليكونوا في خدمة ملوكها، وليتأدَّبوا بآداب الملوك، فيقضون مدة من الزمن حتى يبلغوا سنَّ الزواج، حتى إذا ما قُرِّر عقد قران بعضهم على البعض الآخر، تولى الملك تجهيزهم، وكان الرجال يندبون أحياناً في مهمات سياسية وعسكرية، أما البنات فكن يلازمن القصر.

وكان يوليان قد أرسل ابنته لاكافا، أو فلورندا، إلى قصر طليطلة، جرياً على العادة، لتتربى في البلاط الملكي تربية الأميرات، فأُعجب بها رودريك، فلما تمنَّعت عن الزواج به اغتصبها، فاشتكت لأَبيها. لذلك أخذ يسعى للاستعانة بالمسلمين وإدخالهم إلى الأندلس للقضاء على حكم رودريك.

إن كثيراً من المصادر الأجنبية والإسبانية الحديثة لا تميل إلى الأخذ بهذه الرواية، وفنَّدها الأدب النصراني المتأخر، وتستبعد أن يكون مثل هذا السبب عاملاً دفع يوليان إلى خيانة بلده، ثم إنه إذا كانت تربطه صداقة بأسرة غيطشة وينقم على رودريك بوصفه مغتصب السلطة، فكيف يعقل أن يُرسل ابنته إلى بلاط عدوه؟[3] ويبدو أن إنكار الرواية الإسبانية لهذه القصة مردُّه إلى عدم لصق تهمة الخيانة بنفر من زعماء إسبانيا الأوائل.

وتجري روايات أخرى أن يوليان لم يكن يتوقَّع، حين طلب المساعدة من المسلمين، أن يستقر هؤلاء في الأندلس، ويبدو أنه خطَّط فقط من واقع الاستعانة بهم إلى خلع رودريك وإعادة أولاد غيطشة إلى الحكم.

---

(١) ابن القوطية: ص ٧٤. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٦.

(٢) مؤلف مجهول: ص ٥. ابن القوطية: ص ٧٦. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٧.

(٣) Saavedra, E.. Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana: PP. 59, 61.

نستنتج من هذه القصة أن يوليان كانت تتنازعه دوافع شخصية حين قرَّر الاستعانة بالمسلمين، وسواء كانت تلك الدوافع معنوية أخلاقية أو سياسية نابعة من عدم اتفاقه مع رودريك وانحيازه لأبناء غيطشة الذين كانوا يفكرون في كل وسيلة للانتقام، فإن النتيجة واحدة.

الحملات الاستطلاعية

أدَّى يوليان دور الوسيط بين المسلمين وآل غيطشة، فاتصل بطارق بن زياد في طنجة وعرض عليه غزو الأندلس، وبيَّن له حسنها وفضلها وما تحويه من الخيرات، وهوَّن عليه حال رجالها ووصفهم بالضعف[١].

بادر طارق بالاتصال بموسى بن نصير في القيروان، وأبلغه بما عرضه عليه يوليان لاتخاذ القرار بشأن ذلك. والواقع أنه لم يكن لدى موسى بن نصير ما يدعوه إلى رفض هذه الفكرة في الوقت الذي لم يكن وارداً امتداد حركة التوسع نحو الجنوب والانتشار في مجاهل الصحراء في حركة مكلفة من دون طائل، واتجهت أنظاره إلى الأندلس، وكأنما استهوته الأراضي الخصبة وثراء المدن[٢] بالإضافة إلى أن هذا الأمر قد يتطور إلى واقع فتح إسلامي شامل لهذه البلاد يُدخلها في دائرة الدولة الإسلامية، إلا أن عملاً ضخماً، من هذا النوع، لا بد من دراسته بصورة متأنية والوقوف على كافة تفاصيله. وفعلاً جرت اتصالات بينه وبين يوليان، وعُقد اجتماع بينهما وقف خلاله موسى بن نصير على أوضاع إسبانيا والخدمات التي يمكن أن يقدمها يوليان، كما كان لا بد من أن ينال هذا العمل موافقة الخليفة في دمشق، لذلك كتب إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يبلغه بما عرضه يوليان ويستأذنه في العبور. تردَّد الوليد بن عبد الملك، في بادىء الأمر، خشية على المسلمين من أن يُغرَّر بهم، وأمر موسى بن نصير بأن يتروَّى في الأمر، وأن يختبر البلاد بالسرايا[٣].

والحقيقة أن فتح الأندلس كان نتيجة خطة موضوعة نوقشت بين الخليفة وواليه، وأقرها الأول ضمن سياسة التوسع بعد فتح طنجة المشرفة على الأندلس. ويبدو أنه كان لسياسة الدولة الإسلامية العامة وعلاقتها بالبيزنطيين، وتأثير الحملة على هذه

---

(١) ابن القوطية: ص ٧٦، ٧٧.
(٢) بروفنسال: ص ٤٧.
(٣) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٦.

العلاقات، وبخاصة في المجال البحري والسيطرة على الجزر في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط؛ تأثير على قرار الخليفة[1].

وبعد نضوج الظروف التي هيأت للمسلمين انتصاراً آخر، وتنفيذاً لأوامر الخليفة، اختار موسى بن نصير أحد القادة المسلمين، وهو طريف بن مالك المعافري، المكنَّى أبو زرعة، وسيَّره على رأس أربعمائة راجل ومائة فارس، في أربع سفن أعدَّها يوليان، للإغارة على الشواطىء الأندلسية المقابلة، وذلك في (شهر رمضان ٩١هـ/ شهر تموز ٧١٠م)[2].

نزل المسلمون في جزيرة صغيرة اسمها پالوماس[3]. والراجح أنه اجتمع فيها بجماعة من مؤيدي الملك السابق غيطشة ومعهم أحد أحبار اليهود ويدعى يعقوب، كان يتخفَّى بزي الخدّام ويعمل في قصور آل غيطشة، حيث تقرَّر أن تقوم قوة قوطية معارضة للملك رودريك بمساعدة المسلمين وحراسة المضيق.

وشنَّ طريف، من مركزه بتلك الجزيرة، عدة حملات استطلاعية ناجحة على سواحل الأندلس الجنوبية وبخاصة الجزيرة الخضراء، درس خلالها تحصيناتها وتحرَّى أوضاع سكانها ومدى علاقتهم بالحكام القوط، ثم عاد إلى طنجة محملاً بالغنائم[4].

تكمن أهمية هذه الحملة بأنها:

- أول خطوة جديَّة على طريق العبور إلى الأندلس، وفق الخطة التي وضعها موسى بن نصير بدقة وبراعة.
- أكَّدت صدق يوليان حين عرض المساعدة على المسلمين.
- كشفت عن ضعف المقاومة في الأندلس.
- أقنعت موسى بن نصير بسهولة العبور والنزول على الشاطىء دونما أخطار بحرية جدية.

ونتيجة لذلك قرَّر البدء بتنفيذ عملية الغزو.

---

(١) بيضون، إبراهيم: ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري ص ٢٩٦، ٢٩٧.

(٢) مؤلف مجهول: ص ٦.

(٣) سميت الجزيرة باسمه منذ أن نزل طريف فيها، ولا تزال حتى اليوم تحمل اسمه.

(٤) أخبار مجموعة: ص ٦. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٥.

عمليات الفتوح

فتوح طارق بن زياد

الانتصارات الأولى

شجَّع نجاحُ طريف موسى بن نصير على المضي في خطته بفتح الأندلس بتكتم شديد حتى لا يتسرب خبرها إلى القوط. وبعد انتهاء الاستعدادات وإتمام التجهيزات، أعدَّ قوة عسكرية مؤلفة من سبعة آلاف مقاتل معظمهم من البربر(١)، واختار لها أحسن قادة المسلمين آنذاك، وأشدهم ثقة به هو طارق بن زياد. والواقع أنَّ حملةً معظم أفرادها من البربر تُعدُّ سابقة تحدث لأول مرة في الفتوح الإسلامية، وهو اختيار مقصود من أمير القيروان بفعل أن سياسته المرنة مع البربر قد أثمرت ودفعت هؤلاء إلى مشاركة العرب في الجهاد. وكان لهذه السياسة ردُّ فعل إيجابي على الطرفين. فقد رأى موسى بن نصير أن يستفيد من طاقات البربر العسكرية ويكسب مودتهم، ولم يكن البربر أقلَّ تجاوباً(٢). يضاف إلى ذلك، فقد كان طارق بن زياد على معرفة وثيقة بأوضاع الأندلس بفعل مجاورة البربر للإسبان وتعاملهم التجاري معهم، كما تولى بنفسه جمع المعلومات عنها، وأجرى المفاوضات الأولية مع يوليان. وبشكل عام، أضحى هذا القائد خبيراً بالميدان الجديد من سائر نواحيه السياسية والعسكرية، ويُعَد اختياره خطوة صائبة، إذ أثبتت مدى ما يتمتع به موسى بن نصير من تفكير مستنير، وخبرة في الشؤون العسكرية.

والواقع أن موسى بن نصير سلك نهج أقرانه من القادة العسكريين الذين فتحوا الشام والعراق، وهو إرسال حملة قليلة العدد ثم تُعزَّز بإمدادات لا تتوقف حتى يتم تحقيق الأهداف، كما أن ذلك كان مقصوداً لعدم إثارة ريبة يوليان. غير أن هذا القائد لم يشأ أن تكون للحملة سمة بربرية مطلقة، فأنشأ مجلساً استشارياً لمساعدة طارق بن زياد في إدارة العمليات العسكرية، معظم أعضائه من العرب، واشترك القائد البربري مونوسة في الحملة(٣).

عبر طارقُ بن زياد المضيقَ يوم الإثنين في (٥ رجب ٩٢هـ/ ٢٨ نيسان ٧١١م)، على متن أربع سفن تجارية قدَّمها يوليان(٤). والواقع أن طابع الحملة السري دفع

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٦. لا يتعدى عدد أفراد المقاتلين العرب الثلاثمائة.

(٢) بيضون: الدولة العربية في إسبانيا ص ٧٠، ٧١. (٣) مؤنس، حسين: فجر الأندلس ص ١٣٠.

(٤) أخبار مجموعة: ص ٦، ٧. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٦.

موسى بن نصير إلى الاعتماد على سفن يوليان التجارية، ونزل طارق مع جنوده أمام جبل كالبي المنيع الذي حمل اسمه منذ ذلك الحين وصار يُعرف بجبل طارق، واتخذه مركزاً لتجمُّع قواته وقاعدة للانطلاق إلى الداخل الأندلسي. وحتى يؤمِّن على جنوده ضد أي هجوم مفاجىء من جانب الإسبان، سوَّر تلك القاعدة وحصَّنها.

والواقع أن خدمات يوليان لم تقتصر على تسهيل العبور إلى الأندلس، بل أدَّى هذا الرجل دوراً بارزاً في عملية الفتح، إذ كانت معلوماته القيِّمة عن أوضاع مملكة القوط والاتفاقيات التي عقدها مع المعارضة الإسبانية واليهود، الساخطين على حكم رودريك؛ كان لها أثرها الإيجابي في نجاح المسلمين. والراجح أن اندلاع ثورة البشكنس في الشمال، في الوقت الذي عبر فيه المسلمون بحر الزقاق، لم يكن صدفة، بل كان بالتنسيق مع المعارضة لإلهاء رودريك في مناطق بعيدة عن الخطر الإسلامي.

لم يكد طارق بن زياد يستقر مع جنوده في قاعدته عند الجبل، حتى بادر باستكشاف المنطقة تمهيداً للسيطرة على المناطق المجاورة المحيطة ببحر الزقاق، بهدف تأمين مؤخرة جيشه والمحافظة على خطوط مواصلاته مع قواعده في شمالي إفريقيا، وهو ما يفعله العسكريون عادة.

وتدحض تلك الحقيقة الرواية التي ردَّدتها بعض المصادر والمراجع والمتعلقة بإحراق طارق بن زياد السفن التي عبر عليها بحر الزقاق، حتى يقطع على جنوده كل أمل بالعودة إلى المغرب، ويحفزهم على الاستبسال في القتال[١].

أرسل طارق بن زياد قوة عسكرية، بقيادة عبد الملك بن أبي عامر، سارت بمحاذاة الساحل الشمالي الغربي، وفتحت مدينة قرطاجنة، ثم توجهت جنوباً وفتحت مدينة الجزيرة الخضراء الواقعة قبالة جبل طارق[٢].

فوجئ رودريك، الذي كان في مدينة بنبلونة في الشمال، بنزول المسلمين في بلاده، بَيْدَ أنه لم يتهيَّب الموقف للوهلة الأولى، لاعتقاده بأن المسألة لا تعدو أن تكون غزوة من غزوات النهب، لن تلبث أن تتلاشى، ولكنه مع ذلك قوَّم الموقف حين وصلت إلى مسامعه معلومات عن تقدم هؤلاء باتجاه قرطبة، فأسرع إلى طليطلة لحشد طاقات المملكة، وأرسل قوة عسكرية على وجه السرعة بقيادة ابن أخته بنشيو، للتصدي لهم، فاشتبك معهم في قتال خفيف انتهى بمقتله وانتصار المسلمين،

---

(١) الحميري: ص ٢.

(٢) أخبار مجموعة: ص ٧. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٩.

وجرت المعركة بالقرب من الجزيرة الخضراء، وفرَّ من نجا من جنوده باتجاه الشمال ليخبروا رودريك بما جرى، وبفداحة الخطر القادم من الجنوب(١).

معركة وادي لكة: طلب رودريك من جميع الأشراف والنبلاء والإقطاعيين أن يحشدوا المقاتلين، وأخذت الإمدادات ترد عليه من كل المناطق، حتى اجتمع لديه في وقت قصير ما بين أربعين إلى مائة ألف مقاتل(٢)، ويبدو أن هذه الأرقام مبالغ فيها، لأنه ليس من السهل على دولة القوط المنهَكة، والتي مزَّقتها الحروب الأهلية؛ توفير مثل هذا العدد الضخم، كما طلب المساعدة من أولاد غيطشة نظراً لعمومية المحنة، ولكن هؤلاء ظلوا على ولائهم، سراً، للخطة التي وضعوها مع يوليان من أجل الإطاحة به، ومع ذلك فقد استجاب له إثنان منهم هما ششبرت وأبَّة، لكن ظاهرياً فقط، وهما ينويان الغدر به، فرحَّب بهما، وعيَّن الأول على ميمنته والثاني على ميسرته(٣).

كانت وجهة رودريك مدينة قرطبة للمحافظة عليها نظراً لأهمية موقعها الوسطي بين العاصمة طليطلة والجزيرة الخضراء، وهي مفتاح الطريق الذي يسيطر على الأندلس الجنوبية الشرقية، فوصل إلى ضواحيها ثم تابع زحفه باتجاه الجنوب.

وأخذت أخبار رودريك تصل إلى مسامع طارق بن زياد، فتهيَّب الموقف، وأدرك أنه لا طاقة له على مواجهته بهذا العدد الضئيل نسبياً الذي معه، فأرسل إلى موسى بن نصير يشرح له الموقف ويطلب منه الإمدادات. لم يتردَّد موسى، لدى استلامه كتاب طارق، وأمدَّه بخمسة آلاف مقاتل بقيادة طريف بن مالك(٤)، ويدل ذلك على أن خطوط مواصلاته مع القيروان وبلاد المغرب كانت سهلة وآمنة، وأن هذا القائد لا يعيش في عزلة.

استأنف طارق بن زياد زحفه باتجاه الشمال، على أثر وصول الإمدادات، عبر أرض سهلية تتخللها المستنقعات، واستقر به المقام أخيراً حول بحيرة لاخندا من كورة شذونة، والتي يخترقها نهر برباط الصغير وعسكر على ضفته اليسرى، ثم وصل رودريك وعسكر على الضفة اليمنى للنهر. والجدير بالذكر أنه قامت في ذلك

---

(١) ابن عذارى: ج ٢ ص ٨. Saavedra: P 65.

(٢) أخبار مجموعة: ص ٨. ابن عبد الحكم: ص ٣٤٧. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: العبر وديوان المبتدأ والخبر.. المعروف بتاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ١١٧.

(٣) أخبار مجموعة: ص ٨.

(٤) المصدر نفسه: ص ٧.

المكان قرية صغيرة سماها المسلمون لكة أو بكة، ومنها جاء اسم المعركة[١].

بدأ الاشتباك بين الطرفين يوم الأحد (٢٨ رمضان ٩٢هـ/ ١٩ تموز ٧١١م) واستمر سبعة أيام، وانتهى في (٥ شوّال/ ٢٦ تموز)، تكبَّد رودريك خلاله كثيراً من القتلى والجرحى. وحدث في اليوم الرابع من القتال أن انسحب ابنا غيطشة ششبرت وأبّة مع فرسانهما من الجناحين وانضما إلى صفوف المسلمين، وفق الخطة الموضوعة، مما أدَّى إلى تضعضع صفوف الجيش القوطي، وبدأ أفراده بالترنح والهرب طلباً للنجاة. والمعروف أن هذا الجيش ضمَّ كثيراً من العبيد الساخطين على حكم القوط ويتمنون زواله، فوجدوا في تلك المعركة فرصتهم للخلاص، لذلك تراخى هؤلاء في القتال قبل أن يفرُّوا بعد انسحاب الفرسان من الجناحين، وأضحى رودريك لا يملك القوة الكافية للاستمرار في القتال، ومع ذلك فقد صمد حتى اليوم الثامن، وعندما تحقَّق من هزيمته، هرب من ميدان المعركة من دون أن يُعرف مصيره بالضبط، وقد وُجد فرسه بالقرب من إحدى المستنقعات، كما وُجد أحد خفيه وهو طافٍ فوق الطين الأسود، مما يدل على أنه وقع عن حصانه لدى وصوله إلى المستنقع وغاص فيه من دون أن يتمكَّن من الخروج منه فغرق[٢]، وفرَّ من نجا من جنوده إلى الداخل نحو المعاقل والحصون.

ويذكر عدد من المؤرخين المحدثين أن رودريك لم يُقتل في تلك المعركة، بل انسحب نحو الشمال، إلى ماردة، ثم إلى سلسلة جبال سلمنقة ليعيد تنظيم صفوف قواته، وأنه قُتل في المعركة الثانية مع المسلمين، التي واجه فيها جيشه موسى بن نصير وطارق بن زياد، في السواقي، على يد مروان بن موسى بن نصير[٣]. ونحن إذ نتبنَّى رأي المؤرخين المسلمين لعدم ورود ذكر لرودريك بعد معركة وادي لكة في أي مصدر إسلامي، بالإضافة إلى ذلك، فقد ظهرت في إسبانيا الملاحم التي ظل الناس يتناقلونها على مدى أجيال، وفحواها أن رودريك سيعود لتخليص البلاد من أيدي المسلمين[٤].

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٧. ابن القوطية: ص ٧٦. ابن الشباط: ص ١٠٦. الحميري: ص ١٠٠، ١٠١.

(٢) المصادر نفسها: ص ٧، ٩. ص ٧٦. ص ١٠٧، ص ١٦٩، ابن عذارى: جـ ٢ ص ٧، ٩.

(٣) بروفنسال: ص ٥٢، ٥٤. Saavedra: PP. 99 - 101. Danham, S.A: The History of Spain and Portugal I. p. 331.

وانظر الدراسة القيمة لحسين مؤنس في كتابه فجر الأندلس ص ٦٦-٨٣.

(٤) الصوفي، خالد: الفتح وعصر الولاة: ص ١١٠.

السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٧٤

نتائج معركة وادي لكة

ـ تُعد معركة وادي لكة، إحدى المعارك الفاصلة في تاريخ فتح الأندلس، وأقصى ما بذله القوط من جهد لوقف الزحف الإسلامي، وأبلى رودريك بلاءً حسناً، وحارب بشجاعة، لكن الخيانة أدَّت دوراً مهماً في إضعاف قواته التي لم تعرف الانسجام أصلاً.

ـ دمَّرت هذه المعركة القوة الميدانية للجيش القوطي مما أفقده القدرة على الدفاع عن المدن الكبرى، وأضحت المقاومة بعدها قصيرة الأمد، مما هيأ للمسلمين أن ينسابوا إلى جوف الأندلس ويفتحوا المدن ويستقروا فيها.

ـ تُعدُّ معركة وادي لكة أشد ما وقع في التاريخ القوطي من كوارث، بل إنها أكبر كارثة حلَّت بدولة القوط التي عمرت ثلاثمائة سنة، وجاءت دليلاً على نهاية دورها التاريخي.

ـ أثبتت المعركة مدى تعثُّر حكام القوط وارتباكهم وعجزهم عن اتخاذ قرار تجاه النتائج التي أسفرت عنها، وبخاصة بعد أن تشتَّتت قواتهم التي نجت ولجأت إلى القلاع والحصون والأماكن المرتفعة للاحتماء بها، حتى بات من المستحيل القيام بمحاولة جديدة على مستوى التصدي الذي قام به رودريك.

ـ كانت معركة وادي لكة نقطة تحول هامة في تاريخ الأندلس بخاصة والتاريخ الإسلامي بعامة، لأنها يسَّرت القضاء على سيطرة القوط على البلاد، وكانت بمثابة الباب الواسع الذي دخل منه المسلمون إلى الأندلس ورسَّخوا أقدامهم فيها طيلة تلك القرون التالية، وأتاحت لهم تهديد دولة الفرنجة في أوروبا.

ـ لم يكن المجتمع القوطي آنذاك في وضع سليم يسمح له بتجاوز تلك الكارثة، حيث امتدت آثار المعركة إلى السكان، فأحدثت بينهم هلعاً بالغاً دفعهم إلى مغادرة المدن إلى السهول، واللجوء إلى المرتفعات للتحصُّن بها، فاضطربت شؤون البلاد، واستسلم من بقي للفاتحين.

ـ على أن ثمة حقيقة أخرى أكسبت معركة وادي لكة أهميتها الخطيرة في التاريخ، هي أن الجماعات المناوئة للنظام لم تقدِّر خطورة تلك الكارثة للوهلة الأولى، وأن انتصار المسلمين يعني امتلاكهم الأراضي والاستقرار فيها، وليس كما توهموا من أنهم سوف يعيدونهم إلى الحكم ويعودون من حديث أتوا.

ـ تكبَّد المسلمون ثلاثة آلاف قتيل، أما قتلى القوط فكانوا أضعاف ذلك لأن عدد

الذين نجوا من المعركة وفرُّوا، بعد ذلك، كان قليلاً. وحاز المسلمون على جميع ما كان في معسكر القوط من العدة والمتاع والمؤن والأموال، وقُسِّم الفيء بين الآلاف التسعة الذين نجوا فأصاب كلاً منهم مائتان وخمسون ديناراً[(١)].

- كتب طارق بن زياد إلى موسى بن نصير بالقيروان يبشِّره بالنصر، ويخبره بأن الطريق بات مفتوحاً أمامه للولوج إلى قلب البلاد.

- تناهى إلى أسماع المسلمين في المغرب بانتصار طارق بن زياد، فتطوعوا من كل جهة للحاق به والمساهمة معه في فتح الأندلس.

- أرسل موسى بن نصير تقريراً مفصلاً إلى الخليفة الوليد في دمشق يصف فيه الانتصار الرائع، الذي أكسب الإسلام أرضاً جديدة، وقال: «لم يكن هذا فتحاً كغيره من الفتوح يا أمير المؤمنين، فإن الواقعة كانت أشبه باجتماع الحشر يوم القيامة».

فتح أستجَّة

ازدادت قوة المسلمين بعد معركة وادي لكة وارتفعت معنوياتهم بعد ذلك الانتصار الكبير. ومن جهة أخرى أصاب القوط الارتباك والذعر، الأمر الذي أتاح لطارق بن زياد أن يستغلَّ هذا الوضع كي لا يتيح للجيش القوطي فرصة لإعادة التنظيم والتجمع، ويدعم سيطرته على جنوبي الأندلس، فبدأ ما يمكن أن نطلق عليه «حرب المدن».

لقد فتح مدينة شذونة بعد انتهاء المعركة، ثم توجَّه نحو مدينة أستجَّة الواقعة على الطريق المؤدي إلى قرطبة، حيث احتشدت فيها فلول القوط الهاربة في محاولة لمنع المسلمين من دخولها، وفتح في طريقه مدينة موررور في منطقة إشبيلية، ولما وصل إليها ضرب الحصار عليها. ونظراً لمناعتها اضطر إلى طلب المساعدة من يوليان الذي كان آنذاك في الجزيرة الخضراء، فجاء سريعاً واشترك معه في الحصار. وجرت مناوشات شديدة بين المسلمين وحامية المدينة، وبعد مرور عدة أشهر من الحصار أدرك حاكم المدينة صعوبة الاستمرار في المقاومة فاستسلم، ودخل المسلمون المدينة وفرضوا الجزية على سكانها[(٢)]، وهربت فلول القوط إلى مدن أخرى. وانضم إلى طارق بن زياد في أستجَّة، جمع غفير من الساخطين على النظام القوطي، ممن فضَّلوا التحالف مع المنتصر على ذل العبودية. وقدَّم له اليهود العون العسكري كأدلَّاء أرشدوه إلى أيسر الطرق والمسالك عبر أراضي الأندلس الشاسعة، بالإضافة

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٨.

(٢) أخبار مجموعة: ص ٩. ابن القوطية: ص ٧٧. ابن الشباط: ص ١٠٧.

إلى الخدمات المدنية، مستبشرين بزوال حكم القوط ونجاتهم من اضطهادات رجال الحكم البائد، فكان هذا الدور نابعاً من موقفهم من النظام القوطي الذي أضرَّ كثيراً بمصالحهم التجارية والمصرفية[١]، ومع ذلك، فقد بولغ بالدور الذي ساهم فيه هؤلاء في الفتح لا سيما من قبل بعض المؤرخين الإسبان[٢]، بهدف محاولة التلميح بأن المسلمين لم يتمكّنوا من فتح البلاد لولا مساعدة اليهود.

فتح قرطبة

أضحى الطريق مفتوحاً أمام طارق بن زياد للزحف إلى قرطبة، غير أنه عدل عن خطته وقرّر التوجه نحو طليطلة عاصمة القوط بسبب ما استجد فيها من أحداث، حيث برز التنافس بين الجماعتين المتنافرتين، جماعة رودريك وجماعة آل غيطشة، ذلك أن الهيئات الحاكمة بدأت تعيد تنظيم صفوفها للتصدي للمسلمين بعد أن تناهت إلى أسماعها الشائعات بأن رودريك لم يُقتل، وفي الوقت نفسه، راح أنصار آل غيطشة يعقدون الاجتماعات، بدورهم، في طليطلة ويتشاورون فيما بينهم لإعلان أحدهم ملكاً مكان رودريك المهزوم، وبذل أخيلا جهداً كبيراً في محاولة لإقناع مجلس المدينة بالاعتراف به ملكاً وسط الذعر الذي ساد الجميع عقب الهزيمة.

لذا كان على طارق بن زياد أن يزحف بسرعة إلى عاصمة القوط قبل أن يتمكّن أي طرف من الطرفين المتنازعين من السيطرة عليها، مما قد يصعب على المسلمين مواجهة الموقف[٣]، والمعروف أن آل غيطشة ظلوا واهمين بأن المسلمين لم يدخلوا الأندلس ليستقروا فيها، بل لمساعدتهم على استعادة الحكم مقابل الحصول على الغنائم.

وبفعل أهمية قرطبة في إحكام السيطرة على جنوبي الأندلس، فصل طارق بن زياد فرقة عسكرية تقدَّر بسبعمائة فارس، بقيادة مغيث الرومي، وأرسلهم إلى قرطبة لفتحها.

عسكر مغيث الرومي في قرية شقندة على بُعد ثلاثة أميال من قرطبة، وأرسل الجواسيس للوقوف على أوضاعها، فعلم بأن النبلاء غادروا المدينة ولم يبقَ فيها سوى الضعفاء وحامية عسكرية تُقدَّر بأربعمائة مقاتل بقيادة حاكم المدينة، فزحف

---

(١) بيضون: ص ٧٥.

(٢) Amador de Los Rios: Historia Social, Politica Y Religiosa de Los Judios de Espana Y portugal I. p 107. Ballesteros: II. P. 107.

(٣) العدوي: ص ١٣١، ١٣٢.

إليها وضرب حصاراً عليها واقتحمها، وفرَّت حاميتها إلى كنيسة تقع في غربي المدينة وتحصَّنت فيها، فضرب مغيث الرومي الحصار عليها، وضيَّق على من فيها وقطع الماء عنهم، واستمر الحصار مدة ثلاثة أشهر تضايق المحاصَرون خلالها واضطروا إلى إخلائها والاحتماء بجبل قرطبة. وما إن خرج الحاكم من الكنيسة حتى شاهده مغيث الرومي، فطارده وقبض عليه، فلما شاهد أفراد الحامية ما حلَّ بقائدهم استسلموا، فقتلهم مغيث الرومي، وأبقى على حياة القائد ليسلمه إلى الخليفة. وفي رواية أن مغيثاً الرومي دعا المحاصَرين إلى الإسلام أو الجزية فرفضوا، عندئذٍ أشعل النار في الكنيسة فاحترقوا، وسميت هذه الكنيسة بكنيسة الحرقى، أو كنيسة الأسرى، ويُعظِّمها النصارى في الأندلس لصبر من كان فيها على دينهم من شدة البلاء[١].

فتح طليطلة

عبر طارق بن زياد نهر الوادي الكبير عند منجيبار وتقدَّم نحو الشمال عبر الطريق الروماني القديم المسمى طريق هنيبعل[٢]، فألفى نفسه أمام العاصمة القوطية. كانت المدينة خالية ممن يحميها أو يدافع عنها، فقد فرَّت منها حاميتها مع كبار رجال الدولة، عندما علموا بتقدم المسلمين باتجاه مدينتهم في جو من الارتباك من واقع عدم قدرتهم على الصمود والمقاومة، كما غادرها معظم السكان باستثناء اليهود، فدخلها طارق بن زياد من دون قتال. وبعد أن تعرَّف على أوضاعها، ترك فيها حامية عسكرية وغادرها باتجاه الشمال لتعقُّب فلول الهاربين. فسلك وادي الحجارة، واجتاز الجبل عبر ممر فج[٣]، فألفى نفسه أمام قرية تقع خلف الجبل على مقربة من قلعة هنارس[٤]، أطلق المسلمون عليها اسم المائدة، لأنهم عثروا فيها على كنز ثمين هو عبارة عن أواني ذهبية مرصعة بالجواهر والأحجار الكريمة تشبه أواني الموائد التي يستعملها الملوك عادة، فنسبوها، من أجل ذلك، إلى سليمان بن داود[٤].

---

(١) أخبار مجموعة: ص ١٠ـ ١٢. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٩، ١٠.

(٢) كان هنيبعل القائد القرطاجي قد مرَّ من هذا الطريق أثناء زحفه على إيطاليا خلال الحروب البونية، فَنُسب إليه، والمعروف أنه اخترق إسبانيا باتجاه الشمال الشرقي ليهبط على سهل البو في شمالي إيطاليا.

(٣) سُمِّي فيما بعد بفج طارق.

(٤) أخبار مجموعة: ص ١٤، ١٥. الرسالة الشريفية، وهي نبذة من أخبار فتح الأندلس، ملحقة بكتاب تاريخ افتتاح الأندلس، لابن القوطية، ص ١٨٥، ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٢.

والواقع أن ما عثر عليه طارق بن زياد لا يعدو أن يكون مذبحاً لكنيسة طليطلة حُمل إلى هذا المكان من قِبَل القساوسة الفارين، ثم اضطروا إلى تركه عند قلعة هنارس حين شعروا باقتراب المسلمين.

ومهما يكن من أمر، فقد توغَّل طارق بن زياد في منطقة وادي الحجارة، وفتح قلعة هنارس، ثم عاد إلى طليطلة ليقضي فيها فصل الشتاء، وليدرس خطة المرحلة التالية من الفتح على ضوء ما يستجد من تعليمات أمير القيروان(١). ومع ذلك فهناك روايات تشير إلى أنه استمر في زحفه حتى وصل إلى مدينة أماية في منطقة برغش في إقليم كنتبرية في أقصى شمال الجزيرة، وتابع تقدمه إلى مدينة أستورقة في إقليم أشتوريس، حيث استقر بها حتى وافاه موسى بن نصير فيما بعد(٢)، ويذهب بعض المؤرخين المحدثين أنه استرسل في التقدم حتى أشرف على مدينة خيخون المطلة على خليج غسكونية(٣).

والواقع أنه من الصعب على طارق بن زياد أن يصل إلى تلك المناطق النائية عبر أراضٍ جبلية، وبخاصة أن جيشه قد أجهده المسير الطويل والشاق وهو مثقل بالغنائم، وقد أضحى فصل الشتاء على الأبواب، كما أنه لم يكن قد ثبَّت أقدامه في الأراضي المفتوحة. ولا شك بأنه أدرك أن ابتعاده عن طليطلة ربما يشجع أعداءه على إعادة تنظيم صفوفهم واسترداد ما خسروه، يضاف إلى ذلك، أنه لم يكن هدفه آنذاك تعقُّب الفارين بعد أن حصروا أنفسهم في إقليم أشتوريس بقدر ما كان هدفه تصفية مراكز المقاومة في المناطق المفتوحة، وتثبيت أقدامه فيها خشية عودتهم إلى تهديد العاصمة، لذلك كانت إقامته في طليطلة ضرورية لتحقيق هذا الهدف(٤). كذلك، فإنه على الرغم مما يرويه بعض المؤرخين(٥)، فإن فتح المدن الواقعة في أقصى شرقي الأندلس، مثل غرناطة ومالقة وإقليم مرسيه، لم يتم إلا بعد ذلك بكثير.

وهكذا، ففي أقل من سنة فتح المسلمون جنوبي إسبانيا ووسطها وثبَّتوا أقدامهم في أرض الأندلس، وقضوا على الدولة القوطية المتداعية.

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٢. Saavedra: PP. 80, 81.

(٢) ابن القوطية: ص ٧٧. الرسالة الشريفية: ص ١٨٥.

(٣) عنان، محمد عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس جـ ١ ص ٥١. وخليج غسكونية أو بسكونية هو خليج كنتبرية.

(٤) رمضان: ص ١٦٣، ١٦٤ . Saavedra: PP. 80, 81

(٥) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١١.

فتوح موسى بن نصير

عبور موسى إلى الأندلس

كان رد الفعل لنجاح طارق بن زياد كبيراً في شمالي إفريقيا، فقد توجَّه البربر إلى الأندلس بعد سماعهم بانتصارات المسلمين هناك، وبدأوا بالاستقرار في المناطق السهلية من البلاد لا سيما تلك التي هجرها سكانها الذين هربوا إلى القلاع والحصون.

وكان موسى بن نصير يتابع تحركات طارق بن زياد العسكرية خطوة خطوة، ويبدو أنه:

- أدرك خطورة الانتشار الواسع للقوات الإسلامية بدون تغطية عسكرية كافية الأمر الذي يسهل على العدو مهاجمتها، من دون أن تتمكَّن من اتخاذ وسائل الدفاع المناسبة عن نفسها، فتضيع ثمرات النصر، ذلك أن خطوط مواصلاتها، بين طليطلة والجزيرة الخضراء وبلاد المغرب، أضحت غير آمنة، لأن المعاقل الكبرى المبعثرة على امتداد تلك الخطوط لم تخضع للمسلمين، وما زالت جماعات من القوط تحكم المدن الواقعة وراء خطوط مواصلاتهم، وتنتظر الوقت المناسب للانتفاض عليهم[(١)].
- رأى أن قائده استنفد طاقاته القتالية بعد الجهد الكبير الذي بذله، وبخاصة أن عدد جنوده لم يكن كافياً لفتح تلك البلاد الواسعة والدفاع عن المنجزات المكتسبة، ولا بد من دعمه بمدد عسكري فضَّل أن يترأسه بنفسه.

أما ما تشير إليه الروايات الإسلامية من انتفاضة حسد أمام انتصارات طارق، وخشية من أن يحصل وحده على شرف الفتح وغنائمه، أو أن موسى نقم على مولاه طارق إذ غزا بغير إذنه وهمَّ بقتله[(٢)] أو حالة غرور أعمت موسى[(٣)]، فلا مسوغ له، ولا نصيب له من الصحة، لأن طارقاً هو أحد قادته، وما يفتحه فهو باسم أميره ولمصلحة الدولة الإسلامية التي ينتمي الإثنان إليها، وبالتالي فإن هدفهما واحد. ومن الطبيعي، وهو القائد العام للجبهة الغربية، والمسؤول الأول عن إرسال الحملات العسكرية إلى الأندلس التي خطَّط لها بنفسه وتتبَّع مراحلها، أن ينتقل إلى أرض الجبهة ليكون قريباً من مجرى الأحداث، ويتخذ القرارات الحاسمة في الوقت

---

(١) العدوي: ص ١٣٦.

(٢) ابن القوطية: ص ٧٧. أخبار مجموعة: ص ١٥. المراكشي: ص ١١. الحميري ص ١٢، ١٣.

(٣) مؤنس: ص ١٤٦.

الملائم، ويراقب سير العمليات العسكرية عن قرب. يضاف إلى ذلك، لو خالج موسى أي شعور بالارتياب إزاء قائده لاستبدله بواحد من أبنائه الأربعة الذين برزوا إلى جانب طارق في حرب المغرب الأخيرة، ولو صحَّ أن طارقاً استقلَّ برأيه، ونزع إلى التفرد، بعد انتصاره في معركة وادي لكة، كما توحي بعض الروايات، لما استمر في منصبه يمارس مهامه بصورة طبيعية. وعلى العكس من ذلك، فقد توضحت إنضباطية طارق في تصرفه مع أولاد غيطشة حين أحالهم على أمير القيروان للاتفاق معه بشأن نصيبهم من الحملة[1].

فتح قرمونة

استخلف موسى بن نصير ابنه عبد الله على القيروان ثم غادرها على رأس جيش يُقَدَّر بثمانية عشر ألف مقاتل، معظمهم من القبائل العربية اليمنية، وضمَّ أعداداً كثيرة من رجال قريش البارزين الذين كانوا في مناصب القيادة في القيروان، إضافة إلى الإداريين ورجال الدين وبقية القادة المشهورين، أمثال محمد بن أوس الأنصاري وحبيب بن أبي عبيدة الفهري وعياش بن أخيل وعبد الجبار بن أبي سلمى الزهري، واصطحب معه عدداً من أولاده[2]، فعبر مضيق جبل طارق وعسكر في الجزيرة الخضراء في (رمضان ٩٣هـ/ حزيران ٧١٢م) لعدة أيام حيث وزَّع المهمات العسكرية على قادته، وعقد اجتماعاً مع يوليان الذي اتخذ من هذا المكان مقراً له، ناقش فيه التطورات المستجدة، وجرى تقويم حملة طارق. ولعل يوليان زوَّده بالمعلومات اللازمة عن المعاقل الهامة في المناطق التي ما زالت خارج نطاق السيطرة الإسلامية وبخاصة مدينة إشبيلية، بالإضافة إلى أفضل الطرق التي سيسلكها، وتقرَّر اعتماد الطريق الغربي المؤدي إلى إشبيلية، وهو غير الطريق الذي سلكه طارق بن زياد، وذلك بهدف غزو غربي الأندلس، وإحكام السيطرة على المنطقة، وبخاصة أنها كانت مأوى معظم الفلول الهاربة من الجيش القوطي.

من هنا تكمن أهمية الحملة والدور الكبير الذي كان عليها أن تقوم به، إذ ليس من المنطق أن يجتاز موسى بن نصير الطريق المفتوح حيث التواجد الإسلامي، وآثر

(١) بيضون: ص ٧٨. وعن أسباب عبور موسى وموقفه من طارق راجع: عبد الحميد، محمد: الفتح الإسلامي للأندلس ص ١٣٠، ١٣١، ١٣٧-١٤٠. الصوفي: ص ١٢٥-١٢٨.

(٢) أخبار مجموعة: ص ١٥. الرسالة الشريفية: ص ١٨٨. ابن عبد الحكم: ص ٣٤٨. المراكشي: ص ١١.

سلوك طريق آخر لم تسلكه القوات الإسلامية من قبل، وهو القرار البديهي من وجهة النظر العسكرية[(١)].

وقبل أن يغادر موسى بن نصير الجزيرة الخضراء، أمر بوضع حجر الأساس لبناء مسجد هناك تخليداً لذكرى حملته هذه، سمي بمسجد الرايات[(٢)].

تقدمت القوات الإسلامية على الطريق المؤدي إلى إشبيلية فأعادت إخضاع شذونة بعد حصار[(٣)]، وفتحت قلعة رعوان ثم سارت إلى مدينة قرمونة المشهورة بحصانتها، لذا استخدم موسى بن نصير الحيلة في فتحها، فأرسل بعض الجند على هيئة المنهزمين ومعهم السلاح، فأظهروا لحاميتها أنهم أصدقاء جاؤوا فراراً من المسلمين، فسمح لهم أفراد الحامية بالدخول. وما إن حلَّ الليل حتى هاجم هؤلاء الحراسَ، وفتحوا أبواب المدينة للجيش الإسلامي الذي دخلها وسيطر عليها[(٤)].

أمَّن فتح قرمونة إقامة خط عسكري يربط الجزيرة الخضراء بكل من شذونة وقرمونة وأستجَّة وقرطبة، مدعَّماً بمراكز عسكرية، بالإضافة إلى سيطرة المسلمين على المراكز الدفاعية الأمامية لإشبيلية.

فتح إشبيلية

تقدمت القوات الإسلامية بعد ذلك إلى إشبيلية التي تُعدُّ من أكبر مدن القوط بعد طليطلة، ومصدر الخطر المباشر على القوات الإسلامية التي كانت تحت قيادة طارق بن زياد في الداخل، ونقطة التقاء الطرق الهامة في جنوبي الأندلس، لا سيما تلك التي تربط الجزيرة الخضراء بداخل البلاد، وضربوا عليها حصاراً مركَّزاً استمر بضعة أشهر، دافع خلالها القوط عن مدينتهم بضراوة، مما يدل على خطورة مركز القوط بها واستعدادهم لمقاومة المسلمين، ولم تسقط المدينة إلا بعد أن تلقّى موسى بن نصير مساعدات من الداخل، حيث قام اليهود في المدينة بدورهم المتفق عليه لمصلحة المسلمين، كما أدّى أسقفها أوباس دوراً في ذلك، وفرَّت حاميتها إلى مدينة باجة المجاورة وانضمَّت إلى جموع القوط بها[(٥)].

---

(١) بيضون: ص ٧٩.

(٢) الرسالة الشريفية ص ١٨٩.

(٣) يبدو أن الفتح الإسلامي الأول لشذونة لم يكن محكماً، فخرج أهلها على طاعة المسلمين. انظر: أخبار مجموعة: ص ١٥. ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٣.

(٤) المصدران نفساهما: ص ١٦. ص ١٣، ١٤.

(٥) المصدران نفساهما: ص ١٦. ص ١٤. ابن القوطية: ص ٧٧.

أمَّن فتح إشبيلية، المركز المسيطر عسكرياً على جنوبي الأندلس، وحرم القوط من قطع خطوط مواصلات المسلمين، وشكَّلت المدينة، بفعل أهمية موقعها، إحدى القواعد الدفاعية الكبرى للمسلمين في الأندلس.

فتح ماردة

واصل المسلمون تقدمهم حتى ماردة الواقعة في شمال غربي الأندلس في منطقة وعرة المسالك، وهي محاطة بسور منيع، واحتشدت فيها بقايا القوط وأنصار الملك السابق رودريك، فضربوا حصاراً عليها استمر بضعة أشهر، تخلله قتال كان ضارياً أحياناً سقط فيه ضحايا كثيرة من الطرفين، واستبسل سكانها في الدفاع عنها.

ويبدو أن هؤلاء أجهدهم طول مدة الحصار والقتال المستمر فمالوا إلى التفاهم مع المسلمين، وأرسلوا وفداً إلى موسى بن نصير للتفاوض بشأن الاستسلام، وأسفرت المفاوضات عن عقد معاهدة بين الجانبين تضمنت البنود التالية:

- يتعهد المسلمون بعدم التعرض بالأذى للسكان المحليين، سواء الذين يفضلون البقاء في المدينة أو الذين يغادرونها إلى مكان آخر.
- يضمن المسلمون للسكان حريتهم الدينية، ويحافظون على كنائسهم من أن تُهدَم.
- يستولي المسلمون على ممتلكات وأموال الذين قُتلوا في الحرب، والهاربين من القوط إلى منطقة جليقية في الشمال الغربي من البلاد، وكذلك أموال الكنائس.

وبعد أن وُقِّع الاتفاق، فتح السكان أبواب مدينتهم فدخلها المسلمون في (١ شوّال ٩٤هـ/ ٣٠ حزيران ٧١٣م)[١].

وبعد سقوط المدينة، نظَّم موسى بن نصير حاميتها العسكرية من العرب والبربر من دون اللجوء إلى جاليتها اليهودية الكبيرة، ولعل هذا مؤشر على أهمية المدينة من جهة، وبداية السيطرة الإسلامية المركَّزة على مرافق البلاد من جهة أخرى[٢].

إخماد الثورة في إشبيلية

ظلت فلول القوط المهزومة، التي التجأت إلى المدن المجاورة، خارج نطاق السيطرة الإسلامية، فأخذت تراقب تحركات المسلمين وتنتظر الفرصة المناسبة للانقضاض على الحاميات الإسلامية في المدن المفتوحة لاستردادها، وبدأت

---

(١) أخبار مجموعة: ص ١٧، ١٨. ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٥. المقري: جـ ١ ص ٢٦٠.

(٢) بيضون: ص ٨٠، ٨١.

بإشبيلية، فهاجمتها وقتلت معظم أفراد حاميتها، في حين غادر الباقون المدينة ولحقوا بموسى في ماردة[١].

تُعدُّ هذه الحركة أول رد فعل قوطي ضد السيادة الإسلامية، وعنواناً على شدةً مقاومة القوط، والخطر الذي كان سيتعرَّض له طارق بن زياد لولا مجيء موسى بن نصير لإنقاذ الموقف.

وما إن انتهى موسى بن نصير من فتح ماردة حتى أرسل ابنه عبد العزيز على رأس قوة عسكرية إلى إشبيلية لقمع التمرد.

نجح عبد العزيز في القضاء على الثورة وأعاد الأمور إلى نصابها[٢]. وحتى يطهِّر المنطقة المجاورة من المقاومة القوطية، هاجم لبلة وباجة وأكشونبة الواقعة على شاطىء البحر، فدخلها وقضى على كل أثر للمقاومة فيها، واحتاط للأمر، فترك فيها حاميات عسكرية تحسباً فيما لو كرَّر القوط محاولتهم[٣]، فاستقامت أمور هذه النواحي الغربية واستقرت للمسلمين، وعاد عبد العزيز إلى إشبيلية حيث تركه والده فيها ليقضي على ما قد يظهر في نواحيها من مقاومة[٤].

لفتت شدَّة مقاومة القوط انتباه موسى بن نصير، وحتى يُدعِّم منجزات المسلمين، رأى ضرورة وضع المدن المفتوحة في أيدي قادة من المسلمين بدون الاعتماد على السكان المحليين أو غيرهم من الجماعات التي انضمت إليه أثناء زحفه، فعيَّن عبد الجبار، قائد ميسرة جيشه، والياً على باجة[٥].

اللقاء بين موسى بن نصير وطارق بن زياد

مكث موسى بن نصير في ماردة مدة شهر أراح فيها جُنده قبل أن يستأنف السير إلى طليطلة، واستدعى طارق بن زياد ليقابله في الطريق[٦]. استجاب طارق لأوامره، فخرج من طليطلة وقابله في طلبيرة، على بعد سبعين ميلاً إلى الغرب من طليطلة، في مكان يدعى المعرض بين نهري تاجُه والتيتار. وعقد الرجلان مجلساً

(١) أخبار مجموعة: ص ١٨. ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٥. المقري: جـ ١ ص ٢٦٠، ٢٦١.

(٢) المصادر نفسها.

(٣) أخبار مجموعة: ص ١٨. ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٥.

(٤) Saavedra: PP. 126, 127.

(٥) العدوي: ص ١٤١.

(٦) في رواية أن طارقاً علم بقدوم موسى إلى طليطلة فخرج لاستقباله. أخبار مجموعة: ص ١٨.

عسكرياً قوَّما فيه الموقف العسكري العام، وناقشا خطة المرحلة التالية من الفتح. وتذكر الروايات التاريخية أنه حصل خلاف بينهما، وتبالغ المصادر فتُرجِع أمر الخلاف إلى حسدٍ دبَّ في نفس موسى بن نصير على مولاه طارق بفعل ما حقَّقه من نجاح، وتنسب هذه الروايات إلى موسى أنه أهان طارقاً وضربه بالسوط، ووبخه على استبداده برأيه، وطالبه بالأموال والنفائس التي استولى عليها[1].

والراجح أن هذه الروايات مبالغ فيها، وتنظر إلى المشروع الضخم من زاوية شخصية ضيقة. ومما لا شك فيه أن كلاً من القائدين اهتم بمصلحة المسلمين العليا وسلامة أرواحهم قبل أي شيء آخر. وواضح من الخطة الموضوعة للفتح، والتي نُفِّذت على الأرض، أن الرجلين كانا متفقَيْن على الالتقاء في العاصمة القوطية، يضاف إلى ذلك، أن موسى لم يغمط حق طارق في الفتح أو يُقلِّل من شأنه، وإنما اعترف له بمكانته، وكان يكنُّ له كل تقدير ومحبة، وخاطبه قائلاً: «لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يبيحك الأندلس، فاستبحه هنياً مرياً. فقال له طارق: أيها الأمير، والله لا أرجع عن قصدي هذا ما لم أنتهِ إلى البحر المحيط»[2]. وظل طارق يتمتع بثقة موسى بدليل أنه لم يُبعده عن مسرح الأحداث، وإنما اشترك معه في إتمام الرسالة، وهي فتح ما تبقّى من أقاليم في الأندلس ونشر الإسلام في ربوعها.

التمدد الإسلامي باتجاه الشمال

تطلبت الخطة الموضوعة من قبل موسى وطارق، السيطرة على الأقاليم الشمالية الممتدة من سرقسطة، في إقليم أراغون شرقاً، حتى ساحل جليقية، على المحيط الأطلسي غرباً، بهدف إقامة حاجز دفاعي يؤمِّن منجزات المسلمين في جنوب ووسط البلاد، ولا يتم ذلك إلا بالقضاء على الجماعات القوطية اللاجئة إلى تلك الأقاليم، وبخاصة أن المسلمين كانوا يعلمون أنها المأوى الوحيد الذي التجأ إليه معظم الفارين، لذلك كان موسى شديد الحرص على اقتحام تلك المنطقة وفتحها[3].

كانت مدينة سرقسطة أول هدف للحملة، فاقتربت منها القوات الإسلامية، على

(١) أخبار مجموعة: ص ١٨، ١٩. ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٦. ابن عبد الحكم: ص ٣٥١، ٣٥٢. الرسالة الشريفية: ص ١٨٥.

(٢) المقري: جـ ١ ص ٢٣٤.

(٣) رمضان: ص ١٧٧.

حين غفلة من أهلها، ففوجئ هؤلاء بالمسلمين يعسكرون أمام مدينتهم، ودبَّ الذعر بينهم، وبعث إليهم موسى من أمَّنهم وأعطاهم عهده، فطابت نفوسهم وفتحوا أبواب مدينتهم للفاتحين(١).

وجالت القوات الإسلامية في نواحي إقليم سرقسطة، مثل وشقة ولاردة وطرَّكونة وبرشلونة(٢)، وأقام موسى مدة في المدينة نظَّم خلالها أوضاعها الإدارية، وأنشأ فيها مسجداً خطَّه التابعي حنش بن عبد الله الصنعاني، مهندس المساجد في الغرب الإسلامي(٣).

وبسيطرة المسلمين على إقليم سرقسطة طويت صفحة القوط في الأندلس، ولم يبقَ أمامهم سوى فتح إقليم جليقية الممتد إلى الغرب من سرقسطة حتى المحيط الأطلسي، وهو الإقليم الذي اشتمل على أشتوريس في الوسط وكنتبرية في الشرق.

وفي الوقت الذي كان فيه موسى يتأهب للزحف نحو ذلك الإقليم، عاد إليه مغيث الرومي قادماً من دمشق، وكان قد أرسله إلى عاصمة الخلافة ليحمل إلى الخليفة أخبار انتصارات المسلمين وأوضاعهم وسير العمليات العسكرية، وحمل معه أمراً من الخليفة إلى كل من موسى وطارق بالتوقف فوراً عن الفتوح والمثول بين يديه(٤)، ويبدو أن الخليفة شعر أنهما تجاوزا حد التوسع المتفق عليه.

رأى موسى بن نصير أن هذا الاستدعاء جاء في وقت غير مناسب، لأن تعقُّب القوط لم ينتهِ، وكان حريصاً على فتح جليقية والقضاء نهائياً على المقاومة القوطية، كما أن مغادرة المنطقة كانت تعني المغامرة بمستقبل المسلمين في الأندلس كلها؛ لذلك تباطأ في الاستجابة لأوامر الخليفة، وتواطأ مع مبعوثه ليمهله أياماً حتى ينتهي من تنفيذ خطته والدخول إلى إقليم جليقية، مقابل أن يكون شريكه في أجر فتحها ويهبه موضعاً في مدينة قرطبة بجميع أرضه(٥)، فوافقه مغيث ورافقه في حملته على هذا الإقليم.

---

(١) أخبار مجموعة: ص ١٩. ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٦. المقري: جـ ١ ص ٢٦٣.

(٢) المصادر نفسها.

(٣) الحميدي، أبو محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله: جذوة المقتبس ص ١٧٨، ١٧٩. ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد: تاريخ علماء الأندلس ص ١١١. الرسالة الشريفية: ض ١٩٤.

(٤) الرسالة الشريفية: ص ١٩٢، ١٩٣.

(٥) المقري: جـ ١ ص ٢٦٥.

الواقع أن هذا الاتفاق مع مبعوث الخليفة دفع بموسى أن ينشط في حملته هذه، ويسرع من دون أن يضيع وقتاً في حصار المدن أو التحايل على من يعصي من سكانها كما كان الشأن من قبل،[١]، ما طبع حملته بطابع الشدة والقسوة والعنف المقرون بالتدمير، وهو ما أشارت إليه الروايات الإسلامية، الأمر الذي أدخل الجزع والفزع في قلوب السكان، وهم الذين لم يكونوا أصلاً بحاجة إلى من يزيدهم ذعراً ورعباً، فتسارع وجوههم وكبارهم إلى الطاعة وطلب الأمان والصلح[٢].

وغادر موسى بن نصير مدينة سرقسطة متوجهاً إلى إقليم جليقية لفتحه، واصطحب معه طارق بن زياد. كان هناك طريقان يربطان سرقسطة بالإقليم المشار إليه:

الأول: يمتد مع الضفة الجنوبية ـ اليمنى ـ لنهر إبرو والسفوح الجنوبية لجبال كنتبرية، ويمر بالعديد من المدن مثل هارد، برڤييسكا، أمالية وليون، وينتهي عند مدينة أستورقة.

الثاني: يقع إلى الجنوب من الطريق الأول، وتقطعه عدة مدن مثل قلونية وبلنسية حيث يلتقي على مقربة منها بالطريق الذي يربط مدينتي ماردة وأستورقة. ويبدو أنه سلك الطريق الأول، وأرسل قسماً من جيشه، بقيادة طارق بن زياد، كطليعة[٣].

تقدم طارق بن زياد باتجاه مدينة أماية وفتحها ثم فتح مدينة بارد، ودخل القسم الجنوبي من إقليم أشتوريس وفتح مدينته الرئيسة أستورقة[٤]، ثم اقتفى موسى أثره ليؤمن ما فتحه حتى وافاه في مدينة أستورقة، حسب الخطة الموضوعة سابقاً، إذ أشارت الروايات الإسلامية إلى نبأ تلاقيهما فيها[٥]، ومنها سارا سوياً لإتمام فتح أشتوريس وجليقية، فاخترقا جبال كنتبرية من إحدى ممراتها ودخلا شمالي أشتوريس، وسارا بمحاذاة مجرى نهر نالون واقتحما المنطقة، ثم تقدما نحو الشمال حتى أدركا حصن لوغو، الواقع شمالي مدينة أوبيط، ـ أوبييدو ـ وفتحاه، وفرَّت حاميته إلى مكان

---

(١) رمضان: ص ١٧٤.

(٢) ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٦.

(٣) تذكر الرواية الإسبانية أن موسى سلك الطريق الثاني وأمر طارق أن يسلك الطريق الأول، وهذا خلط استناداً إلى الواقع على الأرض. Saavedra: P. 114.

(٤) المقري: جـ ١ ص ٢٦٥. رمضان: ص ١٧٦.

(٥) ابن القوطية: ص ٧٨. المقري: جـ ١ ص ٢٦١، ٢٦٢.

خريطة الأندلس
في العصر الإسلامي

الأرض الكبيرة
اربونه
سبتمانيا
قرقشونه
جبال البرتات
ألبا
أرغونة
جبال كنتبريا
لك
جليقية
ليون
أشتورقة
قشتاله
قطالونيا
برشلونة
طركونة
لارده
نهر ابره
سرقسطة
بلد الوليد
سموره
نهر دويره
جبل الشارات
طرطوشة
وادي الحجارة
آبلة
مجريط
قونكة
طليطلة
طلبيره
شرق الأندلس
قلعة رباح
قاصرش
نهر تاجه
البسيط
وادي انه
بطليوس
ماردة
يابرة
قصر أبي دانس
شنترين
الغرب
مارتلة
شلب
ولبة
جبال قرطبة (سيرا موريا)
نهر شقوره
مرسية
قرطاجنة
بسطه
بياسة
قرطبة
نهر الوادي الكبير
اشبيلية
قرمونة
استجة
جيان
وادي آش
غرناطة
جبال الثلج
المرية
مالقة
رندة
شريش
قادس
الجزيرة
بحر الظلمات (الأوقيانوس)
طنجة
تطاون
المغرب الأقصى
بحر الروم
ميورقة
منورقة
يابسة

السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٩٣

جبلي بأقصى شرقي أشتوريس هو صخرة بلاي، الواقع في جبل أوسبة الوعر في سلسلة جبال كنتبرية، وفي أعلى هذه الصخرة توجد مغارة أو كهف كوفا دونجا(١).

أقام موسى بن نصير عدة أيام في حصن لوغو، قبل أن يستأنف حملته لفتح ما تبقّى من الشمال الإيبيري في أقصر وقت ممكن، بفعل أنه كان عليه أن يستجيب لنداء الخليفة. لذلك استقر الرأي على أن يرسل سرية لتعقُّب الفارين إلى صخرة بلاي في شرقي أشتوريس، ثم تواصل التوغل في هذا الإقليم وإلى ما يليه شرقاً في المنطقة الشمالية لجبال كنتبرية، ثم تنحدر إلى الثغر الأعلى لتوطيد أقدام المسلمين والقضاء على أي أثر للمقاومة هناك، وعيَّن طارق بن زياد على قيادتها(٢)، أما هو فكان عليه اقتحام إقليم جليقية الواقع إلى الغرب من أشتوريس.

تقدم طارق بن زياد إلى صخرة بلاي في أقصى شمال أشتوريس وجال هناك، حتى أنه «لم تبق كنيسة إلا هُدمت، ولا ناقوس إلا كُسر، فطاعت أعاجمها ولاذت بالسلم وبذل الجزية»(٣). إلا أنه لم يتمكَّن من فتح الصخرة، غير أنه فتح مدينة خيخون الأشتوريسية الواقعة على ساحل بحر كنتبرية على المحيط الأطلسي، ومن هناك واصل تقدمه شرقاً في بلاد البشكنس حتى أدرك الثغر الأعلى ثانية(٤) ولم يفتح إقليم كنتبرية الممتد إلى الشرق من إقليم أشتوريس مباشرة بفعل أنه كان في عجلة من أمره ليلحق بموسى بن نصير.

وإذا كانت بعض الروايات الإسلامية تنسب فتح هذه المنطقة لموسى بن نصير(٥) فربما لأنه كان القائد العام للحملة وإن كان هذا لا يمنع أن يكون طارق هو الذي قام بالعمل في الناحية الشمالية الشرقية، في الوقت الذي كان فيه موسى منهمكاً في الناحية الشمالية الغربية(٦)، حيث اقتحم جليقية وأدرك فيه مدينة تُعرف أيضاً باسم لوغو وفتحها(٧)، وأتاه، وهو فيها، رسول ثانٍ من الخليفة الوليد بن عبد الملك، يُكنى أبو نصر، يأمره بالتوقف فوراً عن الفتوح والعودة إلى دمشق(٨)، بدون أن يتيح

---

(١) المقري: جـ ١: ص ٢٦٥. Saavedra: PP. 116, 117

(٢) رمضان: ص ١٧٨.

(٣) المقري: جـ ١ ص ٢٦٥.

(٤) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٦. Saavedra: P. 114.

(٥) المصدر نفسه: ص ١٦، ١٧. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم: الإمامة والسياسة، النص الخاص بفتح الأندلس، ملحق بكتاب تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٥٢ـ ١٥٥.

(٦) رمضان: ص ١٧٩.

(٧) المقري: جـ ١ ص ٢٦٥.

(٨) الرسالة الشريفية: ص ١٩٣.

له فرصة فتح ما تبقّى من إقليم جليقية، وبخاصة قسمه الجنوبي المحصور بين نهري مينو شمالاً ودويرة جنوباً[(١)].

العودة إلى دمشق ـ نهاية قادة الفتح

استجاب موسى بن نصير لطلب الخليفة، فغادر مسرح العمليات في الشمال، بعد أن وضع فيها حاميات عسكرية، وانصرف عائداً إلى الجنوب، وذلك في (ذي الحجة ٩٥هـ/ آب ٧١٤م)، واصطحب معه مغيثاً الرومي وأبا نصر، ووافاه طارق بن زياد من الثغر الأعلى[(٢)].

توقف الركب في طليطلة، فأجرى فيها موسى بعض الترتيبات الإدارية ثم غادرها إلى قرطبة فإشبيلية، التي اتخذها عاصمة الأندلس، وعيَّن ابنه عبد العزيز والياً عليها طيلة مدة غيابه[(٣)]، ثم غادر المدينة عائداً إلى المشرق عن طريق القيروان ومصر. وأسهب المؤرخون في وصف فخامة الموكب الذي رافقه إلى دمشق والذي ضمَّ عدداً كبيراً من الجواري والأسرى القوط، وهو يتناسب مع حجم الإنجازات التي تمت على يديه[(٤)].

وهكذا انتهت أعمال كل من موسى بن نصير وطارق بن زياد في الأندلس الذي استغرق فتحها ثلاثة أعوام ونصف، فتوقفت الفتوح في الشمال الأندلسي ولكن إلى حين.

وصل موسى بن نصير، مع الوفد المرافق له، إلى دمشق في (ربيع الآخر ٩٦هـ/ كانون الأول ٧١٤م) في وقت كان الخليفة الوليد مريضاً جداً، فاجتمع به وقدَّم له تقريراً مفصلاً عن إنجازاته بالإضافة إلى الأخماس والغنائم، وأقام عنده حتى توفي الوليد في (جمادى الآخرة ٩٦ هـ/ شباط ٧١٥ م). وما إن خلفه أخوه سليمان حتى قرَّر محاسبة موسى بن نصير. وتجري الروايات التاريخية أنه طلب منه، وهو بفلسطين في طريقه إلى دمشق، أَن يتمهَّل في سيره مُقدِّراً وفاة الوليد، وذلك من أجل أن تؤول إليه الغنائم وشرف الفتح، ولكن موسى بن نصير رفض طلب ولي العهد، الأمر الذي سبَّب الإساءة لسليمان، فاتهمه باختلاس الأموال، وقضى عليه

---

(١) رمضان: ص ١٨١.

(٢) أخبار مجموعة: ص ١٩. ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٨، ١٩. الرسالة الشريفية: ص ١٩٥، ١٩٦.

(٣) المصادر نفسها.

(٤) ابن عذارى: جـ ٢: ص ١٩. الرسالة الشريفية: ص ١٩٦، ١٩٧.

بردِّها، وجرَّده من ألقابه، ووضعه في الإقامة الجبرية، ومال إلى التخلص منه لولا تدخل عمر بن عبد العزيز، وكان أثيراً عنه، وشفاعة يزيد بن المهلب، اليمني الانتماء، بفعل مكانته الحسنة عند الخليفة، وعلاقته الجيدة بموسى ولكنه عفا عنه بعد ذلك وضمَّه إلى مستشاريه، واصطحبه معه إلى الحج في عام (٩٧هـ/ ٧١٦م) وتوفي في المدينة، وقيل في وادي القرى[(١)].

لقد أساء بعض المؤرخين استيعاب هذه العلاقة بين الرجلين، وصوَّروها على أنها سياسة عاطفية لا تقيم وزناً لمصلحة الأمة، وتغمط حق قادة الفتوح. فاتهموا سليمان بأنه عزم على الانتقام من موسى لأنه كان من أعوان أخيه الوليد الذي اتهمه بالتآمر عليه لإبعاده عن ولاية العهد وتولية ابنه عبد العزيز، وذلك بتأثير الحجاج بن يوسف الثقفي حاكم المشرق وأبرز شخصيات الحزب القيسي في ذلك الحين[(٢)].

والواضح أن هذا النمط من الدافع الانتقامي، سطحي، وضيق الأفق وبعيد عن الواقع. فالأمر لم يكن أمر عواطف وانتقاماً شخصياً، بل أعمق من ذلك بكثير، وإنما هي سياسة عامة للدولة رسمها سليمان بن عبد الملك بالتعاون والتشاور مع كبار مستشاريه. وجاء تغيير قادة الفتح إن في المشرق، محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم، أو في المغرب، موسى بن نصير وطارق بن زياد، نتيجة تبدل الظروف السياسية، بعد أن عمَّ الهدوء والسلام والاستقرار أرجاء الدولة وبخاصة بعد اتساع الفتوح، فكان من الحكمة أن يتغير أسلوب الحجاج في الإدارة والحكم، وأن يستجيب الخليفة لتلك الرغبة العامة لدى غالبية المسلمين، ويُعدُّ ذلك تصرفاً طبيعياً في وقت تغيَّر فيه رأس الحكم بحيث يضمن عناصر تسانده وتدعمه.

هذا، ولا تتوفر لدينا معلومات عن طارق بن زياد بعد وصوله إلى دمشق، باستثناء أن الخليفة سليمان أراد أن يعيِّنه والياً على الأندلس، لكنه عدل عن هذه الفكرة ربما بتأثير مغيث الرومي الذي أثار مخاوفه من نفوذ طارق واحتمال استقلاله بالأندلس[(٣)].

وهكذا لفَّ الغموض نهاية طارق الذي يُعدُّ هو وموسى بن نصير، من بين أعظم

---

(١) ابن القوطية: ص ٧٨. الرسالة الشريفية: ص ١٩٧، ١٩٨. ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٩ـ ٢٣، ابن قتيبة: ص ١٥٥ـ ١٦١، ابن كثير، الحافظ: البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٧٤.

(٢) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك جـ ٦ ص ٥٠٧، ٥٠٨. وانظر: مكي، محمود: تاريخ الأندلس السياسي، مقال في كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس جـ ١ ص ٦٤.

(٣) المقري: جـ ٤ ص ١٠.

الشخصيات الإسلامية الذين ضربوا المثل في الشجاعة والحنكة السياسية والعسكرية، ويُعدُّ إنجازهما بفتح الأندلس إحدى أضخم عمليات الفتوح في الدولة الأموية.

أثر فتح الأندلس

مما لا شك فيه أن الفتح الإسلامي للأندلس كانت له نتائج بالغة الأهمية، لعل أهمها:

ـ تمَّ الفتح الإسلامي للأندلس بسرعة غير متوقعة، وذلك بفعل إيمان الفاتحين، ودقة التنظيم والتخطيط، إذ لم يكن مرتجلاً في أية مرحلة من مراحله، كما لم يكن مجرد مغامرة عابرة.

ـ لم تكن العوامل الخارجية الكامنة في ضعف القوط أو الداخلية المادية، مما ألفه العرب والبربر من قبل في الحصول على الغنائم؛ السبب في التوغل في عمق شبه الجزيرة الإيبيرية، إنما كان هذا التوغل مدفوعاً بعوامل ذاتية جديدة كامنة في نوع بناء المجتمع الإسلامي ومقومات حياته التي أقامها الإسلام، وبها حاز المسلمون النصر، وحقَّقوا الإنجاز المدهش على الرغم من قلَّة عديدهم. ولو كان المسلمون على غير هذه العقيدة، وأعداؤهم بهذا التفوق العددي والمادي، لم يكن لهذا الفتح أن يتم[1].

ـ غيَّر الفتح الإسلامي أوضاع السكان بشكل عام، إذ بعد زوال الحكم القوطي تجمَّع زعماء القوط في منطقة جليقية في الشمال الغربي، وأبقى المسلمون على الذين ساعدوهم. فأعيد يوليان إلى حكم سبتة، ورُدَّت إلى أولاد غيطشة أموالهم وممتلكاتهم وضياعهم، كما سُمح لبعض النبلاء والإقطاعيين، في بعض المناطق، بالاحتفاظ بأراضيهم، أما الأراضي التي تركها أصحابها بفعل الفرار أو القتل في المعارك، فقد صادرها المسلمون، وجرى توزيعها عليهم.

ـ منح المسلمون سكان البلاد الحرية الدينية، وعيَّنوا لهم قضاة منهم وحكاماً محليين، يقضون في النزاعات فيما بينهم، ويجبون الضرائب منهم.

ـ أحسن المسلمون معاملة أهل البلاد الذين تعرضوا للاضطهاد في العهد القوطي، فسُمح للمزارعين أن يمارسوا حياتهم الزراعية على حسابهم على أن يؤدُّوا الخراج. وسارع الكثير من رقيق الأرض والعبيد إلى اعتناق الإسلام عندما وجدوا فيه التسامح الذي كانوا ينشدونه، ودان بالإسلام عدد كبير من أهالي الطبقات الدنيا عن إيمان ثابت.

---

(١) الحجّي، عبد الرحمن علي: التاريخ الأندلسي ص ١٢٢.

ـ سمح المسلمون لليهود، الذين ساندوهم، بمزاولة التجارة وأمّنوهم على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، ومنحوهم حرية التملّك واختص كثير منهم في العلوم والآداب والطب والفلسفة، وتبوّؤوا مراكز سياسية وإدارية حسّاسة، فكانوا أكثر الطوائف استفادة من الفتح.

ـ ترك الفتح الإسلامي للأندلس بعض النتائج الكبيرة من الناحية الاجتماعية حيث أدَّت مصادرة ممتلكات كثير من النبلاء، بالإضافة إلى ممتلكات الكنيسة، إلى زيادة عدد صغار المزارعين زيادة ملحوظة.

ـ كان الفتح الإسلامي خيراً على إسبانيا، فقد انتشلها من الفوضى والتنازع السياسي وأحدث فيها ثورة اجتماعية، وقضى على مساوىء العهد القوطي التي كانت البلاد ترزح تحتها منذ عدة قرون.

المجتمع الأندلسي بعد الفتح

العرب: إن الهدف من دراسة الوضع الاجتماعي في الأندلس، بعد الفتح الإسلامي، هو التعرف على العناصر العصبية والعرقية المختلفة التي تكوَّن منها المجتمع على شكل فسيفساء من مجموعات متجاورة أكثر مما هي منصهرة في خليط اجتماعي معقَّد، نتيجة الخلافات السياسية والتنافس العصبي والقومي الذي كان يظهر بقوة في مراحل متعددة، وقد حمل هذا التناقض معه البذرة الجنينية التي نمت واستفحلت وأدَّت إلى الاضطرابات بين طوائف المجتمع فيما عرف بالحروب الأهلية بين العرب أنفسهم، أو بينهم وبين البربر. ويحفل التاريخ الأندلسي بمظاهر الخصومة العصبية بين الطائفتين العربيتين الكبيرتين القيسية واليمنية، وقد حملها العرب معهم من الجزيرة العربية وبلاد الشام، وكانت في نمو مضطرد خلال مراحل الحكم الإسلامي في الأندلس. بالإضافة إلى ذلك، فقد نشأت خصومة أخرى حفل بها التاريخ الأندلسي، بين العرب بعامة والبربر بخاصة، إذ عدَّ العرب أنفسهم العنصر المتفوق، فاحتكروا السياسة والحكم على الرغم من تفوق البربر العددي، وليس صحيحاً ما يذكره بعض المستشرقين، أن البربر حقدوا على العرب لأنهم استأثروا بالأراضي السهلية الخصبة وأعطوهم المناطق الجبلية القاحلة[1].

والواضح أن الدراسات التاريخية الأندلسية التي اعتمد عليها الباحثون كمصادر أساسية في دراسة المراحل الأندلسية المختلفة؛ لا تسمح بأكثر من إرساء السياق

---

(١) دوزي: جـ ١ ص ١٥٧.

السياسي العام للأحداث التاريخية، فهي لا تكاد تعطينا معلومات عن حقائق الخلفية الاجتماعية السائدة، أما النصوص الأدبية والقانونية، فإنها تكشف عن جوانب اجتماعية محدودة وتقتصر على فئات إجتماعية قليلة. نتيجة لذلك، لا يمكننا رسم صورة واضحة عن أوضاع سكان المدن والقرى من الناحية الاجتماعية إلا من خلال أوصاف الجغرافيين، وهي بدورها تتسم بالإيجاز الشديد[١].

كان المحاربون ينتقلون غالباً مع جميع أفراد القبيلة أو العشيرة بصحبة نسائهم وأطفالهم وكأنهم عازمون على الاستقرار. ومن المؤكد أن هذه العناصر العربية كانت بعيدة عن أن تذوب في المجتمع المحلي، إذ بقيت شديدة التماسك على شكل تجمعات عشائرية مؤكِّدة هويتها العرقية، على الأقل، حتى أواخر عقود القرن التاسع الميلادي، وهو عصر حدثت فيه اضطرابات سياسية خطيرة تعود أسبابها أساساً إلى خلافات عصبية، وهي تُظهر بوضوح وجود مجموعات عربية متمايزة بعضها عن بعض في مختلف أنحاء الأندلس.

لقد قدمت الطلائع الأولى للعرب مع طارق بن زياد وموسى بن نصير، وتألفت من رجال العشائر العربية الذين ينتمون إلى مختلف القبائل اليمنية، والقيسية، واستقروا في المناطق المفتوحة على شكل حاميات عسكرية مشكِّلين نواة للمستقرين العرب في الأندلس، ثم قدمت طليعة أخرى بقيادة الحر بن عبد الرحمن الثقفي في عام (٩٧هـ/ ٧١٥، ٧١٦م)[٢]، وأغلب هاتين الطليعتين كانتا من اليمنيين، فأضحت بذلك جماعة اليمنية هي المتفوقة، في العدد والقوة، على جماعة المضرية أو القيسية. وقد أطلق هؤلاء العرب على أنفسهم اسم البلديين، وعدُّوا أنفسهم أهل البلاد وأصحابه بوصفهم الفاتحين الذين تغلَّبوا على دولة القوط، واستقروا في الأراضي المفتوحة من دون تخطيط مسبق وتبعاً للصدفة.

ويبدو أن الهجرات العربية استمرت حتى منتصف القرن الثامن الميلادي، إذ نزحت من شمالي إفريقيا في عام (١٢٣هـ/ ٧٤٠م) موجة عربية أخرى تحت ضغط البربر،

---

(١) غيشار، بيير: التاريخ الاجتماعي لإسبانيا المسلمة، بحث في كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس جـ ٢ ص ٩٦٣، ٩٦٤. وانظر كتاب جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي، حيث يمكننا التعرف، بمزيد من الدقة، على المجموعات العربية الرئيسة التي دخلت الأندلس وتحديد الأماكن التي استقرت بها.

(٢) المقري: جـ ٤ ص ١١.

بقيادة بلج بن بشر القشيري، تُقدَّر بعشرة آلاف مقاتل من القيسيين واليمنيين، بينهم ألفان من الموالي، وعُرفوا بالشاميين لأنهم كانوا من القبائل العربية الساكنة في بلاد الشام، وقد أرسلهم الخليفة هشام بن عبد الملك إلى إفريقيا للقضاء على تمرد البربر هناك، وتوزعوا على الأراضي التي لم يستقر فيها البلديون على غرار تجمعاتهم في بلاد الشام، أي وفقاً لنظام الأجناد. فاستقر جند دمشق في إلبيرة، وجند حمص في إشبيلية ولبلة، وجند قنسرين في جيان، وجند فلسطين بين شذونة والجزيرة الخضراء، وجند الأردن في ريَّة، وجند مصر في أكشونبة وباجة وتدمير، أما الذين سكنوا مع البلديين، قبل هذه الترتيبات، فقد استمروا في أماكنهم، فسموا بالشاذة[(١)].

وبشكل عام، فقد استقر القيسيون الكنانيون حول طليطلة، والهذليون في إقليم ناربونة، والتميميون في منطقتي إشبيلية وبلنسية، وتوزَّع اليمنيون من الأزد وحمير بين قرطبة وبطليوس، وإشبيلية وإلبيرة ومرسية[(٢)].

البربر: يمكن استخلاص نتائج مماثلة فيما خصَّ استقرار البربر بجانب العرب في الأندلس، من المصادر نفسها التي زوَّدتنا بالمعلومات الخاصة بالعناصر العربية التي استوطنت بعد الفتح[(٣)]، وعلى الرغم من أن النصوص الخاصة بهم أقل عدداً من تلك التي تخص العرب؛ فهي تسمح بالاعتقاد بأنهم قدموا من المغرب بأعداد تفوق عدد العرب، وأن هجراتهم قد استمرت ناشطة على مراحل متقاربة أو متباعدة حتى عصر الخلافة على الأقل، وقد طبَّقوا نظام القبائل والعشائر في المناطق التي استقروا فيها.

وهناك دليل آخر على الأهمية النسبية لعملية الانتشار البربري في الأندلس يتمثل في البصمات النموذجية لأسماء الأماكن التي سكنتها العشائر البربرية في المناطق المفتوحة، حيث نجد العديد من أسماء هذه الأماكن التي تدل على وجودهم.

ففي شرقي الأندلس، نجد موضعاً في أحواز طرطوشة يُعرف بمغراوة، وهو، كما

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٣٣، ٣٨، ٣٩. ابن القوطية: ص ٨١ـ ٨٤. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٣١ـ ٣٢. ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد التلمساني: الإحاطة في أخبار غرناطة جـ ١ ص ١٨ـ ٢١. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٢١، ١٢٢.

(٢) المقري: جـ ١ ص ٢٧٨ـ ٢٨٧ حيث تفاصيل وافية تتعلق بأسماء القبائل العربية التي دخلت إلى الأندلس واستوطنتها.

(٣) إننا ندين بمعرفتنا لأصول البربر وأماكن استقرارهم في الأندلس للمعلومات المحددة والدقيقة التي تركها لنا ابن حزم الأندلسي في كتاب جمهرة أنساب العرب.

يبدو، قد أخذ اسمه من العشيرة البربرية الزناتية مغراوة[١]. واستقر البربر في الوسط والغرب، في جبال المعدن التي تقع إلى الجنوب من وادي آنه، وكانت هذه الجبال تدعى بجبال البرانس، لأن غالبية سكانها من البربر البرانس[٢]. واستقر بنو دانس، من مصمودة، في الأجزاء الجنوبية من البرتغال الحالية في قصر يُعرف بقصر دانس[٣]. وهناك إقليم في منطقة الجزيرة الخضراء في الجنوب يُسمى إقليم البربر، ويوجد بالقرب من جيان حصن يُعرف بحصن الهواريين نسبة إلى هذه العشيرة التي استقرت هناك، واستقرت عشيرة لماية البترية في ريَّة في إقليم سمي باسمها[٤].

والمعروف أن البربر الذين دخلوا إلى الأندلس ينتمون إلى قبيلتين كبيرتين هما البتر والبرانس، لكن غالبيتهم ينتمون إلى عشيرة مصمودة البرانسية وفروعها، أما الآخرون فيتنمون إلى العشائر الأخرى مثل هوارة ونفزة وزناتة ومكناسة وغيرها.

ويبدو أن التجمعات الرئيسة التي تكاثرت في الأندلس في عهد متقدم كانت أربع، مطغرة، مديونة، مكناسة وهوارة. ومن بين الأقاليم التي كانت تسكنها هذه الجماعات في المغرب، خلال القرن الثامن الميلادي، مناطق الريف الجبلية وجيلة القريبة من ساحل البحر الأبيض المتوسط، ثم انضمت إلى هذه العشائر الأربع عشائر أخرى مثل مغيلة وملزوزة وأوْرَبة ونفزة ومصمودة وكتامة[٥].

ويتصف التوزيع البربري على الأرض بعدم التكافؤ، بفعل أنه يختلف من منطقة إلى أخرى، بحيث أن مناطق الثغر الأعلى وكورة تدمير وإلبيرة وجيان، استقطبت أعداداً طفيفة، وتواجدت في شرقي الأندلس جالية بربرية متوسطة الكثافة، وشهدت بعض المناطق في شرقي الأندلس وفي غربها، وفي الثغر الأعلى وحول طليطلة، كثافة سكانية بربرية، والملاحظ أنها تركزت في المناطق الجبلية بشكل عام.

المستعربون: إن الدراسة الموضوعية للمجتمع الأندلسي في البدايات الأولى للفتح، تستلزم دراسة أوضاع النصارى الذين كانوا يعيشون ضمن إطار الدولة

---

(١) العذري، أحمد بن عمر بن أنس الدلاتي: ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ص ٢٠. القزويني، زكريا بن محمد بن محمود: آثار البلاد وأخبار العباد ص ٥٤٤.

(٢) ابن حيان القرطبي: المقتبس من أنباء أهل الأندلس ص ٣٣١، هامش رقم ٥٤٦. الحميري: ص ١٤٢.

(٣) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٥٠١.

(٤) العذري: ص ١٢٠.

(٥) ابن حزم: ص ٤٩٨ ـ ٥٠٢.

الإسلامية، وذلك بسبب الأهمية التي أُعطيت لهم في الدراسات التاريخية والثقافية، مما يتيح لنا استيعاباً أفضل لتطورهم التاريخي داخل المجتمع الإسلامي.

ويُطلق المؤرخون المسلمون اسم المستعربين على النصارى بعامة الذين كانوا يعيشون في الأندلس، سواء الذين كانوا من أصل قوطي أو الذين قدموا من المناطق الواقعة وراء جبال البرينيه، ذات الجذور الفرنجية، أو حتى القادمين من المشرق والمغرب، وقد جذب ثراء الأندلس وسهولة النفاذ إلى مجتمعها، أعداداً كبيرة من الأجانب، الأمر الذي مكّن النصارى وغيرهم من إيجاد مكان لهم في المجتمع الأندلسي.

وقد حظي النصارى الداخلون بالمكانة القانونية نفسها التي حظي بها النصارى ذوو الأصول العرقية القوطية، وللتفريق بينهم، يمكن أن نطلق على هؤلاء اسم المستعربين الجدد. وَوُجد في المجتمع الأندلسي مستعربون من أصل إسلامي تحولوا إلى النصرانية بعد استيلاء ملك قشتالة وليون على طليطلة، ويمكن أن نطلق على هؤلاء اسم المستعربين المتحولين. وترد كلمة المستعربين في الدراسات النصرانية بدءاً من القرن الحادي عشر الميلادي كوصف ذي دلالة تحقيرية للنصارى من أصل عربي، ويعيشون في الممالك النصرانية، وبخاصة في طليطلة(١).

وهناك المسلمون من أصل نصراني، أي الذين اعتنقوا الإسلام من الإسبان، وأُطلق عليهم اسم المسالمة، وعلى أبنائهم اسم المولَّدون، كما أطلق عليهم اسم العلوج، واشترك البربر معهم في هذه التسمية التي تعني غير عربي، وكان يُشار إليهم على أنهم أعاجم للدلالة على أنهم يتكلمون بلسان أعجمي، أي غير عربي(٢).

وتشير المصادر الإسلامية إلى نصارى الأندلس بعدد من الأسماء الأخرى، مثل نصراني ورومي ومسيحي، كما كان يُشار إليهم بحسب الأماكن التي تعود أصولهم إليها، مثل غاليسيين وباسكيين وقشتاليين وفرنجة وقطالونيين وغير ذلك، بالإضافة إلى أسماء ذات دلالات سلبية، مثل عدو الله، العدو، الطاغي، المستبد وغيرها.

والواقع أن المسلمين لم يفرضوا عقيدتهم على المستعربين، فأضحى هؤلاء أهل ذمة مع ما تمنحه القوانين الإسلامية لهم من حقوق وما تفرضه عليهم من واجبات، وعلى ذلك كان من حقهم الاختيار بين اعتناق الإسلام أو البقاء على ديانتهم

---

(١) دي إيبالزا: جـ ١ ص ٢٣٦ـ ٢٣٨.
(٢) المرجع نفسه.

النصرانية، فاختار كثير منهم اعتناق الإسلام وبخاصة أولئك الذين تعرَّضوا للمضايقة والاضطهاد في ظل الحكم القوطي.

وكانت هذه المسألة إحدى أكثر المسائل إثارة للاهتمام والجدل بفعل عدم وضوح رؤية المؤرخين المسلمين بشأن اعتناق هؤلاء للإسلام الأمر الذي أدى إلى ظهور ثلاث نظريات تستهدف التوصل إلى حلٍّ[1].

فاستناداً إلى النظرية **الأولى**، فإن عملية اعتناق النصارى للإسلام كانت بطيئة للغاية، وحجة أصحابها هي استمرار وجود تجمعات مهمة للمستعربين في طليطلة النصرانية في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، كما أن عدم تكرار ذكر النصارى في المصادر الإسلامية يعود إلى دورهم الثانوي في المجتمع الإسلامي، أما الإشارات النادرة إليهم، فهي تتعلق بالشخصيات البارزة منهم.

وتستند النظرية **الثانية** على مبدأ الاسمية، أي على أساس أسماء الأعلام، وذلك بهدف تجاوز ضبابية المصادر الإسلامية عن أسماء هؤلاء وتسلسل نسبهم. ويمكن الاستنتاج في حال العثور على اسم عائلة ذات وقع إسباني، أن أول شخص اعتنق الإسلام هو الذي يحمل أول اسم إسلامي في التسلسل النسبي، وقد بلغ هذا المنحى ذروته في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، حين كان سكان الأندلس ما زالوا على نصرانيتهم.

وتقوم النظرية **الثالثة** على قانون النصراني والمسلم. فعلى الرغم من أن المجتمع القوطي كان نصرانياً، فإن البنية الكنسية لذلك المجتمع أضحت عاجزة عن تلبية متطلبات السواد الأعظم للسكان النصارى من الناحية الرسمية بعد الفتح الإسلامي، لذلك خسرت الكنيسة القسم الأكبر من سكان شبه الجزيرة الإيبيرية لصالح الإسلام، إذ لم يعد بإمكانهم التحول إلى الوثنية أو البقاء على نصرانيتهم.

وبناءً على ما تقدم، مرَّت هذه القضية بمرحلتين:

الأولى: جرت على نطاق جماهيري واسع خلال عدة أجيال بعد الفتح.

الثانية: جرت بشكل بطيء.

وعندما توطدت سلطة المسلمين في الأندلس عُدَّ كل سكانها نصارى من الناحية الرسمية، ولم يخرج من ذلك التصنيف سوى التجمعات اليهودية.

---

(١) دي إيبالزا: جـ ١ ص ٢٤٨ ـ ٢٥٣.

وخلال القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي، نظمت الجاليات الأندلسية النصرانية نفسها وفق ثلاثة أطر مختلفة:

الأول: ففي المدن ذات الأسقفيات والمناطق الخاضعة لنفوذها، مثل طليطلة وماردة، تمَّ تنظيم الجاليات النصرانية وفق النمط الاجتماعي الإسلامي المشرقي.

الثاني: وفي مناطق كنتبرية والبرينيه الجبلية، قامت السلطات النصرانية بتنظيم نفسها على أساس الالتصاق بالسمات النصرانية الأوروبية.

الثالث: عُدَّ الذين خضعوا للمسلمين مباشرة، ولم يتم تسجيلهم على أنهم نصارى أو يهود؛ مسلمين من الناحية الرسمية، ويبدو أنه لم يكن لديهم أي خيار ديني وسياسي آخر[1].

---

(١) دي إيبالزا: جـ ١ ص ٢٥٤ـ ٢٥٧.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

الأوضاع الداخلية في الأندلس
في ظل حكم الولاة

طبيعة عهد الولاة

يُطلَق مصطلح «عهد الولاة» في الأندلس على المدة الزمنية التي أعقبت استدعاء موسى بن نصير من إفريقيا والأندلس في عام (٩٦هـ/ ٧١٥م)، حتى قيام الإمارة الأموية المستقلة في عام (١٣٨هـ/ ٧٥٦م) على يد عبد الرحمن بن معاوية، الملقب بالداخل. ويدل هذا المصطلح على وضع سياسي معين شهدته الأندلس منذ أن تمَّ فتحها في نهاية القرن الأول الهجري، تولى خلالها عدد من الولاة كانوا يُعيَّنون إما بقرار من الخلافة مباشرة أو بقرار من حاكم إفريقيا، ويُصرِّفون شؤونهم وفق ما يأتيهم من توجيهات من دمشق أو القيروان. واقتضى أحياناً إجراء تعيين سريع وعدم الانتظار، فيتفق أهل الأندلس على أحد منهم فينصِّبونه والياً بانتظار تعيين والٍ من قِبَل دمشق أو القيروان.

لم يكن الولاة الذين تعاقبوا على الحكم على مستوى واحد من القدرات السياسية والعسكرية، وبعضهم لم يمكث في الحكم أكثر من بضعة أشهر. وقد حرص خلفاء بني أمية في دمشق على طبع ولاية الأندلس بالطابع العربي شكلاً ومضموناً، بحيث قلَّدوا الوظائف الكبرى وقيادة الجيوش لعشيرتهم والقبائل المتحالفة معهم، واشترطوا أن يكون الوالي عربياً. ثم إن الارتباط الإداري بين إفريقيا والأندلس دفع والي القيروان إلى تعيين ولاة من بين جماعته وبني عشيرته، أو من الموالين المخلصين له والمؤيدين لسياسته وانتمائه العصبي. كما أن الوالي المعيَّن يصطحب معه، أو يستقدم، إلى الأندلس جماعته وعصبيته من الانتماء القبلي نفسه، يضاف إلى ذلك، فقد اتصف معظم الولاة بقصر النظر السياسي، فلم يواكبوا التبدُّل

السياسي والاجتماعي الذي طرأ على البلاد بعد انتشار الإسلام في ربوعها؛ مما أثَّر على الوضعين الداخلي والخارجي فيها.

وتداخلت أطراف القوى السياسية وتناقضت مصالحها وأهدافها بشكل ملفت، فالعرب الفاتحون الذين استقروا في المدن الكبرى، والسهول الزراعية الخصبة، عاشوا في رغد من العيش، وقد أزعجهم توافد جماعات عربية أخرى إلى البلاد خوفاً من منافستهم لهم، كما برزت العصبية القبلية بين القيسية واليمنية.

وامتد الصراع الداخلي ليشمل البربر أيضاً الذين عدُّوا أنفسهم الفاتحين الرئيسيين ويمثِّلون أغلبية عددية وكتلة مستقلة عن العرب. وقد تعدَّدت الأسباب وراء سخطهم، حتى إذا لاحت فرصة مناسبة للثورة استغلوها وفجَّروا ما يكمن في نفوسهم من حقد ضد السيادة العربية.

نتيجة لذلك، ظهرت محاور كثيرة، وتكتلات عديدة، وانتماءات متباينة، من عربية، قيسية ويمنية، وبربرية، وانغمس هؤلاء جميعاً في المشكلات التي كان يُغذِّيها الخلفاء والأمراء، وقد وضعت البلاد في جو مشحون، فاندلعت الحروب الأهلية. وهكذا تعقَّدت أمور الأندلس السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتشابكت أحداثها، ولعل الذي أدّى إلى نجاح هذه الظاهرة السلبية هو غياب السلطة المركزية القوية، أو تلك الشخصيات البارزة الفذَّة والقادرة على القيادة.

ومن جهة أخرى، شهدت الأندلس نوعاً من النهوض السياسي والعسكري، فقد اتسع المجال أمام بعض الولاة للقيام بأعمال قيِّمة، وبخاصة في بداية هذا العهد، ولا يستطيع الباحث أن يتجاهل تلك الحملات العسكرية الواسعة والجريئة وراء جبال البرينيه على الرغم من الظروف العصيبة. وهكذا ظهرت في هذا العهد صورتان متناقضتان: واحدة قاتمة وأخرى مضيئة.

عبد العزيز بن موسى بن نصير (٩٥ ـ ٩٧ هـ/ ٧١٤ ـ ٧١٦م)

تسلَّم عبد العزيز بن موسى إدارة البلاد المفتوحة بتكليف من والده، ثم أضحى أول حاكم عليها بعد المحنة التي عصفت به وقضت على حياته السياسية، وكان نموذجاً للحاكم الناجح. فقد رافق والده في معظم حملاته العسكرية، واكتسب منه الخبرة في العمل الإداري فأبدى، حين تسلَّم الحكم، رغبة صادقة في تنظيم الإدارة الجديدة، وأجمع المؤرخون الذين تناولوا بالذكر صفاته ومؤهلاته الإدارية، على أنه كان رجلاً خيِّراً، فاضلاً، ضبط البلاد، وسدَّ الثغور، وفتح مدناً عديدة[١]، وأنشأ

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢٤، ٢٥. الحميدي: ص ٢٥٧. المقري: جـ ١ ص ٢٦٩.

ديواناً لتطبيق الأحكام الشرعية وتنسيقها لتتوافق مع توجهات مختلف فئات المسلمين لاستقطابهم وتوحيد كلمتهم، وعامل سكان البلاد الأصليين من الأسبان بإحسان، فعيَّن كثيراً منهم في مناصب الإدارة والحكم بفعل خبرتهم في هذا المجال، وعمل على نشر الإسلام بينهم بالحجة والإقناع، وشجَّع المسلمين على الاختلاط بهم والتعامل معهم والزواج منهم، وذلك بهدف صهر الجميع في بوتقة واحدة، وخَلْق مجتمع متجانس، وكان قدوة في ذلك حين أقدم على الزواج من إيجيلونا، أرملة رودريك، وكانت قد صالحت على نفسها وأموالها وقت الفتح، وباءت بالجزية، وأقامت على دينها في ظل وليٍّ نعمتها إلى أن تزوجها فحظيت عنده، وعُرفت هذه السيدة بعد ذلك بأم عاصم[١]، نسبة إلى الطفل الذي أنجبته من زوجها الجديد. وانتعشت في عهده الحياة الزراعية والصناعية والتجارية، بما وفد على الأندلس من المهاجرين من مصر وبلاد الشام والعراق.

أراد عبد العزيز أن يظل قريباً من جنوده، يشاركهم حياتهم، لذلك عزف عن السكن في القصور واختار أن يسكن في دير القديسة رفْينة المطل على سهل إشبيلية، فجعل إحدى زواياه منزلاً له واتخذ من القسم الباقي مسجداً[٢]، ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يوفِّق بين توجهات مختلف القبائل، ولا أن يُهدِّىء من تذمُّر الجند.

لم يقدم لنا المؤرخون تفاصيل ما قام به عبد العزيز من إنجازات، ربما لأن قِصر المدة التي قضاها في الحكم حالت دون تمكُّنه من القيام بأعمال إدارية وعمرانية وعسكرية واسعة. فقد اغتيل وهو يصلي في مسجد إشبيلية في (٦ رجب ٩٧هـ/ ٥ آذار ٧١٦م)، على أيدي بعض القادة العسكريين، وهم حبيب بن أبي عبدة الفهري، الذي عيَّنه موسى وزيراً لابنه، وزياد بن نابغة التميمي، وزياد بن عذرة البلوي، بعد أن حكم مدة سنة وسبعة أشهر[٣].

أثارت حادثة الاغتيال الأندلسيين بعامة والمؤرخين بخاصة، الذين لم يقتنعوا بأن الاغتيال حصل فقط بسبب مطامع بعض القادة، وعلَّلوا ذلك بأن عبد العزيز وقع تحت تأثير زوجته التي تعوَّدت العيش في ظل مظاهر الملك، فأغرته بتبنِّي بعض

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٣. أخبار مجموعة: ص ٢٠. ابن القوطية: ص ٧٦.

(٢) ابن عذارى: المصدر نفسه: ص ٤. ابن القوطية: المصدر نفسه. المقري: جـ ١ ص ٢٧٠.

(٣) أخبار مجموعة: ص ٢٠. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٤، ٢٥. ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد الأزدي: تاريخ علماء الأندلس جـ ٢ ص ٢٢٥. الحميدي: ص ٢٥٧.

المظاهر القوطية، فانعكس ذلك على معتقداته ونمط حياته حتى بدا أقرب إلى النصرانية منه إلى الإسلام.

ووسَّع هؤلاء دائرة الاتهام، فطالت الخليفة سليمان بن عبد الملك نفسه، فهو الذي دبَّر عملية الاغتيال وكلَّف بعض الجند بتنفيذها، بسبب ما نُمي إليه من أن واليه يعتزم الانفصال عن دمشق والاستقلال بالأندلس، وأنه انتقد معاملته القاسية لوالده التي أنهت حياته السياسية، وحتى يدعموا رأيهم ذكروا بأن قتلته احتزوا رأسه وأرسلوه إلى دمشق[١].

الواقع أنه ليس لدينا أدلة مُقْنعة حول مشروع عبد العزيز الاستقلالي، ولم يشك أحد من المؤرخين بصحة إسلامه، أما إقحام اسم الخليفة فهو من أجل إضفاء الشرعية على حادثة الاغتيال. فسليمان لم يكن بحاجة للتآمر على أحد من ولاته طالما أظهر الولاء والطاعة، ولو رأى على عبد العزيز أمراً يستوجب المساءلة لاستدعاه إلى دمشق، ولو أنه كان الرأس المدبر لحادثة الاغتيال لما أصدر أمراً إلى والي إفريقيا للتحقيق بمقتله[٢].

إن الدراسة الموضوعية لدوافع الاغتيال المستندة على التكوُّن المتنوع للمجتمع الأندلسي، تدفعنا إلى الاعتقاد أنها تكمن في التنافس الحاد على السلطة بين القادة، في ظل غياب السلطة المركزية البعيدة عن مسرح الأحداث، وأن خصوم عبد العزيز هم الذين أشاعوا التهم المشار إليها لتبرير مؤامرتهم، ونرجح أن دوافعهم كانت داخلية شخصية.

أيوب بن حبيب اللخمي (٩٧هـ/ ٧١٦م)

الواضح أن المتآمرين الذين نفَّذوا عملية الاغتيال، وضعوا البلاد في مأزق سياسي بفعل الاختلاف فيما بينهم، ثم فيما بينهم وبين الزعماء البارزين في المجتمع من زعماء العشائر، حول هوية الشخص الذي سوف يخلف عبد العزيز، على الرغم من أن أحد المؤرخين ينفرد بذكر أنه تقرَّر سلفاً تعيين أيوب بن حبيب اللخمي الذي شارك في المؤامرة، وأن المتآمرين اختاروه بفعل مكانته المرموقة في المجتمع[٢].

ويبدو أن أيوباً هذا كان بعيداً جداً عن جو التآمر، واختير كحل وسط ومؤقت

---

(١) ابن عذارى: ج ٢ ص ٢٤، ٢٥. المراكشي: ص ١٢.

(٢) أخبار مجموعة: ص ٢٢.

بفعل ورعه وصلة قرابته بموسى بن نصير، فهو ابن أخته. لم يتميز عهده بأعمال هامة ذات شأن لأنه كان قصيراً لم يتجاوز الستة أشهر[1].

الحرُّ بن عبد الرحمن الثقفي (٩٧ ـ ١٠٠هـ/ ٧١٦ ـ ٧١٩م)

عين والي القيروان محمد بن يزيد[2] الحرَّ بن عبد الرحمن الثقفي والياً على الأندلس بعد أن عزل أيوب اللخمي، وكلَّفه بالتحقيق في مقتل عبد العزيز بن موسى، وأن يتشدَّد في ذلك[3]. ويبدو أن الوالي الجديد توقَّع مقاومة من جانب الوالي المعزول، فاصطحب معه أربعمائة من وجوه إفريقيا الذين «كان منهم طوالع الأندلس المعدودون»[4].

كانت فاتحة أعماله نقْل العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة[5]، المدينة الأكثر توسطاً في الأندلس، مما يسهل عليه ضبط البلاد، ومع ذلك فإنها لم تكن المركز المناسب لإدارة سائر البلاد والتحكم بطرق الحملات العسكرية نحو الشمال مثل طليطلة عاصمة القوط، وهذا خطأ ارتكبه الحر ومن جاء بعده الذين تمسَّكوا بقرطبة عاصمة لهم.

نزل الحرُّ في دار الإمارة، وكان قصراً لمغيث الرومي اختطه لنفسه ثم تخلّى عنه ليصبح مقراً لوالي الأندلس[6]، ومكث في الحكم مدة عامين وثمانية أشهر لم يحقِّق خلالها أيَّةَ إنجازات تُذْكر، ويبدو أنه شُغل بإخماد الفتن ومعالجة النزاعات التي بدأت تظهر بين العرب والبربر، وإصلاح الجيش، وتنظيم الإدارة، ومطاردة الخوارج، وتوطيد الأمن الأمر الذي دفع الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عزله[7].

السمح بن مالك الخولاني (١٠٠ ـ ١٠٢هـ/ ٧١٩ ـ ٧٢١م)

توفي الخليفة سليمان بن عبد الملك في (صفر ٩٩هـ/ أيلول ٧١٧م) وخلفه عمر بن عبد العزيز[8]، وكانت له نظرته الخاصة في تقويم ما اعوجَّ من الأمور إن في حقل السياسة الخارجية أو في الأوضاع الداخلية، واختلف نهجه عن نهج أسلافه،

---

(١) ابن القوطية: ص ٧٩. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٥.
(٢) كان الخليفة سليمان بن عبد الملك قد عيَّنه بعد أن عزل عبد الله بن موسى بن نصير.
(٣) أخبار مجموعة: ص ٢٢، ٢٣.
(٤) المصدر نفسه. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٥. (٥) ابن عذارى: المصدر نفسه.
(٦) أخبار مجموعة: ص ٢١. ابن عذارى: المصدر نفسه.
(٧) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٦. الحميدي: ص ١٧٩.
(٨) الطبري: جـ ٦ ص ٥٣١، ٥٣٢.

وبخاصة في العلاقة بين السلطة المركزية، وعمالها في الولايات، وتجميد العمليات العسكرية على كافة الجبهات، والمحافظة على مكتسبات الفتوح، والدفاع عنها ضد الأخطار الداخلية والخارجية، بالإضافة إلى اتباع سياسة سلمية مع الشعوب غير الإسلامية، ودعوتها إلى الإسلام.

وحدث ما وضع كلاً من إسماعيل بن عبيد الله، مولى بني مخزوم، والسمح بن مالك الخولاني، موضع الثقة من الخليفة[1]، فعيَّن الأول والياً على إفريقيا والثاني والياً على الأندلس، وقد فصلها عن ولاية إفريقيا وربطها إدارياً بالخلافة مباشرة، بفعل ما أدركه من أهميتها واتساع شؤونها، وأمره بأن يحمل الناس على طريق الحق، وألا يعدل بهم عن منهج الرفق، وأن يُخمِّس ما غلب عليه من أراضي البلاد وعقارها، ويكتب إليه بصفتها وأنهارها وبحارها، مما يدل على قلَّة المعلومات عن تلك البلاد في أوساط الهيئة الحاكمة في دمشق، كما أشار عليه بأن يعمل على إجلاء المسلمين عنها إذا وجد خطراً يتهدَّدهم، أو ضَعُف سلطانهم هناك[2].

والمعروف أن قوة المسلمين في الأندلس كانت متينة في ذلك الوقت، وقبضتهم عليها قوية، لكن ندرة المعلومات عن حقيقة وضعها وأوضاع المسلمين فيها، مردُّها إلى قِصَر مدة الولاة الذين تعاقبوا عليها حتى الآن وانهماكهم بحلِّ المشكلات الداخلية، والصراعات بين مختلف العشائر، والصدامات مع النصارى في الشمال؛ فصُرفوا عن وضع تنظيمات إدارية سليمة، مثل إنشاء الدواوين التي تكفل لهم جمع أخبار البلاد وتدوينها في السجلات وإرسال تقارير دورية عنها إلى الخلافة، وظلَّت الأندلس أكثر من أربعين عاماً من فتحها بدون أن تعرف الخلافة حقيقة خراجها ومقدار ما يُجبى منها[3].

وصل السمح بن مالك إلى الأندلس في شهر (رمضان ١٠٠هـ/ نيسان ٧١٩م) مُزوَّداً بنصائح الخليفة، وتسلَّم منصبه الجديد، ورضيت مختلف فئات المجتمع الأندلسي بتعيينه ورحَّبت به. وبعد أن اطلع على أوضاع البلاد والمسلمين كتب تقريراً أولياً إلى الخليفة يخبره بقوة الإسلام وكثرة مدائن المسلمين وشرف معاقلهم[4]، الأمر الذي حمل الخلافة على الاهتمام بالأندلس، وعدل عمر بن عبد العزيز عن رغبته في إخراج المسلمين منها.

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٢٣.

(٢) المصدر نفسه. ابن القوطية: ص ٨٠. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٦.

(٣) العدوي: ص ١٥٨.
(٤) ابن القوطية: ص ٨٠.

اتصف الوالي الجديد بالحكمة والتعقُّل، فاكتسب ثقة الأندلسيين، وأتاح له استقلاله عن والي إفريقيا، حرية في العمل الإداري، فنظم الإدارة والجيش بشكل مسبوق، بل كان رائداً في تنظيم الجهاز الحكومي على أسس جديدة ومتطورة[١]. وكانت سياسته الإصلاحية في الإدارة والاقتصاد والعمران نقطة تحول في تاريخ الأندلس بحيث أعطتها الشخصية الإسلامية المتميزة[٢]، نذكر من بين الأعمال العمرانية التي اقترنت بحكمه، إعادة بناء القنطرة الرومانية على نهر الوادي الكبير التي امتدت كجسر بين الضفة الشمالية، حيث العاصمة قرطبة، وبين الضفة الجنوبية المعروفة بالربض[٣].

والتفت السمح بن مالك إلى تخميس أراضي الأندلس المفتوحة تنفيذاً لقرار الخليفة[٤]، وكانت هذه القضية قد أثارت مشكلة منذ أن عقد تدمير بن عبدوش، حاكم إمارة تدمير، صلحاً مع عبد العزيز بن موسى، ونال منه عهداً بالأمان له ولرعاياه على أنفسهم وأموالهم، وممارسة شعائرهم الدينية بحرية، وحماية كنائسهم[٥]، والمعروف أن الفقه الإسلامي فرَّق بين أوضاع المناطق التي تُفتح صلحاً أو عنوة، وأن أرض هذه الأخيرة هي التي ينبغي أن تخمَّس، وأن يُخرج الخمس من خراجها ويوزع على الفاتحين، لكن السمح واجه مشكلة في التفريق بين الأراضي التي فُتحت صلحاً وتلك التي فُتحت عنوة، ولم يتمكَّن من إخراج الخمس، فكتب تقريراً بشأن ذلك إلى الخلافة، فأرسل عمر بن عبد العزيز مولاه جابراً، وهو أحد ثقاته، إلى الأندلس لتنظيم أوضاعها المالية، لكن جابراً واجه المشكلة نفسها، واضطر أن يترك القرى بيد أصحابها مقابل ضرائب محدودة.

وواجه السمح بن مالك الخولاني مشكلة أخرى، فعندما وصل إلى الأندلس أراد أن ينزل وجنوده، الذين اصطحبهم معه، بين المسلمين الأوائل، ويشاركهم في رباعهم وأموالهم، فشخصت طائفة منهم إلى الخليفة وأخبرته بما صنع موسى بن نصير عندما قسَّم الأرض بعد إخراج الخمس، ووافقه الخليفة الوليد على ذلك، فأقرَّهم عمر على ما أقرَّهم عليه الوليد وعلى ما قسَّمه موسى، وكتب إلى السمح بن

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٢٣. (٢) بيضون: ص ٩٤.

(٣) أخبار مجموعة: ص ٢٤. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢٦. المقري: جـ ٢ ص ٢٥.

(٤) أخبار مجموعة: ص ٢٣، ٢٤. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢٦.

(٥) انظر نص وثيقة الصلح عند الحميري: ص ٦٢، ٦٣. بروفنسال: ص ٥٧.

مالك الخولاني بالوقوف عنده، وأن يقطع الجند الذين معه من الأخماس.

كانت الأندلس بحاجة إلى جهود رجل مثل السمح، غير أنه لم يعِش طويلاً، فقد قُتل في معركة طلوشة ـ تولوز ـ خلال إحدى غزواته في غالة في (٩ ذي الحجة ١٠٢هـ/ ١٠ حزيران ٧٢١م) بعد أن حكم سنتين وأربعة أشهر[١].

عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (المرة الأولى) (١٠٢ ـ ١٠٣هـ/ ٧٢١م)

كان عبد الرحمن الغافقي يرافق السمح بن مالك الخولاني في حملته على بلاد الفرنجة، ولما قُتل في ساحة المعركة، اختاره الجند قائداً لهم، وهو الرجل البارز والأوفر حظاً في خلافة السمح، فكان من الطبيعي أن يتحول القائد المؤقت إلى والٍ دائم على الأندلس، والمعروف أن الولاية آنذاك، كانت تجمع بين القيادتين العسكرية والمدنية.

هكذا دخل عبد الرحمن الغافقي قرطبة بعد أن نجح في الانسحاب واعترف سكانها به والياً عليهم، وبخاصة أنهم لم يكونوا ينتظرون وصول أمر الخليفة بتعيين والٍ جديد مكان السمح إلا بعد مضي مدة من الزمن نظراً لبعد المسافة.

ظل عبد الرحمن الغافقي بعيداً عن جو التآمر الذي ساد البلاد في عهد عبد العزيز بن موسى، على الرغم من محاولة جماعة المتآمرين استقطابه إلى جانبهم نظراً لمكانته، فهو «سيد أهل البلاد صلاحاً وفضلاً»، بل على العكس من ذلك، فإنه دعاهم إلى الاعتدال والتخلي عن تنفيذ خطتهم، غير أن ولايته لم تستمر أكثر من شهرين، لم يتح له خلالها أن يقوم بأي عمل تنظيمي أو عسكري يذكر[٢].

عنبسة بن سُحَيْم الكلبي (١٠٣ ـ ١٠٧هـ/ ٧٢١ ـ ٧٢٥م)

يبدو أن السياسة القبلية التي اشتهرت بها شمالي إفريقيا قد انعكست على الأندلس، فكانت السبب في إبعاد عبد الرحمن الغافقي عن الحكم، فقد اختار بشر بن صفوان الكلبي، والي إفريقيا، أحد أقاربه من الكلبيين، هو عنبسة بن سُحَيم، والياً على الأندلس[٣].

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٦، وقارن بالحميدي: ص ٢٠٩ الذي يذكر أنه قتل في ذي الحجة عام ١٠٣هـ. المقري: جـ ٤ ص ١٢.

(٢) ابن عذارى: المصدر نفسه. المقري: جـ ١ ص ٢٢٥، ٢٨٧، جـ ٤ ص ١٢.

(٣) أخبار مجموعة: ص ٢٤. ابن القوطية: ص ٨٠. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٧.

كانت مهمة هذا الوالي دقيقة، فقد جاء إلى الأندلس في جو الهزيمة القاسية التي تعرَّض لها المسلمون في طلوشة وهي الأولى في تاريخهم بالأندلس، حيث تركت آثارها الواضحة على بنية السلطة القائمة أصلاً على التوازن القبلي، فإذا الكلبيون يمسكون بزمام السلطة مدة طويلة، وفي المقابل كان القيسيون ينتابهم الغضب، وينتظرون فرصة أخرى لاستعادة السلطة. وعلى الرغم من أن السياسة القبلية هي التي أتت بسُحَيْم إلا أنه عمل، خلال الأعوام التي قضاها في الحكم، إلى خلق توازن مقبول بين العرب في الأندلس[1]، كما كرَّس كثيراً من وقته للجهاد ضد النصارى في الشمال والتوسع في المناطق المتاخمة لجبال البرينيه في بلاد الفرنجة. واستشهد وهو في طريق عودته من إحدى غزواته في (شعبان ١٠٧هـ/ كانون الأول ٧٢٥م) بعد أن حكم مدة أربعة أعوام وثمانية أشهر[2].

ولاة الأندلس بعد عنبسة وحتى آخر ولاية الغافقي الثانية

تمهيد

مرَّت الأندلس، بعد وفاة عنبسة بن سُحَيْم الكلبي، بمرحلة من الجمود السياسي أهم سماتها عدم الاستقرار الداخلي في ظل تفاقم الخلافات بين القبائل، وتمرُّد البربر، وتفكُّك الجيش. ففي أقل من سبعة أعوام (١٠٧ـ ١١٤هـ/ ٧٢٦ ـ ٧٣٢م) تعاقب على الحكم سبعة ولاة فرضت العصبية القبلية معظمهم، ولم يتمكَّن أحد منهم من تحقيق إنجازات تذكر على الصعيدين الداخلي والخارجي باستثناء إثنين هما الهيثم بن عبيد الكلابي أو الكناني وعبد الرحمن الغافقي.

والواقع أن القيروان كانت مردَّ هذه السياسة القبلية الضيِّقة، وهي بدورها كانت تتأثر بالتغيرات السياسية والإدارية في دمشق، وقد فرضت على الأندلس سنوات من الحكم القيسي المتطرف. بالإضافة إلى ذلك، أدَّى تتابع الولاة، على هذا النمط، إلى تفاقم الخلافات بين زعماء القبائل ورؤساء العشائر، وقد نتج عنها اضطرابات وخلل في الأداء الحكومي. وفيما يلي أسماء الولاة الذين تعاقبوا على الحكم خلال هذه المدة:

عذرة بن عبد الله الفهري (١٠٧هـ/ ٧٢٥م)

على أثر مقتل عنبسة بن سُحَيم الكلبي في بلاد الفرنجة، نصَّب أهل الأندلس عليهم عذرة بن عبد الله الفهري ريثما يُعيِّن الخليفة، أو والي إفريقيا، والياً جديداً.

---

(١) بيضون: ص ٩٥.

(٢) الحميدي: ص٢٢٨. المقري: جـ١ ص٢٢٥.

كان هذا الوالي رجلاً صالحاً وفارساً شجاعاً، إلا أنه لم يُحقِّق أية إنجازات على الإطلاق وذلك بفعل قصر مدة ولايته التي استمرت شهرين[1].

يحيى بن سلمة الكلبي (١٠٧ - ١١٠هـ/ ٧٢٦ - ٧٢٨م)

عيَّنه والي إفريقيا بشر بن صفوان الكلبي بأمر من الخليفة هشام بن عبد الملك. مكث في ولايته مدة سنتين وستة أشهر من دون أن يُحقق إنجازاً أو يترك أثراً[2].

حذيفة بن الأحوص القيسي (١١٠هـ/ ٧٢٨م)

عيَّنه عبيدة بن عبد الرحمن السلمي في ظل الصراع القيسي اليمني واستمر في ولايته أقل من سنة[3].

عثمان بن أبي نسعة (١١٠هـ/ ٧٢٩م)

عيَّنه عبيدة بن عبد الرحمن السلمي أيضاً ودامت ولايته خمسة أشهر فقط[4].

الهيثم بن عبيد الكلابي (١١١هـ/ ٧٢٩م)

عيَّنه والي إفريقيا عبيدة بن عبد الرحمن السلمي. اشتهر بالحزم وقوة العزيمة. حاول أن يقضي على الفوضى وأن يعيد النظام إلى ربوع الأندلس، لكن سلوكه تجاه خصومه، وبخاصة اليمنيين، أدى إلى نتائج عكسية، إذ لم يتوانَ عن مضايقة هؤلاء، ونفى بعضهم، وقتل البعض الآخر، وراقب تحركات زعمائهم، وتمادى في حربهم حين قتل أحد أعيانهم، وهو سعيد بن جواس، الذي كان يتمتع باحترام اليمنيين، فغضب اليمنيون لقتله، وسخطوا على الوالي، وكادت البلاد تغرق في الحرب الأهلية، لولا أن تدارك الخليفة هشام بن عبد الملك الموقف ورأى ضرورة خلع الهيثم، لكن الوالي توفي بعد خمسة أشهر من ولايته[5].

محمد بن عبد الله الأشجعي: (١١١هـ/ ٧٣٠م)

اختاره أهل الأندلس والياً عليهم بعد وفاة الهيثم بن عبيد الكلابي. اشتهر بالصلاح والتقوى، إلا أنه لم يمكث في ولايته أكثر من شهرين[6].

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢٧. المقري: جـ ١ ص ٢٨٧.

(٢) أخبار مجموعة: ص ٢٤. ابن القوطية: ص ٨٠. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢٧. المقري: جـ ١ ص ٢٢٥.

(٣) المصادر نفسها.

(٤) المصادر نفسها. ابن عذاري: المصدر نفسه ص ٢٧، ٢٨.

(٥) أخبار مجموعة: ص ٢٤. ابن القوطية: ص ٨٠. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢٧. المقري: جـ ١ ص ٢٢٥.

(٦) ابن عذاري: جـ ٢. ص ٢٨. المقري: المصدر نفسه ص ٢٢٦.

عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (المرة الثانية) (١١٢ ـ ١١٤هـ/ ٧٣٠ ـ ٧٣٢م)

عيَّنه والي إفريقيا عبيد الله بن الحبحاب بعد موافقة الخليفة هشام بن عبد الملك، ولا يُستبعد أن يكون الجيش وراء هذا التعيين بفعل محبة الجند له، وكردٍّ فعل على تسلُّط القيسية، والمعروف أن الغافقي يمني الانتماء ومن التابعين الذين دخلوا الأندلس، وهو طراز آخر من الرجال. وأجمع المؤرخون على أنه كان متحرراً من العصبية القبلية، حسن السيرة، عادلاً، مجاهداً، دائباً على الغزو.

بدأ الغافقي ولايته بجولة قام بها في مختلف أرجاء الأندلس للاطلاع على أوضاعها وتنظيم شؤونها، وعيَّن على ولاياتها حكاماً أكفاء عادلين، واستطاع بمنهجه المتزن وبسياسته المنفتحة على مختلف القبائل والعشائر، وبرفع المظالم عن الناس، أن يضمن الاستقرار والهدوء، وتوجيه الناس نحو الجهاد.

وكانت علاقات الغافقي بالنصارى المحليين جيدة، وحتى يستقطبهم ويضمن ولاءهم وهدوءهم، ردَّ إليهم كنائسهم وأملاكهم المغتصبة، وفرض الضرائب على كافة السكان بشكل متساوٍ.

اعتنى الغافقي بتقوية الجيش، فهو الوسيلة التي تضمن الأمن والهدوء في الداخل، وتُنجز الفتوح في الخارج؛ فرفده بعناصر جديدة، وحصَّن الثغور لا سيما في المناطق الشمالية الحدودية تمهيداً لبدء عملية التوسع.

استشهد الغافقي في معركة بلاط الشهداء في (رمضان ١١٤هـ/ تشرين الثاني ٧٣٢م)، وخلفه عبد الملك بن قطن الفهري[(١)].

عبد الملك بن قطن الفهري بين ولايتيه الأولى والثانية

الولاية الأولى (١١٤ـ ١١٦هـ/ ٧٣٢ ـ ٧٣٤م)

كان لمعركة بلاط الشهداء صدى مؤثِّر في مختلف أرجاء دولة الخلافة الأموية، وبخاصة في دمشق، فقد أثارت نتائجها السلبية الخليفة، هشام بن عبد الملك، الذي أدرك أنه يتوجب إعادة النظر بالسياسة الغربية للدولة من واقع إعطائها جانباً من اهتمامه، لكن الخلافة في دمشق انغمست في لعبة السياسة القبلية وورَّط الخليفة هشام بن عبد الملك نفسه، وهو المعروف باعتداله، ظناً منه أنها ذات فائدة، لكنها

(١) أخبار مجموعة: ص ٢٥. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٨. الحميدي: ص ٢٤٣ الذي يذكر أنه استشهد في عام ١١٥هـ.

في الواقع لم تكن أكثر من محاولات سطحية للتهدئة وتجميد الأوضاع[١]، وليس إيجاد حلول جذرية لها، فاختار عبد الملك بن قطن الفهري والياً على الأندلس، وهو أحد غلاة القيسية، وأمره بالعمل على توطيد الأمن وحماية البلاد[٢].

عبر عبد الملك مع جيشه، الذي اختار أفراده بنفسه من جند إفريقيا، في (أواخر عام ١١٤هـ/ أواخر عام ٧٣٢م)، وبدأ عهده بشكل مختلف عمن سبقوه، فاتصف بالظلم والجور. والواقع أننا لا نملك أية تفاصيل عن ولايته الأولى هذه سوى ما يذكره المقري[٣] من أنه غزا أرض البشكنس، وعُزل في شهر (رمضان ١١٦هـ/ تشرين الأول ٧٣٤م)، ولم يجد والي مصر وإفريقيا عبيد الله بن الحبحاب بداً من عزله، وولَّى عقبة بن الحجاج مكانه، ويبدو أن صداقة قديمة جمعت بين الأسرتين، كانت السبب في اختياره.

عقبة بن الحجاج السلولي (١١٦ ـ ١٢١هـ/ ٧٣٤ ـ ٧٣٩م)

استهل عقبة عهده بتطهير البلاد من الذين أثاروا الاضطرابات في المجتمع الأندلسي، فقبض على عبد الملك بن قطن الفهري وسجنه، وطرد جماعة من أنصاره ومؤيديه إلى المغرب، كما نفى جماعة من الحجازيين الأندلسيين الذين اشتركوا في الاضطرابات الأخيرة.

كان عقبة على طراز الغافقي، تقياً ورعاً، اتصف بجديته في الحكم وبنزعته الجهادية بهدف نشر الإسلام، فحقَّق العدل، وردَّ المظالم، وأنشأ كثيراً من المدارس والمساجد، فاستقرت أوضاع الأندلس في عهده، وتراضت القبائل، فتفرع عندئذٍ للجهاد[٤].

كان عقبة قد أرسل إلى إفريقيا قوات عسكرية لمساعدة واليها عبيد الله بن الحبحاب في حربه ضد الخوارج الصفرية[٥]، الأمر الذي أدى إلى تقلُّص قوته العسكرية، وأغرى النصارى في الشمال على مهاجمة الأملاك الإسلامية، فحقَّقوا انتصارات مهمة على الجيوش الإسلامية.

ويحيط الغموض بمصير عقبة بعد هزيمته أمام شارل مارتل في سبتمانية، وإذا كانت لا توجد إشارة ما بأنه قُتل في هذه المعركة، فإن أصابع الاتهام تشير إلى

---

(١) بيضون: ص ٩٨.

(٢) أخبار مجموعة: ص ٢٥. ابن القوطية: ص ٨٠. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢٨.

(٣) نفح الطيب: جـ ١ ص ٢٢٦. (٤) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢٩.

(٥) نسبة إلى قائدهم في المشرق زياد بن الأصفر.

عبد الملك بن قطن الفهري الذي استغلَّ هذه الأوضاع القلقة، بالإضافة إلى ما كان يجري في المغرب من ثورة البربر على النظام الأموي، فقام بانقلاب عسكري في قرطبة واستلم الحكم. والراجح أنه قبض على عقبة وسجنه، ولا يُستبعد أن يكون قد قتله انتقاماً من معاملته السابقة له. والمعروف أن روايات المصادر أسدلت الستار عليه. بعد هذا الانقلاب، ولم تذكر اسمه ولا حتى الإشارة إليه[1].

الولاية الثانية: (١٢٣ ـ ١٢٤هـ/ ٧٤١ ـ ٧٤٢م)

الاضطرابات العنصرية في المغرب وانعكاسها على أوضاع الأندلس

تمهيد

حفلت ولاية عبد الملك بن قطن الفهري الثانية بالأحداث الجسام والتطورات السياسية البالغة الخطورة، فقد تجدَّد خلالها الصراع العنصري العربي ـ البربري انطلاقاً من المغرب، وقد بلغ أشده في عام (١٢٢هـ/ ٧٤٠م) فيما عُرف بالفتنة المغربية الكبرى، نتيجة لسوء سياسة ولاة بني أمية، وعدم إدراك الأمويين لطبيعة البربر، وهم سكان البلاد الأصليين، وإنكارهم للدور الكبير الذي قاموا به في عمليات الفتوح في المغربين الأوسط والأقصى والأندلس، وقد غابت عن أذهان كثير من الخلفاء الأمويين حقيقة إسلام البربر خلال عمليات الفتوح وما يستتبع ذلك من المساواة في المعاملة في الحقوق والواجبات. وتطلَّع البربر، من جانبهم، إلى الحصول على نصيبهم من العطاء ما داموا مسلمين يحاربون جنباً إلى جنب مع العرب، بالإضافة إلى حقوق كثيرة يعطيها لهم الإسلام، ورأوا أنهم لم يُكافأوا على ما قدموه من خدمات، كما كانوا يأملون، ولم يعاملهم العرب معاملة النظير للنظير، وهم في الوقت نفسه غير مستعدين للسماح للعرب بمشاركتهم خيرات بلادهم مشاركة كاملة، وينكرون عليهم الاستئثار بالسيادة فيه من دون حساب.

والواقع أنه لا يمكننا أن ندرك خلفيات تطور الأحداث في الأندلس، بشكل واضح، إذا لم نتطرق إلى ما جرى في المغرب نظراً لارتباط الولايتين المباشر.

معركة وادي شليف

لم تتوقف سياسة العداء المكتسبة منذ الفتوح الأولى بين العرب والبربر على الرغم من دخول هؤلاء في الإسلام، واستمرت ناشطة في اتجاه تصاعدي. ولعل

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٢٨. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢٩، ٣٠.

أبرز أخطاء بشر بن صفوان الكلبي، خلال ولايته على شمالي إفريقيا، أنه عادى البربر واضطهدهم. وتبلورت في عهد عبيدة بن عبد الرحمن السُلمي مرحلة عصبية في العلاقات بين العنصرين العربي والبربري وأخذت الهوة بينهما بالاتساع في الوقت الذي أعاد فيه هذا الوالي ذكريات الصراع المسلح الذي ساد في بداية الفتوح نتيجة لسياسته المتشدِّدة تجاه البربر، الأمر الذي أدَّى إلى تململهم ونقمتهم، ولاحت في الأفق تباشير التحرك المعادي للنظام الأموي.

ويبدو أن الخليفة هشام بن عبد الملك أدرك سوء سياسة واليه على إفريقيا التي أثارت البربر، فعزله من منصبه وعيَّن عبيد الله بن الحبحاب مكانه[١]. لم يكن هذا الوالي أفضل من أسلافه وارتكب الأخطاء نفسها.

استغل نفر من الخوارج[٢] الفارين من الشرق، هذه الثغرة، فتغلغلوا في صفوف البربر، ونشروا تعاليمهم في المجتمع البربري، وقد لاقت تقبلاً ولا سيما نظريتهم في الحكم القاضية بعدم حصر الخلافة بالعرب وإباحته لذوي الكفاءة من المسلمين بعامة، كما حرَّضوهم على الثورة ضد ما يقع عليهم من ظلم، فثاروا ضد والي طنجة عمر بن عبد الله المرادي بقيادة ميسرة المطغري، وقتلوه وسيطروا على المدينة، كما قتلوا والي السوس إسماعيل بن عبيد الله، وهو أحد أبناء والي إفريقيا، وسيطروا على المنطقة[٣].

ارتاع والي إفريقيا عبيد الله بن الحبحاب لقتل ابنه وأحد ولاته، وخشي من أن يقضي انتصار البربر على حكمه، بل على الحكم العربي كله في شمالي إفريقيا، لذلك تحرَّك على محورين:

الأول: استدعى حبيب بن أبي عبيدة الفهري، الذي كان يغزو صقلية ومعه معظم القوة العسكرية.

الثاني: أرسل ما توفَّر له من القوات إلى طنجة لقمع ثورة البربر واستعادة المدينة[٤].

وإذا كان التحرك الأول يُعدُّ سليماً من الناحية العسكرية، فإن التصرف الثاني جاء متسرعاً ولم يكن مدروساً، وذلك بفعل فقدان التكافؤ بين الطرفين المتصارعين،

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٢٥. ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي...: الكامل في التاريخ جـ ٤ ص ٢٢٤.

(٢) الخوارج هم الجماعات الذين خرجوا على علي بن أبي طالب بعد التحكيم.

(٣) ابن عبد الحكم: ص ٢٩٣. أخبار مجموعة: ص ٢٨. ابن القوطية: ص ٨١. ابن عذارى: جـ ١ ص ٥٢.

(٤) ابن عبد الحكم: ص ٢٩٣، ٢٩٤. ابن عذارى: جـ ١ ص ٥٣. ابن الأثير: جـ ٤ ص ٢٢٥.

الأمر الذي أدَّى إلى القضاء على تلك القوة الأموية في معركة وادي شليف[1]، ومقتل قائدها. ولم يشترك حبيب بن أبي عبيدة في المعركة لأنه وصل متأخراً، وتُعرف هذه المعركة أيضاً بمعركة الأشراف نسبة إلى التضحية الجماعية التي نكب بها العرب حيث قُتل حماتهم وفرسانهم وأبطالهم[2].

أسفرت معركة وادي شليف عن نتائج بالغة الخطورة على الوضع الإسلامي في شمالي إفريقيا، كان لها صدى مؤثِّر في دمشق، حيث انتفض الخليفة هشام بن عبد الملك «وغضب غضبته الشهيرة»[3]، كما ارتاع عبيد الله بن الحبحاب الذي أدرك أن حياته السياسية باتت مهدَّدة وبخاصة عندما علم بانقلاب عبد الملك بن قطن الفهري ضد عامله على الأندلس عقبة بن الحجاج.

لم يستثمر ميسرة انتصاره، وعاد إلى طنجة من دون سبب ظاهر، ويبدو أنه خشي رجحان كفة الجيوش الأموية، وأنه فضّل العودة إلى طنجة ليعيد تنظيم صفوف قواته لضمان النصر النهائي، فعدَّ أتباعه ذلك التصرف خروجاً على مبادىء الثورة، فقتلوه وولوا خالد بن حُميد الزناتي مكانه، وهو أحد المتطرفين الخوارج[4] ، فدخلت الثورة في عهده مرحلة جديدة، كان على العرب بذل مزيد من الجهد لوقف خطرها.

معركة بقدورة

أدركت الخلافة في دمشق أنها أخطأت حين منحت عاملها عبيد الله بن الحبحاب ثقتها المطلقة، وحمَّلته المسؤولية المباشرة عن تردِّي الأوضاع في المغرب، فعزلته، وولَّت كلثوم بن عياض القشيري مكانه، وذلك في (جمادى الآخرة ١٢٣هـ/ أيار ٧٤١م) وأمرته بقمع ثورة البربر[5].

جاء كلثوم بن عياض إلى المغرب على رأس جيش كثيف قدَّرت المصادر عدد أفراده بأكثر من ثلاثين ألفاً[6]، غالبيتهم المطلقة من الشاميين، وهذا دليل على أن

---

(١) ابن عبد الحكم: ص ٢٩٤. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٥٣، ٥٤. ابن الأثير: جـ ٤ ص ٢٢٥. وشليف: نهر بالقرب من تاهرت.

(٢) المصادر نفسها.

(٣) ابن عذارى: جـ ١ ص ٥٤. ابن الأثير: جـ ٤ ص ٢٢٥.

(٤) ابن عذارى: المصدر نفسه.

(٥) أخبار مجموعة: ص ٣٠. ابن القوطية: ص ٨١. ابن عذارى: المصدر نفسه. ابن الأثير: جـ ٤ ص ٢٢٥.

(٦) المصادر نفسها: ص ٣١. ص ٨١. ص ٥٤. ص ٢٢٥.

الخليفة هشام بن عبد الملك تهيَّب خطورة الموقف في الولاية الإفريقية، ويبدو أنه خشي من فشل قائده بفعل كبر سنه، فأرسل معه ابن أخيه بلج بن بشر القشيري الذي كان القائد الفعلي للجيش، بالإضافة إلى ثعلبة بن سلامة العاملي الذي كان يلي بلج بن بشر في القيادة، والراجح أن عوامل سياسية كانت وراء هذا الاختيار الذي فرضته التوازنات القبلية[١].

لم يشأ كلثوم بن عياض أن يتوقف في القيروان، وتابع طريقه باتجاه طنجة، غير أنه عانى من تصدّع قواته. فقد نشب الخلاف بين الجند الشامي والعرب الأفارقة، بزعامة حبيب بن أبي عبيدة، الذي كان بتلسمان، واختلف مع بلج بن بشر بفعل استعلاء الثاني وأنفته من العرب الأفارقة[٢].

وهكذا سار الجيش العربي بجناحيه الشامي والإفريقي لإخضاع ثورة البربر في طنجة تتنازعه الحساسيات الطبقية، فأضحى متعثراً على الرغم من كثافة عدده[٣]. وظهرت النتائج السلبية عند قرية بقدورة على نهر سبو، حيث نشبت معركة ضارية بين البربر، بقيادة خالد بن حُميد الزناتي، وبين العرب، بقيادة كلثوم بن عياض، أسفرت عن هزيمة كبرى للجيش الأموي الذي تكبَّد خسائر فادحة في الأرواح، وكان قائده، مع عدد من مساعديه، من بين القتلى بالإضافة إلى زعيم الأفارقة حبيب بن أبي عبيدة، ونجا بلج بن بشر بفرقة من الجند تقدر بعشرة آلاف مقاتل، واعتصم بمدينة سبتة[٤].

كانت خسارة العرب جسيمة، فاقت هزيمتهم في معركة الأشراف، وانتزع البربر منهم زمام الموقف، وانتشروا في مختلف أنحاء المغرب، وهدَّدوا القيروان في محاولة للقضاء على السيادة العربية[٥].

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٣٠. ابن القوطية: ص ٨١. ابن عذاري: جـ ١ ص ٥٥. ابن الأثير: جـ ٤ ص ٢٢٥، ٢٢٦. بيضون: ص ١١١.

(٢) ابن عذاري: جـ ١ ص ٥٤، ٥٥. ابن الأثير: جـ ٤ ص ٢٢٥، ٢٢٦.

(٣) بيضون: ص ١١٢.

(٤) أخبار مجموعة: ص ٣٢ـ ٣٥. ابن القوطية: ص ٨١، ٨٢. أنه يذكر اسم نفدورة كمكان للمعركة. ابن عذاري: جـ ١ ص ٥٥، ٥٦، جـ ٢ ص ٣٠.

(٥) تطورت الأحداث السياسية والعسكرية بعد ذلك لصالح العرب. فقد أرسل الخليفة هشام بن عبد الملك حملة عسكرية أخرى إلى المغرب بقيادة واليه على مصر حنظلة بن صفوان الكلبي، في (ربيع الآخر ١٢٤هـ/ شباط ٧٤٢م)، تمكَّنت من القضاء على ثورة البربر بعد معركتي القرن والأصنام، وأعادت النفوذ العربي إلى المغرب. انظر أخبار مجموعة: ص ٣٦، ٣٧.

وحاصرت قوة عسكرية بربرية، بقيادة عبد الواحد بن يزيد الهواري، مدينة سبتة، إلا أنها لم تتمكن من دخولها، فقد صدَّت القوات العربية، بقيادة بلج بن بشر، كافة هجماتها، لكن هذه القوة لم تتمكن من الإفلات، فبقي الوضع مجمَّداً مدة سنة حتى لاحت للعرب فرصة دخول الأندلس بعد قليل من الوقت[١].

والحقيقة أنه بعد فشل البربر في القضاء على بلج بن بشر وأصحابه، عمدوا إلى تنفيذ خطة جديدة تقوم على إتلاف المزروعات وردم الآبار حول المدينة على مسافة معينة منها، وتشديد الحصار لمنع وصول الأقوات والإمدادات كي يهلك مَنْ في المدينة جوعاً. وكان هذا الحصار الاقتصادي شديد الفتك حتى أكل المحاصَرون دوابهم وكلابهم وطبخوا جلودها[٢]، فساءت حالتهم وراحوا يفكرون بوسيلة تخرجهم من هذا المأزق الذي وقعوا فيه. فرأى بلج بن بشر أن يطلب المساعدة من والي الأندلس عبد الملك بن قطن، فكتب إليه يستعطفه ويطلب شيئاً من الميرة وسفناً لتنقله مع أتباعه إلى الأندلس[٣].

استشار والي الأندلس أركان حربه وأعوانه، فأشاروا عليه أن يتريث، وخوَّفوه عاقبة جواز الشاميين إلى الأندلس[٤].

والحقيقة أن عبد الملك لم يكن بحاجة إلى من يثيره ضد الشاميين، فهي قضية لا تحتاج إلى نقاش بالنسبة إليه، إذ إنه كان أسير عصبيته المضرية المتطرفة، فهو مديني وشهد موقعة الحرة[٥] قبل ذلك بستين عاماً، ورأى ما ارتكبه الجنود الشاميون في المدينة من سفك للدماء، فكان يُبغض الشاميين ويحقد عليهم، كما خشي من مطامعهم ومنافستهم له إذا ما أدخلهم الأندلس، لذلك رفض استغاثة بلج بن بشر

(١) أخبار مجموعة: ص ٣٧. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٣٠.

(٢) أخبار مجموعة: ص ٣٧.

(٣) المصدر نفسه. ابن القوطية: ص ٨٢.

(٤) ابن عذارى: جـ ١ ص ٥٩. وقد ذكر ابن القوطية: «أن أهل رأيه قالوا له: إن دخل عليك هذا الشامي عزلك» ص ٨٢.

(٥) حصلت موقعة الحرة في عام (٦٣هـ/ ٦٨٣م) في عهد يزيد بن معاوية من واقع الخلاف بين الحجازيين والأمويين. فقد ثار أهل المدينة على الحكم الأموي، فأرسل يزيد جيشاً من أهل الشام، بقيادة مسلم بن عقبة المري، اقتحم المدينة من ناحية الحرَّة ودخلها وأباحها لجنده المنتصرين مدة ثلاثة أيام، وأجبر أهلها على البيعة على أنهم فيء وعبيد ليزيد. لمزيد من التفاصيل انظر: الطبري: جـ ٥ ص ٤٩٥. ابن الأثير: جـ ٣ ص ٢١١ـ ٢١٩.

وأعرض عنه على الرغم من استعداد هذا الأخير للقبول بأي حل يرتئيه حاكم الأندلس، مقابل تخليصه مع جماعته من براثن الجوع والموت[1].

وفي الوقت الذي كاد اليأس يدبُّ في نفوس بلج وأصحابه، إذا بالطريق إلى الأندلس تصبح ممهَّدة بعد انفجار ثورة البربر هناك، والهزائم المتلاحقة التي تعرَّضت لها جيوش عبد الملك بن قطن.

ثورة البربر في الأندلس

لم تلبث الثورة أن انتقلت من المغرب إلى الأندلس، واندلعت في منطقتين متباعدتين في أقصى الشمال الغربي، وفي أقصى الجنوب، مما يفترض نوعاً من التنسيق والتخطيط المسبق. ولعل بربر الأندلس وجدوا في ثورة بربر المغرب متنفساً لهم وفرصة سانحة للانقضاض على الوالي وأعوانه، والقضاء على «الأرستقراطية» العربية، وكانت رغبتهم قوية في الإصلاح:

ـ **السياسي**، بغية المشاركة في السلطة والإدارة التي استأثر بها العرب.

ـ **الديني**، بهدف المساواة في المعاملة بينهم وبين العرب، والمعروف أن هؤلاء عاملوا البربر معاملة تختلف عن المسلمين الشرقيين، فراقبوا تحركاتهم وأثخنوهم بالضرائب واشتطوا في جبايتها منهم، وفرضوا عليهم عقوبات مالية[2].

ـ **الاقتصادي**، لتحسين أوضاعهم الحياتية، والمعروف أنهم سكنوا المناطق الجبلية والهضاب المرتفعة بعيداً عن السهول الخصبة ومجاري الأنهار.

ـ **الاجتماعي**، تطلع البربر إلى تطبيق العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص بين المسلمين جميعاً.

اتصف منظمو الثورة بالتأني والبراعة السياسية، فلم يعطوا إشارة البدء بالثورة إلا عندما كانت السلطة المحلية في ضياع وتمزُّق تحت حكم عبد الملك بن قطن المطلق الصلاحية، حيث انعدمت صلاحيات حاكم القيروان المنهمك بمشكلات ولايته.

وإذا كنا نمتلك تفصيلات دقيقة حول أبعاد هذه الثورة السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية، إلا أن غموضاً يحيط بها من الناحية التنظيمية، فليس هناك ما يشير بوضوح إلى شخصية قائدها وانتماءاته الفكرية. وتشير المصادر إلى ثلاثة أشخاص قادوا ثلاثة جيوش منفصلة لكل واحد هدف محدد. ولعل هؤلاء كانوا قادة

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٣٧. ابن القوطية: ص ٨٢. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٣٠.

(٢) بيضون: ص ١١٦.

الثورة ونسَّقوا مواقفهم ضمن هدف واحد محدَّد وهو القضاء على السلطة العربية في الأندلس(١)، ثم معاونة إخوانهم بربر المغرب على العرب المحاصَرين وقتذاك في مدينة سبتة.

ابتدأت الثورة في عام (١٢٣هـ/ ٧٤١م) واتخذت، في بادىء الأمر، شكل مطاردة للعناصر العربية في شمالي غرب الأندلس في جليقية وأستورقة، والثغر الأدنى حيث الكثافة السكانية البربرية، باستثناء سرقسطة التي كانت السيطرة فيها للعرب، فنزح العرب عن تلك الجهات، وتوجَّه معظمهم نحو العاصمة قرطبة(٢).

وبعد أن ثبَّت البربر أقدامهم في تلك المناطق زحفوا باتجاه المدن الكبرى للسيطرة عليها من خلال ثلاثة جيوش، وفق خطة ذكية أدركت مواطن الضعف في الولاية الأندلسية وعملت على استغلالها:

الأول: بقيادة ابن هودين، ووجهته مدينة طليطلة عاصمة الثغر الأدنى.

الثاني: بقيادة زقطرنق، ووجهته العاصمة قرطبة.

الثالث: بقيادة شخص زناتي لم تذكر المصادر اسمه، ووجهته الجزيرة الخضراء في أقصى الجنوب، ومهمته الاستيلاء على الميناء والسفن، وتنسيق الجهود مع بربر المغرب، وفرض حصار على المساعدات العربية، ومنع الاتصال مع عرب المغرب لا سيما الشاميين المحاصَرين في مدينة سبتة، وبذلك يتم القضاء على العرب في كل من المغرب والأندلس وإنهاء سيطرتهم عليها وتفردهم بحكمها.

ارتاع عبد الملك بن قطن عندما سمع بأنباء الثورة ونجاح الثائرين في الاستيلاء على المناطق الشمالية وهم يزحفون نحو الجنوب، فأرسل فوراً ما توفر له من قوات لوقف زحفهم، لكن قواته تعرضت لهزائم متكررة، وبدأت طلائع القوات البربرية تصل إلى مشارف قرطبة من الشمال والجنوب وتهدِّدها، فأضحى موقفه حرجاً، ورأى أنه لا بد من الاستعانة بقوات عربية من خارج الأندلس لوقف الزحف البربري، ولم يكن أمامه سوى القوة الشامية المحاصَرة في سبتة(٣)، فأرسل وفداً إلى سبتة على وجه السرعة للتفاوض مع بلج بن بشر(٤)عارضاً عليه:

---

(١) بيضون: ص ١١٦.

(٢) أخبار مجموعة: ص ٣٨.

(٣) المعروف أن سبتة كانت محاصَرة من كافة الجهات باستثناء جهة البحر التي بقيت مفتوحة.

(٤) أخبار مجموعة: ص ٣٨. ابن عذارى: ج ٢ ص٣٠. ابن الأثير: ج ٤ ص ٢٧٤.

ـ السماح له ولأتباعه بالعبور إلى الأندلس مقابل مساعدتهم له في إخماد ثورة البربر.

ـ يبقى بلج وأصحابه مدة سنة في البلاد، بعد إخماد الثورة، ثم يعودون إلى المغرب.

ـ يأخذ عبد الملك بن قطن عشر رهائن من كل فرقة ويحتفظ بهم في جزيرة أم حكيم في مدخل الوادي الكبير، وذلك لحسن تنفيذ بنود الاتفاق[١].

فالدعوة إذن لا تتضمَّن الاستقرار للشاميين في الأندلس والتعايش مع عربها، بل هي دعوة للحرب فقط فرضتها ظروف طارئة وملحة، ومشروطة بمغادرة البلاد بعد سنة من القضاء على الثورة.

وافق بلج بن بشر وأصحابه على الشروط المعروضة[٢]، إذ لم يكن أمامهم أي خيار آخر لأنهم كانوا في وضع أمني واقتصادي صعب بل مميت. وعبرت السفن الأندلسية المضيق وتوجهت إلى مدينة سبتة، وحملت الشاميين إلى الجزيرة الخضراء في (ذي القعدة ١٢٣هـ/ أيلول ٧٤١م) وهم في بؤس شديد[٣].

حصلت المواجهة الأولى بين الطرفين، العربي والبربري، في منطقة الجزيرة الخضراء، حيث كان الجيش البربري الثالث يتقدم بخطى سريعة للاستيلاء عليها. ووقعت المعركة في مدينة شذونة، وأسفرت عن انتصار واضحٍ للعرب. وأضاعت هذه المعركة آمال البربر في الاتصال بإخوانهم المغاربة وتلقّي مساعدة مغربية. وخرج العرب من المعركة بروح معنوية مرتفعة. ولا شك بأن الشاميين قاتلوا بضراوة بدافع الانتقام من البربر المغاربة الذين أذاقوهم العذاب في بلاد المغرب[٤].

وكانت قرطبة آنذاك تصدُّ، بيأس، هجمات الجيش البربري الثاني الذي طوَّقها وأحكم حصارها، فتحرك عبد الملك بن قطن على وجه السرعة لإنقاذ عاصمته المهددة، فوقع الجيش البربري بين فكي الكماشة، الحامية القرطبية من الأمام والجيش الشامي من الخلف، فأسقط في أيدي أفراده، وتعرَّضوا للدمار، وفرَّ من نجا منهم باتجاه طليطلة لينضموا إلى الجيش الأول الذي يحاصر المدينة[٥].

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٣٨، ٣٩. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٣٠. ابن الأثير: جـ ٤ ص ٢٧٤.

(٢) المصادر نفسها: ص ٣٩. ص ٣٠. ص ٢٧٤.

(٣) المصادر نفسها: ص ٣٩. ص ٣١. ص ٢٧٤.

(٤) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٣١.

(٥) المصدر نفسه.

تقدَّم عبد الملك بن قطن وجيشه باتجاه طليطلة المحاصَرة، ولما رأى البربر إقدام العرب نحوهم حلقوا رؤوسهم اقتداءً بميسرة المطغري، ولكي يعرف بعضهم بعضاً، فلا يضرب الواحد منهم الآخر[(١)]، ويدل ذلك على نيتهم الاستبسال في القتال. وفعلاً تمَّ اللقاء بين الطرفين على مقربة من وادي السليط عند رافد صغير لنهر تاجُه في جنوبي المدينة. وجرت بينهما معركة طاحنة استبسل فيها الشاميون وأظهروا خلالها مواهبهم ومهاراتهم العسكرية، وما لبثوا أن انتزعوا النصر وسحقوا ثورة البربر الذين أُبيدوا وتشتَّت جمعهم. وطارد العرب من نجا منهم وقتلوهم «بأقطار الأندلس حتى ألحقوا فلَّهم بالثغور، وخفوا عن العيون»[(٢)]، ولم ينج منهم إلا الشريد[(٣)]، وقد حصلت المعركة في عام (١٢٣هـ/ ٧٤١م).

كانت هذه الثورة هي الأولى التي قام بها البربر للتعبير عن رغبتهم في استعادة حقوقهم الضائعة مغلِّفين حركتهم بإطار فكري ـ ديني خارجي، وقد نتج عنها انعكاسات ديمغرافية وسياسية على أوضاعهم بحيث كرَّست السيطرة العربية، وزادت من تهميشهم وإبعادهم إلى المناطق الثغرية[(٤)].

بلج بن بشر (١٢٣هـ/ ٧٤١م)

الصراع الحجازي ـ الشامي في الأندلس: لم تنتهِ متاعب الأندلسيين بإخماد ثورة البربر وغياب هؤلاء عن حلبة الصراع، فقد ظهرت معضلة أخرى أكثر تعقيداً من الصراع المشرقي ـ المغربي، هي الصراع الحجازي ـ الشامي، أثارتها الأحقاد القديمة والضغائن الدفينة، التي حملها الطرفان معهما من المشرق، بالإضافة إلى التسابق على الحكم وامتلاك الأراضي التي عدَّها البلديون حقاً لهم.

كانت هواجس عبد الملك بن قطن في محلها عندما ظنَّ ببلج بن بشر وجماعته. فعندما طلب منه الجلاء عن الأندلس، وفقاً للاتفاقية المبرمة بينهما لأنه لم يعد بحاجة إلى مساعدته؛ رفض ذلك وأفصح عن نيته في البقاء[(٥)]، الأمر الذي أدَّى إلى الاصطدام، وهاجم الشاميون قصر الإمارة في قرطبة واعتقلوا عبد الملك ونصَّبوا زعيمهم بلج مكانه وذلك في (ذي القعدة ١٢٣هـ/ أيلول ٧٤١م)[(٦)].

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٤٠.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٣١.
(٤) حقي، محمد: البربر في الأندلس ص ٢٠٤.
(٥) أخبار مجموعة: ص ٤٠ـ ٤٢. ابن القوطية: ص ٨٣. مؤلف مجهول: فتح الأندلس ص ٣٢.
(٦) أخبار مجموعة: ص ٤١. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٣١.

ارتاع الحجازيون لهذا الانقلاب السريع، ففقدوا توازنهم وولوا هاربين إلى الأطراف النائية خشية من بطش الشاميين، وكان على رأسهم أمية وقطن، ابنا عبد الملك، فلجأ الأول إلى سرقسطة، وفرَّ الثاني إلى ماردة(١)، وسعيا إلى استقطاب الأنصار والمؤيدين وتشكيل تكتل للانتقام من بلج بن بشر وأصحابه الشاميين، فاستجاب لهما عبد الرحمن بن علقمة اللخمي، حاكم ناربونة، وعبد الرحمن بن حبيب الفهري، الزعيم الإفريقي الذي كان لا يزال مع جماعته في الأندلس وهو المعروف بخصومته العنيفة لبلج الذي استفزَّه في إفريقيا قبل ذلك(٢). وأضحت مدينة سرقسطة مركزاً لاستقطاب جماعة عبد الملك المخلوع المتأثرين بعصبيتهم الإقليمية.

ولاحت في الأفق تباشير الحرب في ظل غياب السلطة المركزية إن في دمشق أو في القيروان، حيث كانت الأولى تعيش حالة من الجمود السياسي في أواخر عهد هشام بن عبد الملك، قبل أن تتحول إلى فوضى سياسية في ظل خلفائه واضطرابات في أجهزة الدولة وفي أقاليمها، في حين كانت الثانية منهمكة في إخضاع ثورة البربر، ما انعكس سلباً على الأندلس التي كانت الولاية الأشد تأثراً، ويُعدُّ ما كان يجري فيها صورة مصغَّرة لما كان يجري في دمشق من صراع قبلي(٣).

وهكذا برز على ساحة الأندلس تكتلان، تكتل الشاميين في قرطبة المنضوين تحت زعامة بلج بن بشر، وقد سيطروا على الحكم، وتكتل الأندلسيين في سرقسطة بقيادة ابني عبد الملك بن قطن ومعهما عدد من الزعماء المحليين، وقد وحَّدت بينهم المصلحة السياسية، وكانوا أكثر عدداً وعدة، فتتحدث الروايات عن حشد هؤلاء أربعين ألف مقاتل في الوقت الذي لم يتمكَّن فيه بلج من حشد أكثر من إثني عشر ألفاً(٤)، لذلك لم يكن من مصلحته الاندفاع وراء معركة عسكرية، غير مضمونة النتائج.

لكن حادثة الرهائن في الجزيرة الخضراء هي التي فجَّرت الموقف في قرطبة، وذلك أنه في أعقاب سيطرة بلج بن بشر على مقدرات السلطة، تعرَّض هؤلاء للمضايقة والاضطهاد من جانب حاكم الجزيرة الخضراء، الذي كان لا يزال على ولائه لعبد الملك بن قطن فمات أحدهم، وهو من أشراف أهل الشام من

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٤١.

(٢) أخبار مجموعة: ص ٤٣. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٣٢. المقري: جـ ٤ ص ١٧.

(٣) بيضون: ص ١٢٢.

(٤) المرجع نفسه.

غسان، فأرسل بلج بن بشر قوة عسكرية أخرجتهم من السجن وأعادتهم إلى قرطبة[١].

ويبدو أن هذا الغساني كان يتمتَّع بمكانة عالية بين قومه، بدليل ما انتاب أصحابه من الغضب الشديد، وحمَّلوا عبد الملك بن قطن مسؤولية موته تحت التعذيب، وطلبوا من بلج بن بشر أن يثأر لهم. والواقع أن كافة الرهائن اشتكوا مما نالهم من جانب حاكم الجزيرة الخضراء، وطلبوا من بلج بن بشر أن يأخذ لهم بثأرهم[٢].

حاول بلج عبثاً أن يهدِّىء غضبهم، لأن أي تدبير متهور لا مبرر له، سيؤدي إلى الصدام العسكري، وهذا ما كان يخشاه ويتجنَّبه نظراً لاختلال موازين القوى. غير أن المسافة بين تطلعاته وموضوعيته، وبين انفعالية جماعته العصبية، كانت واسعة، الأمر الذي أدَّى في النهاية إلى انتصار الجماعة المتطرفة.

وخشية من الانقسام داخل صفوفه، الذي لاحت تباشيره، اضطر بلج بن بشر إلى الكفِّ عن معارضته، وهاجم عبد الملك بن قطن في داره وقتله، وذلك في (ذي الحجة ١٢٣هـ/ تشرين الأول ٧٤١م)[٣]. وهكذا تورَّط بلج في جريمة لم يشأ أن يتحمَّل تبعاتها حتى غُلب على أمره[٤].

كان لمقتل عبد الملك بن قطن ردُّ فعل مؤلم ومؤثِّر، فقد ألهب مشاعر الحقد في نفوس ابنيه والمتحالفين معهما، وأضاف عنصراً جديداً من عناصر الخصومة بينهم وبين العرب الشاميين، وجدَّد الصراع القديم بين القيسية واليمنية، فقد خاطبه القتلة قائلين: «يا فال. فللت من سيوفنا يوم الحرَّة ثم عرَّضتنا لأكل الكلاب والجلود طلباً بثأر الحرَّة، ثم بعثت جند أمير المؤمنين فحبستنا بسبتة محبس الضنك حتى أمتَّنا جوعاً..»[٥]، وهم يعنون بذلك حضور عبد الملك بن قطن وقعة الحرَّة مع أهل المدينة، ولما خسر هؤلاء فرَّ إلى إفريقيا.

وما لبثت طلائع المتحالفين أن أخذت طريقها إلى قرطبة للقضاء على حكم الشاميين، ولاح شبح الحرب من جديد في أفق الأندلس بين الإخوة الأشقاء، وكان لها

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٤١. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٣١.

(٢) المصدران نفساهما: ص ٤١. ص ٣٢.

(٣) أخبار مجموعة: ص ٤١، ٤٢. ابن القوطية: ص ٨٢. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٣٢.

(٤) بيضون: ص ١٢٤.

(٥) أخبار مجموعة: ص ٤٢. المقري: جـ ١ ص ١٧.

تأثير كبير على وحدة المسلمين وقوتهم وهيبتهم وسلامة دار الإسلام في الأندلس.

ونشبت بين الطرفين رحى معركة ضارية في (شوّال ١٢٤هـ/ آب ٧٤٢م) في أقوة برطورة على بُعد عدة فراسخ شمالي قرطبة، استبسل فيها الشاميون لأنها كانت معركة مصير بالنسبة لهم، لذلك كان النصر حليفهم. ولم يكن للفارق العددي تأثير كبير على سير المعركة، وأصيب بلج بن بشر بإصابتين. وتكبَّد الحلفاء عشرة آلاف قتيل في حين خسر الشاميون ألفاً فقط[(١)].

عاد بلج بن بشر بعد المعركة إلى قرطبة، فلم يلبث سوى أياماً معدودات حتى توفي. والراجح أن الجراح التي أصيب بها في المعركة كانت السبب في وفاته[(٢)].

ثعلبة بن سلامة العاملي (١٢٤ ـ ١٢٥هـ/ ٧٤٢ ـ ٧٤٣م)

اختار الشاميون ثعلبة بن سلامة العاملي خلفاً لبلج بن بشر تنفيذاً لأمر الخليفة هشام بن عبد الملك. بدأ عهده بداية حسنة، فالتفَّت حوله كافة الأطراف، وساعده على ذلك شخصيته الحازمة واعتداله في الرأي والممارسة، لكن نفوذه كان محدوداً لا يتعدّى قرطبة وضواحيها في حين ظل الخارجون على حكمه منتشرين في المناطق الشمالية، ويبدو أن الضربة التي تلقَّوها لم تكن قاضية، فلم تُحدث أي تغيير في مواقفهم، واستمروا على جهوزيتهم لاستئناف القتال الأمر الذي دفع ثعلبة، وهو يمني الانتماء، إلى الانغماس مجدداً في لعبة التنافس القبلي التي فُرضت عليه.

وما لبثت جموع المتحالفين أن زحفت مجدداً إلى قرطبة في محاولة أخرى لاستعادة الحكم من الشاميين، فخرج ثعلبة من عاصمته واصطدم بهم بالقرب من ماردة، لكنه انهزم أمامهم وانسحب مع قواته إلى هذه المدينة، وأرسل إلى نائبه في قرطبة أن يبعث إليه بمساعدة عسكرية إضافية لرفع الحصار عن قواته الذي فرضته قوى التحالف، واستئناف القتال[(٣)].

كان المحاصِرون مطمئنين إلى ثبات موقفهم، وصادف آنذاك أن دخل عيد الأضحى (١٠ ذي الحجة ١٢٤هـ/ ١٤ تشرين الأول ٧٤٢م)، فانصرفوا إلى الاحتفال به وبالنصر الذي حقَّقوه، مغترِّين بقوتهم، فأهملوا وسائل الحيطة والحذر المطلوبين في مثل هذا الموقف. ووصلت، في غضون ذلك، المساعدة المطلوبة من قرطبة، الأمر

(١) أخبار مجموعة: ص ٤٣، ٤٤. ابن القوطية: ص ٨٢. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٣٢. المقري: جـ ٤ ص ١٧.

(٢) المصادر نفسها.

(٣) أخبار مجموعة: ص ٤٤. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٣٣.

الذي أنعش آمال ثعلبة، وأصحابه المحاصَرون، وبدوا أكثر استعداداً للقتال، فاستغلوا تلك الفرصة وفاجأوا قوى التحالف بهجوم جريء دفع فيه هؤلاء الثمن باهظاً، حيث منوا بهزيمة قاسية، تجلَّت فيها قساوة الشاميين هذه المرة، ولم يتورعوا عن استرقاق أسراهم بمن فيهم النساء والأطفال كسابقة لم تحدث من قبل في صفوف العرب المسلمين(١).

ازدادت ثقة الشاميين بأنفسهم بعد هذا النصر لدرجة أنهم فقدوا القدرة على التصرف السليم والمسؤول، فجاسوا في أحياء قرطبة وأحدثوا فيها الفوضى والإرهاب، ولم يتمكَّن ثعلبة من كبح جماحهم(٢).

نتيجة لهذا الصراع الدامي، وبفعل الأجواء المضطربة التي سادت قرطبة، كان لا بد من البحث عن مخرج يُنقذ البلاد والعباد من لعبة التقاتل، فتدارس نفر من الأندلسيين، ممن لم يشتركوا في القتال، سبل الإنقاذ، واستقر رأيهم على إرسال وفد إلى القيروان يضع حاكمها، حنظلة بن صفوان الكلبي، في أجواء الحرب الأهلية ويناشدونه العمل على إنقاذ البلاد من محنتها الدموية، ويُرسل إليهم والياً يجمع كلمتهم ويوحِّد صفوفهم(٣).

إستجاب حاكم القيروان لطلب هؤلاء النفر وسارع إلى تعيين شخصية كلبية من أقربائه هو أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي، الذي يتمتَّع بخبرة عالية في ميدان القيادة، وقلَّده صلاحيات كبيرة وسلطات واسعة حتى يتمكَّن من أداء مهمته بحرية، بعد أن أخذ رأي الخليفة هشام بن عبد الملك الذي تألم تجاه ما يجري من أحداث دامية، وهو عاجز عن وضع حدٍّ لها في ظل تراجع قوة الخلافة ونفوذها المتقلص(٤).

أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي (١٢٥ ـ ١٢٨هـ/ ٧٤٣ ـ ٧٤٦م)

وما لبث أبو الخطار أن وصل إلى الأندلس في شهر (رجب ١٢٥هـ/ أيار ٧٤٣م) يرافقه ثلاثون رجلاً من أعوانه، عُرفوا بالطالعة الثانية من الشاميين، بعد طالعة بلج بن بشر الأولى، ودخل قرطبة وسط ذهول الجميع ومفاجأتهم، ولم يصادف متاعب تُذكر في تولي الحكم حيث انتصر الرأي المعتدل والمسالم، في الوقت الذي كانت

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٤٥. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٣٣. المقري: جـ ٤ ص ١٨. بيضون: ص ١٢٦.
(٢) بيضون: ص ١٢٧.
(٣) أخبار مجموعة: ص ٤٥.
(٤) المصدر نفسه: ص ٤٥، ٤٦. ابن القوطية: ص ٨٣. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٣٣.

فيه القوى النصرانية في الشمال تستغل هذا الاستنزاف الدامي لتمدَّ نفوذها إلى الجنوب على حساب المسلمين.

وفرض الوالي الجديد شخصيته على كافة القوى المتنازعة، وطلب منهم السمع والطاعة ووقف النزاع فيما بينهم فاستجابوا له[1]، وكان لكل فئة دوافعها الخاصة للاستجابة.

فقد خضع الشاميون للأمر الواقع عليهم، ولم يجدوا مانعاً من الاعتراف بولاية أبي الخطار لأسباب سياسية وقبلية، فهو شامي مثلهم، لهذا رحَّبوا به. كما أن زعماءهم اقتنعوا أخيراً بضرورة تغيير رأس السلطة بعدما فشل في تجميد الصراع الدموي وتحقيق الاستقرار.

وكان على الأندلسيين أن يذعنوا لأي حاكم يرفع عنهم ضغط الشاميين، فهو مطلب سياسي مبدئي بالنسبة إليهم لذلك رحَّبوا بالوالي الجديد، لكنهم طلبوا منه إخراج هؤلاء من ديارهم، فردَّ عليهم قائلاً: «... أدخل واستريح ثم يكون ما تريدون، فقد ظهر لي أمر فيه صلاح جميعكم، إن شاء الله»[2].

استهل أبو الخطار عهده بتنفيذ عدة تدابير سياسية وإدارية لتنفيس الاحتقان والتشنج وتحقيق الأمن، لعل أهمها:

ـ لقد أفرج عن جميع الأسرى وأطلق سراح السبايا وأعادهم إلى أهلهم، وهو قرار ابتهج له الجميع[3].

ـ لقد أصدر عفواً عاماً عن متحالفي الشمال الذين كانوا بصدد التجمع من جديد بعد هزيمتهم السابقة.

ـ لقد أخرج بعض الأشخاص من البلاد ممن ثبت لديه أنهم أدوا دوراً بارزاً في إثارة الفتن والحروب الأهلية، ونفاهم إلى إفريقيا، كان من بينهم ثعلبة بن سلامة، الوالي السابق، إذ رأى أن بقاءهم في الأندلس من شأنه أن يُبقي الحزازات في النفوس، نظراً للمعاملة القاسية التي عاملوا بها الناس، وحرصاً على المصلحة العامة. واستثنى بعض الزعماء البلديين، من هذا الإجراء، بعد أن أبدوا استعدادهم بالطاعة.

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٤٦. ابن القوطية: ص ٨٣.

(٢) ابن القوطية: ص ٨٣، ٨٤.

(٣) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٣٣.

له والتعاون معه في إطار برنامجه السياسي، أمثال أمية وقطن، ابني عبد الملك، فأسند إليهما مهاماً إدارية في الأقاليم الشمالية للأندلس[١].

ـ أدرك أبو الخطار أن بقاء الشاميين في قرطبة سيكون مثار قلق دائم، وهو عازم على تخفيف الضغط عن العاصمة. ومن جهة أخرى فإنه لا يستطيع إخراجهم من البلاد لأسباب ديمغرافية على الأقل، للمحافظة على التوازن العنصري، إذ أن الجاليات المشرقية، كانت أقل الجاليات عدداً في الأندلس «وكان البربر يومئذٍ أكثر منهم فيها لمجاورتهم بلادهم»[٢]، ولهذا رأى ضرورة الإبقاء عليهم حتى تزداد بهم الجالية العربية قوة وعدداً، لكنه وزَّعهم على مناطق بعيدة عن العاصمة، وهو الأمر الذي ألمح إليه لدى اجتماعه بالأندلسيين، وكان إنزالهم على أموال أهل الذمة من الإسبان حتى لا يثير البلديين الذين استمروا على أرزاقهم وأراضيهم ولم ينتقصهم شيء، فسرُّوا بذلك[٣] فأسكنهم في إقطاعات أو أجناد عسكرية تُجبي كل قبيلة غلة إقليمها الزراعية التي نزلت به، وتأخذ عطاءها من تلك الغلة وترسل الفائض إلى بيت المال في قرطبة[٤]. وبهذا الشكل دخل إلى الأندلس النظام الشامي المتمثل في تكوين إقطاعات أو أجناد عسكرية، كما حرص على توزيعهم في مناطق بيئية ومناخية تشبه مناطق سكنهم في بلاد الشام حتى يتأقلموا بسرعة ويتكيفوا مع ظروف البيئة الجديدة، ويستطيعوا العيش بسهولة ويسر، وهو إجراء نال موافقة الشاميين[٥].

عادت الأمور تأخذ طابعها الاعتيادي من الهدوء والاستقرار، بعد أن نفَّذ أبو الخطار تلك التدابير السياسية والإدارية، واستقطبت شخصيته كافة الأطراف المتنازعة، وهي تأمل أن تطوي صفحة الصراعات المشؤومة والانطلاق نحو الانتعاش الاقتصادي[٦].

لكن ذلك الاستقرار كان مرحلياً وعابراً استمر ما بقي الوالي متحرراً من انتمائه العصبي ومتجرداً من هيمنته ومنفتحاً على سائر القبائل والعصبيات، ولم يكن ذلك إلا لمدة قصيرة. والواقع أن سلوك الفرد وتصرفاته تتأثر عادة بالجو العام، ولمَّا كان

(١) ابن القوطية: ص ٨٤. الحميدي: ص ١٧٧. بيضون: ص ١٢٨، ١٢٩.
(٢) مؤلف مجهول: فتح الأندلس ص ٣٢.
(٣) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٣٣.
(٤) المصدر نفسه: ص ٣٧.
(٥) المصدر نفسه: ص ٣٣. أخبار مجموعة: ص ٤٦.
(٦) بيضون: ص ١٢٩.

المجتمع الأندلسي يقوم أساساً على الأعراق والعصبيات، فقد تخلّى أبو الخطار عن اعتداله وانحاز إلى عصبيته اليمنية. وجاء هذا التحول في التفكير القبلي نتيجة حادثة مقتل أحد أصدقائه اليمنيين، وهو سعيد بن جواس، فاتهم القيسيين بأنهم وراء الحادثة وصبَّ جام غضبه عليهم. وصبر القيسيون على ما أصابهم حيث كانت قواهم مشتَّتة بفعل إزاحتهم عن السلطة. ودفع التطرف القبلي به إلى إلغاء معظم إصلاحاته التنظيمية السابقة، حتى كانت حادثة ثانية عندما اختلف رجلان، قيسي ويمني، فتقاضيا عند الوالي. وكان من الطبيعي، في غمرة تجييش النفوس، أن يحكم لصالح اليمني على الرغم من قوة حجة القيسي. أما القيسي فقد التجأ إلى زعيمه الصميل بن حاتم بن شمر بن ذي الجوشن الكلابي، وهو أحد زعماء الحزب القيسي، وقد جاء إلى الأندلس مع حملة بلج بن بشر وينتمي إلى جند قنسرين، وأضحى، بعد موت الأخير، الرجل البارز لخلافته، وقد أثاره هذا الحُكم فقرَّر التدخل لأجله عند أبي الخطّار، ولما تقابل الرجلان في القصر الحكومي كان اللقاء عاصفاً. فقد عاتب الصميل أبا الخطّار على موقفه من القضية، فلم يستسغ الوالي هذا التدخل وعدَّه امتهاناً لكرامته، فكان جافاً في حديثه معه، وردَّ عليه رداً غليظاً، وتطور الحوار، الذي جرى بينهما، إلى الملاسنة والشتيمة ثم الطرد وربما قام الوالي بضربه[1]. فخرج الصميل من مجلس الوالي كاتماً غيظه، غاضباً يتوعد، وهو ينوي الانتقام لنفسه ولعشيرته، وعمامته تبدو مائلة، فقال له أحد الحراس: «أصلح عمامتك يا أبا الجوشن» فردَّ عليه قائلاً: «إن كان لي قوم فسيقيمونها»[2]، ويدل ذلك على مدى ما كانت عليه حالته النفسية من الغضب والحنق على أبي الخطّار، وما يضمره من وعيدٍ ونيَّةٍ في الانتقام.

اجتمع الصميل سراً بكبار رجال الحزب القيسي، وشرح لهم ما حصل من الوالي وأبدى استعداده للمواجهة، لكن الحزب القيسي كان ضعيفاً بالمقارنة مع الحزب اليمني، ولما كانت القضية شخصية بينه وبين الوالي، فلم يشأ أن يورِّط قومه في حرب قبلية «والله ما أحب أن أعرِّضكم للقضاعية ولا لليمانية، ولكني سأعمد إلى دعوة إلفة مرج راهط، وأدعو لخماً وجذاماً، ونُقدِّم رجلاً يكون له الاسم ويكون لنا الحظ»[3]، كناية عن السلطة الفعلية. ولم يكن أفضل من ثوابة بن سلامة الجذامي

(١) أخبار مجموعة: ص ٥٦. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٣٤.

(٢) المقري: جـ ٤ ص ١٩.

(٣) أخبار مجموعة: ص ٥٦، ٥٧.

الضعيف من يقوم بهذا الدور، فاستدعاه ووعده باعتلاء حكم الأندلس إن هو تعاون معه في حرب أبي الخطّار، فوافق.

والواقع أن اللخميين والجذاميين هم يمنيون، لكن علاقتهم بأبي الخطّار كانت فاترة، فقد استاؤوا من تفرده، وقبيلته كلب، بالنفوذ والسلطان، فانضموا إلى صفوف الصميل الذي تلقَّى دعماً آخر من جانب الأثرياء البلديين، وربما خشيت هذه الفئة على مصالحها، لأن أتباع أبي الخطّار وأنصاره ومؤيديه كانوا من الطبقة الفقيرة المحرومة من الإقطاعات وامتلاك الأراضي، والتي كانت، ولا شك، تحقد على الطبقة الثرية. وهكذا تداخلت، في هذا النزاع، مصالح العشائر والطبقات الاجتماعية على اختلاف انتماءاتها، وسقطت الروابط القبلية وصلات الدم تحت تأثير المصالح الموحدة للتيارات المتناقضة[(١)].

وإذا كان الصميل قد نجح في استقطاب بعض الشخصيات اليمنية الساخطة على طغيان الكلبيين، فقد صادفته عقبة أخيرة في توحيد صفوف القيسيين وتكتلهم حوله، حيث كان موقف أبي العطاء في استجَّة، وهو أحد زعماء القيسية والمنافس الرئيسي للصميل على زعامة الحزب القيسي. ولعله بحكم ثقافته العالية ومكانته كزعيم لقبيلة كبيرة، رأى في نفسه كفاءة قيادية أكثر من الصميل الأمي. لكن الصميل لم يتردَّد في تذليل هذه العقبة، فذهب بنفسه إلى أبي العطاء واستقطبه، وهكذا تحولت الورقة الرابحة إلى يده[(٢)].

وجرى الاشتباك بين الطرفين في شهر (رجب ١٢٧هـ/ نيسان ٧٤٥م) في وادي لكة بالقرب من شذونة، لم يستمر طويلاً، وظهر تفوق القيسيين على أبي الخطّار واضحاً حيث مُني بهزيمة قاسية، وفرَّ من ميدان المعركة، فطارده رجال الصميل وقبضوا عليه وحملوه إلى قرطبة ووضعوه في السجن، وخلعه الصميل من إمارته وولَّى ثوابة بن سلامة الجذامي مكانه تنفيذاً للاتفاق المبرم بينهما، وذلك في عام (١٢٨هـ/ ٧٤٥م)[(٣)]، وقد وافق عبد الرحمن بن حبيب الفهري والي القيروان على هذا الاختيار، وكان قد انتزع ولاية إفريقيا من حنظلة بن صفوان الكلبي[(٤)].

---

(١) بيضون: ص ١٣١.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) أخبار مجموعة: ص ٥٧. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٣٥. المقري: جـ ٤ ص ١٩.

(٤) ابن عذارى: جـ ١ ص ٦٠. ابن عبد الحكم ص ٣٧١، ٣٧٢. المقري: جـ ٤ ص ٢٠.

ثوابة بن سلامة الجذامي (١٢٨ ـ ١٢٩هـ/ ٧٤٦م)

تسلم ثوابة بن سلامة مهام منصبه في قرطبة، وظل الصميل الرجل النافذ فيها، بيده الأمر والنهي، ويتصرَّف بمقدرات الأندلس من وراء حجاب. وحدث بعد قليل من الوقت، أن هاجم أنصار أبي الخطّار، بقيادة عبد الرحمن الكلبي، سجن قرطبة، وقد أثارهم خسارة اليمنية وسجن أبي الخطّار، ونجحوا في التغلب على حراسه، فأخرجوه من السجن ومضوا به إلى عرب الأندلس اليمنية[١]، فأقام بين قبائل كلب وقبائل حمص، فالتفوا من حوله وساندوه واعترفوا به والياً على الأندلس، بوصفه الوالي الشرعي، فتداخلت ولايته مع ولاية ثوابة الذي أزعجه ذلك، وراح يسعى للقضاء عليه قبل أن يتفاقم خطره من جديد وينتزع الولاية منه.

وما لبث أبو الخطّار أن شنَّ هجوماً على قرطبة في محاولة لاستعادة السلطة، لكن لم يحدث قتال بين الطرفين، وذلك بفعل تدخل الصميل الذي خذَّل اليمنيين عن نصرته، فانفضَّت جموعه من حوله قبل بدء القتال، ولما وجد نفسه مع نفر قليل من أصحابه، ولا يستطيع معهم خوض المعركة، فضَّل الانسحاب ليعيد تنظيم صفوف قواته، والإعداد لمعركة قادمة[٢].

وباستثناء هذه المحاولة لم يحدث ما يُعكِّر صفو الهدوء النسبي. ويبدو أن اليمنيين توقفوا عن إثارة المتاعب في وجه السلطة، وقنعوا بوجود أحد وجهائهم في الواجهة. أما القيسيون، فقد وصلوا إلى ذروة عزهم منذ دخولهم إلى الأندلس، فقد جمعوا حكم الأندلس مع حكم إفريقيا من واقع الانقلاب الذي نفَّذه عبد الرحمن بن حبيب السلمي الفهري، زعيم الأفارقة والمتعصب لقيسيته، ضد الوالي حنظلة بن صفوان الكلبي في (جمادى الآخرة ١٢٧هـ/ آذار ٧٤٥م) وتسلم الحكم كما ذكرنا، وذلك في ظل الفوضى التي حدثت في دمشق بعد مقتل الوليد الثاني بن يزيد في (١٢٦هـ/ ٧٤٤م).

وتابع ثوابة أيام حكمه في قرطبة بهدوء، في غمرة الانتصار القيسي، حتى توفي في (محرم ١٢٩هـ/ تشرين الأول ٧٤٦م)، تاركاً وراءه أزمة سياسية عنيفة سوف تجرُّ البلاد إلى الفتنة العظمى[٣].

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٣٥. المقري: جـ ٤ ص ١٩.

(٢) المصدران نفساهما.

(٣) أخبار مجموعة: ص ٥٧. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٣٥.

يوسف بن عبد الرحمن الفهري (١٢٩ ـ ١٣٨هـ/ ٧٤٧ ـ ٧٥٥م)

تمهيد

ظلت الأندلس مدة أربعة أشهر بدون والٍ بعد وفاة ثوابة، وذلك بفعل:

- كثرة عدد المرشحين للسلطة.
- عدم اتفاق الأندلسيين على مرشح واحد.
- محاولة اليمنيين إعادة أبي الخطّار إلى الحكم.

فقد تنافس ثلاثة مرشحين لتولي منصب الوالي. فقد دعا يحيى بن حريث الجذامي، وهو من زعماء الأردن، لنفسه، من واقع ضمان الاستمرارية لبني جذام في الحكم من جهة، وبدافع الكراهية للقيسيين من أهل الشام الذين كانوا يشكلون القوة الرئيسة والفاعلة من جهة أخرى، ونافسه عمرو بن ثوابة مدَّعياً بأنه أحق بالولاية منه بوصفه ابن الوالي المتوفى. وعمل اليمنيون على تقديم زعيمهم أبي الخطّار، أما الصميل فقد رفض ترشيح نفسه في تلك الظروف المتشنِّجة خشية فقدان رصيده، واكتفى بإدارة اللعبة السياسية من وراء الستار بما يتلاءم مع شخصيته المزاجية[١].

ولا ندري إذا كان قد تجاوز، بتفكيره هذا، المعطيات إلى تقويم أشمل لهذه المسألة، إذ ربما لم ير ما يشجعه على اقتحام واجهة الحكم في تلك الظروف، فهو القائل لزعماء قومه حين أراد تعيين ثوابة: «نقدم رجلاً يكون له الاسم ويكون لنا الحظ»[٢]، وربما لم يشأ أيضاً أن ينفِّر منه حلفاءه اليمنية فيفقد مؤازرتهم إذا ما أصبح الرجل الأول، وهو القيسي الحريص على ألا تخرج الولاية من أيدي حزبه، ولذا كان أنسب الحلول أمامه أن تجتمع القيسية واليمنية على شخصية أخرى غيره وبخاصة أن المسلمين جميعاً فوَّضوه النظر في والٍ يوليه هو عليهم، وحتى يجد تلك الشخصية، تجدَّدت الأجواء المتشنجة في قرطبة[٢].

واشتد النزاع بين الأطراف، كلٌّ يتمسك برأيه ويُصرُّ على فرض مرشحه، حتى توصَّلوا إلى حل مؤقت لإفساح الوقت للتفكير المتأني وتجنيب البلاد فتنة أخرى، فاختاروا عبد الرحمن بن كثير الجذامي للنظر في الأحكام. وعلى الرغم من أن

(١) أخبار مجموعة: ص ٥٧. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٣٥. بيضون: ص ١٣٤.

(٢) اخبار مجموعة: المصدر نفسه.

صاحب هذه الوظيفة لا يُعدُّ والياً، ويختص بالقضاء فقط، إلا أن اختياره كان نوعاً من الاعتراف بسلطته كي لا تظل الأمور في فوضى لا ناظم لها[1].

وما لبث الصميل أن توصَّل إلى حلٍّ يقضي بتقاسم السلطة بين القيسيين واليمنيين على شكل تعاقب سنوي في الحكم، واستطاع بحنكته أن يُقنع خصومه اليمنيين بهذا المبدأ. واعتقد الجميع أن نهاية النزاع بينهم باتت وشيكة، وبقي على الأطراف أن يتفقوا على أول والٍ ينصِّبونه على الأندلس. فبالإضافة إلى المرشحين الثلاثة، الذين ذكرنا أسماءهم، قدَّم القيسيون مرشحهم، وهو يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وقد اختاره الصميل لأن شخصيته تتوافق مع تطلعاته، فهو يريد رجلاً على طراز ثوابة إن لم يكن أكثر ضعفاً ليبقى الشخصية النافذة التي تدير اللعبة السياسية[2]، فيوسف الفهري رجلٌ أبرز سماته الورع والوقار والهدوء، وله أصالة اجتماعية، ويتمتع بتقدير خاص بوصفه حفيداً لعقبة بن نافع فاتح المغرب، وقد دفعته عدة عوامل للبروز على المسرح السياسي لعل أهمها:

- لقد استنفد أبو الخطّار حسام بن ضرار كثيراً من رصيده حين هُزم مرتين أمام الصميل وثوابة.

- لقد ظهر يوسف الفهري فجأة على مسرح الأحداث، إذ إنه لم يشترك في المجادلات السياسية والحزبية والحروب الأهلية، وعُرف بخصاله الحميدة، وهو مضري ويرتبط بالصميل برباط المصاهرة[3].

- لم يكن المرشحان الآخران من القوة بحيث يستطيعان منافسة يوسف الفهري.

- لقد عرض الصميل على يحيى بن حريث الجذامي، وهو أقوى المرشحَيْن، تعيينه حاكماً على مقاطعة ريَّة، الواقعة إلى الجنوب من قرطبة، مقابل انسحابه، فقبل ذلك، ونزل فيها مع جماعته الأردنيين. أما المرشح الآخر عمرو بن ثوابة، فلم يكن له نصيب في السلطة، فسقط اسمه ولاذ بالصمت بعد أن أدرك، كغيره من اليمنيين، أن مفتاح اللعبة هو في يد الصميل[4].

وهكذا، وبعد تذليل العقبات واستقطاب الأتباع والمؤيدين من مختلف الأقاليم، اختير يوسف الفهري والياً على الأندلس باتفاق الطرفين، القيسي واليمني، في

(١) أخبار مجموعة: ص ٥٧. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٣٥.
(٢) المصدران نفساهما. بيضون: ص ١٣٤. (٣) المقري: جـ ٤ ص ٢٠.
(٤) أخبار مجموعة: ص ٥٧. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٣٥.

(جمادى الأولى ١٢٩هـ/ كانون الثاني ٧٤٧م)[1]، على أن يجتمع القوم بعد عام ليختاروا الشخصية اليمانية التي ستلي يوسف الفهري في الولاية.

الأحداث السياسية الداخلية في عهد يوسف بن عبد الرحمن الفهري

معركة شقندة

جلس يوسف الفهري على كرسي إمارة الأندلس بفضل مساعي حليفه الصميل ودعمه، كما ذكرنا، ليحكم تسعة أعوام، وهي أطول مدة قضاها حاكم، خلال تلك المرحلة القلقة التي أطلقنا عليها اسم عهد الولاة، أي أن يوسف الفهري عاصر سقوط دولة الخلافة الأموية في دمشق عام (١٣٢هـ/ ٧٥٠م)، وحَكَمَ ستة أعوام في ظل دولة الخلافة العباسية حتى مجيء عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، الملقَّب بالداخل، إلى الأندلس وتأسيسه إمارة أموية مستقلة. وظلَّ الصميل، خلال تلك المدة، الرجل الأول في الأندلس، إذ كانت له الوزارة والتدبير والرسم بينما ليوسف الاسم فقط[2]، غير أن السنين التسع كانت حافلة بالأحداث الجسام، وكان أمام الحاكم الهادىء جولات أخرى من الصراع مع خصومه اليمنيين، وسرعان ما اندمج في الجو السياسي المشحون، واكتسب خبرة في فن الاحتفاظ بالسلطة.

وشكَّل يحيى بن حريث، حاكم ريَّة واليمني المتشدِّد، التحدِّي الأول للسلطة المركزية، فاتصل بأبي الخطّار لإحياء التحالف اليمني لمواجهة القيسيين المهيمنين على الحكم في قرطبة، ولما علم يوسف الفهري بنشاطه عزله من منصبه، وقد خشي هو وحليفه الصميل من أن تتحول ريَّة إلى مكان استقطاب اليمنيين تمهيداً للانقضاض على قرطبة، فرفض يحيى قرار الوالي بعزله حتى بدا وكأنه متأهب للحرب[3].

ونتيجة للمباحثات التي جرت بين الزعيمين اليمنيين تنازل أبو الخطّار لحليفه يحيى بن حريث عن زعامة اليمنيين بفعل التفوق العددي لقبيلة جذام على قبيلة كلب. وهكذا ظهر تحالف أكبر قوتين يمنيتين جذام وكلب، وانضمت سائر قبائل قضاعة، من حمير وكندة ومذحج إلى هذا التحالف، في حين ساندت مضر وربيعة يوسف الفهري.

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٥٧. ابن عذارى جـ ٢ ص ٣٦، ٣٧. المقري: جـ ٤ ص ٢٠.

(٢) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٣٧.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٥، ٣٦. أخبار مجموعة: ص ٥٨.

وفوجىء الصميل باتحاد الفرعين اليمنيين الكبيرين، وكان لا يزال يلعب على وتر الفرقة بينهما لتعديل التفاوت العددي بين كثافة اليمنيين وضآلة القيسيين، لكن حدث ما خفَّف هذا التفاوت، فعندما دعا يحيى بن حريث إلى الحرب، كانت الاستجابة اليمنية جزئية اقتصرت على قبائل الجنوب فقط. ولعل القبائل القاطنة في الشمال كان لها من دوافع الإحجام عن الاشتراك في التحالف، فبحكم مجاورتها للنصارى المتوثبين لمهاجمة الأراضي الإسلامية، آثرت عدم التدخل، الأمر الذي أضاع الفرصة أمام يحيى بن حريث لتحقيق طموحه في الحكم[1].

ولكن لم يحل ذلك من دون نشوب الحرب. فقد زحفت جموع التحالف اليمني باتجاه قرطبة في محاولة لحصارها، وعسكرت في شقندة على الضفة الشمالية لوادي النهر الكبير، وعبرت القوات القيسية النهر إلى معسكر خصومها، ونشبت معركة ضارية بين الطرفين في أجواء مشحونة «لم يُعرف معركة في الإسلام صبر فيها المسلمون على القتال كما صبروا في تلك المعركة اللهم عدا صفين»[2]. وقد تعدَّى أسلوب القتال فيها نظام الحرب التقليدي عند العرب، فتحول إلى مشاجرة اختلطت فيها كل أنواع الأسلحة والقتال حتى البدائية منها[3].

استمر القتال سجالاً من دون أن يتمكَّن أي طرف من حسم المعركة لصالحه، عندها استعان الصميل بعوام السوق وغوغائها فاشترك أربعمائة منهم في القتال وليس في رؤوسهم غير فكرة القتل، فدبَّ الذعر في قلوب اليمنيين المنهكين، وضاقت بهم السبل بعد أن خسروا الكثير من الضحايا. وأمعن القيسيون القتل فيهم وأسروا الكثيرين كان من بينهم أبو الخطّار وهيئة أركانه، فقُتلوا جميعاً على الفور. واستُكمِل الفصل الأخير من المعركة في كنيسة قَدِيمة حيث جمع الصميل الأسرى وراح يقتلهم، حتى إذا قتل سبعين أسيراً تدخل قاسم أبو العطاء ابن حمد المرِّي الذي لم يتحَّمل تلك القسوة، فهدَّده «بدعوة شامية». والواقع أن الصميل لم يتحمَّل استفزاز حليفه القوي، فأوقف المذبحة[4].

وهكذا نجح الصميل في تشتيت اليمنيين وإضعافهم، وكسر شوكتهم، وثبَّت أميره

---

(١) بيضون: ص ١٣٦.
(٢) أخبار مجموعة: ص ٥٩. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٣٦.
(٣) المصدران نفساهما. بيضون: ص ١٣٧.
(٤) أخبار مجموعة: ص ٥٩، ٦٠. بيضون: ص ١٣٧، ١٣٨.

الوديع في الحكم. وأضحت الأندلس، منذ تلك الوقعة، تحت سلطان يوسف الفهري في الظاهر وسلطان الصميل في واقع الأمر(١).

تحديد العلاقة بين يوسف الفهري والصميل

يبدو أن متاعب القيسيين لم تتوقف بعد هزيمة اليمنيين، فهناك مشكلات عديدة تحتاج إلى حلول حاسمة وسريعة، منها تحديد العلاقة بين مراكز القوى داخل الجماعة القيسية، وبخاصة بين الوالي يوسف الفهري ذي السلطة الرمزية وبين الصميل ذي السلطة الفعلية، والمعروف أن هذا الأخير تعدَّى صلاحياته بتدخله المستمر في شؤون الحكم حتى ضايق الوالي وأقلقه. وفي الوقت نفسه، رفض الوالي أن يكون له صورة الحاكم، وبدأ يتململ من وصاية زعيم القيسيين الشاميين عليه، وكان لهذه العلاقة غير الطبيعية أن تنفجر في أي وقت. وهكذا أقدم يوسف الفهري على تعيين الصميل حاكماً على سرقسطة(٢) في عام (١٣٢هـ/ ٧٥٠م) بهدف:

- إبعاده عن مركز القرار في العاصمة.
- مضايقته والإيقاع به لدى اليمنيين.

بدليل أنه حين نشبت ثورة ضده فيها، في عام (١٣٦هـ/ ٧٥٣م) وحاصره الثائرون في قصره، طلب نجدة من يوسف الفهري، فلم ينجده، وكان يتمنى أن يسقط في أيديهم(٣)، والمعروف أن غالبية سكان سرقسطة هم يمنيون.

لكن الصميل تغلَّب على هذه المحنة، وقضى على الثورة، ونجا من الحصار، وتخلَّص من المأزق الذي كاد أن يهلك فيه، وجاء إلى قرطبة حانقاً مغتاظاً من صديقه، فلامه على موقفه المتخاذل.

ولا بد لنا من التساؤل، لماذا قَبِل الصميل بهذا الإبعاد؟ الراجح أنه وافق على هذه التولية لأن البلاد كانت على وشك التعرُّض لموجة من الجفاف والقحط، وأن سرقسطة مشهورة بغناها وبمواردها، واعتقد أن الجائعين سوف يتدفقون عليها طلباً للرزق مما يتيح له استقطاب الناس للالتفاف حوله، والواقع أن بريق الزعامة والجاه هو الذي لفت أنظاره إلى هذه المدينة الغنية التي كانت بعيدة نسبياً عن التأثيرات السلبية للأزمة الاقتصادية.

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٦٠، ٦١. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٣٦، ٣٧.

(٢) أخبار مجموعة: ص ٦٢، ٦٣.

(٣) المصدر نفسه: ص ٦٥.

ثورة عامر العبدري

تجدَّدت النزاعات العصبية على الساحة الأندلسية إثر هدوء استمر حيناً، وأضحى تراث الخلافة الأموية مباحاً لكل طامع ومتغلِّب، فظهر عدد من الرجال النافذين والناقمين على يوسف الفهري وحليفه القوي الصميل لاستئثارهما بالسلطان والنفوذ، ورأى كل منهم أنه أحق بتولي السلطة، واختلطت في هذا الصراع الأوراق العصبية من خلال معطيات جديدة سوف تقلب موازين القوى، بقيام تحالف غير متوقع بين جماعة من «الأرستقراطية» القرشية، وبين جماعة من القبائل اليمنية، وكان وراء هذا التحالف رجل عسكري شغل وظيفة القيادة في حملات الشمال يُدعى عامر بن عمرو العبدري[1]، وكان هذا يشعر بتنامي قوته إلى جانب الحاكم الضعيف ذي الإمكانات المحدودة، حتى طمع في الحلول مكانه.

وشعر يوسف الفهري بالخطر الذي يشكله عامر، فقرَّر إلقاء القبض عليه، لكن الرجل كان حذراً، فتحصَّن في قصره القريب من قرطبة، واستقطب الأنصار وأخذ يشيع بأن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور بعث إليه عهداً بولاية الأندلس.

ويبدو أن وضع كل من الرجلين حال دون نشوب صدام مبكر بينهما. فمن جهة، كان يوسف الفهري لا يملك القوة الضرورية للدخول في اشتباك مسلح والخروج منه منتصراً، لذلك اعتمد على أسلوب الاغتيالات للتخلص من خصومه، ومن جهة أخرى، رأى عامر أن قوته لا تسمح له بالاصطدام بيوسف الفهري، وأن فرص النجاح غير ميسورة تماماً، ذلك بفعل ثلاثة عوامل:

الأول: استفراد الصميل بالقوة الفعلية التي تقف أمام طموحه.

الثاني: التفاف القيسيين حول الصميل، وصعوبة إقناعهم بالانفضاض من حوله وقبول زعامته.

الثالث: خشيته من تطويق الصميل له في قرطبة إذا نجح في انتزاعها من يوسف الفهري، لذلك صرف النظر عن الاستيلاء على السلطة في قرطبة، وقرَّر اللعب بورقة اليمنيين فاستقطب يمنية إشبيلية، وتوجَّه إلى سرقسطة لاستقطاب يمنيتها، وعقد تحالفاً مع الزعيم القيسي الحباب بن رواحة الزهري، وانضم إليه بعض البربر، ثم قاد هذا الجمع إلى سرقسطة فضرب عليها حصاراً شديداً، وذلك في عام (١٣٦هـ/ ٧٥٣م)[2].

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٦٣، ٦٤، ابن عذارى: جـ ٢ ص ٣٨.

(٢) أخبار مجموعة: ص ٦٤.

كانت تلك أول محنة جدِّية يواجهها الصميل في الوقت الذي أخذت فيه الثورة تستقطب المزيد من اليمنيين والبربر، ويزداد تحرُّج وضعه وخوفه على مصيره، فاضطر إلى طلب المساعدة من حليفه يوسف الفهري، على الرغم من علمه بأن المجاعة أنهكت قواه، وأنه لا يكنُّ له كثيراً من الود(١).

تباطأ يوسف الفهري في الردِّ معللاً موقفه المتخاذل بالظروف السيئة التي تجتازها البلاد بسبب المجاعة، وهو مسرور، في قرارة نفسه، بالمأزق الذي وقع فيه ليتخلَّص من وصايته الثقيلة، لكن الصميل، بما له من موهبة في استقطاب الأتباع، خرج من مأزقه بفضل دعم القيسيين في كورتي جيان وإلبيرة، كما تلَّقى دعماً من بعض القبائل العربية، مثل سُلَيْم ونصر وهوازن، وانضم إليه نفر من بني أمية، من بينهم أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد(٢).

التأمت قوى التحالف القيسي في جيش واحد بقيادة سليمان بن شهاب، شيخ بني عامر، وزحفت باتجاه سرقسطة لفك الحصار عنها، وما كادت تصل إلى مشارفها حتى جزع المحاصِرون، فرفعوا الحصار عنها وانسحبوا من دون أي اشتباك(٣)، وبذلك تمَّ إنقاذ الصميل وإفشال ثورة اليمنيين، لكنه لم يشأ أن يمكث في سرقسطة بعد ذلك، وغادرها إلى قرطبة مما أزعج حليفه يوسف الفهري، فحرص على ألَّا يبقيه في العاصمة، فعيَّنه والياً على طليطلة(٤).

استغل عامر العبدري خروج الصميل من سرقسطة فهاجمها واستولى عليها، غير أنه اضطر إلى التخلِّي عنها تحت ضغط يوسف الفهري وحليفه الصميل، وقبض الفهري عليه وعلى ابنه وهب وشريكه الحباب الزهري وقتلهم جميعاً، وعادت سرقسطة إلى حكمه(٥).

إصلاحات يوسف الفهري الإدارية

إلتفت يوسف الفهري، خلال مراحل الهدوء الخاطفة، إلى الإصلاح الإداري وتحرير الجهاز الحكومي من الفساد، فراح يطوف في الأقاليم يتفقَّد أحوال سكانها،

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٦٥. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٣٧. بيضون: ص ١٤٣، ١٤٤.
(٢) أخبار مجموعة: ص ٦٥. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٣٧.
(٣) أخبار مجموعة: ص ٦٥، ٦٦.
(٤) بيضون: ص ١٤٥.
(٥) أخبار مجموعة: ص ٧٦، ٧٧. ابن الأبار، أبو عبد الله محمد: الحلة السيراء: جـ ٢ ص ٣٤٥.

ويعزل الحكّام المتخاذلين والعابثين، ويقضي على المظالم والفوضى، وعدّل نظام الضرائب، فاستبعد الأموات من الضريبة، وكانت ما تزال تُجبى عنهم وفقاً للنظام القديم، وأعاد النظر في التقسيمات الإدارية باتجاه تقوية النظام المركزي في قرطبة، فقسَّم البلاد إلى خمس مقاطعات، أو أقاليم، كما كانت في أيام الحكم القوطي مع تعديل طفيف في حدودها، وهذه الأقاليم هي:

إقليم الأندلس: وهو ولاية باطقة، ويقع بين وادي أنة والبحر الأبيض المتوسط.

إقليم طليطلة: وهو ولاية قرطاجنة القديمة، ويمتد من جبال قرطبة حتى نهر دويرة وجبال وادي الحجارة شمالاً.

إقليم ماردة: وهو ولاية جليقية القديمة، ويمتد فيما وراء وادي أنة شرقاً حتى المحيط الأطلسي.

إقليم سرقسطة: وهو ولاية كنتبرية القديمة، ويمتد من منابع نهر تاجُه شرقاً على ضفتي نهر إبرو حتى جبال البرينيه وبلاد البشكنس.

إقليم أربونة: وهو ولاية الثغر، ويقع شمال شرقي جبال البرينيه حتى البحر، ويشمل مصب نهر الرون[1].

وحرص يوسف الفهري على أن تكون للإدارة المركزية أداة تنفيذية قوية تُحقِّق لها المكانة، وذلك من واقع تقوية الجيش، فأولاه كثيراً من الاهتمام للقيام بدوره المطلوب في قمع حركات التمرد الداخلية، وحماية الثغور الشمالية من هجمات الإسبان التي أخذت تضغط على تلك المنطقة بشكل دوري ومتكرر، كما أصلح الطرق لتسهيل مرور الحملات العسكرية.

لكن إصلاحات يوسف الفهري لم تُحقِّق الغاية المرجوة لأنه بدا ضعيفاً داخل الجماعة القيسية، وفشل في انتزاع الدور الأول، فكيف بالزعامة الشاملة للأندلس الغارقة بالمشكلات المستعصية، حتى هو كان يشعر بضعفه وانصراف الناس عنه، فلا يكاد يكون أكثر من مجرد حاكم عادي لمدينة عادية[2]، والواقع أنه لم يكن الرجل المناسب لتلك المرحلة.

---

(١) عنان: جـ ١ ص ١٣٢، ١٣٣.

(٢) بيضون: ص ١٤١.

الفَصْل الرّابِع

الأوضاع الخارجية في الأندلس
في ظل حكم الولاة

فتوح عبد العزيز بن موسى

لم يمكث عبد العزيز بن موسى طويلاً في إشبيلية، إذ إن مقتضيات الفتوح أجبرته على الخروج لفتح أقاليم غربي الأندلس والمناطق الواقعة في شرقي البلاد وشمالها. فخرج على رأس جيش يرافقه دليل من رجال يوليان باتجاه الأقاليم الغربية، ففتح يابرة الواقعة بالقرب من أشبونة، وشنترين الواقعة على نهر تاجُه، وقلمرية قرب ساحل المحيط الأطلسي، وأستورقة المجاورة لجليقية، وتوقف عند حدود هذه المنطقة الجبلية لينعطف نحو الجنوب حيث لا زالت بعض المواقع الهامة خارج نطاق السيطرة الإسلامية، ففتح مدن ريَّة ومالقة وغيرها من القرى التابعة لها، وسيطر على كامل مقاطعة ريَّة[1]، وفرَّ معظم المدافعين الإسبان إلى الجبال للاحتماء بها. وأخضع إلبيرة، وترك فيها حامية عسكرية مشتركة من العرب واليهود الذين كانوا متواجدين فيها، ثم توجه نحو مرسية في الشرق، وتدعى تدمير، على اسم حاكمها القوطي، وكانت، على الرغم من تبعيتها لمملكة طليطلة، إمارة شبه مستقلة. وتصف بعض الروايات تدمير هذا بأنه كان صديقاً للمسلمين، والراجح أنه كان أحد أطراف القوى التي فاوضت المسلمين بشأن الدخول إلى الأندلس، مع يوليان وبقية أعضاء الحزب المناوىء لرودريك، في حين تصفه روايات أخرى بأنه اعترض تقدم المسلمين، الأمر الذي دفع عبد العزيز إلى فرض حصار على مدينته. ونظراً لقلة عدد مقاتليه، لم يتمكّن من الصمود واضطر إلى التفاوض مع عبد العزيز بشأن الصلح

---

(١) بروفنسال: ص ٥٦، ٥٧. بيضون: ص ٨٧، ٨٨ .Saavedra: p. 127

تمخَّض عنه توقيع اتفاقية صلح بينهما، حصل تدمير بموجبها على شروط مريحة، أبقت إدارة المنطقة في يده مقابل اعترافه بالتبعية للدولة الإسلامية، وتسديد الجزية السنوية، وتسليم سبعة ثغور[1].

وباستسلام إقليم مرسية يكون القسم الجنوبي الشرقي من الأندلس قد خضع لسيطرة المسلمين. وهناك افتراض بأن المسلمين قاموا، خلال تلك المرحلة، بحملات عسكرية اجتاحت طرَّكونة في الشمال حتى برشلونة وبنبلونة. وبذلك استُكملت عمليات الفتوح في عهد عبد العزيز بن موسى، ولم يبقَ خارج نطاق السيطرة الإسلامية سوى بضعة جيوب.

المقاومة النصرانية المبكرة

تمهيد: تُعدُّ المرحلة الواقعة بين فتح المسلمين للأندلس في عام (٩٢هـ/ ٧١١م) وبين قيام حكم بني أمية في عام (١٣٨هـ/ ٧٥٦م)، من بين أهم مراحل التاريخ الإسلامي في الأندلس، وذلك بفعل ما صحبها وما رافقها من أحداث هامة أدَّت إلى أن يفقد المسلمون ربع ما فتحوه من شبه جزيرة إيبيرية وإلى قيام نواة مملكة نصرانية في أقصى الشمال في أشتوريس وجليقية، أخذت على عاتقها مهمة استرداد ما فتحه المسلمون من البلاد وإعادته إلى حظيرة النصرانية، وتمكَّنت من الانتصار على القوات الإسلامية التي كانت تُرسَل إلى هناك في حَملات متقاربة زمنياً أو متباعدة، ومعلنة عن بداية حرب الاسترداد.

والواقع أنه تضافرت عدة عوامل أدَّت إلى هذا الوضع لعل أهمها:

- عدم إتمام المسلمين فتح كامل البلاد، فقد تركوا بعض المناطق الوعرة في أقصى الشمال، فلم يصل حكمهم إلى جبال قرقشونة في أقصى الشرق وجبال بنبلونة ومنطقة أشتوريس وجليقية في الشمال والشمال الغربي، على الرغم من اختراق موسى بن نصير جبال البرينيه وقيامه بغزو ناربونة وغيرها من مدن مقاطعة سبتمانية في جنوبي غالة، وقد أدّى ذلك إلى فرار بعض القوط أمام جيوش الفتح، وتحصَّنوا في تلك المناطق، ثم نظموا صفوفهم وفتحوا صفحة جديدة من العلاقات العسكرية مع المسلمين، وقد ساعدهم في ذلك سياسية الخلافة الأموية في المشرق

---

(١) انظر نص الاتفاقية عند: الحميدي: ص ٦٢، ٦٣. الضبي، أحمد بن يحى بن عميرة: بغية الملتمس في رجال أهل الأندلس ص ٢٥٩.

التي أسرعت باستدعاء موسى بن نصير قبل أن يتم فتح تلك المناطق الشمالية.

ـ ما بذله المسلمون من جهد في غزو بلاد الفرنجة التي كانت فاشلة، متجاوزين السيطرة على تلك المنطقة الشمالية الغربية قبل بداية غزوهم، حيث كانت السياسة السليمة تقضي بالاهتمام بالخطر الكامن هناك، وكان أخطر مظاهر هذا التجاوز هو انصرافهم عن القضاء على بقايا القوط الذين اعتصموا في أشتوريس وجليقية، وقد تجرأوا على مقاومة المسلمين خلال عهد الولاة.

ـ سقوط الدولة الميروفنجية في غالة في عام (١٣٣هـ/ ٧٥١م) وتولي ببين القصير حكم البلاد، ثم قيامه بمدٍّ سلطته إلى جهة الجنوب الغربي، الأمر الذي كان له انعكاسه على نصارى الشمال الأندلسي.

ـ قيام صراع في المشرق الإسلامي بين الأمويين والعباسيين والذي انتهى في عام (١٣٢هـ/ ٧٥٠م) بسقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية، وعلى هذا لم يكن هناك أمام أمراء بني أمية من الوقت والجهد ما يبذلونه للعمل على استقرار الأوضاع في الأندلس، فقد انهمكوا بمقاومة الخطر العباسي، فاستغل ولاة الأندلس الفرصة، وانغمسوا في الصراع على السلطة حتى مكَّنوا نصارى الشمال من خوض حرب ناجحة ضدهم.

ـ انهماك المسلمين في الأندلس بالصراع القبلي والعنصري المرير والدامي، الأمر الذي كان له آثار خطيرة وضارَّة على مستقبل الصراع بين المسلمين وبين النصارى في الشمال، الذي شهد بداية المقاومة النصرانية ضد الوجود الإسلامي انطلاقاً من الشمال الغربي من البلاد، تلك الرقعة التي كانت تمثل ثغراً هاماً ومنطقة ذات مركز حساس على دار الإسلام في الغرب[1].

ثورة بلاي: قاد حركة المقاومة النصرانية شخص من أصل قوطي يُدعى بلاي ـ بلاجيوس ـ في عهد الوالي عنبسة بن سُحَيْم الكلبي، وهو رجل مغمور لم تتناوله روايات المؤرخين إلا من خلال إشارات مقتضبة ومتفرقة، وقدَّمته على أنه ابن لدوق كنتبرية يدعى فافيلا في إقليم أشتوريس، كما قدَّمته مصادر أخرى على أنه ابن لبرمود، أخي رودريك وهو «أول من جمع فلَّ النصارى بالأندلس»، ووضع أسس أول مملكة نصرانية هي مملكة أشتوريس[2].

---

(١) عبد الحليم: ص ٢٨ ـ ٣٠.

(٢) أخبار مجموعة: ص ٢٨، ٦٢. المقري: جـ ٦ ص ١١٩. Saavedra: PP. 117, 118.

احتمى بلاي في مكان يدعى الصخرة نظراً لارتفاعه وصعوبة الوصول إليه، ويقع في أقصى الجزء الشرقي من أشتوريس الذي لم يُفتح بعد، فنُسب إليه ودُعي «صخرة بلاي»، وهو كهف سانتا ماريا أو كوفادونجا[1]، وأثار النصارى ضد المسلمين، وأحيا فيهم الأمل في استعادة أراضي مملكتهم البائدة، واستغل العامل الديني لتكتيلهم حوله، فتدفق الناس على الصخرة واختاروه زعيماً لهم في عام (٩٩هـ/ ٧١٧م)[2]، واضعاً بذلك البذرة الجنينية لحركة التمرد ضد المسلمين التي سوف تنمو وتستفحل في الأعوام القليلة القادمة متَّخذة من الفكر الديني غطاءً لتحقيق أهداف سياسية وعسكرية.

تطورت حركة التمرد في ظل ولاية السمح بن مالك، واتخذت، مع بداية حكم خلفه عنبسة بن سُحَيْم شكل هجمات ضد الحاميات الإسلامية المقيمة في أشتوريس، فتصدَّى لها هذا الوالي قبل أن يستفحل خطرها، فأرسل قوة عسكرية في عام (١٠٣هـ/ ٧٢٢م)، بقيادة علقمة بن عامر اللخمي، هاجمت مدينة كانجاس، مركز تجمع المتمردين، فانسحب هؤلاء إلى معقلهم الجبلي، الصخرة، ووضعوا حراساً ومراقبين على قمم الجبال المطلة على جانبي الوادي المؤدي إلى كهف كوبادونجا، فاقتفى علقمة أثرهم، وتهور في اندفاعه، فوقع في الكمين الذي أعدَّه الثوار له في منطقة جبلية وعرة، فحشر نفسه وجيشه في مكان ضيق لا يصلح معه خوض معركة ناجحة. وللخروج من هذا المأزق عرض التفاوض مع الثائرين، إلا أنهم رفضوا ذلك، فاضطر إلى الاصطدام بهم. جرت المعركة في ظروف طبيعية وجغرافية غير متكافئة على الرغم من تفوق المسلمين العددي، حيث كانت جبهتهم مكشوفة وقاتلوا على جبهتين، جبهة الكهف من الأمام، وجبهة الرماة على قمم الجبال من الخلف، فأُسقط في أيديهم وشرعوا بالانسحاب بعد أن تكبَّدوا خسائر فادحة، وقُتل علقمة في غمرة القتال. عُرفت هذه المعركة في التاريخ باسم معركة كوبادونجا، وعدَّها النصارى بداية حركة الاسترداد، والواقع أنها لم تكن سوى مناوشة محدودة الأهمية عسكرياً، أما أهميتها السياسية فكانت مؤثرة، إذ انحسر النفوذ الإسلامي على إثرها عن المنطقة، ولم يعد إليها ثانية، وشكَّلت فرصة للمتمردين النصارى لمواصلة تحديهم للمسلمين[3].

---

(١) Saavedra: PP. 117, 118.

(٢) المقري: جـ ٤ ص ١٣.

(٣) رمضان: ص ٢٤٨_٢٥٧.

لم يتوانَ عنبسة بن سُحَيْم، بعد هزيمة قواته، عن التضييق على بلاي وجماعته، فأرسل قوات عسكرية رابطت على المداخل المؤدية إلى الكهف، فنفدت مؤن من بداخله وهلك منهم أعداد كثيرة، وتراجعت قوتهم، فاستقلَّهم الوالي واستخفَّ بهم وقال: «ثلاثون علجاً، ما عسى أن يجيء منهم»[1]، ورأى أنه من العبث إضاعة الوقت والجهد معهم، وربما رأى انعدام خطورتهم، فأجَّل القضاء عليهم إلى حين عودته من غزو غالة، غير أنه توفي في غزوته. واضطربت شؤون الأندلس بعد وفاته بفعل الصراعات العنصرية والقبلية، فانصرف المسلمون عنهم مدة تسعة أعوام، فأتاح لهم هذا الوضع الجديد حرية الحركة والانتشار ضمن منطقتهم، وهو أقصى ما تطلَّعوا إليه في تلك المرحلة المبكرة من تاريخ حركتهم[2]، وصرفوا جهودهم في ظل حكم الولاة، الذين خلفوا عنبسة بن سُحَيْم، للدفاع عما اكتسبوه من أرض، واقتنعوا بحياة التقشف في منطقتهم الجبلية القاحلة والنائية.

ولا شك بأن نجاح بلاي في تنظيم حركة المقاومة والانتصار على المسلمين صادف هوى في نفوس أتباعه الذين رأوا فيه الرجل القادر على تحمُّل تبعات القيادة ومتطلباتها؛ فمنحوه ثقتهم الكاملة واختاروه ملكاً عليهم واتخذوا من مدينة كانجاس عاصمة لهم.

تأسيس مملكة أشتوريس

توفي بلاي في عام (١١٩هـ/ ٧٣٧م)، وخلفه ابنه فافيلا الذي لم يكن على مستوى والده في الهمة والنشاط، متقلِّب الأهواء، مولعاً بصيد الحيوانات البرية «أقرَّ السلامة وتحاشى القيام بأي عمل عسكري»، وقضى نحبه في غابات كانجاس في إحدى رحلات صيده العابثة حيث هاجمه دبٌّ ومزَّقه، وذلك في عام (١٢١هـ/ ٧٣٩م)، ولم يترك وريثاً يخلفه في قيادة الحركة، فخلفه ألفونسو الأول، ابن الدوق بطرس الملقب بالكاثوليكي، وهو من أصل قوطي.

والواقع أنه على الرغم مما بذله المسلمون في الأندلس من جهد لاستكمال فتح شبه جزيرة إيبيريا، فإنهم عجزوا، حتى عام (١٢١هـ/ ٧٣٩م)، عن فتح منطقة بردوليا الواقعة في غربي كنتبرية بأقصى شمالي البلاد، كما فشلوا في استعادة السيطرة على ما يجاورها غرباً في أقصى شرقي أشتوريس منذ أن استقلَّ فيها بلاي.

---

(١) مؤلف مجهول: فتح الأندلس ص ٢٦. المقري: جـ ٤ ص ١٥.

(٢) رمضان: ص ٢٦٥.

وكان تجاور هاتين المنطقتين من عوامل تقارب سكانهما النصارى واتحادهم ضد المسلمين في الأندلس فيما يلي من أعوام، وأضحتا قاعدتين للحركات القومية الإسبانية، تنطلق منهما حملات الاسترداد مع تراجع النفوذ الإسلامي وضعفه بسبب اختلاف المسلمين وتناحرهم[1].

يُعدُّ ألفونسو الأول المؤسس الحقيقي للمملكة النصرانية التي قامت في أشتوريس في وقت مبكر من حكم المسلمين، وقد دفعته الظروف السياسية للبروز، فهو من أصل قوطي ملكي، ومساعد بلاي، وزوج ابنته إرمنسندا، وكان حريصاً على خلافة فاڤيلا في أشتوريس لأنها تمثِّل عمقاً حيوياً لدوقيته بردوليا يقيها هجمات المسلمين من ناحية الغرب، وبخاصة أن هؤلاء أضحوا جيرانه بعد أن فتحوا قسمها الشرقي المعروف بألبة في عهد والده.

وهكذا توحَّدت، لأول مرة، جبهة المقاومة النصرانية في شمالي الأندلس ضد المسلمين، منذ الفتح الإسلامي، وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ العلاقات الإسلامية ـ النصرانية في الأندلس هي مرحلة حرب الاسترداد، وستنقسم شبه جزيرة إيبيريا، منذ ذلك التاريخ، إلى قسمين موزَّعين بين الدولة الإسلامية والدولة النصرانية التي سوف تتخذ لها مكاناً في تاريخ الأندلس، وأن النزاع بينهما سيستمر ويطول قروناً، وستتوسع الدولة النصرانية تباعاً باتجاه الجنوب حيث ستقضي، بعد ثمانية قرون، على الدولة الإسلامية، وتعيد إسبانيا النصرانية كما كانت.

وفي الوقت الذي تولى فيه ألفونسو الأول زعامة النصارى في الشمال وراح يستعد لمدِّ حدود إقامته باتجاه الجنوب، شُغِل المسلمون بمشكلاتهم الداخلية، إذ إن ما جرى من نزاعات دموية بينهم، مزَّقت الأندلس وأتاحت له فرصة ذهبية لتحقيق طموحه والتوسع على حسابهم، واضطر العرب، تحت ضغط البربر، إلى إخلاء مساحات شاسعة من الأراضي في إقليمي جليقية وأشتوريس في عام (١٢٣هـ/ ٧٤٠م)، ولم يبقَ فيهما غير البربر وهم سكانها الأصليون منذ الفتح. ولما حلَّ القحط في الأندلس نزح كثير من المسلمين البربر عن تلك الأنحاء الأمر الذي أزاح ذلك الضغط عن صدر ألفونسو الأول وأتباعه، وأتاح لهم القيام بمحاولات لتهجير من تبقَّى من المسلمين.

---

(١) رمضان: ص ٢٩٣.

ويبدو أن ألفونسو الأول، على الرغم من الظروف المؤاتية، لم يكن باستطاعته أن يدخل في حرب سافرة مع المسلمين، لذلك لجأ إلى حرب العصابات واستدراج هؤلاء إلى داخل أراضي مملكته حيث توفِّر طبيعتها الجبلية الوعرة تكبيدهم خسائر فادحة، وقد انخدع المسلمون بذلك الشرك الأمر الذي عُدَّ انتصار له[(١)].

لا تتوفر معلومات مسهبة عن طبيعة النشاط العسكري لألفونسو الأول طوال الثمانية عشر عاماً (١٢١ ـ ١٤٠ هـ/ ٧٣٩ ـ ٧٥٧م) التي قضاها في الحكم، إلا أنه يمكن تلمُّس الإشارات الواردة في المصادر والبناء عليها، حيث أن ظهوره على المسلمين في منطقتي جليقية وأشتوريس شجَّعه على المضي في سياسته القاضية بإجلائهم، واتَّبع في ذلك أسلوب المراحل كي يضمن النجاح.

كان الجزء الشمالي من المنطقتين المشار إليهما يمثل عمقاً حيوياً لمملكته من ناحيتي الغرب حتى المحيط الأطلسي، والجنوب حتى جبال كنتبرية، لذلك ركَّز جهوده في المرحلة الأولى على السيطرة عليهما وطرد المسلمين منهما عن طريق إثارة السكان النصارى ضدهم باسم الدين، وبخاصة أن هؤلاء كانوا يشكلون الأكثرية العددية، وقد أدَّت الإدارة الإسلامية دوراً في ذلك عندما رفضت التماسهم بإعفائهم من دفع الخراج والجزية المترتبة عليهم بفعل القحط الذي كان يعمُّ البلاد آنذاك[(٢)].

بدأت الثورة في عام (١٣٣هـ/ ٧٥٠م) بأن امتنع نصارى شمالي جليقية وأشتوريس عن دفع الخراج والجزية للمسلمين، كما ارتدَّ كثير ممن دخل في الإسلام من ضعاف الإيمان، وعادوا إلى نصرانيتهم[(٣)]، ربما تحت تأثير دعاية ألفونسو الأول.

كان من الطبيعي ألا يقف المسلمون مكتوفي الأيدي أمام هذا الخطر على كيانهم ووجودهم، وإنما جاهدوا قدر استطاعتهم في محاولات يائسة، وأغاروا على معاقل الثوار بمعزل عن والي الأندلس الذي ظل على تجاهله لما كان يحدث في تلك الأطراف الشمالية النائية، تحت ضغط تردِّي الأوضاع السياسية والاقتصادية، إلا أنهم عجزوا في النهاية عن وقف زحفهم، ففرُّوا من أمامهم، وطردهم هؤلاء وقتلوا كثيراً منهم وأجبروا من نجا على عبور جبال كنتبرية إلى ما يليها جنوباً حيث احتموا بمدن أستورقة وليون وبراجا وغيرها[(٤)].

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٤٥، ٦١، ٦٢.

(٢) مؤلف مجهول: ص ٦. أخبار مجموعة: ص ٦١. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٣٨.

(٣) أخبار مجموعة: ص ٦٣. (٤) المصدر نفسه: ص ٦٢.

وهكذا خرج المسلمون من شمالي جليقية وأشتوريس، وخسروا هذه المنطقة للأبد، وتحقَّقت أولى أهداف ألفونسو الأول الذي سارع إلى ضمٍّ تلك الناحية إلى مملكته الصغيرة، فازدادت مساحتها ووصلت إلى ضعف حجمها، إذ امتدت من ساحل المحيط الأطلسي غرباً ولاصقت جبال كنتبرية جنوباً، وتوفَّرت لها، بهذا الامتداد، الحماية الطبيعية، واستقطبت قوى نصرانية جديدة كانت بحاجة إليها لإنشاء جيش، قادر على الدفاع عنها والانطلاق منها لمهاجمة المسلمين وانتزاع مزيد من الأراضي من أيديهم[(١)].

شكَّل نجاح ألفونسو الأول سابقة مثيرة ومشجِّعة على متابعة نشاطه العسكري ضد المسلمين في جنوبي هذين الإقليمين، أي في المنطقة الممتدة جنوبي جبال كنتبرية حتى نهر دويرة، وإخراجهم منها أيضاً، ورأى أن بقاءهم فيها، بالإضافة إلى سيطرتهم على ممرات جبال كنتبرية المؤدية إلى داخل مملكته، يشكِّل خطراً على دولته الناشئة، لذلك ترقَّب الفرصة لتنفيذ خطته والسيطرة على حوض نهر دويرة[(٢)].

وسرعان ما سنحت له الفرصة في عام (١٣٦هـ/ ٧٥٣م) من واقع الثورات التي قامت ضد حكم الوالي يوسف بن عبد الرحمن الفهري في أكثر من مدينة، وبخاصة ثورة مدينة سرقسطة، وانهماكه في إخمادها، بالإضافة إلى اشتداد الوضع الاقتصادي الناجم عن الجفاف الذي أجبر كثيراً من السكان على ترك أراضيهم والهجرة إلى الأماكن الأقل تأثراً، وكان سكان حوض نهر دويرة من بينهم، فارتحلوا إلى سرقسطة ووادي نهر إبرو، فأعدَّ قواته وخرج على رأسها، يرافقه أخوه الأصغر فرويلة، وقام بحملات سريعة وواسعة المدى في حوض نهر دويرة امتداداً إلى جنوبه، وانتزع عدة مدن وقرى من أيدي المسلمين، منها أستورقة ولك، وطرد من بقي فيها منهم[(٣)]. وبذلك يكون قد حقَّق الأمن والحماية لمملكته على طول حدودها الجنوبية.

التفت ألفونسو الأول، بعد ذلك، إلى الجهة الشرقية لمملكته حيث كان المسلمون يسيطرون على إقليم ألبة في وادي الإبرو وما يليه شرقاً في إقليم نبرَّة من أراضي البشكنس، فأثار السكان النصارى فيهما، وأقنع قادتهم بالثورة عليهم والتخلص كلياً من وجودهم، فثار سكان بنبلونة في عام (١٣٨هـ/ ٧٥٥ ـ ٧٥٦م).

(١) رمضان: ص ٣٢٤.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) أخبار مجموعة: ص ٦٢.

وحتى يخفف من ضغط المسلمين عليهم، هاجم إقليم ألبة فتشتَّت القوى الإسلامية التي رأت نفسها تحارب على جبهتين.

وصلت أنباء تلك الأحداث إلى مسامع يوسف بن عبد الرحمن الفهري وهو في مدينة سرقسطة. ولما كانت بنبلونة ذات أهمية سياسية وعسكرية كبيرة للمسلمين بفعل قربها من إقليم سرقسطة، بالإضافة إلى أنها تشكل معبراً للجيوش الإسلامية من وإلى غالة؛ فإنه لم يتردَّد في إرسال قوة إسلامية بقيادة سليمان بن شهاب ومساعده الحصين بن الدجن لإخماد الثورة في بنبلونة(١).

كانت هذه القوة الإسلامية أول بعث إسلامي يتحرك ضد نصارى الشمال منذ سبع عشرة سنة، كما كانت بادرة أمل بعودة حركة الجهاد الإسلامي إلى سابق نشاطها وقوتها، لولا أن الوالي كانت له وجهة نظر أخرى. إذ الواضح أنه أراد التخلُّص من قائدي الحملة لأنهما كانا من أشد المسلمين اعتراضاً له وغلظة حينما قرَّر القضاء على قادة ثورة سرقسطة، فبعثهما في قلَّة من العدد والعتاد بحيث ما إن وصلا إلى بنبلونة حتى تلقَّفهما الثائرون وفتكوا بقواتهما، وكان سليمان بن شهاب من بين القتلى في حين نجا الحصين بن الدجن(٢). ونتيجة لهذه المواجهة خرجت نبرَّة عن سيطرة المسلمين لكنها لم تدخل في طاعة ألفونسو الأول على الأقل خلال المدة المتبقية من عهده.

وفي الوقت الذي انصرف فيه المسلمون لإخماد ثورة بنبلونة، ضرب ألفونسو الأول ضربته الأخيرة، فهاجم إقليم ألبة واستعاده من المسلمين، لكنه لم يعمد إلى مدِّ سيطرته أو الاستقرار في كل الأراضي التي هاجمها، ولم يحتفظ إلا بالأراضي الواقعة إلى الشمال من جبال كنتبرية فقط، والتي تمتد على جانبي دولته شرقاً في إقليم ألبة، وغرباً في إقليمي جليقية وأشتوريس. أما حوض نهر دويرة، الممتد إلى الجنوب، فقد دمَّره وجعله أرضاً مهجورة وحاجزاً طبيعياً بين مملكته في الشمال ودولة المسلمين في الجنوب، وسيكون هذا الشريط الفاصل مسرحاً مفتوحاً لمواجهات عسكرية في المستقبل يحاول فيها كل طرف وقف تقدم الطرف الآخر(٣).

وعلى هذا النحو تمكَّن ألفونسو الأول من تحقيق ما خطَّط له، فأخرج المسلمين من ألبة وساهم في فقدهم إقليم نبرَّة، وأبعد خطرهم المباشر عن دولته الناشئة ووفَّر لها ما

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٧٦، ٧٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ٧٧ـ ٧٩.

(٣) رمضان: ص ٣٣٣.

كان يبغيه من حماية وأمن على طول حدودها الشرقية والغربية والجنوبية وانحسرت في المقابل الحدود الأندلسية عن منطقة حوض نهر دويرة، وسارت مع خط يمتد من مدينة قلمرية على نهر منديق في أقصى الغرب، ثم قورية وطلبيرة وطليطلة على نهر تاجُه ومنها إلى وادي الحجارة وتطيلة على نهر إبرو، وأضحى هذا الخط ثغوراً إسلامية في مواجهة الثغور النصرانية، وقسَّمه المسلمون إلى ثلاث مناطق ثغرية هي الثغر الأدنى في أقصى الغرب، وقاعدته مدينة ماردة، والثغر الأوسط، وقاعدته مدينة طليطلة، ثم الثغر الأعلى في أقصى الشمال الشرقي وقاعدته مدينة سرقسطة(١).

التوسع الإسلامي فيما وراء جبال البرينيه

سياسة المسلمين الأوروبية

قضت سياسة المسلمين، بعد أن فتحوا شبه جزيرة إيبيريا ووصلوا إلى سفوح جبال البرينيه، بعبور هذه الجبال الفاصلة بين إسبانيا والمملكة الميروفنجية في غالة(٢) وغزو المناطق الجنوبية لهذه المملكة، بهدف حماية مكتسباتهم في الجنوب. ذلك أن بعض بقايا القوط تمركزت في مقاطعة سبتمانية الواقعة في جنوبي غالة، وهي على وشك التنسيق مع القوط في أقصى شمال غربي الأندلس، على الجانب الآخر من الجبال، لطرد المسلمين من البلاد، فكان إخضاع هذا الإقليم وسكانه من القوط لسلطان المسلمين ضرورة عسكرية. والمعروف إن إقليم سبتمانية ظل بعيداً عن سيطرة الفرنجة منذ أيام كلوفيس، مؤسس مملكة الفرنجة الذي فشل في ضمِّه إلى أراضي مملكته، ثم جاءت أحداث انقسام الأسرة الميروفنجية الحاكمة بسبب ما جرى من اقتسام المملكة بين ورثته، الأمر الذي أدَّى إلى استمرار ابتعاد الفرنجة عن الإقليم، وتَرْكُ القوط ينعمون بالسيطرة عليه، وظل تابعاً لهم حتى نُسب إليهم وعُرف باسم «بلاد القوط»(٣).

ويُعدُّ حرص المسلمين على ضمان سلامة ممتلكاتهم بفتح مناطقِ الأطراف المجاورة، تفكير سليم في حقل السياسة العسكرية حيث ظل القوط يُشكِّلون خطراً عليهم ويهدِّدون ممتلكاتهم.

---

(١) رمضان: ص ٣٣٣.

(٢) نسب الميروفنجيون أنفسهم إلى إله البحر ميروفيوس.

(٣) بروفنسال: ص ٦٩. أرسلان، الأمير شكيب: تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ص ٥٠ـ ٥٢.

لقد أدرك موسى بين نصير من قبل أهمية فتح هذا الإقليم لتأمين الخطوط الدفاعية لإمارته الجديدة من الشرق والشمال، فصمَّم على ضمِّه إلى الممتلكات الإسلامية، واتخاذه حاجزاً يقي المسلمين الهجمات من الشمال والشمال الشرقي، غير أن مشروعه لم يتحقق ووقف عند سفوح جبال البرينيه بسبب استدعائه إلى دمشق. ويبدو أن الإشارات المتناثرة الواردة في بطون الكتب التاريخية من أن موسى بن نصير أراد عبور جبال البرينيه والتوغل في عمق القارة الأوروبية، تلك «الأرض الكبيرة» وصولاً إلى دمشق عن طريق القسطنطينية[1]، أمر بعيد الاحتمال ويخرج عن نطاق التفكير السليم، غير أنه يمكن القول إن الفتوح الإسلامية بعامة منذ أن انطلقت في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه، لا تتوجه إلى ميدان جديد إلا بعد أن تدعم قواعدها وتثبِّت أقدامها في المناطق التي تفتحها، ثم تجعل منها مناطق صالحة للانطلاق واستئناف الجهاد، ولم تشذّ الفتوح في الغرب عن هذه القاعدة العامة، وهي التقدم في خطى متدرجة ومتابعة وفقاً لمقتضيات الظروف الداخلية والخارجية.

وكرَّس معظم الولاة، الذين تعاقبوا على حكم الأندلس، وقتهم وجهدهم في متابعة هذه الرسالة على الرغم من المشكلات الداخلية التي كانوا يواجهونها، كما أن قراراتهم بهذا الشأن لم تتأثر بتوجهات دمشق أو القيروان وإنما بحتميات التطور السياسي والعسكري على الأرض، وبالواقع الجديد الذي فرض سياسات توسعية يمكن ألا تتفق مع توجهات الخليفة الأموي أو والي القيروان[2].

فتح سبتمانية

اقترنت بداية المرحلة الأولى من تاريخ المسلمين في الأندلس بعدة محاولات توسعية وراء جبال البرينيه، حيث تقع مملكة الفرنجة، وذلك بهدف تحقيق فتوح جديدة ونشر الإسلام في ربوعها، وحماية حدود الأندلس.

والواقع أن النشاط العسكري الجدِّي ابتدأ مع تولِّي السمح بن مالك ولاية الأندلس في عام (١٠٠هـ/ ٧١٩م)، وهو العام نفسه الذي تولى فيه شارل بن ببين الثاني منصب رئيس البلاط في مملكة الفرنجة[3]، ويُعدُّ ذلك حدثاً غير عادي في تاريخ العلاقات

---

(١) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١١٧، ١١٨.
(٢) بيضون: ص ١٤٦، ١٤٧.
(٣) كان رئيس البلاط من بين الموظفين الكبار في الدولة الميروفنجية، وتشمل اختصاصاته الإشراف على الضياع الملكية، فضلاً عن رجال القصر، وسمت وظيفته تدريجياً حتى أضحى بمثابة الوزير الأول في الدولة ونائباً عن الملك.

بين المسلمين في الأندلس وبين دولة الفرنجة، من واقع أن هذه الأخيرة لم تستطع أن تتصدَّى لفتوح المسلمين في شبه جزيرة إيبيريا قبل مجيء ببين وابنه شارل.

كان السمح بن مالك قائداً شجاعاً، قوي الإيمان، راسخ العقيدة، حوَّل الحماس في نفوس الجند إلى جهاد، ولم يتردَّد، بعد استلام مهماته، في المضي بأول حملة عسكرية ذات طابع توسعي إلى ما وراء جبال البرينيه، مدركاً أهمية مقاطعة سبتمانية، التي كانت جزءاً من الدولة القوطية التي قضى عليها المسلمون، وخطورة بقاء القوط فيها.

كانت سبتمانية مقاطعة ساحلية تمتد من جبال البرينيه على امتداد ساحل غالة المطل على البحر الأبيض المتوسط، وتتَّصل بالريفييرا الإيطالية في الوقت الحاضر، واشتملت على سبعة أقسام إدارية الأمر الذي جعلها تُعرف بسبتمانية، أي مقاطعة الجهات السبع أو المعاقل السبعة[1]، وعاصمتها مدينة ناربونة المهمة، ذات الموقع «الاستراتيجي» الفريد على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

استهل السمح بن مالك استعداداته العسكرية بأن اتخذ من مدينة برشلونة القطلونية قاعدة للانطلاق والغزو، ثم عَبَر جبال البرينيه من ناحية روسيون، فألفى نفسه في مقاطعة سبتمانية[2]، وزحف باتجاه العاصمة ناربونة التي اختارها لتكون أول فتوحه لعدة أسباب، لعل أهمها:

ـ إن ناربونة قريبة من البحر، وتؤمِّن السيطرة عليها للمسلمين قاعدة بحرية تتلقَّى الإمدادات عن طريق البحر بدلاً من اجتياز جبال البرينيه المليئة بالشعاب والمخاطر.

ـ تُعدُّ المدينة مركزاً هاماً وحيوياً، تنطلق منها العمليات العسكرية نحو برغنديا وأكويتانيا.

ـ يتيح فتح المدينة نشر الإسلام في كافة أرجاء جنوبي غالة.

ـ إن مناخ المدينة يُناسب مزاج المسلمين حيث يشبه مناخ مدن شمالي إفريقيا والأندلس[3].

حاصر السمح بن مالك مدينة ناربونة مدة ثمانية وعشرين يوماً حتى سقطت في يده، فدخلها وحصَّنها وشحنها بالحاميات وجعلها قاعدة لفتح سائر مقاطعة سبتمانية. وفعلاً فتح المسلمون مدن هذه المقاطعة، كان من بينها مدينة قرقشونة. وعمد السمح

---

(١) العدوي: ص ١٧٩.
(٢) عنان: جـ ١ ص ٧٥.
(٣) العدوي: ص ١٧٨، ١٧٩.

إلى تنظيم شؤونها وفقاً للمبادىء الإسلامية، من إدارة عادلة، وحرية المعتقد والعبادة للسكان النصارى، والاحتكام إلى رجال الدين في المشكلات التي تنشب بينهم[١]، فكفلت هذه السياسة السمحة المحبة والتقدير للمسلمين من جانب السكان الذين كان الفرنجة يعاملونهم معاملة قاسية مليئة بالتعالي على الرغم من انتمائهم الديني المشترك، الأمر الذي جعلهم مكروهين في تلك البقاع الجنوبية.

وواصل السمح بن مالك توغله في جنوبي غالة باتجاه الشمال الغربي، حيث نهر الغارون حتى وصل إلى مدينة طلوشة ـ تولوز ـ عاصمة مقاطعة أكويتانيا، وحطَّم أثناء زحفه المقاومة التي اعترضته من جانب البشكنس والغسكونيين، سكان هذه الأنحاء[٢].

كانت مقاطعة أكويتانيا تحت حكم الدوق أودو، الذي استقلَّ بها أثناء مرحلة النزاع الميروفنجي الداخلي في عهد أحفاد كلوفيس، وينتمي إلى السلالة الميروفنجية وهو، من أجل ذلك، يحقد على شارل رئيس البلاط لاستئثاره بالسلطة من دون أقربائه الشرعيين، وسبق أن اصطدم به قبل ذلك، لذا عمل، بعد انفصاله عن السلطة المركزية في دولة الفرنجة، على توسيع رقعة أراضيه في جنوبي بلاد الغال على حساب أمرائها الإقطاعيين المنهمكين في التنازع على الأراضي والامتيازات، وسانده القوط والبشكنس.

وكان أودو يراقب عن كثب تطور الأوضاع السياسية في مقاطعة سبتمانية تمهيداً للانقضاض عليها وضمِّها إلى أملاكه، وذلك بهدف الاستفادة من مواردها وتقوية مركزه، لمواجهة شارل وانتزاع ملك الفرنجة منه، وكان هذا قد بدأ بدوره يخطط للاستيلاء على هذه المقاطعة وما يجاورها من بلاد[٣]، وقد أزعجه فتح المسلمين لها، لذلك نهض لاستعادتها منهم.

وسرعان ما استرعت استعدادات الدوق أودو انتباه السمح بن مالك، فأسرع بالزحف نحو العاصمة طلوشة لفتحها قبل وصول الدوق إليها، غير أنه التقى به في ظاهرها، ونشبت بين الطرفين رحى معركة ضارية في (٩ ذي الحجة ١٠٢هـ/ ١٠ حزيران ٧٢١م)، أظهر فيها السمح شجاعة نادرة ورائعة، فكان يظهر في كل مكان من ميدان القتال ينظم الصفوف ويبثُّ الحماس في نفوس الجند، غير أنه لم يلبث أن

(١) أخبار مجموعة: ص ٢٢، ٢٣. (٢) عنان: جـ ١ ص ٨١.
(٣) Lavisse, E: Histoire de France I .P. 45.

استشهد. ولم يكن من السهل تفادي تلك الخسارة نظراً لاختلال التوازن العسكري بين القوتين، كما أن مقتله قضى نهائياً على معنويات المقاتلين، فتخاذلوا وتبعثرت صفوفهم، واختاروا عبد الرحمن الغافقي لتولي القيادة العامة وهو نائب السمح بن مالك. لم يستطع الغافقي أن يفعل شيئاً سوى تنظيم عملية الانسحاب وإنقاذ من تبقّى من الجند والعودة إلى ناربونة[1]. وخسر المسلمون بعض المدن.

يُعدُّ فتح سبتمانية أول محاولة جدِّية لاختراق حاجز البرينيه إلى أوروبا، وتلتها معركة طلوشة التي طبعت هذه المرحلة بطابع جهادي خاص يمكن أن نطلق عليه سنوات المدِّ الإسلامي باتجاه أوروبا، وشكَّل استشهاد السمح بن مالك نقطة ارتكاز وانتشار في تلك المقاطعات في ذلك الوقت، وبناء إدارة إسلامية فيها.

التوغل الإسلامي في بلاد الفرنجة

عيَّن بشر بن صفوان، حاكم القيروان والمسؤول إدارياً عن الأندلس، قريبه عنبسة بن سُحَيْم والياً عليها خلفاً للسمح بن مالك، فقدم إلى قرطبة في (صفر ١٠٣هـ/ آب ٧٢١م)[2] ليتسلم مهام منصبه من عبد الرحمن الغافقي الذي كان يدير شؤونها بالنيابة بعد مقتل السمح بن مالك. وبعد أن قضى مدة أربعة أعوام في تنظيم شؤون الولاية وحلِّ المشكلات الداخلية؛ استأنف النشاط الجهادي فيما وراء البرينيه في أراضي غالة في عام (١٠٥هـ/ ٧٢٣م). وقد هدف إلى:

- إزالة الأثر السيء الذي ترتَّب على هزيمة السمح بن مالك والانتقام لمقتله.
- استعادة ما خسره المسلمون من أراضٍ في مقاطعة سبتمانية وتعزيز التواجد الإسلامي فيها.
- الانطلاق من تلك المقاطعة لغزو عمق بلاد الفرنجة.

فعبر جبال البرينيه ودخل مقاطعة سبتمانية، واستردَّ كثيراً من معاقلها التي سبق أن خسرها المسلمون منذ هزيمة طلوشة، مثل قرقشونة التي أعاد فتحها بعد حصار، وفرض على سكانها أن:

- يطلقوا سراح من لديهم من أسرى.
- يساعدوا المسلمين في حروبهم بتقديم فرقة عسكرية.

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢٦. وقارن بالحميدي: ص ٢٠٩، حيث يحدد عام ١٠٣هـ تاريخاً لمقتل السمح.

(٢) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢٧.

ـ يدفعوا الجزية إذا أصرُّوا على البقاء على دينهم.

ثم سار إلى مدينة نيم، الواقعة إلى الشرق من قرقشونة، وفتحها[(١)]، كما فتح عدة قرى مجاورة.

لم يشأ عنبسة بن سُحَيْم أن يتوجه بعد ذلك إلى مقاطعة أكويتانيا لأن دوقها آثر مهادنة المسلمين بعد أن رأى تصميمهم على فتح كامل سبتمانية وحتى لا يقع بين فكي كماشة المسلمين من جهة، وشارل من جهة أخرى[(٢)]. وقد أتاح له ركون أودو إلى الهدوء أن يتحرك باتجاه وادي الرون، فتقدم، مع امتداد مجرى النهر، حتى بلغ نهر الساءون، فعبره ودخل مقاطعة برغنديا ووصل إلى مدينة أوتون في أعالي الرون، وفتحها، وغنم منها غنائم وافرة، وذلك في عام (١٠٧هـ/ ٧٢٥م)، ثم اقتحم مدن أوزة، وڤيين، وجاس في جهات مقاطعة بروڤانس، وأشرف على مدينة ليون عاصمة مقاطعة برغنديا، وتوجه إلى ماسون وشالون وديجون وبيز ولانجر، وتوغل بعيداً إلى مدينة سانس، على بُعد مائة كيلومتراً جنوبي باريس[(٣)]، حيث انتهت عندها الغارات الواسعة المدى. ويبدو أن المقاومة التي لقيها، بقيادة أسقف سانس، أجبرته على التوقف والعودة إلى الجنوب.

عاد عنبسة بن سُحَيْم إلى سبتمانية تاركاً قلب بلاد الفرنجة من دون أن يستقر فيها. وعلى الرغم من جرأة المحاولة التي قام بها ووصوله إلى أبعد مسافة وصل إليها قائد مسلم من قبل في قلب أوروبا؛ فإن أعماله العسكرية هذه كانت أقرب إلى المحاولة منها إلى الفتح المنظم والاستقرار، ذلك أننا لم نلحظ أي إجراءات خاصة توحي بذلك حيث كان يفتح المدن ثم لا يلبث أن يغادرها من دون وضع حامية عسكرية فيها أو ترتيب يشير إلى هدف المسلمين الاستقراري في هذه المدينة أو تلك[(٤)].

والواقع أن المسلمين لم يحاولوا الاستقرار خارج نطاق مقاطعة سبتمانية، كما تجنَّبوا الاصطدام بالفرنجة في هذه المرحلة، ويبدو أن الهدف الحقيقي لهذه الغارات يكمن في:

ـ إخضاع ما تبقّى للقوط من نفوذ.

ـ تعزيز الحضور الإسلامي في سبتمانية، وحماية مكتسبات المسلمين فيها من واقع درس البيئة الجديدة التي أضحت تجاور ممتلكاتهم. إنها غزوات تمهيدية واكتشاف النقاط الضعيفة في تحصينات العدو.

---

(١) أرسلان: ص ٧٣. Lavisse: PP. 78 , 79.

(٢) عنان: جـ ١ ص ٧٨.

(٣) Lavisse: P. 84.

(٤) بيضون: ص ١٥٣.

ـ إشعار جيران المسلمين الجدد بقوة الدولة الإسلامية.

ـ القضاء على الشائعات التي راجت عن قوة المسلمين في جنوبي بلاد الغال بعد مقتل السمح بن مالك[1].

ويبدو أن عنبسة بالغ في اطمئنانه للفرنجة ولأودو، ذلك أنه، حين انتهى من غاراته الواسعة المدى وغادر سبتمانية في طريق عودته إلى قرطبة، داهمته جموع كبيرة من الفرنجة وأوقعته في كمين. ودار قتال بين الطرفين أصيب عنبسة خلاله بجراح بالغة توفي على أثرها في (شعبان ١٠٧هـ/ كانون الأول ٧٢٥م)، قبل أن يدخل الأندلس، وتولى عذرة بن عبد الله، وهو أحد قادة الجيش، تصريف شؤون الجند حتى عاد بهم إلى قرطبة[2].

الواضح أن جهود عنبسة بن سُحَيْم لم تذهب هباءً، فلم يترتب على مقتله ضياع سبتمانية التي ظلّت خاضعة للمسلمين، واتخذوها ثغراً للدفاع عن منجزاتهم في الأندلس، وحتى يُعزِّزوا وجودهم فيها، قاموا، في الأعوام التي تلت استشهاد عنبسة بن سُحَيْم، بغارات في جنوبي غالة لإرهاب أعدائهم ومنعهم من مهاجمتها، فوصلوا إلى حوض نهر الرون، وأغاروا على بلاد الألبيين، ومقاطعة رويرج، وجفودان وليفليه[3]؛ الأمر الذي دفع أمراء الفرنجة في الجهات المجاورة إلى التقرب من المسلمين والتحالف معهم.

وشحن المسلمون كافة مدن مقاطعة سبتمانية بالحاميات العسكرية للدفاع عنها وإقرار السلام بين السكان، وجمع الضرائب التي خفَّفوا مقدارها، وتركوا الأراضي، التي فتحوها عنوة، في أيدي أصحابها، على عكس ما اتَّبعوه في الفتوح السابقة، وفرضوا على السكان مقابل ذلك تقديم حصة تتراوح بين ثلث وربع المحصول، فنعموا بالطمأنينة والأمن في ظل حكم المسلمين. ولم يحاول الدوق أودو، في هذه المرحلة، الخروج على حكمهم، كما أن شارل انهمك في إخماد ثورات الفريزيين التي تجدَّدت في مقاطعة نورمنديا، وردِّ غارات السكسون على نهر الراين؛ حتى تغيَّر الموقف في عام (١١٢هـ/ ٧٣٠م) حين تولى عبد الرحمن الغافقي ولاية الأندلس[4].

(١) العدوي: ص ١٨٢.

(٢) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٧. الحميدي: ص ٢٨٨. المقري: جـ ٤ ص ١٣، ١٤.

(٣) أرسلان: ص ٧٣.

(٤) العدوي: ص ١٨٤، ١٨٥.

مقدمات المعركة: ارتبط ظهور عبد الرحمن الغافقي على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية في الأندلس، بالدور البارز الذي أدّاه في ميدان الغزو والجهاد من أجل مدِّ راية الإسلام في الأراضي الأوروبية. فقد تسلَّم الحكم في (صفر ١١٢هـ/ نيسان ٧٣٠م) للمرة الثانية، بعد أن أبعدته الصراعات القبلية نحو عشرة أعوام عن المنصب الذي كان أكثر الذين سبقوه تأهيلاً لحمل مسؤولياته، وحاملاً معه هدفه الأسمى وهو الفتح في «الأراضي الكبيرة».

كان عبد الرحمن الغافقي طرازاً آخر من القادة المسلمين، يتمتع بدرجة عالية من الكفاءة القيادية والعسكرية، شجاعاً، جريئاً، مقداماً، قضى معظم حياته في الجهاد، وبدا الوحيد القادر على تجميد الصراعات الداخلية والانقسامات القبلية وتعبئة كل الأطراف في خدمة الدولة. ويُعدُّ تجرُّده القبلي من أهم الأسباب التي حقَّقت له النجاح في قيادة البلاد.

والواقع أن حملة عنبسة بن سُحَيْم التي توغلت في عمق بلاد الفرنجة قد أفزعت شارل، وأثارت مخاوف الشعوب الأوروبية بعامة والبابوية بخاصة، وأدرك شارل أن سيطرة المسلمين على مقاطعة سبتمانية، تهدِّد كيان دولة الفرنجة لأنهم سوف يكررون ما قاموا به سابقاً انطلاقاً من تلك المقاطعة، حتى يقضوا على دولته. وتوصل إلى نتيجة مفادها أنه لا بد من القيام بعمل حاسم للتصدي لهم ووقف زحفهم وإخراجهم منها، وراح يستعد لهذا اللقاء الذي رآه قريباً. فحشد القوات، وجمع السلاح، وخزَّن المؤن، وصالح أمراء برغنديا، واتفق مع الدوق أودو على القيام بعمل مشترك للتصدي للمسلمين وإخراجهم نهائياً من هذه الأراضي، فتوحَّدت بذلك القوى الأوروبية الفاعلة.

ومن جهته شعر عبد الرحمن الغافقي أن سلطان المسلمين لن يستقر طويلاً في سبتمانية بسبب مطامع الدوق أودو، حيث كانت الهدنة التي حرص على استمرارها مع المسلمين، وسيلة لاتقاء خطرهم حتى تنجلي علاقته بشارل، ولم يكن شعور عبد الرحمن الغافقي وليد الوهم والارتجال، وإنما جاء وليد الخبرة ومتابعة التطورات عن كثب[١].

---

(١) العدوي: ص ١٨٥.

وسرعان ما علم بأن الدوق وثَّق علاقته بأحد قادة المسلمين من البربر واسمه مونوسة، حاكم المنطقة الشمالية من الأندلس بما فيها منطقة جبال البرينيه، وهي تجاور أكويتانيا من الشرق والجنوب. وازدادت هذه العلاقة متانة بإقدام مونوسة على الزواج من ابنة أودو وتدعى لامبيجيا. واحتمى الدوق بهذه المصاهرة من بطش المسلمين بدليل أن عنبسة بن سُحَيْم عدل، أثناء توغله في عمق الأراضي الفرنجية، عن اجتياح مقاطعة أكويتانيا وذلك تحت تأثير مونوسة كما يبدو.

لم يقبل عبد الرحمن الغافقي أن تكون المصاهرة بين مونوسة والدوق أودو سبباً يصرف جهود المسلمين عن حماية سبتمانية من أي خطر يتهدَّدها، ولذا أمر بالقيام بغارات على مقاطعة أكويتانيا بوصفها مصدر الخطر على المسلمين، فرفض مونوسة تنفيذ الأمر بحجة أنه لا يستطيع مهاجمة أملاك صهره، الأمر الذي أدَّى إلى النفور بين الرجلين. وازداد هذا النفور بسبب ما جرى آنذاك من خلافات بين العرب والبربر في بلاد المغرب والأندلس، فملأت قلب مونوسة حقداً على العرب بعامة وعلى عبد الرحمن الغافقي بخاصة، وانتهى الأمر بانفصاله عن المسلمين، وأضحى يشكل عقبة في طريق زحف الجيوش الإسلامية إلى بلاد الفرنجة وبخاصة أنه يسيطر على جبال البرينيه.

كان من الطبيعي، تجاه هذا التصرف السلبي والعدائي من جانب مونوسة، أن يقوم عبد الرحمن الغافقي بمحاربته. وسرعان ما حدث ما يؤيد وجهة نظره، فقد عمد مونوسة إلى التفاهم مع الفرنجة حتى يصبح في حلٍّ من تنفيذ أي أمر عسكري بشن الحرب أو الاشتراك في القتال ضدهم، وعندما أرسل شروط الهدنة إلى عبد الرحمن الغافقي لإقرارها رفض ذلك، عندئذٍ كشف مونوسة عن قناعه ونواياه السيئة تجاه الحكومة المركزية في قرطبة، فبادر عبد الرحمن إلى إخماد هذه الحركة الثورية قبل أن تستفحل وتؤدي إلى تصدُّع الجبهة الإسلامية، بالإضافة إلى أنها قد تشجع أعداء الدولة على مهاجمة سبتمانية، فجهَّز حملة عسكرية، عهد بقيادتها إلى ابن زيان، وكلَّفه بإخماد الثورة، ونجح هذا القائد في مهاجمة معاقل مونوسة الحصينة ودخل عاصمته، الباب، وطارده في شعاب الجبال حتى قبض عليه وقتله، وذلك في عام (١١٣هـ/ ٧٣١م)[١]،

---

(١) إن شخصية مونوسة محيرة فعلاً، فقد صمتت المصادر الإسلامية عن هذا الرجل، كما تحيط الرواية النصرانية سيرة لامبيجيا وزوجها بكثير من القصص الخيالية الشائعة وتشير إلى أن مونوسة، الذي هو المنذِر حاكم أشتوريس المسلم وأنه قتل بعد معركة كوفادونجا في عام (٩٢هـ/ ٧١١م) على=

وبذلك أضحت ممرات جبال البرينيه مفتوحة أمام زحف الجيوش الإسلامية.

أفزع مقتل مونوسة الدوق أودو، ولما كان ضعيفاً لا يستطيع الصمود بمفرده أمام المسلمين؛ أجرى مفاوضات مع عدوه شارل والدول الأوروبية الشمالية للتنسيق فيما بينهم تمهيداً للتصدي لزحفهم.

توغل المسلمين في أكويتانيا: حشد عبد الرحمن الغافقي جيشاً بلغ تعداده سبعين ألف مقاتل، معظمهم من البربر، وخرج به من مدينة بنبلونة في (أوائل ١١٤هـ/ صيف ٧٣٢م) باتجاه بلاد الفرنجة، وهدفه الأول تحطيم قوة أكويتانيا وإخضاع الدوق أودو، فعبر ممر الرونسڤال في جبال البرينيه، وزحف مباشرة إلى هذه المقاطعة تاركاً الطريق التقليدي الذي سلكه أسلافه والذي يمر في مقاطعة سبتمانية، إلا أنه أدرك بعد قليل من الوقت أن الدوق أودو سوف يعلم بأمر هذه الحملة وسيتخذ الإجراءات الكفيلة لصدِّها وقد يقوم بغزو سبتمانية كردٍّ وقائي، لذلك قرَّر تأمين خطوطه الخلفية من أن تتعرَّض لهجوم مفاجيء، فتوجَّه إلى نهر الراين حيث أخضع مدينة آرل الواقعة على مصب هذا النهر، ونظَّم شؤون سبتمانية وشحنها بالمقاتلين، ثم توجه إلى أكويتانيا نفسها[1].

كانت مقاطعة أكويتانيا واسعة، تضم عدداً كبيراً من الوحدات الإدارية وتمتد من جبال البرينيه جنوباً إلى حدود نهر اللوار شمالاً، ومن نهر الألبيه الصغير شرقاً إلى خليج بسكاي غرباً[2].

فتح عبد الرحمن الغافقي أولاً مدينة بوردو، وهي أكبر مدن المقاطعة، ثم فتح

= يد الأشتوريسيين، وترد إشارة غامضة عند ابن عذارى: بأن والي الأندلس الهيثم «غزا مونوسة» كما ذكر ابن خلدون أن الهيثم «غزا أرض مقوشة فافتتحها» فهل أن هذا الاسم مونوسة أو مقوشة لشخص أم لمكان؟ أشارت بعض الدراسات الأوروبية أن مونوسة هو أحد قادة المسلمين من البربر، دخل الأندلس مع طارق بن زياد وعُيِّن والياً لشمالي الجزيرة الإيبيرية، وأداروا نقاشاً حول سيرته إلى حد الخصومة مع عبد الرحمن الغافقي والمصاهرة مع الدوق أودو، ومن ثم كان مصرعه بأيدي فرقة من الجند المسلمين. ونحن إذ نتبنَّى ما جاء في الرواية النصرانية حول شخصية مونوسة بفعل صمت المصادر الإسلامية، كما أن سياق الأحداث ترجِّح وجود هذا الرجل الذي اتخذ من مدينة خيخون عاصمة له، كما أننا نرجِّح أن مقتله حصل في عام (١١٣هـ/ ٧٣١م) كما ذكرنا.

انظر حول شخصية مونوسة: ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٨. تاريخ ابن خلدون: جـ ٤ ص ٢٥٨. عنان: جـ ١ ص ٨٦ـ ٨٨. رمضان: ص ٢٥٧. مؤنس: ص ٣٦٥ـ ٣٦٧. بروڤنسال: ص ٧٥، يدعوه باسم موسى. Saavedra: P. 70

(١) بروڤنسال: ص ٧١، ٧٢.

(٢) العدوي: ص ١٨٩.

طلوشة، وقضى على المقاومة فيهما، وأخذَت المدن بعد ذلك تتساقط في يده بسرعة مذهلة، ثم توجه إلى مدينة تور. وجرى اللقاء بينه وبين الدوق أودو على نهر الدردوني، أحد روافد نهر الغارون، وأسفر عن انتصار واضح للمسلمين، وهُزم الدوق هزيمة نكراء وتحطم جيشه، ففرَّ من أرض المعركة وتوجه نحو الشمال مخلِّفاً وراءه عدداً كبيراً من القتلى، وذهب إلى البلاط الفرنجي فاجتمع بشارل ونسَّق معه للقيام بحملة مشتركة ضد المسلمين[1].

كان شارل يعمل آنذاك على توحيد بلاد الغال، فأخضع قبائل السكسون والفريزيين، فدانت له شمالي البلاد، ولم يعد أمامه سوى السيطرة على مناطق الجنوب بما فيها أكويتانيا، لذلك استجاب لطلب المساعدة، وتهيأت له الفرصة ليسيطر عليها بيسر تحت غطاء الدفاع عنها، وكان قد علم بغارات المسلمين في جنوبي بلاد الفرنجة منذ حملة عنبسة بن سُحَيْم التي اقتربت من عاصمته باريس، لكنه لم يشأ أن يصطدم بهم في هذا الوقت المبكر، وربما أدرك أن تلك الغارات لم تكن أكثر من حملات استطلاعية.

شكَّل تفاهم شارل وأودو مفاجأة لعبد الرحمن الغافقي نظراً للعداوة التقليدية بينهما، كما أقلقه تعمُّدُ شارل بالتريث بإرسال قواته إلى أكويتانيا وتأخير اللقاء مع المسلمين، ولعله هدف إلى تحقيق أمرين:

الأول: إضعاف تلك المقاطعة وإنهاكها بسبب تحمُّلها وحدها عبء الحروب، فتقع غنيمة سهلة في يده.

الثاني: إغراء المسلمين على التوغل في تلك المقاطعة ليبعدهم عن قواعدهم، فتطول خطوط تموينهم وينهكهم طول المسير.

وكان المسلمون قد توغلوا فعلاً في مقاطعة أكويتانيا، وابتعدوا عن مراكز إمداداتهم في الجنوب بحيث أصبحوا على مسافة هائلة من العاصمة قرطبة تُقدَّر بألف وثلاثمائة كيلومتر، ويتطلب وصول الإمدادات إلى خطوط الجبهة، في حال طلبها، مدة شهر، نظراً لصعوبة الطريق، ومن جهة أخرى، كان شارل يحارب في بلاده وخطوط إمداداته متصلة بأرض المعركة.

تقدم عبد الرحمن الغافقي بخطى سريعة نحو الشمال في غمرة انتصاراته، فدخل

---

(١) بروفنسال: ص ٧٢. عنان: جـ ١ ص ٩٠.

مدينة بواتييه الواقعة على نهر كلين، وانتشرت قواته في السهل الخصيب الممتد بينها وبين مدينة تور الواقعة على الضفة اليسرى لنهر اللوار. وكان لهذه المدينة شهرة خاصة في الثراء المحيط بكنائسها، وبخاصة كنيسة سان مارتان، فاجتاحها عبد الرحمن وأخذ يستعد للزحف نحو باريس، إلَّا أنه فوجىء بقوات الفرنجة التي احتشدت في تلك المنطقة وهي على استعداد للتصدي له.

كان ذلك آخر امتداد منظَّم للمسلمين في أوروبا، لأن شارل خشي أن يدخل المسلمون بلاد الفرنجة، نظراً لاقترابهم من حدودها، لذلك هبَّ للدفاع عن القارة الأوروبية تجاه زحفهم.

أحداث المعركة: عبَّأ عبد الرحمن الغافقي قواته استعداداً للدخول في القتال الذي جرى في (رمضان ١١٤هـ/ تشرين الأول ٧٣٢م) في السهل الواقع بين تور وبواتييه، على مسافة عشرين كيلومتراً شمالي تور وجنوبي مجرى نهر اللوار في المكان المعروف بالبلاط، وهو الطريق المرصوف، واستمر عشرة أيام. واستندت خطة القتال على أساس محاولة كل طرف اختراق صفوف الطرف الآخر أو فتح ثغرة فيها تساعده على الالتفاف عليه من الخلف والقضاء عليه. وأبدى المسلمون في الأيام الثلاثة الأولى من القتال شجاعة نادرة، جعلت كفتهم تقترب من النصر، على الرغم من تفوُّق العدو العددي، لكن الدوق أودو قام، في اليوم الرابع، بتنفيذ حركة التفاف حول صفوف المسلمين وفاجأهم من خلفهم، فتحركت بعض القوات تجاه المؤخرة لصدِّ الهجوم مما أحدث خللاً في تنظيمهم أدى إلى انكشاف القلب، وهو المكان الذي كان يدير منه عبد الرحمن الغافقي المعركة. وفي الوقت الذي كان يعمل فيه على إعادة تنظيم القوات أصابه سهم استشهد على أثره، فأحدثت وفاته ارتباكاً شديداً بين القوات، وتركت فراغاً لم يكن باستطاعة أحد أن يملأه، وكان الأجدر بهيئة الأركان أن تكتم خبر استشهاده عن جنوده حتى تنجلي المعركة، إلا أن قراراً بالانسحاب قد اتُّخذ، ومع ذلك استمر القتال مدة ستة أيام أخرى، انسحب المسلمون بعدها وفق خطة ذكية كانت بمثابة خدعة للفرنجة، وذلك بأن تركوا خيامهم منصوبة ونارهم مشتعلة، ويعكس ذلك قدرة الجيش على الانسحاب المنظم والمحكم والتمويه والمناورة والتعتيم على العدو. وعندما أصبح الفرنجة لم يجدوا للمسلمين من أثر، فظنوا أنها خدعة، وتردَّدوا في الاقتراب من المعسكر الإسلامي، وعندما تأكدوا أن المسلمين انسحبوا أقبلوا على الخيام واستولوا ما تحويه من ذخائر، وعلى هذا الشكل تحاجز الطرفان.

لم يتعقَّب شارل فلول الجيش الإسلامي خشية أن يكون انسحابهم «تكتيكاً» للإيقاع به، كما أدرك أن انسحابهم هذا لم يكن نتيجة هزيمة تتطلب اقتفاء أثرهم وإنما عادوا إلى سبتمانية في نظام يدعو إلى الدهشة، وفق خطة دقيقة ومحكمة، بالإضافة إلى أنه مُني هو أيضاً بخسائر بالغة جعلته عاجزاً عن تنظيم عملية مطاردة، واكتفى بتلك النهاية وتراجع باتجاه الشمال.

تعقيب على معركة بلاط الشهداء[1]

ـ أطلقت المصادر الإسلامية على معركة البلاط اسم بلاط الشهداء، لكثرة من استشهد فيها من المسلمين ويقدَّر عددهم بعشرة آلاف. والبلاط إما نسبة إلى الطريق المرصوف الذي جرت المعركة عنده، كما ذكرنا، وإما نسبة إلى التبالط بالسيوف، أي القتال بالسيوف، وذلك بفعل شدة القتال الذي جرى في البلاط وكثرة السيوف التي وُجدت في ميدان القتال والتي تركها المقاتلون.

ـ دعت المراجع الأوروبية المعركة باسم تور، أو بواتييه، أو تور ـ بواتييه لأنها جرت في مكان ما بين هاتين المدينتين اللتين تبعدان عن بعضهما مسافة تسعين كيلومتراً، وذكرت أن المعركة بدأت عند مدينة تور، أما الميدان الذي اشتدت فيه فكان قرب بواتييه.

ـ لم يكن انتصار شارل واضحاً، فالمسلمون لم يُهزموا وآثروا الانسحاب، شأن غاراتهم السابقة في جنوبي بلاد الفرنجة عندما يرون أن الاستمرار في القتال لا يُجدي أو تنتهي مهمتهم، الأمر الذي منعه من تعقبهم ومطاردتهم، كما ذكرنا، والتقدم جنوباً للإستيلاء على ممتلكاتهم في جنوبي غالة وتراجع باتجاه الشمال من دون أن يستثمر تفوقه العسكري تاركاً للمسلمين ما فتحوه من مدن في جنوبي غالة.

ـ تُعدُّ معركة بلاط الشهداء من المعارك الحاسمة في التاريخ الوسيط، من واقع أنها أوقفت المد الإسلامي باتجاه قلب أوروبا الذي وصل إلى ذروته في بواتييه، وتبدَّدت مخاوف الأوروبيين من الخطر الإسلامي، إذ لم يكن هناك من سبب يدعو المسلمين إلى التوقف عند هذا الحد لو انتصروا في المعركة، فكل الدلالات تشير إلى إصرارهم على المضي في الخطة التوسعية إلى النهاية.

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر: الغنيمي، عبد الفتاح مقلد: معركة بلاط الشهداء ص ٧٢ـ ٩٢. العدوي: ص ١٩٠ـ ١٩٥. عنان: جـ ١ ص ٩٢ـ ١١١. بروفنسال: ص ٧١ـ ٧٤. أرسلان: ص ٩٣ـ ١٠٤.

ـ لم تُعِرْ المصادر الإسلامية المعركة أهمية في سرد أحداثها لأنها لم تكن في نظر المؤرخين سوى غارة لا تختلف عن مثيلاتها من الغارات التي قام بها المسلمون في بلاد الفرنجة، لذلك لم يزد ما جاء في تلك المصادر عن هذه المعركة عن بضعة أسطر مبعثرة في بطونها، ويُعَدُّ هذا الإجماع على امتهان شأن المعركة دليلاً قاطعاً على عدم تأثيرها على الأحداث اللاحقة.

ـ بالغ المؤرخون النصارى في تصوير معركة بلاط الشهداء، فأجمعوا على أنها وضعت حداً لسيادة المسلمين في غربي أوروبا، وأنقذت النصرانية، وحضارتها، إذ لو انتصر المسلمون فيها لانتشر الإسلام في ربوع القارة، وزالت الديانة النصرانية، وعدُّوا شارل بطلاً قومياً يدافع عن القارة الأوروبية والنصرانية، وهذه مغالطة تاريخية، لأن المسلمين لم يُهزموا في تلك المعركة، بل انسحبوا في نظام، كما أنهم كانوا يعاملون السكان المحليين معاملة سمحة، ويحترمون عقائدهم وشعائرهم الدينية، وأن سكان غالة من الرومان كانوا يكرهون الفرنجة لاغتصابهم السلطة ويعدونهم دخلاء، وفئة بغيضة، وينعتون شارل بالمغامر، كما أخفوا الحقيقة، وهي أن حكام المقاطعات الجنوبية التفوا حول المسلمين بعد تراجع شارل باتجاه الشمال. يضاف إلى ذلك، إن شارل كان بعيداً جداً عن الحضارة اللاتينية الرومانية التي دان بها سكان غالة، ولم يكن يفقه منها شيئاً.

والواقع أن نتيجة المعركة وانسحاب المسلمين من تلك الأصقاع الشمالية، كان نكبة على الأوروبيين والحضارة الأوروبية، لأن هؤلاء انتظروا بضعة قرون أخرى لينهلوا من الحضارة الإسلامية في الأندلس، وينطلقوا في مجال النهضة في القرن الخامس عشر الميلادي. وكان رجال الدين النصارى أول من أدرك هذه الظاهرة، لذلك استفادوا من أسرى المسلمين البالغ عددهم ثلاثة آلاف والذين كان من بينهم عدد من الخبراء في صناعة الأسلحة والبارود والطب والصيدلة والتمريض والبناء، وصنع الأدوات الثقيلة وبناء الجسور، والمستشارين من أهل العلم والأدب والتشريع، واستغلُّوا مواهبهم التي كان الأوروبيون بحاجة ماسة إليها لأنهم كانوا يمرون بمرحلة من الجهل الحضاري. ولو أن الزحف الإسلامي حقَّق أهدافه لتطورت أوروبا وبكَّرت في نهضتها. كما أن الأمر لا يعدو محاولة من جانب هؤلاء المؤرخين لتلمُّس أحداث من الماضي يربطون بينها وبين تاريخهم الحديث.

ـ ركَّز المؤرخون الأوروبيون على خلاف حصل بين العرب والبربر أثَّر على نتيجة المعركة. والواقع أن هذا الرأي فيه كثير من التحامل والكراهية وبعيد عن

الحقيقة. إذ إن جميع المسلمين قاتلوا بشجاعة وحماسة دفاعاً عن الدين والعقيدة الإسلامية، وكان الجميع سواسية في ظل قيادة عبد الرحمن الغافقي الذي شكَّل قدوة حسنة لرجاله، وهو البعيد عن العصبية القبلية والعنصرية.

ـ إن عدد القوات التي حشدها شارل تفوق كثيراً حجم القوات الإسلامية، ولا شك بأنه استنجد بكل الدول الأوروبية، واستعد، بشكل كافٍ، وأعدَّ للأمر عدَّته، وخطَّط له مبكِّراً وكان يراقب تحركات المسلمين المستمرة داخل «الأراضي الكبيرة» ويرصد توجهاتهم.

ـ أثَّرت خطوط المواصلات الطويلة مع القاعدة المركزية في قرطبة، سلباً على نتيجة المعركة، حيث كانت الإمدادات والاتصالات مقطوعة، وكان الجيش الإسلامي في وضع العزلة، ويعتمد على قواه الذاتية فقط، في حين كان شارل يحارب وهو على اتصال بقاعدته وخطوط مواصلاته سليمة.

ـ أدَّت البيئة والطبيعة الجغرافية دوراً سلبياً للمسلمين الذين لم يعتادوا على القتال في ظل الثلوج والمطر المنهمر والبرد القارس، كما أن منطقة حوض نهر اللوار كانت منطقة غابات كثيفة، ولا يجيد الفارس المسلم القتال في نطاق الغابات. والمعروف أن أسلوب القتال عند المسلمين يعتمد على الكر والفر والهجمات الخاطفة والسريعة والهجوم المباغت.

ـ كانت القوات الإسلامية على مستوى جيد من القتال، ولديها طاقات قتالية عالية، وهي مسلَّحة بروح الإيمان، وقد خرجت للجهاد بهدف النصر أو الشهادة، وكانت عوامل الانتصار في صالحها، فهناك القيادة الواعية والشجاعة والخبيرة، والعوامل النفسية المشجِّعة التي ولَّدتها موجة الانتصارات الباهرة منذ عبورها جبال البرينيه وصولاً إلى أكويتانيا ومنطقة اللوار الواسعة؛ لكن خط الإمدادات الطويل وعدم إعطاء الراحة الكافية للجند والدواب والخيول، وبخاصة أنها كانت خارجة، لتوها من معركة الدردوني، وافتقارها إلى الرصيد الاحتياطي الإضافي من القوات التي يمكن الزج بهم في المعركة عند الحاجة، حيث عبد الرحمن الغافقي حشد كل قواته في حملته على أكويتانيا، وكان يضع حاميات عسكرية في المدن المفتوحة، الأمر الذي جعل عدد أفراد الجيش يتناقص؛ كل ذلك شكَّل نقطة الضعف لديها، يضاف إلى ذلك، أن تقدم شارل السريع نحو الجنوب كان مفاجأة للمسلمين، وظهر جيشه ككتلة متراصة متماسكة لشعوره بالخطر على المصير.

ـ لم يكن لدى عبد الرحمن الغافقي جهاز مخابرات يمكِّنه من اكتشاف مواقع العدو، حيث إنه واصل السير حتى لقيه الفرنجة، مباشرة وجهاً لوجه، وهو على غير تعبئة، الأمر الذي اضطره إلى التراجع إلى سهول بواتييه لاتخاذ مواقع فيها، ويُعدُّ ذلك تفكيراً غير سليم من عسكري محترف، وعاملَ ضعف يضاف إلى العوامل الأخرى التي أثَّرت على النتيجة النهائية للمعركة.

ـ لم يركن المسلمون إلى الهدوء، بعد معركة بلاط الشهداء، وجدَّدوا غاراتهم على مناطق الشمال لتوطيد نفوذ المسلمين فيها، وحافظوا على وجودهم في مقاطعة سبتمانية لمواجهة عدوان الفرنجة.

ـ أنعم البابا جريجوري الثالث على شارل اسم مارتل، أي المطرقة التي سحقت قوة المسلمين في بلاد الفرنجة وباعدت بينهم وبين التقدم في خطوات مستقبلية في هذه الأماكن مرة أخرى، حيث باركت البابوية والكنيسة جهوده وأضحى يُعرف بشارل مارتل.

النشاط الإسلامي في بلاد الفرنجة بعد معركة بلاط الشهداء: كان لمعركة بلاط الشهداء صدى قوي في الدوائر الحاكمة في دمشق والقيروان، فأسرعت القيادة السياسية إلى تعيين خَلَف لعبد الرحمن الغافقي هو عبد الملك بن قطن الفهري، وأمرته بإعادة الحضور الإسلامي في جنوبي غالة والمحافظة على المكتسبات الإسلامية المنجزة في تلك المنطقة.

كان أول عمل قام به عبد الملك بن قطن هو أنه قضى على الثورات التي قامت ضد الحكم الإسلامي في المناطق الشمالية للأندلس، على أثر مقتل عبد الرحمن الغافقي وانحلال جيشه، ووصل، خلال مطاردته للثائرين، إلى مدينة لانجدوك في الأراضي الفرنجية، ثم عمد إلى اتباع سياسة هجومية ـ دفاعية جديدة، فبنى سلسلة من القلاع في المناطق الحدودية، وشحنها بالمقاتلين واتخذها قواعد انطلاق لغزو أراضي الفرنجة، والدفاع عن المناطق الإسلامية، ومراقبة تحركات العدو. واستمر سكان سبتمانية النصارى على ولائهم للمسلمين، وقد خشوا أن يقعوا تحت حكم شارل مارتل المكروه، كما انضم مارونت، حاكم مرسيليا، إلى المسلمين، وكان يبغض شارل مارتل ويرغب في الاستقلال بإقليم بروڤانس.

بعد الانتهاء من إقامة التحصينات والاطمئنان على سلامة الوضع في المناطق الشمالية لجبال البرينيه، التفت عبد الملك بن قطن إلى استعادة ما فقده المسلمون من أراضٍ بعد معركة بلاط الشهداء وإعادة الحضور الإسلامي في مناطق جنوبي

غالة، فأمر حاكم ناربونة، يوسف الفهري، القيام بذلك، وبخاصة أن شارل مارتل أهمل مراقبة جبهته الجنوبية مع المسلمين بفعل انهماكه في قمع الثورات التي قامت ضد حكمه من جانب السكسون والفريزيين.

وشهدت الأعوام الأربعة (١١٥ـ ١١٩هـ/ ٧٣٣ ـ ٧٣٧م) نشاطاً عسكرياً مهماً لعبد الملك بن قطن في وادي الرون، أسفر عن استعادة إقليم بروڤانس من يد شارل مارتل وفتح أڤنيون ومالانس وليون، وتوغَّل حتى بلغ أعالي الوادي في ديورانس، ثم قفل عائداً إلى ناربونة. ويبدو أن تراجعه جاء في أعقاب هجوم مضاد قام به شارل مارتل الذي كان قد انتهى من قمع الثورات في الشمال وتفرَّغ للمشكلات مع المسلمين.

والواضح أن عبد الملك بن قطن لم يحاول الاستقرار في المناطق التي غزاها في عمق أراضي الفرنجة، ويبدو أن لذلك علاقة بالمدى الذي أسفرت عنه معركة بلاط الشهداء التي استنفدت معظم طاقات المسلمين ومواردهم، وجعلتهم أقل جرأة على الاستقرار في جنوبي بلاد الفرنجة، وانحسرت الغزوات الإسلامية لتتحول إلى نظام تقليدي يشبه كثيراً نظام الصوائف الذي عرفته الجبهة البيزنطية في بلاد الشام.

وانهمك شارل مارتل في إعادة ترتيب الأوضاع العسكرية في المناطق التي استردها من المسلمين وتحسين دفاعاتها، ومن ثم القيام بمحاولة لاستعادة القاعدة الإسلامية ناربونة، وهي الخطوة التالية في صراعه مع المسلمين.

وحدث في عام (١١٧هـ/ ٧٣٥م) أن توفي الدوق أودو حاكم أكويتانيا وخلفه ابنه، فطمع شارل مارتل في الاستيلاء على هذه المقاطعة وضمِّها إلى أملاكه، من واقع سعيه لتوحيد بلاد الغال تحت حكمه، فأجبر حاكمها الجديد على تقديم الولاء والطاعة له بوصفه حاكماً من قبله، وجاءت هذه الحادثة في مصلحته، وقرَّبته خطوة نحو سبتمانية حيث أضحت أملاكه تحيط بها، كما أضحى بوسعه مهاجمة ناربونة وهو مطمئن.

تجدَّد النشاط العسكري الإسلامي في شمالي جبال البرينيه في عهد عقبة بن الحجاج السلولي، الذي خلف عبد الملك بن قطن في حكم الأندلس، ويُعدُّ هذا الوالي من كبار القادة العسكريين حيث النزعة الحربية البارزة والتصميم على مواصلة السياسة العسكرية، وجرت أهم عملياته في مقاطعة برغنديا والبروڤانس والدوفينيه، بحيث أضحت المنطقة الواقعة بين نهر الرون وجبال الألب ميداناً لنشاط المسلمين العسكري.

سار عقبة، أولاً، إلى ناحية الدوفينيه، فسيطر على سان بول تروا ودونزوير ثم توجَّه شمالاً، فاسترد آرل وأڤنيون وعدة معاقل أخرى في البروڤانس، وتابع زحفه مع مجرى نهر الرون حتى بلغ مقاطعة برغنديا، فاستولى على ليون، وانتشر جنده في تلك النواحي حتى بلغوا بيدمنت على مقربة من إيطاليا، وبدت بلاد الغال الجنوبية، مرة أخرى، تحت رحمة المسلمين[1].

وظل عقبة، طوال سنوات حكمه، يجاهد كل عام، ويدافع عن سبتمانية أمام هجمات الفرنجة، لكن جهوده لم تُفلح في تأسيس قواعد ثابتة للمسلمين، وتوسُّع فعلي يدعم الحضور الإسلامي في تلك المناطق التي غزاها، ولم ينتج عن غاراته أيُّ تغيير في وضع الأراضي، ويبدو أن يقظة شارل مارتل، الذي كان يتابع باهتمام نشاط المسلمين العسكري هو السبب في ذلك.

والواضح أن غارات المسلمين وانتشارهم في عمق أراضي الفرنجة، قد أزعجته، وخشي من نجاحهم في الاستقرار فيها مما يهدِّد كيان دولة الفرنجة، فرأى أن يستردَّ سبتمانية منهم ويتخذها حاجزاً بين بلاده وبين الأندلس، وعهد بهذه المهمة إلى أخيه شلدبراند، وهو أحد القادة البارزين في دولة الفرنجة، واستعان بـ «لوثيراند»، ملك اللمبارديين في شمالي إيطاليا، وقد لبَّى هذا نداء المساعدة بعد أن شعر باقتراب الخطر الإسلامي من بلاده.

تقدم شلدبراند إلى أڤنيون وحاصرها، إلا أنه عجز عن اقتحامها وذلك بفعل حصانتها ووعي المدافعين عنها، فاستنجد بأخيه، وقدم شارل مارتل على رأس جيش كثيف، وشدَّد الأخوان الحصار على المدينة حتى سقطت، واضطر عقبة إلى إخلاء بروڤانس وارتدَّ إلى ما وراء نهر الرون، واستولى الفرنجة على معظم أراضي سبتمانية، ولم يبقَ بيد المسلمين سوى العاصمة ناربونة ورقعة ضيقة من الأرض على الشاطىء بين ناربونة والبرينيه. واصطدم عقبة، أثناء تراجعه، بقبائل البشكنس وبعض القوط الذين حاولوا قطع ممرات البرينيه عليه، وذلك بتحريض من شارل مارتل، وأضحى الطريق مفتوحاً أمام الجيش الفرنجي الذي تقدم إلى ناربونة وحاصرها.تولَّت حامية المدينة، بقيادة هرثمة، الدفاع عنها. وطال أمد الحصار من دون أن يتمكَّن شارل مارتل من اقتحامها، حتى يئس أخيراً، ورأى أن لا فائدة من

---

(١) أرسلان: ص ١٠٥.

سانس
نهر لوار
تور
نانت
(بلاط الشهداء)
بواتييه
ليموج
ديجون
أوتون
شالون
ماسون
ليون
نهر الرون
بروفانس
أبنيون
نيمه
آرل
برديل
أكيتانيا
طولوشة
قرقشونة
أربونة
البحر الأبيض المتوسط
سبتمانيا
بنبلونة
قلهرة
وشقة
جبال البرت
جرندة
بلاد غالة

السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ١٣٦

الاستمرار في القتال، وعاد فاشلاً إلى بلاده. وطارده المسلمون أثناء انسحابه، وهاجموا مؤخرة جيشه وكبَّدوه خسائر فادحة، وكان هذا هو اللقاء الأخير بين المسلمين والفرنجة في سهول الرون في عهد الولاة[1].

برزت أثناء الصراع الإسلامي ـ الفرنجي على سبتمانية ظاهرة ملفتة تمثَّلت بموقف سكانها الموالي للمسلمين والمناوىء لشارل مارتل، لذلك انتقم هذا الأخير منهم أثناء انسحابه، فخرَّب حصون بيزبيه وآجدة ونيم، وغيرها من المعاقل في جنوبي بلاد الغال، وهدم أسوارها وأشعل النار في مبانيها، وأخذ منهم رهائن ليهددهم بهم إذا ما عادوا إلى التعاون مع المسلمين، لكن هؤلاء لم يأبهوا لتهديداته، وظلوا على ولائهم لهم وتعاونهم معهم حيث وجدوا في حكمهم الأمن والرخاء والازدهار.

وخلف عقبة، بعد وفاته، ولاة ضِعاف عجزوا عن المحافظة على تراث المسلمين ومكتسباتهم المنجزة في بلاد الفرنجة، فتبدَّدت المساحة الواسعة التي خضعت لهم، واقتصرت سيطرتهم على رقعة صغيرة هي ناربونة، ظلوا محتفظين بها حيناً من الدهر.

خروج المسلمين من سبتمانية

دخلت ممتلكات المسلمين وراء جبال البرينيه مرحلة حرجة، عندما اشتد الصراع الداخلي في الأندلس أثناء الأيام الأخيرة من حكم الولاة، وكان أخطر ما في هذه المرحلة هو أن القوط في سبتمانية أعادوا تنظيم صفوفهم تمهيداً للانتفاض على حكم المسلمين بقيادة أنزيموند، فانتهز هذا اضطراب الوضع الداخلي في الأندلس واستولى على بعض المناطق الخاضعة للمسلمين في سبتمانية، هي نيم وآجدة وماجلونة وبزبيه وما حولها[2]، ثم أسس من تلك المدن مملكة صغيرة كانت نواة ومركزاً لنشاطه العسكري، ثم طمع في استرداد ناربونة من المسلمين وإخراجهم منها مدركاً، في الوقت نفسه، أن مملكته لن تنتعش وتدوم طالما بقي هؤلاء في قاعدتهم، لكنه كان أعجز من أن يتولى ذلك بمفرده، ورأى أن يستعين بـ «ببين الثالث» الذي كان قد حصل آنذاك على لقب ملك، وأضحى رأس الأسرة الكارولنجية[3]. ورحَّب

---

(١) أرسلان: ١٠٦، ١٠٧.

(٢) أرسلان: ص ١١٢.

(٣) خلفت الدولة الكارولنجية، الدولة الميروفنجية المتداعية، وتسلَّم رؤوساء البلاط من أسرة ببين الحكم. ويُعدُّ شارل مارتل بن ببين الثاني المؤسس الحقيقي للدولة التي نُسبت إليه. وتبوأ ابنه ببين الثالث العرش الفرنجي بموافقة البابا زكريا في عام ٧٥١م، وعزل الملك شلديرك الثالث آخر الملوك الميروفنجيين من أسرة كلوفيس.

هذا بالدعوة، إذ وجد فيها الفرصة لفرض سيادته على ما تبقَّى خارجاً عن طاعته في جنوبي بلاد الغال، وضمِّها إلى أملاكه. وهكذا تعاون الفرنجة والقوط مرة أخرى ضد المسلمين.

وجهَّز ببين الثالث جيشاً كبيراً وتوجَّه إلى ناربونة في عام (١٣٤هـ/ ٧٥٢م)، واستولى، أثناء تقدمه، على عدد كبير من المدن والقرى والبلدات، ولما وصل إليها ضرب حصاراً مركَّزاً عليها، إلا أنه صُدَّ عنها بفعل وعي المدافعين، فقرر أن يترك أمر حصارها للقائد أنزيموند، وأبقى قسماً من جيشه معه وانسحب باتجاه الشمال، ويبدو أنه تعرض لمشكلات داخلية، فآثر الاهتمام بها[١].

كان المسلمون في ناربونة معزولين عن الإدارة المركزية في قرطبة، ولم يعمل والي الأندلس آنذاك، يوسف الفهري، على تدارك الموقف الخطير الذي طرأ على وضعهم أو يوحِّد جهود المسلمين لصدِّ الجيش الفرنجي وبقايا القوط المتحالفين معه، وآثر التمادي في مشكلاته الداخلية، وأهمل الجبهة الشمالية للأندلس، فاضطر المسلمون في ناربونة إلى الدفاع عن أنفسهم بأنفسهم.

ودارت رحى الحرب بين المدافعين عن ناربونة وبين القوات المحاصِرة، وتمكَّن المسلمون من قتل القائد أنزيموند في كمين نصبوه له فاضطربت قواته ورفعت الحصار عن المدينة وانسحبت من المنطقة[٢]. وحدث في ذلك الوقت أن تأجَّجت العداوة بين يوسف الفهري وعبد الرحمن اللخمي، حاكم ناربونة، نتج عنها اغتيال هذا الأخير بفعل مؤامرة دبَّرها الأول[٣]، ففقدت ناربونة الشخصية القادرة على الصمود والدفاع عنها أمام هجمات ببين الثالث، الذي ما إن علم بمقتل الحاكم حتى جدَّد هجماته عليها، وحاصرها في عام (١٣٨هـ/ ٧٥٥م) أي في العام نفسه الذي دخل فيه عبد الرحمن بن معاوية الأموي بلاد الأندلس، وبدأ جهوده لتأسيس إمارة أموية في ربوعها، لذا لم يكن من المنتظر أن يتلقَّى حاكم ناربونة الجديد أية مساعدات من الأندلس، وعانى المسلمون فيها من الحصار القاسي الذي فرضه ببين الثالث. ولعل المتنفَّس الوحيد لهم كان انفتاحهم على البحر حيث تلقوا إمدادات ومؤناً من سواحل الأندلس كفلت لهم الصمود لكن إلى حين، وضاعت استغاثاتهم في ظل اضطراب الوضع الداخلي في قرطبة. فقد انهمك عبد الرحمن الأموي في إخضاع ثورات

---

(١) أرسلان: ص ١١٢.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المقري: جـ ٤ ص ٢١.

الزعماء المحليين الذين رفضوا الخضوع له، فأضحت يده مغلولة عن تقديم المساعدة الفعَّالة لحامية ناربونة، ومع ذلك فقد أرسل قوة عسكرية، بقيادة الأمير سليمان الأموي، لإنقاذها وفك الحصار عنها، لكن سليمان لم يصل إلى هدفه، فقد اعترضت جماعات القوط تقدُّمه في ممرات جبال البرينيه، ورُدَّ على أعقابه[1].

وضاعت جهود ببين الثالث لاقتحام ناربونة على الرغم من شدَّة الحصار وطول مدته، فلجأ إلى الحيلة، فاتصل بسكانها القوط ونسَّق معهم للغدر بالمسلمين مقابل منحهم حقوقاً وامتيازات كبيرة، والسماح لهم بتطبيق قوانينهم القديمة، والمعروف أن هؤلاء كانوا يتمتعون بكامل حريتهم في ظل الحكم الإسلامي وينعمون بالمساواة مع المسلمين، إلا أن طبيعة الغدر المتأصلة فيهم أنستهم هذه النعمة، ورأوا في دعوة ببين الثالث إحياءً لتراثهم القديم.

وهكذا نُفِّذت المؤامرة، فثار القوط على حامية المدينة وفتحوا أبواب الأسوار للقوات الفرنجية التي تدفقت إلى داخلها واستولت عليها في عام (١٤١هـ/ ٧٥٨ـ ٧٥٩م)، وخرج المسلمون منها بعد أن حكموها مدة أربعين سنة[2].

وحرم ببين الثالث المسلمين من أهم قواعدهم في جنوبي بلاد الغال، وكان ذلك مؤشراً بأن طموحاتهم التوسعية في أوروبا وراء جبال البرينيه قد انتهت، واقتنعوا، بعد سقوط ناربونة، بالانصراف إلى الأندلس ومعالجة شؤونهم الداخلية، وهي لم تكن بعيدة عن الخطر، في مطلق الأحوال، لأن ملوك الأسرة الكارولنجية سوف ينتقلون من الدفاع وصدِّ غارات المسلمين على أراضيهم إلى الهجوم على الأندلس نفسها في ظل حرب الاسترداد المقدسة التي أخذت طابعها الجدِّي منذ عهد شارلمان، حفيد شارل مارتل[3].

---

(١) أرسلان: ص ١١٣. طرخان، إبراهيم علي: المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى ص ١٦٧، ١٦٨.

(٢) أرسلان: المرجع نفسه.

(٣) بيضون: ص ١٦٣ـ ١٦٤.

الباب الثاني

عهد الإمارة الأموية

(١٣٨ ـ ٣١٦ هـ/٧٥٦ ـ ٩٢٩ م)

الفصل الخامس: عبد الرحمن بن معاوية: الداخل.

الفصل السادس: هشام بن عبد الرحمن ـ الحكم بن هشام.

الفصل السابع : عبد الرحمن بن الحكم الأول: عبد الرحمن الثاني: الأوسط.

الفصل الثامن : محمد بن عبد الرحمن الثاني: محمد الأول ـ المنذر بن محمد الأول.

الفصل التاسع : عبد الله بن محمد الأول.

الفَصْلُ الخَامِسُ

عبد الرحمن بن معاوية

الداخل

(١٣٨ ـ ١٧٢هـ/٧٥٦ ـ ٧٨٨م)

رحيل عبد الرحمن بن معاوية إلى المغرب

وُلد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك في ضواحي دمشق، وأمه أَمَة بربرية من قبيلة نفزة المغربية. وعندما سقطت دولة الخلافة الأموية، إثر هزيمة مروان بن محمد في معركة الزاب في (١١ جمادى الآخرة ١٣٢هـ/ ٢٥ كانون الثاني ٧٥٠م)، ثم دخول عبد الله بن علي، عم أبي العباس السفاح، أول الخلفاء العباسيين، إلى دمشق في (٢٥ رمضان/ ٧ أيار) ليجهز على من تبقى من أمراء بني أمية؛ نجا عبد الرحمن من المذبحة المروعة التي طالت رموز الأمويين ويمَّم وجهه صوب المغرب على أمل الاستقرار في ربوعه لأنه بعيد عن العراق، مركز نفوذ العباسيين، كما أن له فيه أقرباء يمكن الاعتماد على مساعدتهم، وهم أخواله من بني نفزة.

مرَّ عبد الرحمن بفلسطين وهو متخفٍّ خشية من افتضاح أمره، وانضم إليه فيها مولاه الأمين بدر الذي ربط مصيره بمصير سيده الشاب، وتابع طريقه إلى مصر ثم إلى إفريقيا، ووصل إلى برقة، ثم توجَّه إلى طرابلس، فالقيروان فالمغرب الأقصى ووصل إلى شاطئه المقابل للأندلس، وراح يخطط لعبور المضيق[1].

الواقع أن عبد الرحمن لم يفكر مطلقاً، حين غادر بلاد الشام، بالعبور إلى

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٥٠.

الأندلس وخطَّط للإستقرار في إفريقيا وتأسيس دولة أموية فيها، إلا أنه لم يفعل. ويبدو أن لذلك علاقة بالنظرة السياسية لعبد الرحمن بن حبيب الفهري الذي راح يخطط للانفصال بإفريقيا عن مركز الخلافة في ظل الفوضى التي نجمت عن انتقال السلطة من الأمويين إلى العباسيين، حيث ثقلت فلول بني أمية عليه، فتشدَّد في معاملتهم وضيَّق عليهم وقتلهم وصادر أموالهم. ولما علم عبد الرحمن بنيته هرب مع جماعته واستقر عند أخواله قرب مضيق جبل طارق[1].

والواضح أن عبد الرحمن بن معاوية لم يقتنع بدوره في إفريقيا بعد أن اطلع على أوضاعها، ولم يجد فيها الأرض التي تحقق طموحه في إقامة دولة للأمويين. وكانت الأندلس القريبة منها تمزقها الحرب الأهلية، وتتعرَّض لهجمات النصارى في الشمال، حيث كان من العسير على الأندلسيين الاتفاق على زعيم يلتف الجميع حوله، فتوجَّه بطموحه إلى هذه الولاية، وكانت أخبارها المثيرة تصل إليه تباعاً، فوجد فيها الفرصة الأكثر منالاً من المغرب.

التمهيد لدخول عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس

وشرع عبد الرحمن بن معاوية يعمل على استغلال الموقف لمصلحته، فأرسل مولاه بدراً إلى الأندلس ليعبىء أنصاره فيها، وهم من بقايا الفرقة الشامية الذين حوصروا في سبتة مع بلج بن بشر إبان ثورة البربر، وتمركزوا في كورتي جيان وإلبيرة بزعامة أبي عثمان عبيد الله بن عثمان وصهره عبد الله بن خالد[2].

عبر بدر المضيق في (ذي الحجة ١٣٦هـ/ حزيران ٧٥٤م) حاملاً رسالة سيده إليهم، يخبرهم فيها ما لاقاه في إفريقيا على يد عبد الرحمن بن حبيب، ويعلمهم بأنهم موالي أسرته، ومن حقه عليهم أن يحموه ويساعدوه، وهو إنما يريد إعزازهم إن منعوه وآزروه، وهيأوا له الأمر لطلب سلطان الأندلس[3].

اجتمع بدر، فور وصوله إلى ساحل إلبيرة، بهؤلاء الأنصار وعرض عليهم مأساة الأمويين والكارثة المفجعة التي حلَّت بهم، كما عرض المطاردة الصعبة التي عانى منها سيده الأموي حتى نجا بأعجوبة، مَن دون أن ينسى التركيز على مهمته الأساسية، مشيداً بصفات عبد الرحمن بن معاوية ومؤهلاته كحفيد لهشام بن

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٤١. المقري: جـ ٤ ص ٢٣.

(٢) أخبار مجموعة: ص ٦٦، ٦٧. ابن عذاري: المصدر نفسه ص ٤٢.

(٣) ابن القوطية: ص ٨٤.

عبد الملك، ومقدرته على ردِّ الأمر لجماعة الأمويين إذا ما أُتيحت له فرص المساعدة[١].

اتسم الاجتماع، الذي انعقد في طرَّش، بالود والإيجابية، ولم يتردَّد الزعيمان الشاميان في تنفيذ رغبة الأمير الأموي فوراً، فاتصلا بحليفهما أبي الحجاج يوسف بن بخت، زعيم الموالي في قنسرين، واستقطباه، وأتاح ذلك نجاحاً أولياً لمهمة بدر، حيث أسفرت اتصالاته عن قيام نواة جماعة مؤيدة للأمير الأموي[٢]. واعتقد هؤلاء أن قضيته سوف تحقق لهم، في حال نجاحها، مكاسب كبيرة على الصعيدين السياسي والمادي، ومع ذلك، فقد ارتأوا ضرورة الاطلاع على رأي الصميل بن حاتم في هذا الموضوع لأن انضمامه إليهم سيفتح آفاقاً واسعة لقضية عبد الرحمن بن معاوية[٣].

ويبدو أن الصميل بن حاتم لم يتحمَّس كثيراً لهذا الأمر، لقد شغل تفكيره آنذاك شريكه في الحكم يوسف الفهري وموقفه المتخاذل إبان محنته في سرقسطة، فطلب من أصدقائه بعض الوقت قبل إعطاء رأيه النهائي[٤].

وتجدَّد اللقاء مع الصميل بن حاتم أثناء إخماد ثورة المتمردين في سرقسطة في عام (١٣٧هـ/ ٧٥٤م)، وذكَّره أبو عثمان عبيد الله بأمر عبد الرحمن بن معاوية، فأجابه بالإيجاب، وطلب منه أن يكتب له ويدعوه للعبور إلى الأندلس، وأضاف بأن يوسف الفهري لن يستطيع التدخل، وأنه، أي الصميل، سوف يشير عليه بأن يزوجه إحدى بناته بحيث يصبح واحداً منهم. وخرج أبو عثمان عبيد الله وخالد بن عبد الله من عنده وهما يعتقدان بأنهما نجحا في خطتهما[٥].

لكن يبدو أن تلك الموافقة التي أملاها استياؤه من يوسف الفهري كانت عابرة ولن تلبث أن تتبدَّد. فبعد أن انفضَّ الاجتماع، أعاد الصميل بن حاتم النظر في قراره ودرس نتائجه الخطيرة على مستقبله السياسي. والواقع أنه لم يكن محاوراً سهلاً يفصح عن نواياه بهذه السرعة حتى ولو كان الطرف الآخر صديقاً، فكيف إذا كانت القضية، موضوع الحوار، مصيرية، والمعروف أنه لا زال، على الرغم من كل ما تعرَّض له، الرجل النافذ والمهيمن على السلطة، وهو يفضِّل، في مطلق الأحوال،

---

(١) ابن القوطية: ص ٨٤. أخبار مجموعة: ص ٦٧.

(٢) ابن القوطية: ص ٨٤، ٨٥. أخبار مجموعة: ص ٦٧.

(٣) أخبار مجموعة: ص ٦٧، ٦٨.

(٤) المصدر نفسه: ص ٦٩، ٧٠.

(٥) أخبار مجموعة: ص ٧٠ـ ٧٢. مؤلف مجهول: ص ٤٨، ٤٩. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٤٣.

استمرار الوضع الراهن على أن يربط مصيره بشخصية كعبد الرحمن بن معاوية لا يملك من مقومات المنافسة إلا القليل[١]. وما إن أدرك ذلك حتى بادر إلى تغيير موقفه خشية من أن يطغى نفوذ الأمير الأموي على نفوذه لأنه من أسرة قوية، وأبدى لصديقيه عن استعداده لمساعدته إن طلب غير السلطان والولاية، كما لفت نظرهما بأنهما ملزمان بطاعة يوسف الفهري[٢].

وإذ فشلت محاولة استقطاب الصميل بن حاتم، توجَّه فريق الأمير الأموي إلى الحزب المعارض، من القبائل اليمنية، ذي الكثافة العددية، والذي يتخذ مواقفه العدائية الثابتة من الحكم القيسي الموزع بين الصميل بن حاتم ويوسف الفهري، والمتصل عضوياً بالأسرة المروانية منذ معركة مرج راهط[٣].

وأسفرت المفاوضات التي جرت بين الطرفين عن نجاح كبير. والواقع أنه لم يكن هناك ما يدفع اليمنيين إلى التردُّد في القبول بهذا العرض، ففيه الفرصة التاريخية للتحرر من قيود القيسيين الثقيلة، بعد معركة شقندة والانتصاف من الصميل والفهري، كما أنهم امتعضوا من إدارتهما المشتركة التي استهدفت تجريدهم من بعض أملاكهم لصالح أنصارهما من جنود قنسرين ودمشق[٤].

استغل أنصار عبد الرحمن بن معاوية نجاح الدعوة له، فاستدعوه إلى الأندلس على عجل.

دخول عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس

رأى عبد الرحمن بن معاوية، بناءً على المعلومات التي تلقّاها من بدر وأعضاء الوفد الأندلسي الذي رافقه، أن الأمر مُهيأ لنزوله في الأندلس، وأن عليه انتهاز الفرصة بدون إبطاء، فعبر المضيق ونزل على ساحل إلبيرة في جهة المنكّب على الساحل الجنوبي الشرقي، وذلك في (ربيع الآخر ١٣٨هـ/ أيلول ٧٥٥م)، وهو مفعم بالآمال لتحقيق حلمه بتأسيس دولة أموية في هذه البلاد. فكان دخوله بداية مرحلة جديدة في تاريخ المسلمين في الأندلس. فاستقبله أبو عثمان عبيد الله بن

---

(١) بيضون: ص ١٧٨، ١٧٩.   (٢) أخبار مجموعة: ص ٧٤.

(٣) نشبت معركة مرج راهط بين القيسية، بزعامة الضحاك بن قيس الفهري، وبين اليمنية، بزعامة الخليفة الأموي مروان بن الحكم، في (ذي القعدة ٦٤هـ/ حزيران ٦٨٤م)، وأسفرت عن انتصار الثاني ومقتل الأول. ويقع مرج راهط بنواحي دمشق.

(٤) أخبار مجموعة: ص ٧٤. ابن القوطية: ص ٨٤، ٨٥.

عثمان وخالد بن عبد الله ونقلاه إلى قرية طرَّش، وهي قلعة أبي عثمان التي أضحت قاعدة له ومقر القيادة العامة لجيشه[1].

أحدث دخول عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس ردَّ فعل إيجابي من جانب أنصاره من الموالي وغيرهم من اليمنيين، فتوافدوا عليه للسلام والبيعة[2]. وكان يوسف الفهري، آخر ولاة الأندلس، عائداً آنذاك من سرقسطة، بعد أن قمع حركة التمرد التي تزعمها عامر العبدري والحباب الزهري، وحين وصل إلى وادي الرملة وقع تحت تأثير الصميل بن حاتم الذي اتخذ القرار الأخير، فأمر بإعدامهما[3]. ومرة أخرى يجد هذا الوالي نفسه في مأزق الموافقة ولكن على حساب ضميره المتعب. ولم يمر على ذلك يوم واحد حتى أتاه رسول يخبره بهزيمة الجيش الذي أرسله لغزو جليقية بقيادة سليمان بن شهاب، ثم أتاه رسول آخر من قرطبة يعلمه بخبر نزول عبد الرحمن بن معاوية في ساحل المنكّب والتجائه عند أبي عثمان في طُرَّش واجتماع الناس عليه، فاغتم وازداد انقباضاً. ولما انتشر الخبر بين جنده تطرق الخلل إلى صفوفهم فانفضَّ معظمهم من حوله، كما انفض عنه كل ناقم على سياسته وكل من ناله أذى بسبب تصرفاته، ولامه الكثيرون على قتل عامر والحباب من دون سبب يدعو إلى ذلك[4].

في غمرة هذه التطورات السلبية استدعى يوسف الفهري شريكه ومستشاره الصميل بن حاتم على عجل لتدارس الموقف وتحديد السياسة الواجب اتباعها. ويبدو من الحوار الذي دار بين الرجلين، أن يوسف الفهري خشي مغبة الأمر وربط بين هذه التطورات وعملية القتل التي جرت قبل ذلك «إني أخاف أن يكون الله قد أنزل النقمة علينا بقتل هؤلاء»[5]، فهوَّن الصميل عليه هذا الأمر. وتقرَّر بنتيجة الاجتماع التصدي لعبد الرحمن بن معاوية وإجباره إما على الخضوع أو الخروج من البلاد، لكنهما تباطآ، ويبدو أن لذلك علاقة بانفضاض الكثير من الجند من حولهما لدى سماعهم نبأ نزول عبد الرحمن بن معاوية في الأندلس. وفضَّل يوسف الفهري التوجه إلى قرطبة للاستعداد قبل أن يصطدم بالداخل الجديد. والراجح أنه راهن على إمكان تغيير رأيه ـ معاوية ـ في آخر لحظة، فيقرِّر العودة من حيث أتى إذا لم

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٧٥، ٧٦. ابن القوطية: ص ٨٦.

(٢) المصدران نفساهما: ص ٧٦. ص ٨٦، ٨٧.

(٣) أخبار مجموعة: ص ٧٦، ٧٧.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه: ص ٧٨.

تساعده الظروف كما يشاء، أو يقرِّر القبول ببعض المال ومصاهرته، فيهدأ ويكفُّ عما يطالب به، وأقنع نفسه بذلك، من واقع موقف الأمويين الظاهري. فعندما أرسل إليهم يحذِّرهم وينذرهم من مغبة العمل الذي يسعون إليه، أجابوه بأن ابن معاوية جاء يريد المال وليس فيما يظن ولا فيما رُفع إليه، واعتذروا له، فاطمأن لقولهم(١).

المفاوضات بين يوسف الفهري وعبد الرحمن بن معاوية

أدرك الصميل بن حاتم، بعد قليل من الوقت، حجم عبد الرحمن بن معاوية بما التفَّ حوله من الأتباع، فخشي مغبة الأمر، ونصح يوسف الفهري بالتفاوض معه، وأن يزوِّجه ابنته ويسكنه في أي الجندين أراد، دمشق في إلبيرة، أو الأردن في ريَّة أو يسكن بينهما ويصير إليه أمر المقاطعتين، وأن يبعث إليه بكسوة ومال. فدخل في روعه صحة هذا الرأي، ومضى في تفاؤله بسذاجة بالغة، نظراً لحراجة موقفه، فأرسل وفداً إلى طرَّش اجتمع بعبد الرحمن بن معاوية وأجرى معه مباحثات انتهت بالفشل(٢).

والواقع أن أبا عثمان عبيد الله لم يكن راضياً عن هذه المباحثات التي قد تطيح بآمال سيده، كما أن الحزب اليمني كان يرى غير هذا الموقف التفاوضي ويستعجل معركة الانتقام، فكان لا بد أن تتعثر المباحثات. وهكذا افتعل أبو عثمان عبيد الله خصاماً مع أحد أعضاء الوفد، وهو خالد بن يزيد، بشأن الرد، وجرى تلاسن بينهما أدّى إلى إلقاء القبض عليه(٣).

وعلى هذا الشكل انتهت محاولة يوسف الفهري استقطاب الأمير الأموي. وكان لا بد من الصدام العسكري لتقرير المصير.

معركة المسارة ـ قيام الإمارة الأموية

حشد عبد الرحمن بن معاوية أنصاره من اليمنيين في حين تَكَتَّل القيسيون حول يوسف الفهري باستثناء نفر قليل استاؤوا مما فعل بابن شهاب، وبدأت ملامح الصراع تتوَّضح، فإذا بها مرج راهط جديدة بين اليمنية والقيسية. وفي (أواخر عام ١٣٨هـ/ ربيع عام ٧٥٦م)، خرج عبد الرحمن بن معاوية، من قاعدته طرَّش، على رأس قواته متوجهاً إلى قرطبة للاستيلاء على الحكم بالقوة، وكان عدد جنوده يتنامى كلما مرَّ بمدينة حتى بلغ ثلاثة آلاف فارس(٤).

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٧٨، ٧٩.
(٢) المصدر نفسه: ص ٧٩ـ ٨١
(٣) المصدر نفسه: ص ٨١.
(٤) المصدر نفسه: ص ٨١ ـ ٨٥. ابن القوطية: ٨٧. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٤٦.

وعندما علم يوسف الفهري بخروجه، حشد أنصاره من الفهرية والقيسية، وغادر قرطبة باتجاه إشبيلية للتصدي له ووقف زحفه، واصطحب معه الصميل بن حاتم، لكنه لم يذهب بعيداً في اتجاهه وتوقف في حدود صدف شمالي قرطبة، على الضفة الغربية لنهر الوادي الكبير[1]. ويبدو أنه خشي الاصطدام به بعد الالتفاف الواسع حوله، بالإضافة إلى تراجع قوته بفعل انفضاض الكثيرين من حوله، كما بدا الوهن على قواته بفعل قيامها المستمر بقمع الفتن والثورات، والغزوات المتتالية.

ووصل عبد الرحمن بن معاوية في غضون ذلك، وعسكر على الضفة المقابلة، وحجزت مياه النهر المرتفعة بينهما، ثم بدا له أن يقوم بمحاولة دهم سريعة ومفاجئة لقرطبة للاستيلاء عليها، وذلك لسببين:

الأول: أن المدينة كانت خالية ممن يحميها أو يدافع عنها، لأن يوسف الفهري اصطحب معه كافة القوى المسلحة.

الثاني: أن السيطرة على العاصمة تعطيه دفعاً مادياً ومعنوياً لكسب المعركة بفعل وجود كثير من الموالي الأمويين واليمنيين والبربر فيها، وهم على استعداد للانضمام إليه.

لكن محاولته فشلت بفعل وعي يوسف الفهري والصميل بن حاتم، وتوقف عند المسارة. وفي رواية أن يوسف الفهري هو الذي اختار ذلك المكان كميدان للمعركة وعسكر فيه، وتبعه عبد الرحمن بن معاوية وذلك في (٦ ذي الحجة ١٣٨هـ/ ١١ أيار ٧٥٦م).

كان يوسف الفهري لا يزال يأمل بحل القضية سلمياً وتجنُّب القتال، فعرض الصلح على الأمير الأموي. ومن جهته أبدى هذا الأخير مرونة ظاهرية في التعامل مع خصمه في خطوة تمهيدية لعدم اعتراضه عبور النهر، وهو ينوي الاصطدام به، حتى دخل يوم الخميس (٩ ذي الحجة/ ١٤ أيار)، فانحسرت مياه النهر، فعبر عبد الرحمن بن معاوية مع جيشه إلى الضفة الأخرى. ونشبت المعركة بين الطرفين، في اليوم التالي، وكانت ضارية. وشجع عبد الرحمن بن معاوية جنده، وحثهم على القتال، ضارباً على وتر العصبية القبلية «.. أرجو أنه أخو يوم مرج راهط، فأبشروا وجدُّوا»[2]. وانجلى القتال

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٨٥.

(٢) تذكر بعض الروايات أن هذا الكلام صدر عن العلاء بن جابر العقيلي، موجهاً كلامه إلى الصميل بن حاتم. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٤٧. ابن الأبّار: جـ ٢ ص ٣٤٨. المقري: جـ ٤ ص ٢٧.

عن هزيمة قاسية ليوسف الفهري الذي فرَّ، في جو الهزيمة القاتم، إلى طليطلة، في حين هرب الصميل بن حاتم إلى جيان، وتكبَّد القيسيون خسائر فادحة في الأرواح[١].

استثمر عبد الرحمن بن معاوية انتصاره، فتقدم نحو قرطبة ودخلها، وتربع على العرش في قصر الإمارة، وبايعه الناس البيعة العامة، ثم أدَّى صلاة الجمعة في المسجد الجامع، وخطب بالناس معلناً قيام الإمارة الأموية، وموضحاً سياسته القائمة على العدل والإحسان[٢].

وهكذا قامت الإمارة الأموية في الأندلس على يد عبد الرحمن بن معاوية الذي قنع بلقب الأمير ولم يدع لنفسه بالخلافة حتى لا يستفز الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور الذي عدَّ نفسه وارثاً لجميع الأقطار الإسلامية، كما عُرِف بالداخل لأنه أول من دخل الأندلس وحكمها من بني أمية، وعُرِف أيضاً باسم عبد الرحمن الأول تمييزاً له عن أميرين آخرين حكما الأندلس باسم عبد الرحمن وهما: عبد الرحمن الثاني، أو الأوسط، وعبد الرحمن الثالث، الناصر لدين الله.

خصائص عهد الإمارة الأموية[٣]

دخل المسلمون في الأندلس، منذ أن تسلَّم عبد الرحمن الداخل الحكم، في عهد جديد قائم على أسس سياسية بعيدة عن العنصرية والقبلية من واقع تحجيم نفوذ زعماء القبائل وإحلال سلطة الدولة ممثلة بالأمير، محل سلطة القبائل، وبدأت الأندلس تسير في طريق اكتساب الحضارة. وبفعل الاستمرار في هذا الاتجاه، برز في عهد الإمارة الكثير من المعالم الحضارية التي استمرت زهاء قرنين، كما ظهرت خصائص المجتمع الإسلامي بشكل واضح، وبدا مختلفاً تماماً عما سبقه، مع اشتراك كافة مراحل التاريخ الأندلسي بالصفات المميزة لها، ومع وجود أمور خاصة قد يكون عدد منها ذات جذور عميقة متصلة بتاريخ الدول الإسلامية المشرقية. وبدأ عهد الإمارة يجني ثمار ما غُرس أثناء عهد الولاة في جوانب التبدل الذي تمَّ نتيجة لدخول الإسلام إلى الأندلس، وهو ما شمل الجوانب الحضارية المتعددة والإنسانية كافة.

وأضحى الأندلس بلداً إسلامياً مستقلاً عن الخلافة العباسية في المشرق بعد أن

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٨٧ ـ ٩١.

(٢) المصدر نفسه: ص ٩٠. ابن القوطية: ص ٨٩، ٩٠.

(٣) انظر: الحجي، عبد الرحمن علي: التاريخ الأندلسي ص ٢٧٧، ٢٧٨.

كان خاضعاً لمركز الخلافة في العهد الأموي، ولم تحاول الخلافة العباسية جدِّياً في إعادته إلى حظيرتها. ويبدو أن انفصاله النهائي عنها لم يشكل خطراً حقيقياً مباشراً على كيانها، بالإضافة إلى أنه استمر في حمل الرسالة الإسلامية، ولا يدعو ذلك بالضرورة للمواجهة المباشرة، غير أنه جرت محاولات عابرة قام بها العباسيون لإعادته إلى حظيرة الخلافة، لكنها لم تحقق شيئاً.

أما على الصعيد الخارجي، فقد قامت في الشمال ثلاث ممالك نصرانية بشكل مضطرد أدَّت دوراً مؤثراً في عدد من الأحداث، وهذه الممالك هي:

مملكة أشتوريس، بما فيها منطقة جليقية، وقد تأسست على يد بلاي في عام (٩٩هـ/ ٧١٨م) في الركن الشمالي الغربي من شبه جزيرة إيبيريا.

مملكة نبرَّة، وقامت في غربي جبال البرينيه وإلى الشرق من جبال كنتبرية على أبواب غالة. وتُعدُّ مملكة فاصلة بين إمارة برشلونة، الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط في الشرق، ومملكة أشتوريس في الغرب، ويُعرف سكانها باسم البشكنس.

إمارة قطلونية ـ برشلونة ـ وتمتد من جبال البرينيه في الشمال إلى بلنسية في الجنوب، ومن منطقة الثغر الأعلى ـ سرقسطة ـ في الغرب إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط في الشرق.

وتوقفت حركة الفتوح في هذا العهد، وقنع المسلمون بما وضعوا أيديهم عليه من أراضٍ، وأخذوا ينظمون شؤونهم ويرتبون أوضاعهم حتى ينعموا بثمرات الفتح، فظهرت التنظيمات المختلفة، مثل منصب الحجابة والوزارة، كما ظهرت البحرية الأندلسية، وتطورت التنظيمات العسكرية مع العناية بالثغور والأساطيل.

والواقع أن الاستمرار في حركة الفتوح لم يكن ممكناً في ظل دولة كالأندلس تعاني من أوضاع داخلية مضطربة، وحركات تمرُّد لم يخلُ منها عهدُ أي أمير، وانقسام المجتمع الأندلسي بفعل تعدُّد فئاته العنصرية وانتماءاته القبلية، وقيام كل فئة بتثبيت سلطانها، وإعلان استقلالها، ومحاربة السلطة المركزية، يضاف إلى ذلك انقطاع البلاد عن العالم الإسلامي الذي يعاديها ويترصَّد بها، إذ كان العباسيون في المشرق الإسلامي، والأغالبة والأدارسة والفاطميون في شمالي إفريقيا، يقفون منها موقف العداء، لذلك انحصر هدف المسلمين في الأندلس آنذاك، في صراعهم مع النصارى في الشمال، بثلاثة:

الأول: الدفاع عن مكتسباتهم من خطر هؤلاء.

الثاني: تأمين مناطق الحدود.

الثالث: إثبات وجودهم على الأرض وزرع هيبتهم في نفوس أعدائهم.

نلاحظ ذلك من خلال الحملات العسكرية التي قاموا بها، والتي لم تكن إلا ردَّ فعل على اعتداءات النصارى على مناطق الثغور الإسلامية أو مناطق الحدود المجاورة لهم، وقد اتخذت الشكل التقليدي المعروف بالصوائف والشواتي.

ومن جانبهم، لم يقبل النصارى التعايش جنباً إلى جنب مع المسلمين في الأندلس، وقد وُجد الحافز على قتالهم منذ أن قامت مملكة أشتوريس للدفاع عما تبقّى للنصارى من أراضٍ أولاً، ثم محاولة استرداد الأراضي التي سيطروا عليها، ثانياً.

وقامت في هذا العهد علاقات سياسية مع عدد من الدول الأوروبية وغيرها، بعد أن ظهرت هيبة الدولة، وتوضَّحت قوتها، وعلت مكانتها. وحرصت هذه الدول على اكتساب صداقة الإمارة الأموية، لذلك تعدَّدت السفارات إلى الأندلس، السياسية منها والعلمية، وحدث تبادل ثقافي واسع سواء في المؤلفات أو في العلماء، والمعروف أن هذا العهد تميز بالانتاج العلمي والثقافي الغزير والمتنوع، واشتهرت الأندلس بأنها المعين الذي لا ينضب.

وتأثرت الحياة الدينية بما كان سائداً من مذاهب في بلاد الشام. واعتنق الأندلسيون، أولاً، مذهب الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، إمام الشام، (٨٨ـ ١٥٧هـ/ ٧٠٧ ـ ٧٧٤م). وكان هذا الإمام من المجاهدين المرابطين في مدينة بيروت ضد البيزنطيين. من هنا ركَّز مذهبه على التشريعات العسكرية وأحكام الحرب والجهاد، وتناسب هذه القضايا وضع أهل الأندلس حيث الحرب والجهاد.

وتحوَّل الأندلسيون، منذ أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن، إلى مذهب الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة بالمدينة المنوّرة (٩٥ـ ١٧٩هـ/ ٧١٤ ـ ٧٩٥م)، وذلك بفعل تغيُّر الوضعين السياسي والعسكري. ويبدو أن تآلفاً في الموقف السياسي من العباسيين جمع بين الإمام وبين الأمير هشام، وحمل هذا التحوُّل بُعداً سياسياً من واقع النزعة الاستقلالية للأندلسيين، كما أكَّد شخصيتهم المتميزة، يضاف إلى ذلك، فقد ارتبط الأندلسيون نفسياً بالحجازيين لأن معظم الفاتحين كانوا منهم، ومن ناحية أخرى تتميز تعاليم الإمام مالك بالبساطة والبُعد عن التكلُّف والتعقيد، والمعروف أن طبيعة أهل الأندلس تتميز أيضاً بهذه الخصال، وهي لهذا تشبه طبيعة

أهل الحجاز الذين تغلب عليهم نزعة أهل الحديث والاعتماد على مذهب الإمام مالك الذي يتقيد بنصوص القرآن والحديث، ولا يلجأ إلى استعمال الرأي والقياس.

أطر سياسة عبد الرحمن الداخلية: فتحت معركة المسارة أبواب الحكم على مصراعيه أمام الأمير الأموي، إلا أن استمرار السير في الطريق كان شاقاً وطويلاً. فقد كان عليه القيام بعدة تدابير لتثبيت أقدامه في الحكم وترسيخ المكاسب التي حقَّقها، وتحقيق الأمن والسلام لجميع الأندلسيين على مختلف انتماءاتهم، ولا يتوفر ذلك إلا بـ:

ـ إنشاء جهاز عسكري وبشري مطلق الولاء له، يساعده في تدبير شؤون الحكم. من هنا ركَّز على الجيش بوصفه الدعامة الأولى لتكريس حكمه وإعطائه الهيبة المفقودة في الولاة، وكانت نواة هذا الجيش تلك الفئة التي أوصلته إلى الحكم بعد أن استبعد العناصر المشكوك بولائها، كما استعمل الجنود المرتزقة من البربر والسودان.

أما من حيث تأمين الجهاز البشري، فقد أعلن أن الأندلس مفتوحة أمام الملاَحقين من السلطة العباسية، فتدفق المئات من الأمويين على البلاد حيث وجدوا الأمان المنشود، ورحَّب هو بهم ومنحهم الامتيازات، بوصفهم قرشيين، مثل الحصانة والإعفاءات الضريبية، وبحق الصدارة في الاحتفالات الرسمية، وخصَّص لمعظمهم راتباً شهرياً كبيراً، وكان من بينهم عبدالملك بن عمر بن مروان بن الحكم، فولّاه الداخل إشبيلية وولّى ابنه عبد الله مورور، وأرسل بعثة إلى المشرق برئاسة معاوية بن صالح الحضرمي، لتأتيه ببقية أهله.

ـ مطاردة فلول الفهريين الذين اعتصموا بطليطلة.

ـ عدم اللجوء إلى القوة مع يوسف الفهري والصميل بن حاتم إلا إذا دفعاه إليها.

ـ تحديد علاقته بالخلافة العباسية، صاحبة النفوذ المبدئي في الأندلس، بوصف هذه البلاد إحدى ممتلكات الأمويين التي آلت إليها، ولا بد من أن تُحدِّد علاقتها بالأمير الأموي إن عاجلاً أو آجلاً، وهو الذي أفلت من قبضتها.

ـ تحديد العلاقة مع النصارى في الشمال، غير أن هذه القضية لم تكن مطروحة بإلحاح، لأن الخطر الحقيقي كان داخلياً، وعباسياً خارجياً.

ـ تأليف قلوب الأندلسيين وجمع شملهم، وكان لكل فئة وضعيتها السياسية والحقوقية الخاصة، والمعروف أن الأمويين ومواليهم لم يشكلوا أية عقبة له، ويمكن الاعتماد عليهم والوثوق بهم، لكنهم لم يكونوا أكثر العرب نفوذاً.

أما اليمنية، فقد آزروه وناصروه لأنهم رأوا فيه القائد الذي يستطيع أن يأخذ لهم بثأرهم من القيسية والمضرية، ولم يتعدَّ ولاؤهم حدود هذا التفكير، لذلك شعروا بالمرارة، وغضبوا على عبد الرحمن الداخل عندما نهاهم عن التنكيل بالفهريين في قرطبة حين دخلها، وأخذوا يفكرون بالتخلص منه وجعل الأندلس خالصة لليمنيين.

وأما البربر، فقد ساند فريق منهم قضية عبد الرحمن الداخل وقاتلوا معه، لكنهم كانوا دائمي الثورة، لا يستقر لهم قرار، ولا يستطيع الاعتماد عليهم.

وأما القيسيون، وقد خُذلوا في الحرب ومنوا بهزيمة مُنكرة على يديه، فكان عليه استقطابهم بكل ما يستطيع من وسائل.

وهناك أهل البلاد، من مسلمين ونصارى، الراغبين في العيش بهدوء وأمان بعد أن ذاقوا الويلات من جراء الحروب والنزاعات التي كانت تحدث بسبب الخلافات القبلية وغيرها.

فإلى أي مدى نجح عبد الرحمن الداخل في تحقيق ذلك؟

الواقع أنه اعتقد، في بادىء الأمر، أن سياسة اللين والتسامح هي الكفيلة بأن تقضي على الخلافات وتضع حداً لتلك الفتن فينعم كل فريق، في ظل الحكم الجديد، بالأمن السلام، ويسود التفاهم بين عناصر الشعب الأندلسي، لذلك نجد سياسته تتسم بطابع اللين، ويغلب عليها العفو حيث جميع الأطراف في نظره سواء، يريد أن يصهرهم في مجتمع واحد، متجانس، متآلف، لا عصبية فيه ولا خلاف. لكن سياسة المسالمة هذه لم تكن موضع تقدير من جانب الأطراف المتنازعة والطامعة التي راحت تتسابق وفق ما تمليه عليها مصلحتها الخاصة الضيقة، فانقلبت تلك السياسة إلى حروب طاحنة للقضاء على الثورات التي تعددت مصادرها. وكان على عبد الرحمن الداخل أن يستعمل الشدَّة والحزم ضد الخارجين على حكمه، ويثبت في وجه العواصف، وإن إسرافه في القتل كان لا مفر منه بفعل أن الأخطار التي داهمته، منذ أن عبر إلى السلطة في قرطبة، كانت أقوى بكثير من أن يتحمَّلها رجل واحد بالإضافة إلى قناعته بأن أي تهاون من جانبه سيستثمر ضده.

الثورات التي قامت ضد حكم عبد الرحمن الداخل

ثورة يوسف الفهري والصميل بن حاتم

لم تتعدَّ سيادة عبد الرحمن الداخل قرطبة وبعض المدن التي أعلنت ولاءها له، في حين ظل القسم الأكبر من الأندلس إما في قبضة القيسيين أو في موقف التردُّد. وما

لبث يوسف الفهري والصميل بن حاتم، اللذان لم يعترفا بالهزيمة، أن نهضا لاستعادة السلطة، وآثر عبد الرحمن الداخل من جهته أن يقضي على بقايا الفهريين قبل أن يتفرغ إلى تنظيم شؤونه العامة حتى لا يثيروا المشكلات في وجهه، في الوقت الذي كان فيه بحاجة إلى الهدوء. وهكذا وُجدت دوافع الاصطدام مرة أخرى.

حشد الزعيمان القيسيان أنصارهما وهاجما جيان وإلبيرة واستوليا عليهما تمهيداً للزحف على قرطبة. وما إن علم عبد الرحمن الداخل بذلك، حتى حشد قواته وغادر قرطبة متوجهاً إلى إلبيرة للاصطدام بخصميه، واستخلف عبيد الله بن عثمان على المدينة، فاستغل يوسف الفهري ذلك وأمر ابنه عبد الرحمن، الذي كان في ماردة، بمهاجمتها والسيطرة عليها. ونجح هذا الأخير في مهمته، ولكنه لم يتمكن من البقاء فيها مدة طويلة، وغادرها فور سماعه بعودة عبد الرحمن الداخل إليها مكتفياً بأخذ عبيد الله بن عثمان أسيراً معه[(١)].

أعاد عبد الرحمن الداخل تنظيم شؤون المدينة وعهد بحراستها إلى عامر بن علي، جد بني فهر الرصافيين، ثم مضى نحو إلبيرة لاستكمال مهمته. وعندما وصل إلى قرية أرملة، أرسل إلى يوسف الفهري والصميل بن حاتم يحذِّرهما من مغبة حركتهما التي ستؤدي بهما إلى الهلاك.

ويبدو أن الرجلين مالا إلى التفاهم بعد أن وقفا على قوته وشعرا بعدم قدرتهما على الاستمرار في المقاومة. وفعلاً تمَّ التوصل إلى اتفاق في (صفر ١٣٩هـ/ تموز ٧٥٦م)، كان من أهم بنوده:

- يعترف يوسف الفهري والصميل بن حاتم بسلطة عبد الرحمن الداخل، ويسكنا في قرطبة آمنين، ولا يعاقَب أحد من أنصارهما لموقف وقفه تجاه الداخل قبل هذا الاتفاق.

- يتم تبادل الأسرى بينهما، فيطلق عبد الرحمن الداخل سراح خالد بن زيد، كاتب الفهري، ويُطلق هذا الأخير سراح عبيد الله بن عثمان.

- يبقى ابنا يوسف الفهري، عبد الرحمن ومحمد، رهينتين عند عبد الرحمن الداخل ضماناً لحسن تنفيذ الاتفاق، ثم يُطلق سراحهما.

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٩١ـ٩٣.

ـ يتردَّد يوسف الفهري يومياً على قصر الإمارة ليثبت حضوره ويتأكد الأمير من أنه لم يخلع عصا الطاعة(١).

عاد الجميع بعد توقيع الاتفاق إلى قرطبة، وتعاون الداخل مع الزعيمين القيسيين وجعلهما موضع ثقته، وكان يستشيرهما في مهام أموره(٢). وهكذا اعترف الجميع بزعامته، فهدأت الأمور وساد الأمن، واستتبَّ النظام، ولكن إلى حين، فقد تدهورت العلاقات بين الطرفين بفعل سعي الوشاة، وإلحاح أنصار يوسف الفهري الذين خسروا، بهذا الصلح، امتيازاتهم، فعابوا عليه قبوله، ودفعوه إلى النهوض لاسترداد سلطته، فأخذ بتوجيهاتهم وقرَّر الخروج على النظام، إلا أنه لم يلقَ التأييد المطلوب من الأجناد، كما رفض الصميل بن حاتم الاستجابة لدعوته، فتوجه عندئذٍ إلى جماعات البلديين وخاصته من أهل ماردة ولقنت، فجاءته كتبهم بقبول دعوته والالتفاف حوله الأمر الذي حمله على مغادرة قرطبة في عام (١٤١هـ/ ٧٥٨م)(٣).

غضب عبد الرحمن الداخل من خرق يوسف الفهري شروط المعاهدة المبرمة بينهما، وانعكس ذلك على حالته النفسية من واقع قراراته المتسرعة والمتعلقة به وبحليفه الصميل. ففيما يتعلق بيوسف الفهري، فقد أرسل قوة عسكرية لمطاردته والقبض عليه، وسَجَنَ ولديه عبد الرحمن ومحمد. وفيما يتعلق بالصميل بن حاتم، فقد اتهمه بالتآمر معه، فقبض عليه وسجنه على الرغم من إنكاره ذلك(٤).

طاف يوسف الفهري بمدن ماردة ولقنت وإشبيلية، يُجيِّش سكانها، فانضم إليه نحو عشرين ألف مقاتل(٥)، الأمر الذي يدل على استمرار الانقسامات داخل المجتمع الأندلسي، وأن الأندلسيين كانوا، حتى ذلك الحين، بعيدين عن استيعاب قيمة استقرار الأمور وعودة السلام.

كانت أولى خطوات يوسف الفهري السيطرة على إشبيلية وإخضاع واليها عبد الملك بن عمر المرواني، فحاصرها. ويبدو أنه استهان بقوة واليها بعد انفضاض معظم سكانها عنه، واعتقد أنه لن يكون له تأثير كبير على مجرى الأحداث، وفضَّل رفع الحصار عنها، وغذَّ السير نحو قرطبة، وهي هدفه الأساس، مرتكباً خطأً عسكرياً

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٩٣، ٩٤. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٤٨.

(٢) أخبار مجموعة: ص ٩٥.

(٣) المصدر نفسه: ص ٩٥، ٩٦. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٥٠.

(٤) أخبار مجموعة: المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه: ص ٩٦.

سوف يكلفه غالياً، لأن إشبيلية سوف يُقدَّر لها أن تمارس دوراً كبيراً في إحباط عصيانه.

عندما بلغ عبد الرحمن الداخل نبأ زحف يوسف الفهري باتجاه عاصمته قرَّر الخروج منها وهو على تعبئة، للاصطدام به خارج أسوارها، وفق ما كانت تشير إليه قرائن الأحداث. إلا أن ما حصل لم يكن كذلك، إذ إن عبد الملك بن عمر المرواني، حاكم إشبيلية، كان قد استنجد بابنه عمر، حاكم مورور، فسار هذا بجنوده نحو المدينة لفكّ الحصار عنها، ولما وصل إليها وجد أنه قد زال، فتابع زحفه وراء يوسف الفهري وانضم إليه والده[1].

اضطرب يوسف الفهري حين علم بتقدم قوات المرواني، فلم يجرؤ على متابعة زحفه نحو قرطبة خشية أن يقع بين فكي الكماشة، وانكفأ إلى الوراء للتخلص من مطاردة المرواني أولاً، وكان واثقاً من النصر نظراً لتفوق جيشه في العدد، ثم يتفرغ بعد ذلك لجيش قرطبة. لكن تبدَّدت تطلعاته حين انهزم أمام قوات المرواني، وفرَّ إلى طليطلة، وتفرَّق جيشه في كل اتجاه. وسار عبد الملك بن عمر المرواني بعد المعركة إلى المدور حيث كان يعسكر عبد الرحمن الداخل وأخبره بما حصل[2].

وطاف يوسف الفهري في بعض المدن يُجيِّش الناس، حتى إذا فشل في ذلك، سار إلى طليطلة ليحتمي بواليها هشام بن عروة الفهري. ولما كان على بُعد أربعة أميال منها، وهو في قرية مجاورة، تصدَّى له عبد الله بن عمرو الأنصاري وتمكَّن من قتله وذلك في (رجب ١٤٢هـ/ تشرين الثاني ٧٥٩م)، واحتز رأسه وحمله إلى قرطبة[3].

سُرَّ عبد الرحمن الداخل من إزاحة منافس عنيد من أمامه، وأمر بقتل عبد الرحمن بن يوسف واكتفى بسجن أخيه الثاني محمد. أما الصميل بن حاتم فقد مكث في سجنه بعض الوقت قبل أن يقتله الداخل خنقاً في العام نفسه[4]. فتخلَّص بذلك من أكبر عدوين منافسين له وشكَّلا خطراً حقيقياً على حكمه.

والواقع أن يوسف الفهري ذهب ضحية تردُّده وعدم وضوح الرؤية السياسية، وعلى الرغم من كثرة عدد مقاتليه فهو يُغيِّر خططه العسكرية بين وقت وآخر.

---

(١) أخبار مجموعة: ص ٩٧. (٢) المصدر نفسه: ص ٩٧ـ ٩٩.

(٣) المصدر نفسه: ص ٩٩ـ ١٠١. ابن الأثير جـ ٥ ص ٨٢، ٨٣.

(٤) أخبار مجموعة: ص ١٠١.

ثورة هشام بن عروة الفهري[1]

بعد هدوء لم يتجاوز العام كثيراً، منذ أن قضى عبد الرحمن الداخل على ثورة القيسيين الأخيرة، أعلن هشام بن عروة، أحد زعماء القيسية من الفرع الفهري الثورة في طليطلة التي تعج بالأنصار الفهريين، وفئات أخرى من الحزب القيسي. ويبدو أنه حاول أن يستغل الظروف السياسية التي بدأت مع خلافة أبي جعفر المنصور في المشرق، واهتمام الخليفة بأمور الأندلس. واشترك معه في الثورة، التي بدأت في عام (١٤٤هـ/ ٧٦١م)، حيوة بن الوليد التجيبي وهشام بن حمزة بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب الذي يُعرف بالعمري[2].

كان عبد الرحمن الداخل على استعداد دائم للتصدي لخصومه، واحتل عامل المفاجأة المقام الأول في سياسته العسكرية. فما كادت أخبار طليطلة تتناهى إلى أسماعه حتى كان يشقُّ طريقه إليها ويأخذ هشام بن عروة على حين غرَّة، فلا يجد غير الاستسلام سبيلاً للخلاص، فاشترط عليه أن يقدم ابنه أفلح رهينة تكفل هدوءه، فوافق على ذلك، عندئذٍ رفع عبد الرحمن الداخل الحصار عن طليطلة وعاد إلى قرطبة حيث الأجواء تُنذر بشيءٍ ما تعدُّه الخلافة العباسية[3].

ويبدو أن هشاماً بن عروة لم يقنع بالمغامرة الفاشلة التي أُجهضت في طليطلة ودفع ثمنها ارتهان ابنه، فارتكب، بعد عودة عبد الرحمن الداخل إلى قرطبة، خطأ يوسف الفهري، حيث عاد إلى عصيانه من دون أن يأبه لهذه التجربة القاسية. وبالسرعة نفسها عاد الداخل إلى طليطلة وحاصرها وضربها بالمنجنيق، وأعدم الابن الرهينة وقذف برأسه إلى داخل المدينة، ولكن هذا العمل، على الرغم من قساوته وشدَّة وقعه في النفوس، لم يُجدِ نفعاً.

وصمدت المدينة في وجه الحصار على الرغم من الضرب الكثيف. ويبدو أن الأمير الأموي لم يكن مستعداً للاستمرار، مدة طويلة، في الحصار، بفعل قلقه من التحركات العباسية، حيث دفع العباسيون العلاء بن مغيث اليحصبي إلى الثورة، فرفع الحصار عنها غير أنه استمر في إرسال البعوث إليها، كان آخرها بعثاً بقيادة مولاه بدر وقائده تمام بن علقمة في عام (١٤٧هـ/ ٧٦٤م) اللذين نجحا في دخولها

---

(١) عند ابن الأثير هشام بن عذرة الفهري: جـ ٥ ص ١٠٨.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه. أخبار مجموعة: ص ١٠١.

(٣) المصدران نفساهما.

بعد حصار، وتخلّى السكان عن زعماء الثورة الثلاثة وسلموهم إلى بدر، فعاد بهم إلى قرطبة حيث قُتلوا، وانتهت هذه الثورة بالفشل[1].

ثورة العلاء بن مغيث اليحصبي

تحديد أطر العلاقة المبكرة بين الإمارة الأموية والخلافة العباسية: أحجم العباسيون، بعد تأسيس دولتهم في المشرق، عن القيام بمحاولات جدِّية لفرض سيطرتهم على الأندلس على الرغم من أنهم عدّوا سيادتهم على كل أراضي الدولة الإسلامية حقاً يجب ألّا يُنازعوا فيه، من هنا نظروا إلى عبد الرحمن الداخل على أنه ثائر ومتمرد يجب إخضاعه. ويبدو أن سبب هذا الإحجام يعود إلى:

- بُعد الأندلس عن مركز دولتهم. فالأمويون فيها يتمتعون بحصانة البُعد الجغرافي عن مركز الخلافة التي ابتعدت بدورها إلى الشرق.
- رأى العباسيون أن الأندلس ثغر مواجه للعدو، لذلك فإن سكانها في جهاد دائم، فلم يشاؤوا تغيير وضعها.
- إن محاولة السيطرة على الأندلس مكلفة مادياً وبشرياً.
- اعتقد العباسيون أنهم في غنى عن الأندلس، في بداية حياتهم السياسية على الأقل.
- انهماك العباسيين بتنظيم الإرث الأموي الذي آل إليهم، والقضاء على الثورات التي قامت ضدهم.

جاء عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس وأسَّس الإمارة الأموية وهومطمئن إلى أن العباسيين في شغل عنها. تُعدُّ هذه الخطوة الانفصالية ضربة كبيرة أصابت الدولة العباسية الناشئة، ونظر بنو العباس بعد ذلك بعين الريب والجزع إلى قيام هذه الإمارة، وخشوا أن تشكل خطراً على ممتلكاتهم الغربية.

والواقع أن الأندلسيين تميزوا بوضعهم السياسي الخاص بفعل عدم وصول الدعوة العباسية إليهم، كما لم يتعرضوا للمضايقة التي تعرَّض لها الموالي في بلاد الشام خلال حكم الأمويين، يضاف إلى ذلك، فإن غالبية عرب الأندلس يدينون للأمويين ببقائهم في هذا البلد النائي عن قلب العالم الإسلامي.

اتبع عبد الرحمن الداخل، بعد اعتلائه سدة الحكم في الأندلس، سياسة حكيمة

---

(١) ابن الاثير: جـ ٥ ص ١٠٨، ١٥٣. أخبار مجموعة: ص ١٠١، ١٠٣، ١٠٤.

تجاه الدولة العباسية، صاحبة السيادة الروحية على العالم الإسلامي بوصفها الخلافة الشرعية، فلم يُعلن، في بداية حياته السياسية، الانفصال عنها لكي لا يثير الشعور العام على الرغم من كرهه الشديد للعباسيين، فدعا للخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، ولكن لمدة قصيرة لم تتجاوز عشرة أشهر، حيث قطع الدعاء للعباسيين وأعلن انفصال الأندلس عن الدولة العباسية، واستقلالها بأمورها[1]، وأضحى اسمه، ومن جاء بعده من بنيه يُذكر فوق منابر الأندلس، ومع ذلك فلم يتسمَّ أحد من الأمراء الأمويين الأوائل، أي طيلة عهد الإمارة، بأمير المؤمنين أو بخليفة المسلمين، واكتفوا بلقب الأمراء أو أبناء الخلائف وذلك لسببين:

الأول: شعورهم بأن الخلافة لا تتجزأ، ولا يجوز لأمير أن يتلقَّب بألقاب الخلافة إذا لم يكن حامي الحرمين الشريفين، بمعنى أنه يسيطر على مكة والمدينة في الحجاز، وكانت هذه السيطرة آنذاك للخليفة العباسي.

الثاني: تأدُّباً واحتراماً منهم لمنصب الخلافة.

لذلك حافظوا على دولة الإسلام بخلافة واحدة وخليفة واحد، وقنعوا، هم، بالإمارة.

وبعد استقرار الوضع السياسي للعباسيين، فكَّر خلفاؤهم الأوائل في استعادة الأندلس وضرورة إلحاقها بالدولة العباسية، ولكن عملهم هذا جاء متأخراً، فقد قامت في هذه البلاد دولة أموية فتية وقفت بقوة في وجههم، ومنعتهم من تحقيق هدفهم، عندئذٍ لم يكن أمامهم سوى مضايقة الأمراء الأمويين عن طريق مساعدة الثائرين والخارجين على حكمهم، لعل أحدهم يستطيع أن يقوم بعملٍ جادٍ للقضاء على الإمارة الأموية، فتعود الأندلس ولاية تابعة للخلافة العباسية[2].

القضاء على ثورة العلاء بن مغيث اليحصبي

بدا الخطر العباسي الحقيقي واضحاً على وضع الإمارة الأموية من واقع حركة العلاء بن مغيث اليحصبي، وهو من قبيلة جذام اليمنية، وكان قائداً لحامية باجُه في جنوب غربي الأندلس، وقد تحرك بطلب ودعم من الخليفة أبي جعفر المنصور الذي غصَّ بقيام تلك الدولة الأموية على الشواطىء الغربية للبحر الأبيض المتوسط، فأرسل إليه علم العباسيين الأسود وسجلاً بتعيينه والياً على الأندلس،

---

(١) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٧٩. ابن الأبّار: جـ ١ ص ٣٥. المقري: جـ ٤ ص ٥٠.

(٢) الدوري: ص ١٥٩، ١٦٠.

وأمره بالسيطرة عليها باسمه، وكان هذا إجراءً ضرورياً للعباسيين في تلك المرحلة من تاريخهم بعد أن أعلنت ولايات شمالي إفريقيا ولاءها لهم، ولو شكلياً، عبر حاكمها عبد الرحمن بن حبيب الفهري.

كانت مهمة العلاء دقيقة للغاية، وهي لا تختلف كثيراً، في إطارها السياسي، عن سياسة أبي جعفر المنصور بالتركيز على الأغلبية اليمنية الذين بدأوا بالتململ بعد أن خذلهم الداخل في تحقيق ما يريدون من السيادة، كما أن تحصُّنه في تلك المدينة البعيدة لا يثير شكوك أحد في تحركاته التآمرية لقلب النظام الأموي والجلوس على كرسي الإمارة باسم العباسيين. وكفلت له مسحة الشرعية هذه انضمام العرب الأندلسيين، من كافة الفئات، إليه، وتعاطف الفهريون معه، وهم الأكثر تضرراً من الحكم الأموي الجديد، كما انضم إليه غياث بن علقمة اللخمي، من شذونة.

وبعد مرور نحو عام من الاتصالات والتحضيرات، أعلن العلاء الثورة في عام (١٤٧هـ/ ٧٦٤م)، فرفع الأعلام العباسية السوداء وخطب لأبي جعفر المنصور في باجُه وما جاورها، واتَّهم الداخل بالخروج على سلطان الخلافة الإسلامية ومغتصباً للولاية، وذلك في محاولة للتشهير به ورميه بالكفر والخروج عن الدين، ثم استولى على إشبيلية وزحف إلى قرطبة لانتزاعها[١].

ارتاع عبد الرحمن الداخل الذي شعر بمدى الخطورة التي يمثلها تواجد مندوب مأجور للعباسيين على أرض الأندلس، وفضَّل أن يتصدى لزحفه خارج قرطبة، فخرج على رأس جيشه البالغ سبعمائة فارس باتجاه جموعه[٢].

تمثل النجاح الأولي للداخل حين استقطب غياث اللخمي وأخرجه من التحالف، غير أنه ما لبث أن تراجع، أمام قوة الثائرين، إلى قرمونة وتحصَّن بها[٢]، حيث حاصره العلاء مدة شهرين. وهنا تجلَّت موهبة الأمير ومقدرته في تحديد ساعة الحسم. فخرج من المدينة على رأس قواته بعد أن وضعهم في جو المعركة الصعبة واصطدم بالثائرين في عملية جريئة وخاطفة اخترق معها الحصار وانقضَّ على الجيش المحاصِر وقد ذُهل أفراده من هول المفاجأة وأُسقط في أيديهم، ففروا لا يلوون على شيء بعد أن تكبدوا سبعة آلاف قتيل، من بينهم العلاء الذي أدركته سيوف الأمويين بالقرب من إشبيلية وهو يحاول الفرار ومعه عدد كبير من أنصاره[٣].

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٥٢. (٢) أخبار مجموعة: ص ١٠٢، ١٠٣.

(٣) المصدر نفسه. ابن القوطية: ص ٩٢. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٥١، ٥٢. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٢٢.

وأقدم الداخل على عمل مستهجن كي يُثبت للعباسيين أنه الأقوى على الساحة الأندلسية، فأمر بقطع رأس العلاء بن مغيث ولفِّه في اللواء والسجل بعد أن صبَّره بالملح والكافور، ووضعه في سقط بعث به مع رجل من أهل قرطبة في طريقه إلى الحج، فوضعه أمام سرادق الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، الذي كان يحج في تلك السنة، فلما رآه ارتاع، وأدرك خطورة الأمير الأموي، وقال في تعجب مليء بالحسرة: «الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان» يعني عبد الرحمن، وسماه صقر بني أمية، أو صقر قريش[1].

ومهما يكن من أمر، فإن حادثة العلاء المأساوية أفهمت أبا جعفر المنصور أن أمير الأندلس هو طراز آخر من الرجال ليس من اليسر أخذه، وكانت كافية بالنسبة إليه أن يطوي مشروع الأندلس ويقنع بالمحاولة الأولى فلا يعود إلى تكرارها، ويظفر منه الحاكم الأموي باللقب الذي غلب عليه وهو «صقر قريش»، تقديراً لكفاءة خصمه وشجاعته النادرة[2].

ثورات يمنية متفرقة

تابع عبد الرحمن الداخل سياسة الشدة والعنف في مواجهة الثورات التي اندلعت ضده وبخاصة ثورات اليمنيين الذين انقلبوا عليه بعد القضاء على ثورة العلاء بن مغيث اليحصبي، فأخمد:

- ثورة أبي الصباح يحيى اليحصبي، زعيم اليمنيين في إشبيلية في عام (١٤٩هـ/ ٧٦٦م)، وقد قتله بعد أن استدرجه بالحيلة إلى قرطبة بالأمان[3].

- ثورة سعيد اليحصبي المعروف بالمطري، وقد خرج في ليلة في عام (١٤٩هـ/ ٧٦٦م) وسيطر على إشبيلية قبل مقتله[4].

- ثورة حيوة بن ملامس الحضرمي، الذي خرج في عام (١٥٦هـ/ ٧٧٣م) غضباً لتنكيل الداخل باليمنيين، وسانده عبد الغافر اليحصبي زعيم لبلة وعمرو بن طالوت حاكم باجُه وشكّل هذا الثالوث تحالفاً متيناً، وسيطروا على إشبيلية وإستجَّة وأكثر منطقة الغرب. واشتبك الداخل مع قوى التحالف في وادي قيس بمسبر خلف

---

(١) أخبار مجموعة: ص ١١٨. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٥٢. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٢٢.

(٢) بيضون: ص ١٩٨.

(٣) أخبار مجموعة: ص ١٠٥، ١٠٦. ابن الأثير: جـ ٥ ص ١٦٠. المقري: جـ ٤ ص ٢٩، ٣٠.

(٤) أخبار مجموعة: ص ١٠٥. ابن عذاري: جـ ٢ ص٥٣.

المدور وهزمهم، وقتل حيوة بن ملامس، وفرَّ عبد الغافر اليحصبي ولحق بالمشرق، ولم يُعلم مصير عمرو بن طالوت[1].

ثورة البربر بقيادة الفاطمي

اندلعت ثورة البربر في شنتبرية بقيادة شقيا أوسفين بن عبد الواحد المكناسي البربري الذي ادعى أنه من نسل الحسين بن علي، فعُرف بالفاطمي[2]، واستطاع من خلال اعتناق المذهب الشيعي أن يستغل الشعور الديني القوي في الثغرين الأوسط والأدنى، وتنظيم حركة سياسية دينية، وربما نسَّق مع الدعاة الفاطميين في شمالي إفريقيا. إنها أولى الثورات التي قامت في الأندلس ذات الارتباط العقائدي، ولعلها أول محاولة لإقامة دولة شيعية فيها، وامتدت طيلة ثمانية أعوام (١٥٢ـ ١٦٠هـ/ ٧٦٩ ـ ٧٧٧م) فهي بالتالي من أطول الحركات الثورية من حيث الامتداد الزمني.

سبَّبت هذه الثورة الكثير من المشكلات للإمارة الأموية الفتية بسبب انتشارها الواسع في أوساط البربر، كما أنها أثارت عدة تساؤلات بشأن إطارها الفكري، والحماس الذي أثارته وشخصية قائدها الذي تحيطه الروايات التاريخية بإطار من الشعوذة والمراوغة، وطبيعة علاقته بأتباعه.

كان على عبد الرحمن الداخل أن يواجه هذه الحركة، التي أدى انتشارها الواسع إلى حدوث خطر على حكمه، وتحدثنا الروايات التاريخية عن حملات كثيرة وجَّهتها حكومة قرطبة للقضاء عليها، لكن شقيا كان ينجح في كل مرة بالتخلص من خطرها متبعاً خطة ذكية قائمة على حرب العصابات بشن الهجمات الخاطفة ثم الاحتماء بكهوف الجبال[3].

لجأ عبد الرحمن الداخل، بعد فشله في القضاء على حركة شقيا بالقوة المسلحة، إلى استعمال الحيلة للإيقاع به وذلك من واقع وسيلتين:

الأولى: تفريق كلمة البربر وتمزيق وحدتهم. فعيَّن والياً منافساً لشقيا هو هلال بن عامر المديوني، وكان رأس البربر في شرقي الأندلس، وكلَّفه بالقضاء على خصمه[4]. وفعلاً أدى ذلك إلى انفضاض كثير من البربر عن شقيا والتفوا حول زعامة المديوني.

---

(١) أخبار مجموعة: ص ١٠٧، ١٠٨. ابن عذاري جـ ٢ ص ٥٥.

(٢) المصدران نفساهما: ص ١٠٥ـ ١٠٧. ص ٥٤. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٢٣.

(٣) المصادر نفسها: ص ١٠٥ـ ١٠٧. ص ٥٤ـ ٥٥. ص ١٢٣. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٢٢١.

(٤) ابن عذاري: المصدر نفسه ص ٥٤،٥٥.

الثانية: إبعاد أنصاره عنه بعقابهم بحيث «أنزل بكل من شايعه أو دخل في شيء من أمره، النكال، وهو يخرِّب ويحرق وينسف»، «ودوَّخ بلاد البربر وقتل منهم خلقاً كثيراً وأذلَّهم[1]».

كانت هذه الإجراءات كافية لإضعاف قوة شقيا الذي بدأ يفقد قاعدته الشعبية، واضطر إلى الانزواء في قرية العيون بشنتبرية حيث سيغتاله رفيقان له هما أبو معن داوود بن هلال وكنانة بن سعيد الأسود[2]، ولا يُستبعد أن يكون عبد الرحمن الداخل وراء حادثة الاغتيال، وبخاصة أنه كان سلاحه المفضَّل ضد الثائرين مستخدماً إغراءات مادية. وهكذا انتهت أخطر ثورة في تاريخ الأندلس حتى ذلك الحين.

ثورة الأعرابي والأنصاري ـ شارلمان يغزو الأندلس

لم تقف جهود عبد الرحمن الداخل عند مواجهة المشكلات الداخلية أو التي افتعلتها الخلافة العباسية، وإنما كان عليه أن يتصدَّى كذلك للمؤامرات التي اشترك فيها الفرنجة مع بعض أمراء المسلمين، وذلك أن السياسة الكارولنجية الخارجية اتجهت منذ عهد شارلمان بن ببين القصير، الذي تولى الحكم في عام (١٥٤هـ/ ٧٧١م)، إلى استغلال الفتن الداخلية في الأندلس لإضعاف الإمارة الأموية الناشئة تمهيداً للقضاء عليها واسترداد هذه البلاد. والمعروف أن الأسرة الكارولنجية أضحت، منذ عهد شارل مارتل، القوة الرئيسة في أوروبا التي حفظت القارة النصرانية من الفتح الإسلامي، فلا غرو أن يفكر بالقيام بهجوم معاكس ضد المسلمين لاسترداد الأندلس التي شكَّلت الطرف الجنوبي لمملكته الواسعة.

وأدرك شارلمان أنه لن يتمكَّن من القيام بحملة عسكرية مباشرة لتحقيق هدفه من دون مساعدة من حكام الطرف الشمالي المسلمين، بسبب صعوبة اجتياز الممرات الجبلية والمعاقل الأمامية الحصينة التي أقامها المسلمون على طول الحدود الفاصلة بين الأندلس وبلاد الفرنجة، لذلك انتهج سياسة التقرُّب من أولئك الحكام والتنسيق معهم، وتحريضهم على الثورة ضد الحكم الأموي.

وسنحت الفرصة لشارلمان لتنفيذ سياسته عندما اندلعت الثورة في الثغر الأعلى ضد حكم عبد الرحمن الداخل في عام (١٥٧هـ/ ٧٧٤م) والتي تزعمها سليمان بن

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٥٥. أخبار مجموعة: ص ١٠٧.

(٢) أخبار مجموعة: ص ١١١.

يقظان الكلبي المعروف بالأعرابي، بسرقسطة، وتحالف معه الحسين بن يحيى الأنصاري[1]، وقد خشيا من امتداد نفوذه إلى أملاكهما في الشمال.

كان الداخل آنذاك منهمكاً في محاربة الثائرين في جنوبي البلاد، فلم يستطع الذهاب لقمع ثورة الشمال، واكتفى بإرسال جيش بقيادة أحد رجاله الثقات، وهو ثعلبة بن عبيد الجذامي، لحصار سرقسطة وسحق الثورة وذلك في عام (١٥٨هـ/ ٧٧٥م)، فحلَّت به الهزيمة ووقع في الأسر[2].

اشتدَّ بأس الثائرين بعد هذا الانتصار وقويت شوكتهم، وأضحت منطقة الثغر الأعلى خارجة على طاعة الأمير الأموي. لكن الأعرابي لم يطمئن على مصيره على الرغم من انتصاره الذي عدَّه مؤقتاً، وشعر بأن الداخل سوف ينتقم منه عقب فراغه من القضاء على ثورة البربر، ولن يتركه من دون حساب، فقرَّر أن يطلب المساعدة من شارلمان ملك الفرنجة، كما اتصل بالخليفة العباسي المهدي للقيام بحملة لغزو الأندلس، فيقع الأمير الأموي بين شقي الرحى.

وهكذا بدأت الثورة تأخذ بُعداً سياسياً خطيراً حين قام الأعرابي بزيارة الدولة الكارولنجية واجتمع بشارلمان في بادربون[3] في مقاطعة وستفاليا الواقعة في شمالي غرب ألمانيا، وعرَض عليه التحالف وتعهد له بتسليمه المدن التي كانت تابعة للفرنجة مقابل مهاجمة الولايات الشمالية للأندلس، من دون أن يُقدِّر نتائج تعاونه مع أعداء الإسلام، وهو أمر مستغرب. ولا يوجد تفسير لهذا التوجه الخياني سوى اعتقاد الأعرابي والأنصاري بأن طموحهما يتعارض مع سياسة الداخل الذي قضى على كل ذي نفوذ وسلطان من زعماء المسلمين في الأندلس، وأن القوة الوحيدة التي تضمن استمرارهما في مواجهته هي قوة شارلمان المتحفز لاغتنام أية فرصة من أجل القيام بدور تاريخي[4].

رحَّب شارلمان بالمشروع الذي عُرِض عليه بفعل دافعين:

الأول: أوروبي ـ نصراني: فالحملة إذا تمَّت تُعدُّ أول حملة هجومية يقوم بها الفرنجة ضد المسلمين بعد سلسلة من الحملات التي قام بها هؤلاء في عمق أراضي الفرنجة، كما أنها سوف تكسبه نفوذاً أدبياً كبيراً في العالم النصراني، مما يُعزِّز

---

(١) أخبار مجموعة: ص ١١٢، ١١٣. المقري: جـ ٤ ص ٤١.

(٢) أخبار مجموعة: ص ١١٣.

(٣) بروفنسال: ص ١٢١. أرسلان: ص ١٢٠.

(٤) بيضون: ص ٢٠٩.

منافسته لامبراطور الدولة البيزنطية، ويُدعم جهوده السياسية في إعادة إحياء الامبراطورية الرومانية ثم السيطرة على أوروبا.

الثاني: كراهيته للإسلام والمسلمين: فقد راودته آمال وتطلُّعات لطردهم من الأندلس، لا سيما وأن سيادتهم في جنوبي فرنسا قد انهارت، وارتدُّوا إلى ما وراء جبال البرينيه، أو على الأقل حماية الحدود الجنوبية لمملكته من التهديد الإسلامي من واقع الاستيلاء على بعض المدن الأندلسية وتبنِّي سياسة الهجوم من أجل الدفاع.

كان شارلمان في موقف يكفل له التمادي في تلك السياسة بعد أن قضى على ثورة السكسون في مقاطعة وستفاليا، فاستعد استعداداً هائلاً وحشد في عام (١٦١هـ/ ٧٧٨م) جيشاً ضخماً ضمَّ مقاتلين من عناصر مختارة من كافة مقاطعات الدولة الكارولنجية، وبادر بالزحف إلى شمالي الأندلس، وقسَّم جيشه إلى قسمين لتحقيق انتشار واسع في المنطقة.

قاد **القسم الأول** دوق برنارد، وتوجَّه نحو الممرات الشرقية لجبال البرينيه ليعبر ممر باربينيان، والتزم في زحفه ساحل البحر متخذاً طريق جيرندة وبرشلونة. ولم يصادف أية مقاومة لأنه كان يسير في منطقة يسيطر عليها الفرنجة.

وقاد شارلمان **القسم الثاني**، وتوجَّه ليعبر من الناحية الغربية سالكاً ممر الرونسڤال أو باب الشيزرى.

وتقرَّر تحديد مدينة سرقسطة مكاناً للالتقاء وهي الهدف الأول للحملة.

اخترق شارلمان بلاد البشكنس متوجهاً إلى مدينة بنبلونة مفتاح ذلك الممر الهام وحصنه، واعتقد أن سكانها النصارى سوف يرحبون به، لكن خاب ظنه، فقد اعترضه هؤلاء الذين فُطروا على الحرية في بلادهم، فاضطر إلى محاصرتها واقتحامها، وعامل سكانها معاملة قاسية الأمر الذي أثار نفوسهم وجعلهم يحجمون عن التعاون معه. وتدل قرائن هذا الاحتلال وهذه المعاملة، أن هدف شارلمان هو سياسي وليس ديني لحماية النصرانية كما يدَّعي، وتابع الجيش زحفه باتجاه سرقسطة، وكان الأعرابي قد خرج من المدينة لاستقباله، فالتقى به في الطريق.

كان الاعتقاد السائد أن المدينة ستفتح أبوابها أمام الحليف القادم من وراء الجبال حسب الخطة الموضوعة، لكن سلسلة المفاجآت بدأت تكرُّ حلقاتها تباعاً منذ اقتراب العاهل الكارولنجي من أسوارها.

أما المفاجأة الأولى، فإنه عندما وصل إلى أسوار المدينة وجد أبوابها مغلقة في وجهه[١]. فقد انقلب الأنصاري على حليفه بعد أن أدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه، ورفض أن يمضي أكثر من ذلك في تنفيذ المؤامرة، أو أن الداخل استقطبه مقابل امتيازات مغرية، وربما طمع في الانفراد بحكم المدينة، ولعله شعر بأن استيلاء شارلمان على سرقسطة من شأنه أن يتيح له السيطرة على كامل الولايات الشمالية، وربما تعداها إلى قلب الأندلس الأمر الذي يشكل خطراً على مستقبله السياسي، ومن المؤكد أنه تشجَّع بالثورة التي أعلنها ولدا الأعرابي، مطروح وعيشون، ضد سياسة والدهما وانضمامها إلى القوات المدافعة عن المدينة.

ومهما يكن من أمر، فلم يكن أمام شارلمان سوى فرض حصار على المدينة واقتحامها، ودافع الأنصاري وأعوانه عنها باستماتة، مكبدين القوات الكارولنجية كثيراً من الخسائر.

أما المفاجأة الثانية، فقد تناهى إلى أسماع شارلمان، أثناء الحصار، أنباء عن تجدُّد ثورة السكسون ضده في منطقة الراين واقترابهم من كولون في ظل فراغ عسكري أحدثه غيابه مع غالبية القوى المسلحة، فاضطرب لذلك، وشعر في الوقت نفسه بأنه عاجز عن مواصلة الحصار لمدة أطول بفعل:

ـ وجوده وحيداً وسط شعب معادٍ له.

ـ ارتيابه في نوايا حليفه، وقد شكَّ في مواقفه وإخلاصه، فعدَّه كاذباً في الدعوة التي قدَّمها له، وألقى عليه مسؤولية الفشل.

ـ نفاد المؤن مع صعوبة تأمين متطلبات الجيش.

ـ اعتقاده بأن معركة الراين أوجب من الأندلس حيث تغيرت الحسابات في ظل امتناع المدينة، وأضحى الانسحاب ضرورة سياسية وعسكرية ملحة، فأمر جيشه بالعودة من حيث أتى[٢].

أما المفاجأة الثالثة، فقد حدثت أثناء عودة الجيش، حين توجَّه شارلمان وقواته شمالاً عائداً إلى بلاده مصطحباً معه عدداً من الأسرى كان من بينهم الأعرابي نفسه. وكان البشكنس يتتبعون أخبار حملته، ولما علموا بفشله قرروا التصدي له لدى انسحابه، كما أن المسلمين في سرقسطة قرَّروا مطاردته. وحتى يؤمِّن طريق عودته

(١) أخبار مجموعة: ص ١١٣.

(٢) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٢٣٦.

رأى أن يدمِّر بنبلونة حتى لا يتخذها البشكنس مركز انطلاق لمهاجمته من جهة، وبقاء ممر الرونسڤال مفتوحاً أمامه من جهة أخرى.

وغادر شارلمان بنبلونة، وأرغمت كثرة عدد أفراد جيشه، البالغ عشرة آلاف مقاتل نصفهم من الفرسان، وطبيعة الممر الجبلي، أن يسير الجيش بصفوف طويلة. وسار هو على رأس المقدمة وعيَّن صديقه هردولاند، الذي عُرف باسم رولان، والي إقليم بريتاني، قائداً للمؤخرة.

كان على الجيش أن يقطع الممر الجبلي البالغ طوله خمسة وثلاثون كيلومتراً، والذي تنتشر الغابات على جوانبه، بسرعة، ولكن شارلمان لم يتخذ إجراءات الحماية الضرورية للعبور السليم، وهذا ما يفعله العسكريون عادة، مرتكباً خطأً تكتيكياً سيكلفه غالياً، إذ عندما توغلت المقدمة في الممر كانت المؤخرة لا تزال عند طرفه وعندها حدثت المفاجأة الهائلة. فقد خرجت قوة إسلامية من سرقسطة بقيادة ابني الأعرابي لمطاردة القوات الكارولنجية المنسحبة وتخليص أسرى المسلمين، فانقض أفرادها على مؤخرة الجيش البالغ عدد أفرادها ألف مقاتل وإبادتها، وكانت تحمل الأسرى والمؤن والأمتعة والخزانة الملكية. ووجد الجنود الكارولنجيون أنفسهم في وضع حرج وقد حُشروا حشراً، فتعذَّر عليهم القيام بالحركات العسكرية الضرورية التي تجعلهم قادرين على مجابهة العدو بصفوف منتظمة ومتأهبة للقتال، حيث فقدوا حرية الحركة التي هي عنصر أساسي من عناصر الانتصار، فاستسلموا لسيوف المسلمين. وأنقذ المسلمون أسراهم واستولوا على الأمتعة والخزانة الملكية. وقتل في المعركة عدد من كبار قادة الجيش ورجال الدولة كان من بينهم إيكهارت، رئيس الخاصة الملكية، وأنسلم، رئيس البلاط، ورولان قائد المؤخرة. وزاد من حجم الكارثة دخول جماعات من البشكنس على خط القتال للانتقام من شارل لما أنزله ببلادهم وعاصمتهم من العبث والتخريب، وقد تمركزوا في الغابات المحيطة بالممر وتربصوا بالجنود الكارولنجيين. وتشير الخسائر الكبيرة التي تعَرَّض لها الجيش إلى تعاون الطرفين الإسلامي والبشكنسي.

وصُدم شارلمان عندما علم بتدمير مؤخرة جيشه، ولكنه لم يردَّ على تلك النكبة، ولعل مرد ذلك يعود إلى:

- عنصر المفاجأة الذي أذهله وشلَّ تفكيره وحركته.
- طبيعة الممر الجبلي الضيق، وقد حال دون تنفيذ عملية مطاردة.

ـ كان في عجلة من أمره للوصول إلى بلاده ليقمع ثورة السكسون التي أعطاها الأولية العسكرية.

غير أنه أدرك مما حدث أن الاتفاق الذي عقده مع بعض الثائرين لا يستند على أساس سليم وأن المهم بالنسبة إليه، في المستقبل، المحافظة على ممتلكاته من هجمات المسلمين المقبلة وليس مهاجمة الأراضي الإسلامية. والواضح أن هذه الكارثة وأوضاع الأندلس الداخلية أرغماه على تغيير سياسته تجاه المسلمين، وأضاعا شهرته العسكرية.

ظلَّت كارثة ممر الرونسفال حيَّة في أذهان الفرنجة وأعقابهم حتى بعثها الفرنسيون في القرن الحادي عشر الميلادي أثناء الحروب الصليبية ضد الشرق الإسلامي بتأليف أنشودة رولان المشهورة، وقد ظهرت على شكل ملحمة شعرية من أربعة آلاف بيت، وأناشيد وطنية لتمجيد رولان، لكن تخللها كثير من الخيال والمبالغة بيد أنها تتخذ مادتها من بعض وقائع المعركة وتُبقي على مكانها وبعض أشخاصها، وأصبحت أساساً للأدب الملحمي الفرنسي في العصور الوسطى(١).

عاد الأعرابي إلى سرقسطة، بعد أن أُطلق سراحه، ليواصل تعاونه مع الأنصاري في مقاومة عبد الرحمن الداخل، لكن هذا الأخير نجح في الإيقاع بينهما مستغلاً رغبة الأنصاري في التفرد بالحكم والزعامة في المدينة. وتنفيذاً لأوامره دبَّر الأنصاري مؤامرة للتخلص من الأعرابي وهيأ له من اغتاله في المسجد الجامع أثناء صلاة الجمعة في عام (١٦٤هـ/ ٧٨٠م) وفرَّ ابناه من المدينة وتفرقا في المناطق المجاورة وراحا يتحينان الفرص للتخلص من قاتل أبيهما، ونزل عيشون في ناربونة(٢).

ويبدو أن الأنصاري الذي استهواه حب الزعامة، ساءه أن يحكم تحت جناحي عبد الرحمن الداخل، فجدَّد ثورته. ومن جهته، قرر الأمير الأموي أن يقوم بعمل حاسم للقضاء عليه، بعد أن أثبت ـ الأنصاري ـ أنه لا يرعى العهود والمواثيق، ولا يزال مادة للاستغلال من قِبَل الفرنجة، فأرسل جيشاً إلى سرقسطة في عام (١٦٥هـ/ ٧٨١م) بقيادة غالب بن تمام بن علقمة، لكنه فشل في اقتحامها ووضع حد للثورة،

---

(١) انظر: Halphen: Vie de Charlemagne, de Eginardo PP. 30, 31. R.M. Pidal: La Chanson de Roland. Ca VI. P 171 - 215. Hodgkin: Charles the Great PP 141 - 152. Thompson: PP 254, 255.

(٢) أخبار مجموعة: ص ١١٣، ١١٤. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٢٣٦.

الأمر الذي دفع عبد الرحمن الداخل أن يخرج بنفسه في العام التالي لتأديب هذا الثائر. فحاصر المدينة واقتحمها، وقبض على الأنصاري وأعدمه[1].

الواضح أن القضاء على ثورة سرقسطة وسيطرة عبد الرحمن الداخل عليها، وهي التي اشتهرت بمناعتها وقدرتها على الصمود، يدل على ما آلت إليه جيوشه من قوة، وشكَّل انتصاره على جندها رمزاً لامتداد قوته إلى الأطراف الشمالية للأندلس، وإنذاراً للفرنجة بعدم تكرار غزوهم للبلاد.

وهكذا استردت دولة المسلمين في الأندلس هيبتها في غربي البحر الأبيض المتوسط بعد أن أضاعتها النزاعات الداخلية بين حكام الأندلس ومنافساتهم القاتلة على الحكم، وأضحى عبد الرحمن الداخل، رأس الدولة الإسلامية الجديدة، موضع إجلال شارلمان واحترامه. فساد الهدوء حدود الدولتين المتجاورتين لبعض الوقت. وجرت اتصالات بين العاهلين للتوصل إلى صلح يجنبهما الصدام. ويبدو أن الأول رأى من حسن السياسة أن يقيم علاقات ودية مع الثاني فدعاه إلى عقد معاهدة صداقة يأمن كل منهما جانب الآخر فيجنبا بلديهما ويلات الحروب. وتأكيداً لحسن نيته طلب الداخل من شارلمان أن يزوجه إحدى بناته، فأجابه شارلمان إلى السلم، ولم تقدم لنا المصادر سبباً لعدم إتمام المصاهرة، ولا صورة الاتفاق. ويبدو أن كبر سن الداخل والاختلاف الديني كانا حائلين دون إتمام المصاهرة. ولكن من المؤكد أن تلك الاتصالات أدَّت إلى خلق حالة من المهادنة بينهما سمحت لكل منهما أن يتفرَّغ لمعالجة مشكلاته الداخلية.

وعلى الرغم من ذلك، فقد عمد شارلمان إلى تنظيم مقاطعة إكويتانيا في الجنوب وجعلها إمارة مستقلة داخل مملكته لكي تقع عليها مسؤولية الدفاع عن البلاد ضد أية محاولة للغزو يقوم بها حكام الأندلس، وألحق بها أراضي شاسعة وعيَّن عليها ابنه لويس، فاصطحبه معه إلى روما في عام (١٦٥هـ/ ٧٨١م) وتوَّجه ملكاً عليها[2].

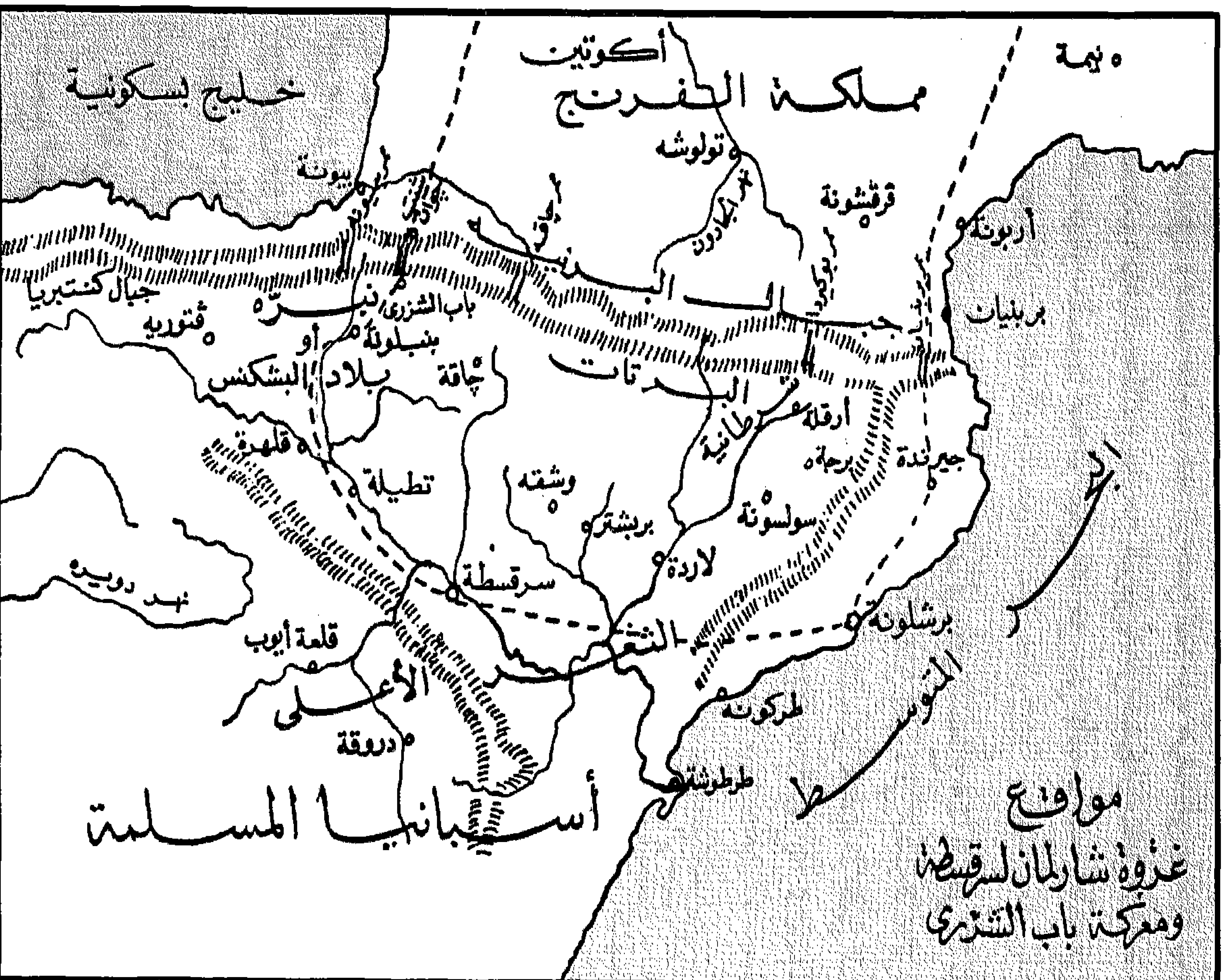
ثورات متفرقة: واجه عبد الرحمن الداخل ثورات أخرى في مختلف أنحاء البلاد، لم تكن على مستوى الثورات التي تحدثنا عنها، من حيث التأثير الخطر على أوضاع الإمارة، وقمعها بسهولة، نذكر منها:

- ثورة عبد الرحمن بن حبيب الفهري، المعروف بالصقلبي. والواقع أن هذا الثائر

---

(١) أخبار مجموعة: ص ١١٤. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٢٣٩.

(٢) ديفز: شارلمان ص ٢٩٨. Oman: p. 365.



عنّان: العصر الأول ـ القسم الأول، ص ١٧٩

الذي جاء من شمالي إفريقيا لم يكن غير دعي من الدعاة المنتحلين لدور ما، تحت ستار الخلافة العباسية، من أجل إعطاء حركته السياسية صبغة شرعية. فأعلن الثورة في تدمير في عام (١٦١هـ/ ٧٧٧، ٧٧٨م)، ورفع الرايات السوداء شعار العباسيين وخطب للمهدي. وعندما هاجمه عبد الرحمن الداخل، هرب إلى بلنسية ليحتمي بجبالها المنيعة، فاغتاله هناك رجل من البربر يُدعى مشكار مقابل مكافأة مالية مقدارها ألف دينار خصَّصها عبد الرحمن الداخل لمن يأتيه برأسه، وذلك في عام (١٦٢هـ/ ٧٧٩)[1].

- ثورة أبي الأسود محمد بن يوسف الفهري. فقد استطاع هذا الرجل أن يهرب من سجنه في قرطبة في عام (١٦٨هـ/ ٧٨٤م)، وأعلن الثورة في مدينة قسطلونة في شرقي الأندلس بين طرَّشة وبلنسية، ودعا إلى نفسه، فتصدّى له عبد الرحمن الداخل وهزمه، فلاذ بالفرار. وكانت نهايته في عام (١٧٠هـ/ ٧٨٦م) بغربة ركانة، إحدى قرى طليطلة[2].

- ثورة المغيرة بن الوليد بن معاوية بن هشام، لعزل عمه عبد الرحمن الداخل، واشترك معه هذيل بن الصميل بن حاتم. ولم يتورع الأمير الأموي عن قتلهما في عام (١٦٨هـ/ ٧٨٤م)[3].

وهكذا نرى أن عبد الرحمن الداخل اضطر أن يقضي معظم أوقاته في قمع الفتن والحركات الثورية التي قامت ضد حكمه في كل ناحية من نواحي الأندلس، ذلك أن أوضاع البلاد كانت مضطربة قبل وصوله إلى الحكم، واعتاد الزعماء والقادة على الفوضى، وضعف الحكومة المركزية، لذلك لم يكن بوسعهم أن يقبلوا، بسهولة، الخضوع التام للنظام الأموي الجديد. وحاول كل منهم أن يسيطر على إقليم بعينه ويستقل به، إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل أمام تصميم عبد الرحمن الداخل، وقوة إرادته، وشدَّة صبره، وهو الحريص على تأسيس دولة تشقُّ طريقها إلى البروز.

العلاقة مع مملكة أشتوريس

نجح ألفونسو الأول في فرض وجوده كقوة سياسية وعسكرية بعد أن أسَّس

---

(١) أخبار مجموعة: ص ١١٠، ١١١. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٥٦.

(٢) المصدران نفساهما: ص ١١٦. ص ٥٧. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٢٥٠، ٢٥١.

(٣) أخبار مجموعة: ص ١١٦. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٥٧.

مملكة للنصارى في أشتوريس، وتوسَّع على حساب المسلمين مقتطعاً نحو ربع ما كانوا يسيطرون عليه من مناطق في الشمال، حتى بلغت مملكته ضعف حجمها الأول منذ ثورة بلاي. وتوفي في عام (١٤٠هـ/ ٧٥٧م)، فخلفه عدد من الملوك لم يكن أي واحد منهم على المستوى نفسه من القدرة السياسية والعسكرية، هم فرويلة وأوريليو وألفونسو الثاني، الملقب بالعنيف، وموررياتو الذي توفي في عام (١٧٢هـ/ ٧٨٨م)، ودخلت المملكة في عهدهم في مرحلة جديدة تميزت بالاضطراب الداخلي بفعل نشوب الفتن والحركات الانفصالية والمطامع في السلطة، فانصرفوا إلى قمعها الأمر الذي أثَّر سلباً على علاقتهم بالمسلمين، فتراجعت سياسة الهجوم على المناطق الإسلامية، والتوسع على حساب المسلمين، واقتصرت على سياسة الدفاع، واضطروا في كثير من الأحيان إلى مسالمتهم وعقد الهدنة مع أميرهم عبد الرحمن الداخل الذي عاصرهم جميعاً.

اتسمت العلاقة بين الإمارة الأموية ومملكة أشتوريس بالعدائية بشكل عام. وكانت الحملات العسكرية ضد هذه المملكة تزداد كثافة كلما كانت الأوضاع الداخلية مستقرة وهادئة، وكذلك الحال بالنسبة للنصارى، فكانوا يكثفون حملاتهم العسكرية ضد الأراضي الإسلامية كلما شعروا بقوتهم وبضعف المسلمين.

والواقع أن عبد الرحمن الداخل انهمك خلال حياته السياسية بالقضاء على الثورات التي قامت ضد حكمه، وقد شغلت معظم وقته، وإذا كان قد نجح في تحقيق النصر على خصومه، فإن الثمن كان باهظاً، إذ انعكس سلباً على سياسته الخارجية سواء تجاه الدولة الكارولنجية أو تجاه مملكة أشتوريس الناشئة. وعلى الرغم من قلَّة الفرص التي أُتيحت له للاهتمام بهذه المملكة، فإنه تمكّن من إنهاء حال الجمود التي سار عليها ولاة الأندلس قبله، ولم يتوانَ عن مهاجمتها كلما سنحت له الفرصة إما للقضاء عليها، وهو الهدف الأسمى للمسلمين، أو لاسترداد ما انتزعه ألفونسو الأول من أراضيها لا سيما ألبة وجليقية. ولما كان الإقليم الأخير قد أضحى يشكل تهديداً مباشراً وخطيراً على الأندلس، فضلاً عن أهميته العسكرية، فقد قرَّر عبد الرحمن الداخل أن يبدأ به، وبخاصة أن سكانه كانوا يعارضون حكم فرويلة (١٤٠ـ ١٥١هـ/ ٧٥٧ ـ ٧٦٨م)، فأعدَّ حملة عسكرية لغزوه بقيادة عمر بن عبد الملك بن عمر بن مروان، لم تشر المصادر الإسلامية إليها وانفردت المصادر اللاتينية بذكرها[١].

(١) Primera Chronica General de Espana (Ed. Pidal tom II P. 338.

فوجىء فرويلة بهذا التقدم الإسلامي غير المتوقع، فنهض للتصدي للمسلمين ووقف زحفهم قبل أن يجتازوا جليقية إلى أشتوريس ويهدِّدوا عاصمته، واصطدم بهم عند نهر أوميا وتغلَّب عليهم وأسر القائد المسلم وقتله[1]. وهكذا باءت أولى محاولات الداخل بالفشل على الرغم من توغل قواته في عمق الأراضي الشمالية.

انصرف فرويلة بعد هذا الانتصار إلى الاهتمام بالناحية العمرانية، ولم يُقدَّر لعبد الرحمن الداخل أن يستغل هذه الفرصة ليثأر لهزيمة قواته، إذ تعرَّض لموجات من الثورات المتتالية، واقتصر نشاطه على اتخاذ بعض الإجراءات الدفاعية، فعمَّر منطقة الثغور، وأصلح أسوار القلاع، ودعَّم دفاعاتها لتكون قادرة على الدفاع عن البلاد، وكان يُشرف بنفسه على سير هذه الأعمال التحصينية[2].

ومن جهة أخرى، أدرك الأمير الأموي مدى صعوبة اختراق دفاعات منطقة حوض نهر دويرة بسبب خلوها من العمران، فضلاً عما أقامه فرويلة من تحصينات في ثغور جليقية، فحوَّل خط سير حملاته إلى الجبهة الشرقية في ألبة والقلاع، وهما إقليمان تسهل على القوات الإسلامية اختراقهما بأقل خسائر ممكنة بسبب قربهما من الثغرين الأوسط والأعلى في طليطلة وسرقسطة.

وتعدَّدت حملات عبد الرحمن الداخل ضد المملكة النصرانية في الشمال بقدر ما كانت تسمح له ظروفه الداخلية غير أنها كانت عديمة التأثير.

وسعى أوريليو (١٥١ـ ١٥٨هـ/ ٧٦٨ ـ ٧٧٤م)، الذي خلف فرويلة، إلى التفاهم مع عبد الرحمن الداخل وكسب صداقته لإحلال السلام بينهما، وذلك للتفرغ لمعالجة أوضاعه الداخلية المتفجرة بسبب ثورة الأقنان[3]، بالإضافة إلى أن حملة بدر ضد ألبة في عام (١٥٠هـ/ ٧٦٧م)، كانت ذات أثر كبير على طبيعة العلاقات التي سادت فيما بعد بين العاهلين، فقد أوقفت النشاط التوسعي لملوك أشتوريس[4].

وعندما اعتلى سيلو العرش في أشتوريس (١٥٨ـ ١٦٨هـ/ ٧٧٤ ـ ٧٨٤م) واجه ثورة سكان جليقية، وإذ خشي أن يستغل عبد الرحمن الداخل هذه الفرصة اضطر إلى تجديد معاهدة الصلح معه، فاستمرت العلاقات السلمية بينهما طوال عهده[5].

---

(١) La Chronica de Alfono. Ed, Villada PP. 71, 118.

(٢) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٥٠.

(٣) La Chronica de Alfonso III. p. 119.

(٤) Ibid: PP. 72, 119. La Chronicon Sebastiani: Ed. Florez P. 483.

(٥) Ibid.

وأُتيحت لعبد الرحمن الداخل في عام (١٦٨هـ/ ٧٨٤م) الفرصة لتجديد غزواته ضد النصارى في الشمال، وبخاصة أنه كان قد انتهى لتوه من تصفية المتآمرين عليه من أفراد أسرته للإطاحة به، وكان سيلو قد توفي واضطربت أوضاع مملكة أشتوريس نتيجة الصراع على السلطة بين ألفونسو الثاني بن فرويلة، الذي خلف سيلو لبضعة أيام، وبين عمه موريجاتو، الذي اغتصب العرش لنفسه؛ فأرسل والي طليطلة على رأس قوة عسكرية لمهاجمة أشتوريس بسبب قربها من الثغر الأوسط[1]، فاضطر موريجاتو إلى تجديد معاهدة الصلح مع عبد الرحمن الداخل ليتفرغ للصراع على العرش. ومن جهته قبل الأمير الأموي بإحلال السلام ليتفرغ هو الآخر لقمع ثورة أخرى للفهريين نشبت في عام (١٦٩هـ/ ٧٨٥م).

ولم يُذكر أنه قام بحملة أخرى ضد النصارى في الشمال بعد ذلك وحتى وفاته في (٢٣ ربيع الآخر ١٧٢هـ/ ٣٠ أيلول ٧٨٨م)، وهو العام الذي توفي فيه موريجاتو أيضاً[2]، وانتهى بوفاتهما مفعول معاهدة الصلح بين الدولتين التي استمرت ما يقرب من ربع قرن، لتبدأ مرحلة أخرى من الصراع الدامي.

---

(١) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٢٥١.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٧٧. الحميدي: ص ١٥. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٥٨.

المملكة الإسبانية النصرانية

- - - - حدودها عند نشوئها
.... « فى أواخر القرن الثامن
-.-.-.- « فى أوائل القرن التاسع

عنّان: العصر الأول - القسم الأول، ص ٢١٧

الفَصْلُ السَّادِسُ

هشام بن عبد الرحمن ـ الحكم بن هشام

هشام بن عبد الرحمن: هشام الأول، الرضا، (١٧٢ ـ ١٨٠هـ/٧٨٨ ـ ٧٩٦م)

تولي هشام الأول السلطة

توفي عبد الرحمن الداخل وقد تجاوز الرابعة والخمسين من عمره، بعد أن حكم ثلاثاً وثلاثين عاماً تقريباً تاركاً وراءه الفراغ التقليدي الذي يشغر عادة باختفاء الحاكم. وعلى الرغم من أنه نجح في التصدي لكافة المشكلات التي اعترضته، إلا أنه فشل في أن يجد حلاً جذرياً لمشكلة ولاية العهد، وتوفي بدون التوصل إلى قرار حاسم لها. والواضح أنه وقع في مأزق الاختيار والمفاضلة بين ولده الأكبر سليمان، الذي اصطحبه معه من الشام صغيراً لم يتجاوز الأربعة أعوام، وقد عيَّنه حاكماً على طليطلة، وبين ابنه الآخر هشام، الذي ولد في قرطبة في (١ شوّال ١٣٩هـ/ ٢٦ شباط ٧٥٧م) من أم ولد إسبانية تدعى حلل[١]، وتولى شؤون ماردة في حياة أبيه. ويبدو أن الداخل كان ميالاً إلى أن يخلفه ابنه هشام مخترقاً حاجز السن الذي كان في صالح سليمان، ربما بتأثيرات عائلية أو لأنه وجد في هشام التقى والورع والمقدرة والكفاءة على الاطلاع بشؤون الحكم. فقد كان يكلفه بالمهمات الصعبة، فيواجهها بثبات استحوذت على إعجابه به، كما ظهر تفوقه في الأدب والعلم، وتمتَّع بقبول الناس ورضاهم الأمر الذي جعله أهلاً للقب «الرضا» الذي أُلحق باسمه. أما سليمان فلم يزد كثيراً عن الجهل، وكان يظهر امتعاضه وازدراءه من ماضيه العربي وتاريخ أجداده.

وعندما رقد الداخل على فراش الموت دعا ابناً آخر له اسمه عبد الله، الذي سيُعرف فيما بعد بالبلنسي، وقال له: «من سبق إليك من أخويك، فارمِ إليه بالخاتم

---

(١) المقري: جـ ١ ص ٣٢٢. وعند ابن عذارى: اسمها جمال، جـ ٢ ص ٦١. وعند الحميدي: اسمها حوراء، ص ١٦.

والأمر، فإن سبق إليك هشام، فله فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه، وإن سبق إليك سليمان، فله فضل سنه ونجدته وحب الشاميين له»[(١)]. فلما توفي كان أول القادمين هو هشام فسلَّم إليه أخوه مقاليد الحكم بموجب وصية والده، وبايعه الخاصة والعامة يوم الأحد (١ جمادى الأولى ١٧٢هـ/ ٧ تشرين الأول ٧٨٨م)[(٢)].

الثورات الداخلية في عهد هشام الأول

ثورة أخويه سليمان وعبد الله

غضب سليمان من أخيه هشام الأول لاعتلائه السلطة متجاوزاً أحقيته بفعل أنه الأكبر سناً، ورأى أن حقَّه المغتصَب يجب أن يعود إليه، وكان آنذاك في طليطلة، فاعتصم بها وأعلن الثورة على حكم أخيه، وجهَّز جيشاً خرج به من المدينة باتجاه قرطبة للاستيلاء عليها[(٣)].

لم يتردَّد هشام الأول في التصدي لمحاولة أخيه الانقلابية، على الرغم من طبعه الهادىء وانفتاحه على السلام، والتقى به في منطقة جيان، وجرى بينهما قتال أسفر عن انتصاره، وتراجع سليمان إلى طليطلة في جو الهزيمة ليحتمي بها ويعيد تنظيم صفوف قواته استعداداً لجولة أخرى، فحاصره أخوه مدة بدون طائل، ثم فكَّ الحصار وعاد إلى قرطبة[(٤)].

جدَّد سليمان ثورته بعد بضعة أشهر، وانضم إليه أخوه عبد الله، فحاصرهما هشام الأول في طليطلة. وقام سليمان في غضون ذلك بحركة معاكسة، فترك أخاه منهمكاً في حصار المدينة وتسلل منها خفية، وأغذَّ السير إلى قرطبة للاستيلاء عليها في غياب أخيه عنها، وعهد إلى ابنه وأخيه عبد الله بالدفاع عن المدينة[(٥)].

ويبدو أن هشاماً الأول كان واثقاً من إخلاص سكان قرطبة له، فاستمر على حصار طليطلة وهو مطمئن، واكتفى بإرسال ابنه عبد الملك لاقتفاء أثر سليمان. ولما وصل هذا إلى ضاحيتها شقندة لقي مقاومة من جانب سكانها وحاميتها، فتركها وتوجَّه إلى ماردة للاستيلاء عليها واتخاذها قاعدة لتهديد قرطبة، غير أن عاملها ردَّه عنها، واضطر إلى الفرار إلى تدمير[(٦)].

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٦١.

(٢) المصدر نفسه: ص ٦١، ٦٢.

(٣) المصدر نفسه: ص ٦٢.

(٤) المصدر نفسه. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٢٤.

(٥) المصدران نفساهما. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٢٨٢.

(٦) المصادر نفسها.

مكث هشام الأول على حصار طليطلة مدة شهرين من دون أن يتمكَّن منها، ففك الحصار عنها وعاد إلى قرطبة[1].

ويبدو أن عبد الله أدرك أن معركته مع أخيه خاسرة، فجاءه مستأمناً في عام (١٧٤هـ/ ٧٩٠م) فأمَّنه هشام الأول. أما سليمان فقد ذهب إلى مرسية، فطارده أخوه، ففرَّ إلى بلنسية ليحتمي بجبالها، غير أنه استسلم هو الآخر بعد ذلك، فعفا عنه هشام الأول ونفاه مع أخيه عبد الله إلى شمالي إفريقيا، واستعاد مدينة طليطلة، وذلك في عام (١٧٥هـ/ ٧٩١م)[2].

ثورات متفرقة

لم تكن ثورة الأخوين الأمويين هي كل هموم هشام الأول، آنذاك، وإنما كانت الأحداث متفجِّرة في الشمال والجنوب أيضاً. والواقع أن الأعوام القلائل التي حكم خلالها الأمير الأموي اتسمت بالهدوء النسبي حيث لم يسجل المؤرخون سوى نشوب ثلاث ثورات علاوة على تمرد الأميرين الأمويين.

اندلعت الثورة الأولى في إقليم طلوشة في عام (١٧٢هـ/ ٧٨٩م)، وتزعَّمها سعيد بن الحسين الأنصاري انتقاماً لمقتل والده، ودعا عشيرته اليمنية إلى مساندته، فالتفَّ حوله خلق كثير منهم[3].

كانت أولى خطواته الثورية هي نجاحه في الاستيلاء على سرقسطة، قاعدة الثغر الأعلى، غير أن هذا النجاح لم يستمر طويلاً، فقد أرسل إليه هشام الأول جيشاً بقيادة أحد قادته المولَّدين وأحد زعماء الثغر، هو موسى بن فرتون، فاشتبك معه، وتمكَّن من دخول سرقسطة، وفرَّ سعيد منها وانقطعت أخباره، وفي رواية أنه قتله[4].

ونشبت الثورة الثانية في مدينة برشلونة، وتزعمها مطروح بن سليمان الأعرابي، فتوسَّع على الأرض حتى بسط سلطانه على الثغر الأعلى كله بعد أن استولى على وشقة وسرقسطة، وذلك في عام (١٧٣هـ/ ٧٨٩م)، فأرسل هشام الأول جيشاً بقيادة وزيره أبي عثمان عبيد الله، استعاد طلوشة وحاصر سرقسطة وضيَّق على سكانها، الذين ضاقوا ذرعاً، فتخلصوا من مطروح وأرسلوا رأسه إلى أبي عثمان في طلوشة،

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٦٢.

(٢) المصدر نفسه: ص ٦٣. ابن الأثير: جـ ٥ ص٢٨٢، ٢٨٣. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٢٤.

(٣) ابن عذاري: المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه، ابن الأثير: جـ ٥ ص ٢٨٣، ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٢٤.

فتحرك هذا باتجاه سرقسطة ودخلها من دون مقاومة، وأرسل رأس مطروح إلى هشام الأول في قرطبة، وذلك في عام (١٧٥هـ/ ٧٩١م)[١].

وقامت الثورة الثالثة في تاكرنا في عام (١٧٨هـ/ ٧٩٤م) في شمالي الجزيرة الخضراء، التابعة لإقليم رندة، وتزعمَّها أحد البربر. والراجح أن دوافع الثورة تكمن في التعصب المذهبي. فهذه المنطقة كانت موطناً للمذهب الخارجي، ويتحرك دعاته كلما شعروا بضعف السلطة المركزية في قرطبة أو انتشار تعاليم تتعارض مع مفهومهم الديني.

تصدَّى هشام الأول لهذه الثورة بسرعة وبقوة، فأرسل حملة عسكرية بقيادة عبد القادر بن أبان، هاجم معاقل الثائرين وانتصر عليهم، وفرَّ من نجا منهم إلى طلبيرة وترجيلة[٢].

العلاقة مع الامبراطورية الكارولنجية

استمرت العلاقات العدائية بين الإمارة الأموية والدولة الكارولنجية في عهد هشام الأول، وتوغل المسلمون في المناطق الشرقية لشمالي الأندلس بقيادة عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث في عام (١٧٧هـ/ ٧٩٣م)، فاخترقوا جبال البرينيه إلى إقليم سبتمانية واستولوا في طريقهم على مدينة جيرندة الخصبة الواقعة في أقصى شمال شرقي الأندلس، وكان الكارولنجيون قد انتزعوها من يد مطروح بن سليمان. وسقطت ناربونة في يدهم، وتقدموا باتجاه قرقشونة لأول مرة منذ هزيمتهم في معركة بلاط الشهداء.

كان لويس بن شارلمان آنذاك في إيطاليا، في حين كان والده منهمكاً بمحاربة السكسون في ألمانيا، لذلك كلَّف غيوم، دوق طلوشة، بالتصدي للمسلمين وإخراجهم من المناطق التي دخلوها، فاصطدم بهم عند نهر أوربيو بين ناربونة وقرقشونة. لم تكن المعركة حاسمة، لكن المسلمين ارتدوا على أعقابها باتجاه الجنوب متخلين عن المناطق التي دخلوها. وتشير المصادر الإسلامية إلى أنهم غنموا كثيراً بحيث قُدِّرت الغنائم بخمسة وأربعين ألفاً من الذهب[٣]، كما صُنِّفت الحملة في خانة الحملات الشهيرة وراء جبال البرينيه من واقع كمية الغنائم وكثرة

(١) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٢٨٩. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٦٣. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٢٤.

(٢) مؤرخ مجهول: ص ١٢١. ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٣٠٧. ابن عذاري: المصدر نفسه ص ٦٤.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٢٩٩. ابن عذاري: المصدر نفسه. المقري: جـ ١ ص ٣٢٥.

عدد الأسرى. وأمر هشام الأول هؤلاء بحمل الأحجار والتراب من ناربونة إلى قرطبة، وبنى منها جناحاً جديداً للمسجد الجامع، تخليداً لتلك الغزوة[١].

العلاقة مع مملكة أشتوريس

ساعد الهدوء النسبي في الأندلس هشاماً الأول على شن الحرب الجهادية طوال سني حكمه، ضد مملكة أشتوريس، لتحقيق ما لم يُتح لوالده تحقيقه ألا وهو كسر شوكة هذه المملكة النصرانية التي رأى فيها عدواً لا تجب مهادنته، فجرَّد عليها عدة حملات عسكرية متتالية أكَّدت ما أشارت إليه المصادر من رغبته القوية في الجهاد[٢]، وساعده في عمله الجهادي قادة محنَّكون على مستوى عالٍ من الكفاءة العسكرية، نذكر منهم، أبو عثمان عبيد الله، يوسف بن بُخت، عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث وشقيقه عبد الملك. والمعروف أن هشاماً الأول لم يترأس بنفسه أية حملة عسكرية، إذ لم يكن بطبعه رجلاً عسكرياً.

ومن جهة أخرى، قام بتعبئة شعبه وشجَّع القادرين على حمل السلاح بالانخراط في الحملات العسكرية ضارباً على الوتر الديني، ووعدهم بتأمين الأرزاق لعيال الذين يُستشهدون في ساحة القتال[٣]. ووضع خطة عسكرية قائمة على مهاجمة مملكة أشتوريس من جهتين متباعدتين، في الشرق والغرب، بهدف تشتيت قواتها وإضعاف قوتها.

ابتدأت العمليات العسكرية في عام (١٧٦هـ/ ٧٩٢م)، فأرسل الأمير حملتين لمهاجمة مملكة أشتوريس، قاد الأولى أبو عثمان عبيد الله ووجهته المناطق الشرقية، وهدفه تأديب سكانها على غاراتهم السابقة على الأطراف الإسلامية. فتوغل في أراضي ألبة والقلاع، واصطدم بجموع النصارى التي اعترضت تقدمه وهزمها، وتتبَّع الفارين في الجبال والأودية، وقتل منهم نحو تسعة آلاف، وفتح إقليم القلاع[٤].

وقاد الحملة الثانية يوسف بن بُخت، فهاجم إقليم جليقية واقتحمه من دون أن

---

(١) ابن الأثير: جـ ٥ ص٢٩٩. ابن عذارى: جـ ص ٦٤. المقري: جـ ١ ص ٣٢٥.

(٢) مؤرخ مجهول: ص ١٢٠، ١٢١. ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٣١١. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٢٤، ١٢٥.

(٣) أخبار مجموعة: ١٢٠.

(٤) مؤرخ مجهول: ص ١٢١. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٢٨٩. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٦٣، ٦٤. المقري: جـ ١ ص ٣٢٥. Chronica Albeldense. Ed. Florez: P. 451.

يلقى مقاومة تُذكر، وامتنع الملك برمودو الأول (١٧٢ـ ١٧٦هـ/ ٧٨٨ـ ٧٩٢م) عن التصدي له فوراً، وتركه يتوغل في عمق منطقة جليقية على أمل أن يقطع عليه طريق العودة وهو متعب ومثقل بالغنائم، وفعلاً كمن له في الطريق الممتد بين مدينتي أستورقة شرقاً في أشتوريس ولوغو غرباً في جليقية، وانقضَّ عليه عند شاطىء نهر بوربيا، غير أنه تعرَّض للهزيمة وتكبد زهاء عشرة آلاف قتيل سوى الذين سقطوا في الجبال الوعرة والأودية، وغنم المسلمون مقادير هائلة من الغنائم حتى بلغ الفيء تسعة وثلاثين ألفاً[١].

كان لهذين الانتصارين وقع أليم في نفوس سكان أشتوريس بعامة وفي نفس برمودو الأول بخاصة، الذي أدرك أنه عاجز عن الاستمرار في تحمُّل تبعات الحكم، وأن بقاء مملكته مرهون بقدرتها على الدفاع عن نفسها ضد خصم بإمكانه أن يشكل خطراً عليها في كل يوم، وهو ما يتطلب وجود رجال لديهم الكفاءة والخبرة في الشؤون العسكرية، وهي صفات لا تتوفر فيه، لذلك تخلّى عن الحكم لصالح ألفونسو بن فرويلة الذي توسَّم فيه تلك الصفات[٢].

وما كاد ألفونسو الثاني يعتلي العرش حتى بادر بإثارة الاضطرابات في إقليمي ألبة والقلاع وتحريض سكانهما على خلع طاعة المسلمين تمهيداً لاستعادتهما، وكان تحركه هذا من واقع دافعين:

الأول: «إستراتيجي»، فالإقليمان يشكلان المجال الحيوي لمملكته من ناحية الشرق، وأن بقاءهما في أيدي المسلمين يهدِّد أمن بلاده.

الثاني: أُسَري، إذ إن إقليم ألبة هو مسقط رأس والدته.

دفعت هذه السياسة التحريضية هشاماً الأول إلى التحرك السريع، فأرسل حملة تأديبية إلى الإقليمين المذكورين، في عام (١٧٦هـ/ ٧٩٢م) بقيادة عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث، لمنع ألفونسو الثاني من التدخل في شؤونهما، اقتحم أفرادها المنطقة وأثخنوا في نواحيها وعادوا إلى قرطبة[٣]. غير أن عبد الملك لم يُحقِّق كامل أهدافه لأن ألفونسو الثاني استمر في التدخل بشؤونهما الأمر الذي دفع هشاماً الأول

---

(١) مؤرخ مجهول: ص ١٢١. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٢٨٩. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٦٣، ٦٤. المقري: جـ ١ ص ٣٢٥. Chronica Albeldense. Ed. Florez: P. 451.

(٢) Cabal, C: Afonso III el casto: P. 201. La Chronica Alfonso III. Ed. Villada P. 121.

(٣) المقري: جـ ١ ص ٣٢٥، ٣٢٦.

إلى إرسال حملتين في عام (١٧٨هـ/ ٧٩٤م)، قاد الأولى عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث وهدفه ألبة والقلاع، وقاد الثانية شقيقه عبد الملك وهدفه العاصمة أوبييدو[١].

لا تتوفر معلومات كافية حول إنجازات الحملة الأولى، في حين أسهبت المصادر في ذكر ما حقَّقته الحملة الثانية. والواقع أن مهمة الحملة الأولى اقتصرت على قتال سكان ألبة والقلاع لمنعهم من عرقلة زحف الحملة الثانية.

ومهما يكن من أمر فقد عبر عبد الملك ممر ميسا، وهو الممر الوحيد الذي يمتد وراءه طريق روماني يصل إلى مدينة جرادو ومنها إلى أوبييدو[٢]، وتوغل في عمق أراضي أشتوريس ونجح في الوصول إلى العاصمة الأشتوريسية واقتحمها على الرغم من هجمات الأشتوريسيين المضادة، والتي ربما كانت عنيفة ومتلاحقة، لا سيما في مدينة أستورقة التي تحمي الإقليم من ناحية الجنوب[٣].

لكن الكارثة كانت بانتظار الجيش الإسلامي في طريق العودة. وتشير المصادر الإسلامية إلى أن الدليل ضلَّ الطريق، فهام أفراد الجيش على وجوههم على غير هدى لجهلهم بمسالك المنطقة وطرقها، فنفقت دوابهم، وتلفت آلاتهم، ومات منهم خلق كثير، ولم يتمكَّن من العودة إلى الأندلس منهم، إلا من كُتبت له النجاة[٤].

وتشير المصادر الإسبانية إلى أن ألفونسو الثاني كمن للمسلمين في طريق عودتهم عند لوتوس إلى الجنوب الغربي من جرادو، بين نهري بيونيا وبيجا، وفاجأهم في مكان ضيق، وانقضَّ عليهم وقتل منهم أعداداً كبيرة تبلغ الستين أو السبعين ألف قتيل، كان من بينهم قائد الحملة[٥]. والواقع أن تلك المصادر بالغت في حجم الخسائر، كما أن عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث لم يُقتل بدليل أنه سوف يتولى قيادة حملات أخرى في المستقبل.

ومهما يكن من أمر، فقد أضاعت هذه الكارثة ثمرات النصر الذي حقَّقه المسلمون، وأعطت ألفونسو الثاني الثقة بالنفس، مدركاً في الوقت نفسه أن الصراع مع المسلمين في الأندلس سوف يستمر وبشكل أعنف، لأن هؤلاء لا بد أن يثأروا لهذه الهزيمة، لذلك اتخذ التدابير الدفاعية، نذكر منها:

---

(١) رمضان: ص ٣٩٨، ٣٩٩.

(٢) مؤرخ مجهول: ص ١٢٢. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٣٠٧.

(٣) المصدران نفساهما.

(٤) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٣٠٧.

(٥) Chronicon Sebastiani. Ed. Florez P. 484. La Chronica Alfonso III. PP. 74, 121.

ـ تحصين المناطق الحدودية.

ـ حماية الممرات الجبلية المؤدية إلى قلب مملكته.

ـ التحالف مع جيرانه البشكنس، وربما فكَّر بالاستعانة بالكارولنجيين[١].

لم تكد أنباء هذه التدابير تصل إلى أسماع هشام الأول في قرطبة حتى جهَّز جيشاً كبيراً بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث للانتقام لهزيمة لوتوس، فخرج من قرطبة في (أوائل ١٧٩هـ/ربيع ٧٩٥م)[٢] قاصداً مملكة أشتوريس، وسلك الطريق نفسه الذي سلكته الحملة الأولى، فوصل إلى مدينة أستورقة، وهناك جاءته الأنباء عن حشْد ألفونسو الثاني جموعاً ضخمة للتصدي له، وهو يعسكر بين جوز جليقية والصخرة في المنطقة الحدودية الممتدة بين أستورقة جنوباً وما يليها شمالاً إلى جبال كنتبرية، وهي التي تخترقها الممرات المؤدية إلى داخل أشتوريس، وأذن لسكان السهل بالتفرق في شواهق جبال السواحل للاحتماء بها[٣].

تقدم القائد المسلم متمهلاً نحو الحشود النصرانية لضربها، فأرسل أحد قادته، ويُدعى فرج بن كنانة، طليعة على رأس أربعة آلاف فارس، اصطدم بتلك الحشود وهزمها. لم يصمد ألفونسو الثاني على إثر هذه الكارثة، وفرَّ مع من نجا من قواته إلى داخل أراضي مملكته، فطارده المسلمون حتى عاصمته أوبييدو واقتحموها، ففرَّ منها إلى قمم جبال أوروبا المجاورة لها من الشرق تاركاً جميع ذخائره وأسرته في المدينة، فغنمها المسلمون. واكتفى عبد الكريم بهذه الانتصارات وعاد إلى قرطبة، ويبدو أن وعورة المسالك وخشيته من أخطارها أقنعته بعدم جدوى متابعة المطاردة[٤].

وهكذا انتقم هشام الأول من ألفونسو الثاني من دون أن يقضي عليه أو يستقر في أراضي دولته، ولم يبق أمامه سوى حلفائه البشكنس في إقليمي ألبة والقلاع فضلاً عن الكارولنجيين الفرنجة، لذلك عقد العزم على التصدي لهؤلاء جميعاً في ربيع العام التالي، لكن الموت عاجله من دون أن يتم مشروعه، وذلك في (صفر ١٨٠هـ/ نيسان ٧٩٦م)[٥]، وكان قد عهد بولاية العهد لابنه الحكم من بعده.

---

(١) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٣٠٩.

(٢) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٦٤.

(٣) رمضان: ص ٤٠٤، ٤٠٥.

(٤) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٦٤، ٦٥.

(٥) المصدر نفسه. الحميدي: ص ١٦.

تمهيد: ارتقى الحكم الأول بن هشام عرش قرطبة بعد وفاة والده وعمره ستة وعشرون عاماً[١]، ولم يواجه أية مشكلة مع إخوته على الرغم من أنه لم يكن الابن الأكبر[٢]، لكن المشكلة الأسرية جاءت من جانب عميه عبد الله وسليمان اللذين ثارا عليه للاستيلاء على الحكم. بالإضافة إلى هذه المشكلة، واجه الحكم الأول ثلاث مشكلات كانت على شيء من الخطورة، وهي:

- كثرة الفتن والثورات الداخلية.
- اهتمامه بالغزو والجهاد، حتى فاق من سبقه من أمراء بني أمية.
- عدم اكتراثه برجال الدين والفقهاء، فغضبوا عليه وعارضوا حكمه.

كان الحكم الأول نموذجاً خاصاً وفريداً بين أمراء بني أمية، وهو من الشخصيات البارزة في التاريخ الأندلسي نظراً لما يميزها من هدوء وعزم وحزم مع حب للحياة ومباهجها. ففيه من صفات جده عبد الرحمن الداخل الكثير من الحزم والجدِّية والشجاعة، وحتى شيء من ملامح العنف، في حين لم يمنحه والده إلا القليل من صفاته مثل تتبع أعدائه وإذلالهم في كل أفق؛ الأمر الذي جعل المؤرخين يصفونه بصفات عديدة، كل حسب الزاوية التي ينظر إليه منها. فهو هائم وراء لذاته وشهواته، فاسق وخليع لاقتنائه عدداً كبيراً من الجواري، وتغزُّله فيهن، وهو طاغية نظراً لإسرافه في استعمال الشدة في قمع ثورة الربض، وهو من جهة أخرى يؤثر مجالسة الفقهاء والعلماء والشعراء[٣].

وعلى أي حال، فإن الحكم الأول كان أميراً عادلاً كريماً، تقياً، لكن ورعه كان أقل بكثير من ورع أبيه، وربما يكون تدينه أشد فتوراً من ورع جدِّه، لكنه كان دائماً حريصاً على الوفاء بالتزاماته الدينية كمسلم، وأعجب بتعاليم أنس بن مالك. وكان حازماً، حريصاً على منع أي تدخل في شؤون دولته وزعزعة حكمه وبخاصة من جانب الفقهاء. وعُرف عنه اندفاعه في إغاثة المظلوم. وتمتَّع بذوق اجتماعي رفيع انعكس على أجواء الترف في قصر الأمراء. وكان قصره المشرف على الوادي الكبير

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٦٨.
(٢) كان عبد الملك الابن الأكبر لهشام الأول.
(٣) أخبار مجموعة: ص ١٢٤، ١٢٥. الحميدي: ص ١٦. الضبي: ص ١٤. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٧٩. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٢٥. المقري: جـ ١ ص ٣٢٦، ٣٢٧.

يغرق بمظاهر البذخ. اهتم بتحسين الأوضاع العسكرية، مثل إعداد الجيوش ومتطلباتها المختلفة وقيامها بالغزو، وعُنِي بجلب استخدام المماليك، وكان يسميهم الحرس، وقد بلغ عددهم في جيوشه خمسة آلاف. وهو أول من جنَّد الأجناد في الأندلس واستكثر من الحواشي والحشم ورابطت الخيل على بابه مستنفرة وجاهزة للانطلاق في أية لحظة. ويُعدُّ من أفحل أمراء بني أمية في الأندلس، واستند في سياسته العامة على مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة». وكان عهده انعكاساً لشخصيته المسالمة الميالة إلى الحوار، حيث قُدِّر للأندلس أن تنعم في ظله ببعض مراحل الهدوء التي افتقدتها منذ زمن بعيد.

الثورات الداخلية في عهد الحكم الأول

ثورة عبد الله بن عبد الرحمن الداخل

على الرغم من السأم الذي يُسبِّبه الحديث المستمر عن حركات التمرد والثورات التي تحفل بها عهود الأمراء الأمويين، إلا أن من الواجب أن نلمَّ بأحداثها للأسباب التالية، لأنها:

- تحدِّد إطار سياسة الأمراء الداخلية.
- تُشغل القيمين على الحكم عن الاهتمام بالشؤون الخارجية.
- تُجبر الحكام، في كثير من الأحيان، على الإحجام عن الردِّ على الهجمات التي يشنها النصارى على الثغور الإسلامية في المناطق الحدودية.
- لا تسمح للحكام بالتقاط الأنفاس لكي ينظموا شؤون دولتهم.

تميَّز عهد الحكم الأول بكثرة الفتن والاضطرابات التي شغلت معظم سني حكمه، وابتدأت بالثورة التي قام بها عمه عبد الله الطامع بالإمارة، وقد عبر من المغرب إلى الأندلس بعد وفاة هشام الأول، واستقر في سرقسطة التي لم تكن دوماً إلى جانب الحكومة المركزية، وتعاون مع بهلول بن مرزوق، الثائر على حكم الأمير الجديد، لكنه لم يلقَ التأييد الشعبي الذي كان يأمله، الأمر الذي دفعه إلى التطلع إلى الخارج والاستعانة بقوة الكارولنجيين، فزار عاصمة الدولة الكارولنجية إكس لاشابل، واجتمع بالملك شارلمان وطلب منه المساعدة والدعم، فاستضافه مدة من الزمن، ولكن لم يذكر المؤرخون أية أنباء عن تدخل جديد لشارلمان في الأندلس، ومن المؤكد أنه لم يكن يرغب في خوض مغامرة

جديدة في هذا البلد بعد الضربة المؤلمة التي تلقاها في المرة الأولى أمام أسوار سرقسطة[١].

وهكذا غادر عبد الله العاصمة الكارولنجية خالي الوفاض عائداً إلى الثغر الأعلى، غير أنه لم يلقَ إلا الفشل الذريع، واضطر إلى التفاهم مع ابن أخيه الذي عفا عنه وعيَّنه حاكماً على بلنسية في عام (١٨٨هـ/ ٨٠٤م) وهو من أجل ذلك لُقِّب بالبلنسي[٢].

ثورة سليمان بن عبد الرحمن الداخل

عبر سليمان بن عبد الرحمن الداخل، الطامع هو الآخر بعرش قرطبة، البحر من طنجة إلى الأندلس بعد وفاة هشام الأول مع جماعة من البربر ودعا الناس إلى بيعته، فالتفَّ حوله عدد منهم، وزحف نحو قرطبة لقتال ابن أخيه، إلا أن الحكم الأول خرج من عاصمته للتصدي له، وجرت بينهما عدة معارك أسفرت عن القبض عليه في ماردة على يد الزعيم البربري، إصبغ بن وانسوس، الذي أرسله إلى الحكم الأول، فأمر بقتله[٣].

الثورة في طليطلة

يبدو أن الثورات الخطيرة التي أقلقت الحكم الأول وكادت تطيح بإمارته، هي تلك التي قام بها المولَّدون في طليطلة. وكان لسكانها من الدوافع ما يجعلهم دائماً يجنحون إلى رفض سيادة قرطبة والتحرر منها، لعل أهمها:

- موقع المدينة الطبيعي على هضبة عالية مطلة على نهر تاجُه، فغالباً ما تقف هذه حاجزاً بينها وبين قرطبة التي عانت من الولاء المخلص لها في هذه المدينة الطامحة دائماً إلى أداء دور يعيد إليها بعض أهميتها السابقة.
- بوصفها عاصمة دولة القوط البائدة ذات البريق السياسي.
- طبيعة سكانها الذين لم يكونوا بغالبيتهم من العرب، بل كانوا من المولَّدين، أي من الأسبان الذين اعتنقوا الإسلام واندمجوا في المجتمع الأندلسي بهدف التمتع بالمزايا التي يتمتع بها المسلمون، بالإضافة إلى المستعربين، وهم الإسبان الذين اندمجوا في المجتمع الأندلسي أيضاً لكن من دون أن يتخلوا عن ديانتهم النصرانية، وظلوا يعيشون بأمان في ظل الحكم الإسلامي من دون أن يكون ولاؤهم لذلك الحكم مضموناً.

---

(١) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٣٣٥، ٣٣٦.
(٢) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٧٠، ٧١، ٧٦.
(٣) المصدر نفسه: ص ٧٠.

ـ لقد فُطر سكانها على حب الاستقلال، بالإضافة إلى الأنفة والبطولة.
ـ ظلَّت طليطلة تستقطب نسبة كبيرة من النصارى الإسبان بفعل استمرار وجود الأسقفية الكاثوليكية فيها.
ـ ظلَّت طليطلة عاصمة القوط القديمة، مدينة الملوك بنظر المسلمين، وفاقت سواها من المدن في أهميتها السياسية والدينية.

إذن، كانت التركيبة الاجتماعية في طليطلة غير مستقرة وقابلة للانفجار. وبعد مضي عام على تولي الحكم الأول سدة الإمارة، أي في عام (١٨١هـ/ ٧٩٧م)، أعلن المولَّدون فيها الثورة على الحكم الأموي بزعامة عبيدة بن حميد، مستغلين النزاعات الأسرية في العاصمة. واجه الحكم الأول هذه الثورة برباطة جأش، فكلَّف حاكم وشقة الداهية، عمروس بن يوسف، وهو من المولَّدين بقمعها. وكان اختياراً ذكياً، لأن هذه الشخصية لم تكن موضع ارتياب عند مولَّدي طليطلة، فدسَّ على عبيدة بن حميد من قتله[1]. وعلى الرغم من ذلك، فقد ظلت عوامل الثورة كامنة في نفوس سكان طليطلة، ولم يُعلن هؤلاء ولاءهم للأمير الأموي، فكان على الحكم الأول أن يعالج الموقف بطريقة ما، فعيَّن عمروساً والياً على طليطلة وأمره بإخضاع سكانها، واتفق معه على خطة ذكية تكفل تطويعهم[2].

دخل عمروس المدينة، وتقرَّب من السكان مظهراً كراهية شديدة لبني أمية بخاصة وللعرب بعامة، فوثق به هؤلاء بحيث لم يعد هناك مجال للشك بنواياه الحسنة، فمنحوه كل ثقتهم وأسرارهم، وأضحى بنظرهم من رجال الثورة من دون أن يشعروا بما يُبيَّت لهم. وعلم منهم أن سبب تذمرهم وعداوتهم للحكم الأول وجود جنده داخل المدينة وسيطرتهم على منازلهم، فاقترح عليهم أن يبني قلعة خارج المدينة تكون سكناً له ولجنده فيتجنبوا بذلك شرهم. فتقبَّل هؤلاء الفكرة وألحُّوا عليه بوجوب تشييدها في وسط المدينة، وهذا ما كان يبغي إليه عمروس. فلما تمَّ تشييد البناء استقر فيه مع جنده، وأخبر الحكم الأول، الذي بادر باتخاذ الإجراءات الضرورية لحشد جيش لمهاجمة المدينة الثائرة وفقاً للخطة الموضوعة مسبقاً، وأرسله إلى المدينة بقيادة ابنه عبد الرحمن[3].

---

(١) ابن القوطية: ص ٩٩. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٣٢٠. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٦٩.
(٢) ابن القوطية: المصدر نفسه. النويري، شهاب الدين أحمد: نهاية الأرب في فنون الأدب جـ ٢٣ ص ٣٦٥ـ٢٦٧.
(٣) المصدران نفساهما: ص ٩٩، ١٠٠. ص ٣٦٦.

وانسجاماً مع سريَّة الخطة، أعلن عبد الرحمن أنه متوجِّه إلى الثغر الأعلى بناءً لطلب حاكمه، ولما تجاوز طليطلة توقف عن الزحف وأذاع بأنه تلقى خبراً من ذلك الحاكم أن الأزمة قد انتهت، ولا داعي لمتابعة المسير، وعاد أدراجه[1]. وما إن اقترب من المدينة حتى أقنع عمروس زعماءها بأن الواجب يقضي باستقبال ولي العهد داخل المدينة، فدخل عبد الرحمن مع جيشه إليها.

وأقام عمروس مأدبة عشاء في القلعة تكريماً لولي العهد دعا إليها زعماء المدينة، وأذن لهم بالدخول فرادىً منعاً للزحام وتسهيلاً للحركة، وقد رتَّب الأمور على أن يدخل المدعوون من باب ويخرجوا من باب آخر، وأمر أن تُحفر حفرة عميقة في الطريق التي سيسلكها هؤلاء بين البابين، ووضع السيافين على جانبيها، وحينما يصل الزائر ويدخل إلى القصر، من خلال ممر ضيق، ويصل إلى مكان الحفرة يتناوله السيافون ويضربون عنقه ويرمون جثته في الحفرة. واستمرت هذه المجزرة المروعة عدة ساعات، فكان عدد الذين قُتلوا سبعمائة، وسميت تلك الحادثة بوقعة الحفرة[2].

تُعدُّ هذه المجزرة ضربة شديدة للمدينة الثائرة، جرَّدتها من زعمائها وقضت، لعدة أعوام، على روح الثورة فيها، غير أن ميزة التمرد تمكَّنت من نفوس الطليطليين، وسيجدِّدون ثوراتهم في المستقبل.

الثورة في سرقسطة

اشتهرت سرقسطة بكثرة الثورات التي قامت فيها ضد الحكومة المركزية. وحدث في عام (١٨١هـ/ ٧٩٧م) أن نشبت الثورة في المدينة بزعامة بهلول بن مرزوق، ويُعرف بأبي الحجاج، فطرد عاملها واستولى على ما جاورها من أراضٍ، وأعلن استقلاله عن قرطبة[3].

تصدَّى لهذه الثورة قائدان من قادة الدولة الأموية بمبادرة شخصية على الأغلب، هما عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث وأخوه عبد الملك، وكانا يسعيان

---

(١) ابن القوطية: ص ٩٩، ١٠٠. النويري: ج ٢٣ ص ٣٦٦.

(٢) ابن القوطية: ص ١٠٠. يبالغ هذا المؤرخ حين يذكر أن عدد الذين قتلوا خمسة آلاف وثلاثمائة. ويذكر ابن الأثير رقمين: سبعمائة، وخمسة آلاف، وهو رقم مبالغ فيه أيضاً. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٣٢١، ٣٧٥، ٣٧٦، النويري: جـ ٢٣ ص ٣٦٧.

(٣) النويري: المصدر نفسه ص ٣٦١. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٦٩.

للاستقلال بهذه المنطقة، بفعل خصومة عابرة مع الحكم الأول، غير أنهما فشلا في النيل من بهلول[1].

وأرسل الحكم الأول من جهته حملة عسكرية نجحت في استعادة سرقسطة، وفرَّ بهلول إلى منطقة أراغون في الشمال، ولكنه ما لبث أن عاد إلى المدينة في عام (١٨٤هـ/ ٨٠٠م)، فسيطر عليها واستولى على وشقة، فقرَّر الحكم الأول عندئذٍ الاعتماد على عمروس بن يوسف، فأمره بالمسير من طليطلة إلى سرقسطة للقضاء على بهلول، ومنحه سلطات مطلقة. فتوجَّه هذا إلى الثغر الأعلى في عام (١٨٦هـ/ ٨٠٢م) واصطدم ببهلول وانتصر عليه وقتله، ثم دخل المدينة، وفرض العقوبات على المولَّدين في وشقة بفعل خروجهم المتكرر على طاعة الأمير الحكم[2].

وبنى عمروس في تلك السنة قلعة حصينة على ضفة نهر إبرو اليمنى، على الطريق الموصل بين سرقسطة وبنبلونة، بهدف خلق نقطة ارتكاز على تخوم أراغون وبسكونية، تحوَّلت، فيما بعد، إلى مدينة عامرة هي تطيلة، وعيَّن ابنه يوسف حاكماً عليها ووضع تحت إمرته حامية عسكرية[3].

وهكذا هدأت الأوضاع في الثغر الأعلى طيلة المدة التي عاشها عمروس، أي حتى عام (١٩٦هـ/ ٨١٢م).

وحدث، في الوقت الذي جدَّد فيه بهلول بن مرزوق ثورته، أن قام أفراد من أسرة بني قسي بعدد من حركات العصيان المتفرقة بزعامة فرتون بن موسى، فأخضعها عمروس بأمر من الحكم الأول[4]. وحتى يقضي على نفوذ هذه الأسرة في الثغر الأعلى، عيَّن عمروساً حاكماً عليه، الأمر الذي دفع زعماء هذه الأسرة إلى التحالف مع الفرنجة. وقامت قواتهما المتحالفة بمهاجمة مدينة تطيلة، فاستولت عليها وأسرت يوسف، فأرسل إليه والده جيشاً مكَّنه من هزيمة قوى التحالف واسترداد المدينة[5].

الثورة في ماردة

في الوقت الذي اندلعت فيه الفتن والثورات في الثغر الأعلى، نشبت في ماردة حركة عصيان ساهم فيها المستعربون وقادها الحليف القديم لقرطبة أصبغ بن

---

(١) بروفنسال: ص ١٣٨.
(٢) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٣٢٥، ٣٢٦.
(٣) الصوفي: ص ١٥٢.
(٤) ابن القوطية: ص ١٠٣.
(٥) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٣٦٠. النويري: جـ ٢٣ ص ٣٦١.

وانسوس، فسيطر على المدينة وطرد حاكمها. ويبدو أن الوشاة أوقعوا بينه وبين الحكم الأول ودفعوه للثورة(١).

وظلت ماردة خارجة على الحكم المركزي مدة سبعة أعوام، على الرغم من الحملات العسكرية المتتالية التي كان يرسلها الحكم الأول إليها، ولم تنتهِ إلا في عام (١٩٧هـ/ ٨١٣م) حين طلب سكانها الصلح(٢).

ثورة الربضيين

أسباب الثورة: الربض هو إحدى ضواحي قرطبة، يقع على الضفة اليسرى لنهر الوادي الكبير، ويمتد من ضفة النهر حتى بلدة شقندة المجاورة. ولما كان هذا الحي قريباً من مسجد قرطبة ومن قصر الإمارة ومن السوق الرئيسي، فقد سكنت فيه عناصر مختلفة من الفقهاء ورجال الدين والطلبة، الذين يدرسون في المسجد، والموظفين، الذين يعملون في القصر، وصغار التجار وأهل الحرف من المولَّدين والمستعربين؛ ليكونوا على مقربة من مراكز أعمالهم، الأمر الذي أدى إلى اختلاط الفقهاء ورجال الدين بسكانه، وقد وجدوا في هذا الخليط البشري مجالاً فسيحاً لممارسة نفوذهم، والضغط من خلاله على الحكم الأول المناوىء لهم.

ويمكن إجمال أسباب الثورة في العوامل التالية:

ـ محاولة الحكم الأول الانعتاق من هيمنة الفقهاء ورجال الدين على السياسة العامة على حساب الأمير الحاكم. والواضح أن الجانب الديني في بناء الدولة في الأندلس كان من المميزات الظاهرة لذلك البلد، ولم يُترَك الالتزام الديني لسلوك الحكام أو تقديرهم، وإنما أخذ شكلاً واقعياً في صورة فقهاء وعلماء يقفون إلى جانب الأمير ويشاركونه في الحكم، بحيث يبدو أمام الناس، على الأقل، أن هؤلاء يُشرفون على الجانب الديني من أعمال الدولة. وكان الأمراء الأمويون بأشد الحاجة إلى تأييدهم لإضفاء الشرعية على حكمهم كونهم خارجين على الخلافة العباسية، أي على الخلافة الإسلامية العامة، الأمر الذي يسمح لأي منافس للأسرة الأموية في الأندلس أن يحصل على تأييد تلك الخلافة، والمعروف أن المجتمع الإسلامي بعامة في القرن الثاني الهجري لم يكن يقبل

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٧٢.

(٢) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٣٧٦، ٣٧٧. ابن القوطية: ص ١٠١.

فكرة الولاء لإمارات خارجة عن إجماع المسلمين، ولهذا كان لا بد من البحث عن حل لهذه المشكلة الشرعية الأساسية، فاتجه عبد الرحمن الداخل وابنه هشام الأول إلى الفقهاء ورجال الدين من المالكيين، الذين بدأت أعدادهم في التزايد في مدن الأندلس المختلفة، وأخذوا يتمتعون بمكانة كبيرة منذ عهد هشام الأول، وراحوا يتدخلون في السياسة العامة للدولة على حساب الأمير. ولما كان الحكم الأول شاباً مرحاً مولعاً بالصيد وحفلات الغناء، ويفضل مجالسة الأدباء والشعراء، فقد فترت علاقته بالفقهاء والعلماء، فشعر هؤلاء بأنهم حُرموا من التفوق والجاه الذي تمتعوا به في أيام والده هشام الأول. والواقع أنه فاته طبيعة الشعب الأندلسي المتطلع إلى سلطان روحي كي ينقاد للحاكم السياسي، ثم إن المسألة لا تأخذ بُعدها الاجتماعي إلا في أعقاب التصادم الذي أخذ يتبلور بينه، وهو الرافض لوصاية رجال الدين، وبين هؤلاء الذين استبدَّ بهم القلق على نفوذهم المتراجع وزعامتهم المفقودة التي اكتسبوها في عهد هشام الأول، فلم يجدوا مخرجاً لذلك إلا بتحطيمه[١].

ـ ما رُوي عن الحكم الأول من معاقرة الخمرة وانهماكه في الملذات، «تظاهر بشرب الخمر والانهماك على اللذات، وكانت قرطبة، دار علم وبها فضلاء أهل علم وورع»[٢]. وعلى الرغم من أن غيره من الحكام لم يكن يمتنع عن مثل ذلك، إلا أن الفقهاء راحوا يبحثون عن أي سبب للاستناد عليه في مهاجمته ونشر الدعاية ضده بهدف إسقاطه، ولم يجدوا سوى الطعن بسلوكه الأخلاقي واتهامه بالمروق الديني، ورميه بالفسق الديني وقد لقَّبوه بالمخمور، ووصلت بهم الجرأة أن كانوا يتعرضون له في الطريق وينعتونه علناً[٣].

ـ القسوة التي كان يظهرها الحكم الأول في تصرفاته وفي أحكامه «وكان طاغية مسرفاً»، الأمر الذي جعل له عدداً كبيراً من الأعداء، وخشيه الناس، فانضم عدد منهم إلى دعاة الثورة من الفقهاء ورجال الدين[٤].

---

(١) الشعراوي، أحمد إبراهيم: هياج الربض، ثورة شعبية على الحكم الأموي الأندلسي، بحوث ندوة الأندلس. الدرس والتاريخ ص ٤٤، ٤٥.

(٢) المقري: جـ ١ ص ٣٢٧. النويري: جـ ٢٣ ص ٣٦٤، ٣٧٠.

(٣) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٤٦١.

(٤) المراكشي: المعجب ص ١٦. الصوفي: ص ١٣٥.

ـ لقد فرض الحكم الأول ضرائب جديدة، فوضع على السكان عُشر الأطعمة في كل سنة من غير حرص، فكرهوا ذلك[١].

ـ لقد أطلق الحكم الأول يد ربيع القومس، متولي المعاهدين بالأندلس من النصارى، في جباية الضرائب «افتراض المعادن والمغارم على المسلمين»[٢]، فاستنكر المسلمون أن يتولى جباية الضرائب منهم رجل نصراني.

ـ يُلاحظ أن أحد المؤرخين المسلمين لا يرى، أصلاً، ما يدعو للثورة، ويُنحي باللائمة على أولئك الذين حرَّضوا على قيامها ودبَّروا لها، فيقول: «كان أصل ذلك الهيج الأشر، بطر، إذ لم تكن ثمة ضرورة من إجحاف في مال أو انتهاك لحرمة ولا تعسف في مملكة، والحال تدل على صحة ذلك، فإنه لم يكن على الناس وظائف ولا مغارم ولا سخر ولا شيء يكون سبباً لخروجهم على السلطان، بل كان ذلك أشراً وبطراً، وملالاً للعافية، وطبعاً جافاً، وعقلاً غبياً، وسعياً في هلاك أنفسهم..»[٣].

المراحل التي سبقت الثورة

المرحلة الأولى: مرَّت المؤامرة التي سبقت الثورة بمرحلتين: الأولى: في الانقلاب الفاشل الذي دبَّره الفقهاء. والواقع أن عدداً من هؤلاء، من بينهم يحيى بن مضر القيسي، ومالك بن يزيد التجيبي وأبو كعب بن عبد البرِّ، بالإضافة إلى عدد من وجهاء قرطبة، مثل مصروم الخادم وصاحب السوق وغيرهما، راحوا يعقدون الاجتماعات السرية لتدبير انقلاب ضد الحكم الأول واختيار بديل له. فاتصلوا بمحمد بن القاسم، أحد أبناء عم الأمير، وأطلعوه على أمرهم، ودعوه للقيام معهم، واختاروه لرئاستهم، ووعدوه بأن يكون أميراً عليهم، فادَّعى هذا موافقته المبدئية على ما عُرض عليه، وطلب منهم إمهاله ليلة ليرى رأيه ويستخير الله. وراح يفكر في الأمر، ولكنه خشي العاقبة، وربما تصوَّر أن عوامل النجاح غير متوفرة، فذهب إلى الحكم الأول وأطلعه على المؤامرة التي تُدبَّر ضده، وأعلمه أنه على بيعته[٤].

وانتظر محمد بن القاسم حتى حضر القوم في اليوم التالي، وكان يوم الخميس، فخاطبهم باللين وطلب منهم أسماء رفاقهم الآخرين كي يطمئن قلبه، فذكروا له

---

(١) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٤٦١.
(٢) ابن الخطيب: إعلام ص ١٥.
(٣) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٧٦.
(٤) المصدر نفسه: ص ٧١. النويري: جـ ٢٣ ص ٣٦٤. بروفنسال: ص ١٤٢.

أسماء كل من كان مشتركاً معهم في الأمر، ووعدهم باللقاء يوم الجمعة في المسجد الجامع، ثم اتصل بالحكم الأول وأعلمه بالموعد. لكن الأمير لم يشأ أن ينتظر إلى اليوم التالي فقبض على معظم المتآمرين في الليلة نفسها وساقهم إلى السجن، ولم يتمكن من الفرار سوى عدد قليل منهم، ثم أمر بإعدامهم عند قصره على شاطىء النهر، وكانوا إثنين وسبعين رجلاً، من بينهم يحيى بن نصر اليحصبي، وهرب يحيى بن يحيى وطالوت بن عبد الجبار وعيسى بن دينار، وهم من أعلام المالكية، وكان ذلك في عام (١٨٩هـ/ ٨٠٥م)[١].

وهنا تنتهي المرحلة الأولى من مؤامرة الفقهاء ورجال الدين التي باءت بالفشل، وخرج الحكم الأول سالماً ولكن ليفتح معركة ضد خصومه.

المرحلة الثانية: كانت تلك الإجراءات القاسية كفيلة بإخماد الحركة لكن إلى حين، إذ إن الرجال الذين أُعدموا لم يكونوا كل المتآمرين والمتذمرين من حكم الأمير الأموي، كما أن نطاق الاستياء قد اتسع بانضمام أقرباء وعائلات القتلى إلى الحركة الثورية، بل إن أهل قرطبة. هالتهم إجراءات الحكم الأول الدموية، فساندوا الحركيين، وكان شعورهم، بعد هذه الأحداث، هو أن الحكم الأول فقد أهليته للحكم باعتراف الفقهاء، فاستغل هؤلاء هذا الشعور العام للمضي في مؤامرتهم التي لم تتوقف عند هذا الحد.

شعر الحكم الأول بضغط الرأي العام، فخشي على نفسه، وازداد حذره وفَقَدَ ثقته بسكان العاصمة بحيث شرع في تحصينها وترميم أسوارها، وحَفر الخنادق حولها، كما استكثر من المماليك الذين أقامهم على باب قصره، لا يفارقونه أبداً. وقد عبَّر أحد المؤرخين عن شعور كل من سكان قرطبة والحكم الأول آنذاك بقوله: «فأكثروا الخوض وأطالوا الهمهمة، ونزع رؤوسهم إلى السمر في مساجدهم بالليل مستخفين من السلطان مدبرين عليه، وقد كان خائفاً من ثورتهم مهتماً لدخلتهم، حذراً منهم مستعداً لهم، مرتقباً لوثبتهم، مرتبطاً الخيل على باب قصره نوباً بين غلمانه»[٢].

لقد ظهر الحكم الأول كحاكم صلب، سديد الرأي فيما اتخذه من تدابير دفاعية واحترازية. فقد عادت الفتنة إلى الظهور في عام (١٩٠هـ/ ٨٠٦م) حين خرج الحكم الأول غازياً إلى ماردة، فانتهز أهل قرطبة غيابه، فحملوا السلاح وهاجموا

(١) ابن القوطية: ص ١٠٢.

(٢) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٧١. المراكشي: ص ١٧. النويري: جـ ٢٣ ص ٣٧٠، ٣٧١.

قصر الإمارة ودور الحكومة في محاولة للاستيلاء على الحكم، فأسرع القائمون على الأمر في العاصمة إلى استدعائه على وجه السرعة لمواجهة الموقف الثوري المتجدِّد، فأسرع هذا بالعودة إلى عاصمته قاطعاً المسافة في ثلاثة أيام، وما إن دخلها حتى قبض على جماعة المتآمرين وأعدمهم[١].

ونتيجة لفشل هاتين المحاولتين، أدرك الناس أن نجاح حركتهم ليس بالأمر السهل، وأن عليهم أن يركنوا إلى الهدوء مدة من الزمن لالتقاط أنفاسهم والاستعداد المحكم للثورة التي أرادوها أن تكون عامة.

أحداث الثورة: كان من الطبيعي أن يؤدي التوتر الدائم بين الحكم الأول وشعبه إلى انفجار أطلق النفوس من عقالها، لأن سكان قرطبة لم يكونوا جماعة سهلة الانقياد، وكان أهل الربض أشدهم نقمة، بفعل تأثرهم الشديد بآراء رجال الدين، وقد نفر الحكم الأول منهم نفوراً شديداً حتى امتلأ صدره بالحقد عليهم، فوقع الانفجار الحاسم في (١٣ رمضان ٢٠٢هـ/ ١ آذار ٨١٨م)، أي بعد حوالي ثلاثة عشر عاماً من مجزرة الفقهاء، نتيجة حادث بسيط كان بمثابة الشرارة.

فقد ذهب أحد الجنود إلى حدّاد بحي الربض من المولَّدين ليصلح سيفه، فماطله الحداد بعض الوقت، ونشب نقاش حاد بين الرجلين، فما كان من الجندي إلا أن استلَّ سيفه وقتله. أثار هذا الحادث غضب سكان الحي المشبعة نفوسهم بالحقد والكراهية، فوثبوا على الجندي وقتلوه، وأغلقوا متاجرهم وتجمَّعوا للاحتجاج على هذا التصرف من جانب الجنود المرتزقة. واستغل الفقهاء هذا الحادث على طريقتهم، فدعوا سكان الربض للزحف إلى قرطبة والتخلص من الأمير[٢].

وهكذا، عبرت جموع الربضيين الجسر إلى قرطبة مسلحة بما وصل إلى أيديها من سيوف وخناجر وعصي وغيرها، وتوجهوا إلى قصر الإمارة وحاصروه في محاولة لاقتحامه وقتل صاحبه بوصفه المسؤول الأول عما حدث من تجاوزات، وكان في طليعتهم يحيى بن يحيى، القائد الفعلي للثورة، وفقيه آخر هو طالوت بن عبد الجبار المعافري[٣]. فصعد الحكم الأول على سطح القصر

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٧٢.

(٢) ابن سعيد الغرناطي الأندلسي، علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك: المغرب في حلى المغرب جـ ١ ص ١٥. النويري: جـ ٢٣ ص ٣٧١. بروڤنسال: ص ١٤٣.

(٣) ابن الخطيب: ص ١٥. المقري: جـ ١ ص ٣٢٧.

ليراقب ويقدِّر الموقف، وظل محتفظاً بهدوئه، إلا أنه شعر بالضغط الشعبي، ورسم خطة في ذهنه لا تقل إثارة عن مجزرة الحفرة في طليطلة، فأمر القائدين عبيد الله بن عبد الله البلنسي وإسحاق بن المنذر بالالتفاف حول الثائرين والذهاب إلى الربض وإشعال النار في منازله، وكلَّف فرقة أخرى من جيشه بمقاومة الثائرين.

اخترق القائدان الحاجز البشري ووصلا إلى الربض ونفَّذا المهمة بإتقان، فلم يشعر الربضيون إلا ومنازلهم تحترق، فاضطربت صفوفهم وعادوا مسرعين بدون نظام لإنقاذ ذويهم وأموالهم، فتتبَّعهم الجنود وأوقعوهم بين نارين، وأحاطوا بهم من كل جانب، وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وطاردوا الفارين في الأزقة والطرق، وقبضوا على ثلاثمائة منهم، فصلبهم الحكم الأول على ضفة نهر الوادي الكبير، صفاً واحداً من المرج إلى المسارة. وتمكَّن بعض الفقهاء من مدبري الفتنة من الفرار إلى طليطلة، مثل يحيى بن يحيى وطالوت بن عبد الجبار[1].

ولما انتهت المقاومة، أمر الحكم الأول بهدم حي الربض وحرْث أرضه وزراعتها، فلم يُعمَّر طيلة حكم بني أمية، كما أمر من نجا من الربضيين بمغادرة قرطبة[2]. وجعلت هذه الأعمال القاسية التي ارتكبها الحكم الأول بحي الربض، اسمه مقروناً باسم هذا الحي فسمِّي بالحكم الربضي[3].

نهاية الربضيين

كان التشريد مصير الربضيين، فانقسموا إلى ثلاثة أقسام: توجه القسم الأول، وهم قلَّة، إلى طليطلة، آملين أن يجدوا في هذه المدينة الصاخبة مكاناً لهم، وعبر القسمان الآخران المضيق مفضِّلين مغادرة البلاد خشية من ملاحقة الحكم الأول لهم، فيمَّم القسم الأول وجهه صوب المغرب الأقصى، واستقر أفراده في منطقة جبال الريف بين القبائل البربرية المقيمة هناك. وكان إدريس الثاني، حاكم دولة الأدارسة، يبحث آنذاك عن سكان لعاصمته فاس، فجاءت هجرة الربضيين لتخدم هدفه، فعرض عليهم الإقامة في هذه المدينة، وقدَّم لهم من التسهيلات ما أغراهم على القبول، فاستقروا فيها حاملين معهم مظاهر الحضارة الأندلسية الراقية، وبخاصة أن معظمهم كان يُجيد الصناعات والحرف اليدوية إلى جانب الزراعة، فطبعوا المدينة بطابع أندلسي، سواء

---

(١) ابن القوطية: ص ١٠٢. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٤٦١. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٧٦. المقري: جـ ١ ص ٣٢٧.

(٢) ابن الخطيب: ص ١٦. (٣) المراكشي: ص ١٦.

في صناعاتها أو في أبنيتها البيضاء ذات الحدائق الداخلية، ولهذا سُمِّيت «مدينة الأندلسيين»[١].

وواصل القسم الثاني، الذي بلغ عدد أفراده خمسة عشر ألفاً، الإبحار شرقاً حتى وصل أفراده إلى مصر، وكانت أوضاعها آنذاك مضطربة، إذ انتقلت إليها عدوى الخلافات التي كانت قائمة في المشرق بين الأمين والمأمون العباسيين، كما وُجد فريق ثالث راح يعمل على الاستقلال بمصر عن الخلافة العباسية. فانتهز الربضيون هذه الاضطرابات واستولوا على الإسكندرية بمساعدة أعراب البحيرة اللخميين، وأسسوا بها جمهورية أندلسية مستقلة عن الخلافة العباسية، استمرت مدة عشرة أعوام تقريباً، حتى انتزعها منهم عبد الله بن طاهر، عامل المأمون على مصر، في (صفر ٢١٢هـ/ أيار ٨٢٧م)، وأجلاهم عنها، فذهبوا إلى جزيرة كريت، التابعة للدولة البيزنطية، فاستولوا عليها واستقروا فيها، وكانوا بزعامة عمر بن عيسى، المعروف بأبي فحص، نسبة إلى فحص البلوط[٢].

حاول البيزنطيون استعادة الجزيرة لكنهم فشلوا في ذلك بفعل تدخل الفاطميين وإمدادهم الأندلسيين بالقوة اللازمة للصمود والدفاع لأنهم عدّوا هذه الجزيرة حصناً أمامياً لهم وجناحاً أيمنَ لجزيرة صقلية التابعة لهم.

ووجد الأندلسيون في هذه الجزيرة ما افتقدوه في الأندلس من تأسيس دويلة إسلامية، حكمتها أسرة أبي فحص مدة مائة وخمسة وثلاثين عاماً قبل أن يستعيدها البيزنطيون في عام (٣٥٠هـ/ ٩٦١) على يد القائد نقفور فوقاس. ويبدو أن من بين أسباب استعادتها انشغال الفاطميين بمشكلاتهم الداخلية، بالإضافة إلى أنهم أخذوا يستعدون لغزو مصر، فقلّت إمدادتهم لهذه الجزيرة الأمر الذي أدَّى إلى ضعف القوة المدافعة عنها، ثم سقوطها في النهاية، على الرغم من المساعدة التي قدمها عبد الرحمن الثالث الأندلسي[٣].

ويهمنا من هذه الثورة أمران:

الأول: إن دور الفقهاء فيها كان كبيراً، وظهر بصورة واضحة. فهم الذين مهَّدوا لها

---

(١) ابن القوطية: ص ١٠٢. ابن عذارى: : جـ ٢ ص ٧٧. المقري: جـ ١ ص ٣٢٧. بروفنسال: ص ١٤٥. الشعراوي: ص ٥٢، ٥٣.

(٢) ابن القوطية: ص ١٠٢. المقري: جـ ٤ ص ١٤٣. وفحص البلوط مجاور لمدينة قرطبة.

(٣) العريني: السيد الباز: الدولة البيزنطية ص ٤٣٣ـ ٤٤١. الشعراوي: ص ٥٣، ٥٤.

وحرَّضوا على قيامها، إلا أن شوكتهم قد كُسِرت بعد القضاء عليها، على الرغم من أن الحكم الأول سيعفو عنهم وسيقرِّبهم ويستشيرهم في أمور دولته.

الثاني: لقد هزت تلك الثورة كيان الحكم الأموي بشكل شديد، فبدت الأسس التي يقوم عليها ضعيفة، وقد شعر الحكم الأول بذلك. صحيح أنه قضى عليها وأخمدها، ولكن تبين له بوضوح أن حكمه لا يمكن أن يستمر على القوة العسكرية وحدها، وأنه بحاجة إلى تأييد رجال الدين ليستعيد أهليته للحكم في نظر رعيته ولكي يطمئن على مصير البيت الأموي(١).

العلاقات الخارجية

العلاقة مع الامبراطورية الكارولنجية

تأسيس الثغر الإسباني: نتيجة لغارات المسلمين المتكررة على بلاد الفرنجة، عمد شارلمان إلى تنظيم وسائل الدفاع عن بلاده لامتصاص هذه الغارات، ورأى أن المركز الرفيع الذي وصل إليه في أوروبا لا يتفق مع تهديد بلاده من جانب هؤلاء، فاتجهت جهوده إلى تأسيس ولاية فرنجية تكون حداً فاصلاً، وتشكل سداً منيعاً بين بلاده وبين الإمارة الأموية في الأندلس، ووقع اختياره على المناطق الإسبانية المتاخمة لجبال البرينيه، وهي التي هجرها المسلمون أثناء الصراع الداخلي الذي نشب بينهم، وشملت تلك الجهات مدينة جيرندة وما حولها من الأراضي التي أضاعها المسلمون من ثغرهم الأعلى.

وشرع شارلمان بوضع تلك الجهات تحت إدارة واحدة، وأطلق عليها اسم الثغر القوطي أو الإسباني، وذلك في عام (١٨٢هـ/ ٧٩٨م)، وعُرفت فيما بعد بإمارة قطلونية(٢).

استيلاء شارلمان على برشلونة: رأى شارلمان أن يستكمل الإجراءات المشار إليها بالاستيلاء على مدينة برشلونة الحصينة، وهي أمنع معاقل المسلمين على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وقد اتخذها هؤلاء مركزاً لتجمعاتهم وقاعدة انطلاق لمهاجمة إقليم أكويتانيا في جنوبي غالة، بالإضافة إلى الثغور الفرنجية.

---

(١) الشعراوي: المرجع نفسه ص ٥٧.

(٢) Oman: The Byzantine Empire P. 365.

وكان ألفونسو الثاني ملك أشتوريس يواجه آنذاك ضغطاً إسلامياً على بلاده، فاضطر إلى الدخول في مفاوضات مع شارلمان لتنسيق الجهود ضد المسلمين. وفي الوقت الذي بدأ فيه ألفونسو الثاني بمهاجمة الأطراف الإسلامية المجاورة، قام شارلمان بمهاجمة الأطراف الإسلامية في الأودية الجنوبية من جبال البرينيه، واستولى على أهم مدنها مثل أوسونة وكردونة وكاسيراس وغيرها من مدن تلك الناحية، ثم بسط سيطرته على مدينة بنبلونة بعد أن أثار سكانها ضد عاملها المسلم مطرف بن موسى، أحد زعماء بني قسي، فاغتالوه في عام (١٨٣هـ/ ٧٩٩م)[١].

تطلَّع شارلمان بعد ذلك إلى الاستيلاء على برشلونة، منتهزاً فرصة ثورة عمي الحكم الأول، فهاجمها في عام (١٨٤هـ/ ٨٠٠م)، لكنه فشل في اقتحامها بفعل مناعتها، فأغار على ما يليها غرباً، فخرَّب مدينتي لاردة ووشقة[٢]. وجدَّد محاولته في العام التالي، فأرسل إليها جيشاً ضخماً بقيادة ابنه لويس، وهو الأكثر حماساً من بين أبنائه، للقيام بأعمال عسكرية في الأندلس، وقضت الخطة بحصار برشلونة وقطع سبل الاتصال بينها وبين سائر المناطق الإسلامية. ولتحقيق ذلك قسَّم جيشه إلى ثلاث فرق، اختصت الفرقة الأولى بحصار المدينة، وكانت بقيادة حاكم مدينة جيرندة، وكانت مهمة الفرقة الثانية تنفيد غارات على القرى المجاورة، ورابطت الفرقة الثالثة في جنوب غربي المدينة لتحول دون وصول الإمدادات إليها.

لم يستطع الحكم الأول، الذي كان يعاني من اضطرابات خطيرة في الداخل، إنقاذ المدينة، وربما لم يُقدِّر الخطر الفرنجي حق قدره، أو أنه اعتمد على دفاعاتها لصدِّ الحملة. ومن جهة أخرى، لم يكن باستطاعة المدينة مقاومة حصار طويل الأمد على الرغم مما أظهره حاكمها سعدون الرعيني من مقاومة شديدة، واضطر إلى الخروج سراً بنفسه ليخبر السلطات المركزية في قرطبة بخطورة الموقف، ويحثها على إرسال إمدادات على وجه السرعة[٣].

وكان سكان برشلونة قد صمَّموا على المقاومة وعدم الاستسلام، غير أن جيشاً فرنجياً جديداً انضم إلى القوات المحاصِرة، فتحرج موقف المسلمين. وبلغت الأزمة أوجها حين وقع سعدون الرعيني في أسر القوات الفرنجية. وانتهى الأمر باقتحام

---

(١) ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف: المقتبس الثاني. قطعة تتناول عصر الأمير الحكم، ومعظم عصر الأمير عبد الرحمن الثاني ص ١٥، بروفنسال: ص ١٥٠.

(٢) ابن حيان: المصدر نفسه ص ١٦.

(٣) المصدر نفسه.

المدينة وسقوطها في أيدي القوات الكارولنجية الفرنجية بعد حصار دام سبعة أشهر[١]، واتخذها الفرنجة قاعدة للثغر القوطي.

تُعدُّ خسارة برشلونة ضربة قاسية للمسلمين بحيث عظمت حسرتهم عليها، وفَقَدَ هؤلاء شطراً هاماً من ثغورهم القريبة من جبال البرينيه، ونجح الفرنجة في فرض سيطرتهم على الأراضي الإسلامية الممتدة على طول الحافة الجنوبية من تلك الجبال، من بنبلونة غرباً حتى برشلونة شرقاً، التي اتخذوها قاعدة انطلاق للاستيلاء على المدن المجاورة. ومن جهة أخرى، فشلت جهود المسلمين في استعادتها، إذ إن الصائفة التي أُرسلت من أجل هذه الغاية والتي قادها معاوية، أخو الحكم الأول؛ هُزمت على مسافة غير بعيدة من أحد روافد نهر إبرو[٢].

وطمع لويس، ابن شارلمان، في توسيع دائرة سيطرته مرة أخرى على حساب المسلمين، وكانت طلوشة هي هدفه من دون أن يدرك التطورات الإيجابية التي طرأت على وضع الحكم الأول نتيجة قمعه الفتن الداخلية، لذا حين هاجم المدينة بادرت القوات الإسلامية، المكوَّنة من جيش عبد الرحمن بن الحكم الأول وعمروس قائد الثغر الأدنى وقوات عبدون عامل الثغر الأعلى، بالتصدي له، وأنزلوا بقواته خسائر فادحة في عدة معارك، انتهت بتراجعه، وإنقاذ طلوشة وذلك في عام (١٩٣هـ/ ٨٠٩م)[٣].

لكن الحكم الأول فشل في وقف غارات الفرنجة على مدن المنطقة ونواحيها التي أحدثت الخراب، كما فشلت محاولته لاسترداد برشلونة في عام (١٩٩هـ/ ٨١٥م)[٤]، والمعروف أنه أرسل عمه عبد الله البلنسي على رأس جيش إلى هناك، وعلى الرغم من أن عبد الله نجح في هزيمة حامية المدينة وقتل الكثير من جنودها، إلا أنه لم يتمكَّن من دخولها وعاد إلى قرطبة. ومع ذلك، فإنه لم يستسلم لليأس، وصمَّم على حماية ما تبقَّى من ثغور المسلمين، وتأديب الفرنجة ليحرمهم من قطف ثمار انتصاراتهم، فبادر إلى تدعيم نفوذه في مدينة طليطلة، وأضحى الثغر الأدنى يقف سداً منيعاً في وجه الفرنجة وملك أشتوريس ألفونسو الثاني.

---

(١) مؤرخ مجهول: ص ١٣٢. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٣٤٠. المقري: جـ ١ ص ٣٢٧. أرسلان: ص ١٣٢.

(٢) ابن حيان: ص ١٦. رمضان: ص ٤١٣.

(٣) ابن حيان: المصدر نفسه ص ٢٥، ٢٦. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٧٢، ٧٣.

(٤) ابن عذارى: المصدر نفسه: ص ٧٤.

وشعر الطرفان، أخيراً، بعقم هذه الحملات المخرِّبة وآثرا التفاهم والمهادنة وعُقد السلم بينهما، الذي استمر حتى عام (١٩٨هـ/ ٨١٤م)، أي بعد وفاة شارلمان بأعوام قلائل.

العلاقة مع مملكة أشتوريس

بدأ الحكم الأول نشاطه الجهادي ضد مملكة أشتوريس في عام (١٨٠هـ/ ٧٩٦م)، عندما أرسل جيشاً لغزو الأراضي الشمالية بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث. ويبدو أن مهمته كانت مزدوجة، فكان عليه أن يهاجم إقليمي ألبة والقلاع، وهما من بلاد البشكنس، التابعة آنذاك لمملكة أشتوريس، وغزو أراضي الكارولنجيين الفرنجة المجاورة لها.

تقدَّم القائد المسلم إلى سرقسطة، ثم زحف إلى قلهرَّة عبر وادي الإبرو، واستولى عليها، ثم زحف إلى إقليمي ألبة والقلاع، فتوغل في أراضيهما حتى وصل إلى شاطىء بحر كنتبرية في أقصى الشمال، وهناك قسَّم جيشه إلى ثلاث فرق، وحدَّد لكل فرقة ناحية معينة لتهاجمها، وذلك لتغطية أوسع مساحة ممكنة، فأغارت تلك الفرق على النواحي المحددة لها، ففتحت وأسرت عدداً من النصارى. وتضيف بعض الروايات أن عبد الكريم أغار على بلاد الفرنجة، واصطدم أثناء عودته بقوة فرنجية كمنت له في وادٍ وعر المسلك على طريقه، وانتصر عليها[1].

الواضح أن هذه الحملة لم تكن سوى غارة هدفها تخريب المناطق الشمالية وإشعار ألفونسو الثاني بقوة المسلمين وحضورهم، أما انتزاع الأراضي من النصارى واستقرار المسلمين فيها، فكانت هدفاً بعيد الاحتمال في ظل الظروف السائدة.

وكان ألفونسو الثاني قد ركَّز غاراته على الثغر الأدنى بهدف:

- توسيع أراضيه هناك على حساب المسلمين.
- الانتقام من المسلمين على غزواتهم المتكررة ضد أراضيه.
- إعطاء الفرصة للفرنجة لمهاجمة الثغر الأعلى.

ورأى أن يتعاون مع شارلمان لتنظيم عمليات مشتركة، فأرسل إليه في عام (١٨١هـ/ ٧٩٧م) سفارة برئاسة فرويلة، من أجل هذه الغاية، ويبدو أن الجانبين اتفقا على العمل المنفرد كل في ناحيته.

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٦٩. النويري: جـ ٢٣ ص ٣٥٩، ٣٦٠.

وهكذا قام ألفونسو في العام المذكور بمهاجمة الأراضي الإسلامية، فعبر جبال كنتبرية ثم اجتاز نهر دويرة، ووصل إلى أطراف الثغر الأدنى، فعاث في نواحيه حتى وصل إلى مدينة أشبونة، الواقعة عند مصب نهر تاجُه على ساحل المحيط الأطلسي، فاصطدم بحاميتها وهزمها واقتحم المدينة فخرَّبها ونهب كنوزها وعاد إلى بلاده[1].

والواضح أن هذه الحملة لم تكن سوى غارة بهدف السلب والنهب والتخريب وإشاعة الاضطراب في أراضي الثغر الأدنى من دون أن يكون الهدف منها الاستقرار وكسب الأراضي، وبخاصة أن هذه المناطق بعيدة عن أراضيه وتفصل بينهما مساحات شاسعة خالية ومهجورة في حوض نهر دويرة يقتضي السيطرة عليها أولاً، قبل أن يتطلَّع إلى السيطرة على ما يقع في جنوبها من أراضي الأندلس[2].

لم يكد ألفونسو الثاني يعود إلى بلاده حتى أرسل سفارة ثانية إلى البلاط الكارولنجي، برئاسة فرويلة أيضاً، ليعلم شارلمان بأخبار حملته، وأرسل معه هدية هي عبارة عن سبعة فرسان مسلمين كان قد أسرهم في حملته، كدليل مادي على هذا النصر[3].

غير أن التعاون بين الطرفين الأشتوريسي والكارولنجي لم يستمر طويلاً، وما لبث أن تصدَّع بسبب معارضة نبلاء أشتوريس للعلاقة غير المتكافئة مع الملك الكارولنجي، وكان هذا قد اشترط بأن يعترف ألفونسو الثاني بالتبعية له كثمن لهذا التعاون. وبانهيار هذا التعاون عادت أشتوريس إلى انتهاج سياسة دفاعية، وانصرف ألفونسو الثاني إلى عمارة بلاده.

لم يُقدَّر للحكم الأول، بسبب مشكلاته الداخلية المتلاحقة، أن يستفيد من اضطراب الوضع في مملكة أشتوريس وانصراف ملكها إلى شؤونه الداخلية؛ للقيام بعمليات عسكرية ضد أراضيها والانتقام منها على تحالفها مع الفرنجة، لذلك كان نشاطه الجهادي متباعداً، وحملاته العسكرية إليها ضعيفة الأثر.

وهكذا جُمِّدت العمليات العسكرية ضد مملكة أشتوريس على مدار الأعوام الخمسة، بسبب ما جرى من ثورات داخلية ضد الحكم الأول. ولما انتهى من قمعها بادر بإرسال حملة أخرى في عام (١٨٥هـ/ ٨٠١م) بقيادة أخيه معاوية، إلى برشلونة لانتزاعها من أيدي الكارولنجيين، غير أنه فشل في مهمته كما ذكرنا. وحتى لا يعود

(١) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٣١٢.
(٢) رمضان: ص ٤١٤.
(٣) المرجع نفسه: ص ٤١٥.

خالي الوفاض هاجم أراضي مملكة أشتوريس في ألبة والقلاع، إلا أنه تعرَّض لهزيمة قاسية عند ممر أرغنسون الواقع قرب ملتقى نهري زادورا وإبرو، خسر فيها خيرة جنده وقادته، واضطر للعودة إلى قرطبة، ولم يلبث أن توفي في جو الهزيمة القاتم، بعد شهرين من حملته[1].

لم تنل تلك الهزيمة من نفس الحكم الأول، وصمَّم على الانتقام من الأشتوريسيين، فأرسل صائفة إلى إقليمي ألبة والقلاع في عام (١٨٧هـ/ ٨٠٣م) بقيادة عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث، وأرسل معه ابنه عبد الرحمن، فعاث فيهما[2].

لم تذكر لنا المصادر الإسلامية تفاصيل ما حدث، فضلاً عن قلة المعلومات عن الحملة الأمر الذي يوحي بسلبية نتائجها، والواقع أنها لم تختلف عن الحملات التقليدية التي كانت تُرسل إلى الشمال[3].

وكما فشلت تلك الحملة، كذلك فشلت حملة أخرى أُرسلت إلى الإقليمين المشار إليهما في عام (١٩٠هـ/ ٨٠٦م)، وخسرت قائدها في المعركة التي جرت على شواطىء نهر بسويرجا، فكانت آخر نشاطات الحكم الأول على الجبهة الغربية[4].

نتيجة لهذا الفشل، الذي لازم الحكم الأول في حملاته على الجبهة الغربية، نقل نشاطه الجهادي إلى الجبهة الشرقية، وتحديداً إلى إقليم جليقية، فأرسل ابنه هشاماً على رأس حملة عسكرية في عام (١٩٢هـ/ ٨٠٨م) اقتحمت أراضي جليقية فغنمت وأسرت وعادت إلى قرطبة[5]. والواقع أنه لم تكن سوى غارة تهدف إلى إظهار القوة.

وهكذا خرج إقليما ألبة والقلاع عن السيطرة الإسلامية، وانتقلا إلى سيطرة مملكة أشتوريس، فتجاورت أراضيهما مع أراضي بنبلونة التي كان النفوذ الكارولنجي يقوى فيها منذ أن أثار الفرنجة سكانها ضد عاملها المسلم وقتلوه، ثم أكَّدوا سيطرتهم عليها من خلال تعيين حاكم من قبلهم يدعى بلاسكو، وذلك في عام (١٩٠هـ/ ٨٠٦م)[6]، فأدى هذا التجاور إلى تقارب الأشتوريسيين والفرنجة ثانية، وتجدَّد تحالفهما ضد المسلمين، العدو المشترك لكليهما، الأمر الذي دفع الحكم الأول إلى

---

(١) ابن حيان: ص ١٦، ١٧.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٨. بروفنسال: ص ١٤٨.
(٣) بروفنسال: ص ١٤٨. بيضون: ص ٢٢٨.
(٤) رمضان: ص ٤٢٣.
(٥) ابن حيان: ص ٢٥.
(٦) بروفنسال: ص ١٤٨.

إرسال حملة ضخمة إلى بنبلونة في عام (٢٠٠هـ/ ٨٠٦م) بقيادة حاجبه عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، وهي آخر النشاطات العسكرية للحكم الأول ضد تلك البلاد الشمالية[١].

وصل عبد الكريم إلى المدينة واقتحمها «وأهلك معايشها ومرافقها وحطَّم زرعها وهدم منازلها وحصونها»[٢]، ولم يجد بلاسكو سبيلاً لصد الغارات الإسلامية سوى الاستنجاد بالنصارى، فأنجده ألفونسو الثاني. وتقدمت القوات المتحالفة لملاقاة المسلمين الذين كانوا يزحفون باتجاه إقليم ألبة غرباً، ووصلوا إلى نهر أرون على مشارف هذا الإقليم وعسكروا على ضفته. ووصلت، في غضون ذلك، القوات المتحالفة وعسكرت على الضفة الأخرى للنهر، ومنع أفرادها المسلمين من عبور النهر، وجرى قتال عن بُعد. وعمد عبد الكريم إلى تنفيذ خطة ذكية لجر القوات المتحالفة والاصطدام بها، فتظاهر بالهزيمة وتراجع مسافة معينة. وانطلت الحيلة على القوات المتحالفة فعبرت النهر لمطاردة المسلمين، عند ذاك كرَّ عبد الكريم بقواته وباغت جموع النصارى قبل أن يستكملوا عبور النهر، فارتبكت صفوفهم ووقعت تحت سيوف المسلمين، فأخذوهم من كل جانب وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وغرق آخرون في النهر، وكان خال الملك ألفونسو الثاني من بين القتلى بالإضافة إلى سانشو، وهو أحد كبار النبلاء والذي يلقبه ابن حيان بفارس بنبلونة[٣]. واضطر ألفونسو الثاني إلى عبور النهر ثانية، ليعيد تنظيم صفوف قواته، وتحصين مواقعه فأقام الاستحكامات، وحَفَرَ الخنادق، بحيث عجز المسلمون عن اجتياز النهر لمطاردتهم. ثم حدث أن هطلت الأمطار بغزارة، وفاضت مياه النهر، فتعذَّر على الطرفين اجتيازه واضطر عبد الكريم إلى إنهاء حملته وعاد إلى قرطبة[٤].

وبانتهاء تلك الحملة توقَّفت الأعمال العسكرية في الشمال طيلة المدة الباقية من عهد الحكم الأول الذي توفي في (ذي الحجة ٢٠٦هـ/ أيار ٨٢٢م)[٥].

---

(١) المقتبس الثاني: ص ٣١.
(٢) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٧٥.
(٣) المقتبس الثاني: ص ٣١.
(٤) المصدر نفسه. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٧٥.
(٥) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٧٧.

الفَصْلُ السَّابِعُ

عبد الرحمن بن الحكم الأول

عبد الرحمن الثاني (الأوسط) (٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ/٨٢٢ ـ ٨٥٢ م)

التعريف بعبد الرحمن الثاني: خلف الحكم الأول ابنه عبد الرحمن بعهد منه، وجرى انتقال السلطة يوم الخميس في (٢٦ ذي الحجة ٢٠٦ هـ/ ٢٢ أيار ٨٢٢ م)، في جو هادىء لم تعكِّره المنافسات العائلية ولا الحركات الثورية الخطيرة التي أحاطت بالعهد السابق، وهو أول أمير أموي يعتلي السلطة في هذا الجو الأمر الذي أُتيح لعهده الطويل أن يشكل انطلاقة جدِّية لحضارة ساطعة ومتفوقة[١].

يُكنى عبد الرحمن الثاني بأبي المطرف، وأمه أم ولد تدعى حلاوة، ويذكره المؤرخون باسم الأمير عبد الرحمن الأوسط، نظراً لأن الأول كان عبد الرحمن الداخل، والثالث عبد الرحمن الناصر[٢].

يختلف هذا الأمير الأموي عن والده في كثير من الصفات، فهو أقل تمسكاً بنظرية الحكم المطلق، وبالتالي فإن خلفيته الدينية كانت ظاهرة في أجواء مجالسه وبين رواده من الفقهاء ورجال الدين الذين كانوا مغيَّبين في عهد والده، كما كانت لشخصيته الإدارية والسياسية ملامح خاصة انعكست على حياة الأندلس أكثر من ثلاثين عاماً، ولعل أبرزها ثقافته الأدبية والفقهية الواسعة، وما تمتع به من إحساس مرهف وذوق اجتماعي رفيع ونشاط عمراني لافت، ستكون طابع المرحلة التي عاش في ظلها وعنوانها الرئيس، حيث اختمرت بذور التحول الحضاري الساطع في

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٨٠، ٨١.

(٢) المصدر نفسه.

الأندلس بخصائص جديدة تُعدُّ بداية الانتقال الحقيقي إلى وضع الدولة كمؤسسة إدارية وثقافية وعسكرية[1].

لقد قرَّب عبد الرحمن الثاني رجال الدين والأدب والعلم والموسيقى، أمثال يحيى بن الحكم الغزال وعباس بن فرناس، والشعراء، أمثال عباس بن ناصح وعبد الله بن الشمر، والموسيقيين أمثال علي بن نافع الملقب بزرياب، الذي قدم من بغداد حاملاً معه فنون الشرق الموسيقية، وهو «أول من جرى على سنن الخلفاء في الزينة والشكل وترتيب الخدمة، وكسا الخلافة أبهة الجلالة، فشيَّد القصور وجلب إليها المياه، وبنى الرصيف وعمل عليه السقائف، وبنى المساجد والجوامع في الأندلس، وعمل السقاية على الرصيف، وأحدث الطراز واستنبط عملها، واتخذ السكة بقرطبة، وفخَّم ملكه»، «وألحق بقصره حوضاً كبيراً لتجميع الماء استعمله الناس للسقاية، وأقام الجسور، وزاد في جامع قرطبة رواقين... ورتَّب رسوم المملكة، واحتجب عن العامة»، «وفي أيامه احتفلت دولة بني أمية بالأندلس، وعظمت الألقاب وشُيِّدت القصور... واتخذ الطراز الذي كان حديث الرفاق وطرفة أهل الآفاق»[2].

يمثل عهد عبد الرحمن الثاني نقلة حضارية نوعية ومرحلة هامة من مراحل الانصهار الاجتماعي بين مختلف العناصر العربية والمستعربة[3]، الأمر الذي جعل المؤرخين يسمون عهده «بأيام العروس»، ويعدونه من أسعد العهود التي عاش في ظلها أهل الأندلس خلال حكم الإمارة الأموية[4].

كان الأمير الأموي كلفاً بالنساء، وعامل جاريته طروب معاملة خاصة حتى أنها أصبحت تبرم الأمور مع نصر الخصي، فلا يردُّ شيئاً مما تبرمه[5]، وحظيت عنده وأصبحت أم ولد، فولدت له عبد الله. وهناك جوارٍ أُخر حظين عنده، منهن مدثرة التي أعتقها وتزوجها، والسناء، وقلم الأديبة والشاعرة وحافظة الأخبار[6].

الثورات الداخلية في عهد عبد الرحمن الثاني

محاولة عبد الله البلنسي تجديد ثورته: واجه عبد الرحمن الثاني، على غرار الأمراء الثلاثة الذين سبقوه، الثورات والفتن التي تهدف إلى الإطاحة بالحكم، ولكن

(١) أخبار مجموعة: ص ١٣٥. ابن سعيد الأندلسي: جـ ١ ص ١٨.

(٢) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٩١. ابن الخطيب: أعلام جـ ٢ ص ٢١.

(٣) بيضون: ص ٢٤٥، ٢٤٦.

(٤) ابن سعيد: جـ ١ ص ١٨.

(٥) المقري: جـ ١ ص ٣٣٥، ٣٣٦.

(٦) المصدر نفسه: ص ٣٣٦، ٣٣٧.

عهده اتَّسم بالخفوت النسبي لهذه المظاهر، ولا يمكن مقارنة ما شهده عهده بعهود أسلافه الذين حفلت أعوام حكمهم بأخبار الثورات العنيفة التي ظهرت في كل مكان من أرض الأندلس، ولم يبذل كثيراً من الجهد للقضاء عليها.

ومهما يكن من أمر، فقد حاول عبد الله البلنسي، ذلك الثائر التقليدي، الخروج على طاعة عبد الرحمن الثاني مستغلاً فرصة التغيير في الحكم، واستولى على تدمير، الواقعة في إقليم مرسية، على الرغم من التجارب الفاشلة من تكرار المحاولة، وشيخوخته المنهكة بثقل السنين، ثم خرج منها متوجهاً إلى قرطبة للإطاحة بالأمير الأموي الحاكم، فتجهَّز له عبد الرحمن الثاني واستعد لقتاله.

ويبدو أنه رأى نفسه عاجزاً عن المواجهة المباشرة مع الأمير الأموي، ففضَّل العودة إلى بلنسية تحت وطأة المرض ليفارق الحياة بعد ذلك في عام (٢٠٨ هـ/ ٨٢٣ م)، فأراح القدر، بذلك، عبد الرحمن الثاني من هذا الخصم التقليدي في الأسرة الحاكمة، بدون عناء، ونقل أفراد عائلته إلى قرطبة ليكونوا تحت رقابته المباشرة كيلا يُفكِّر أحد منهم بالخروج على طاعته[١].

تجدد الصراع القيسي ـ اليمني: ظلت تدمير، بعد موت عبد الله البلنسي، مسرحاً للعنف القبلي بضعة أعوام أخرى، إذ نشبت فيها حرب شرسة بين العرب اتخذت بُعداً قبلياً لأول مرة منذ تأسيس الإمارة الأموية. والواقع أن عبد الرحمن الداخل قد استفاد من تجارب أسلافه الأمويين في المشرق، فتجنَّب انتهاج نهجهم السياسي غير المتوازن الذي أدَّى إلى تعميق الخلافات العربية، وتفجير الحساسيات القديمة بين القبائل، وجنَّب دولته ذلك الصراع التقليدي العنيف بين القيسيين واليمنيين[٢]، لكنه لم ينجح في استئصال بذور الخلافات بينهما التي كانت خابية كالنار تحت الرماد، وكان أي حادث بين الطرفين، مهما كان بسيطاً، كافياً لإثارة كوامن الأحقاد وتفجير الموقف من جديد.

وهكذا عادت الصراعات الحزبية لتنفجر في عام (٢٠٧ هـ/ ٨٢٢ م) لسبب يتسم بالصبيانية، أساسه خلاف شخصي بين رجلين أحدهما يمني والآخر قيسي، إذ أقدم الثاني على قطف ورقة كرمة من أحد البساتين الخاصة العائدة لأحد اليمنيين، وقد كلَّفت هذه الفعلة التافهة حياة القيسي، وأدَّت إلى نشوب حرب بين الطرفين[٣].

---

(١) ابن سعيد: جـ ١ ص ١٩.
(٢) بيضون: ص ٢٤٧.
(٣) ابن سعيد: جـ ١ ص ١٩، ٢٠.

الواضح أن هذا السبب يشكل الشرارة التي أطلقت الخلافات من النفوس، إذ إن القلوب كانت مليئة بطبيعتها، وكان كل طرف يترقَّب ارتكاب أي هفوة من قِبل الطرف الآخر كي يستغلها ويصطدم به.

ومهما يكن من أمر، ما إنْ علم عبد الرحمن الثاني بنشوب الصراع الحزبي بين العرب في تدمير حتى بذل جهده لإطفائه، فأرسل أحد قادته، وهو يحيى بن عبد الله، على رأس جيش إلى هناك لتهدئة الوضع وعيَّنه حاكماً على المنطقة[١].

عدَّت بعض القبائل المتصارعة هذا الإجراء تدخلاً في شؤونها، فقاتلت الجيش الأموي، واشتبكت معه في معركة قرب مدينة لورقة، عُرفت باسم معركة المسارة، لم تؤدِّ إلى نتيجة حاسمة، ومني القائد الأموي بالفشل على الرغم من الشدَّة التي عامل بها المتحاربين، وعاد إلى قرطبة[٢].

وبعد مرور عامين، أي في عام (٢٠٩ هـ/ ٨٢٤ م)، رأى عبد الرحمن الثاني ضرورة إرسال جيش آخر إلى تدمير بفعل استمرار الصراعات بين الحزبين القيسي واليمني، على الرغم من حسم الصراع فيها لمصلحة الحزب اليمني، حيث تولى زعيمه محمد بن إبراهيم، المعروف بأبي الشماخ، زمام السلطة[٣].

وهكذا تكررت محاولة الحكومة المركزية، فقاد أمية بن هشام جيشاً أموياً إلى تلك المنطقة لاستئصال بذور الخلاف، فتصدَّى له الحزب اليمني، وجرت بين الطرفين معركة شبيهة بمعركة المسارة المذكورة، قُتل فيها عدد من المسلمين وانتهت بدون حسم مسألة الصراع.

كانت إلُّو، عاصمة المقاطعة، مصدراً للدسائس والمناوأة الدائمة ضد الأمير عبد الرحمن الثاني، فما كان منه إلا أن أمر بتدميرها في عام (٢١٠ هـ/ ٨٢٥ م) وبنى مكانها مدينة جديدة هي مرسية التي أضحت، من تلك اللحظة، مقر إقامة الوالي، كما أضحت، فيما بعد، إقليماً يحمل الاسم نفسه[٤].

كان من المتوقع أن تؤدي تلك الإجراءات إلى القضاء نهائياً على الفتنة، لكن ذلك لم يحصل، إذ إن القضاء النهائي لم يتم إلا في عام (٢١٣ هـ/ ٨٢٨م) حين حاصرت القوات الأموية قلاع اليمنيين وأجبرتهم على طلب الأمان. وخضع أبو

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٨١.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه: ص ٨٢.
(٤) المصدر نفسه.

الشماخ للحكومة المركزية، وأضحى هذا الزعيم اليمني واحداً من الولاة الذين اعتمدت عليهم قرطبة ووثقت بهم[1].

الثورة في ماردة: تحرَّك البربر بدورهم، وأعلنوا الثورة في أكثر من منطقة حيث يتمتعون بأغلبية ساحقة، فثاروا في عام (٢١١ هـ/ ٨٢٦ م) في منطقة الجزيرة الخضراء بقيادة حبيب البرنسي[2]، ولكن عوامل الثورة لم تكن ناضجة، وافتقرت إلى التأييد الضروري لنجاحها، ودفعت ثمناً غالياً من القتلى على يد القوات الأموية[3].

لكن التحرك الخطير الذي قام به البربر في عهد عبد الرحمن الثاني، كان مسرحه مدينة ماردة الواقعة إلى الغرب من قرطبة، حين أعلنت الثورة هناك بعد عامين من أحداث الجزيرة الخضراء، أي في عام (٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م)، بقيادة رجل من قبيلة مصمودة، هو محمود بن عبد الجبار، وكانت إلى جانبه أخته جميلة، وانضم إليه أحد المولَّدين، ويدعى سليمان بن مرتين، وتمكَّن من السيطرة على المدينة وقتل واليها مروان الجليقي[4].

وأُتيح لمحمود أن يستفيد من موقع المدينة الجغرافي، فتلقَّى دعماً خارجياً على جانب كبير من الأهمية. فقد أقام علاقات سياسية مع الملك الأشتوريسي ألفونسو الثاني، كما تلقَّى مساعدات من الملك الكارولنجي لويس بن شارلمان[5]، والمعروف أن مصلحة هذين الملكين تكمن في تشجيع وإثارة الاضطرابات في ربوع الدولة الإسلامية.

تصدَّى عبد الرحمن الثاني لهذه الثورة قبل أن تستفحل، وقاد بنفسه جيشاً، حاصر المدينة وضيَّق على سكانها، فطلبوا الأمان، فعفا عنهم، وعيَّن عليهم والياً هو الحارث ابن بزيع، وأخذ منهم رهائن لضمان خلودهم إلى الهدوء، ودمَّر سور مدينتهم ونقل حجارته إلى مكان بعيد كيلا يعيدوا بناءه من جديد، ثم عاد إلى قرطبة[6].

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٨٢.

(٢) يذكر ابن عذارى اسمه طوريل وقد ثار بتاكرنا في الجزيرة الخضراء. جـ ٢ ص ٨٢. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٥٥٣.

(٣) بيضون: ص ٢٤٨.

(٤) ابن القوطية: ص ١١٢. النويري: جـ ٢٣ ص ٣٧٨.

(٥) أرسل لويس رسالة إلى أهل ماردة يحضهم على الثبات والمقاومة ووعدهم بإمدادهم بالمساعدة. انظر نصَّ الرسالة عند أرسلان: ص ١٤٨.

(٦) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٥٥٨. النويري: جـ ٢٣ ص ٣٧٨.

والواقع أن خضوع سكان ماردة القسري كان مرحلياً فقط، فما إن ابتعدت القوات الأموية عن مدينتهم حتى عادوا إلى عصيانهم، فأسروا العامل وأعادوا بناء سور مدينتهم، فسار إليهم عبد الرحمن الثاني في عام (٢١٤ هـ/ ٨٢٩ م) ومعه الرهائن. وجرت مفاوضات بين الطرفين تمَّ بنتيجتها افتداء الرهائن بالعامل الذي أسروه[١].

استمرت حركة العصيان ناشطة في ماردة الأمر الذي دفع عبد الرحمن الثاني إلى مهاجمتها مرتين متتاليتين في عامي (٢١٧ هـ/ ٨٣٢ م) و (٢١٨ هـ/ ٨٣٣ م)، ودخلها عنوة، وفرَّ قادة الثورة إلى منت شلوط وامتنعوا بها، واستولوا على باجُه وبطليوس الواقعة إلى الغرب من ماردة، فأرسل إليهم عبد الرحمن الثاني جيشاً آخر في عام (٢٢٠ هـ/ ٨٣٥ م) اصطدم بهم وأجبرهم على الفرار. فالتجأ محمود وأخته إلى الملك ألفونسو الثاني، وطلب مساعدته، فأبقاه عنده خمسة أعوام استغله خلالها للإغارة، بين الحين والآخر، على الأراضي الإسلامية لتحقيق مكاسب سياسية لمملكته على حساب الإمارة الأموية[٢].

ويبدو أن محموداً رأى نفسه متورطاً في تحالف مع الملك الأشتوريسي لم يكن في مصلحته، فراح يعمل على التحرر من المأزق الذي وضع نفسه فيه، فراسل عبد الرحمن الثاني تمهيداً لعودته إلى طاعة الدولة الأموية ما أدى إلى نشوب خلاف بينه وبين الملك الأشتوريسي فتمرد عليه، واستولى على حصن سانت كريستين، على مقربة من مدينة لوغو، واتخذه قاعدة انطلاق لشن الغارات على الأراضي النصرانية، فحاصره الملك ألفونسو الثاني في عام (٢٢٥ هـ/ ٨٤٠ م)، وعندما حاول الخروج من الحصن ليلاً، اصطدم بشجرة بلوط وقُتل، ووقعت أخته جميلة في الأسر[٣].

أما سليمان بن مرتين، فقد انفصل عن زميله محمود حينما توجه إلى أشتوريس، وتابع حركته الثورية في جهات ماردة إلى أن حاصرته القوات الأموية في الحصن الذي كان قد لجأ إليه واضطرته للخروج منه في جنح الظلام، ووافق صخرة ملساء على وجه الأرض، فزلق به الفرس فسقط ومات، وكان ذلك في عام (٢٢٠ هـ/ ٨٣٥ م)[٤].

الثورة في طليطلة: واجه عبد الرحمن الثاني ثورة أخرى قام بها سكان طليطلة، في عام (٢١٤ هـ/ ٨٢٩ م)، تزعمها رجل شعبي غامض يدعى هاشم الضرّاب، أصله

---

(١) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٥٥٨.

(٢) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٨٣. ابن سعيد: جـ ١ ص ٢٠.

(٣) ابن سعيد: المصدر نفسه.

(٤) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٨٤.

من طليطلة ولكنه هاجر إلى قرطبة بعد أن أوقع الحكم الأول بوجهاء وزعماء هذه المدينة في وقعة الحفرة، وعمل أجيراً عند أحد الحدادين فعُرف بالضرَّاب، ثم انتقل إلى طليطلة وانغمس في أجوائها المضطربة والمشحونة بمختلف الأفكار، بحيث أضحت هذه المدينة مركز التحرك الدائم واجتذاب أصحاب الطموح السياسي، ونشأ في وسط شعبي فقير الأمر الذي أهَّله لتزعم أولئك الذين ازدحمت بهم المدينة(١).

لا توضح المصادر أبعاد هذه الثورة وأهدافها. هل هي حركة إنفصالية على غرار الحركات الأخرى التي شهدتها الأندلس على مدار تاريخها، أم أنها حركة ذات أبعاد إجتماعية تهدف إلى تحسين أوضاع الفئات الشعبية؟. الراجح أن الاحتمال الثاني هو الأصح، لأن هذه المصادر تشير إلى نوعية الفئات التي التفّت حول زعيم الحركة وساندته «استدعى أهل الشر والفساد وألَّبهم، فتألَّب إليهم منهم نفر»(٢)، مع إشارات إلى التحقير من شأن حركته.

وظلَّ هاشم الضرّاب الزعيم النافذ في طليطلة وجوارها نحو عامين، وراح يغير على العرب والبربر من دون تمييز، فيستولي على ما تصل إليه يده، ثم اجتاح منطقة شنتبرية في أقصى شرق الإقليم، الأمر الذي دفع عبد الرحمن الثاني للنهوض لحربه، فأمر عامل الثغر الأوسط محمد بن رستم، بالقضاء عليه. ووقعت بين الطرفين رحى معركة شديدة بالقرب من دروقة استمرت عدة أيام وانتهت بهزيمة الضرّاب ومقتله مع عدد كبير من أتباعه، وذلك في عام (٢١٦ هـ/ ٨٣١ م)(٣).

غير أن سكان طليطلة أبَوْا أن يستكينوا، وأبقوا على سلاحهم يشهرونه في وجه الحكم الأموي، فأرسل عبد الرحمن الثاني إليهم أخاه أمية بن الحكم الأول في عام (٢١٩ هـ/ ٨٣٤ م)، فحاصر المدينة وأتلف زرعها وقطع ثمارها ونشر الفزع في داخلها(٤)، ولكن ذلك لم يؤثر في معنويات سكانها الذين اعتصموا وراء أسوارهم العالية والمنيعة. عندئذٍ لم يجد القائد الأموي فائدة من الحصار الذي تطلَّب جلداً وصبراً لم يحتمله، فغادر المنطقة، وترك أحد قادته، ويدعى ميسرة الفتى، في قلعة رباح القريبة من طليطلة، وكلَّفه بمتابعة استنزاف المدينة المغلقة حتى الاستسلام(٥).

عدَّ سكان طليطلة انسحاب القوات الأموية نوعاً من الضعف، فقرَّروا الخروج من

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٨٣. بيضون: ص ٢٥٠.
(٢) ابن عذارى: المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه: ص ٨٤.
(٥) المصدر نفسه.

مدينتهم ومهاجمة قلعة رباح، لكنهم لم يتمكَّنوا من اختراق دفاعاتها، وتكبدوا خسائر فادحة، واضطروا إلى العودة بسرعة إلى مدينتهم للاحتماء بها واستئناف حركة العصيان(١).

وحدث أن توفي ميسرة الفتى في ذلك الوقت الحرج، فعيَّن عبد الرحمن الثاني قائداً جديداً مكانه هو أبو الشماخ، وأمدَّه بعدد كبير من الفرسان والجند، وكلَّفه بمتابعة حصار طليطلة(٢).

استمر عصيان سكان طليطلة مدة ثلاثة أعوام أخرى، حتى ضاقوا ذرعاً بالحصار المتواصل، فخرج أحد زعمائهم، ويدعى ابن مهاجر، من المدينة وتوجَّه إلى قلعة رباح واجتمع مع أبي الشماخ واتفق معه على تسهيل مهمته بفتح المدينة(٣).

وحدث آنذاك أن أرسل عبد الرحمن الثاني مدداً بقيادة عبد الواحد الإسكندراني(٤)، وكان سكان طليطلة قد بلغ بهم الجهد، فأُسقط في أيديهم، واستسلموا للمحاصِرين، فدخلوها في (٨ رجب ٢٢٢ هـ/ ١٦ حزيران ٨٣٧ م)(٥)، وظلَّ سكان طليطلة على الطاعة طيلة مدة حكم عبد الرحمن الثاني.

بداية تمرد موسى بن موسى بن قسي: شهد النصف الأول من القرن التاسع الميلادي تنامي وتصاعد التهديد البشكنسي ضد الأندلس. كان هؤلاء البشكنس يقيمون في الأراضي التي تتبع في أغلبها مملكة نبرَّة الواقعة شمالي وادي نهر إبرو، وكانوا عبارة عن قبائل عديدة لا نعرف عنها إلا القليل، استولت كل واحدة منها على إقطاعية محدَّدة، إما تابعة لمملكة الفرنجة وإما تابعة لمملكة أشتوريس، ولم يستطع الملوك الأشتوريسيون أن يضموا كامل الإقطاعيات البشكنسية إلى أراضي مملكتهم على الرغم من الغزوات العديدة التي شنوها عليها، وذلك لتفاني البشكنس في الدفاع عن استقلالهم(٦).

اتخذ البشكنس مدينة بنبلونة عاصمة لهم ومقراً لإقامة الأمير البشكنسي، وتهيأت للأسرة البشكنسية ظروف مؤاتية تمثَّلت بالموقف الذي اتخذه أقوى الولاة المسلمين

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٨٤. (٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) وفي رواية أن المدد كان بقيادة أخيه الوليد بن الحكم الأول. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٨٥.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) بروفنسال: ص ١٨١، ١٨٢.

في الثغر الأعلى ألا هو موسى بن موسى بن قسي. والمعروف أن هذه الأسرة تتمتَّع بتأثير سياسي قوي في الأقاليم الواقعة بين جبال البرينيه ووادي نهر إبرو. وكان المولَّدون، الذين يشكلون معظم أفراد هذه الأسرة، على علاقات قديمة ومصاهرة مع زعماء البشكنس، كما كان الضعف يشوب إسلامهم[1].

بدأ موسى يكشف عن نياته بالاستقلال عن قرطبة في عام (٢٢٧ هـ/ ٨٤٢ م)، بتأثير أخيه لأمه إينيغو إينيغيز، وكان يقيم آنذاك في تطيلة كحاكم لها، وقد غضب لتأنيب أحد القادة المسلمين له حول دوره في إحدى الصوائف التي قادها عبيد الله ابن عبد الله البلنسي، فقرَّر الانفصال عن الحكومة المركزية، وأخذ يرسل قواته لغزو الأراضي التابعة لعبد الرحمن الثاني[2].

كان من الطبيعي أن يردَّ عبد الرحمن الثاني على هذا التصرف، فعزل موسى عن مدينة تطيلة، وأسند حكمها إلى عامر بن كليب، وأرسل عدة حملات عسكرية لمحاربته، فاضطر إلى طلب الصلح، فاشترط الأمير الأموي أن يغادر تطيلة إلى أية جهة يشاء[3]. وما كادت القوات الحكومية تنصرف عنه حتى نكث عهده، وسانده غرسية بن ونقة، أمير بنبلونة، فتصدَّى له القائد الحارث بن بزيع، إلا أنه انهزم أمامه ووقع في الأسر، عندئذٍ قرَّر عبد الرحمن الثاني أن يقتص بنفسه من هذا الثائر، فقاد حملتين من أجل ذلك في (رجب ٢٢٨ هـ/ نيسان ٨٤٣ م) وفي (شعبان/ أيار)، ففتح صخرة قيس في نواحي بنبلونة، وتغلَّب على المقاومة التي أبداها الحليفان موسى وغرسية اللذان جُرحا أثناء القتال وفرَّا من ساحة المعركة وجنحا إلى الصلح.

فصالح الأول على:

- أن يغادر تطيلة ويتولى حكم مدينة أرنيدو بدلاً منها.
- أن يُطلق سراح الحارث بن بزيع ومن معه من الأسرى.

وصالح الثاني على:

- أن يبقى حاكماً على بنبلونة مقابل دفع جزية سنوية مقدارها سبعمائة دينار.
- أن يُسلِّم جميع من بقي عنده من سبي المسلمين وأسراهم[4].

ويبدو أن الضربة المؤلمة التي تلقَّاها الحليفان لم تكن رادعة، فنقضا صلحهما في

---

(١) بروفنسال: ص ١٨١، ١٨٢.

(٢) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٢٩. النويري: جـ ٢٣ ص ٣٨١.

(٣) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٨٤، ٨٥. النويري: جـ ٢٣ ص ٣٨٢.

(٤) المصدران نفساهما. ابن حيان: ص ١٩٤. بروفنسال: جـ ١ ص ١٨٣.

عام (٢٢٩ هـ/ ٨٤٤ م)، الأمر الذي دفع عبد الرحمن الثاني إلى الخروج بنفسه لتأديبهما، واصطحب معه ابنه محمد، فتوقف في سرقسطة، وأمر ابنه ووزيره محمد بن يحيى بمواصلة الزحف نحو تطيلة، فحاصراها وضيَّقا على سكانها، وأتلفا زرعها، حتى أذعن موسى وصالحهما، ثم تقدما نحو بنبلونة وانتصرا على جيش من البشكنس وقتلا منه جمعاً غفيراً، من بينهم غرسية نفسه(١).

كان من المتوقع أن تكون هذه آخر الحملات التي تسيِّرها حكومة قرطبة ضد الثائر موسى بن موسى، ولكن الأمر لم يكن كذلك، إذ عاد هذا إلى رفع لواء الثورة في أعوام (٢٣٠ و ٢٣٢ و ٢٣٥ هـ/ ٨٤٥ و ٨٤٦ و ٨٤٩، ٨٥٠ م)، وكان عبد الرحمن الثاني يخضعه في كل مرة ثم ينقض صلحه، واستمر موسى على هذا النهج حتى وفاة عبد الرحمن الثاني(٢).

حركة الرهبان: حدثت في أواخر عهد عبد الرحمن الثاني تطورات مثيرة تُعدُّ المؤشر الأول لحركة التحرر الإسباني، أثارها مستعربو قرطبة تحت غطاء ديني شديد الحساسية، مستغلين أجواء الاستقرار والانفتاح وحرية المعتقد. والمعروف أن بعض هؤلاء تقلَّدوا عدداً من الوظائف الإدارية، وتحسَّنت أوضاعهم الاجتماعية، واستفادوا من ذلك النمو الحضاري الذي أرسى قواعده عبد الرحمن الثاني، وانجذبوا إليه، فتهافتوا على الكتب العربية يقرأونها بشغف ويتجادلون فيها بحرارة، ويجمعونها بكل حرص، ناشرين عقائدها بلغة ثرية دقيقة غير مقصِّرين في إطرائها، في الوقت الذي هجروا فيه الأدب اللاتيني وكتب اللاهوت ومحاسن الكنيسة(٣).

وهكذا جهل المستعربون قانونهم وابتعدوا عن لغتهم اللاتينية، لغة الكتاب المقدس وسِيَر القديسين، حتى غدا من الصعب أن تجد واحداً من ألف من النصارى يجيد كتابة رسالة قصيرة إلى أخيه باللاتينية، في الوقت الذي نجد فيه حشوداً لا عدَّ لها من المثقفين يعرضون أبهة البلاغة العربية، ويطرِّزون رسائلهم الرقيقة بمقطوعات من الشعر العربي البليغ وبلباقة فاخرة(٤).

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٨٧. النويري: جـ ٢٣ ص ٣٨٢، ٣٨٣.

(٢) ابن حيان: المقتبس الثاني ص ٢٠٢. المقتبس: تحقيق مكي ص ١، ٤، ٥، ١٦. النويري: جـ ٢٣ ص ٣٢٣.

(٣) دوزي: المسلمون في الأندلس جـ ١ ص ٨٥، ٨٦.

(٤) المرجع نفسه: ص ٨٦.

والواقع أن نصارى قرطبة لم يتذمَّروا من الظروف التي أتاحتها لهم الحياة، فلم يكونوا مضطهدين، وسُمح لهم بممارسة شعائر دينهم بحرية، وكان ذلك كافياً بالنسبة لهم، وقد دخل الكثيرون منهم في الجندية في حين شغل البعض الآخر مراكز مرموقة في القصر أو في دوائر الدولة، وقلَّدوا المسلمين في كل شيء[1].

وإذا كانت هذه السياسة التي رحَّب بها السواد الأعظم من المستعربين، بما حملت إليهم من الفائدة والشعور بالأمن والطمأنينة، فإن الرهبان والقساوسة المشحونين بجرعات التعصب الديني، انزووا مع ذواتهم في الكنائس والأديرة وظلوا بعيدين عن هذا التيار الذي غمر جماعاتهم النصارى المتعربي الثقافة والسياسة[2]، وكانوا أشد المستعربين سخطاً، وتأصلت في نفوسهم كراهية شديدة ضد المسلمين من واقع اعتناقهم أفكاراً سيئة عن مبادىء الدين الإسلامي وسلوك النبي محمد ﷺ، مع أن استيعابها كان ميسَّراً جداً عليهم بفعل تقلبهم بين المسلمين، ولكنهم انصرفوا عن الرجوع إلى المصادر الموجودة في متناول أيديهم، واعتنقوا ما لقَّنهم إياه الجاهلون، وما راج من الخرافات عن الرسول، وبالتالي أصابهم الجزع الشديد على المستقبل الذي بدا لهم مخيفاً وهم يرقبون تقلُّص نفوذ الكنيسة وروادها، وانتشار لغة القرآن وثقافة المسلمين في أوساطهم بصورة مذهلة. ولما تعذَّر عليهم القيام بثورة سافرة في العاصمة راحوا يفتعلون المشكلات مع الحُكْم المتسامح، ويستدرُّون عطف النصارى من خلال مواقف ساذجة وممارسات مثيرة للدهشة بهدف إحراج السلطة وجرِّها إلى معركة داخلية ذات طابع صليبي[3]. والواضح أنه كمن وراء ذلك الشعور المؤلم، الذي عرقل بصورة مأساوية مجرى تعايش غلب عليه طابع السلم؛ شعورٌ محضٌ بحركة قومية لنخبة حضرية معينة جُبلت عليه عقول النصارى من أبناء الطبقات العليا.

تزعَّم هذا التيار المتعصب راهب قرطبي شاب يدعى إيلوخيو، وهو متحدر من عائلة قرطبية مستعربة، ثرية. وأكسبته فضائله تقدير جميع من عرفوه. فكان يحب التردُّد على الأديرة التي أضحى لها نفوذ كبير، وبالغ في تقواه وانضم إليه فريق من القساوسة الشبان المتحمسين وعدد آخر من خارج المدينة، لا سيما إثنان برزا بشكل لافت، أحدهما تاجر ثري من مستعربي قرطبة، ينحدر من أصل يهودي، يدعى الفارو، وقد تتلمذ على يديه وشاطره عواطفه، وتوثَّقت بينهما عرى الصداقة، والآخر

(١) دوزي: جـ ١ ص ٨٥، ٨٦.
(٢) بيضون: ص ٢٥٣.
(٣) المرجع نفسه. بروفنسال: ص ١٩١، ١٩٢.

فتاة من أب مسلم وأم نصرانية تدعى فلورا، تأثرت بأمها النصرانية واستهوتها أفكار زعيم الحركة، ونشأت بينهما صلة روحية(١).

راح هؤلاء يؤججون الحمية الدينية في أوساط جالية المستعربين القرطبية لدفعهم إلى الاستشهاد الذي رأوا فيه الوسيلة الفضلى لإثارة الشعور الديني بينهم. وحتى يتوصلوا إلى هذه الدرجة اتَّبعوا طريق تحدِّي السلطة في مقدساتها في الأمكنة العامة، وتهجموا على الدين الإسلامي والنبي محمد ﷺ أمام قاضي المسلمين كي يحكم عليهم بالإعدام فيخلَّدوا في سجل القديسين الشهداء. وحاول زملاء لهم، ممن اطلعوا على المبادىء الصحيحة للدين الإسلامي، عبثاً، ثنيهم عن ذلك.

كان أول ضحية لهذا التعصب الديني والتصرف الحاقد، هو راهب يدعى برفكتو، حين استدرج أحد المسلمين إلى نقاش حول العقيدة، وبلغت به الحماسة إلى درجة فقدان السيطرة على عباراته التي جنحت إلى التطرف في تحقير النبي محمد ﷺ، وكانت المناسبة حلول عيد الفطر في عام (٢٣٥ هـ/ ٨٥٠ م)، حيث الناس يحتفلون بالعيد، فهاج هؤلاء ولم يهدأوا إلا بإعدامه(٢).

استغل زعيم الحركة إيلوخيو هذه الحادثة لاكتساب مزيد من الأنصار من المستعربين المؤيدين لحركته، الذين أضحوا أكثر تأثراً وانفعالاً بعد إعدام الراهب الذي لم يلبث أن ارتقى إلى مرتبة القديسين، بعد الهالة التي أُحيط بها، وكانت وراء ذلك الدعاية التي بثَّها إيلوخيو بين البسطاء من المستعربين، فدخلوا بدورهم هذه المأساة. ثم تكرَّرت المحاولة مع راهب آخر يدعى إسحاق، الذي قام بالدور نفسه الذي قام به برفكتو، بعد نحو عام من إعدامه، ولقي النهاية نفسها(٣).

ولعل الشدة التي اتخذتها السلطات الأموية في قرطبة، رداً على هذه الممارسات الاستفزازية، كانت مطلباً ملحاً لحركة الرهبان التي زرعت في النفوس فكرة الاستشهاد من أجل العقيدة.

ولم يتردَّد جندي يُدعى سانشو، من حرس الأمير الأموي، المتشبِّع بأفكار إيلوخيو، أن جهر، في ثورة حماسية، بالتهجم على الإسلام في باحة القصر، فلحق بالراهبين ليرتفع عدد القديسين الذين حملوا هذا اللقب إلى ثلاثة(٤).

---

(١) دوزي: جـ ١ ص ٨٧ ـ ٩١. بروفنسال: ص ١٩٢، ١٩٣.

(٢) المرجعان نفساهما: ص ٩٥، ٩٦. ص ١٩٣.

(٣) بروفنسال: ص ١٩٣.

(٤) المرجع نفسه: ص ١٩٤. دوزي: جـ ١ ص ١٠١.

واكتشفت السلطات حقيقة الفتاة فلورا التي أخذت تتردَّد على الكنيسة وتجتمع بالراهب إيلوخيو، وأثارت ارتياب أسرتها لا سيما شقيقها الأكبر المتشرب بالأفكار الإسلامية الصحيحة، فقبض عليها وسلَّمها للقاضي لتنال نصيبها، وقد تلفَّظت أمامه بالكثير من الشتائم ضد الدين الإسلامي. ويبدو أن انتماءها إلى بيت مسلم خفَّف الحكم عليها، واعتقد القاضي أن ما أصابها لا يعدو أن يكون فورة سطحية لن تلبث أن تتلاشى وتعود عن موقفها، فأمر بسجنها مع رفيقة أخرى لها تدعى ماريا، غير أن اتصالها بإيلوخيو لم ينقطع، وكان يزورها في سجنها، كما أنها استمرت في الإصرار على موقفها، ولم يجد القاضي في النهاية بداً من إصدار حكم بإعدامها، وذلك في (٢٥ جمادى الأولى ٢٣٧ هـ/ ٢٤ تشرين الثاني ٨٥١ م)، لتنضم إلى قافلة الشهداء القديسين من الذين جرَّهم إيلوخيو إلى هذا المصير[١].

وأخذت أصداء هذه الحركة تمتد خارج قرطبة وتجد لها بعض المؤيدين في المدن الأخرى، كما أخذت تأخذ بُعداً صليبياً لأول مرة على المستوى الخارجي، من واقع زيارة راهبين من غالة، من ديرسان جيرمان دي باريس، لقرطبة، حيث التقيا سرّاً بزعيم الحركة، ثم عادا إلى باريس ومعهما بقايا من رفات القديسين الشهداء، وذلك في اتجاه لتحويل الرأي العام الأوروبي نحو قرطبة وإعطاء حركة الرهبان فيها البُعد السياسي المطلوب[٢].

عدَّت السلطة الإسلامية في قرطبة تلك الحركة نوعاً من العصيان المدني يمكن أن تؤدي إلى عواقب وخيمة إذا تُركت تتفاقم ولم تجد لها العلاج الناجع، فرأى عبد الرحمن الثاني أن يبادر إلى دعوة الأساقفة في دولته إلى عقد مجمع كنسي يُناقش فيه تطوراتها ويصدر حكمه عليها.

اجتمع القساوسة ورجال الدين في قرطبة في عام (٢٣٧ هـ/ ٨٥٢ م) برئاسة أسقف إشبيلية ريكافريدو. وتمثَّلت السلطة بأحد موظفيها من المستعربين المدعو جومث بن أنطونيو، فوضع المجتمعين في أجواء العاصفة المفتعلة التي خلقها إيلوخيو ورفاقه المتطرفون من الرهبان، وانعكاساتها الخطيرة على المجتمع الأندلسي بعامة وعلى المستعربين بخاصة، وحذَّرهم من التمادي في تلك الحركة

(١) دوزي: جـ١ ص ١٠٩ـ ١١١.

(٢) بيضون: ص ٢٥٨. بروفنسال ص ١٩٥، ١٩٦.

حتى لا يؤخذ المعتدلون بجريرة المتعصبين، فتضيع الفرصة على الجميع في الوصول إلى مستوى اجتماعي وسياسي واقتصادي لائق[١].

وبعد مناقشات دامت بضعة أيام، استنكر المجتمعون هذه الحركة وأعلنوا معارضتهم لها، وحذَّروا الإقدام على مثل تلك الأعمال والتلفظ بتلك الأقوال النابية بحق الدين الإسلامي ونبي الإسلام، وحمَّلوا من يقوم بها مسؤولية عمله، وعدُّوه مخالفاً لتعاليم الكنيسة، وخالف أسقف قرطبة الذي يبدو أنه انخرط في تلك الموجة المحمومة[٢].

ويبدو أن بيان المجمع الكنسي لم يترك أثراً على إيلوخيو الذي استمر في تحديه للحكومة في قرطبة، كما لم يؤدِّ إلى القضاء على الحركة تماماً وإن ساعد على تخفيف حدتها.

وهكذا استنفد عبد الرحمن الثاني كل المحاولات السلمية من أجل وضع حد لتلك الحركة، إنما بدون نتيجة وبدون إنزال العقاب بزعيمها الذي تمتَّع بشعبية واسعة بين أوساط المستعربين. وقبل وفاة عبد الرحمن الثاني بأيام تعرَّض المسجد الجامع في قرطبة لعملية انتهاك قام بها متعصبون من هذه الحركة، فكان عقابهم الإعدام، فربط إيلوخيو بين موت الأمير وعملية إعدام جماعته ليثير الحماس لدى أتباعه[٣].

وعندما تولى محمد بن عبد الرحمن الثاني الحكم خلفاً لوالده، ألقى القبض على إيلوخيو وسجنه، ثم أفرج عنه بعد قليل من الوقت مقابل خروجه من قرطبة إلى بنبلونة، وعدم عودته إليها، ولكنه لم يمكث فيها طويلاً، فعاد إلى طليطلة ومنها إلى قرطبة مجدداً ليواصل نشاطه الحركي. عدَّ الأمير محمد ذلك خرقاً لشرط التعهد الذي قطعه إيلوخيو على نفسه، فقبض عليه، وأُعدم يوم السبت (٢ ذي الحجة ٢٤٤ هـ/ ١١ آذار ٨٥٩م) واضعاً بذلك حداً لتلك الموجة الصليبية التي اتخذت من الانتماء الديني وسيلة لتحقيق أهداف سياسية ترمي إلى إضعاف الحكم الإسلامي وتوريطه في مشكلات داخلية خطيرة[٤].

---

(١) دوزي: جـ ١ ص ١٠٧.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) المرجع نفسه: ص ١١٢.
(٤) المرجع نفسه. بروفنسال: ص ١٩٦.

العلاقات الخارجية

العلاقة مع سكان جزر البليار: تقع جزر البليار، أو الجزر الشرقية، في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط مقابل السواحل الشرقية للأندلس، ولهذا سميت بالجزر الشرقية، وتتكوَّن من ثلاث جزر تتفاوت في المساحة، أكبرها جزيرة ميورقة، وأوسطها جزيرة منورقة، وأصغرها جزيرة يابسة، والمسافة بين الأولى والثانية لا تتجاوز خمسين ميلاً.

الواقع أن تاريخ فتح المسلمين للجزر الشرقية غير واضح، ويجب أن نكون شديدي الحذر والبُعد عن الإجابة القطعية الثبوت. غير أنه من المؤكد أن المسلمين عرفوا تلك الجزر في وقت مبكر، فقد غزاها موسى بن نصير في عام (٨٩ هـ/ ٧٠٨ م)، وعرفت تلك الغزوة بغزوة الأشراف، ثم توقفت الحملات العسكرية ضد تلك الجزر مدة تربو على قرن ونصف الأمر الذي يلفت نظر الباحث حول غياب نشاط المسلمين البحري في الحوض الغربي للبحر المتوسط القريب من الأندلس خلال تلك المدة.

واستناداً إلى مصادرنا التاريخية، فقد أرسل عبد الرحمن الثاني حملة بحرية إلى الجزر الشرقية في عام (٢٣٤ هـ/ ٨٤٨، ٨٤٩ م)، مؤلفة من ثلاثمائة سفينة غزت جزيرتي ميورقة ومنورقة لنقض سكانهما العهد ومهاجمتهم مراكب المسلمين التجارية، فظفر بالسكان وأصاب منهم سبياً، «وأرسل الأمير فتاه شنطير الخصي إلى ابن ميمون، عامل بلنسية، ليحضر تحصيل الغنائم ويقبض الخمس...»[(١)].

وبناءً على ذلك يمكن رصد الملاحظات التالية:

- كانت للمسلمين علاقات مع سكان الجزر الشرقية، لا سيما جزيرتي ميورقة ومنورقة، تستند على عهود من سكانها بتأمين أمور المسلمين البحرية والتجارية، لم يذكر مؤرخونا تاريخها.

- وصفت روايات المؤرخين هذا العمل الإسلامي بالفتح، فهل يعني الفتح الدائم، أم إخضاع السكان وإجبارهم على الالتزام بالعهود والكفِّ عن اعتداءاتهم على السفن الإسلامية؟

- تؤكد الأحداث التالية أن الأعمال العسكرية المذكورة لم تكن فتحاً بهدف الاستقرار، بدليل أنه في عام (٢٣٥ هـ/ ٨٤٩، ٨٥٠ م) «ورد كتاب أهل ميورقة على

---

(١) ابن حيان: المقتبس ص ٢، ٣.

الأمير عبد الرحمن بن الحكم مستغيثين مما دهمهم من سخطه، مستقيلين لعثراتهم لديه، راغبين في صفحه وإقالته، فعطف عليهم، وأقالهم من زلتهم، وأجابهم إلى مسألتهم وأعطاهم ذمته وجدَّد لهم عهده»[١].

ـ تسجل بعض المصادر أخبار الفتح الإسلامي الدائم للجزر الشرقية أو لبعضها، وتؤرخ حدوثه في عام (٢٩٠ هـ/ ٩٠٣ م) في عهد الأمير عبد الله[٢].

العلاقة مع الامبراطورية الكارولنجية: تولى عبد الرحمن الثاني الحكم في الأندلس وهي منقوصة الأطراف، إذ خرجت منطقة أودية جبال البرينيه، من برشلونة شرقاً حتى بنبلونة غرباً، من أيدي المسلمين إلى السيطرة الكارولنجية، كما استعادت أشتوريس إقليمي ألبة والقلاع، ولذا كان عليه إذا ما أراد استعادة تلك النواحي أن يواجه أعداء دولته من الكارولنجيين والأشتوريسيين، وهو ما جعل عهده جهاداً متصلاً، لا يفرغ من هؤلاء إلا ليقارع أولئك[٣]، فصارت له في بلادهم «غزوات كثيرة، وفتوحات في دار العدوة شهيرة، يخرج إليها في العدد الجمِّ، والعسكر الضخم، يخرِّب ديارهم، ويُعفِّي آثارهم، ويقفل ظاهر الاعتلاء، قاهر الأعداء»[٤]، وساعده، في ذلك، الهدوء الذي ساد جبهته الداخلية، فالحركات الثورية كان من السهولة حصرها والقضاء عليها.

والواقع أن الصراع بين المسلمين في الأندلس والكارولنجيين انحصر في الثغر الإسباني في محاولة من جانب أولئك لاستعادة مدينة برشلونة، وكان حاكم الثغر لودفيكو قد عهد إلى ابنه برنارد بمهمة الدفاع عن المدينة[٥]، ويبدو أنه تمَّ اتخاذ قرار بإرسال الحملة بعد مباحثات جرت في قرطبة بين عبد الرحمن الثاني وأيتون، وهو أحد النبلاء القوط، الذي فرَّ من سجنه في بلاد الفرنجة وانتهى به الأمر إلى التحريض على التمرد ضدهم في المناطق الجبلية التابعة للثغر الإسباني، واستولى في عام (٢١١ هـ/ ٨٢٦ م) على بعض القلاع هناك مثل أوسونا وردا، وتحصَّن فيهما، ثم أرسل أخاه إلى قرطبة لطلب المساعدة من الأمير الأموي[٦].

ونتيجة للاتفاق، الذي جرى بين الطرفين، أرسل عبد الرحمن الثاني صائفة في عام (٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م) لغزو برشلونة بقيادة عبيد الله بن عبد الله البلنسي، فجال

---

(١) ابن حيان: ص ٤.
(٢) الحميدي: ص ١٨٨.
(٣) رمضان: ص ٤٢٧.
(٤) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٩١.
(٥) بروفنسال: ص ١٨٠.
(٦) المرجع نفسه.

الجيش الإسلامي في أرجائها مدة ستين يوماً لم يصادف خلالها مقاومة تُذكر إلا أمام مدينة برشلونة، حيث نظَّم برنارد عملية الدفاع عنها ببراعة، واضطر عبيد الله إلى فك الحصار وتوجه إلى مدينة جيرونة وحاصرها، لكن بدون جدوى أيضاً، واضطر أخيراً إلى الانسحاب من المنطقة والعودة إلى قرطبة(١).

تخلَّى عبد الرحمن الثاني بعد ذلك، ولبعض الوقت، عن إرسال حملات أخرى لاستعادة برشلونة، حتى توفي لودفيكو في (شعبان ٢٢٥ هـ/ حزيران ٨٤٠ م)، فاستغل هذه الحادثة، وأرسل في العام التالي حملة قوية التجهيز إلى ذلك الثغر بقيادة عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني، وأرسل معه ابنه مطرف وموسى بن موسى، عامل تطيلة. توغَّلت هذه الحملة في الأراضي الكارولنجية مروراً بأراضي أوسونا واجتاحت مقاطعة شرطانية واقتربت من ناربونة، واشتبكت مع الفرنجة في عدة معارك أشهرها تلك المعركة التي جرت بين ناربونة وشرطانية، لكن هذه الحملة لم تغيِّر في وضع الأراضي، ويبدو أن الهدف منها كان إثبات قوة المسلمين أمام الفرنجة(٢).

وأرسل عبد الرحمن الثاني حملة أخرى في عام (٢٣٦ هـ/ ٨٥٠ م) هاجمت إقليم برشلونة، ولكنها لم تسفر عن نتيجة إيجابية إلا الحصول على بعض الأسرى وغنائم الحرب. وانتهت هذه المواجهات بعقد هدنة بين عبد الرحمن الثاني والملك الكارولنجي شارل الأصلع(٣).

العلاقة مع مملكة أشتوريس: شكَّل الصراع مع النصارى في الشمال أحد المعالم الهامة في التركة التي خلَّفها الحكم الأول لابنه عبد الرحمن الثاني المعروف بحرصه على استقرار التقاليد الأسرية، فلم يجد أمامه إلا مواصلة الجهاد ضد هؤلاء، وبخاصة مملكة أشتوريس التي أولاها اهتماماً خاصاً وقامت «استراتيجيته» على:

- ضرب تحالفها مع البشكنس في بنبلونة.
- استعادة إقليمي ألبة والقلاع.

فخرج بنفسه على رأس صائفة في عام (٢٠٧ هـ/ ٨٢٢ م) لغزو أراضيها «فأبعد وأطال المغيب، وأثخن في أمم النصرانية هنالك ورجع»(٤).

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٨٣. (٢) المصدر نفسه: ص ٨٦.

(٣) لقد جرى تقسيم الامبراطورية الكارولنجية بين أولاد الامبراطور لويس بن شارلمان، بموجب معاهدة ڤردان الشهيرة في عام ٨٤٣م. فحاز شارل الأصلع على نستريا وأكويتانيا والثغر الإسباني، على الحدود الجنوبية، فجاورت أراضيه أراضي المسلمين في الأندلس.

(٤) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٢٧. المقري: جـ ١ ص ٣٣٢.

ويبدو أن التوفيق لازم الأمير الأموي في حملته. فقد هاجم ثغور مملكة أشتوريس وتغلَّب على حامياتها، وامتدت غاراته إلى إقليم جليقية، ثم عاد إلى قرطبة، ربما لاقتراب فصل الشتاء، والراجح أن الهدف من حملته المبكرة هذه هو:

- الوقوف على استعدادات هذه المملكة وإمكاناتها الدفاعية على الجبهة الغربية في إقليم جليقية.
- صرف اهتمامها إلى تلك الجبهة ليضرب على الجبهة الشرقية في إقليمي ألبة والقلاع.

ولذا فما كاد يعود إلى قرطبة حتى جهَّز جيشاً لغزو هذين الإقليمين، في الصيف التالي، أسند قيادته إلى قائده العجوز الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث. فدخل إقليم ألبة من فج يقال له جرنيق، وهو أحد معابر هذا الإقليم المؤدي إلى إقليم القلاع، ويمتد وراءه «بسيط للعدو فيه خزائنه وذخره، فوقع أهل العسكر على تلك البسائط فاستصفوها وعلى ذخر تلك الخزائن فانتهبوها، واستوعبوا خراب كل ما مرَّوا عليه من العمران والقرى، وأقفروها، وانصرف المسلمون غانمين ظافرين»[1].

والواقع أن الحملة لم تقتصر على الإغارة والسلب والتدمير، وإنما تعدَّت ذلك إلى الفتح وتحرير أسرى المسلمين، على الرغم من أن الروايات الإسلامية لم تحدِّد أسماء الأماكن التي فتحها عبد الكريم، وإن كان يُفهم، من رواية النويري، أنها كانت حصوناً في إقليم ألبة[2]. وأطلق المؤرخون المسلمون على تلك الغزوة اسم «غزوة ألبة والقلاع»[3].

ولاحظ عبد الرحمن الثاني أن ملك أشتوريس يركِّز الدفاع عن الجبهة الغربية لمملكته في إقليم جليقية، كلما تعرَّض لهجوم إسلامي مزدوج على الجبهتين الغربية والشرقية، لذلك أدخل تعديلاً على خططه العسكرية ليجعلها أكثر فاعلية، فأرسل ثلاثة جيوش معاً لمهاجمة أقاليم الشمال[4].

كان من الطبيعي أن ينهض ألفونسو الثاني للدفاع عن إقليم جليقية، في حين ترك أمر الدفاع عن إقليمي ألبة والقلاع لحاميات مدنهما وقلاعهما، ولعل هذا ما يفسر

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٨٢. (٢) بلوغ الأرب: جـ ٢٣ ص ٣٧٦.

(٣) ابن حيان: المقتبس الثاني ص ١٧٨. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٨١.

(٤) ابن حيان: المصدر نفسه: ص ١٧٩.

سهولة اقتحام عبيد الله بن عبد الله البلنسي، قائد الجيش الأول، أراضي ألبة في (ربيع الأول ٢١٠ هـ/ تموز ٨٢٥ م)، حيث اصطدم بالجيش الأشتوريسي عند سفح جبل المجوس وانتصر عليه، وأطلق المؤرخون المسلمون على هذه الغزوة اسم «غزوة الفتح»[١].

ودخل الجيشان الآخران، بقيادة مالك بن عبد الله وشقيقه العباس، إقليم جليقية من ناحيتين متباعدتين، ولكنهما عجزا عن الالتقاء حسب الخطة الموضوعة، الأمر الذي يدل على شدَّة ما صادفاه من مقاومة، كما أن الصمت التام حول إنجازاتهما يحملنا على الاعتقاد بأنهما تعرَّضا لهزيمة فادحة[٢]. وربما دفعت هذه الهزيمة العاهل الأموي إلى إرسال جيش آخر بقيادة فرج بن مسرَّة، حاكم منطقة جيان، إلى أشتوريس للانتقام في (منتصف رمضان/ أواخر كانون الأول)، ففتح حصن القلعة[٣]، كما أرسل حملة أخرى في عام (٢١١ هـ/ ٨٢٦ م)، بقيادة البلنسي، هاجمت أراضي جليقية، ووصلت إلى وادي ألمينيو وقشتالة[٤].

توقف النشاط العسكري على الجبهة الأشتوريسية بعد هذه الحملة مدة أحد عشر عاماً، ربما نتيجة مفاوضات جرت بين العاهلين الأموي والأشتوريسي، أو لأن الأمير الأموي انهمك في مشكلات داخلية بما وقع في الأندلس من فتن وثورات متلاحقة استحوذت على كامل نشاطه واهتمامه طوال تلك المدة[٥].

والواضح أن تلك المتاعب لم تكن خافية عن أعين ألفونسو الثاني، فاستغلها لزيادة حدَّة الاضطرابات الداخلية والضغط على عبد الرحمن الثاني لصرف نظره عن مهاجمة أملاكه، من ذلك تعاونه مع الثائر محمود بن عبد الجبار، كما ذكرنا.

وما كاد الهدوء يعود إلى الجبهة الداخلية حتى استأنف عبد الرحمن الثاني نشاطه الجهادي ضد مملكة أشتوريس انتقاماً منها على إيوائها المعارضين لحكمه، فأرسل إليها حملات متتالية توغلت في أراضي ألبة والقلاع وأثخنت فيها وفتحت إحداها حصن القرية[٦].

---

(١) ابن حيان: المقتبس الثاني: ص ١٧٩. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٥٤٨.

(٢) بروفنسال: ص ١٧٦.

(٣) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٨٢. ابن الأثير: جـ ٥ ص ٥٤٨.

(٤) ابن حيان: ص ١٨٠.

(٥) رمضان: ص ٤٣١.

(٦) ابن حيان: ص ١٨٤. وعند ابن الأثير: حصن الفرات جـ ٦ ص ٥٠.

وجاء الرد الأشتوريسي سريعاً حين أرسل ألفونسو الثاني قوة عسكرية، بقيادة رودريك، هاجمت مدينة سالم، إحدى مدن الثغر الأوسط، فتصدَّى لها فرتون ابن موسى وأجبرها على الارتداد، وقُتل رودريك في المعركة[1]. وردَّ عبد الرحمن الثاني على هذه الجرأة فأغزا ابنه الحكم أراضي ألبة فعاث فيها[2].

وحدث في عام (٢٢٧ هـ/ ٨٤٢ م) أن توفي ألفونسو الثاني، فاضطربت الأمور في مملكة أشتوريس بفعل الصراع على العرش بين روميرو بن برمودو، الذي اختاره النبلاء، ونبوقيانو، وهو أحد النبلاء الطامعين في السلطة، وانقسمت البلاد بين مؤيد لهذا أو ذاك، وكانت الغلبة لروميرو، فقبض على خصمه وسمل عينيه وزج به في أحد الأديرة[3]، وأعاد الوحدة السياسية للمملكة، لكنه تعرَّض لمؤامرات داخلية لخلعه عن العرش، كما تعرَّض لغارات النورمان، ما صرفه عن غزو الأراضي الإسلامية، وتوفي في عام (٢٣٥ هـ/ ٨٥٠ م).

كان من المتوقع أن يستغل عبد الرحمن الثاني المتاعب التي كانت تمر بها مملكة أشتوريس لغزوها، لولا أن تعرَّض هو الآخر لغارات النورمان في عام (٢٢٩ هـ/ ٨٤٤ م)، كما غزا جزيرتي ميورقة ومنورقة، ولعل أهم من ذلك كله أنه انصرف إلى محاربة زعيم أسرة بني قسي، موسى بن موسى، عامل تطيلة بالثغر الأعلى، الذي ظل ينزع إلى الاستقلال، ومع ذلك فقد غزا مملكة أشتوريس مرتين في عامي (٢٣١ و ٢٣٤ هـ/ ٨٤٦ و ٨٤٨ م)، إلا أنه لم يحقق إنجازاً يذكر، ثم توقف النشاط الجهادي بعد ذلك إلى وقت وفاته في (ربيع الآخر ٢٣٨ هـ/ أيلول ٨٥٢ م)[4].

الغزو النورماني للأندلس

تمهيد: ساد الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، في منتصف القرن التاسع الميلادي، تياران مختلفان كان لهما علاقة بالمدى الذي أفشل غارات النورمان على ذلك الحوض، وتحديد معالمه طيلة العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة.

تمثَّل التيار الأول باستقرار أوضاع المسلمين في الأندلس وفي المغرب الأدنى.

ففيما يتعلق بالأندلس، فقد بدأت هذه البلاد تشهد، في عهد عبد الرحمن

---

(١) ابن حيان: ص: ١٨٥. ابن الأثير: جـ ٦ ص ٦٠.

(٢) المصدران نفساهما.

(٣) رمضان: ص ٤٣٧، ٤٣٨.

(٤) ابن حيان: المقتبس ص ٢، ١٧. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٩٠. النويري: جـ ٢٣ ص ٣٨٥.

الثاني، حركة نشطة من النهوض في المرافق العامة، والانتقال من وضع الإمارة إلى وضع الدولة بكل تنظيماتها، وتجلّت مظاهر الاستقرار في تراجع الثورات التي سبق أن شهدتها هذه البلاد في العهود السابقة.

وفيما يتعلق بالمغرب الأدنى، فقد حكمت أسرة الأغالبة[1]، التي وضعت حداً للثورات والفتن العديدة التي سبق للبربر أن قاموا بها، كما وجَّهت نشاطها الجهادي لغزو الجزر البحرية، ولعل أهم مظهر لهذه القوة البحرية هو فتح جزيرة صقلية التابعة للدولة البيزنطية، في عام (٢١٢ هـ/ ٨٢٧ م)، واتخذها الأغالبة قاعدة أمامية لمهاجمة جنوبي غالة وشواطىء إيطاليا الجنوبية. وتميز نشاطهم البحري بتعاونهم مع القوى الأندلسية ضد القوى الجرمانية المطلة على غربي البحر الأبيض المتوسط، ومساعدة الأندلسيين ضد الفرنجة، هذا على الرغم من تبعية الأغالبة للخلافة العباسية، من الناحية الاسمية على الأقل. وكان لهذا التعاون أثر كبير في زيادة هيبة المسلمين في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

وتمثَّل التيار الثاني بتفكك الدولة الكارولنجية في غالة، الذي مهَّد الطريق للنورمان للانسياب إلى غربي أوروبا واستغلال الموقف المتردي هناك لصالحهم. ذلك أن الحكام الكارولنجيين، على اختلاف توجهاتهم وميولهم، لم يستطيعوا الانعتاق من مساوىء التقليد الجرماني القديم الذي ينص على أن المُلك إرث يُقسَّم أنصبة متساوية بين أبناء الملك المتوفى. وطبيعي أن يؤدي استمرار تطبيق هذا المبدأ إلى تفتيت الدولة وزوالها، نتيجة لتقسيمها بين الأبناء، ثم تقسيم كل قسم بين أبناء الأبناء، وهكذا. والملفت أن الامبراطور شارلمان نفسه، وهو السياسي البعيد النظر، وقع فريسة هذا التقليد، ونهج أبناؤه وأحفاده النهج نفسه الأمر الذي أدى إلى ضياع الوحدة التي عمل ملوك الفرنجة على فرضها على غربي أوروبا، وانهيار الامبراطورية الكارولنجية في عام (٢٧٥ هـ/ ٨٨٨ م).

أصل النورمان: شكَّل ظهور النورمان في غربي البحر الأبيض المتوسط، في القرن التاسع الميلادي، حدثاً مفاجئاً لكل من المسلمين في الأندلس والكارولنجيين الفرنجة ذلك أن النورمان يُرجعون بأصولهم إلى العنصر الجرماني، لكنهم ظلوا يعيشون في عزلة في شبه جزيرة سكندناوة وشبه جزيرة الدانمارك، كبرابرة، محافظين

---

(١) ينتسب الأغالبة إلى إبراهيم بن الأغلب، الذي عيَّنه الخليفة هارون الرشيد والياً على إفريقيا في عام (١٨١هـ/ ٧٩٧م)، فاستقل بها بعد وفاة الخليفة، واتخذ من القيروان عاصمة له.

على أوضاعهم البدائية فيما يختص بنظام الحكم والبناء الاجتماعي والديانة، وبعيدين عن العالم الروماني في الغرب. وانقسموا إلى ثلاث مجموعات هي: السويديون والنرويجيون والدانماركيون. وعُرف هذا العنصر الجرماني المتأخر باسم النورمان لأنهم أغاروا على أوروبا من الشمال، وهي تسمية جغرافية محضة[(١)]، أو لأنهم من سكان الشمال. وأطلق عليهم المسلمون اسم الأردمانيين، وهي تحريف لكلمة نورومان اللاتينية، وتعني سكان الشمال، كما أطلقوا عليهم اسم المجوس بفعل أن النورمان كانوا بشعلون النار في كل مكان ينزلون فيه ما جعل المسلمين يعتقدون أنهم يعبدون النار، شأنهم في ذلك شأن المجوس[(٢)].

وأطلق عليهم المؤرخون المعاصرون اسم الڤايكنغ، وهي لفظة مشتقة من لفظة ڤايك أي الخليج أو الفيورد، بمعنى سكان الخلجان أو الڤيوردات، وهي الظاهرة الطبيعية التي تمتاز بكثرتها شواطىء المنطقة الشمالية الغربية من أوروبا وبخاصة شبه جزيرة سكنديناوة[(٣)].

أتاحت البيئة التي عاش فيها النورمان بتوجيه نشاطهم نحو البحر، ذلك أن طبيعة بلادهم الجبلية المليئة بالغابات والمستنقعات، لم تترك لهم مجالاً يعيشون فيه سوى السهول الساحلية الضيقة، ومن ثمَّ دفعت الطبيعة بهم نحو البحر، فبرعوا في بناء السفن الصغيرة، الطويلة الشكل ذات المجاذيف العديدة لتساعدهم على الإبحار حسب الأنواء والأجواء[(٤)]، فجابوا شواطىء أوروبا من بحر البلطيق حتى البحر الأبيض المتوسط، لذلك اتخذت غاراتهم شكلاً بحرياً أقرب إلى القرصنة منه إلى الزحف البري والاستقرار. كذلك عُرف عن النورمان مهارتهم في القتال، وقوة تسلحهم، فالمقاتل منهم يحمل بلطة وحربة طويلة ويضع على جسده درعاً واقياً، وعلى رأسه خوذة من الحديد.

غارات النورمان الاستطلاعية على الأندلس: ظل ظهور القراصنة النورمان على شواطىء الأندلس وما أحدثوه من دمار وخراب، وما بثُّوه من رعب في صفوف السكان؛ ماثلاً وحيّاً في وجدان الأندلسيين لدرجة أن صداه استمر لمدة طويلة في

---

(١) العدوي: ص ٢٧٧.

(٢) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٩٣. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٨٧. النويري: جـ ٢٣ ص ٣٨٣.

(٣) Mawer, A: The Vikings P. 1.

(٤) Camb - Med. - History III. P. 312.

الأدب الأندلسي. فقد أوردت المصادر الإسلامية روايات مطوَّلة ومفصَّلة عما فعله هؤلاء في الأراضي الأندلسية.

والراجح أن النورمان، الذين هاجموا الأندلس، انطلقوا من موطنهم الدانمارك لشن غارات على بلاد الفرنجة انتقاماً لما أحدثه الامبراطور شارلمان من تخريب لأراضيهم. وتزايد نشاطهم في عهد خلفائه، واتخذ مظهراً يهدف إلى الاستقرار في بلاد الفرنجة، وقد شجَّعهم على ذلك تراجع قوة الدولة الكارولنجية والحروب الداخلية التي نشبت بين الحكام الكارولنجيين، كما هاجموا، في عهد ملكهم هوريك، سواحل مملكة أشتوريس الشمالية عند بلده خيخون، فاحتلوا المدينة وخرَّبوها ثم ساروا بحذاء الساحل حتى دخلوا جليقية عند برج هرقل وبادر الملك روميرو بصدهم[(١)].

ويبدو أن النورمان لم يرغبوا في البقاء في أشتوريس بسبب وعورتها وفقرها، فواصلوا إبحارهم قاصدين الساحل الغربي للأندلس التابع للدولة الأموية، وقد استهواهم ثراء البلاد وازدهارها وحقولها الغنية. فظهرت مراكبهم بشكل مفاجئ أمام مدينة أشبونة عند مصب نهر تاجُه، يوم الأربعاء (أول ذي الحجة ٢٢٩ هـ/ ٢٠ آب ٨٤٤ م)، فصدَّهم والي المدينة وهب بن حزم، ولكنه شعر بخطرهم الكبير، فأرسل رسالة إلى قرطبة يخبر عبد الرحمن الثاني أنه «نزل بالساحل أربعة وخمسون مركباً من مراكب المجوس، ومعها أربعة وخمسون قارباً»[(٢)]، ويطلب إمدادات على وجه السرعة، فأرسل الأمير الأموي رسائل تحذيرية وتعليمات لكافة الولاة الذين تطل ولاياتهم على البحر لاتخاذ التدابير اللازمة حتى يُرسل إليهم الإمدادات[(٣)].

ويبدو أن هذا الإنزال البحري كان بمثابة استطلاع واختبار لقوة المدافعين ودراسة سبل الإنزال الكبير بهدف التوغل في عمق الأراضي الأندلسية. وبفعل ما صادفوه من مقاومة، تجنب النورمان تجميع قواهم والاشتباك مع المسلمين في معركة مكشوفة، واتبعوا خطة تهدف إلى توسيع رقعة الإنزال البحري وتشتيت قوى المسلمين، لذلك انقسموا إلى وحدات قتالية صغيرة تستطيع القيام بغارات خاطفة ومهلكة، وتحصل على قدر أكبر من الغنائم[(٤)]، هاجم بعضها مدينة قادس ودخلوها،

(١) العدوي: ص ٢٨٣، ٢٨٤.
(٢) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٨٧.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) العدوي: ص ٢٨٥.

وأغار البعض الآخر على مدينة شذونة[1]، وتجمَّعت القوة الرئيسة عند مصب نهر الوادي الكبير لتغير على منطقة إشبيلية الغنية بمزارعها.

غارة النورمان على إشبيلية: احتل النورمان جزيرتي قبطور وقبطيل الواقعتين عند مصب نهر الوادي الكبير واتخذوهما قاعدة انطلاق للداخل للأندلسي وذلك في (محرم ٢٣٠ هـ/ أيلول ٨٤٤ م). وتوغلت أربع سفن في مجرى النهر، للاستطلاع، فوصلت إلى قرية قورية الواقعة على بُعد إثني عشر ميلاً من إشبيلية، ثم دخلت طلياطة على بُعد ميلين من المدينة، التي تعرَّضت للسلب والنهب.

شجَّعت هذه الغارة النورمان على مهاجمة إشبيلية نفسها، فتقدموا من جزيرة قبطيل مصعِّدين شمالاً قاصدين المدينة، وعجزت حاميتها عن صدِّهم، فدخلها الغزاة في (١٤ محرم/ أول تشرين الأول) وعاثوا في أرجائها مدة سبعة أيام، وفرَّ سكانها إلى قرمونة والجبال باستثناء الشيوخ الذين احتموا بالمسجد، فقتلهم النورمان، وسمي ذلك المسجد بعد تلك الكارثة باسم مسجد الشهداء[2].

أفزعت تلك الغارات السلطات الحاكمة في قرطبة، فحثَّ عبد الرحمن الثاني الناس على الجهاد، وأرسل عدة فرق عسكرية اتخذت مواقع لها في مرتفعات مدينة الشرف على حافة الهضبة المشرفة على المدينة، ثم تقدمت إلى قرمونة وعسكرت فيها، واتخذتها قاعدة لصدِّ هجوم النورمان الذي بدأ يتسع في وادي إشبيلية.

اتبع النورمان أسلوب قتال قائم على الحرب الخاطفة، وهذا أسلوب جديد لا عهد للقوات الأندلسية به، لذلك عجزت هذه القوات عن صدِّ هجماتهم، وأدرك عبد الرحمن الثاني مدى خطورته، فقرَّر مواجهتهم بالأسلوب نفسه.

كانت قوات الثغر الأعلى بقيادة موسى بن موسى أفضل من يُنفِّذ تلك الخطط العسكرية القائمة على الحرب الخاطفة التي هي إلى القرصنة أقرب، لأنها تدرَّبت، في حروبها ضد النصارى في الشمال، على أسلوب مواجهة السرايا الخاطفة، فكانت تجيد حرب العصابات التي تتفق مع طبيعة الجهات الجبلية المتاخمة لها[3].

وصل موسى بن موسى إلى قرمونة، وراح يراقب تحركات النورمان، فلاحظ أن سراياهم تخرج كل يوم فتهاجم فريش، الواقعة في منتصف الطريق بين إشبيلية

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٨٧.

(٢) بروفنسال: ص ١٨٥. العدوي: ص ٢٨٦ـ ٢٨٧. (٣) العدوي: ص ٢٨٨ـ ٢٨٩.

وقرطبة، ولقنت، من ضواحي إشبيلية، وجهات قرطبة، فوضع خطة عسكرية لاعتراضها تقوم على إعداد الكمائن على طول الطريق التي تسلكها تلك السرايا. وقضت الخطة أن يتخذ قرية كِنتُش الواقعة إلى الجنوب من إشبيلية مقراً لقيادته، كما وضع مراقباً في أعلى مكان في القرية ليراقب تحركات تلك السرايا ويعلمه بالتطورات الميدانية.

وجرت عادة النورمان أن يرسلوا في صباح كل يوم طليعة إلى الجهات التي سيهاجمونها لضمان خلوها من قوات العدو، وتأمين الطريق للجيش الرئيس. فأرسلوا ذات صباح قوة عسكرية إلى إشبيلية تبلغ ستة عشر ألف مقاتل تتقدمها الطليعة، ولم يكتشف أفرادها أنهم مراقبون، ولما وصلوا إلى قرية موررور هاجمهم أفراد الكمائن وفاجأوهم. وتعرَّض الجيش النورماني لمذبحة مروعة، وارتدت فلوله بغير نظام إلى إشبيلية، لكنها لم تستطع دخول المدينة بفعل المقاومة، وارتدت إلى جزيرة قبطيل[1].

نتيجة لهذا التطور، بدَّل النورمان خطتهم القتالية، فبدلاً من المواجهة والقتال على الأرض، اتخذوا من سفنهم قواعد للاحتماء وعبور النهر لمهاجمة المدن والقرى متجنبين الاشتباك مع المسلمين في معارك برية مكشوفة.

واجه المسلمون هذا «التكتيك» العسكري بأن نصبوا المجانيق على ضفتي نهر الوادي الكبير، راحت تضرب سفن النورمان بالحجارة فتغرقها وتجبر المقاتلين على النزول إلى البر، فيصطدمون بهم. وجرى قتال ضار في قرية طلياطة بعد أن نزل النورمان إلى برها في (٢٥ صفر ٢٣٠ هـ/ ١١ تشرين الثاني ٨٤٤ م) انتهى بانتصار المسلمين وسقط عدد كبير من النورمان قتلى، عُلِّقت جثثهم في جذوع النخل[2]، وبادرت فلولهم بالعودة إلى السفن الراسية في عرض البحر وهم في حالة ذعر واضطراب. وقبل أن يغادروا أعلنوا عن رغبتهم في الفداء وتبادل الأسرى، فأجابهم المسلمون إلى طلبهم.

وعلى هذا الشكل، انتهت غارة النورمان على الأراضي الأندلسية بعد شهرين من قيامها، كادت تتعرض فيها سلامة البلاد لخطر محقَّق لولا يقظة عبد الرحمن الثاني وقادته وحسن استعدادهم العسكري. وإذ أدرك النورمان أن بلاد الأندلس تختلف عن

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٨٨.
(٢) المصدر نفسه.

بلاد الفرنجة وإنكلترا وغيرهما من دول غربي أوروبا من حيث الاستعداد والقوة؛ عمدوا إلى التفاهم مع المسلمين وخطب ودهم، بدلاً من الاستمرار في عدائهم.

نتائج الغزو النورماني

التفاهم الأندلسي ـ النورماني: أرسل ملك النورمان سفارة إلى قرطبة يطلب الصلح ليتجنَّب انتقام المسلمين. رحَّب عبد الرحمن الثاني بهذه السفارة لأنه أراد من خلالها أن يتعرَّف على أوضاع ذلك الشعب الذي يختلف عن النصارى في الشمال، من واقع شراسته وشدة قسوته، ومراسه في القتال، ثم أرسل سفارة إسلامية رداً على السفارة النورمانية برئاسة أحد أكفأ رجاله السياسيين، ويدعى يحيى الغزال، الذي اشتهر بكياسته السياسية وسعة اطِّلاعه وحلاوة لسانه وحدة خاطره وقدرته على الإقناع[1].

غادر يحيى الغزال قرطبة في (أوائل ٢٣١ هـ/ أواخر صيف ٨٤٥ م) يرافقه شخص آخر هو يحيى بن حبيب، حاملاً معه هدايا وتحفاً نادرة لملك النورمان، ورافقت السفينة الإسلامية سفينة الوفد النورماني.

عبرت السفينتان بحر الشمال العاصف، ووصلت إلى الدانمارك، فأقام الوفد الإسلامي في ضيافة الملك النورماني. وعندما حان موعد اللقاء بينهما اشترط يحيى الغزال ألا يسجد له ولا يجيب له طلباً يتضمَّن خروجاً عن الدين الإسلامي وتعاليمه، غير أن الملك النورماني على الرغم من موافقته على تلك الشروط، إلا أنه عمد إلى المكر والخديعة فضيَّق المدخل الذي يؤدي إلى قاعة الاستقبال بحيث يضطر الداخل إلى الركوع. فلما وصل يحيى الغزال وشاهد ذلك جلس على الأرض وزحف على مؤخرته، حتى تجاوز الباب فنهض ومشى. أُعجب الملك من هذا التصرف ووصفه بقوله: «أردنا أن نذلَّه فقابل وجوهنا بنعليه، ولولا أنه رسول لأنكرنا ذلك عليه».

وتلقَّى الملك من يحيى الغزال رسالة عبد الرحمن الثاني والهدايا. وجرت بين المبعوث الأندلسي وبعض رجال النورمان مناظرة تفوَّق فيها عليهم حتى ذاع صيته في المجتمع النورماني، وبلغ مسامع الملكة، فأرسلت إليه تستدعيه للاجتماع به والتعرُّف عليه، فلبّى الدعوة، وأجرى معها محادثات اتسمت بالودية. وتعرَّف يحيى الغزال على أوضاع الطبقة الحاكمة وعلاقة الرجال بالنساء.

---

(١) أورد قصة سفارة يحيى الغزال إلى بلاد النورمان أبو الخطار بن دحية الكلبي في كتابه المطرب في أشعار أهل المغرب ص ١٣٨ وما بعدها.

أقام الغزال مدة شهرين في الدانمارك تعرَّف خلالها على أوضاع النورمان الاجتماعية والسياسية ودرس طبيعة بلادهم، وكتب تقريراً بذلك قدَّمه إلى عبد الرحمن الثاني بعد عودته.

تقوية البحرية الأندلسية: تُشرف الأندلس بسواحلها الطويلة على مياه البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، شرقاً وغرباً وجنوباً، وهذا ما جعلها عُرضة لأي غزو بحري يأتيها من هذه النواحي. ولا شك بأن المسلمين أدركوا هذه المشكلة منذ أن بسطوا سيادتهم على البلاد، فاتبعوا سياسة بحرية اعتمدت على دور الصناعة القديمة التي كانت منتشرة على تلك السواحل، مثل طلوشة وطرَّكونة ودانية وبجانة والجزيرة الخضراء وغيرها. ولم يشكل الحصول على المواد الخام لصناعة السفن، مثل الخشب والحديد، أية مشكلة لأنها كانت متوفرة في الطبيعة الأندلسية. غير أن البحرية الأندلسية كانت لا تزال محدودة الإمكانات والوسائل في عهد عبد الرحمن الثاني، وافتقرت إلى القواعد والسفن الكافية لحماية جميع سواحلها لا سيما الغربية منها التي اشتهرت بضعف تحصيناتها. وهكذا فإن الاختلال كان واضحاً في هذا المجال، وظلَّ قائماً حتى تعرَّضت تلك السواحل المكشوفة والمفتقرة إلى السفن والتحصينات، لهجوم مفاجىء قام به النورمان، فكان لا بد من تقوية البحرية الإسلامية والاهتمام ببناء دور لصناعة السفن، كما أشار إلى ذلك تقرير الغزال، لذلك أمر عبد الرحمن الثاني ببناء الربط، أي الحصون، على طول الساحل من أشبونة إلى أرقش، وشحنها بالمقاتلة للمرابطة والدفاع عن البلاد إذا تعرَّضت لأي هجوم، فنشأت بذلك الثغور البحرية الإسلامية في الأندلس.

استتبع بناء الثغور البحرية وإقامة نظام دفاعي على الشواطىء الأندلسية بناء السفن البحرية لحراسة السواحل الغربية، ومراقبة سفن العدو قبل أن تهاجم تلك السواحل. فأمر عبد الرحمن الثاني ببناء دار لصناعة السفن في إشبيلية التي أضحت قاعدة هامة للأسطول الأندلسي في المياه الغربية، وزوَّده برجال البحر المدرَّبين وبآلات وقوارير النفط. وأغدقت السلطات بسخاء على رجال البحرية ليتفرغوا للدفاع. واستفادت البحرية الإسلامية مما وضعه يحيى الغزال في تقريره حول مراكز تجمعات النورمان والمسالك البحرية التي يسلكونها للقيام بغاراتهم على الأندلس، فكانت السفن الإسلامية ترصد هذه المسالك وتجول في مياه الأطلسي لحراسة الشواطىء، من جليقية إلى مصب نهر الوادي الكبير، ما أعاق الهجمات النورمانية في المستقبل وحجَّمها.

بناء سور إشبيلية: عُرِف عن النورمان أنهم كانوا يتجنَّبون مهاجمة الأماكن المحصَّنة بوسائل الدفاع والحراسة، ويهاجمون السواحل المكشوفة التي لا تعترض عمليات سلبهم ونهبهم. وكانت سواحل الأندلس الغربية من هذا النوع، لذا لم يجد هؤلاء صعوبة في احتلال مدينة قادس واختراق نهر الوادي الكبير من مصبه والصعود بسفنهم، ثم الاستيلاء على مدينة إشبيلية وضواحيها عدة أيام عاثوا خلالها قتلاً ونهباً وحرقاً وتخريباً، كما ذكرنا ذلك من قبل. وقد أثبتت هذه الهجمات ضعف تحصينات إشبيلية، لذلك اتخذ عبد الرحمن الثاني إجراءات سريعة لتحصينها كان من بينها بناء سور حولها ليقيها من أي هجوم مباغت.

انفتاح الأندلس السياسي على العالم الخارجي

العلاقات الأندلسية مع القوى الإسلامية في شمالي إفريقيا: تميز الفتح الإسلامي لشمالي إفريقيا، الذي بدأ في عام (٢٢ هـ/ ٦٤٣ م) وانتهى في عام (٨٦ هـ/ ٧٠٥ م)، بكثرة الصعاب التي واجهته، إذ لم يتمكَّن الفاتحون المسلمون من السيطرة على المنطقة إلا بعد أن تغلَّبوا على الجيوش البيزنطية، وأخمدوا المقاومة البربرية. وتناوب على حكم المنطقة ولاة أمويون ثم عباسيون بنسق على غاية من السرعة، ما استوجب تعيين ما لا يقل عن عشرين والياً لإقرار الأوضاع المتردية بفعل الصراعات الداخلية بين الولاة من جهة، ثم بين العناصر المشرقية والعناصر المغربية من جهة أخرى.

استغل نفر من الخوارج الفارين من الشرق إلى الغرب هذه الثغرة فتغلغلوا في صفوف البربر وأخذوا يحرِّضونهم على الثورة ضد ما يقع عليهم من ظلم الولاة.

والواقع أنه لم تعكس صورة شمالي إفريقيا تحت الحكم الإسلامي سوى الارتباك والاضطراب، وفَقَدَ العباسيون السيطرة على المغربين الأوسط والأقصى لصالح الجماعات الخارجية، فحرصوا على الاحتفاظ بولاية إفريقيا لتكون سدّاً منيعاً أمام حركات الخوارج بخاصة.

والواضح أنه تمخَّض عن الثورات المتعددة التي شهدها شمالي إفريقيا وتراجع قوة السلطة المركزية المشرقية، بفعل بُعد المسافة الفاصلة بين بغداد وشمالي إفريقيا؛ بروز وحدات سياسية استقلت كل منها بناحية من المغربين الأوسط والأقصى بالإضافة إلى ولاية إفريقيا، قادها جماعات من الطامعين أو القادرين على الوصول إلى الحكم من عرب وبربر، وذلك خلال القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي، أهمها:

ـ الدولة المدرارية أو دولة بني واسول، وهي دولة خارجية صفرية عاصمتها سجلماسة الواقعة في جنوبي المغرب الأقصى، أسسها عيسى بن يزيد المكناسي في عام (١٤٠ هـ/ ٧٥٧ م)، وهو من موالي العرب، والتفَّ حوله أهل تلك الصحراء من مكناسة بزعامة أبي القاسم سمكو بن واسول الملقب بـ «مدرار» وإليه تنسب هذه الدولة التي تولى رئاستها بعد أن عزل عيسى المكناسي.

ـ الدولة الرستمية، وهي دولة خارجية أباضية عاصمتها مدينة تاهرت، أسسها أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري في عام (١٤٤ هـ/ ٧٦١ م) وقد خلفه عبد الرحمن بن رستم، الفارسي الأصل، في عام (١٦٠ هـ/ ٧٧٧ م) وإليه تنسب هذه الدولة.

ـ دولة الأدارسة، وهي دولة شيعية حسنية، أسسها إدريس بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب في المغرب الأقصى في عام (١٧٢ هـ/ ٧٨٨ م) عاصمتها مدينة فاس.

ـ الدولة الأغلبية، وقامت في طرابلس الغرب وإفريقيا وقسم من المغرب الأوسط، أسسها إبراهيم بن الأغلب في عام (١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م) واتخذ مدينة القيروان عاصمة له.

فأي نوع من العلاقات كانت تربط الإمارة الأموية في الأندلس، في عهد عبد الرحمن الثاني، بتلك الدول المستقلة[١]؟

الواقع أن المصادر الإسلامية تلتزم الصمت بشأن نوع هذه العلاقات، واقتصر المؤرخون المسلمون على ذكر بعض الحوادث بإيجاز شديد، واللافت أن العلاقة مع الدولة الرستمية كانت ودية. فحين تولى عبد الرحمن الثاني الحكم في عام (٢٠٧ هـ/ ٨٢٢ م)، أرسل عبد الوهاب بن رستم سفارة إلى قرطبة قوامها ثلاثة من أبنائه، هم عبد الغني وبحرام وصخيون، لتقديم الولاء. استقبل الأمير الأموي الأمراء الثلاثة بحفاوة بالغة، وبعد أن حمَّلهم بالهدايا عادوا إلى المغرب، لكن السفينة التي كانت تحمل بحرام وصخيون غرقت بمن عليها، ووصل عبد الغني سالماً إلى تاهرت، إلا أنه وجد والده قد توفي منذ سبعة أشهر، وتمَّ اختيار أخاه أفلح كحاكم على الدولة الرستمية.

---

(١) انظر بروفنسال: ص ١٩٦ـ ٢٠٢.

كانت الدولة الرستمية تعيش في منطقة فاصلة بين الأغالبة والأدارسة، ولا تربطها بهما إلا مشاعر العداء، لذلك طلب أمراؤها حماية قرطبة، وقد جمعت الطرفين مصلحة مشتركة تمثَّلت بالعداء للعباسيين، ورحَّبت حكومة قرطبة بهذه الخطوة. ويبدو أن الدخول في حماية الدولة الأموية في الأندلس كان أحد البنود الرئيسة لنشاط الرستميين، واستمر هذا الموقف الودي بين الطرفين حتى أن قرطبة أبلغت تاهرت بانتصارها على النورمان.

أما العلاقة مع دولة الأدارسة في فاس، فكان يشوبها البرود بفعل تشابه ظروف نشأة الدولتين، إذ إن كلاهما من عرب المشرق ومن الفارين من السلطة العباسية، وربما كان هذا التشابه حافزاً لتجنب الدخول في نزاع مع بعضهما، على الرغم من اختلافهما في المذهب الديني، فقد كان الأدارسة شيعة في حين كان الأمويون من أهل السُنَّة.

إن صمت المصادر بشأن العلاقة بين الأمويين في الأندلس وبين الدولة الأغلبية، يدفعنا إلى الافتراض بأنه كان بينهما نوع من التجاهل المشترك والحذر الضمني وبخاصة من جانب الأمويين. والواضح أن الأغالبة كانوا شديدي التمهل في قيام علاقات بينهم وبين الأمويين. فالدولة التي أسسها إبراهيم بن الأغلب، حافظت على مظهرها الخارجي وكأنها أحد أقاليم الخلافة العباسية، وما حدث فيها من تغيير تمثَّل بوجود حكومة وراثية واستقلال مالي؛ أدَّى إلى أن تمتد إلى إفريقيا أبعاد الأزمة القائمة بين بغداد وقرطبة. فالأمراء الأمويون في الأندلس لا يثقون بالحكام الأغالبة الذين يدينون بالطاعة لخصومهم العباسيين، يضاف إلى ذلك أن المناطق التي يسيطر عليها هؤلاء بعيدة عن الأندلس ويفصل بينها البحر ودولتا الرستميين والأدارسة، ولم يكن هناك إلا مجال آخر تمثَّل في تحول الدولة الأغلبية إلى قوة بحرية، حيث فتحت جزيرة صقلية الأمر الذي أحدث تقدماً في العلاقة الأندلسية ـ الأغلبية خلال عهد عبد الرحمن الثاني. ويمكننا أن نفترض أن الموقف الأندلسي لم يتسم باللامبالاة إزاء تلك الانتصارات التي حقَّقتها جيوش إسلامية، وأن عبد الرحمن الثاني ربما كان مسروراً في قرارة نفسه، غير أنه كان قلقاً من نمو القوة البحرية الأغلبية، على الرغم من أن بعض الأندلسيين شاركوا في الحملة على صقلية.

العلاقة الأندلسية ـ البيزنطية: كان للاستقرار النسبي للوضعين العسكري والسياسي، بين المسلمين في الأندلس والكارولنجيين الفرنجة في غالة، أثر كبير في قيام نوع من العلاقات السياسية غير الواضحة بين القوى في العالمين الإسلامي

والنصراني. وكان ببين، ملك الفرنجة، أول من سلك هذا المسلك حين شعر بقوة الدولة الأموية في الأندلس والنفور الذي قام بينها وبين الخلافة العباسية في المشرق، فأرسل سفارة إلى بغداد من أجل هذه الغاية، وقد رحَّب الخليفة أبو جعفر المنصور بهذه الخطوة السياسية وبادله السفارة ليعقد معه تحالفاً غير واضح المعالم ضد الإمارة الأموية في الأندلس، والمعروف أن القوى السياسية في كل من العالمين الإسلامي والنصراني كانت آنذاك تنافس بعضها بعضاً، وقد توزَّعت على أربعة معسكرات هي الخلافة العباسية المناهضة للإمارة الأموية في الأندلس، والامبراطورية البيزنطية الكارهة للامبراطوية الكارولنجية منذ أن نادى ملكها بنفسه امبراطوراً، وأضحى كل معسكر من تلك المعسكرات الأربعة يبحث عن حليف تتفق أهدافه مع آماله[١].

كان من الطبيعي، إزاء هذا التفكير السياسي، أن تميل الخلافة العباسية إلى دولة الفرنجة التي تعادي كلاً من الإمارة الأموية في الأندلس والامبراطورية البيزنطية، وفي الوقت نفسه، تطلعت الإمارة الأموية للتعاون مع بيزنطية التي تعادي كلاً من دولة الفرنجة والخلافة العباسية التي كانت تغزو أراضيها باستمرار بالإضافة إلى انتزاع حلفاؤها الأغالبة جزيرة صقلية منها، وأضحت المصالح توجه العلاقات السياسية بين القوى الآنفة الذكر، لكن بدون أن تتطور إلى تبادل التمثيل السياسي الذي لم يكن معتمداً في ذلك الوقت من القرون الوسطى، وكان الوضع مقتصراً على نشاط السفراء الذين تنتهي مهمتهم بانتهاء رسالتهم.

وعلى هذه القواعد البدائية تبادل الخليفة هارون الرشيد وشارلمان السفارات، بهدف عزل الإمارة الأموية في الأندلس، والحد من أطماع حكامها في التوسع على حساب الدولتين العباسية والكارولنجية.

لم تقف الدولتان الأموية والبيزنطية موقف المتفرج إزاء هذه الاتصالات السياسية بين العباسيين والفرنجة، فعمدت كل منهما إلى انتهاز الفرص المؤاتية لخلق نوع من التفاهم والتحالف بينهما. وحدث في عام (٢٢٣ هـ/٨٣٨ م) أن تعرَّض الامبراطور البيزنطي تيوفيل لضغط عسكري من جانب الخليفة العباسي المعتصم الذي غزا عمورية في عمق آسيا الصغرى، وظل يخشى انتقامه، بالإضافة إلى ما جرى من

---

(١) العدوي: ص ٢٦٤، ٢٦٥.

توغل الأغالبة في جزيرة صقلية، وما أنزله المسلمون الأندلسيون الربضيون في جزيرة كريت بالامبراطورية من هزائم عند سواحل آسيا الصغرى، حيث اقترب خطرهم من العاصمة القسطنطينية، ما جعله يعتقد أنه لا قِبَل له بقوة المسلمين المتزايدة، فقرَّر أن يلتمس المساعدة من الخارج. فتوجَّه أولاً إلى القوى النصرانية في أوروبا، فأرسل سفارتين، بفارق زمني لعدة أشهر. توجهت السفارة الأولى إلى الملك الكارولنجي لويس التقي على الرغم من النفور الظاهر بينهما، وتوجهت السفارة الثانية إلى البندقية، لكنه لم يحصل على أي نتيجة، فتوجَّه عندئذٍ إلى الأمويين في قرطبة. فأرسل في عام (٢٢٥ هـ/ ٨٤٠ م) سفارة إلى العاصمة الأندلسية برئاسة قرطيوس، وهو من أصل يوناني يجيد اللغة العربية، وحمَّله هدايا إلى الأمير الأموي، ورسالة تتضمن البنود التالية:

- طلب منه عقد معاهدة صداقة وتحالف.
- حرَّضه على استعادة ميراث أجداده في المشرق الذي اغتصبه العباسيون.
- تمنى عليه انتزاع جزيرة كريت من الربضيين وإعادتها إلى بيزنطية.
- ألقى باللوم على عدوانية العباسيين وأتباعهم الأغالبة الذين هم أعداء طبيعيين لكل من البيزنطيين والأمويين[(١)].

استقبل عبد الرحمن الثاني السفارة البيزنطية بحفاوة بالغة وأثنى على الهدايا التي بعث بها تيوفيل، كما عبَّر عن شعوره بالفخار حيث يُنظر إليه على أنه عاهل قوي ويحظى بالاحترام، ويُراعى جانبه في اتخاذ القرارات الحاسمة، ثم ردَّ على رسالته برسالة حملها السفير يحيى الغزال، عبَّر فيها عن:

- حنقه على العباسيين، وتمنى أن تُهيء العناية الإلهية للأسرة الأموية في الأندلس الانتقام لنفسها منهم.
- حرصه على التعاون، وأنه سوف يرسل إليه أسطولاً حين تهدأ الأمور في بلاده، ولكن بدون أن يرتبط معه في محالفة عسكرية.
- عدم استطاعته طرد الأندلسيين الربضيين من جزيرة كريت لأنه لا ولاية له عليهم.

وتجنَّب الرد على طلبه فيما يتعلق بالأغالبة، لأنه من الصعب عليه أن يستنكر علانية قيام مناوئيه بحملات موجهة ضد غير المسلمين لإعلاء كلمة الدين[(٢)].

---

(١) المقري: جـ ١ ص ٣٣٣.

(٢) المصدر نفسه.

والحقيقة أن هذه المهام السياسية غير المسبوقة في تاريخ المسلمين في الأندلس، كانت البداية لتقليد بدأ بين قرطبة والقسطنطينية بحيث تكرر أكثر من مرة في المستقبل، كما سنرى ذلك فيما بعد.

مشكلة ولاية العهد ـ وفاة عبد الرحمن الثاني: لم تكن الإمارة الأموية في أواخر عهد عبد الرحمن الثاني خالية من المتاعب الداخلية الأسرية على الأقل، حيث شهد البلاط الأموي بعض الدسائس والمؤامرات تركَّزت حول ولاية العهد، وتزعمها كل من المحظية الأثيرة طروب، صاحبة النفوذ القوي، وكبير خدم القصر، الخصي نصر، المكنى بأبي الفتوح، «والقائم بدولة الأمير عبد الرحمن»[١].

الواضح أن الأمير الأموي وقع تحت خطأ التردد في اتخاذ قرار تعيين ولي العهد مثلما فعل الحكم الأول، لكنه مال، في أواخر حياته، إلى تعيين ابنه محمد في هذا المنصب، وهو الذي خلفه فعلاً، وقد أتاح هذا التردد الفرصة لذوي المطامع للدخول في لعبة التنافس السياسي على الحكم.

أظهرت طروب مهارة كبيرة في الحفاظ على سيطرتها على الحكم من خلال الأمير عبد الرحمن الثاني، وأرادت أن يقع الاختيار على ابنها الأمير عبد الله، ولما يئست من إمكان تنفيذ ذلك، بشكل رسمي، استقطبت نصراً، والمعروف أن هذه السيدة اشتهرت باصطناع «أهل القصر من النساء والفتيان، وأكثر الخدمة طمعاً في ذلك»[٢].

ويبدو أن نصراً لم يكن مخلصاً لسيده، مبغضاً لمحمد[٣]، وأن طروب تجاوزت حدودها ولم تتورع عن التآمر حتى الموت في سبيل ضمان سدة الحكم لابنها، مستخدمة وسائل غير تقليدية، مثل دسِّ السم لمن سيختاره الأب ولياً لعهده، وكذلك دس السم للأب نفسه حتى لا يُنزل العقاب بها.

اتصل نصر بطبيب القصر حرّان، الذي كان قد وصل لتوه من المشرق، وطلب منه أن يعدَّ مشروباً ساماً للأمير عبد الرحمن الثاني، وقدَّم له، مقابل ذلك، ألف دينار[٤]. لم يجرؤ الطبيب على الرفض خوفاً على حياته، لكنه عزَّ عليه أن يساهم في قتل مولاه، فأخبر إحدى أمهات الولد في القصر، ألا وهي فجر، بالأمر، وقامت هذه بإبلاغ عبد الرحمن الثاني[٥].

---

(١) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٣٠.

(٢) ابن القوطية: ص ١١٧.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

ووُضِع السم في دواء كان يتناوله عبد الرحمن الثاني، ولما قُدِّم إليه امتنع عن تناوله، وأبقاه أمامه حتى قدوم نصر، الذي استدعاه للمثول بين يديه، وأسرع الأخير، في صباح اليوم التالي، إلى لقاء سيده ليرى فيما إذا كان قد تناول السم، وقُضي الأمر، فوجد الكأس بين يديه لم يتناول منه شيئاً، فاستغرب الأمر، ولما استوضحه أجابه «قد بشعته نفسي فاشربه أنت».

ووُجم نصر وتلعثم، فإن رفض كُشِف أمره وقُتل، وإن شربه مات تحت تأثير السم، لكنه فضَّل الاختيار الثاني، أملاً بأنه إذا تناوله ثم أسرع بمغادرة القصر واتصل فوراً بالطبيب لكي يعطيه دواء مضاداً، تمكَّن من إيقاف مفعول السم.

وهكذا تناول نصر كأس الدواء الممزوج بالسم، فشربه، ثم جرى مسرعاً لمقابلة الطبيب الحراني ليطلب منه الترياق. ويبدو أن الطبيب لم يسعفه فقضى نحبه، وقضى معه على جهود طروب في تولية ابنها عبد الله الإمارة بعد أبيه، وكان ذلك في عام (٢٣٦ هـ/ ٨٥٠ م)[١]. أما طروب، فلم يأمر عبد الرحمن الثاني بقتلها على الرغم من علمه بأنها الرأس المدبِّر للمؤامرة، ويبدو أنه كان لا يزال متعلقاً بها، أو حفاظاً على سلامة ابنها عبد الله، أو أنه لم يرَ فائدة من ذلك بعد أن قضى على المؤامرة من دون أن تترك أية ذيول[٢].

توفي عبد الرحمن الثاني بغتة في ليلة (٣ ربيع الآخر ٢٣٨ هـ/ ٢٢ أيلول ٨٥٢ م) عن عمر يناهز الإثنين والستين عاماً[٣]، تاركاً إمارة زاهرة موطدة الأركان، تنعم بالاستقرار والهدوء، وانتهت بوفاته مرحلة مهمة من مراحل تاريخ المسلمين في الأندلس، حافلة بالإنجازات السياسية والحضارية والإنسانية. فعلى مدى ثلاثين عاماً قضاها المسلمون في الأندلس في خضوع شبه تام للإدارة المركزية، ازدهرت البلاد وتمتَّع السكان بمرحلة طويلة من السلام النسبي، ما أضفى المزيد من البُعد الحضاري والإنساني بالاتصال بالحضارة العباسية في المشرق. وبدأت الدولة تتبوأ مكانة رفيعة في تلك المرحلة المتقدمة من العصور الوسطى، بين دول العالم الإسلامي، والمعروف أنها احتفظت بهذه المكانة حتى السقوط بيد الإسبان.

---

(١) ابن القوطية: ص ١١٧.

(٢) الصوفي: ص ٢١٢.

(٣) ابن القوطية: ص ١١٧.

الفصل الثامن

محمد الأول ـ المنذر بن محمد الأول

محمد بن عبد الرحمن الثاني: محمد الأول: (٢٣٨ ـ ٢٧٣ هـ/٨٥٢ ـ ٨٨٦ م)

تولي محمد الأول السلطة: كتم فتيان القصر من الصقالبة، الذين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير، موت عبد الرحمن الثاني، وأغلقوا أبواب القصر، ثم دعوا إلى اجتماع عام لجميع الفتيان الذين يعملون في خدمته، ودارت بينهم مناقشات حول ولاية العرش انتهت باختيار ابنه محمد، وقد فضَّلوه على أخيه عبد الله. وهكذا برزت، لأول مرة في تاريخ المسلمين في الأندلس، ظاهرة صانعي الحكام من الصقالبة، والذين سيؤدون دوراً كبيراً في قضية تعيينهم في المستقبل.

واستدعى حبيب الخصي، محمداً إلى القصر، فبادر متنكراً وقد أخفى سلاحه خشية من غدر أخيه ومنافسه عبد الله، فأُعلم بوفاة والده واختياره لخلافته، فاستدعى الوزراء والموالي وكبار رجال الدولة، فبايعوه جميعهم يوم الجمعة (٤ ربيع الآخر ٢٣٨ هـ/ ٢٣ أيلول ٨٥٢ م)، فأضحى بذلك الحاكم الشرعي للأندلس[١].

جاء محمد الأول إلى الحكم وهو صاحب تجربة في العمل الإداري والعسكري. فقد تولى مهمات إدارية في سرقسطة، وعسكرية في حملة ضد البشكنس، وسياسية مع الفرنجة. كان وثيق الصلة بوالده، وهو بالتالي يقظ، ذكي، فطن بالأمور، مرهف الإحساس، قوي الإرادة، غير متخاذل[٢].

لكن كفاءة الحاكم ليست وحدها دائماً كفيلة بتحقيق النجاح، لأن عوامل أخرى

(١) ابن حيان: المقتبس ص ١٠٢، ١٢٠، ١٢١. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٩٤. ابن القوطية: ص ١١٤.

(٢) ابن حيان: المقتبس ص ١٠٣. أخبار مجموعة: ص ١٤١، ١٤٢. ابن القوطية: المصدر نفسه.

داخلية وخارجية، لا تقل أهمية، تؤدي دوراً في ذلك وفي طليعتها الوضع الاجتماعي المنسجم مع المصالح المشتركة، والولاء لحكم مركزي منفتح ومتعاون مع جميع العصبيات والتيارات المختلفة. فهل توفرت هذه المعطيات لمحمد الأول؟

الثورات الداخلية في عهد محمد الأول

ثورات المولدين

الثورة في طليطلة: بدأ محمد الأول، منذ توليه حكم الأندلس، عهداً استمر مدة تضاهي تلك التي قضاها والده في الحكم، وإذا استثنينا مناطق الثغور التي أضحت درجة التوتر فيها مرتفعة، إلى حد ما، ومحاولات المولدين الخروج على النظام؛ فإن الأندلس أخذت تمر بأوقات طويلة من الهدوء السياسي على مدى ثلث القرن الذي تلا موت عبد الرحمن الثاني، وتنعم في ظل سلام داخلي استمر حتى عام (٢٤٣ هـ/ ٨٥٧ م) على الأقل، حيث أحكمت السلطة قبضتها على مقدرات الأمور.

ولم تكد تمر بضعة أيام على اعتلاء محمد الأول العرش في قرطبة، حتى رفع سكان طليطلة من المولدين والمستعربين، لواء الثورة. فامتنعوا عن مبايعته وقبضوا على حاكم المدينة الأموي وزجوا به في السجن، وراحوا يساومون الإدارة المركزية على إطلاق رهائن لهم معتقلين في عاصمة الإمارة. وعلى الرغم من استجابة محمد الأول لهذا المطلب، إلا أن الثورة لم تهدأ. وهاجم الثائرون قلعة رباح المجاورة في عام (٢٣٩ هـ/ ٨٥٣ م) وأحدثوا فيها الخراب والدمار، وقتلوا كثيراً من سكانها بحيث لم ينج منهم إلا من تمكن من الهرب(١).

وما كان لمحمد الأول أن يتجاهل مثل تلك التحديات وهو لا يزال في بداية حياته السياسية، فجهَّز جيشاً بقيادة أخيه الحكم وأمره باستعادة قلعة رباح وإعادة تعميرها وتحصينها، فنجح في مهمته، وأعاد إليها من فرَّ من سكانها.

ويبدو أن استعادة القلعة لم يكن كافياً لردع الثائرين أو ضمان وقف نشاطهم، فهاجموا مزارع نهر شندولة(٢)، وهو أحد فروع نهر الوادي الكبير، ونصبوا كميناً للجيش الإسلامي المتقدم نحو طليطلة بقيادة قاسم بن العباس وتمام بن أبي

---

(١) ابن حيان: ص ٢٩٢، ٢٩٣. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٩٤.

(٢) المصدران نفساهما: ص ٢٩٣، ٢٩٤. ص ٩٤.

العطاف، الذي اضطر إلى التراجع بعد الهزيمة المروعة التي تعرَّض لها، تاركاً أسلحته وأمتعته في ميدان المعركة[1].

كان هذا النصر كافياً لإعلان العصيان المنظم في طليطلة، وتجدُّد عبث الثائرين في المدن والقرى المجاورة. وجاء الرد سريعاً من جانب محمد الأول، فحصَّن مدينة أبدة بكورة جيان واستنفر العرب، واستشعر الثائرون عزمه على قتالهم. ولما كانت قوتهم ضعيفة بالمقارنة مع قوة الدولة الإسلامية؛ التمسوا المساعدة من أردونيو الأول ملك أشتوريس، الذي خلف راميرو بعد وفاته في عام (٢٣٥ هـ/ ٨٥٠م)، وكان هذا الملك حريصاً على تأجيج الحرب الأهلية بين المسلمين، مقدِّراً الفائدة التي سيجنيها نتيجة العمليات العسكرية التي سينفِّذها في عمق الأراضي الإسلامية، لذلك لم يتردَّد في إرسال جيش إلى ثوار طليطلة بقيادة أخيه غشتون[2]، كما تلقّى هؤلاء عطف وتشجيع الجماعات الإسبانية الأخرى لا سيما البشكنس.

أثار التكتل النصراني جواً من الرعب في قرطبة الأمر الذي دفع محمد الأول إلى تجهيز جيش كبير قاده بنفسه في (محرم ٢٤٠ هـ/ حزيران ٨٥٤ م) لقمع حركة الطليطليين، وعسكر في وادي سليط القريب من طليطلة. وتقدمت القوات الطليطلية ـ الأشتوريسية المتحالفة من جهتها باتجاه الوادي وهي على تعبئة للقاء القوات الأموية ووقف زحفها باتجاه طليطلة.

تردَّد محمد الأول في بادىء الأمر في الاشتباك مع أعدائه خشية الهزيمة وقد هاله كثرة أعدادهم، غير أن أركان حربه بدَّدوا مخاوفه. ونشبت بين الطرفين رحى معركة ضارية، استدرج خلالها محمد الأول أعداءه إلى كمين نصبه لهم، فانتصر عليهم وأباد منهم عشرين ألفاً[3]. ودلالة على هذا النصر الهام كتب إلى عدد من الزعماء في شمالي إفريقيا وسواحل البحر الأبيض المتوسط بنبأ انتصاره مرفقاً بعدد من رؤوس القتلى، لكنه لم يستثمر انتصاره ويسترد المدينة، مرتكباً خطأً سياسياً وعسكرياً فادحاً لأن مشكلة طليطلة ظلت قائمة، وأضحت المدينة ملاذاً لمختلف التيارات السياسية والدينية الحاقدة على السلطة الأموية، فجرَّد عليها الأمير الأموي

(١) ابن حيان: ص ٢٩٤. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٩٤. ابن الأثير: جـ ٦ ص ١٤٥.

(٢) المصادر نفسها: ص ٢٩٤، ٢٩٥. ص ٩٤، ٩٥. ص ١٤٧، ١٤٨.

(٣) ابن حيان: ص ٢٩٥، ٢٩٦. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٩٥.

عدة حملات عسكرية انتهت في عام (٢٥٩ هـ/ ٨٧٣ م) بإخضاع الثائرين، ودخلت القوات الأموية إلى المدينة[١].

بداية ثورة عبد الرحمن بن مروان الجليقي: تتميز ثورة عبد الرحمن بن مروان الجليقي، الذي اشتهر باسم ابن الجليقي، بأن صاحبها ينتسب إلى أسرة من المولَّدين قدمت من شمالي البرتغال واستقرت في ماردة. وكان والده مروان حاكماً عليها من قِبَل عبد الرحمن الثاني، والمعروف أنه اغتيل في عام (٢١٣ هـ/ ٨٢٨ م) على أيدي رجال إدارته.

لم يُظهر الابن الولاء للحكومة المركزية، على عكس والده، وعمد إلى إثارة المشكلات في وجهها على عادة المولَّدين النازعين إلى الاستقلال، الأمر الذي دفع محمد الأول إلى غزو ماردة في عام (٢٥٤ هـ/ ٨٦٨ م)، فحاصرها واقتحمها وقبض على زعمائها ومن بينهم عبد الرحمن، وحملهم مع عائلاتهم إلى قرطبة ووضعهم في الإقامة الجبرية[٢].

ظلَّ عبد الرحمن الجليقي في قرطبة مدة سبعة أعوام، أي حتى عام (٢٦١ هـ/ ٨٧٥ م)، وهو العام الذي شهد نزاعاً بينه وبين الوزير هاشم بن عبد العزيز الذي أهانه وحقَّره مع أنصاره النازلين معه. فهربوا من قرطبة واستقروا في قلعة الحنش المنيعة، الواقعة على بُعد عشرين كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من ماردة، وراحوا يغيرون على الآمنين، فروَّعوهم، فاستنجدوا بالأمير الأموي[٣].

نهض محمد الأول لقمع الثورة، فخرج من قرطبة في (شعبان ٢٦١ هـ/ أيار ٨٧٥ م) قاصداً قلعة الحنش، فحاصرها وضربها بالمناجيق مدة ثلاثة أشهر وعشرة أيام حتى أرهق المدافعين عنها وأجبرهم على الاستسلام. فأبعد عبد الرحمن الجليقي إلى بطليوس في وادي نهر أنة واحتفظ بحفيده رهينة في قرطبة ضماناً لإخلاده إلى الهدوء[٤].

والحقيقة أن نزعة المولَّدين المتأصلة للثورة على الحكم الأموي، دفعت عبد الرحمن الجليقي إلى تجديد ثورته بعد بضعة أشهر. وحتى يُدعم موقفه، التمس

---

(١) ابن حيان: ص ٣٢٩، ٣٣٠. ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٠١.

(٢) المصدران نفساهما: ص ٣٢١، ٣٢٢. ص ١٠٠.

(٣) المصدران نفساهما: ص ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٤٧. ص ١٠٠.

(٤) المصدران نفساهما: ص ٣٤٥. ص ١٠٠.

مساعدة سعدون بن فتح السرنباقي، وهو أحد المولَّدين الثائرين الذين يعيشون في البرتغال في كنف ألفونسو الثالث ملك أشتوريس الذي خلف أردونيو الأول. وكان من الطبيعي أن يستأذن سعدون حاميه ألفونسو الثالث، فلما عرض الأمر عليه، انتهز الفرصة التي أتيحت له من دون سعي منه، لكي ينتقم من محمد الأول الذي غزا إقليم ألبة من قبل، في عام (٢٥٣ هـ/ ٨٦٧ م)، لذلك أذن لسعدون في مساعدة عبد الرحمن الجليقي وأمدَّه بقوات من أشتوريس(١).

لم يشأ محمد الأول أن يتجاهل هذا التحدي، فأعدَّ حملة كبيرة بالغ في تجهيزها، وعيَّن ابنه المنذر على قيادتها ومعه الوزير هاشم بن عبد العزيز، وأرسلها إلى بطليوس في (شعبان ٢٦٢ هـ/ أيار ٨٧٦ م). وعندما علم عبد الرحمن الجليقي بخروجها من قرطبة، قرر التصدي لها خارج المدينة، فخرج منها إلى قلعة قلقرَّة الواقعة إلى الشمال منها، وتحصَّن بها بانتظار وصول الإمدادات من سعدون وألفونسو الثالث، فحاصرته القوات الأموية وضيَّقت عليه وعلى أتباعه.

ويبدو أن القوات المساندة لم تصل بالسرعة المتوقعة، حتى أوشك عبد الرحمن الجليقي على الاستسلام، لكن حدث ما بدَّل الموقف فجأة لصالحه عندما وصلت إلى المنذر وهاشم بن عبد العزيز أنباء عن تقدم القوات المساندة باتجاه قلقرَّة، وانتصارها على حامية قلمرية التي تصدت لها لوقف زحفها، فاضطر هاشم بن عبد العزيز إلى تقسيم قواته لمواجهة الموقف العسكري الجديد. فأبقى المنذر على حصار قلقرَّة، وسار هو بقسم من الجيش، متعجلاً إلى سعدون من دون تعبئة، مرتكباً خطأً عسكرياً، حيث تعرَّض للهزيمة على يد خصمه ووقع في أسره، وذلك في (١٢ شوّال ٢٦٢ هـ/ ٩ تموز ٨٧٦ م)، فأرسله هذا إلى ألفونسو الثالث ليبرهن له عن شكره. وفكَّ المنذر الحصار عن قلقرَّة، بطلب من هاشم وضغط من سعدون، وانصرف عائداً إلى قرطبة(٢).

وهكذا انتقم عبد الرحمن الجليقي بمهارة من هاشم بن عبد العزيز على الإهانة التي ألحقها به، ولكنه كان يعلم جيداً أن محمداً الأول لم يكن ليقبل بتلك الهزيمة، ولا بد من أنه سيرسل حملة عسكرية أخرى تعيد الأمور إلى نصابها، لذلك قرَّر تحصين نفسه من خلال توسيع دائرة سيطرته، فهاجم عدداً من المدن، مثل إشبيلية،

---

(١) ابن حيان: ص ٣٤٤. ابن القوطية: ص ١٢٤. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٩٩.

(٢) المصادر نفسها: ص ١٦٦، ٣٦٧ ـ ٣٧٣. ص١٢٤. ص ٩٩.

واستولى على حصن طلياطة القريب منها، وتقدم إلى كورة لبلة وباجة وأكشونبة، واستولى على حصن منت شاقر القريب منها، لكن أتباعه سئموا البلاء والفتنة، واختلفوا عليه، وانفضوا من حوله، فألفى نفسه وحيداً وعاجزاً عن المقاومة. وأرسل محمد الأول حملة عسكرية في عام (٢٦٣ هـ/ ٨٧٧ م) بقيادة إبنه المنذر دخلت بطليوس، ففرَّ عبد الرحمن الجليقي منها والتجأ إلى البلاط الأشتوريسي وتحالف مع ألفونسو الثالث ضد الأمويين، لكنه ما لبث أن فك تحالفه مع هذا الملك في عام (٢٧١ هـ/ ٨٨٤ م) بسبب غزوه للثغر الأدنى وتخريبه بلدة ماردة، وغادر أشتوريس عائداً إلى الأندلس ونزل في بطليوس، إلا أنه طُرد منها، فيمَّم وجهه صوب الشرق واستقر في حصن منت مولق المجاور. وأجرى مفاوضات مع الأمير منذر انتهت بتعيينه حاكماً على بطليموس والمنطقة المحيطة بها واعترافه بحكم محمد الأول، واعترف هذا الأخير بهذا الصلح الذي دام حتى نهاية عهده[١].

أما سعدون السرنباقي، فلم يؤدِ دوراً محورياً في هذا الصراع، فقد وقع أسيراً في أيدي النورمانيين عندما أغاروا على الأندلس، ثم ما لبثوا أن أطلقوا سراحه، فعاد يعيش في نواحي شنترين وقلنبرَّة إلى أن قبض عليه ألفونسو الثالث وأعدمه.

بداية ثورة عمر بن حفصون: يُعد عمر بن حفصون من أخطر المولَّدين الذين ثاروا على الحكم الأموي،وأثارت شخصيته جدلاً واسعاً بين المؤرخين، والواقع أن تاريخ حياته يبدأ أشبه شيء بالرواية. لقد وُلد في ترجيلة بكورة ريَّة القريبة من حصن أوطة من أسرة تعود بأصلها إلى العنصر القوطي[٢]، وكان والده حفص يتمتع بشخصية توحي بأنه من أصحاب النفوذ. وحتى يتم تكريمه أضيف إلى اسمه نهاية التكبير في اللغة الإسبانية، أي الواو والنون، وبهذا تحوَّل اسمه من حفص إلى حفصون.

نشأ عمر بن حفصون منذ شبابه، متطرفاً، طموحاً، ميالاً إلى المغامرة، محباً للعنف، رافضاً الخضوع للنظام العام في الوسط الاجتماعي الذي عاش فيه. وقد شعر أن العرب يستأثرون بحكم الأندلس، من دون العناصر الأخرى التي دخلت في الإسلام مثل المولَّدين والبربر، لذلك قرَّر السعي لإسقاط الدولة العربية الأموية في الأندلس، فانطلق أولاً يبحث عن المغامرة بأسلوب التعدي، فتشاجر ذات يوم مع

(١) ابن حيان: ص ٣٨٠، ٣٨١. ابن القوطية: ص ١٢٤، ١٢٥. ابن الأثير: جـ ٦ ص ٣٤٩. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٣١.

(٢) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٠٦. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٣٤.

جار له وقتله، فكرهه والده وتبرّأ منه، ولكنه، خوفاً على حياته، أرسله ليختبئ في منطقة جبلية وعرة في المضيق الضيق لنهر وادي العرس على مسافة أربعين كيلومتراً شمالي رندة، وسرعان ما لجأ إلى تنفيذ غارات للسرقة في القرى المجاورة يرافقه فيها مجموعة من قطاع الطرق، فانتهى به المطاف إلى الأسر من جانب حاكم ريَّة، فعاقبه بالضرب بالسياط وهو يجهل تلك الجريمة التي ارتكبها من قبل(١).

وبدا الجو العام في الأندلس قاتماً بالنسبة لعمر بن حفصون، فقرَّر أن يتوجَّه إلى شمالي إفريقيا، واستقر في تاهرت عاصمة الرستميين، وعمل خياطاً عند أحد معارفه، فرآه ذات يوم شيخ مرَّ بذلك الخياط وتنبَّأ له بالملك(٢)، فقام من فوره وعاد إلى الأندلس في عام (٢٦٧ هـ/ ٨٨١ م) خشية أن يفتضح أمره لدى الإمام الرستمي فيقوم بتسليمه إلى العاهل الأموي محمد الأول. ولما كان على خلاف مع والده، لجأ إلى عمه ليعيش في كنفه، ثم استقر في جبل ببشتر مع زمرة من اللصوص الذين استقطبهم، واتخذه قاعدة لشن غارات على المناطق المجاورة(٣).

كانت أجواء الأندلس آنذاك مشحونة، وبخاصة في إقليمي ريَّة وتاكرنا. وشعر الولاة بأنهم غير قادرين على فرض النظام أو وضع حد لأعمال السلب والنهب التي يقوم بها قطاع الطرق، فاستغل عمر بن حفصون هذا الوضع القائم، فنمّى قوته بمن انضم إليه من الرجال وبخاصة الهاربين من الجندية من أصحاب الخبرة في القتال.

كانت فاتحة أعماله شن غارات جريئة على القرى القريبة الواقعة في المناطق السهلية بين كامبيوس وقرطبة، ما أزعج الحكم المركزي. وخشي محمد الأول من استفحال أمره، وبخاصة أنه تغلَّب على عامر بن عمر عامل ريَّة عندما تصدّى له(٤).

والواضح أنه كان لهذا الانتصار أثر كبير في تقوية نفوذه وازدياد حجم قوته، وذلك بمن انضمَّ إليه من أنصار جُبلوا على أعمال الشر والفساد.

لم يكن محمد الأول بالحاكم الذي يتجاهل مثل هذا التحدي الذي رأى فيه تهديداً خطيراً لسيادته، فأقدم على عزل والي ريَّة وعين مكانه عبد العزيز بن عباس، وأمدَّه بقوات كثيفة وأمره بقمع حركة عمر بن حفصون، الأمر الذي دفع هذا الأخير

---

(١) بروفنسال: ص ٢٤٤.

(٢) ابن القوطية: ص ١٢٥، ١٢٦.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٢٦.

(٤) ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٠٤. بروفنسال: ص ٢٦٤.

إلى التراجع واعتصم بقلعته مفضلاً عدم الاشتباك مع الوالي الجديد، بفعل فارق القوة بينهما[1].

ويبدو أن القائد الأموي لم يشأ أن يبدأ حكمه بغير نتيجة، فحاصر عمر بن حفصون في قلعته، وشدَّد عليه حتى أجبره على عقد هدنة بينهما، لكن محمَّد الأول رفض الموافقة على هذه الهدنة، فعزل عبد العزيز بن عباس، وأرسل وزيره هاشم بن عبد العزيز لمتابعة المهمة والقضاء على ثورة عمر بن حفصون، فخرج من قرطبة في عام (٢٧٠ هـ/ ٨٨٣ م) قاصداً قلعة ببشتر، ولما وصل إليها ضرب عليها حصاراً شديداً، ونجح حيث أخفق سلفه، فأرغم عمر بن حفصون على الاستسلام مع أتباعه، وحملهم جميعاً إلى قرطبة[2].

كان عمر بن حفصون موضع ترحيب في العاصمة، إذ وقعت شخصيته الذكية موقعاً حسناً لدى محمد الأول الذي عفا عنه، وبلغ به التسامح أن عيَّنه في منصب مهم في الجيش ليشارك في الصائفة التي قادها هاشم بن عبد العزيز في عام (٢٧١ هـ/ ٨٨٤ م) ضد ألبة، كما اشترك معه في حصار بنبلونة[3].

لكن المقام لم يطل بعمر بنِ حفصون في قرطبة بسبب مآخذه على العرب من واقع استعلائهم عليه بوصفه مولِّداً، فهرب من قرطبة وعاد إلى ببشتر ليستأنف سيرته الأولى. فطرد عامل المنطقة وانضم إليه أنصاره القدماء تغمرهم حالة من السرور، بعد أن رأوا زعيمهم قد عقد العزم على أن يتخلَّص من حكم عرب قرطبة. وتمادى حين قرَّر أن يؤسس إمارة مستقلة له مثل تلك التي أسسها عبد الرحمن بن مروان الجليقي في الغرب. فاستولى على حصن أوطة المجاور له ومحياش وقمارش وأرشذونة، وأضحى حاكماً على كامل كورة ريَّة، وامتد نفوذه عبر الأقاليم المجاورة مثل الجزيرة الخضراء وإلبيرة، وساعد الحارث بن حمدون، متمرد بني رفاعة، في الحامة الواقعة إلى الشمال الشرقي من مالقة.

لم يتأخر محمد الأول في الردِّ على هذا الانفلاش على الأرض من جانب عمر ابن حفصون، فانتدب ابنه المنذر لقتاله يرافقه القائد محمد بن جهور، فتوجه إلى الحامة التي كان قد اجتمع فيها عمر وحليفه الحارث بن حمدون، وذلك في (أوائل

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٠٤.

(٢) ابن القوطية: ص ١٢٦. ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٠٥. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٣٥.

(٣) ابن القوطية: ص ١٢٦. ابن الأثير: جـ ٦ ص ٤٣٤.

عام ٢٧٣ هـ/ صيف عام ٨٨٦ م)، وضرب عليها حصاراً شديداً استمر مدة شهرين تخلله بعض المناوشات، أصيب عمر خلالها وفَقَدَ يده[(١)].

كان يمكن لهذا الحصار أن ينجح لولا أن توفي محمد الأول في ذلك الوقت، (٢٨ صفر ٢٧٣ هـ/ ٤ آب ٨٨٦ م)، فرأى المنذر أن يرفع الحصار عن الحامة ويعود إلى قرطبة لأن مسؤوليات السلطة ستقع على عاتقه بعد وفاة والده، تاركاً القضاء على تمرُّد ابن حفصون لفرصة أخرى[(٢)].

تجدُّد ثورة بني قسي: شهدت المناطق الشمالية من الأندلس منذ عام (٢٥٨ هـ/ ٨٧١، ٨٧٢ م) اضطرابات بدون مقدمات تُذكر. والمعروف أن موسى بن موسى بن قسي توفي في عام (٢٤٨ هـ/ ٨٦٢ م) وترك أربعة أولاد هم، لب الذي توفي بعد وفاة والده بمدة وجيزة، والمطرِّف وفرتون وإسماعيل. وأمضى الإخوة الثلاثة حياتهم في جو من الهدوء التام على مدى الأعوام التالية. واستعادت الإدارة المركزية في قرطبة أملاك والدهم من دون عناء.

وفجأة ظهر بنو قسي على المسرح السياسي في حال من التمرد غير المعلن ضد الحكم الأموي، وربما تأثروا بالحركات الثورية التي كانت ناشطة آنذاك. فهاجم الأخوان مطرِّف وإسماعيل مدينة تطيلة واستوليا عليها، كما انتزعا مدينة سرقسطة، فحكم الأول تطيلة وحكم الثاني سرقسطة[(٣)].

ويبدو أن محمداً الأول لم يبدِ اهتماماً جدِّياً بهذه الثورة، ربما لأن الأخوين لم يعلنا صراحة انفصالهما عن قرطبة، إلا أن تماديهما في التوسع، حيث استولى مطرِّف على وشقة، أثار حفيظته، فخرج بنفسه في عام (٢٥٩ هـ/ ٨٧٣ م) على رأس قوة عسكرية قاصداً تطيلة، فاستعادها وقبض على مطرّف وأبنائه الثلاثة محمد وموسى ولب، وأرسل في العام التالي حملة عسكرية بقيادة ابنه المنذر لاستعادة سرقسطة وبنبلونة، فاستعاد الأولى وفشل في استعادة الثانية[(٤)].

وشغلت أحداث الشمالُ وثورة بني قسي محمداً الأول أعواماً طويلة حيث جرَّد ضدهم عدة حملات متتالية لم تؤدِ إلى نتيجة إيجابية، وظلت منطقة الشمال خارجة

---

(١) ابن حزم: ص ٥٠٢. ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٠٦.

(٢) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٠٦، وقارن بابن الأثير: جـ ٦ ص ٤٤١ والنويري: جـ ٢٣ ص ٣٩٢.

(٣) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٠١.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٠٢.

عن سلطته بضعة أعوام أخرى. وكانت ربوع الأندلس تضطرم آنذاك بسلسلة من الثورات المدمِّرة، الامر الذي أجبر العاهل الأموي على تأجيل حسم نزاعه مع بني قسي في الثغر الأعلى على الرغم من أهمية ثغوره بفعل وقوعها على حدود المملكة النصرانية.

وأتاحت الظروف السياسية في عام (٢٦٨ هـ/ ٨٨١، ٨٨٢ م) فرصة ذهبية لمحمد الأول لإخضاع بني قسي واستعادة الثغر الأعلى. فقد نشب نزاع أسري بين زعماء بني قسي. فقد ثار محمد بن لب بن موسى على عميه إسماعيل وفرتون لاستئثارهما بالسلطة من دونه فارتمى في أحضان محمد الأول، وانضم إلى الجيش الأموي الذي هاجم أملاك إسماعيل، روطة ولاردة، والذي اضطر إلى الاستسلام وخضع لمحمد الأول، غير أن ألفونسو الثالث أقنعه بنقض تعهده بالطاعة له، فتعرض عندئذٍ لضغط من ابن أخيه محمد. وكانت مدينة قلهرَّة مسرحاً للقتال بينهما في (جمادى الأولى ٢٧٠ هـ/ تشرين الثاني ٨٨٣ م) والذي انتهى بانتصار محمد بن لب. فاستولى على سرقسطة وأسر عمه إسماعيل، وحكم المدينة باسم محمد الأول[1].

والواقع أن العاهل الأموي أساء التصرف معه، وأثاره حين عنَّفه على احتفاظه بالرهائن وطلب منه تسليمهم له، مرتكباً خطأً سياسياً، ما دفع محمد بن لب إلى خلع طاعته، وأطلق سراح أقاربه الأسرى الذين تنازلوا له عن قلاع بلتيرة وتطيلة وسان استيبان.

وعلى هذا النحو أغضب محمد بن لب محمداً الأول، ومن جهة أخرى أثار توسعه على الأرض مخاوف ألفونسو الثالث. وهكذا جمعت المصلحة كلاً من العاهلين الأموي والأشتوريسي للقضاء على نفوذ محمد بن لب الذي بدأ نجمه يسطع في سماء الثغر الأعلى، مهدداً أراضيهما.

كان ألفونسو الثالث هو السبّاق إلى محاربة محمد بن لب، فأرسل حملة عسكرية من إقليمي ألبة والقلاع هاجمت أملاكه وأجبرته على طلب الأمان. ويبدو أن العاهل الأشتوريسي فَقَدَ ثقته به بفعل تقلباته السريعة والمستمرة وظلت العلاقة بينهما متوترة.

ومن جهته، حرص محمد الأول على أن يظل التباعد بين الرجلين قائماً لكي يسهل عليه إعادة محمد بن لب إلى طاعته أو القضاء عليه واستعادة الثغر الأعلى، ولذا أرسل حملة عسكرية بقيادة ابنه المنذر ووزيره هاشم بن عبد العزيز، هاجمت

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٠٥. النويري: جـ ٢٣ ص ٣٩١.

سرقسطة في عام (٢٧٠ هـ/ ٨٨٣ م) وانتزعتها وأخرجت محمد بن لب منها، كما استولت على مدينة سان استيبان، وأحدثت تخريباً هائلاً في مناطق نفوذه[1].

وهكذا وجد محمد بن لب نفسه واقعاً بين فكي الكماشة، ولم يجد مخرجاً إلا بعودته إلى طاعة أمير قرطبة الذي وافق على خضوعه له وأرضاه بأن منحه حكم مدينة طرَّسونة وتطيلة، ومع ذلك لم يتخلَّ كلياً عن حذره منه نظراً لتقلباته السريعة، فاتخذ بعض الإجراءات التي تكفل له مراقبته ورصد تحركاته، وذلك من واقع تفاهمه مع زعماء بني تجيب العرب المجاورين له في قلعتي أيوب ودروقة. واستمر الوضع على هذا الشكل حتى وفاة محمد بن لب. ولم يتمكَّن أبناؤه من بعده من الاتفاق فيما بينهم، وازدادوا ضعفاً بسبب انقسامهم على أنفسهم.

العلاقات الخارجية

تجدُّد الغزو النورماني للسواحل الأندلسية: لم يكد محمد الأول ينتهي من إخماد الثورة في طليطلة حتى تعرَّض لخطر النورمان الذين جدَّدوا غاراتهم على السواحل الأندلسية بدءاً من عام (٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م). وكان ولاة الثغور يرصدون تحركاتهم، والأسطول الإسلامي يقوم برحلات تفقدية دورية عبر الشواطىء الغربية حتى الحدود المجاورة لخليج غسكونية.

هاجم النورمان سواحل جليقية، فصدَّهم الكونت بدرو، فانحدروا نحو الجنوب قاصدين الشواطىء الأندلسية في أسطول مكوَّن من إثنين وستين مركباً، حتى إذا ظهرت طلائعهم أمام الشاطىء، هاجمتهم المراكب الإسلامية وأسرت مركبين. واستطاعت بقية المراكب الوصول إلى مصب نهر الوادي الكبير ورست فيه، لكنها لم تجرؤ على دخول مجرى النهر، كما لم تُنزل بحارتها إلى البر، وذلك بفعل تمركز القوات الإسلامية بوادي النهر، واضطرت إلى متابعة إبحارها نحو الجنوب للبحث عن مكان إنزال يكون بعيداً عن مراقبة القوات الإسلامية، فوصلت إلى الجزيرة الخضراء، وأنزلت بحارتها على البر، فهاجموا المدينة وأحرقوا مسجدها، لكن سرعان ما طردهم المسلمون، وقد بنوا مسجداً في المكان الذي نزل فيه البحارة النورمان تخليداً لهذه الذكرى، صُنِعت أبوابه من أخشاب السفن التي تمَّ أسرها[2].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٤٣٤. يذكر هذه الحادثة في حوادث عام ٢٧١هـ.

(٢) ابن حيان: ص ٣٠٧ ـ ٣٠٩. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٩٦، ٩٧. النويري: جـ ٢٣ ص ٣٨٨.

استأنف النورمان إبحارهم حتى ساحل مرسية، وشنوا غارة على أُريولة، وهاجم قسم منهم الشاطىء المراكشي، وخرَّب ناقور، ثم عادوا إلى سواحل جليقية ورست مراكبهم في مجرى نهر إبرو، وتمكَّنت وحدة منهم من الوصول إلى بنبلونة، فخربتها وأسرت ملكها غرسية، ولم ينل حريته إلا بعد أن دفع فدية باهظة بلغت سبعين ألف دينار(١).

واصلت السفن النورمانية إبحارها بعد تخريب بنبلونة باتجاه السواحل الإفرنجية لتمارس الأعمال نفسها عبر مصب نهر الرون، ودمَّرت في طريقها كلاً من آرل ونيم وڤالنس. وجدَّد النورمان غاراتهم ضد الشواطىء الأندلسية، بعد مرور عامين، إلا أنها لم تكن مفاجئة ولم تحدث أضراراً على النطاق نفسه، وكُتِب إلى عمال السواحل «بالاحتراس والتحفظ» لذلك لم «يكن في هذه الكرَّة من الانبساط في البحر والإضرار بأهل السواحل ما جرت به عادتهم، ولم يجدوا في السواحل مطمعاً لشدة ضبطها»(٢).

كان هذا الغزو النورماني آخر ما ذكرته روايات المصادر، قبل أن يمضي مائة عام على ذلك، حيث سيتجدَّد في عهد الخليفة الحكم الثاني، كما سنبحث ذلك في حينه.

العلاقة مع مملكة أشتوريس: لم تُثنِ جهود محمد الأول بإخماد الثورة في طليطلة عن الاهتمام بمملكة أشتوريس، وبخاصة أنه كان يتوقع أن يستغل ملكها أردونيو الأول فرصة ما يواجهه من متاعب ليغير على الأندلس انتقاماً لهزيمة قواته في وادي سليط، إلا أن العاهل الأموي لم يُتح له الفرصة، وبادر بمهاجمة أملاكه في عام (٢٤١ هـ/ ٨٥٥ م)، فتوغلت قواته في أراضي ألبة والقلاع حتى بلغت أقصاها، ثم عادت إلى قرطبة(٣).

توقف النشاط العسكري بعد ذلك ضد أشتوريس بسبب انهماك محمد الأول بصدِّ غارات النورمان وإخماد الانتفاضات التي قامت ضد حكمه، واقتصرت سياسته العسكرية على القيام ببعض النشاطات الدفاعية لمواجهة ما قد تقوم به هذه المملكة من تعديات، ومنعها من مساعدة الثائرين على حكمه. فضبط أطراف بلاده، وحصَّن ثغوره، وبنى حصوناً ثغرية جديدة على طول الخط الممتد من سرقسطة حتى

---

(١) ابن حيان: ص ٣٠٩، وقارن بالنويري جـ ٢٣ ص ٣٨٨، ٣٨٩.

(٢) ابن حيان: ص ٣١١.

(٣) ابن حيان: ص ٣٠٥، ٣٠٦. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٩٥. ابن الأثير: جـ ٦ ص ١٥٣.

طليطلة شكّلت خط دفاع عن الأراضي الإسلامية في القسم الجنوبي من الثغر الأوسط بين مدينتي سالم وطليطلة، نذكر منها: حصن طلمنكة على ضفاف نهر شرنبة، أحد فروع نهر تاجُه، وحصن إستيرش في الجنوب الغربي من مدينة سالم، وحصن مجريط ـ مدريد ـ إلى الشمال الشرقي من طليطلة، وحصن نبة فراطة على أحد فروع نهر تاجُه.

كان أردونيو الأول يراقب نشاط محمد الأول عن كثب، وخشي من مفاعيل الإجراءات العسكرية التي اتخذها، وأدرك أن انصرافه عن غزو بلاده إنما هو تدبير مؤقت لن يلبث أن يزول عندما يفرغ من متاعبه، لذلك سارع هو الآخر بالاستفادة من تلك الهدنة غير المعلنة للقيام بتدابير وقائية منها:

ـ بناء التحصينات في المناطق الحدودية وشحنها بالجند، مثلما فعل في قلعة أستورقة وفي قلعة مدينة ليون. والمعروف أنه كانت لهاتين القلعتين أهمية عسكرية فائقة بفعل أنهما تتحكمان في ممرات جبال كنتبرية المؤدية إلى قلب مملكة أشتوريس من ناحية الجنوب.

ـ تحصين أطراف مملكته، مثلما فعل في قلعة توي للدفاع عن حوض نهر مينيو والساحل الغربي لإقليم جليقية في الغرب.

ـ تحصين قلعة أماية في إقليم قشتالة في الشرق لحماية إقليمي ألبة والقلاع من هذه الجهة.

ـ اهتمامه بإعادة تعمير مدن الثغور الخالية من السكان، فاستقدم سكاناً جدداً ووطَّنهم فيها ليعيدوا الحياة إليها[1].

ـ عرقلة أعمال محمد الأول التحصينية، فأغار، من أجل ذلك، على منطقة الثغرين الأدنى والأوسط في حملتين متتاليتين.

وكان موسى بن موسى بن قسي قد انتهى لتوه من بناء قلعة جديدة في منطقة ريوخا على ضفة نهر إريجوا، أحد فروع نهر إبرو، عُرفت بقلعة البيضاء ـ البلدا ـ تتحكَّم بالطرق المؤدية إلى إقليمي ألبة والقلاع، وشكَّلت تهديداً لأمن أشتوريس وسلامة أراضيها، ولم يجد أردونيو الأول بداً من تدميرها وإزالتها وإذا علمنا أن

(١) رمضان: ص ٤٥٧.

العداوة كانت مستحكمة بين الرجلين منذ أن شارك موسى بن موسى في معركة وادي سليط وغزوه لإقليمي ألبة والقلاع بعد ذلك، وأن أردونيو الأول كان ينظر إلى اتساع ولايته من ناحية الغرب بعين القلق، لأدركنا مدى تلهف العاهل الأشتوريسي للأخذ بثأره والقضاء عليه، لكنه أدرك مدى جسامة مهمته، لذا بالغ في تجهيز جيش ضمَّ خيرة جنده وأقواهم، وحرص على أن يقوده بنفسه، وزحف به في عام (٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م) باتجاه أراضي الثغر الأعلى ميمماً وجهه صوب قلعة البيضاء الحصينة، ولما وصل إليها ضرب حصاراً عليها.

لم يقف موسى بن موسى مكتوف اليدين تجاه هذا الغزو الذي هدَّد أمنه وسلامة أراضيه، بل هبَّ للدفاع عن قلعته بعد أن حشد جيشاً كثيفاً ومعه صهره غرسية أمير نبرَّة، لكنه ارتكب خطأً عسكرياً كلَّفه غالياً. فهو لم يشأ أن يهاجم الجيش الأشتوريسي من الخلف وحشره بينه وبين حامية القلعة، وإنما عسكر عند جبل لاتورس المجاور للقلعة من ناحية الشرق، ربما لأنه افتقر إلى التخطيط العسكري السليم من واقع عدم وضع خطة عسكرية مسبقة للدخول في معركة ناجحة مع العدو، أو لأنه أراد استدراج العدو وإجباره على فك الحصار عن القلعة والاصطدام به بعيداً عنها.

ومهما يكن من أمر، فقد أسرع أردونيو الأول لملاقاته عند الجبل قبل أن يعبِّئ قواته، فترك قسماً من جيشه على حصار القلعة وتقدم بالقسم الآخر نحوه وباغته. ودارت بين الطرفين رحى معركة ضارية انتهت بانتصار أردونيو الأول، وهُزم موسى ابن موسى هزيمة منكرة وأصيب بثلاثة جروح، كما أصيب صهره غرسية، وغادر أرض المعركة وهو نصف حي، تاركاً قواته بدون قيادة، فاضطربت صفوفها وحلَّت بها الهزيمة الساحقة، وفرَّ من نجا منها في كل اتجاه. ونفَّذ أردونيو الأول عملية مطاردة للفلول الهاربة، ثم عاد إلى القلعة وشدَّد حصاره لها حتى سقطت في يده، فقتل أفراد حاميتها ودمَّرها وسوّاها بالأرض، فانتقم بذلك من محمد الأول وعامله موسى بن موسى، وأخذ بثأره لمعركة وادي سليط[1].

كان لتلك الحملة آثار على جانب كبير من الأهمية لكل من الأندلس وأشتوريس نذكر منها:

---

(١) لم تشر المصادر الإسلامية إلى هذه المعركة. ويتحدث ابن حيان عن معركة البيضاء التي أحرز فيها موسى بن موسى نصراً على الجاشقيين، عام ٢٣٧هـ. المقتبس ص ١٦. وانظر تعليق الدكتور محمود علي مكي عليها في المصدر نفسه: ص ٤٣٧ هامش رقم ٦١.

ـ شكَّلت هزيمة موسى بن موسى بداية النهاية له، وانتهى، بانهيار قواته، تهديده لمملكة أشتوريس.

ـ تدهورت علاقته بمحمد الأول عندما كتب إليه يذكر ما ناله ونال أهل بلده من سوء بفعل الحروب، وطلب منه أن يكون دخول عسكره في المستقبل إلى أرض أشتوريس على غير ناحيته[1]، فانزعج محمد الأول من هذا الطلب، وعدَّ تصرف تابعه بمثابة عصيان جديد، وبادر بعزله في عام (٢٤٦ هـ/ ٨٦٠ م)[2]، لكن موسى ابن موسى رفض قرار العزل وجاهر بعصيانه وتطلع إلى مدِّ نفوذه نحو طليطلة. وحتى يُقوِّي موقفه صاهر صاحب مدينة الفرج وثغرها، أزراق بن منتيل بن سالم، وزوَّجه ابنته، لكن لم تلبث أن ساءت علاقته به في عام (٢٤٨ هـ/ ٨٦٢ م)، وجرى قتال بينهما أصيب فيه موسى بجراح أدَّت إلى وفاته إثر عودته إلى تطيلة[3].

ـ نتج عن انتصار أردونيو الأول نوع من التقارب بينه وبين غرسية، بعد أن ساءت علاقة هذا الأخير بكل من محمد الأول وموسى بن موسى، بسبب عدم تقديمهما المساعدة العسكرية له عندما هاجم النورمان بلاده، ثم إحجامهما عن مساعدته مادياً في دفع قيمة الفدية الضخمة التي فرضوها عليه، فاستغل العاهل الأشتوريسي هذا التقارب لمهاجمة الأملاك الإسلامية.

بادر محمد الأول إلى ضرب قوى التحالف قبل أن تتقدم نحو أراضيه، فجهَّز حملة عسكرية في عام (٢٤٦ هـ/ ٨٦٠ م)، قادها بنفسه، قاصداً أراضي بنبلونة، فجاس فيها مدة إثنين وثلاثين يوماً يُدمِّر القرى ويتلف المزروعات ويفتح الحصون مثل حصن فيروس على الشاطىء الأيسر لنهر أراغون، وحصن فالجش في وادي أرجة، وحصن قشتيل. ويبدو أن أهم حدث في هذه الحملة هو وقوع فرتون بن غرسية أسيراً بيده، فحمله معه إلى قرطبة[4].

جاء الرد على حملة محمد الأول، التي أثارت غضب غرسية وحليفه أردونيو الأول، بعد مرور عامين. فمن أجل الانتقام والأخذ بالثأر، هاجم الحليفان نواحي الثغر

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٩٧.

(٢) العذري، أحمد بن عمر بن أنس، المعروف بابن الدلائي: نصوص عن الأندلس ص ٣٠.

(٣) ابن حيان: ص ٣١٥ـ ٣١٨.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣١٠. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٩٧.

الأوسط، وعاثا في أراضيه، إلا أن القوات الإسلامية، التي خرجت من الثغر المذكور، تصدَّت للقوات النصرانية عند تروجة إلى الجنوب الشرقي من طلمنكة، وهزمتها[١].

نقل محمد الأول، على إثر ذلك، نشاطه العسكري إلى أراضي إقليمي ألبة والقلاع لإذلال أردونيو الأول بوصفه أقوى أعدائه، فأرسل حملتين من أجل ذلك، تفصل بينهما مدة عامين تقريباً.

خرجت الحملة الأولى من قرطبة في عام (٢٤٩ هـ/ ٨٦٣ م) بقيادة ابنه عبد الرحمن، ورافقه القائد عبد الملك بن عباس القرشي، ويُقدر عديدها بعشرين ألف فارس، توغل أفراد الحملة في إقليم ألبة وتنقَّلوا في بسائطه[٢].

نهض أردونيو الأول للتصدي لغارات المسلمين الذين كانوا يتقدمون باتجاه مضيق الفج، وقرَّر قطع الطريق عليهم عند هذا المضيق. فجرى قتال بين الطرفين أسفر عن انتصار الجيش الإسلامي، وتكبد أردونيو الأول عدداً كبيراً في الأرواح من بينهم تسعة عشر كونتاً[٣].

يبدو أن الخسارة لم تؤثر على وضع أردونيو الأول السياسي والعسكري، كما لم تُغيِّر نتيجتها الوضع على الأرض، لذلك لم يقنع محمد الأول بهذا الانتصار الذي لم يحقِّق له هدفه بإذلال العاهل الأشتوريسي، فأعدَّ حملة عسكرية ثانية في عام (٢٥١ هـ/ ٨٦٥ م) بلغ عديدها من الفرسان وحدهم نحو عشرين ألفاً، جمعهم من كور الأندلس المختلفة، وبالغ في تجهيزهم، وعهد بقيادتهم إلى ابنه عبد الرحمن ورافقه القائد عبد الملك بن عباس القرشي، وفي رواية أنه عهد بقيادة الحملة إلى ابنه المنذر ورافقه الحاجب عيسى بن الحسن بن أبي عبده[٤].

خرجت الحملة من قرطبة في (جمادى الآخرة/ تموز) قاصدة إقليمي ألبة والقلاع، واخترق أفرادها حوض نهر دويرة، وتجمعوا على شاطئه الشمالي، وهناك عبأهم قائدهم وزحف بهم إلى داخل أراضي العدو حتى وصلوا إلى فج برذنش، أو برذيش، الواقع على نهر بارايسو بالقرب من مدينة أماية، ففتحوا الحصون الأربعة الواقعة عند

---

(١) ابن الأثير: جـ ٦ ص ١٩٢.

(٢) ابن حيان: ص ٣١٨. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٩٨. ابن الأثير: جـ ٦ ص ١٩٦.

(٣) ابن حيان: المصدر نفسه. ابن عذارى: المصدر نفسه.

(٤) ابن حيان: ص ٣١٩، ٣٢٠. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٩٨، ٩٩. ابن خلدون: جـ ٤ ص ٢٨٤.

مدخل الفج الأمر الذي أتاح لهم أن ينساحوا في أراضي ألبة والقلاع، يدمِّرون ما يقع تحت أيديهم من حصون وقلاع ومزارع، ثم تقدموا حتى وصلوا إلى الملاحة التي تُعدُّ من أجلِّ أعمال رودريك، حاكم إقليم القلاع، فحطموا ما حولها وعفوا آثارها[1].

ويبدو أن قائد الحملة اكتفى بما حقَّقه من مكاسب، فقرر العودة إلى قرطبة. وحين تقدم باتجاه ممر فج المركويز، وهو الممر الطبيعي المؤدي إلى الأراضي الإسلامية، فوجئ برودريك وقد حشد قواته عند مداخله بعد أن قطعه بحفر خندق عميق، فاضطر إلى نصب معسكره تجاه معسكر رودريك وعبَّأ قواته استعداداً للاصطدام بالقوى النصرانية وفتح الممر بالقوة. وفعلاً جرى اشتباك بين الطرفين أسفر عن انتصار المسلمين. وانسحب رودريك من أرض المعركة بعد أن تكبد خسائر كبيرة في الأرواح، فطاردته القوات الإسلامية حتى نهر إبرو، وردم المسلمون الخندق الذي يعترض طريق عودتهم ثم سلكوه آمنين[2].

كان لهذا النصر الذي حقَّقه المسلمون على قوات أشتوريس، فيما عرف بمعركة المركويز[3] في (١٢ رجب ٢٥١ هـ/ ٩ آب ٨٦٥ م)، أثر مباشر في إضعاف قوة سكان إقليمي ألبة والقلاع، بسبب ما نالهم من نهب وقتل وأسر وتدمير، أعجزهم عن إمكان الاحتشاد لصد أي هجوم إسلامي جديد ضدهم.

استغل محمد الأول هذا الوضع، فأرسل في العام التالي صائفة بقيادة ابنه عبد الرحمن توغلت في أراضي الإقليمين إلى أن بلغت مدينة أماية، من دون أن تلقى مقاومة تُذكر، ثم عادت إلى قرطبة[4]. لقد وُصفت هذه الصائفة بالتقليدية لأنها لم تسفر عن لقاء بين المسلمين والنصارى، وكانت بمثابة استعراض للقوة.

كان أردونيو الأول خلال ذلك مريضاً طريح الفراش يعاني من آلام النقرس، فلم يتمكَّن من تقديم المساعدة للسكان، ولم يلبث أن توفي في (١٨ جمادى الأولى ٢٥٢ هـ/ ٦ حزيران ٨٦٦ م). وكان ابنه الأكبر ألفونسو الذي أعدَّه ليخلفه على العرش، غائباً عن العاصمة أوبييدو، ولما أُخبر بذلك عاد مسرعاً وتسلم الحكم، ولم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من عمره[5].

---

(١) ابن حيان: ص ٣١٩، ٣٢٠. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٩٨، ٩٩.

(٢) المصدران نفساهما.

(٣) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٩٨. ابن الأثير: جـ ٦ ص ٢٢٨، يذكر فج المركوين.

(٤) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٩٩.

(٥) Chronion Albeldense: P. 453.

شهدت المملكة، في بداية عهده، صراعاً حاداً على السلطة كلَّفه خسارة عرشه لبعض الوقت. إذ ثار عليه نبلاء جليقية بقيادة فرويلة برموديث، حاكم مدينة لوغو الجليقية، في محاولة لنقل الزعامة في المملكة من إقليمي أشتوريس وكنتبرية إلى إقليم جليقية، ونجح في طرد ألفونسو واعتلى العرش، وأجبره على اللجوء إلى قشتالة، لكن ألفونسو أخمد الثورة بعد ذلك وقتل المغتصب واستعاد سلطته.

كان من المتوقع أن تهدأ الأمور وتستقر الأوضاع لألفونسو الثالث الملقب بالعظيم (٢٥٢ ـ ٢٩٧ هـ/ ٨٦٦ ـ ٩١٠ م) بعد أن استردَّ عرشه، لولا أنه واجه ثورة أخرى من جانب البشكنس في إقليم ألبة.

كانت ظروف تلك الاضطرابات مؤاتية لمحمد الأول لكي يشدِّد ضغطه على أشتوريس، فأعدَّ جيشاً آخر في عام (٢٥٣ هـ/ ٨٦٧ م) عهد بقيادته إلى ابنه الحكم وبرفقته القائد خالد بن خالد، وأمره بمهاجمة إقليم ألبة. توغل الحكم في هذا الإقليم وحاصر حصن جرنيق وفتحه عنوة ثم عاد إلى قرطبة[١].

جمَّد محمد الأول عملياته العسكرية ضد مملكة أشتوريس، بعد تلك الحملة، مدة عشرة أعوام تقريباً انهمك خلالها بإخماد الثورات التي قامت ضد حكمه، مثل ثورة سكان طليطلة وثورة عبد الرحمن بن مروان الجليقي، غير أن التحالف الذي أقامه، الأخير مع ألفونسو الثالث دفعه لبذل جهود لفضِّه، فتعجَّل في تجهيز حملة عسكرية من سبعمائة فارس، وأرسلها إلى أشتوريس في صيف (٢٦٣ هـ/ ٨٧٧ م) بقيادة ابنه المنذر، ورافقه القائد وليد بن غانم والقاضي عمرو بن عبد الله، وذلك قبل أن يكتمل توافد الجند من الأقاليم الأندلسية[٢].

وصلت الحملة إلى ماردة، ثم واصلت زحفها على الطريق المؤدي إلى قلعة أستورقة، أول القلاع الأشتوريسية من ناحية الجنوب. وكان قد وفد في هذه الأثناء، على قرطبة، تسعمائة فارس، فلحقوا بالجيش الرئيس، غير أنهم سلكوا طريقاً آخر أوقعهم في كمين نصبه لهم عبد الرحمن بن مروان الجليقي وحليفه، في مكان يُعرف بـ «البربرية» على ضفاف نهر أوربيجو، أحد روافد نهر دويرة، فانقضَّ عليهم وأبادهم عن آخرهم. ولما علم المنذر بأنباء هذه الكارثة، هاجم قلعة سوبلانثيا، فتصدَّى له

(١) ابن حيان: ص ٣٢٠، ٣٢١. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٩٩.

(٢) ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٠٣. ابن الأثير: جـ ٦ ص ٣٤٩.

ألفونسو الثالث، وكان قد سبقه إليها، وأجبره على الارتداد عنها والانسحاب من المنطقة[1].

لم تثنِ تلك الهزيمة محمداً الأول عن غزو أشتوريس في العام التالي، فأرسل حملة عسكرية بقيادة البراء بن مالك، اقتحمت أراضي جليقية واصطدمت بالقوات الأشتوريسية التي تصدَّت لها، ولم تسفر المعركة عن نتيجة إيجابية لكلا الطرفين، فانسحب البراء من المنطقة من دون أن يحقِّق الهدف الذي أُرسل من أجله[2].

وجاء دور ألفونسو الثالث للردِّ على الغزو الإسلامي لبلاده والانتقام من محمد الأول، فغزا أراضي الثغر الأدنى المواجهة لإقليم جليقية في صيف عام (٢٦٦ هـ/ ٨٨٠ م)، واجتاح ماردة، قاعدة الثغر، وبلد حليفه عبد الرحمن بن مروان الجليقي، ووصلت خيوله إلى حصن دوبل الواقع جنوب شرقي بطليوس فاقتحمته، وسبى سكانه[3].

كان لتلك الغزوة وقع أليم في نفس عبد الرحمن بن مروان الجليقي، إذ إنها أصابت بلده ماردة ونواحيها، وعزَّ عليه ما أحدثه ألفونسو الثالث فيها من تخريب وإبادة سكانها، ففكَّ تحالفه معه وغادر أشتوريس إلى الأندلس.

وقرَّر محمد الأول، بعد فشل حملاته البرية ضد مملكة أشتوريس، أن يغزوها بحراً من ناحية ساحل إقليم جليقية في الغرب، حيث المنطقة غير محصَّنة «وإن ساحلها نزهة لمن قصده»، فأعد أسطولاً أبحر من الوادي الكبير بقيادة عبد الملك بن عبد الله بن مغيث، في عام (٢٦٦ هـ/ ٨٨٠ م)، ودخل مياه المحيط الأطلسي، غير أنه تعرَّض لعاصفة بحرية عاتية بعثرت مراكبه ودمرتها، وغرق أكثر بحارتها، وعاد قائد الحملة إلى قرطبة مع من نجا من بحارته وقليل ما هم[4].

وحاول ألفونسو الثالث، في ظل الاضطرابات التي شهدتها الأندلس، أن يدعم جبهة المعارضة للحكم الأموي ويضعف سلطة محمد الأول، فوطد علاقته بأمراء بنبلونة في حوض نهر إبرو، وتحالف مع أبناء موسى بن موسى من أسرة بني قسي حكام الثغر الأعلى، والمعروف أن هذا الثغر كان منطلقاً لمعظم الحملات

---

(١) ابن حيان: ص ٣٨٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٨٥.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٩٥، ٣٩٦.

(٤) ابن حيان: ص ٣٩٨، ٣٩٩. ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٠٣، ١٠٤. ابن الأثير: جـ ٦ ص ٣٦٩. النويري: جـ ٢٣ ص ٣٩١.

الإسلامية في غزوها لإقليم ألبة والقلاع، وشجعهم على مواصلة الثورة ضد قرطبة.

كان من الطبيعي ألَّا يقف محمد الأول مكتوف اليدين إزاء هذا التحالف الذي ينتج عنه انفصال الثغر الأعلى عن سلطانه، لذلك عمل على إحباطه. فوجَّه نشاطه العسكري أولاً ضد بني قسي لإجبارهم على فك تحالفهم مع ألفونسو الثالث، ونجح في استقطابهم بعد أن جرَّد عليهم عدة حملات، ما شرحناه آنفاً. والمعروف أن الحملة التي أخضعت هؤلاء في عام (٢٦٨ هـ/ ٨٨٢ م)[١] تابعت زحفها غرباً واقتحمت أراضي ألبة والقلاع وهاجمت عدة قلاع قبل أن تدخل أراضي أشتوريس لتواجه القوات الأشتوريسية، عند مشارف مدينة ليون بقيادة ألفونسو الثالث.

ويبدو أن المنذر الذي كان يقود الحملة اكتفى بما حقَّقه من إنجاز، وآثر عدم الاشتباك مع العدو، وفضَّل الدخول معه في مفاوضات من أجل تحقيق هدنة بينهما. وفعلاً تمَّ الاتفاق على أن:

- يعيد ألفونسو الثالث إلى هاشم بن عبد العزيز، الذي كان يرافق المنذر، ابنه أبا القاسم الذي كان لا يزال يحتفظ به أسيراً.
- يعيد هاشم بن عبد العزيز رهائن إسماعيل بن موسى إلى ألفونسو الثالث.

وما إن تمَّ تبادل الرهائن حتى غادرت القوات الإسلامية أشتوريس في طريق عودتها إلى قرطبة[٢].

كان هذا التفاهم لصالح ألفونسو الثالث، إذ بتنازل هاشم بن عبد العزيز عن رهائن إسماعيل بن موسى، يتيح للعاهل الأشتوريسي إقناعه بنقض طاعته لمحمد الأول واستخدامه كورقة ضغط ضده، وهذا ما حصل فعلاً. إذ ما كادت القوات الأموية تعود إلى قرطبة حتى نشب الخلاف في الثغر الأعلى بين إسماعيل بن موسى وبين ابن أخيه محمد بن لب، الموالي لمحمد الأول، كما شرحناه آنفاً.

أما بنبلونة، فقد فكَّت تحالفها مع ألفونسو الثالث تحت تأثير ما أحدثته الحملات الإسلامية ضد أراضيها من تخريب بعد عام (٢٦٥ هـ/ ٨٧٩ م)، وجمَّدت كل تعاون معه بحيث لم يذكر المؤرخون شيئاً عن أي نشاط عسكري مشترك ضد قرطبة إلا بعد حوالي عشرين عاماً.

وهكذا لم يبقَ أمام محمد الأول من أعضاء التحالف سوى ألفونسو الثالث، لذا أمر

---

(١) ابن حيان: ص ٣٩٩. ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٠٥.

(٢) رمضان: ص ٤٨٧، ٤٨٨.

ابنه المنذر وقائده هاشم بن عبد العزيز، اللذين كانا قد أنهيا تمرد محمد بن لب في الثغر الأعلى في عام (٢٧٠ هـ/ ٨٨٣ م)، بعدم العودة إلى قرطبة قبل أن يقتحما أراضي أشتوريس، وأمدهما بقوة عسكرية مساندة أرسلها إليهما على وجه السرعة.

اقتحم المنذر إقليمي ألبة والقلاع، واشتبك مع حاميات الحصون والقلاع من دون أن يحقق انتصاراً واضحاً، فواصل زحفه حتى دخل أراضي أشتوريس قاصداً مدينة ليون.

نهض ألفونسو الثالث، فور تلقيه أنباء التوغل الإسلامي داخل أراضيه، لصدِّ القوات الإسلامية، وتصرف على محورين:

الأول: اعترض الإمدادات التي كانت في طريقها للانضمام إلى جيش المنذر، فدمَّرها وقضى عليها في بولبوراريا على نهر أوبرييجو، فحرم المنذر من قوة هو بأمسِّ الحاجة إليها.

الثاني: عسكر عند مشارف قلعة سوبلانثيا، على بُعد فرسخين من مدينة ليون، وانتظر هناك الجيش الإسلامي المتقدم للاشتباك معه.

كان المنذر يعاني آنذاك من عدة صعاب لعل أهمها:

- تناقص عدد أفراد جيشه نتيجة القتل في الحروب التي خاضها في الثغر الأعلى.
- حرمانه من المساعدة التي كانت في طريقها إليه.
- الإنهاك الذي بدا على من تبقَّى من جنوده بفعل الحروب المتواصلة التي خاضوها في الثغر الأعلى، ثم زحفهم نحو أشتوريس من دون أخذ قسط من الراحة.

لذلك توقف عن الزحف، وآثر عدم الاشتباك مع ألفونسو الثالث، واكتفى بما حقَّقه من تخريب وتدمير أراضيه وعاد إلى قرطبة. ولم يفكر ألفونسو الثالث بمطاردته، وربما اكتفى بما أصاب بلاده من تخريب، بحيث لم يتردَّد في إجراء مفاوضات مع المسلمين لإحلال السلام بينهما، حينما فاتحه هاشم بن عبد العزيز بذلك، وأرسل مبعوثاً خاصاً إلى قرطبة هو أسقف طليطلة السابق دولسيديو، للاتفاق مع محمد الأول على شروط الصلح، فرحب به العاهل الأموي، ووقَّع معه المعاهدة في (رجب ٢٧٠ هـ/ كانون الثاني ٨٨٤ م)[١].

هذا وقد أحجمت المصادر الإسلامية والإسبانية عن ذكر شروط المعاهدة، ربما

---

(١) بروفنسال: ص ٢٥٥. رمضان: ص ٤٩٠ Chronicon Albeldense: PP. 458, 459. Pidal: Historia. Espana VI. by Urbel P. 89.

لأنها لم تكن معاهدة لتحديد إطار السلام بين الدولتين بقدر ما كانت نوعاً من الهدنة المؤقتة، تعهَّد بموجبها الطرفان بوقف الأعمال العدوانية بينهما لمدة معينة والتخلي عن تأييد أو إيواء الثوار والمنشقين عن أي منهما[1]، فساد الهدوء بينهما فيما تبقَّى من عهد محمد الأول الذي انتهى في (ربيع الأول ٢٧٣ هـ/ آب ٨٨٦ م).

المنذر بن محمد الأول (٢٧٣ ــ ٢٧٥ هـ/٨٨٦ ــ ٨٨٨ م)

اعتلاء المنذر السلطة: توفي محمد الأول بعد أن حكم مدة تزيد على ثلث قرن، وترك تراثاً ثقيلاً على الرغم من الجهود التي بذلها لإخماد الثورات وإعادة الوحدة السياسية إلى ربوع الأندلس. وكان قد اختار نفراً من أبنائه من الذين اتصفوا بالشجاعة والنجابة، لقيادة الحملات العسكرية، كما أسند إلى بعضهم إدارة بعض الولايات، ليؤهلهم على تحمُّل المسؤولية. وكان المنذر من أبرز هؤلاء الأبناء الذين أدوا دوراً رائداً في دولة والدهم، فقاد عدة حملات عسكرية ضد المتمردين والمخالفين للدولة، وضد النصارى في الشمال، حتى أضحى، في الشطر الثاني من حكم والده، الرجل الأول على مسرح القيادة.

ويبدو أن محمداً الأول، وبناءً على تلك المؤهلات، اختاره خلفاً له في الإمارة. فعيَّنه ولياً للعهد في وقت مبكر، في عام (٢٦٢ هـ/ ٨٧٥، ٨٧٦ م). كان المنذر في جنوبي الأندلس، عندما توفي والده، يحارب عمر بن حفصون وبعض حلفائه، ويحاصر حصن الحامة. فلم يحاول أحد من إخوته الكثر، اعتلاء السلطة في العاصمة قرطبة وهو بعيد عنها، بل إن المؤرخين لا يذكرون أي خلاف حصل بينه وبين إخوته أو أي صراع أسري على السلطة، وهذا دليل على اعتراف الأسرة الأموية به ولياً للعهد كما أن تصرفه، أثناء عودته إلى قرطبة، دليل آخر على اختياره ولياً للعهد واعتراف إخوته بهذا الاختيار. إذ ما إن أتاه نعي والده حتى أسرع بالعودة إلى العاصمة، ومرَّ في مدينة ريَّة، فنظم أمورها الإدارية، ونظر في مشكلاتها، وولى عليها سليمان بن عبد الملك بن أخطل، ومساعده عبد الرحمن بن جريش، وخصَّصهما بحاشية عسكرية وإدارية. وعندما وصل إلى قرطبة يوم الأحد (٨ ربيع الأول ٢٧٣ هـ/ ١٣ آب ٨٨٦م) بويع حاكماً على البلاد[2].

(١) رمضان: ص ٤٩١.

(٢) ابن عذاري: جـ ٢ ص ١١٣، ١١٤. ابن الخطيب: أعمال الأعلام جـ ٢ ص ٢٥.

الثورات الداخلية في عهد المنذر

تمهيد: تسلَّم المنذر تراثاً ثقيلاً من المشكلات لم يكن باستطاعته الخروج بحلول لها ولو جزئية، ربما لأن عهده كان قصيراً، أقل من عامين، «ولو عاش عاماً واحداً زائداً، لم يبق بين يديه ثائر في الأندلس» وذلك بما عُرف عنه من حزم وصرامة وقوة الشخصية وكفاءة في الحرب. جاء إلى الحكم ومعه طموح كبير للقضاء على الحركات الانفصالية، لكن التمزق السياسي في البلاد كان قد بلغ مداه، والحركات الانفصالية أخذت تنتشر في كل الأقاليم وهي تنتظر لحظة الانفجار منذ مدة، حتى خرجت في عهده. وزخر البلاط الأموي بالمؤامرات، وكان عمر بن حفصون في أوج قوته وشكَّل أكبر هواجس المنذر، وخصمه الأكثر عناداً. وقد استنزفت حروبه كثيراً من مالية البلاد التي كانت قد تناقصت كثيراً منذ انفصال بعض أقاليم الثغور في عهد أبيه، وتوقف ورود جبايتها السنوية على خزينة قرطبة، فعانت البلاد من أزمة مالية زادت وطأتها بما اتَّبعه المنذر من مظاهر الإسراف المبالغ فيها، على مدى عامي حكمه. ويشير المؤرخون أنه في يوم مبايعته بالإمارة، أخرج الأموال من خزائن المال وفرَّق على الجند عطاءين في وقت واحد، كما أسقط عن الرعية عشور وخراج ذاك العام، ويضيفون أن هذا الإسراف كان «فعله في جميع أسبابه، أي أموره، حتى أوشكت مالية البلاد أن تنضب، فاضطر إلى فرض الجزية على أهل الذمة»[1]، لتغطية نفقات حروبه ضد المنشقين عليه.

كان من الطبيعي، والأوضاع المالية والسياسية على هذا الشكل من التدهور، أن يعجز المنذر عن وضع حد لما يعانيه، حتى تقلَّص سلطانه بحيث لم يعد يجاوز قرطبة وحدها، كأي إقليم آخر من أقاليم الإمارة المنهارة.

احتفظ المنذر، في بداية عهده، بوزراء والده ومن بينهم هاشم بن عبد العزيز وذلك لاستمرار تسيير أعمال الدولة، إلى حين إجراء تغييرات رآها ضرورية. ويبدو أنه لم يكن راضياً عن الوضع الإداري كما كان أيام والده، وخطَّط لانتهاج مسار إداري وسياسي جديد لانتشال البلاد من محنتها.

وبعد مرور أربعين يوماً على اعتلائه السلطة، بدأ بإجراء التغييرات في أجهزة الدولة. فأقصى بعض وزراء والده وعيَّن مكانهم وزراء جدداً، وعزل القاضي سليمان

(١) مؤلف مجهول: ص ١٥٠، ١٥١، ابن عذاري: جـ ٢ ص ١١٤. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٢٥.

ابن أسود البلوطي وعين مكانه أبا معاوية عامر بن معاوية اللخمي، وأعاد تمام بن علقمة ومحمداً بن جهور إلى الوزارة، وبعد عدة أشهر، عزل هاشم بن عبد العزيز ونكَّب به وبأسرته، والواقع أن المودة كانت مفقودة منذ زمن بعيد بين الرجلين. واتهم المنذر وزيره بأنه تجاوز الحدَّ في الاعتداد برأيه، وتزايد نفوذه، فاستغل بعض الوشايات ضده، وقد ساهم فيها بعض الوزراء الذين يكنّون له العداوة والحسد مثل محمد بن جهور، وقبض عليه وأودعه السجن ثم قتله، وصادر أمواله، كما سجن عدداً كبيراً من أفراد أسرته[1].

استمرار ثورة عمر بن حفصون: كان عمر بن حفصون يتحلّى بالذكاء والواقعية، الأمر الذي جعله لا يولي اهتماماً كبيراً بالهدنة العابرة التي توفرت له بين وفاة محمد الأول وتسلُّم ابنه المنذر مقاليد الحكم في قرطبة. وفي الوقت الذي كان فيه هذا الأخير منهمكاً باحتفالات التنصيب، لم يقف عمر بن حفصون مكتوف اليدين، بل انتهز هذه الفرصة وراح يبث روح الثورة بين الشعب الذي كان في أغلبه من النصارى أو المولَّدين، بما كان يلقيه فيهم من خطب حماسية ضد العرب، وقد صادفت هوى في نفوسهم، «طالما عنف عليكم السلطان، وانتزع أموالكم، وحمَّلكم فوق طاقتكم، وأذلَّتكم العرب، واستعبدتكم، وإنما أريد أن أقوم بثأركم، وأخرجكم من عبوديتكم». والمعروف أن لمثل هذه الدعوات التي يشيعها عادة المعارضون للسلطات، صدى إيجابياً في نفوس الناس، ولذا فإن عمر بن حفصون كان لا يوردها «على أحد إلا أجابه وشكره»[2].

وقرَّر عمر بن حفصون إنشاء مملكة مستقلة في الأندلس، فراح يعمل على توسيع رقعة نفوذه وتقوية موقفه في أرجاء الأقاليم الجنوبية، ونجح في الحصول على تأييد معظم الحصون المنتشرة بين معقله ببشتر وبين الساحل الجنوبي للأندلس فاكتسب بذلك وضعاً عسكرياً ممتازاً، حيث فُتح الطريق أمامه للاستفادة من البحر ومميزاته في صراعه المرتقب مع الأمويين.

التفت عمر بن حفصون، بعد أن ثبَّت أقدامه في الجنوب، نحو الشمال للتوسع على حساب الممتلكات الإسلامية والسيطرة على أهم المعاقل الأموية، فقام بتنظيم

---

(١) ابن القوطية: ص ١٣٢. ابن عذارى: جـ ٢ ص ١١٥. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٢٥.

(٢) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١١٤.

غارات جريئة وصلت إلى قبرة، الواقعة جنوبي قرطبة والتي لا تبعد كثيراً عنها، وأقام فيها حامية له، كما أغار على أحواز كورة جيان وهاجم كورة إلبيرة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من قرطبة، وبلغ به الأمر أن أسر عبد الله بن سماعة عامل باغُه، وهي مدينة من أعمال كورة إلبيرة، وجمع أنصاره في حصن أشرس في منطقة ريَّة، فارتاع سكان المدن[1].

والواقع أن وصول عمر بن حفصون لنواحي قبرة هدَّد بشكل خطر العاصمة الأموية. ونتيجة لهذا الانتشار الواسع والمخيف، جنَّد المنذر عدداً من قادته ووجَّههم لاسترداد سيادة الإمارة في الأقاليم المسلوبة. فأرسل أصبغ بن فطيس إلى حصن أشرس، فحاصره وفتحه وقتل من كان فيه، كما أرسل قائديه عبد الله بن محمد بن نصر والفتى الصقلبي أبدون على رأس فرقة من الفرسان إلى ناحية لجانة من أعمال قبرة، فهاجموا أنصار ابن حفصون وقضوا على عدد كبير منهم. ولكن هذه النتائج لم تكن كافية على الرغم من إيجابيتها، وحين أدرك المنذر هذه الحقيقة قرَّر على الفور القيام بعملية أوسع يشرف عليها بنفسه، فخرج من قرطبة في عام (٢٧٤ هـ/ ٨٨٧ م) على رأس جيش كبير قاصداً ببشتر معقل عمر بن حفصون وفتح في طريقه أرشذونة الواقعة في قلب كورة ريَّة، حيث تحصن فيها أحد المولَّدين ويدعى عيشون وقد سار على خطى ابن حفصون، فقبض عليه وصلبه. كذلك لقي متمردون آخرون ممن استأجرهم عمر بن حفصون، حتفهم. فقد تمرَّد بنو مطروح، بقيادة ثلاثة من زعمائهم هم حرب وعون وطالوت، في جبل باغو، فهاجمهم المنذر وقبض عليهم وقتلهم صبراً وفتح حصونهم[2].

توجَّه العاهل الأموي بعد ذلك إلى عمر بن حفصون المتحصن بقلعة قمارة وحاصره، وكان ذلك في عام (٢٧٥ هـ/ ٨٨٨ م). وطال أمد الحصار وبدأ اليأس يدب في نفوس سكانها الأمر الذي دفع ابن حفصون إلى اللجوء إلى المكر والخديعة للتخلص من متاعب الحصار. وربما لم تكن القلعة محصَّنة بالقدر الذي يؤهلها للصمود في وجه الجيش الأموي، فأراد ابن حفصون أن يتحول إلى مركزه الحصين ببشتر وبخاصة أن المسافة بين الموقعين ليست بعيدة[3].

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١١٤، ١١٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ١١٦، ١١٧.

(٣) المصدر نفسه: ص ١١٧

وأوهم ابن حفصون المنذر بأنه على استعداد بأن يستسلم، وتظاهر بالخضوع والإذعان والالتزام بتحديد إقامته في قرطبة مع أسرته، ووعده بأن يصبح من خاصته وجنده، واشترط بأن يضمن له معاملة طيبة، وأن يحظى ومن معه باستقبال مشرِّف وبمكانة إجتماعية ممتازة، وأن يجري عليه الأرزاق، وطلب أن يقدم إليه مائة بغل لحمل أمتعته وأهله إلى قرطبة(١).

خُدع المنذر بكلام ابن حفصون، فوافق على شروطه، وأعطاه الأمان، وأمر بأن تُرسل إليه مجموعة من مائة بغل لينقل عليها أمتعته وأمتعة أهله، ومنحه بعض الهدايا الثمينة، وخفَّف في الوقت نفسه الحصار عن قمارة تمهيداً لرفعه. وسارت القافلة تحرسها كوكبة من الفرسان عبر طريق يؤدي إلى ببشتر حيث كانت أسرته. وهنا وجد هذا الثائر الفرصة سانحة ومغرية للتحلُّل من وعوده، فهرب من معسكر المنذر تحت جنح الظلام ولحق بالقافلة، فقتل الحراس واستولى على ما كان المنذر قد رفده به، وجدَّد ثورته، واعتصم بمعقله الحصين ببشتر(٢).

جاء رد الفعل سريعاً من جانب المنذر الذي غضب لوقوعه في مثل هذا الخداع، ولم يستطع كظم غيظه تجاه هذا الغدر السافر من جانب عمر بن حفصون والذي ينطوي على استهتار مهين لشخصه ولحكومته، وأقسم بألا يغادر المنطقة إلا بعد إخضاعه والقبض عليه حياً أو ميتاً. لذلك أعاد تنظيم صفوف قواته وحاصر ببشتر، وضيَّق عليها حتى عانى من بداخلها من الشدَّة، كما تعب الجنود الأمويون بفعل ما بذلوه من جهد لفتحها، والمنذر مصرٌّ على عدم المغادرة قبل اقتحامها(٣).

وفجأة توقَّف كل شيء، فقد تردَّت صحة المنذر بشكل مفاجئ، فطلب من أخيه عبد الله أن يحضر إليه ليسلم له قيادة الحصار، وتوفي في (١٥ صفر ٢٧٥ هـ/ ٢٩ حزيران ٨٨٨ م)(٤) في ظروف غريبة، في اليوم الذي وصل فيه أخوه، وبعد مرور ثلاثة وأربعين يوماً على حصار ببشتر، ولم تخل وفاته من تساؤلات وشكوك من واقع اختلاف المؤرخين بين وفاة بسبب المرض ووفاة نتيجة مؤامرة مدبرة. وتشير أصابع الاتهام إلى أخيه عبد الله المرشح لخلافته بأنه مشترك في هذه المؤامرة مع ميسور الفتى الصقلبي بهدف القضاء على أخيه، لأنه كان يعتقد بأحقيته في حكم

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١١٧.
(٢) المصدر نفسه: ص ١١٧، ١١٨.
(٣) المصدر نفسه: ص ١١٨.
(٤) المصدر نفسه: ص ١١٤. ابن الأثير: جـ ٦ ص ٤٥١. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٢٦.

البلاد بعد والده محمد الأول، لكنه نُحِّي عن الحكم لصالح المنذر، فأسرَّ ذلك في نفسه، وبدأ يعمل في الخفاء لإنهاء حياة أخيه، ودفعه الطمع في الملك إلى الإسراع في تنفيذ مؤامرته، وبخاصة أنه كان يبلغ آنذاك أكثر من خمسة وأربعين عاماً من العمر، وهو سن متقدم نسبياً[1].

وهكذا لم يطل عهد المنذر أكثر من عامين، فكان أقصر العهود الأموية في الأندلس، وتوفي من دون أن يتمكَّن من البر بقسمه في القضاء على ثورة عمر بن حفصون، فقضى نحبه وهو يحاصره.

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٥٦. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٢٧.

الفَصْلُ التَاسِع

عبد الله بن محمد الأول

(٢٧٥ ـ ٣٠٠ هـ/٨٨٨ ـ ٩١٢ م)

تولي عبد الله السلطة

ظل عبد الله المرشح الثاني لحكم الأندلس بعد أخيه المنذر وإن لم يُعلَن ذلك رسمياً، بدليل أن أخاه استعان به في إدارة شؤون الدولة، كما استدعاه عندما كان يحاصر ببشتر بعد أن شعر بدنو أجله، لينوب عنه. وتوفي المنذر في اليوم الذي وصل فيه عبد الله، كما ذكرنا، فدخل عليه في مضربه، ثم بويع له حينئذٍ بالإمارة من قِبَل الحاضرين من أسرته ومن القادة والوزراء وعامة الجند[١].

وقرَّر عبد الله فك الحصار عن ابن حفصون بعد أن عجز عن ضبط الحشود العسكرية التي انفضَّت من حوله عندما علمت بوفاة المنذر[٢]، فعاد إلى قرطبة حاملاً معه جثمان أخيه. وبعد أن واراه الثرى، طلب من سكان العاصمة أن يبايعوه، فبايعه علية القوم يوم الإثنين (١٧ صفر ٢٧٥ هـ/ ١ تموز ٨٨٨ م)، ثم بايعه عامة الناس، فاستغرق ذلك عدة أيام، كما وافته الكتب بالبيعة من ولاة الأقاليم التي لا تزال على الطاعة[٣].

تفتُّت الوحدة السياسية للإمارة الأموية: لم تخلُ الإمارة الأموية، حتى في عهد عبد الرحمن الثاني، من المتاعب، ذلك أن قضيتين أساسيتين كان على كل حاكم جديد أن يتصدّى لهما بنجاح وإلا هوى عن الحكم متسبِّباً في حروب أهلية تمزِّق البلاد.

تكمن القضية الأولى في طبيعة تركيب المجتمع الأندلسي، الذي هو عبارة عن عصبيات وشعوب متعددة خضعت للحكم الأموي إما كرهاً أو سعياً وراء منفعة، من

---

(١) مؤلف مجهول: ص ١٥٢. ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٢١. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٢٦.
(٢) ابن الخطيب: المصدر نفسه.
(٣) ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٢١.

دون أن تجمع بينها قضية وطنية. فهناك أقلية عربية جاءت مع الفتوح أو في ظروف عادية، وحملت معها بذور الصراع القيسي اليمني، فهي إذن تفتقر للانسجام، ولازم هذه الفئة نزعة الاستعلاء والتفوق على سواها من العناصر الأخرى. وخشيت الطبقة الحاكمة من منافسة الزعماء العرب الآخرين لها، ما دفعها إلى تهميشهم، الأمر الذي دفع هؤلاء إلى إثارة المتاعب ضدها كلما سنحت لهم الفرصة، نذكر منهم سوار في إقليم إلبيرة وكريب بن خلدون وإبراهيم بن الحجاج في إقليم إشبيلية. وهناك أقلية أخرى، من البربر، على الرغم من تفوقهم العددي على العرب، جاءت في ظل الظروف نفسها، ونافست العرب في السيطرة، مستمدة قوتها من بربر المغرب. وارتفع شأن أفرادها في ظل الحكم الأموي منذ عهد عبد الرحمن الداخل حتى أضحى لهم دور واضح في الجيش والإدارة، وتراوحت علاقتهم بالعرب بين الجيدة والعدائية، لأن بعض زعماء البربر من أصحاب النفوذ السياسي أثاروا المتاعب في وجه الدولة، نذكر منهم موسى بن ذي النون في الثغر الأدنى، والجدير بالذكر أن كلا العنصرين العربي والبربري كانا هدفاً لسخط المولَّدين.

وهناك أغلبية من السكان الأصليين الذين انسجموا بالنظام الإسلامي، ودخلوا في الإسلام، وهم المولَّدون، وكانوا في ازدياد مطَّرد حتى أضحوا في القرن الثالث الهجري كتلة كبيرة تميزت بثقلها السياسي وضغطها العسكري، ونُظر إليهم نظرة ازدراء واحتقار بوصفهم أقل مرتبة من العرب، وأُطلق على فئة منهم، وهم بنو موسى ابن موسى بن قسي، الأراذل.

ولم يكن للمولَّدين، من دون الموالي منهم، أن يشاركوا في الأعمال الرسمية، وتجلَّت هذه السياسة منذ عهد محمد الأول الذي قال: «إن مذهبنا أن نُقصِّر خططنا هذه النبيهة على أبناء موالينا وأهل السابقة في خدمتنا»[1]، ويضيف أن الأمويين لو خرجوا على تلك السياسة لتقلَّد الخطط في الدولة «أبناء السوق وأبناء الناس أولي الأعراق الدنيئة»[2]، ومن الواضح أن محمداً الأول قصد العامة من سكان البلاد الذين هم في غالبيتهم من المولَّدين. هذا ولم تحاول الإدارة الأموية تحسين أوضاعهم، وعندما شهدت الأندلس، في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، تقدماً ملموساً في المجالين الاجتماعي والاقتصادي، لم ينعكس ذلك إيجاباً على

---

(١) ابن حيان: ص ١٤٤.
(٢) المصدر نفسه.

أوضاعهم، وهذا ما دفع عمر بن حفصون إلى أن يُمنِّي أتباعه «بفتح البلاد وغنائم الأموال»، كما أن أملاك كبار رجال الدولة كانت هدفاً لغاراتهم. وكان من أبرز زعماء المولَّدين، عمر بن حفصون في جنوبي الأندلس، وعبد الرحمن الثاني بن مروان الجليقي في إقليم بطليوس في غربي البلاد من ماردة إلى المحيط الأطلسي، وبنو قسي في الثغر الأعلى، وديسم بن إسحاق في تدمير.

ووُجدت في المجتمع الأندلسي، بالإضافة إلى فئة المولَّدين، فئة أخرى من سكان البلاد الأصليين، استمر أفرادها على نصرانيتهم، إنهم المستعربون الذين تعرَّبوا ثقافة ولساناً الأمر الذي أقلق نفراً من رجال الدين النصارى فتبنوا حركة أُطلق عليها حركة الاستشهاد قاومتها الدولة وقضت عليها، كما شرحنا سابقاً. وخلقت هذه الحركة فجوة بين المسلمين والنصارى لم تتمكَّن الدولة الأموية من ردمها بدليل قيام حركات أخرى مناهضة للدولة لكن فردية، في ظل حكم عبد الله.

وإذا تمعَّنا في كنه هذه الحركات الثورية التي انتابت الأندلس ووصلت إلى ذروتها في عهد عبد الله، وهدَّدت جديّاً الحكم الأموي، لوجدنا أنها تختلف كثيراً عما عهدناه سابقاً، سواء في اتساع نطاقها أو في العناصر التي أثارتها أو في الدوافع المحركة لها.

والحقيقة أن الأمراء الأمويين السابقين لم يتعرَّضوا لمثل هذه الحركات الثورية التي واجهها عبد الله، إن في مدى اتساعها أو في قوة القائمين بها، لذلك لم يجدوا صعوبة في القضاء عليها.

كان التفكُّك الاجتماعي واضحاً في الأندلس في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، من واقع التناقضات العنصرية والقومية التي تفشَّت فيه، وأدَّت إلى تنافر السكان وعدم انصهارهم واندماجهم في منظومة النظام الأموي على الرغم من طول المدة التي عاشوها مع بعضهم البعض، وبالتالي إلى إضعاف تماسكهم، وتهديد وحدة الجبهة الداخلية، وصعوبة التحكم بهم. وقد تحدث ابن خلدون عن هذه الظاهرة فقال: «إن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قلَّ أن تتحكم فيها دولة، والسبب في ذلك اختلاف الآراء والأهواء... فيكثر الانتفاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت...»[1].

والواقع أن الحركات الثورية عمَّت مختلف أرجاء الأندلس في عهد عبد الله حتى

(١) مقدمة ابن خلدون: ص ١٣٧.

زاد عددها على ثلاثين. وينتمي القائمون بها إلى جميع فئات المجتمع من مولَّدين وعرب وبربر، لكن أياً منهم لم ينجح في الوصول إلى المركز الأول في الدولة، كما كان يشتهي، وظل عبد الله يتربع على عرش السلطة في قرطبة. والمعروف أن مدة استمرار هذه الحركات تراوحت بين بضعة أشهر وعدة أعوام، ومنها ما استمر بعد وفاة عبد الله. لكن كثرة الثورات نغَّصت حكم الأمير الأموي واضطرته أن يكون دائم اليقظة، كما أنها حالت بينه وبين القيام بغزو الممالك النصرانية في الشمال. ويذكر النويري «كانت في أيامه فتن عظيمة، وكثر قيام الثوار عليه حتى لم يبق في يده إلا مدينة قرطبة وحدها، وخالف عليه أهل إشبيلية وشذونة... ولم تبق مدينة إلا خالفت عليه، ثم عزموا على الدعاء على منابر الأندلس للمعتمد بالله العباسي، فأرسلوا إلى إبراهيم بن الأغلب يسألونه أن يبعث إليهم رجلاً من قبله، فتثاقل عنهم إبراهيم، وشغله أيضاً اضطراب أهل إفريقية فأمسكوا عن ذلك»[(١)]. ويضيف ذلك المؤرخ: «وقلَّ رجال عبد الله بن محمد وذهب عنه من كان يلوذ به وبآبائه من الموالي والأصحاب، وقلَّت الأموال في يده لخروج أهل المدن وامتناعهم عن أداء الخراج له..»[(٢)]، «... ولم يدر عبد الله إلى أين يصرف وجهه: إلى ابن حفصون، كبير الثوار المجاور لقرطبة، وقد استولى على أعظم البلاد مثل إلبيرة وريَّة وما إلى ذلك، أم لابن حجاج، وقد استقل بإشبيلية وقرمونة وما إلى ذلك، أم لعبد الرحمن بن مروان الجليقي ببطليوس، أم لعبد الملك بن أبي الجواد بباجُه الغرب، أم لابن السليم بشذونة، أم لابن إلياس بالقلعة المنسوبة إليه، أم لخير بن شاكر بشوذر، أم لعمر بن مضمِّ الهترولي، أم لسعيد بن هذيل بحصن المنتلون، أم لسعيد بن مستنة بباغُه، أم لبني هابيل بحصون جيان، أم لإسحاق بن عطّاف بحصن منتاشة، أم لسعيد ابن سليمان بن جودي بغرناطة، أم لمحمد بن أضحى كبير العرب بالبيرة، أم لأبي بكر بن يحيى بشنت مرية، أم لسليمان بن محمد الشذوني بشريش، أم لعبد الوهاب بمورين، أم ليحيى التُجيبي الأنقر بسرقسطة»[(٣)].

تُصوِّر كل هذه الأحداث تفكك الإمارة الأموية في أيام عبد الله ما هدَّد الدولة الأموية كلها بالانهيار لولا ثباته وتمسكه بالشرعية، ثم بفضل عدد من القادة الذين

---

(١) نهاية الأرب: جـ ٢٣ ص ٣٩٥.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن الخطيب: ص ٢٧.

أثبتوا شجاعتهم الفائقة وتمرسهم بفنون الحرب وولاءهم الكبير، مثل أحمد بن محمد بن أبي عبدة وابن أخيه عبيد الله بن محمد، وبدر بن أحمد.

وأما القضية الثانية، وهي نتيجة حتمية للتنافر العنصري والديني والاجتماعي، فهي العلاقة العدائية بين الحكم المركزي في قرطبة وبين الممالك النصرانية في الشمال وبخاصة مملكة أشتوريس الحريصة على ضرب المسلمين بعضهم ببعض، فكانت تُغذِّي التنافر الداخلي وتستفيد من اختلال الحكم المركزي لحساب مصالحها التوسعية، بالإضافة إلى حرصها على تشتيت المسلمين.

الثورات الداخلية في عهد عبد الله

ثورات المولَّدين

استمرار ثورة عمر بن حفصون

تمهيد: ظل عمر بن حفصون خلال حكم عبد الله يتصرف بالأسلوب نفسه الذي سلكه من قبل في عهد كل من عبد الرحمن الثاني والمنذر، يأخذ قرارات متسرعة، ينفذها بأسلوب المفاجأة، تليها مدة زمنية من الانتظار والترقب، تطول أو تقصر وفقاً للظروف السياسية.

قد يثير هذا الطابع الذي تميز به انطباعاً غريباً، فالوسيلة عنده مبررة لتحقيق الهدف. فهو ينضم إلى الحكومة الأموية ويقدم لها الطاعة والولاء، والرهائن إذا لزم الأمر، كلما أراد كسب الوقت، ويشجِّع ويساعد الثائرين على الدولة، الذين يتحركون ضمن إطار مناطق نفوذه ولا يتمتعون بقدر كبير من القدرة على الصمود، لكنه سرعان ما ينقلب عليهم بعد عدة أشهر أو سنوات، وفقاً لمزاجه وللظروف المحيطة به. وعلى الرغم من الصفات القليلة الحسنة التي اتصف بها، كالشجاعة والحرص على نشر الأمن في مناطق نفوذه، وتأليف قلوب أتباعه؛ إلا أنه كان انتهازياً من الدرجة الأولى ومتملقاً كبيراً. فهو لا يتورع عن التحول إلى النصرانية والارتماء في أحضان ملك أشتوريس أو الاتصال بأعداء الدولة الأموية، إن في الأندلس أو في شمالي إفريقيا، ضمن الإطار الإسلامي، في سبيل تحقيق هدفه. وعلى الرغم من أنه كان يتمتع بمواهب جعلت منه محط إعجاب العديدين، والمحرك الأول لمشاعر المولَّدين، وقائدهم الأوحد؛ نجده يُعرب عن خيانته، لأكثر من مرة، لمجموعة من الناس ضحَّت بما تملك من أجل مساعدته.

هل كان عمر بن حفصون يقاتل من أجل تحقيق هدف أسمى؟ هل كان يريد حقاً طرد العرب من الأندلس ليقيم في ربوعها حكومة وطنية؟ وهل أن سلوكه يؤدي إلى ذلك؟

لقد بالغ المؤرخون في دوره السياسي، غير أن حركته تمتعت بسمات خاصة ميَّزتها عن بقية الحركات المعاصرة ذات البُعد السياسي، فتحولت إلى شكل من أشكال الحكومة الثورية إن من حيث الأفكار المتقدمة التي استقطبت آلاف المقاتلين المشحونين بالكراهية ضد العرب، أو من حيث القدرة التنظيمية المتفوقة التي كانت أبرز ملامحها، والعامل الأهم في استمراريتها من دون تعثُّر أو هزات داخلية، على الرغم من الهزائم القاسية التي توالت عليه. وعلى مدى الأعوام الطويلة، شغلت ثورته جانباً مهماً في مشكلات النظام الأموي الذي أخفق في القضاء عليها نهائياً حتى آخر عهد عبد الله، فخضعت علاقاته معها للأمر الواقع، وتحولت هي بدورها إلى مشكلة تقليدية يتعايش معها متأرجحة بين الامتداد والانحسار لكن في إطار محدود[1].

العمليات العسكرية بين عبد الله وعمر بن حفصون: حين علم عمر بن حفصون بوفاة المنذر وفكِّ الجيش الأموي الحصار عن قلعة ببشتر وانسحاب أفراده، نزل من معاقله وهاجم القوات الأموية المنسحبة، فتدخل عبد الله، وأرسل إليه رسالة مع أحد الخصيان المجندين يطلب منه عدم التعرض للموكب الجنائزي، ويحيطه علماً بأن الأمير الجديد راغب فور توليه السلطة في إحلال السلام بينهما. وافق ابن حفصون على ذلك ونأى بنفسه عن التعرض للموكب منتظراً معرفة حقيقة الصداقة التي وعده بها عبد الله[2].

ويبدو أنه كان للطرفين مصلحة في إحلال السلام. فعبد الله كان بحاجة إلى بعض الوقت ليتاح له إعادة تنظيم إدارته وإعداد قواته العسكرية، وأدرك عمر بن حفصون من جانبه أن للمرحلة المقبلة متطلبات جديدة وخططاً مختلفة، فحرص على أن يستفيد قدر المستطاع من الهدنة.

وفعلاً أرسل إليه العاهل الأموي، فور مبايعته بالإمارة، رسولاً هو إبراهيم بن خمير، أحد القادة الأمويين، للوقوف على نواياه، ويطلب منه البيعة، واعترف هذا الثائر

(١) بيضون: ص ٢٨٨.

(٢) ابن حيان: المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، قسم ٣، تحقيق ملتشور أنطونيا ص ٢. ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٢١، ١٢٢.

المولَّدي بعبد الله حاكماً على الأندلس، وحلف له يمين الولاء، وأرسل مع المبعوث الأموي ابنه حفصاً وعدداً من ضباطه، إلى قرطبة، للتدليل على حسن نيته ووفائه. احتفى عبد الله بهم، ورحَّب بمقدمهم، وأكرم مثواهم، وخلع عليهم الأعطيات والهدايا[١].

كان ثمن الولاء للأمويين، تعيين عمر بن حفصون والياً على إقليم ريَّة، لكن تحت وصاية عبد الله ومراقبة الوالي الذي أشركه معه في الحكم وهو عبد الوهاب بن عبد الرؤوف، وكان هذا اعترافاً صريحاً من عبد الله بنفوذ هذا الثائر في الجنوب الأندلسي.

لكن هذه المعاهدة كانت هشَّة، وما لبث أن تداعت بعد أشهر قليلة، كما كان متوقعاً، من واقع طموحات عمر بن حفصون التي كانت أكبر من حكم إقليم أو المشاركة في حكمه. وقطع هذا الثائر كل مواثيقه والتزاماته مع عبد الله واستأنف الحرب المسلحة في المناطق المحيطة بكورة ريَّة. وفي محاولة منه لتهديد العاصمة الأموية، قام بتوسيع مسرح عملياته العسكرية فشملت الأقاليم المجاورة لها مثل استجَّة، كما أغار على المزارع القريبة منها وطرد حاكم ريَّة عبد الوهاب بن عبد الرؤوف، وحاول استقطاب النصارى والمولَّدين والبربر لتكوين حلف مناهض للعرب، وأصبح في غضون بضعة أشهر يسيطر على الأراضي الممتدة من الجزيرة الخضراء وحتى مرسية، ثم أطلق العنان لجنوده ليخرِّبوا المزارع القريبة من قرطبة[٢].

وعلى ضوء هذه الأحداث، قرر عبد الله أن يبدأ أولى حملاته ضد عمر بن حفصون، فخرج في (أوائل ٢٧٦ هـ/ ربيع ٨٨٩ م) من قرطبة متوجهاً إلى ببشتر وحاصرها، وأجرى بعض المناورات العسكرية على مدى أربعين يوماً لم تسفر عن نتيجة إيجابية. والواقع أن قائده عبد الملك بن مسلمة الباجي اصطدم بالثائر في ضواحي إقليم أرشذونة، وهو أحد الأقاليم الجنوبية لكورة ريَّة، وأسفر اللقاء عن خسارة الجَيش الأموي ومقتل قائده، واستيلاء عمر بن حفصون على استبَّة وأرشذونة واستجَّة، فآثر عبد الله عندئذٍ العودة إلى قرطبة وعدم الابتعاد عنها طويلاً في حصار غير حاسم، وعيَّن محمد بن ذقين عاملاً على ريَّة[٣].

ويبدو أن عمر بن حفصون رأى أن تقدمه هذا باتجاه قرطبة كافياً في الوقت

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٢١، ١٢٢.

(٢) ابن حيان: قسم ٣، ص ٥٠، ٥٢. ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٢٢، ١٢٣. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٢٩.

(٣) المصادر نفسها.

الراهن، كما أراد أن يُعلم عبد الله بقدرته على وقف الأعمال العسكرية متى يشاء، ثم طلب منه الصلح، فسارع العاهل الأموي إلى منحه إياه، وأسند إليه حكم ريَّة للمرة الثانية[١].

يعكس هذا التصرف من جانب عبد الله مدى الضعف الذي حلَّ بالإمارة الأموية، على الرغم من علمه بمكر عمر بن حفصون وخداعه، فاضطر إلى مداراته لسببين:

الأول: التدهور المالي المريع الذي شهدته الدولة آنذاك، وقد أثَّر على كل نشاطاتها، من ذلك أنه أنقص أعطيات الجند الأمر الذي جعلهم ينفضُّون من حوله[٢].

الثاني: انشقاق البيت الأموي على نفسه، فقد نشبت الخلافات بين عبد الله وبين ابنيه محمد ومطرف، فاستجار الأخير بابن حفصون، فأجاره[٣].

لم يدم الصلح أكثر من بضعة أشهر، عندما رأى ابن حفصون أن مصلحته تقضي بنقضه، فاستخفَّ بقوة الإمارة وراح يعمل على تقويضها، فهاجم حصون الجزيرة الخضراء، وألَّب سكانها على حكم عبد الله، فخلعوا طاعته. وعمل قبل أن يغادر المنطقة، إلى التخلُّص من الشخصيات المنافسة له فيها، فاطمأن بذلك على متانة وضعه[٤].

وحدث آنذاك أن اشتد عبث الثائر سعيد بن مستنة المولَّدي في الأطراف الشمالية الغربية من إقليم إلبيرة، فاستغاث الناس بعبد الله، فأرسل جيشاً بقيادة إبراهيم بن خمير لتأديبه، وطلب من عمر بن حفصون، بحكم طاعته له، أن يشارك بقواته في قتال ابن مستنة، فبادر بالالتحاق بقوات الإمارة[٥].

والواقع أن اشتراك عمر بن حفصون كان مناورة منه، فبدلاً من محاربة ابن مستنة، حثَّه على الصمود والإخلاص للمولَّدين، ولم يدرك القادة الأمويون، في بادىء الأمر، نواياه السيئة، وطمعاً في تشجيعه على الإخلاص للدولة، أسندوا إليه القيادة العليا[٦].

اغتنم عمر بن حفصون سيطرته على الجيش للتهرب من الاصطدام بابن مستنة، فجال به في معظم أرجاء إقليم إلبيرة حاثاً المولَّدين على الصمود في وجه العرب.

---

(١) ابن حيان: ص ٥١. ابن عذارى: ص ١٢٢.

(٢) أخبار مجموعة: ص ١٥٠، ١٥١.

(٣) ابن عذارى: جـ ٢ ص١٥٠.

(٤) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٢٣. لقد تخلَّص ابن حفصون من ابن شاكر الثائر بجيان.

(٥) ابن حيان: ص ٩١.

(٦) المصدر نفسه.

ولما أبدى القائد الأموي إبراهيم بن خمير اعتراضه على ذلك، اعتذر أمامه، ثم لم يلبث أن جهر بعصيانه، وقبض على عدد من القادة الأمويين ومن بينهم ابن خمير[١].

والراجح أنه لم يُقدم على هذه الخطوة إلا بعد أن تحقَّق من ضعف سلطة الدولة في المناطق التي جال فيها. ويبدو أن النجاح الذي حقَّقه حتى تلك الآونة شجّعه على التمدُّد شمالاً، فدخل إقليم قبرة وحاصر حاضرته بيّانة، فلما استعصت عليه، لاطف سكانها وأعطاهم العهد والأمان، حتى إذا تمكَّن من مدينتهم غدر بهم وقتل جماعة منهم، وأصاب أموالهم وسبى ذراريهم[٢].

توجَّه عمر بن حفصون بعد ذلك إلى حصن بُلاي الذي كان قد بناه، إلى الشمال الغربي من قبرة غير بعيد عن قرطبة، وتحصَّن فيه[٣]. وشهدت العاصمة الأندلسية آنذاك، أزمة حادة أثارها المستعربون الذين مالوا بعواطفهم نحوه، وأيدوه في ثورته. ثم بدأ زعيمهم شربند بن حجاج، وهو أحد رجال الدين، يخطط للقيام بحركة عصيان، فبادر عبد الله بمعالجتها، وقبض على بعض من تورطوا فيها، غير أن شربند تمكَّن من الفرار فتوجَّه إلى حصن بُلاي واحتمى بابن حفصون. وتعاون الرجلان في شنِّ الغارات على ضواحي قرطبة[٤].

وصادف آنذاك أن نشب النزاع بين العرب والمولَّدين في إلبيرة. فهاجم سوار بن حمدون، زعيم العرب فيها، عدداً من المواقع الموالية لابن حفصون، فاستنجد سكانها بالزعيم المولَّدي، فسار إليهم على رأس جيش، واصطدم مع العرب في معركة مرج غرناطة، غير أنه تعرَّض للهزيمة، وأصيب بجراح، وكاد سوار أن يقضي عليه[٥].

لكن ما كان لمثل هذه الهزيمة أن تفتَّ في عضده أو تغيِّر من خططه، فهاجم مدينة إلبيرة انتقاماً، وفرض الغرامة على سكانها وعيَّن عليها قائده المخلص حفص ابن المرة، وأمره بمضايقة سوار بن حمدون والانتقام منه، فلم يمر غير قليل من الوقت حتى تمكَّن هذا القائد من قتله في أوائل عام (٢٧٧ هـ/ ٨٩٠ م)[٦].

وحدث، في تلك الأثناء، أن ثار أحد المولَّدين في جيان، القريبة من قرطبة، وهو

---

(١) ابن حيان: ص ٩١.

(٢) المصدر نفسه. ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٢٢.

(٣) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٢٣. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٣٢.

(٤) ابن عذارى: المصدر نفسه.

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة جـ ٤ ص ٢٢٦، ٢٢٧.

(٦) المصدر نفسه: ص ٢٢٧. ابن الأبار: الحلة جـ ١ ص ١٥٤.

خير بن شاكر، وأظهر ولاءه لعمر بن حفصون. خشي عبد الله من توحيد جهود الرجلين، ما يشكل خطراً مباشراً على قرطبة(١)، فنهض للقضاء على تمرده، ولكنه لم يستطع أن يقضي عليه بسبب مساندة عمر بن حفصون له، فعمد عندئذٍ إلى التفرقة بينهما بالحيلة والدهاء. فسرَّب إلى عمر بن حفصون خبراً عن العلاقة الجيدة التي تربط ابن شاكر بديسم بن إسحاق، وهو أحد الثائرين في شرقي الأندلس، وأحد جنوده الذين انشقوا عنه. ولما كانت سياسته تقضي بالتخلص من كل رجل قد ينافسه في زعامة مولَّدي الأقاليم الجنوبية، فقد تحايل عليه وقتله في عام (٢٧٧ هـ/ ٨٩٠ م)(٢)، وأرسل رأسه إلى قرطبة إما ليتقرَّب منه ويوهمه بأنه متمسِّك بطاعته، وإما ليظهر له بأنه يستطيع أن يفعل ما لا يستطيعه الأمير، لكن الواقع أن عمر بن حفصون لم يهدف إلى التقرُّب من عبد الله أو التظاهر له بالطاعة، لأنه كان قد بلغ آنذاك أوج قوَّته وسطوته بحيث لم يعد يعبأ برضاه، وخاصة أن الإمارة الأموية كانت تمر آنذاك بظروف سياسية واقتصادية سيئة. والراجح أنه هدف بعمله هذا إلى الضغط نفسياً عليه حتى يزعزع صموده ومقاومته وثقة رجاله به، ويدمِّر إرادته القتالية(٣).

ومهما يكن من أمر، فقد سارع ابن حفصون بضمِّ جيّان إلى نفوذه، فأمسى الرجل الأول في المناطق الواقعة جنوبي الوادي الكبير «وأحدق ملكه بقرطبة»، واتخذ من مدينة استجَّه عاصمة له، ومن حصن بُلاي، الذي يشرف على القرى والمزارع التابعة لقرطبة، قاعدة انطلاق لشن الغارات على أرياف العاصمة الأموية، وقد عهد إلى شربند بن حجاج بتنفيذها بفعل معرفته بمسالكها وبعوراتها(٤).

وبدأت العاصمة الأموية تعاني من ويلات نفاد المؤن بموجة من الاضطرابات، فتعطَّلت الأسواق، وارتفعت الأسعار، وساد الذعر بين سكانها، وسقطت هيبة عبد الله بينهم، فاستقصروا قدرته على التدبير، وقلة حيلته في دفع هذا الخطر الداهم. وأضحى ابن حفصون الرجل القوي الذي لا يقيم لعبد الله وزناً ولا قدراً، وقد بلغ من استهتاره به أنه كان يستبعد خروجه من قرطبة لقتاله(٥).

في ظل هذه الظروف، أظهر عمر بن حفصون الدعوة للعباسيين من خلال تقرُّبه

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ص ١٣٦.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٢٣.
(٣) أبو الخيل، محمد بن إبراهيم: الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري ص ١٢٥.
(٤) ابن حيان: قسم ٣ ص ١٠٢. ابن الخطيب: جـ ٤ ص ٢٧.
(٥) ابن حيان: قسم ٣ ص ٩٧، ١٠٢.

من الأغالبة في إفريقيا الموالين لهم، لإضفاء الصفة الشرعية على حركته، فيحظى بتأييد أكبر عدد من مسلمي الأندلس، الأمر الذي يتيح له القضاء على الإمارة الأموية[1]. فأرسل بعثة إلى إبراهيم الثاني في القيروان، محمَّلة بالهدايا وباقتراح توحيد الجهود لمحاربة المروانيين المغتصبين للسلطة، لكن جهوده ذهبت أدراج الرياح، إذ إن إبراهيم الثاني كان يعاني آنذاك من مشكلات نفسية، وخارجية، وبخاصة أن الخطر الطولوني والمد الشيعي بدأ يطرق أبواب إفريقيا، الأمر الذي جعله يقصِّر في رده عليه.

لكن هذا التوجه نحو الخارج أزعج عبد الله، كما أحدثت تصرفات عمر بن حفصون الداخلية ضغوطاً نفسية عليه، فَفَقَد صبره على الاحتمال، وقرَّر التصدي له بنفسه، مهما تكن النتائج، حتى أنه رفض نصائح وزرائه الذين أشاروا عليه بالبقاء في قرطبة وإسناد المهمة لأحد قادته، لأن الأمر أضحى متعلقاً بعرش آبائه وبشرف الأمويين ومستقبل الدولة، فعمل بإصرار وعزم على حفز الطاقات، وأمر بتجميع القوات المتوفرة وتنظيم جيش يكون هو قائده، وعسكر في شقندة متخذاً منها نقطة تجمُّع واستعداد لخوض المعركة التي عدَّها حاسمة[2].

وما كاد عمر بن حفصون يعلم بنزول عبد الله في شقندة حتى هاجم معسكره ليلاً، وحاول أن يشعل النار في خيمته، غير أنه جوبه بمقاومة فرسان السرادق، وأمطره الجنود بوابل من السهام، فاضطر أن يعود أدراجه بعد أن خسر عدداً من رجاله[3].

أحيا هذا الانتصار المحدود الثقة في نفس عبد الله وجنوده، وشجَّعهم على الاندفاع نحو القتال، فخرجوا من شقندة، يوم السبت في (٢ صفر ٢٧٨ هـ/ ١٦ أيار ٨٩١ م)، قاصدين حصن بُلاي، وعسكروا على ضفاف نهر كارتشيناس وهو أحد فروع نهر الوادي الكبير، وكان عمر بن حفصون بانتظارهم هناك على رأس جيش يُقدَّر بثلاثين ألف جندي. وجرى اللقاء بين الجانبين في اليوم التالي، وأسفر عن انتصار واضح للقوات الأموية، وفرَّ عمر بن حفصون مع جنده من أرض المعركة باتجاه حصن بُلاي ليحتموا به، فطاردتهم القوات الأموية، وقتلت عدداً منهم قبل أن يتمكنوا من دخول الحصن، ثم ضربت الحصار على الحصن وضيَّقت على من فيه[4].

ويبدو أن قوات عمر بن حفصون، التي كانت في غالبيتها من فرسان إستجَّة، لم تشأ

---

(١) ابن حيان: ص ٩٣. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٧٣. (٢) ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٣٢.

(٣) المصدر نفسه. ابن حيان: قسم ٣ ص ٩٤، ١٠٢، ١٠٣.

(٤) ابن حيان: المصدر نفسه: ص ٩٦، ٩٧. ابن عذاري: المصدر نفسه. النويري: جـ ٢٣ ص ٣٩٥.

أن تترك نفسها فريسة للحصار، والراجح أنه أصابها الذعر، لذلك أخلت المكان في الليلة التالية عبر ثغرة مفتوحة في السور، ففتَّ ذلك في عضده واضطر إلى مغادرة الحصن ولحق بقاعدته ببشتر، وهو مُحبط. واستولى عبد الله على حصن بُلاي، ثم توجَّه إلى استجَّة وحاصرها، فاستسلمت له حاميتها بعد أن نفدت مؤنها وفقدت القدرة على المقاومة، بالإضافة إلى نفاد المؤن. وتابع زحفه جنوباً حتى وصل إلى عاصمة عمر بن حفصون، ببشتر وحاصرها، وخرَّب ما حولها من مزارع وحقول، غير أنه فشل في اقتحامها ففكَّ الحصار عنها، وعاد إلى قرطبة، مكتفياً بما حقَّقه من إنجازات وتاركاً أمر عمر بن حفصون إلى وقت لاحق، وحاول هذا عرقلة انسحابه لكن من دون جدوى. وقبل وصوله إلى قرطبة، عرَّج على كورتي ريَّة وجيّان وأعادهما إلى طاعته[1].

كان لمعركة بُلاي عدة نتائج لعل أهمها:

- تُعدُّ هذه المعركة نقطة تحول هامة في الصراع بين عبد الله وعمر بن حفصون، إذ إنها قلبت موازين القوى، وأبعدت الإمارة عن السقوط.

- سمح هذا الانتصار الذي حقَّقه عبد الله أن يسترد أستجَّة وأرشذونة وإلبيرة وجيان، وأن يبسط سيطرته على الأراضي الجنوبية، ولو اسمياً، وكسر شوكة عمر بن حفصون.

- حطَّم الانتصار تلك الهالة التي أحاطت بعمر بن حفصون، فاختلَّ مركزه في أذهان أتباعه، وأعطى بالمقابل الإمارة الأموية شحنة من الحيوية وثقة كبرى في الصمود.

اضطر عمر بن حفصون، تحت ضغط الأحداث، إلى طلب الصلح، ووافق عبد الله من جانبه على طلبه إلا أنه اشترط عليه أن يرسل أحد أبنائه رهينة، إلى قرطبة، فأذعن لهذا الشرط، لكنه حاول أن يسخر من العاهل الأموي حين أرسل إليه بابن له بالتبني وذلك في عام (٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م)[2].

ويبدو أن عبد الله كان بحاجة إلى الراحة ليعيد تنظيم صفوف قواته، وخططه، ويبني قوته، ويرسِّخ هيبة الإمارة التي كانت قد تزعزعت، قبل أن يدخل في مرحلة أخرى من الصراع مع عمر بن حفصون.

ولكن سرعان ما تداعى هذا الصلح، إذ عندما علم عبد الله بأن الرهينة ابن بالتبني، أرسل بالشكوى إلى عمر بن حفصون الذي وجد نفسه في موقف أفضل،

---

(١) ابن حيان: قسم ٣ ص ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢. ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٢٣، ١٣٣. ابن الخطيب: أعمال: ص ٣٣.

(٢) ابن حيان: قسم ٣ ص ١٠٦.

فنكث عهده مرة أخرى، وحرَّض سكان أرشذونة القريبة على نبذ طاعة الأمويين، فقبضوا على عاملهم، وسلموه المدينة، كما استرد إلبيرة وقام بهجوم خاطف على جيّان، ولم يعد أمامه سوى إستجّة وبُلاي حتى يستعيد وضعه السابق(١).

وتحسَّن الوضع السياسي والاقتصادي للإمارة الأموية بعد مرور عامين على معركة بُلاي، ما سمح لعبد الله القيام بمبادرة تنظيم هجوم على ببشتر، فأرسل ابنه المطرف على رأس صائفة من أجل هذه الغاية، فهاجم بعض المراكز حول هذا المعقل واصطدم بقوات عمر بن حفصون الذي جُرح في إحدى المعارك وخسر كثيراً من قادته. ثم توجَّه المطرف إلى إلبيرة فاستردها، كما أعاد السيطرة الأموية على بعض الأقاليم(٢).

وعلى مدار الأعوام الستة التالية، لم يقم عمر بن حفصون بأي نشاط عسكري يُذكر، فانتهز عبد الله هذا التراجع لضرب الثائرين الآخرين، كما عمل على عزله عن حلفائه لإضعاف شوكته، فأقام معهم علاقات متوازنة واعترف بحكمهم للمدن والأقاليم التي ثاروا فيها، مقابل دفع المال دلالة على تبعيتهم له(٣).

على أن حركة عمر بن حفصون أخذت بُعداً جديداً بعد ذلك في عدائها للإمارة الأموية، من واقع قيام الرجل في عام (٢٨٦ هـ/ ٨٩٩ م) بمبادرة غير منتظرة حين أعلن رِدَّته إلى دين آبائه، وأجرى مراسم تعميده مع أفراد عائلته(٤).

فهل تدل هذه الخطوة على الرعونة وقصر النظر السياسي من جانبه، أم أنها تدخل ضمن نطاق تصرفاته المتردِّدة أبداً وتوجهاته الانتهازية؟ أو أن الدولة الأموية تبنَّت التشهير به لإضعافه بعد أن استمرت حركته زمناً طويلاً من دون أن تستطيع النيل منها، فأشاعت أنه اعتنق النصرانية؟

ومهما يكن من أمر، فإن الظروف التي أحاطت به تجعل أمر اعتناقه النصرانية وارداً، وذلك من خلال المعطيات التالية:

- إن الوجود النصراني في الجنوب كان كثيفاً، وبدا تحالف النصارى مع المولَّدين واضحاً.

- اعتمد عمر بن حفصون كثيراً على النصارى وعيَّنهم في المراكز الهامة، فانضم

---

(١) ابن حيان: قسم ٣ ص ١٠٦. ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٢٤.

(٢) ابن حيان: قسم ٣ ص ١٠٨. ابن الخطيب: الإحاطة جـ ٤ ص ٢٧.

(٣) أخبار مجموعة: ص ١٥١، ١٥٢.

(٤) ابن حيان: قسم ٣ ص ١٢٨. ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٣٩.

إليه الثائر النصراني سربند بن حجاج، والتفَّ حوله كثير من أتباعه، كما أن الحضور النصراني في جيشه أثناء معركة بُلاي، كان بارزاً.

ـ إن وجود الكنائس والأديرة بكثرة في الأماكن التابعة له يدل على أن عدداً كبيراً من النصارى كان يؤيده.

ـ لقد عيَّن أسقفاً في معقله ببشتر، هو جعفر بن مقسم.

ـ لقد شهد عليه، أحد أبنائه، وهو جعفر، بالتنصر.

ـ استبدل اسمه بآخر هو صموئيل، وكذلك زوجته التي أضحت تُعرف باسم كولومبا.

ويبدو أن بواعث هذا التحول سياسية أكثر منها عقائدية، ولا تعدو أن تكون محاولة للتقرب من ألفونسو الثالث والحصول على الدعم المطلوب منه، بعد الفشل الذي لازمه خلال الأعوام الطويلة الماضية، وقد حرمه هذا التحول من بعض قوته بانفضاض المولَّدين المخلصين لإسلامهم، من حوله، على الرغم من أنه لقي تأييداً وترحيباً من جانب المستعربين.

وحقَّقت الأعوام العشرة الأخيرة من حكم عبد الله إنجازات مؤثرة في إضعاف قوة عمر بن حفصون، وعلى الرغم من ذلك، ظلَّ هذا الثائر الحاكم القوي على الأراضي الأندلسية الواقعة تحت سيطرته. وأخذ العاهل الأموي يضيف إلى رصيده سلسلة من العمليات العسكرية الناجحة التي رفعت من شأنه وأضعفت خصمه، وذلك من خلال الصوائف التي كان يرسلها إلى مناطق نفوذه، الأمر الذي دفعه إلى التعامل معه بكيفية أخرى وهي رفض مهادنته، وتفريق أنصاره. فصالح حكام الحصون الواقعة ضمن دائرة نفوذه وأرسل جيشاً إلى الجزيرة الخضراء ليمنع اتصاله بحكام شمالي إفريقيا، ومع ذلك، فإنه ـ أي عمر بن حفصون ـ حين علم بوقوع إفريقيا في يد عبيد الله المهدي الفاطمي، في أوائل عام (٢٩٧ هـ/ ٩١٠ م)، وقد نصَّب نفسه أميراً للمؤمنين، بعث إليه برسالة ولاء، ودعا له على منابر المساجد في الأراضي الخاضعة لنفوذه(١).

وعلى الرغم من هذه السياسة الناجحة، وهذا النشاط الذي بذله عبد الله في هذه الآونة ضد عمر بن حفصون وغيره من الثائرين، إلا أنه لم يبلغ مستوى القوة التي

(١) ابن حيان: قسم ٣ ص ١٤١، ١٤٢.

تمكّنه من السيطرة الفعلية على أقاليم الأندلس المختلفة، فرضي بالجباية من معظم الثائرين وتركهم يديرون أقاليمهم بأنفسهم.

فطن عمر بن حفصون إلى هذا الخلل في موقف عبد الله، فحاول أن يُخفِّف من وطأة الحملات العسكرية العنيفة التي كانت تُوجَّه إليه، وذلك بتكوين حلف مناهض جمعه وسعيد بن مستنة وسعيد بن هذيل، وهما من المولَّدين الثائرين على الحكم الأموي[1].

وشنَّت قوى التحالف في عام (٢٩٧ هـ/ ٩٠٩، ٩١٠ م) غارات شديدة وصلت إلى ناحية جيَّان، فتصدَّت لها القوات الأموية وأجبرتها على الانسحاب. وجدَّد الحليفان، عمر ابن حفصون وابن مستنة، في العام التالي، غاراتهما ضد قرى قبرة ونواحي قرطبة، غير أنهما لم يحققا نجاحاً. وظل العاهل الأموي يُرسل الحملات الصيفية إلى ببشتر طيلة ما تبقّى من عهده[2].

والواقع أن عبد الله عالج حركة عمر بن حمصون بالسبل التي أُتيحت له، فاستطاع، بعد أعوام من الصراع، أن يحولها من ثورة عارمة، تهدف إلى الإطاحة بالنظام الأموي، إلى ثورة دفاعية استنزفت قوتها السابقة.

ثورات متفرقة

واجه عبد الله عدة ثورات أخرى للمولَّدين لم تكن بحجم ثورة عمر بن حفصون، ولم تشكل خطراً جدِّياً على الدولة الأموية، ولم يجد عناء في القضاء عليها أو إضعافها، نذكر منها:

- ثورة سعيد بن مستنة في باغُه بإقليم إلبيرة.
- ثورة خير بن شاكر، في كورة جيان، الذي قتله عمر بن حفصون خشية من أن ينافسه على الزعامة.
- ثورة عبيد الله بن أمية بن الشالية في جبل شمنتان بكورة جيان، فأخضعه عبد الله وألزمه بدفع الجزية.
- ثورة سعيد بن هذيل في حصن المنتلون بكورة جيان.
- ثورة إسحاق بن ديسم في مرسية حاضرة تدمير، وقد أخضعه عبد الله.
- ثورة بكر بن يحيى بن بكر في أكشونبة.
- استمرار ثورة بني قسي، ثم القضاء عليها.

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٤٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٤٦، ١٤٧.

ثورة البربر في شنتبرية: استقرت في وقت مبكر من تاريخ المسلمين في الأندلس عشائر من البربر في شنتبرية الواقعة على بُعد سبعين كيلومتراً من طليطلة. وبرزت في القرن الثالث الهجري أسرة بني ذي النون التي تنتسب إلى محمد ذي النون بن سليمان، الذي كانت علاقته بالعاهل الأموي محمد الأول جيدة، فأَقرَّه حاكماً على ناحيته، واستمر مخلصاً في ولائه حتى وفاته، فخلفه في زعامة الأسرة ابنه أبو جوشن، لكنه لم يحكم مدة طويلة بسبب وفاته المبكرة، وآلت الزعامة للابن الثاني موسى[(١)].

اشتهر موسى بالطموح السياسي ونزعة الاستقلال التي لازمته، لذلك كانت علاقته سيئة مع النظام الأموي، وعلى الرغم من ذلك فلم يُرسل عبد الله الجيوش لقمع ثورته، ويبدو أنه.

- اعتقد أن بني ذي النون لم يشكلوا خطراً مباشراً على حكمه ما دام النزاع مستقراً بينهم وبين سكان طليطلة من جهة، وبينهم وبين بني قسي من جهة أخرى.

- رأى من حسن السياسة ألا يبذل جهداً ضدهم لا يمنح دولته ميزة عسكرية يحرص على تحقيقها، وذلك بفعل طبيعة أرضهم الجبلية الوعرة، في الوقت الذي كان يواجه فيه ثائرين أكثر خطورة.

توفي موسى في عام (٢٩٥ هـ/ ٩٠٨ م)، وخلفه أبناؤه الثلاثة، يحيى والفتح والمطرِّف، الذين تقاسموا إرثه، ولم تكن علاقتهم مع الإمارة الأموية على نسق واحد. فاشتهر يحيى، الذي استقر في حصن ولمة، بأنه أكثرهم شراً، غير أنه ركن مرغماً إلى الهدوء بفعل استعادة الإمارة الأموية، آنذاك، قدراً من قوتها، فأراد أن يتَّقي غضبها بإبداء الولاء الشكلي، وظل على ذلك حتى عهد عبد الرحمن الناصر. وكانت علاقة الفتح بالإمارة الأموية ضبابية، لكن يبدو أنه أظهر الطاعة لعبد الله، والمعروف أنه استقر في حصن أقليش. وسلك المطرِّف، الذي استقر في حصن وبذة، نهجاً مغايراً، فالتزم الهدوء وطاعة الإمارة الأموية، «فكان أجمل أهل بيته مذهباً، وأقومهم طريقة»، واستمر على هذا النهج حتى عهد عبد الرحمن الناصر[(٢)].

ثورة محمد بن تاجيت: كان إقليم ماردة من أكثر المناطق ازدحاماً بالبربر في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، وغالبيتهم من البرانس. وعندما اضطربت

---

(١) ابن حيان: المقتبس، تحقيق محمود علي مكي: ص ٣٤١، ٣٤٢.

(٢) ابن حيان: المقتبس، تحقيق ملتشور، قسم ٣ ص ١٧ـ ١٩.

أوضاع الأندلس، في ظل حكم عبد الله، أعلن محمد بن تاجيت المصمودي الثورة على الإمارة الأموية واستولى على ماردة وأخرج منها العرب وبربر كتامة، وفشل عبد الله في إخضاعه. لكن هذا الثائر انغمس في أحداث الأندلس المضطربة الأمر الذي أضعف قوته وصرفه عن مهاجمة قرطبة، واضطر إلى التفاهم مع عبد الله وأعلن طاعته له، وذلك في عام (٢٨٦ هـ/ ٨٩٩ م)(١).

ثورة زعال بن يعيش: هو من قبيلة نفزة البترية، اعتصم بحصن أم جعفر في إقليم ماردة واقتدى بغيره من الثائرين على السلطة الأموية، واستقل استقلالاً جزئياً، فكان يتصرف بما تمليه عليه مصلحته من دون العودة إلى الحكومة المركزية، ولا تتحدث المصادر عن قتال جرى بينه وبين العاهل الأموي. وخلفه بعد وفاته ابن عم له، يدعى عبد الله بن عيسى، وما زال يسيطر على ذلك الحصن حتى عام (٣١٦ هـ/ ٩٢٨ م) حين انتزعه منه عبد الرحمن الناصر.

ثورات البربر في جنوبي الأندلس: برز، في عهد عبد الله، عدد من زعماء البربر المغمورين في جنوبي الوادي الكبير، لم يؤدوا دوراً مؤثراً على المسرح السياسي، إنما استغلوا الاضطرابات الجارية في الأندلس ليستقلوا بما تحت أيديهم نذكر منهم:

ـ خليل وسعيد، ابنا مهلب، من قبيلة كتامة، ويبدو أنهما لم يكونا على قدر من القوة تمكِّنهما من مواجهة قرطبة، الأمر الذي دفعهما إلى الاعتراف بسلطة عبد الله الذي ثبتهما في حكم ما تحت أيديهما، حصني قرذيرة وأشبرغيره في إقليم إلبيرة(٢).

ـ عبد الكريم بن إلياس المغيلي وهو من البتر، وثار في إقليم شذونة وتركه عبد الله يحكم قلعة ورد التي تحصَّن بها مع قومه، بعد أن اعترف بطاعته. وعندما توفي خلفه ابنه محمد الذي سلك مسلكه في علاقته بالإمارة الأموية. وظل يحكم قلعة ورد حتى أيام عبد الرحمن الناصر(٣).

ثورات الموالي

تمهيد: عرف المجتمع الأندلسي، منذ نشأته، طبقة الموالي الذين يمكن تصنيفهم في ثلاث فئات:

---

(١) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٧٢.

(٢) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٣٧.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٣٦.

الأولى: المشارقة الذين ارتبطوا بالبيت الأموي بروابط قديمة، فقدموا إلى الأندلس مع هؤلاء.

الثانية: الأفارقة والبربر الذين قدموا إلى الأندلس من شمالي إفريقيا بعد أن دخلوا في ولاء بني أمية أو قادتهم، أو حتى بعض قبائل العرب.

الثالثة: الداخلون، من سكان البلاد الأصليين بعد الفتح الإسلامي، في ولاء بني أمية أو قادتهم أو في ولاء مواليهم.

كان عدد موالي الأندلس بفئاتهم الثلاث قليلاً بالمقارنة مع عدد السكان، إلا أنهم شكَّلوا قوة مؤثرة مع مجيء عبد الرحمن الداخل ابن معاوية، ساعدته في تأسيس دولته، فقلَّدهم بعض المناصب الكبرى، وكان منهم الوزراء والكتاب والقادة، لذلك لم يتحرك هؤلاء للتمرد على قرطبة قبل عهد عبد الله. ولكن عندما انتشرت الفتن في أرجاء الأندلس في أوائل عهد هذا الأمير، وكثر الثائرون، وفُقد الأمن في كثير من الأقاليم، نهض هؤلاء ليشاركوا الثائرين ويحصلوا على نصيبهم من الاستقلال.

ثورة منذر بن إبراهيم، من بني السُّلَيْم: هو منذر بن إبراهيم بن محمد بن السُّلَيْم ابن أبي عكرمة جعفر بن عبد الله، كانت أسرته بنو السُّلَيْم من موالي الأندلس، وعندما اعتلى عبد الله سدة الحكم في قرطبة، كان منذر بن إبراهيم أحد الثائرين الكثر الذين سطع نجمهم في سماء الأندلس. فقد تمرَّد في مدينة بني السُّلَيْم بإقليم شذونة، واتخذها قاعدة له، ومع ذلك فقد تجنَّب الإعلان بنبذ طاعة قرطبة، وقنع بأن يعترف به العاهل الأموي حاكماً على ما تحت يده، كغيره من الثائرين[1].

من المثير أن يسلك بنو السُّلَيْم طريق الثورة وهم المعروفون بولائهم الشديد للأسرة الأموية، لكن يبدو أن قسماً منهم، وهم الذين ثاروا على الإمارة الأموية، تأثروا بما أقدم عليه العاهل الأموي محمد الأول من معاقبة بعض أحداثهم بسبب مهاجمتهم دار الحكومة في شذونة واستيلائهم على بعض الأموال، فسجنهم نحو عشرين عاماً ثم قتلهم جميعاً[2]، بدليل:

ـ أنه عندما رفع منذر بن إبراهيم لواء الثورة، كان عمه سعيد بن محمد بن السُّلَيْم حاجباً لعبد الله[3].

---

(١) ابن حيان: قسم ٣ ص ٢٣، ٢٤. ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٣٥.

(٢) ابن القوطية: ص ١٢٩، ١٣٠.

(٣) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٥١.

ـ ظلَّت ثورته محصورة في نطاق ضيِّق، ولم تشكل خطراً جدِّياً على الإمارة الأموية، وقُتل بعد ذلك على يد أحد مماليكه[1].

ـ أكَّد سكان مدينة بنو السُّلَيْم ولاءهم التام للإمارة الأموية، من خلال اشتراكهم في إحدى حملاتها إلى الجنوب.

ومهما يكن من أمر، فقد خلف منذر بن إبراهيم قريبٌ له، يدعى وليد بن وليد، وظل في الحكم حتى عهد عبد الرحمن الناصر[2].

ثورة طالب بن مولود: إنه مضري من موالي الأندلس ويُلقَّب بالموروري نسبة إلى إقليم مورور الذي يتصل بإقليم إشبيلية، من الشمال، وقد ارتبط به كثيراً خلال ثورته على السلطة الأموية. لازم طالب الأمير عبد الله قبل أن يتولى الحكم في الأندلس، وعندما أضحى حاكماً للبلاد قرَّبه وأسكنه في قرطبة. ويبدو أنه اتسم بالطموح السياسي، وراودته أحلام السيطرة والحكم، أسوة بغيره من الرجال الثائرين، فهرب من قرطبة وتوجَّه إلى إقليم شذونة، وتحصَّن في حصن أقوط، وأعلن ثورته على الحكم الأموي، ثم تمدَّد باتجاه إقليم مورور، وغدا يُعرف بـ «الثائر بكورة مورور» أو «المنتزي بمورور»[3]، وسطع نجمه في سماء الأندلس، فاستغاث به سكان إشبيلية من المولَّدين لسببين:

الأول: بوصفه ثائراً على الإمارة الأموية.

الثاني: لأن دعوته كانت مضرية تخالف دعوة مواطنيهم العرب اليمنية الذين كانوا على عداء معهم، فأرسل إليهم الفرسان من العرب المضرية ومن حلفائه من البربر البُتْر، وحرَّضهم على الثورة على عاملهم الأموي.

وبهذا السلوك، بات طالب بن مولود أحد الثائرين الذين يشغلون بال عبد الله، لذلك نهض لإخضاعه، وأرسل عدة حملات عسكرية إلى جنوبي الأندلس من أجل هذه الغاية. ففي عام (٢٨٥ هـ/ ٨٩٨ م) أرسل ابنه المطرف على رأس قوة عسكرية دخلت أملاكه، وحاصرت حصن مُنت فيق، الواقع على ضفة نهر إبرو، لكن المطرف لم يتمكن من اقتحامه فتركه وزحف مباشرة نحو حصن أقوط، مركز طالب ابن مولود، وحاصره، وضيَّق الخناق عليه. وجرى قتال بينه وبين المدافعين بقيادة

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٣٥. (٢) المصدر نفسه.

(٣) العذري: نصوص ص ١١٤. ابن حيان: قسم ٣ ص ٧٤، ١٢٨.

طالب، أدى إلى انتصار المطرف، واضطر طالب إلى الاستلام، فأبقاه عبد الله حاكماً على أراضيه باسم الإمارة الأموية[1].

ويبدو أن هذا التفاهم مع عبد الله أثار بعض أنصار طالب بن مولود الذين عارضوا مثل هذا التوجه فخرج عليه أحدهم، ويدعى عبد الله بن حميد، وسيطر على حصن أقوط، وغادره طالب إلى حصن آخر هو جبل الحجارة[2].

لم يتقيد طالب بن مولود طويلاً بما التزم به مع الأمير الأموي، وعاد إلى الثورة مرة أخرى في عام (٢٨٧ هـ/ ٩٠٠ م)، فأرسل إليه عبد الله صائفة، بقيادة عبيد الله بن محمد بن أبي عبدة تمكَّن أفرادها من قتله[3]، وعلى الرغم من هذا الإنجاز الذي حقَّقه، إلا أن المشكلة لم تنته. فقد خلف طالباً أخوه مسلم، إلا أنه لم يكن على مستوى أخيه، إذ وقع في شرك نصبه له عمر بن حفصون، وحمله إلى قلعة ببشتر، غير أنه تمكَّن من الهرب وتحصَّن في جبل الحجارة وتمسَّك بطاعة الإمارة الأموية بقية حياته[4]، ولما توفي خلفه ابن أخيه عليُّ بن طالب بن مولود، الذي سلك طريق عمه في طاعة الإمارة الأموية حتى عهد عبد الرحمن الناصر[5].

الاضطرابات العصبية

النزاع بين العرب والمولَّدين في إلبيرة: لعل الملفت للنظر في عهد عبد الله أن تستفز ثورات المولَّدين مشاعر العرب حيث اتخذوا منها موقفاً سلبياً، وقابلوها بثورات مضادة. ولا يجب أن يفوتنا، ونحن نؤرخ لرد الفعل العربي، أنَّ تحرك القبائل العربية في تلك الأثناء كانت تمليه مصالح قومية وذاتية، ولكن ليس من أجل الدفاع عن النظام الأموي الذي تربطه بهم روابط قبلية وعنصرية، بدليل أنه استهدف حكومة قرطبة، كما استهدف المولَّدين الذين انتشروا في مختلف أنحاء الأندلس يقتطعون أجزاءها تباعاً، فتتحول الدولة إلى دويلات. وفي غمرة هذه الظروف دخلت القبائل العربية حلبة الصراع على النفوذ.

بدأ الاستقرار العربي في إقليم إلبيرة منذ العهد الأول للوجود الإسلامي في الأندلس، ذلك أن الفاتحين كانوا غالباً ما يستوطنون المناطق التي يتم لهم فتحها،

---

(١) العذري: نصوص، ص ١١٤.
(٢) المصدر نفسه: ص ١١٤، ١١٥.
(٣) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٣٩.
(٤) العذري: ص ١١٥.
(٥) المصدر نفسه.

وحيث أن هذا الإقليم كان إحدى المناطق التي فُتحت في الحملات الأولى، فإنه من المرجح أن بعض الجماعات العربية التي رافقت الجيش الإسلامي قد سكنت فيه عقب الفتح مباشرة، على أن الاستقرار العربي في هذا الإقليم قد توضحت معالمه حين وزَّع أبو الخطار الكلبي العرب الشاميين في أنحاء الأندلس، فخصَّه لجند دمشق، ومع أن السكان العرب قد تكاثروا خلال القرن الثالث الهجري، إلا أن العنصر العربي ظل قليلاً بالمقارنة مع عدد المولَّدين. وعلى الرغم من هذا التنوع غير المتجانس من السكان، إلا أنهم لم يفقدوا وعيهم بأصولهم.

ففيما يتعلق بالعرب البلديين والشاميين، فقد ظلوا محتفظين بما يجمع بينهم من مظاهر المودة والعداء العرقية على الرغم من تبنِّيهم موقفاً إيجابياً تجاه الحكومة المركزية[١]، وغدوا يمثلون عماد النظام القائم.

وفي المقابل، تضامن النصارى مع المولَّدين في إلبيرة وتكتَّلوا في جبهة واحدة، وقاموا بالتضييق على العرب.

وهكذا نشأ تكتلان متعارضان، في الوقت الذي تمكَّن فيه القلق من النفوس نتيجة أحداث الثورات في جنوبي الأندلس. وعلى هذا الشكل كانت تسير الأمور في إلبيرة في بداية عهد عبد الله.

التفَّ العرب حول زعيم لهم يدعى يحيى بن صُقالة القيسي، الذي ثار «بدعوة العرب الذين بغت عليهم العجم والمولَّدون»[٢]. وبناءً عليه، لم تقم ثورة العرب إلا لمجابهة تمرد المولَّدين. وجرت اصطدامات بين الطرفين، اضطر عرب إلبيرة، تحت ضغطها، إلى مغادرة ضياعهم هرباً من الخطر المحدق بهم، فالتجأوا إلى حصن مُنت شاقر، الواقع في منطقة البراجلة في إقليم إلبيرة، فهاجمهم نابل، زعيم المولَّدين، على رأس جمع من أتباعه ونجح في اقتحام الحصن، وفرَّ يحيى بن صُقالة بالفلول المغلوبة وتوجَّه إلى قسطلَّة حاضرة الإقليم[٣]. وعلى الرغم من أنها كانت تعجُّ بالمولَّدين، وتُعدُّ مركزاً لهم، إلا أنها كانت تحت سلطة قرطبة، والأمن مستتب فيها، بالإضافة إلى ذلك، فقد عقد يحيى اتفاق أمان مع المولَّدين فيها، فاطمأن إليهم، وكان «يأتي حاضرتهم فينزل فيها ويقيم الأيام». غير أن منطق

(١) بروفنسال ص ٢٦٩، ٢٧٠.

(٢) ابن حيان: قسم ٣ ص ٦١.

(٣) المصدر نفسه.

المولَّدين المعادي للعرب دفع هؤلاء إلى نقض عهد الأمان مع يحيى بن صُقالة واغتالوه غدراً في عام (٢٧٦ هـ/ ٨٨٩ م)(١).

اختار عرب إلبيرة، من القيسيين واليمنيين زعيماً جديداً خلفاً ليحيى بن صُقالة، هو سوار بن حمدون القيسي، وهو أحد المقربين من الزعيم المقتول. ويبدو أنه اشترك معه في قتال المولَّدين، ومن المحتمل أنه أحد الذين نجوا من مذبحة مُنت شاقر، إذ إن ابنه عبد العزيز كان من بين القتلى(٢).

رأى سوار بن حمدون ضرورة استقطاب العرب كافة تمهيداً للانتقام لمقتل يحيى ابن صُقالة وابنه عبد العزيز، فألَّف بين قلوبهم، ولذا «كثر أتباعه، واشتدت شوكته، واعتزَّ العرب بمكانه، فلفَّف جموعها، وحمى ذمارها، وسعى لإدراك ثأرها»(٣)، وتحصَّن في حصن غرناطة الواقع على بُعد ستة أميال إلى الجنوب الشرقي من حاضرة الإقليم، ودعا العرب إلى نصرته، فانضوى إليه الكثير من بيوتهم في جيّان، وريَّة وغيرهما. وعندما آنس من نفسه القوة، هاجم حصن مُنت شاقر لاستعادته من نابل وأتباعه المولَّدين، ونجح في إخراجهم منه قسراً، ثم التفت إلى الحصون القريبة التابعة للمولَّدين وحلفائهم النصارى، فطهَّرها من وجودهم، وما زال يفتح ويغنم حتى غلب على أكثرها(٤).

أدَّت أحداث النزاع العربي ـ المولَّدي في إلبيرة إلى انتشاره في كل أرجاء الإقليم، بعد أن كان محصوراً في مناطق محددة منه، كما أنه أكَّد التضامن بين سكانه من العرب، وأفزع المولَّدين، فطلبوا مساعدة الحاكم جعد بن عبد الغافر الخالدي، وحثُّوه على الاقتصاص من سوار بن حمدون «وكفِّ أذاه عن طاعتهم للسلطان». وربما اعتقدوا أن انسياقهم وراء هذا الحاكم ضد العرب سيكون بمثابة الدفاع عن طاعتهم للإمارة وضماناً لبقائهم في إطار سلطانها(٥).

ويبدو أن جعداً خشي من خروج هذا الإقليم عن سيطرة قرطبة، كما أن تعاظم نفوذ الزعامات العربية من شأنه أن يؤثِّر سلباً على أوضاع الإمارة الأموية، وهي التي طالما حاربتهم على مدى تاريخها، لذلك استجاب لطلب المساعدة، وخرج من إلبيرة على

(١) ابن حيان: قسم ٣ ص ٦١. ابن الأبار: الحلة السيراء جـ ١ ص ١٤٨.
(٢) ابن الخطيب: الإحاطة جـ ٤ ص ٢٢٦. (٣) ابن الأبار: جـ ١ ص ١٤٨.
(٤) ابن حيان: قسم ٣ ص ٦٢. (٥) أبو الخيل: ص ٢٠٧.

رأس جيش كثيف تألَّف معظمه من المولَّدين وحلفائهم النصارى، وهاجم سوار بن حمدون، وجرى قتال بين الطرفين انتهى لمصلحة العرب، وقُتل سبعة آلاف رجل من رجال جعد، ووقع هو نفسه في الأسر. وقد سميت هذه المعركة بوقعة جعد[1].

وطارد سوار بن حمدون فلول المنهزمين حتى أبواب قسطلَّة، حاضرة الإقليم، وكان باستطاعته، بعد هذا الانتصار، أن يستقل بحكم إلبيرة، وبخاصة أن سيطرة الإدارة المركزية باتت ضعيفة، لكنه لم يفعل، فأطلق سراح جعد[2]، ومع ذلك، فقد أضفى هذا النصر عليه هالة من القوة، فاشتهر صيته بين العرب، كما أضفى على هؤلاء جسارة، فكاتبه منهم مَنْ بالنواحي إلى حدود قلعة رباح «فصاروا إلباً على المولَّدين ونكالاً لهم»، بل إن نفوذه وصل إلى إقليم جيّان حيث امتلك مدينتي بيَّاسة وأُبَّدة[3].

والراجح أن التأييد العربي الواسع الذي حظي به سوار هو الذي دفعه إلى مدِّ سيطرته إلى جيّان، وأضحى الزعيم العربي الأول الذي يقف إلى جانب العرب، ويدافع عنهم، ويذود عن حماهم، ويناضل من أجل حقوقهم.

استمر سوار بن حمدون يضايق المولَّدين، الأمر الذي دفعهم إلى الاتصال بالعاهل الأموي عبد الله، يشكون ما آل إليه وضعهم، ويطلبون مساعدته في رفع أذاه عنهم، ويبدو أن هذا التوجُّه حتَّمه خلاف قرطبة مع هؤلاء العرب من أتباع سوار بن حمدون بدليل قيام عاملها جعد بمشاركته في حربهم[4].

وحاول عبد الله البحث عن حل سليم للقضية، فعرض على سوار بن حمدون ومن معه من العرب أن يمنحهم امتيازات جديدة مقابل أن يتخلوا عن أعمال القتال ويتصالحوا مع المولَّدين. قَبِل سوار هذا العرض لكنه اشترط على الأمير أن يعزل جعداً بن عبد الغافر من منصبه، فعزله وولَّى عمر بن عبد الله مكانه، وأشرك سواراً معه في الحكم، ويبدو أن هذا كان شرطاً آخر لسوار. ثم أجرى سوار محادثات مع المولَّدين أسفرت عن عقد سلم بينهما، «فارتفعت الحرب بينهم، وهدأت الحال، وانبسط كل منهم في قراهم، وطعموا العافية»[5].

---

(١) ابن حيان: قسم ٣ ص ٥٥، ٥٦. ابن الأبار: جـ ١ ص ١٤٩. ابن الخطيب: جـ ٤ ص ٢٢٦.

(٢) ابن الخطيب: المصدر نفسه.

(٣) ابن حيان: قسم ٣ ص ٥٦. ابن الخطيب: جـ ٤ ص ٢٦، ٢٧.

(٤) ابن حيان: المصدر نفسه. أبو الخيل: ص ٢١٠.

(٥) ابن حيان: قسم ٣: ص ٥٦، ٦٠، ٧٦، ابن الخطيب: جـ ٤ ص ٢٢٦، ٢٢٧.

أدرك عبد الله كفاءة القوات التابعة لسوار بن حمدون من خلال المعارك التي خاضتها، فأراد استغلالها لضرب عمر بن حفصون. ومن جهته أراد سوار بن حمدون أن يعبِّر عن إخلاصه للإمارة الأموية، ويردَّ على ابن حفصون، الذي كان قد هاجم غرناطة وعدداً من المواقع العربية في إقليم إلبيرة.

وهكذا جمعت الطرفان العربيان مصلحة مشتركة ضد الثائر المولَّدي، فهاجم سوار قلاع عمر بن حفصون الأمر الذي أغضب المولَّدين، إذ عدَّوا ذلك انتهاكاً للاتفاق الذي تمَّ مؤخراً، ويقضي بتوقف أعمال القتال، فنقضوا العهد المبرم بينهم وبين سوار بن حمدون، واستأنفوا العمليات العسكرية، فهاجموا حصن غرناطة في عدد يزيد على عشرين ألفاً وضيَّقوا على مَنْ فيه من العرب، وجرى قتال بين الطرفين أسفر عن انتصار العرب، فيما عُرِف بوقعة المدينة[1].

أضحى العداء صريحاً بعد وقعة المدينة، بين العرب والإمارة الأموية من جهة، والمولَّدين من جهة أخرى، واضطر هؤلاء إلى الارتماء في أحضان عمر بن حفصون. وخاض الطرفان رحى معركة ضارية انتهت بانتصار سوار بن حمدون. وغادر عمر بن حفصون أرض المعركة وهو حنق بعد أن ترك لنائبه، حفص بن مرة، مهمة مواصلة القتال، فتربص لسوار بن حمدون وأوقعه في كمين قرب حصن غرناطة وقتله، وذلك في (أوائل ٢٧٧ هـ/ ٨٩٠ م)[2].

خلف سعيد بن سليمان بن جودي، وهو من قبيلة هوازن، سواراً بن حمدون. إنه رجل عسكري اشتهر بالشجاعة في ميدان القتال، ونظْم الشعر وفصاحة اللسان، لكن أعوزه فن الحكم وسرعة تنفيذ الخطط العسكرية، فهو لم يصل إلى مستوى سلفه ولم «يسدَّ مكانه، ولا بلغ مداه في السياسة»، كما أنه سلك خطّاً مغايراً. فقد كان سوار بن حمدون يحرص على رأب الصدع في الجبهة العربية، ويحافظ على التوازن بين القبائل القيسية واليمنية، على الرغم من كونه قيسياً، فلم يحدث أي انشقاق عليه، بل التفَّ الجميع حوله، أما سعيد بن جودي فقد انحدر بقيسيته إلى درك العصبية، فشقَّ بذلك صفَّه الداخلي، فعاداه محمد بن أضحى الهمداني، أحد الزعماء العرب اليمنيين[3].

---

(١) ابن حيان: قسم ٣ ص ٥٦. ابن الأبار: جـ ١ ص ١٥٠. ابن الخطيب: جـ ٤ ص ٢٢٦.

(٢) ابن حيان: قسم ٣ ص ٦٠، ٦١. ابن الأبار: جـ ١ ص ١٥٤، ابن الخطيب: جـ ٤ ص ٢٢٦، ٢٢٧.

(٣) ابن حيان: المصدر نفسه: ص ١٢٣.

أما علاقة سعيد بن جودي بالمولَّدين، فقد توضَّحت من خلال علاقته بعمر بن حفصون، لأن هؤلاء تحالفوا معه وأضحوا يقاتلون في صفوفه. وبناءً على ذلك، جرت بين الطرفين بعض المواجهات العسكرية، لم تكن حاسمة ولا مميزة، ولم تصل إلى حجم المعارك الكبرى. من ذلك ما جرى من قتال، في عام (٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م)، في سهل نهر شنيل حيث انتصر عمر بن حفصون، وطارد العرب حتى أبواب غرناطة، وعندئذٍ «ظهر الوهن على سعيد... وانتقضت عليه أموره، فلم يزل متردداً في نكبتها حتى آخر أيامه». وظل على تلك الحال إلى أن قُتل غدراً بأيدي بعض أصحابه في دار امرأة يهودية، وذلك في (ذي الحجة ٢٨٤ هـ/ كانون الثاني ٨٩٨ م)[١]، والراجح أنه ذهب ضحية:

- تصرفاته السياسية التي أشرنا إليها.

- سلوكه الأخلاقي، فقد كان «أكبر ما نقمه عليه أصحابه استهتاره بالنساء، ونهمه فيهن، وانحطاطه في طلبهن إلى ما يقبح ذكره»[٢].

- لم يراعِ حقوق بعض أصحابه، ولم يعرهم أي اهتمام «واستخفَّ بهم حتى دبَّر كبيران منهم حيلة قتلاه بها»[٣].

حمل لواء العرب، بعد اغتيال سعيد بن جودي، ندُّه ومعارضه في إقليم إلبيرة، محمد بن أضحى الهمداني، صاحب حصن الحامة الواقع في الأجزاء الجنوبية للإقليم المذكور، وقد عوَّل عليه هؤلاء أن يقودهم ضد المولَّدين[٤]. وفعلاً كانت له جولات مع عمر بن حفصون أُسر في إحداها، وافتداه العرب بمال جسيم. واعترف العاهل الأموي بحكمه على الأراضي التي بحوزته. وظل على هذا الحال حتى بداية عهد عبد الرحمن الناصر[٥]، لكن عهده شهد اضطرابات قبلية، وأزمة حادة في روابط القبائل العربية. إذ لم تتخلَّ القبائل القيسية، التي تشكل السواد الأعظم في إقليم إلبيرة، عن الزعامة بسهولة، وكان من العسير عليها أن تخضع لهذا الزعيم اليمني، وأدى ذلك إلى حدوث اصطدام مسلح بينهما. ولم يبذل عبد الله جهداً من أجل تسوية الوضع. وقد وصف ابن حيان حال العرب، بعد سعيد بن جودي، بقوله:

---

(١) ابن حيان: قسم ٣ ص ١٠٧، ١٠٨. ابن الخطيب: جـ ٤ ص ٢٢٩ـ ٢٣١.

(٢) المصدران نفساهما: ص ٣٠. ص ٢٣١.

(٣) ابن حيان: المصدر نفسه.

(٤) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٣٤.

(٥) ابن حيان: قسم ٣ ص ٣١. ابن الأبار: جـ ١ ص ٢٢٩، جـ ٢ ص ٣٧١.

«ذلَّت العرب بعد مقتل سعيد بن جودي، واضطرب أمرها، وانحصدت شوكتها، وهانت على محاديها المولَّدين المناضلين لهم بحاضرة إلبيرة»[١].

النزاع بين العرب والمولَّدين في إشبيلية

تمهيد: كانت إشبيلية، في القرن الثالث الهجري، المدينة الثانية بعد قرطبة بالنسبة لعدد السكان، وأغنى مدن الأندلس. وقد ساعد موقعها الجغرافي المتميز، وأرضها الخصبة، وميناؤها الواقع على نهر الوادي الكبير؛ على تطورها بصورة مذهلة. وكان للعرب فيها نفوذ مهم بدأ في الأعوام الأولى للفتح الإسلامي للأندلس. ولعل اتخاذ المسلمين لها أول عاصمة لهم، قد ثبَّت دعائم الاستقرار فيها. وازدادت أعداد العرب بعامة فيها بعد قدوم الشاميين، حين أنزل أبو الخطار الكلبي فيها جند حمص اليمنيين، فكثر عدد العرب اليمنيين بخاصة، وفاقوا عدد القيسيين، ولذا، من الطبيعي أن تكون هذه المدينة أرضاً لمعارضة قادها زعماء من اليمنيين ضد الأمراء الأمويين.

وفضَّل معظم العرب السكن خارج المدينة، في مزارعهم وضياعهم، التي امتلكوها في الوادي الكبير أو في المنحدرات القريبة منه، وفي المستنقعات والجزر التي تكونَّت نتيجة ترسبات مياه النهر. وعلى مدى أجيال سابقة كانت أسرة بني حجاج، من أشراف اليمن، تمتلك أهم تلك المزارع، وتفخر بنسبها إلى قبيلة لخم، ويتصل أفرادها بملوك القوط من ناحية الأمومة[٢]. وكان عبد الله بن حجاج عميدهم والمقدم فيهم في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، واشتهر والده حجاج بولائه المطلق للإمارة الأموية في عهد محمد الأول، حتى أنه لقي حتفه في سبيل الدفاع عنها.

وسكنت المنطقة أيضاً قبيلة بني خلدون، التي تعود بنسبها إلى عرب حضرموت، وتركَّز أفرادها في مدينة قرمونة، في بداية دخولهم إلى الأندلس، ثم انتقلوا إلى إشبيلية القريبة منها. وكان يمثلهم في أيام الثورة الكبرى، في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، عميدهم أبو هاني كُرَيْب بن عثمان بن خلدون وأخوه أبو عثمان خالد بن عثمان[٣].

ظلَّت الحياة في إشبيلية، بعد الفتح الإسلامي، على ما كانت عليه أيام الحكم

---

(١) المقتبس: قسم ٣ ص ١٢٣.

(٢) لقد تزوج عمير بن سعيد، جد بني حجاج، سارة بنت ألمند بن غيطشة. ابن القوطية: ص ٧٥.

(٣) ابن حزم: ص ٤٦٠. ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٣٥.

القوطي، باستثناء بعض التغييرات التي حدثت في المجالين الديني والاجتماعي. إذ أقبل السكان الأصليون الذين ينحدرون من أصول رومانية وقوطية، على اعتناق الإسلام بشكل واسع في عهد عبد الرحمن الثاني، ولذا غدا المولَّدون، في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، يشكلون الأكثرية الساحقة فيها.

وعلى الرغم من هذا، فقد ظلَّت روح العصبية فيهم، وأصولهم العرقية، بمنأى عن أي تغيير، فحافظوا على عاداتهم وتقاليدهم، كما احتفظ بعضهم بأسمائهم القديمة مثل بني أنجلين وبني شبرقة وبني الجريج، وشغلوا المنزلة العليا بين السكان، في ظل ضعف التواجد العربي الداخلي، فكانوا أكثر أهل إشبيلية «شوكة، وأوسعهم نعمة، وأعزهم جانباً، وأحضرهم عدة، يعتدون في إثني عشر رئيساً»[1].

ولعل هذا الوضع الذي نعِمَ به المولَّدون جعلهم يحجمون عن الالتحاق بدعوة المولَّدين العامة التي انتشرت في ربوع الأندلس منذ عهد محمد الأول، فظلوا مخلصين للإمارة الأموية حتى اضطربت مدينتهم بفعل تصرفات العرب[2].

أيام الفتنة: ظلَّت إشبيلية هادئة ومستقرة حتى العام الثاني من ولاية عبد الله، ثم اندلعت فيها الفتنة في عام (٢٧٦ هـ/ ٨٨٩ م) بسبب طموح القبائل العربية فيها نحو السلطان والرئاسة والاستقلال عن قرطبة. وأدَّت العصبية العربية دوراً بارزاً في تأجيجها، ذلك أن الزعيم العربي كُرَيْب بن خلدون، وبدافع كراهيته للأمويين، وبفعل ما كان يتمتع به من مزاج فظ وإقدام كبير، اتبع أساليب عديدة للبروز والإعلان عن نفسه، كما انتهز فرصة الفوضى المتزايدة في ربوع الأندلس فتبوَّأ المقام الأول، ودعا قومه في إشبيلية إلى الالتفاف حوله، كما اتصل بالزعماء اليمنيين الثائرين في إقليمي شذونة ولبلة، وببعض زعماء البربر البرانس، وعقد تحالفاً معهم.

وشعر المولَّدون في إشبيلية بالقلق على مصيرهم نتيجة تحركات كُرَيْب بن خلدون، فأقدموا على التحالف مع العرب القيسيين والبربر البُتر، المناهضين للعصبية اليمنية، والبرانسية، مكوِّنين بذلك جبهة مضادة.

والواقع أنه لم يحدث أي اضطراب في إشبيلية، في بادىء الأمر، نتيجة نشوء حلفين مضادين، ويبدو أن مرد ذلك يعود إلى عدة أسباب، منها:

---

(١) ابن حيان: قسم ٣ ص ٧٤، ٨٥.

(٢) أبو الخيل: ص ٢٣٠.

ـ لقد ضارع الحلف الذي كوَّنه المولَّدون، في قوتة، الحلف الذي أنشأه كُرَيْب بن خلدون من قبل، أي أن قوة الحلفين كانت متساوية.

ـ إن الفكرة العصبية التي دعا إليها كُرَيْب بن خلدون لم تكن قد تبلورت بعد.

ـ لم يزل النظام الأموي قوياً في إشبيلية في تلك الأثناء.

ـ قامت، إلى جانب الكتلتين، فئة التزمت جانب الحياد، وناصرت الإمارة الأموية، وأدانت الخروج عليها، فكانت أمل أهل المدينة في البقاء تحت غطاء الشرعية، ولم يتجرأ كُرَيْب بن خلدون وأتباعه على مخالفتها.

كان من الممكن إلقاء القبض على كُرَيْب بن خلدون ومنعه من تحقيق تطلعاته السياسية، لكن عبد الله لم يفعل ذلك، ولعله اعتمد على التوازنات القائمة، لردعه. وعندما فشل هذا الزعيم العربي في تحقيق ما يصبو إليه، غادر إشبيلية مع أنصاره إلى إقليم الشرف التابع لهذه المدينة، وسكن في قرية البلاط، وغدا أكثر حرية في التصرف، فاستقطب معظم القبائل الحضرمية المستقرة في هذا الإقليم، كما أرسل مبعوثين إلى الأقاليم المجاورة يدعوهم إلى الانضمام إليه، وانضوى بربر ماردة البرانس تحت سلطانه. وحتى يهيء المناخ الملائم لعمله «وتشتيت أمر السلطان وتبغيضه إلى رعيته»، قام بتشجيع عمليات قطع الطرق، والإخلال بالأمن، وأغرى حلفاءه البربر بالإغارة على إشبيلية، ولم يتمكَّن عاملها موسى بن العاص بن تغلب من الصمود أمامهم، وبخاصة بعد هزيمته على أيديهم في قرية طلياطة[١].

لم يتوقف كُرَيْب بن خلدون عند هذا الحد، بل ذهب إلى أبعد من ذلك. فأقام علاقة مع الثائر المولَّدي عبد الرحمن بن مروان الجليقي، إذ إن كل وسيلة تصبح مباحة، في نظره، حين يتعلق الأمر ببث الفوضى والاضطراب والذعر بين الناس ونسف السلطة التي يتمتع بها العاهل الأموي. ونزل عبد الرحمن الجليقي قرية مورور، وأغار على إشبيلية وما يجاورها، فلم يتصدَّ له أحد، وظل كذلك حتى عاد إلى قاعدته بطليوس. وأضحى الطريق بين قرطبة وإشبيلية يشهد هجمات متكررة من جانب عصابات قطاع الطرق، وبرز من بين هؤلاء رجل من البربر يدعى الطماشكة[٢].

على ضوء هذه الأحداث، ساد الذعر في إشبيلية وما يجاورها، وانقلب الاستقرار

(١) ابن حيان: قسم ٣ ص ٦٩.

(٢) المصدر نفسه: ص ٦٩، ٧٠.

إلى فوضى، والأمن إلى خوف «فظهر عجز السلطان، وبان وهنه، ومقتته الرعية، وقويت أطماع الشر في كل جهة»[1].

ظلَّ المولَّدون قابعين داخل إشبيلية، وقد بدت على وجوههم علامات الدهشة بسبب الصمت الذي لازم عبد الله على مثل هذه الأعمال، فاتصل به أحد زعماء مدينة أستجَّة، وهو محمد بن غالب، والراجح أنه من المولَّدين، وأفضى إليه باستعداده بإعادة الأمن مرة أخرى إلى الأقاليم التي سادت الفوضى في ربوعها، وطلب منه السماح له ببناء حصن بقرية شنت طرَّش، بين أستجَّة وإشبيلية من أجل ذلك.

وحصل محمد بن غالب فوراً، على الإذن، فحكومة قرطبة كانت من الضعف والانحلال ما يجعلها غير قادرة بنفسها على إعادة الأمور إلى نصابها، ثم إن تفاقم الوضع في إشبيلية من شأنه أن يؤثر سلباً على الأوضاع في قرطبة، ومن ثَمَّ على الدولة ككل، لأن إشبيلية تتحكم في الشريان الحيوي للعاصمة، ولذا فإن أي إخلال في أمنها سيؤدي حتماً إلى التضييق عليها[2].

ويبدو أن محمداً بن غالب نجح، بعد سلسلة من العمليات العسكرية الناجحة، في إرساء قواعد الأمن والنظام، الأمر الذي أزعج العرب اليمنية في إشبيلية، إذ رأوا في نجاحه هذا إبطالاً لمخططاتهم، ولم يعترف زعماؤهم بهزيمتهم، لذلك تحالف بنو خلدون مع بني حجاج للقضاء على هذا المنافس الخطير.

وشنَّ الحلفاء هجوماً على قلعة محمد بن غالب، وجرى اشتباك بين الجانبين قُتل فيه رجل من بني حجاج، فاستغل العرب هذه الحادثة التي عدوها جريمة، وهي اغتيال أحد رجال العرب على يد رجل مولَّدي حقير، لدعم موقفهم لدى السلطات الأموية، فادعوا أمام عامل الإمارة في إشبيلية أن محمداً بن غالب اغتال صاحبهم غدراً، وأردفوا ذلك بشهادات مزوَّرة.

واتجهت الأنظار نحو قرطبة للمطالبة بالقصاص، بعد فشل العامل في ذلك، لكن الأمر التبس على عبد الله في ظل عدم وضوح الأدلة، وبات الأمر محيراً بالنسبة له. فقد كانت سياسته، آنذاك، تقضي بأن يبقي على علاقات جيدة مع العرب والمولَّدين، وأن أي حكم يصدر عنه لصالح أحدهما من شأنه أن يثير الطرف الآخر، وعندئذٍ تستعرُّ الاضطرابات في إشبيلية على نطاق واسع، وبالتالي يخرج هذا الإقليم نهائياً

(١) ابن حيان: قسم ٣ ص ٦٩، ٧٠.

(٢) أبو الخيل: ص ٢٣٤.

عن سلطته، لذلك تمهَّل في إصدار الحكم، ولعله أمل بأن تحلَّ القضية مع مرور الوقت، وربما رأى نفسه أنه بحاجة إلى مزيد من الوقت لحلها.

ومهما يكن من أمرٍ، فقد أرسل عبد الله ابنه الأكبر محمداً إلى إشبيلية ليقوم بتقصِّي الحقائق التي تُمكِّنه من صياغة تقرير شامل يُقدِّمه لوالده، وعيَّن أمية بن عبد الغافر الخالدي والياً على المدينة، وقد توسَّم فيه القدرة على الإمساك بزمام الأمور فيها. وعمل الرجلان على مدِّ وقت التحقيقات، ومن البديهي أنهما كانا يريدان كسب الوقت، وإفساح المجال أمام كل القضايا حتى تُحَلَّ بذاتها، حيث تكرَّر المشهد الذي حدث في العاصمة، وسمح الأمير محمد، في الوقت نفسه، بعودة محمد بن غالب إلى حصنه[1].

اعتقد المولَّدون في إشبيلية بأنهم كسبوا الجولة، وفي المقابل اشتد غضب العرب، الذين اتهموا الإمارة الأموية بالميل إلى صف محمد بن غالب، وعدَّوا ذلك إهانة لهم، ففقدوا صبرهم وقرروا الانتقام، ثم غادروا المدينة. فتوجَّه كُرَيْب بن خلدون إلى قريته بالشرف، في حين توجَّه بنو حجاج إلى باديتهم بالسَّنَد، على الطريق بين إشبيلية ولبلة، وراحوا يشيعون الاضطرابات، مع حلفائهم العرب اليمنية والبربر البرانس، عن طريق الإغارة والسطو على المراكز المهمة، وتطور الأمر، بعد ذلك، إلى الاستيلاء على المراكز الحيوية. فاستولى كُرَيْب بن خلدون على قلعة قورة النهر إلى الجنوب من إشبيلية، واتخذها قاعدة لنشاطه العسكري، في حين استولى عبد الله بن حجاج، مع حليفه البربري جنيد بن وهب، على مدينة قرمونة، بعد أن طرد عاملها الأموي منها[2]. وحقَّقت العمليتان اللتان نُفِّذتا في آنٍ واحد، نجاحاً كبيراً. ومن جهته، أجرى محمد بن غالب اتصالات مع وجوه المولَّدين، اتفق معهم خلالها على خلع طاعة عبد الله.

كان الأمير محمد لا يزال في إشبيلية، فأبلغ والده بكل التطورات التي جرت على الساحة الإشبيلية. وحاول العاهل الأموي إيجاد حل سلمي للأزمة، كعادته، لكن وزراءه، اقترحوا عليه التخلص من محمد بن غالب، حتى تعود الأمور إلى نصابها، ويسود النظام مرة أخرى، فمال عبد الله إلى هذا الاقتراح، وكلَّف القائد جعد بن عبد الغافر بالقضاء عليه، وتكتم على ذلك، كما كتب إلى محمد بن غالب يحثه على

---

(١) ابن حيان: قسم ٣ ص ٧٠، ٧١.

(٢) المصدر نفسه: ص ٧١، ٧٢.

الخروج مع أصحابه والالتحاق بالجيش الأموي المتجه إلى قرمونة، بحجة طرد عبد الله بن حجاج منها. وانطوت الحيلة على محمد بن غالب، فتمكّن منه جعد وقتله صبراً، وأرسل رأسه إلى عبد الله بن حجاج في قرمونة، وفقاً لاتفاق سابق بأنه سينصفه مقابل عودته إلى طاعة الإمارة. اغتبط عبد الله بن حجاج لمقتل محمد بن غالب وأعاد قلعة قرمونة إلى الأمويين[١].

أثار مقتل محمد بن غالب مشاعر الغضب لدى المولَّدين في إشبيلية الذين آمنوا بعدالة قضيتهم، وغامرهم الشك بنوايا الإمارة، لذلك تحركوا فوراً من دون أن يقطعوا أواصر المودة بشكل كامل، مع قرطبة، وطلبوا مساعدة العرب القيسيين والبربر البرانس ضد أعدائهم الطبيعيين من عرب اليمن، وأرسل إليهم حليفهم طالب ابن مولود، قوة عسكرية، وبذلك أضحى الجو داخل إشبيلية مشحوناً، كما أصبح من المتوقع أن تعمَّ أعمال الشغب كل الشوارع.

عقد الثائرون اجتماعاً سرياً في (جمادى الأولى ٢٧٦ هـ/ أيلول ٨٨٩ م)، خرجوا على إثره في مظاهرة، أمام مقر إقامة الأمير محمد، واشتبكوا بالأيدي مع حرس القصر، واستولوا على بعض مرافق القصر، تصدَّى لهم القائد أمية بن عبد الغافر بإمكاناته المحدودة، وشغلهم حيناً حتى يصل أخوه جعد على رأس جيش الإمارة، بعد أن أُحيط علماً بذلك واستُدعي على عجل. وعندما وصل إلى المدينة شقَّ طريقه إلى القصر بصعوبة وسط الغوغاء وسيطر على الوضع[٢].

أصدر عبد الله، عقب هذه الأحداث، عفواً عاماً عن الذين اشتركوا فيها، وعيَّن أمية بن عبد الغافر والياً على إشبيلية، واستدعى ابنه محمداً للعودة إلى قرطبة، فساد الهدوء، ولكن إلى حين، فقد تدخل عمر بن حفصون لدى العاهل الأموي، وطلب منه أن يقتصَّ من القائد جعد لقتله محمد بن غالب، وكان آنذاك في قرطبة.

وخشي القائد الأموي من أن يضحي به عبد الله بفعل حاجته لاستقطاب ابن حفصون، فغادر قرطبة سراً مع أخويه هاشم وعبد الغافر، إلى إشبيلية للاحتماء بأخيه أمية. لكن الإخوة الثلاثة وقعوا في كمين أعدَّه أخو محمد بن غالب، وجرى اغتيالهم جميعاً[٣].

اتهم أمية المولَّدين، ومن والاهم، بحادثة الاغتيال، ولذا قرَّب إليه بني خلدون

---

(١) ابن حيان: قسم ٣ ص ٧٢، ٧٣. العذري: ص ١٠٥.

(٢) ابن حيان: قسم ٣ ص ٧٣، ٧٥. (٣) المصدر نفسه ص ٨٤.

وبني حجاج، على الرغم من أنهم يكنُّون العداء للإمارة الأموية، ودعاهم مع أنصارهم العرب للثورة ضد المولدين من أهل إشبيلية.

نتيجة لذلك، أضحت المدينة والقرى المحيطة بها تغوص في الدماء أياماً عديدة، أُبيد خلالها آلاف من المولَّدين وحلفائهم النصارى، واضطروا إلى الإخلاد إلى الهدوء. والواقع أن الضربة كانت قاسية جداً، بحيث فقد المولَّدون القوة الضرورية للاستمرار في التحرك، وخلصت إشبيلية للعرب، فأضحوا سادتها وأصحاب القوة فيها.

وبعد أن أطفأ عرب اليمن ظمأهم بالانتقام من المولَّدين، لم يبقَ أمامهم سوى عزل الوالي أمية بن عبد الغافر، وفرض أساليب تعايش معينة على عبد الله في قرطبة، تجعل الوضع مستقراً وخاضعاً لاختياراتهم الاستقلالية. فغادر كل من كُرَيْب بن خلدون وعبد الله بن حجاج، إشبيلية، كل إلى معقله في قورة وقرمونة، وشقّا علناً عصا الطاعة حيث «ضافر كل واحد منهما من جاوره من أهل الخلاف، فقويت شوكتهما»[(١)].

وشعر أمية بن عبد الغافر بخطورة الوضع، فعمل على تفكيك عرى التحالف العربي اليمني ـ البربري، ونجح في إثارة الشقاق بين عبد الله بن حجاج وحليفه البربري جنيد بن وهب، فوثب هذا الأخير على عبد الله وقتله، وأرسل رأسه إلى أمية، وذلك في عام (٢٧٨ هـ/ ٨٩١ م)، والراجح أنه دخل في طاعة الإمارة الأموية بعد هذه الأحداث[(٢)].

دفعت هذه التطورات العرب اليمنيين إلى مزيد من التضامن لمواجهة الموقف الصعب، واختاروا إبراهيم بن حجاج خلفاً لأخيه عبد الله، وتكتَّلوا حوله. والواضح أن أمية لم يكن يتوقع استمرار قوة اليمنيين بعد الضربة التي تلقوها بمقتل زعيمهم، وعندما حاول إثارة الشقاق بينهم فشل، وذهب ضحية ذلك. فقد هاجمه العرب في قصره وقتلوه. وبسط هؤلاء سلطتهم المباشرة على إشبيلية، ولكنهم لم يتجرأوا على إعلان استقلالهم بشكل صريح، وبرَّروا قتل أمية أمام العاهل الأموي، بسبب جنوحه إلى العصيان، أما هم فلا يزالون على الطاعة، ولم يعارضوا إرسال والٍ آخر إليهم من قِبَل قرطبة[(٣)].

ولا شك بأن العاهل الأموي أدرك حقيقة الوضع في إشبيلية، لكنه كان عاجزاً عن

(١) ابن حيان: قسم ٣ ص ٧٦.

(٢) أبو الخيل: ص ٢٤٣. بروفنسال: ص ٢٨٢. (٣) ابن حيان: قسم ٣ ص ٧٨.

التصرف ضد العرب بشكل فاعل، فتظاهر بقبول عذرهم، والرضا عن فعلهم، وأرسل عدداً من العمال إلى المدينة، كانوا ألعوبة في أيدي زعيمي العرب، كُرَيْب وإبراهيم، كان من ضمنهم عمه الأمير هشام بن عبد الرحمن الثاني.

وعندما تحسَّنت أوضاع الإمارة الأموية، نهض عبد الله لردع العرب في إشبيلية، إذ أضحى من الضروري أن يتصرف بطريقة إيجابية وفاعلة، فأرسل حملة عسكرية في شهر (ربيع الآخر ٢٨٢ هـ/ حزيران ٨٩٥ م) بقيادة ابنه المطرف، ورافقه الوزير القوي عبد الملك بن عبد الله بن أمية[(١)].

كان هدف الحملة الظاهري إعادة النظام إلى المنطقة الغربية، ولكن المهمة الحقيقية كانت تنطوي على هدف آخر، وهو إجبار العرب في إشبيلية على العودة إلى الطاعة والوقوف ضد نشاط كُرَيْب وإبراهيم، بدليل أن الجيش الأموي توجَّه فوراً إلى إشبيلية وعسكر على بُعد ميلين منها.

وأمام سطوة عبد الملك بن عبد الله بن أمية، رضي العرب بتقديم فروض الولاء والطاعة للعاهل الأموي مقابل أن يخلِّصهم المطرف من الوزير المذكور. ويبدو أن هذا الأمير كان على جفاء معه أيضاً بسبب تدخله لدى عبد الله وإقناعه بصرف عقد البيعة له بولاية العهد. وعليه، فقد قبض المطرف على عبد الملك وقتله، وذلك بعد مرور إثني عشر يوماً على خروج الحملة من قرطبة، وأرسل رأسه إلى إشبيلية[(٢)]. ونفَّذ العرب ما كانوا قد وعدوا به من الخضوع للإمارة الأموية واشتركوا في الحملة التي استأنفت سيرها نحو الجنوب الأندلسي لقمع الثائرين في إقليم شريش أركس ومدينة سيدونيا[(٣)]. لكن هذا الخضوع كان شكلياً فقط، إذ عندما عادت الحملة مرة أخرى إلى إشبيلية في طريقها إلى قرطبة، منعها كُرَيْب بن خلدون من الدخول، فقبض المطرف على إبراهيم بن حجاج وخالد بن خلدون وأصحابهما الذين كانوا يرافقون الحملة، واشتبك مع قوات كُرَيْب أمام باب المدينة، ثم انسحب عائداً إلى قرطبة، وذلك في (رجب ٢٨٢ هـ/ آب ٨٩٥ م)[(٤)]، وقد تمَّ إطلاق سراح الأسيرين بعد أن دفعت إشبيلية الجباية عنهما، وتعهَّد سكانها بالطاعة، وقدَّموا رهائن لحسن تنفيذ التعهد. وما إن عاد المفرج عنهما إلى المدينة حتى تحلَّلا من تعهدهما، وأعلنا

---

(١) ابن حيان: قسم ٣ ص ٧٩، ١١٠، ابن الأبار: جـ ٢ ص ٣٧٤.

(٢) ابن حيان: قسم ٣ ص ١١٤. ابن الخطيب: الإحاطة، جـ ٣ ص ٢١٠، ٢١١.

(٣) بروفنسال: ص ٢٨٢، ٢٨٣.

(٤) ابن حيان: قسم ٣ ص ١١١ـ ١١٤.

انفصالهما عن قرطبة، ومنعا الجباية. وبعودة إبراهيم بن حجاج، جرى اقتسام السلطة بين الزعيمين العربيين[١].

لم يتحرك عبد الله عسكرياً لإعادة بسط سيطرته على إشبيلية، ولعله رأى عقم الحل العسكري، وشعر بأن التوافق بين الزعيمين العربيين لن يستمر طويلاً، وذلك بفعل اختلاف أساليبهما السياسية، إذ «كان في كُرَيْب تحامل على الرعية وتعصب، فكان يتجهم لهم، ويغلظ عليهم، وابن حجاج يسلك بهم سبيل الرفق والتلطف في الشفقة بهم عنده، فانحرفوا عن كُرَيْب إلى إبراهيم»[٢].

وهكذا غدا الانشقاق بينهما وارداً بعد أن انتهى الكفاح ضد الأمويين الذي وحَّدهما من قبل، وربما كان توزيع السلطة فيما بينهما أول بذور هذا الانشقاق، ثم إن اختلاف سياسة كل منهما في تعامله مع الرعية، يُعدُّ مظهراً آخر من مظاهر الانشقاق غير المعلن.

لكن عبد الله كان ينتهز كل فرصة تتاح له ويجد فيها أملاً في تعميق الهوة بين الرجلين، لذلك لجأ إلى الحيلة للتفريق بينهما، وجنَّد كاتبه عبيد الله بن محمد بن أبي عبدة لتنفيذ هذه المهمة، حتى انتهى التحالف بينهما، وغرقا في بحر من الدماء، واغتيل كُرَيْب بن خلدون وأخوه خالد على يد أعوان إبراهيم بن حجاج في عام (٢٨٦ هـ/ ٨٩٩ م). وتعقَّب هذا الأخير أسرة بني خلدون، فقتل بعضاً منهم وشتَّت البعض الآخر. وحين اطمأن على انفراده بحكم إشبيلية، كتب إلى عبد الله يتبرأ من دم ابني خلدون، واتهمهما بأنهما كانا البادئين بنكث العهد، وطلب منه الاعتراف بحكمه في إشبيلية وقرمونة على أن يحمل إليه من جبايتها سبعة آلاف دينار، فأجابه عبد الله إلى ذلك، إلا أنه عيَّن والياً من قِبله، كشريك له في الحكم، هو قاسم بن وليد الكلبي[٣].

وحدث أن عزل عبد الله قاسم بن الوليد، المشارك في حكم إشبيلية، فانفرد إبراهيم بن حجاج بحكمها، وحينئذٍ «بسط يده على الرعية، واكتسب الأموال، واصطنع الرجال»، وأنشأ مجلساً للشورى، وداراً للطراز، لكنه لم يصل به الأمر إلى سك النقود باسمه، وعيَّن قاضياً يقوم بالحكم، ورئيساً لشرطة إشبيلية يقيم الحدود، وأخذ يجمع الضرائب، وأعدَّ لنفسه جيشاً خاصاً قوامه خمسمائة فارس، واعتقد أن

---

(١) ابن حيان: قسم ٣ ص ٨٢، ١١٤. ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٢٥.

(٢) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٣٦.

(٣) ابن حيان: قسم ٣ ص ٨٢ ـ ٨٤. ابن عذارى: المصدر نفسه.

أميره ينظر إليه نظرة احترام وتقدير بوصفه جاراً له، لكن مع حفظ الفوارق بين الرجلين.

كانت نزعة الاستقلال متأصلة في نفس إبراهيم بن حجاج، فعندما أنس من نفسه القوة، ووجد أن باستطاعته الوقوف في وجه الإمارة الأموية، نزع إلى الانفصال عن قرطبة، متخذاً من رفض عبد الله طلباً له بإطلاق سراح ابنه عبد الرحمن، القابع كرهينة في قرطبة، مبرراً لذلك، وتحالف مع الثائر عمر بن حفصون، ونسَّقا معاً للقيام بأعمال عسكرية ضد الإمارة الأموية، لكن هذا التحالف كان مذبذباً نشأ في ظروف مصلحية خاصة تتعلق بمدى علاقة إبراهيم بن حجاج الجيدة أو السيئة، بعبد الله.

ظل الوضع على هذا الحال حتى توفي إبراهيم بن حجاج في عام (٢٨٨ هـ/ ٩٠١ م)، فغدا ابنه عبد الرحمن حاكماً على إشبيلية، والابن الآخر محمد حاكماً على قرمونة. ونهج الأخوان نهج والدهما مع الأمويين في المدة القصيرة التي بقيت من عهد عبد الله[1].

العلاقـات الخارجيـة

العلاقة مع مملكة أشتوريس: عندما تولى عبد الله السلطة في قرطبة، كان الوضع في الثغور الشمالية يتَّسم بالغموض. واتَّبع هذا الأمير، طوال مدة حكمه، سياسة متعرجة تجاه البلاد الواقعة على حدود أراضيه، من حيث تطور الأحداث والتدخل في إذكائها في بعض الأحيان، والمهادنة في الوقت المناسب، والسماح أحياناً أخرى لزعماء التمرد باغتصاب بعض ممتلكاته، والإسراع بالاعتراف بحكمهم على أنهم من التابعين له.

وهكذا بدأت رقعة الدويلات شبه المستقلة، التي تلف قرطبة شمالاً وغرباً، تأخذ شكل الاتحاد، نظراً للطاعة الوهمية لها. وقد مثَّل هذا التنوع نوعاً من الحماية الشكلية للإمارة، في الوقت الذي كان فيه عبد الله يعمل على منع هذه الإقطاعات المتعددة التي تضم العرب والبربر والمولَّدين من أن تتَّحد وتتَّخذ موقفاً موحداً ضده مما سيكون له عواقب وخيمة بالنسبة له.

ومن جهة أخرى، لم يكن كل شيء سهلاً أمام عبد الله نظراً لخصوصية أصل هؤلاء الزعماء الذين يتعاملون معه على قدم المساواة وطبيعتهم النازعة إلى

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٢٩. ابن الخطيب: أعمال الأعلام جـ ٢ ص ٣٥، ٣٦.

الاستقلال. وبغضِّ النظر عن هذا، تحمَّل هؤلاء عبء الدفاع عن المناطق الحدودية، فضلاً عن أنهم كانوا يشنُّون حرباً مقدسة ضد النصارى في شمالي الأندلس في ظل إحجام الإمارة الأموية عن الجهاد، بل إن بعض حكام المناطق الثغرية كانوا يهتمون بتعزيز أمور تلك الثغور مع أن مناطقهم لم تكن تواجه مباشرة القوى النصرانية.

والواقع أن العلاقة بين المسلمين في الأندلس والنصارى في مملكة أشتوريس، عقب الهدنة التي انعقدت بين الجانبين في عام (٢٧٠ هـ/ ٨٨٣ م)، انحصرت في اشتباكات حدودية، فضلاً عن الاتصالات السياسية الخافتة بين البلاط النصراني وبعض القوى المتمردة على الإمارة الأموية.

والواضح أن التردي السياسي والعسكري والاقتصادي الذي شهدته الإمارة الأموية، على مدى أكثر من ربع قرن، أفقدها القدرة على إعداد الجيوش للغزو. وفي المقابل، استغل ألفونسو الثالث أوضاع الإمارة الأموية المنهكة، للعمل على تحقيق إنجازات تدعم مملكته في شتى المجالات السياسية والدينية والاقتصادية. فعقد المجامع الدينية، وعزَّز مكانة الكنيسة ورجال الدين بما لهم من سلطان روحي على الرعية يساعده في استغلال الموارد المعطلة لتحقيق انتعاش إقتصادي يزيد من درجة كفاءة دولته، وبنى الكنائس في مختلف المناطق التي يسيطر عليها، وعمَّر الأماكن الخالية. ولم ينسَ، في غمرة تلك الجهود، الاهتمام بتقوية وسائل الدفاع عن دولته وتوفير الحماية اللازمة لها لا سيما ضد الغزوات الإسلامية، فأقام قلاعاً على سواحل مملكته، وفي نقاط داخلية مفصلية، حتى أضحت حدود بلاده من الغرب إلى الشرق محمية بمواقع عسكرية هامة مثل قلمرية وأستورقة وليون وأماية وسمورة.

وكانت منطقة غربي الثغر الأعلى، المتاخمة لأراضي مملكة أشتوريس من الشرق، تحت حكم أسرة بني قسي بقيادة محمد بن لب، الذي تحالف يوماً مع ألفونسو الثالث بفعل خلافه مع حكومة قرطبة، إلا أنه فضَّ تحالفه مع الملك النصراني في عام (٢٧١ هـ/ ٨٨٤ م)، بعد أن تفاهم مع قرطبة، وعاداه، كما اجتهد في تعزيز مناطقه الحدودية مع مملكة أشتوريس وإمارة نبرَّة، فبنى بعض الحصون المشرفة على أراضيهما، لعل أهمها حصن ناجرة، واتخذه قاعدة حماية وانطلاق في حال الحرب مع مملكة أشتوريس، ثم راح يستنفر المسلمين في الأندلس للجهاد، فتوافد عليه الكثير من المتطوعين من كل ناحية «فتُجمل آثاره في جهاد الطاغية»[1].

---

(١) ابن حيان: قسم ٣ ص ١٠٥، ١٠٦. العذري: ص ٣٦. ابن عذارى: جـ ٢ ص ١١٥.

ابتدأت العمليات العسكرية في عام (٢٧٣ هـ/ ٨٨٦ م)، عندما قاد محمد بن لب جموع المسلمين التي انضوت تحت جناحه، إلى أراضي أشتوريس، فغزا ألبة والقلاع، وفتح «الله للمسلمين، وقتلوا المشركين قتلاً ذريعاً»، وكرَّر غزوه في عام (٢٧٨ هـ/ ٨٩١ م) في أوائل عهد عبد الله(١).

كان ألفونسو الثالث يراقب، عن كثب، أوضاع الثغر الأعلى، ونشاط محمد بن لب. وفور سماعه بنبأ اغتياله أمام سرقسطة في عام (٢٨٥ هـ/ ٨٩٨ م) وغياب ابنه لب في مهمة داخل الأندلس؛ حشد جيشاً وزحف به إلى تطيلة، وعزم على اقتحام مدينة طرسونة، غير أن لب بن محمد أسرع إلى سرقسطة، وواصل حصاره لها، كما تصدّى له أمام طرسونة وأجبره على الارتداد، وكبَّده نحو ستة آلاف قتيل، كما استباح سرادقه(٢).

كانت الخسارة التي تعرَّض لها الملك الأشتوريسي كافية لردعه عن التهام الأجزاء الغربية من الثغر الأعلى، بحيث أننا لم نشهد له في الأعوام اللاحقة أية تحركات عسكرية ضد هذا الثغر، وشجَّعت لب بن محمد على مواصلة الكفاح، فغزا في عام (٢٩١ هـ/ ٩٠٤ م) منطقة ألبة، وهاجم حصن بايش وفتحه، الأمر الذي أقلق ألفونسو الثالث، وانتابه الذعر، فتجنَّب الالتحام معه في حرب مكشوفة(٣).

وشرع ألفونسو الثالث في توطيد الحدود الجنوبية لدولته الملاصقة لأراضي الأندلس، مستغلاً تضعضع الأحوال الداخلية في الإمارة الأموية. فبالإضافة إلى غاراته التي كان يشنها على المناطق الغربية للأندلس، ومساعدته للثائرين فيها، فإنه عمد إلى تقوية دفاعات المدن والقلاع الواقعة على نهر دويرة في قطاعه الغربي، فضلاً عن تلك الواقعة على امتداد الحوض الشمالي للنهر وشحنها بالمرابطة. وتمادى في إعمار الأراضي الشرقية لاحتواء أكبر مساحة ممكنة والتمدد باتجاه منابع النهر، ولعل أشهر القلاع التي بناها في هذه المنطقة هي قلعة سمورة على الضفة الشمالية لنهر دويرة، وذلك في عام (٢٨٠ هـ/ ٨٩٣ م)، كما بنى في عام (٢٨٦ هـ/ ٨٩٩) قلعة شنت منكش إلى الشرق من سمورة، وأنشأ قلعة بورو جنباً إلى جنب مع قلعة سمورة بهدف تأمين حوض نهر دويرة(٤)، فغدت كل أودية المنطقة مسوَّمة

---

(١) ابن حيان: قسم ٣ ص ١٠٥، ١٠٦. العذري: ص ٣٦. ابن عذاري: جـ ٢ ص ١١٥.

(٢) العذري: ص ٣٧. ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٣٩. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٣٤.

(٣) ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٤١.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٢٤.

بالقلاع الجديدة، ثم حثَّ النصارى على التوطن في المدن المنشأة، فانساب الكثير من مواطني دولته للسكن فيها، كما قصدها العديد من المستعربين للهدف نفسه، فاتسعت بذلك دولته اتساعاً كبيراً لم تصل إليه من قبل، وغدت مدينة سمورة من أشدِّ المراكز النصرانية خطراً على المسلمين، تنطلق منها السرايا للتعدِّي عليهم، الأمر الذي أثَّر بشكل إيجابي في تدعيم قوة أشتوريس السياسية والاقتصادية والعسكرية بحيث تجاوزت بها مرحلة الخطر على نفسها من مسلمي الأندلس، ولم تعد بحاجة إلى القيام بحملات بعيدة المدى في قلب الأندلس.

أثارت هذه التطورات مشاعر المسلمين في الثغرين الأدنى والأوسط الذين شعروا بالخطر يداهمهم نتيجة التمدد النصراني الذي اقترب من حدودهم، إلى درجة أن عدداً من سكان تلك الثغور هجروا مساكنهم هناك تحت الضغط السكاني النصراني، وهاجروا جنوباً[(١)]، وطلبوا مساعدة من قرطبة، لكن عبد الله كان في موقف ضعيف، فاعتذر بانشغاله في محاربة المنشقين والمخالفين عليه في داخل الأندلس.

لم يجد سكان الثغرين، بعد إحجام السلطة المركزية عن مساعدتهم، بداً من أن يعتمدوا على قوتهم الذاتية وإمكاناتهم المحدودة للتصدي لأشتوريس، فأغاروا على أراضيها بهدف إعاقتها عن إتمام تحصيناتها وقلاعها الجديدة على شاطىء نهر دويرة، لكنهم كانوا يواجهون، في كل مرة، عدواً شديد المراس، يحميها ويمنع أطرافها[(٢)].

كان على ألفونسو الثالث أن يردَّ على هذه الغارات ليحمي مشروعاته التعميرية والتحصينية، وليعاقب سكان الثغرين الأدنى والأوسط على جرأتهم. فجرَّد عليهم عدة حملات عسكرية، تخريبية وانتقامية من دون أن يتحرك عبد الله لإنقاذهم. وإذ أضحوا على استعداد لمحالفة أي داعٍ للجهاد، فقد وجدوا في دعوة أحمد بن معاوية، وهو أحد أشراف بني أمية، والمعروف بابن القط، خير منقذ لهم مما هم فيه.

والواقع أن أعمال ألفونسو الثالث أثارت أيضاً العلماء والزهاد والمتصوفة في الأندلس، فتوافدوا على تلك الأقاليم التي تعج بالبربر، في محاولة لنشر معتقداتهم بين تلك الجماعات الإسلامية التي سرعان ما تُذعن، في الوقت الذي أضحت الأرجاء المختلفة للعالم الإسلامي تشهد تفجراً للنزعة الروحية، والمعروف أن البربر كانوا من

---

(١) ابن حزم: ص ٥٠١.

(٢) ابن حيان: قسم ٣ ص ١٣٤.

أكثر الجماعات الإسلامية استعداداً لتلقِّي الوعظ والإرشاد، كما اشتهروا باحترامهم الشديد لعلماء الدين وبخاصة المتصوفة والأولياء منهم، وانضم إليهم صنف آخر لا يحظى بأي قدر من الثقافة، لكن دفعه حب الظهور في ثياب المصلحين الملهمين، فراح ينتقد العادات ويذمُّها، لكن سرعان ما تحوَّل إلى عدو للنظام.

تورَّط أحد هؤلاء الأشخاص في حادثة شديدة الغرابة جرت أحداثها على الحدود مع الممالك النصرانية، يدعى أبو علي السراج، وأدى نجاحه في الدعوة إلى الجهاد إلى فتح الطريق أمامه للتوغل في أعماق نفوس الأندلسيين بعامة والبربر بخاصة، فادَّعى المهدية، والتفَّ حوله نحو ستين ألفاً، ثم اتصل بابن القط وأقنعه بقيادة تلك الجموع لجهاد النصارى، فزحف شمالاً حتى وصل إلى الضفة الجنوبية لنهر دويرة، وعسكر هناك.

وفي أسلوب نادر في العلاقات السياسية ـ العسكرية بين المسلمين والنصارى بعد العهد الراشدي؛ كتب إلى ألفونسو الثالث بخاصة والنصارى في بلاده بعامة يدعوهم إلى الدخول في الإسلام، وينذرهم عاقبة رفضهم، وأمر مبعوثه إليهم أن يستعجل منهم الجواب[(١)].

تسلَّم ألفونسو الثالث الكتاب، وكان في سمورة، فلما قُرِىء عليه بحضور أركان حربه، وترجم لهم، غضبوا، ونهضوا من فورهم إليه وهم يتحرَّقون من الغيظ من جرأته التي لم يكن يتوقعونها، في الوقت الذي بلغت فيه دولتهم قدراً من القوة قد لا تضارعها قوة دولة المسلمين في الأندلس آنذاك، كما أن ألفونسو الثالث غدا في ذلك الحين من أشهر ملوك النصارى تعصباً لعقيدته النصرانية، الأمر الذي يفسر سَوْرة الغضب التي انتابته.

وعسكر ألفونسو الثالث على الضفة الشمالية لنهر دويرة تجاه معسكر المسلمين، وعبَّأ كل طرف قواته استعداداً للمعركة المرتقبة التي اندلعت عقب ذلك. كانت الانتصارات الأولى في صالح المسلمين، فحشروا القوات النصرانية في وادٍ وعرٍ ضيقِ المسلك بالقرب من سمورة، وعرَّضوهم للقتل والأسر. واضطر هؤلاء، تحت ضغط القتال، إلى التراجع باتجاه الشمال مسافة عشرة أميال، وحاصرت القوات الإسلامية سمورة[(٢)].

---

(١) ابن حيان: قسم ٣ ص ١٣٦. ابن الأبار: جـ ٢ ص ٣٦٩.

(٢) ابن حيان: المصدر نفسه.

وهكذا أثبت ابن القط أن جذوة الجهاد ما زالت تتأجَّج في قلوب مسلمي الأندلس على الرغم مما يشوب بلادهم من تشرذم، غير أن انتصار المسلمين كان مؤقتاً ومرحلياً، فقد انقلب قادة البربر على ابن القط، بفعل تصرفاته السيئة معهم، وتواطأوا فيما بينهم على الغدر به خشية من أن ينافسهم على زعامة البربر إذا ما تمَّ له النصر النهائي، فقرَّروا الانسحاب من ميدان المعركة، وأشاعوا، لتغطية انسحابهم، أن الهزيمة حلَّت بالمسلمين، وأن العدو يطاردهم، فانفض عن ابن القط من كان معه باستثناء نفر يسير من خاصته، فتحرَّج موقفه[(١)].

كان ألفونسو الثالث يراقب تطور الأحداث، ولما وقف على أوضاع ابن القط السلبية، اغتنم الفرصة، وكرَّ على القوات الإسلامية وهزمها، وبقي في المنطقة عدة أيام يطارد فلولها حتى أفناهم، وقُتل ابن القط في غمرة الاشتباكات، واحتزَّ رأسه، وجيء به إلى ألفونسو الثالث، فنصبه على باب سمورة، وذلك في (٢٠ رجب ٢٨٨ هـ/ ١٠ تموز ٩٠١ م)[(٢)].

وهكذا تحطَّمت حركة ابن القط أمام أبواب سمورة، وأُبيد من تبعه من المسلمين، وسقط هو ضحية مؤامرة ماكرة وتدبير خبيث قام به عدد من الزعماء الذين أعمى الحقد أبصارهم، فحرصوا على حماية مكتسباتهم ومصالحهم الذاتية. ولما كان هذا المتصوف قد اتخذ من الحماس الديني والارتجال طريقاً للوصول إلى غايته، فإن مدة وجوده بين أتباعه، لم تتح لهم تشرُّبِ أفكاره. ولم تشر المصادر إلى أن أحداً من المقرَّبين إليه قد خلفه، ولذا فإن حركته، التي جعل أساسها الجهاد ضد النصارى، خمدت بعد استشهاده، ولم يفكر مسلمو الأندلس، لا على المستوى الرسمي ولا على المستوى الشعبي، في تجديد غزواتهم ضد مملكة أشتوريس، فتوقف نشاطهم العسكري، وبخاصة أن أوضاع الأندلس الداخلية ظلَّت على اضطرابها حتى وفاة عبد الله، في حين انتقل زمام السيطرة من جديد، في ثغور الأندلس الشمالية ـ الغربية، إلى أيدي النصارى، وعاد تسلطهم يُثقل كواهل المسلمين هناك بشكل أعنف. لكن ألفونسو الثالث قنع بما حقَّقه من انتصار على المسلمين، فالتفت إلى تنظيم شؤونه الداخلية فيما بقي من عهده بحيث كانت معركة سمورة آخر ما وقع من اشتباك بين المسلمين في الأندلس ومملكة أشتوريس،

(١) ابن حيان: قسم ٣ ص ١٣٦.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٣٦، ١٣٧. ابن الأبار: جـ ٢ ص ٣٦٩، ٣٧٠.

وكانت الأيام الأخيرة لألفونسو الثالث حالكة. فقد ثار عليه أبناؤه الثلاثة غرسية وأردونيو وفرويلة، فخلعوه عن العرش وفرضوا عليه الإقامة الجبرية، وتنازل عن الملك لابنه الأكبر غرسية. ولم يلبث العاهل الأشتوريسي أن توفي في (٥ جمادى الأولى ٢٩٧ هـ/ ٢٠ كانون الثاني ٩١٠ م)، فاقتسم أولاده الثلاثة أملاكه. فكان إقليم ليون من نصيب ابنه الأكبر غرسية، وحكم أردونيو إقليم جليقية، وكانت مملكة أشتوريس من نصيب فرويلة. واستقل هؤلاء بما تحت أيديهم، وتلقَّبوا بألقاب الملوك، فتفكَّكت بذلك مملكة أشتوريس كقوة إسبانية نصرانية موحَّدة، وحلَّت محلها عدة ممالك بأسماء جديدة تصارعت فيما بينها مدة من الزمن، فأضعفت نفسها أمام مسلمي الأندلس.

العلاقة مع إمارة نبرَّة: نشأت إمارة نبرَّة، أو ناڤار، في بلاد البشكنس الواقعة في جنوب غربي جبال البرينيه وعاصمتها مدينة بنبلونة. وتوضَّحَ ظهورها كقوة سياسية ذات كيان مستقل، في أوائل القرن الثالث الهجري عندما تقلَّد الزعامة فيها غرسية بن ونقة بن شانجة، وكانت قبل ذلك تسير في فلك ملوك جليقية أو أباطرة الفرنجة. واتسمت علاقتها بالإمارة الأموية قبل عهد عبد الله، بالعداء، وبخاصة أنه كانت ترتبط إما بالمصاهرة أو بالحلف مع الزعماء المسلمين في الثغر الأعلى الذين كانوا في معظم الأوقات ثائرين على السلطة الأموية، كما سعت للتعاون مع جارتها مملكة أشتوريس ضد الدولة الأموية، لذلك جرَّدت عليها هذه الدولة حملات عسكرية لحربها.

أما فيما يتعلق بالعلاقة بين المسلمين في الأندلس وإمارة نبرَّة، خلال الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، فإننا نلاحظ بأن عبد الله كان مرتبطاً برباط المصاهرة مع الحاكم الناڤاري فرتون بن غرسية، فقد تزوج ابنته ونقة التي تنعتها المصادر الإسلامية باسم «در»[1]. وإذا كانت للمصاهرات من أثر في سير العلاقات بين الدول، فإن علاقة عبد الله بفرتون، الذي استمر في الحكم حتى عام (٢٩٣ هـ/ ٩٠٥ م)، كانت جيدة، بدليل أن المصادر لا تورد أي أخبار بشأن إرسال حملات عسكرية ضده، ولكن ذلك لا يدل من جهة أخرى على أن الجبهة الإسلامية المواجهة لإمارة نبرَّة كانت مستقرة، إذ لم يكن محمد بن لب حاكم الثغر الأعلى على وفاق مع هذه الإمارة التي تجاور أملاكه من الشمال، والتي حاولت التمدد على حسابه في وادي

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٥١.

الإبرو، لذلك، رحَّب النافاريون بدعوة ألفونسو الثالث لتقويض سلطان بني قسي، لكن لب بن محمد الذي خلف أباه هزمه أمام طرسونة كما ذكرنا.

وتبدَّلَت الأوضاع في نبرَّة في عام (٢٩٣ هـ/ ٩٠٦ م) حين عُزل فرتون بن غرسية، وتولَّى شانجة غرسية الأول شؤون الحكم، فقام هذا الملك بمحاربة بني قسي منذ الأيام الأولى لاعتلائه العرش، واشتبك مع لب بن محمد أكثر من مرة، الأمر الذي دفع هذا الأخير، وقد شعر بالخطر، إلى تحصين مناطقه الحدودية، وغزو هذه الإمارة، غير أنه تعرَّض للهزيمة في عام (٢٩٤ هـ/ ٩٠٧ م) وجُرح في المعركة وتوفي بعد ذلك من أثر الجرح[١]. ولجأ أخوه عبد الله بن محمد، الذي خلفه في السلطة، إلى التعاون مع جاره ومنافسه في الثغر الأعلى، المولَّدي محمد بن عبد الملك الطويل، للاقتصاص من نصارى نبرَّة، واتفق الطرفان، في عام (٢٩٨ هـ/ ٩١١م)، على خطة عسكرية تقضي بأن يدخل محمد بن عبد الملك أراضي نبرَّة من الشرق في حين يدخل عبد الله بن محمد من الجنوب، على أن يلتقيا في العاصمة بنبلونة، غير أن الحملة فشلت في تحقيق أهدافها بسبب تخاذل الأول، وعودته إلى بلاده، ويبدو أنه جبن عن لقاء الملك النافاري، واضطر عبد الله بن محمد القسوي للعودة هو الآخر، وصرف نظره عن مهاجمة أراضي الإمارة النافارية[٢]، وأضحت هذه الإمارة في نهاية القرن الثالث الهجري خطراً يهدد بني قسي الذين أضحوا عاجزين وحدهم على التصدي لها، على الرغم من أن عبد الله بن محمد القسوي هزم شانجة غرسية الأول في صيف (٢٩٨ هـ/ ٩١١ م).

العلاقة مع الثغر القوطي: غدا الثغر القوطي ـ سبتمانية القديمة ـ، منذ عام (٢٥١ هـ/ ٨٦٥ م)، إدارة خاصة، ويرتبط بالامبراطورية الكارولنجية برباط هش، ولعل ذلك هو الذي شجَّع حكامه على الاستقلال عنها حين ضعف أباطرتها. ففي عام (٢٥٩ هـ/ ٨٧٣ م) استقلَّ ويفريدو بما تحت يده من مدن مثل جيرندة وسردانية ـ شرطانية ـ، وبليارتس وغيرها، ثم ما لبث أن أضحى حاكماً على برشلونة قاعدة الثغر في عام (٢٦١ هـ/ ٨٧٥ م)، بعد أن حرَّرها من الوصاية الكارولنجية. لكن الاستقلال التام لجميع مقاطعات الثغر القوطي عن الامبراطورية الكارولنجية إنما حدث في عام (٢٧٥ هـ/ ٨٨٨ م)، وقد خضعت لويفريدو باستثناء منطقة أمبوريش الواقعة على شاطىء البحر إلى الشمال من برشلونة حيث حكمها سنيير الثاني.

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٤٣.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٤٨.

اتسمت العلاقة بين الإمارة الأموية في قرطبة وبين الثغر القوطي بالعداء بشكل عام، وهي انعكاس للعلاقة العدائية بين الأمويين والفرنجة، وتحمَّل بنو قسي، حكام الثغر الأعلى، المجاورين، عبء المواجهة، وتبادل الطرفان الكر والفر على مدى أعوام كانت سجالاً قبل أن يركنا إلى الهدوء لأن الهدف آنذاك لم يكن انتزاع الأراضي، فربما كان ذلك غير ممكن.

إعادة فتح الجزائر الشرقية: ظلت الجزائر الشرقية تخضع سياسياً للإمارة الأموية منذ عهد عبد الرحمن الثاني، على الرغم من استقلالها الذاتي وتبعيتها لأبرشية جيرندة القطلونية من الناحية الكنسية، وقامت علاقة سكانها مع المسلمين في الأندلس في عهد عبد الله على التعامل الحسن بموجب العهد الموقع بين الجانبين، واستقرت جماعات إسلامية فيها منذ وقت بعيد، كما كان البحارة الأندلسيون يأوون إليها خلال تنقلاتهم البحرية، ويمكثون فيها الأيام الطوال.

لكن حدث أن نقض سكان الجزر العهد، وظهرت بينهم بوادر الثورة على الحكم الأموي، بتشجيع من حكام قطلونية، ولذا قدم أحد البحارة الأندلسيين، ويدعى عصام الخولاني، إلى قرطبة، وأخبر عبد الله بما رأى من بوادر عصيان سكان ميورقة، كبرى جزر البليار، وأقنعه بجدوى القيام بفتحها، وعندئذٍ «بعث معه القطائع في البحر، ونفَّر الناس معه إلى الجهاد»، فحاصرها أياماً وفتحها حصناً حصناً إلى أن اكتمل فتحها في عام (٢٩٠ هـ/ ٩٠٣ م)، وحكمها باسم الأمير عبد الله، وأنشأ فيها نظاماً إسلامياً، وبنى فيها المساجد والفنادق والحمامات، وعندما توفي، بعد عشرة أعوام، حكمها ابنه عبد الله[1]، واستقر الحكم الإسلامي في جزر البليار عدة قرون تالية.

نزول المسلمين في بروڤانس: نشط المجاهدون الأندلسيون، منذ أواخر القرن الثاني الهجري، فكثَّفوا غاراتهم عبر البحر ضد أراضي الامبراطورية الكارولنجية. وتطورت هذه الغارات في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري نحو الاستقرار في جهات فرنسا الجنوبية. ففي عام (٢٧٦ هـ/ ٨٨٩ م) رست سفينة إسلامية في خليج سان تروبيه على شاطىء بروڤانس، فالتجأ بحارتها إلى غابة كثيفة حول هذا الخليج، وانطلقوا منها للإغارة على القرى المجاورة، وأرسلوا إلى الأندلس وإلى شمالي إفريقيا يستحثون المسلمين على إمدادهم بالمساعدة، فتوافد عليهم الكثيرون، وبنوا

(١) ابن خلدون: جـ ٤ ص ٢١٠، ٢١١.

حصن فراكسنتم على جبل المور، أو جبل المسلمين، في مكان على الطريق الذي يصل إلى الخليج، واستقروا فيه. وبهذا كان البحر مفتوحاً أمامهم لاستقبال الإمدادات، كما كان البر منفذاً لهم للقيام بغارات، والتوسع في عمق الأراضي الفرنسية.

ولعل ما شجَّع المسلمين على غزو إقليم بروڤانس والاستقرار في جنوبي فرنسا:

ـ أن البحرية الأندلسية قد ارتقت إلى مستوى متقدم خلال عهد عبد الله، ونشط البحارة المسلمون في جنوبي البحر الأبيض المتوسط، وأسسوا مراسي لهم في سواحله الأندلسية.

ـ نزعة الجهاد لدى المسلمين بعامة.

ـ الأوضاع السياسية المضطربة التي كانت تمر بها فرنسا بعامة على أثر انتقال السلطة من الأسرة الكارولنجية إلى أسرة كابييه في عام (٢٧٤ هـ/ ٨٨٧ م)، وإقليم بروڤانس بخاصة.

وتخطَّى المسلمون إقليم بروڤانس في أواخر القرن الثالث الهجري وتقدموا شمالاً في عمق الأراضي الفرنسية، فاخترقوا في عام (٢٩٤ هـ/ ٩٠٧ م) منطقة دوفنيه، ثم عبروا ممر مون سنى، أهم ممرات الألب الفرنسية، فسيطروا على دير نوڤاليس الواقع في الأراضي السويسرية، وأغاروا على القرى والضياع المجاورة، ووصلوا في تقدمهم إلى منطقة مونتفرات في غربي إيطاليا، وغزوا مدينة أكي، وتمدَّدوا حتى حدود منطقة ليجوريا على شاطىء جنوة، وهاجموا في عام (٢٩٦ هـ/ ٩٠٩ م) سواحل لانجدوك ـ سبتمانية ـ، الواقعة إلى الغرب من بروڤانس، واجتاحوا ضواحي إيغمورت. وأضحى نفوذ المسلمين، بنهاية القرن الثالث الهجري، يمتد من لانجدوك غرباً، إلى مشارف الأراضي السويسرية شمالاً، ثم إلى الأطراف الغربية من إيطاليا شرقاً، فتحكَّموا بذلك في معظم ممرات جبال الألب، وسيطروا على طرق المواصلات بين فرنسا وإيطاليا.

البـاب الثالـث

عهد الخلافة الأموية

٣١٦ ـ ٤٢٢ هـ/٩٢٩ ـ ١٠٣١ م

الفصل العاشر : عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله ـ عبد الرحمن الثالث.

الفصل الحادي عشر : الحكم المستنصر ـ هشام المؤيد: المرة الأولى

الفصل الثاني عشر : سقوط الخلافة الأموية وزوالها.

الفصل العاشر

عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله

عبد الرحمن الثالث

(٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ/٩١٢ ـ ٩٦١ م)

الأوضاع الداخلية في عهد عبد الرحمن الناصر

ظروف تولي عبد الرحمن الناصر الحكم: عبد الرحمن الناصر بن محمد هو الشخصية الأكثر جاذبية وتألقاً في تاريخ الأندلس، لا يختلف في ذلك عن جده الأعلى عبد الرحمن الأول، الداخل، مؤسس الإمارة الأموية. نشأ يتيماً في كفالة جده الأمير عبد الله، محاطاً بالرعاية والاهتمام الزائدين. والمعروف أنه كانت هناك منافسة بين ولدي عبد الله، محمد والمطرِّف، بشأن ولاية العهد، وأن الأول كان أوفر حظاً بالإمارة بعد والده، الأمر الذي أقلق أخاه المطرف فألصق بأخيه تهمة التآمر ضد والده، وجرت تصفيته بموافقة الأب. ويبدو أن العاهل الأموي شعر بالتورط بما أقدم عليه، وأرَّقه أن يشارك في مؤامرة تستهدف ابنه المفضَّل بغض النظر عن التهمة الملتصقة به، ما دفعه إلى ارتكاب جريمة أخرى بحق ابنه الآخر المطرف، لكنه وجد عزاءً في حفيده عبد الرحمن بن محمد، الفتى اليافع، فمنحه كل رعايته وحنانه، لا سيما بعد أن اكتشف فيه ملامح الذكاء والنجابة وقوة الشخصية، فتوسم فيه الرجل المناسب للحالة العصيبة التي تمر بها دولته، فاختاره ولياً لعهده.

جمع عبد الرحمن الناصر كل خصال الرجل المثقف، مهذباً، رحيماً، كريماً، فطناً، حظي بخصلتين ميَّزتاه من غيره: الذكاء الفطري والإصرار على تجربة كل شيء، يضاف إليها حبه للاستطلاع وسعة الأفق، الأمر الذي ضمن له التحلل من المفاهيم الضيقة التي اتصفت بها الشخصيات المحيطة به، وفاق أقرانه في التسامح،

وهو ما شعر به من عاش في كنفه من النصارى واليهود، كما تفوَّق عليهم في العلوم والآداب والفروسية والسياسة التي تدرَّب عليها عملياً في قصر جده الذي كان يكلفه بالجلوس نيابة عنه في الاحتفالات والأعياد، وعُدَّ في نظر الجميع مؤهلاً، أكثر من غيره، ليتولى قيادة الدولة بعد جده الأمير عبد الله[1].

كانت الإمارة الأموية تمر آنذاك في وضع صعب عجزت معه عن ردع الثائرين والمغيرين الذين وصلوا إلى أطراف العاصمة، بعد أن تجاذبتها الأعاصير من كل جهة، وتفاقم أمر التحدي الداخلي للسلطة، الأمر الذي أعطى التحديات الخارجية فرصاً سهلة لتحقيق ما كانت تهدف إليه من التوسع على حساب المسلمين في الأندلس.

والواقع أن الظروف العصيبة التي عاشت في ظلها الإمارة الأموية جعلت الطامعين يعزفون عن التمسك بأهداب الحكم، ويساندون أية شخصية يتوسمون فيها الصفات التي تعيد إليها مكانتها السابقة داخلياً وخارجياً، فكان عبد الرحمن الثالث أقرب الشخصيات إلى تلك المواصفات.

وهكذا نُفِّذت إرادة الجد من دون معارضة الأعمام وبقية أفراد العائلة، وتمَّت بيعة عبد الرحمن الثالث في قرطبة في اليوم نفسه الذي توفي فيه جده، يوم الخميس في (مستهل ربيع الأول ٣٠٠ هـ/ ١٦ تشرين الأول ٩١٢ م)، وأُرسلت الرسل لأخذ البيعة من ولاة الأقاليم، وكانت ضرورية آنذاك، وإن كانت طبيعية وواجبة في الظروف العادية، لمعرفة الموالين للنظام من المعارضين له[2].

خطة عبد الرحمن الناصر لإنقاذ البلاد: اضطلع عبد الرحمن الناصر، منذ اليوم الأول الذي تولى فيه الحكم، بالمهمة التي تنتظره بكل ما لديه من الجديَّة، ورأى أن التردُّد والرفق اللذين اتبعهما أجداده نحو الثائرين، كانت سياسة خطرة ولم تكن ناجحة، وأنه لا بد لاستتباب الأمن، من سحق الثورات والقضاء على زعمائها، لذلك وضع بدون إبطاء البرنامج الذي قرَّر اتباعه وأعلنه من خلال منشور عام، ووجهه إلى الثائرين والخارجين على السلطة، ويستند على مبدئين:

ـ التأكيد على التسامح وإسقاط كافة الجرائم التي اقترفت بحق الدولة، وإعادة كافة الحقوق المشروعة في حال إعلان الولاء للسلطة المركزية.

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٥٧. ابن الخطيب: أعمال الأعلام جـ ٢ ص ٣٠.

(٢) المصدران نفساهما: ص ١٥٦ـ ١٥٨. ص ٣١.

ـ الوعيد والإنذار باجتثاث معاقل الثائرين والعابثين بأمن البلاد والمتحالفين مع القوى الأجنبية ضد الدولة.

وأرفق ذلك بخطوة عملية، فأرسل ممثلين عنه إلى الأقاليم الثائرة للتحاور مع الزعماء المتمردين وإعادتهم إلى دائرة السلطة المركزية.

إعادة الوحدة السياسية للأندلس

الحملات الأولى ضد الثائرين: انتظر عبد الرحمن الناصر بعض الوقت ليرى رد الفعل على بيانه قبل أن يقوم بأي نشاط عسكري، فلقي استجابة من بعض الثائرين، ثم توالت الاعترافات بحكمه لتفتح له آفاقاً بأقل قدر من المجابهة. غير أن فريقاً، وهو الأكثر خطورة، ظلَّ متجاهلاً نداءه، وممتنعاً عن التعاطف معه، الأمر الذي دفعه إلى تجريد حملات عسكرية لسحقه، وأعني به عمر بن حفصون وحلفاءه.

اتبع عبد الرحمن الناصر خطة ذكية لعزل عمر بن حفصون وتجريده من حلفائه، فهاجم هؤلاء أولاً في معاقلهم في جيان وإلبيرة وأخضعهم، فاستعاد حصن المنتلون من سعيد بن هذيل الذي اضطر إلى الاستسلام مقابل الأمان، كما استعاد حصن شمنتان من يد عبيد الله بن الشالية الذي استسلم من دون مقاومة وسلَّم جميع معاقله وحصونه المائة، وحذا حذوه الزعيم العربي ابن عطّاف، إضافة إلى الزعماء الصغار الذين يسيطرون على أعالي وادي النهر المعروف باسم وادي نهر عبد الله. وتَمَّ تطهير العديد من الحصون التي كانت تدين بالولاء لعمر بن حفصون، مثل قاشترة وشنترة وأقليش، وبذلك يكون العاهل الأموي قد سيطر على إقليم جيان[(١)].

التفت عبد الرحمن الناصر، بعد ذلك، إلى إقليم إلبيرة لتطهيره من فلول عمر بن حفصون وأنصاره، ولم يلقَ صعاباً في اقتحام حصونه وبخاصة في وادي آش مثل حصن شبليش. وتسلَّل عمر بن حفصون هارباً إلى قلعة ببشتر وقد أخذته المفاجأة من هذا الانتشار الأموي السريع الذي جاء لغير مصلحته، فرأى أنه لا بد من إعادة النظر بموقفه السياسي بعد أن بدأ ميزان القوى يميل لصالح السلطة المركزية[(٢)].

توجَّه العاهل الأموي بعد ذلك إلى الساحل، وهبط صوب الجنوب الشرقي في طريقه إلى قرطبة، وحاول فتح حصني شنت أشتبين وبينيافوراتا، ووصل إلى العاصمة في (١٠ ذي الحجة ٣٠٠ هـ/ ١٧ تموز ٩١٣ م) بعد غياب دام ثلاثة أشهر، وعُرفت

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٦٠، ١٦١. بروفنسال: ص ٣٢٦.

(٢) ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٦٢.

حملته هذه باسم حملة المنتلون، نتج عنها تحرير أكثر من سبعين حصناً من أهم الحصون، سوى ما يلحق بها من الأماكن والأبراج والقصبات ويقارب عددها الثلاثمائة.

وإذا كانت هذه العمليات العسكرية التي تمَّت، قد نجحت في تطويع الأقاليم والحصون الثائرة، فإن قلعة ببشتر ظَلَّت بمنأى عن السقوط على الرغم من الهزيمة القاسية التي تلقَّاها عمر بن حفصون بسقوط حلفائه أو الذين يدورون في فلكه، ويدينون له بالطاعة والولاء، لذلك لم تكن هذه الحملة إلا بداية الصراع المرير مع هذا الثائر، ومع من تبقَّى من العناصر التي كانت تستغل الظروف السياسية للموالاة والموادعة تارة، والعصيان والتمرد تارة أخرى.

الصدامات العسكرية حتى وفاة عمر بن حفصون: كان المدخل إلى تحقيق الوحدة السياسية للأندلس هو القضاء على عمر بن حفصون، عميد الثائرين، الذي ما زال يسيطر على مناطق واسعة من البلاد تمتد ما بين كورة ريَّة والجزيرة الخضراء من جهة، وإلبيرة وضواحي قرطبة من جهة أخرى. وأدرك عبد الرحمن الناصر أن الاستمرار في سياسة عزله عن الثائرين الآخرين من خلال ضربهم، لا تزال ملحة، فهم يرتبطون به بشكل أو بآخر، لذلك وجَّه حملاته في عام (٣٠١ هـ/ ٩١٤ م) إلى مناطق بعيدة عن ببشتر، فضربهم في طرَّش، وطهَّر الجزيرة الخضراء وضواحيها من فلولهم، وكذلك شذونة ومورور وقرمونة، وأعادها إلى حظيرة الدولة[1]. واستمرت العمليات العسكرية في اتجاهات مختلفة تلاحق الثائرين وتضيِّق عليهم، وهم عاجزون عن الرد والاحتفاظ بما تحت أيديهم من إقطاعات، حتى بدأ اليأس يدب في نفوسهم.

وشعر عمر بن حفصون بأبعاد هذه السياسة التي باتت تهدِّد مركزه بوصفه عميداً للثائرين على اختلاف انتماءاتهم. وكانت الشدة الاقتصادية التي ضربت البلاد في عام (٣٠٢ هـ/ ٩١٤، ٩١٥ م) قد أثَّرت على أوضاعه الاقتصادية والعسكرية، كما أصابه المرض، فتراجع خطره، ثم بدأ يفقد مكانته تباعاً، ولم يعد يهتم إلا بالنجاة بنفسه، فأعلن عندئذٍ استسلامه وولاءه للسلطة المركزية مقابل الاعتراف به حاكماً على ما يملكه من حصون، وذلك في عام (٣٠٣ هـ/ ٩١٥ م)، واعتزل في كنيسة ببشتر، وظل ملتزماً بما تعهد به حتى وفاته في (ربيع الأول ٣٠٥ هـ/ أيلول ٩١٧ م)[2]، وكانت تلك بداية النهاية لأخطر ثورة شهدتها الأندلس الأموية.

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٦٤.

(٢) المصدر نفسه: جـ ٢ ص ١٧١.

الصدامات مع خلفاء عمر بن حفصون ونهاية التمرد: ترك عمر بن حفصون عند وفاته أربعة أولاد، هم: جعفر وسليمان وعبد الرحمن وحفص، وابنة تدعى أرخنتا، ارتدَّ أكبرهم، وهو جعفر، إلى النصرانية، وكذلك فعلت أخته: اقتسم ثلاثة من الإخوة إرث والدهم، فكانت ببشتر من نصيب جعفر الذي ورث أيضاً ميول والده المعادية للأمويين، واستقر سليمان في أبدة وحصن أشتبين، وحكم عبد الرحمن حصن طرَّش[1]، ولم تذكر روايات المصادر أن حفصاً نال نصيباً من التركة.

أدرك عبد الرحمن الناصر أن الخلاف لن يلبث أن ينشب بين الإخوة بفعل طموح كل منهم بالاستئثار بالسلطان، وسوف يتخلَّص بعضهم من بعض، غير أنه لم يركن إلى الهدوء بانتظار حدوث ذلك، بل قرَّر مواصلة الحرب ضدهم وإطفاء جذوة الثورة، فهاجم أملاك جعفر وفتح مدينة بيلدة في إقليم مالقة بين أرشذونة وببشتر، وقلعة دوس أمانتس القريبة منها، ولم يجرؤ جعفر على التصدي له بفعل عجزه، واضطر إلى طلب هدنة، وقدَّم الرهائن دلالة على حسن نيته ووعد بتسديد الضرائب المتوجبة عليه.

وما لبث النزاع أن نشب بين الإخوة. فقد تعرَّض عبد الرحمن لمضايقة أخيه جعفر، فالتجأ إلى قرطبة وتنازل عن حصن طرَّش لعبد الرحمن الناصر. ولم تكن العلاقة بين جعفر وأخيه سليمان طيبة، ومن الواضح أن قرطبة أدَّت دوراً في توتيرها. وفي (١٣ جمادى الآخرة ٣٠٨ هـ/ ٣٠ تشرين الأول ٩٢٠ م) اغتيل جعفر في ببشتر على يد نفر من جنده النصارى فورثه أخوه سليمان، وأضحى حاكماً على ببشتر[2]، لكنه ما لبث أن اغتر بالسلطة واندفع مع تيار الثورة ليمارس دور والده في محاربة الأمويين، واستعاد حصن طرَّش. ولم يمهله العاهل الأموي طويلاً فاستعاد الحصن في عام (٣٠٩ هـ/ ٩٢١ م)[3]، وهاجم أملاكه على مدى أعوام، وحاصر ببشتر وضربها بالمجانيق، وضيَّق عليها حتى خارت قواها، وقُتل سليمان خلال الحصار في (أول ذي الحجة ٣١٤ هـ/ ٧ شباط ٩٢٧ م)، فخلفه أخوه حفص، لكنه لم يكن يملك القوة الضرورية للاستمرار في المقاومة، فاستسلم للعاهل الأموي، وسلَّمه المدينة في (ذي القعدة ٣١٥ هـ/ ١٧ كانون الثاني ٩٢٨ م)[4].

وقامت القوات الأموية باستعادة ما تبقَّى من حصون تابعة لبني حفصون، مثل

---

(١) ابن حيان: جـ ٥ ص ١٣٠.

(٢) ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٨٠.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٨٠، ١٨١.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٩٢، ١٩٣.

شنت بيطر وقمارش وجوطون. وحصَّن عبد الرحمن الناصر دفاعات ببشتر وأبعد العديد من المستعربين الذين ثبت أن لهم علاقة بالأنشطة المعادية للنظام الأموي[١].

لم يغفل عبد الرحمن الناصر، أثناء انهماكه بالقضاء على ثورة عمر بن حفصون وخلفائه، الثائرين الآخرين في أنحاء الأندلس، فأرسل قواته لتقاتلهم في أماكن تواجدهم وتستردها منهم، فاستعادت إشبيلية في عام (٣٠١ هـ/ ٩١٤ م) بعد أن قضت على إمارة بني حجاج فيها وانتزعت لورقة ومرسية القديمة في عام (٣٠٤ هـ/ ٩١٦ م) ولبلة وماردة وشنترين في الغرب، وحصن روي في كورة إلبيرة في عام (٣١٠ هـ/ ٩٢٢ م)، وقاتلت بني ذي النون في الثغر الأعلى ودخلت أقوى معاقلهم، شنتبرية في عام (٣١٤ هـ/ ٩٢٦ م)، وتوغلت في شرقي الأندلس، فهاجمت كورة تدمير، واستردَّت كثيراً من حصونه، وطهَّرت ماردة في عام (٣١٦ هـ/ ٩٢٨ م)، ودخلت شاطبة في العام التالي، وبلنسية وطليطلة، وسقطت مدينة باجُه في يدها في عام (٣١٧ هـ/ ٩٢٩ م)[٢].

استرداد بطليوس: ظلَّت بطليوس، خلال عهد الأمير عبد الله، بمنأى عن النشاط العسكري الأموي، واستمرت على ذلك ردحاً من الزمن أثناء حكم عبد الرحمن الناصر، وهي تنعم بالهدوء والاستقلال. وفي عام (٣١٧ هـ/ ٩٢٩ م) حان الوقت لضمها إلى الأملاك الأموية. فمنذ وفاة عبد الرحمن بن مروان الجليقي عانت الأسرة من التراجع الملموس في قدراتها العسكرية، وقد أدرك الناصر ذلك، فقاد في (٢٢ ربيع الآخر/ ٥ حزيران) حملة حاصرت المدينة، وكانت تحت حكم عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد الجليقي، وفصل قوة عسكرية قادها بنفسه، هاجمت باجُه في أقصى الغرب وأخضعت حاكمها الثائر عبد الرحمن بن سعيد بن مالك، كما أخضعت أكشونبة وشنتمرية الغرب وشلب، وكانت تحت حكم خلف، حفيد بكر ابن يحيى بن بكر، فتركه عبد الرحمن الناصر في منصبه كتابع له مقابل دفع الجزية والامتناع عن استقبال أو إيواء أحد من الثائرين. وعاد الناصر إلى قرطبة تاركاً جيشه على حصار بطليوس، وأدرك عبد الرحمن الجليقي، بعد عدة أشهر من الحصار، أن لا جدوى في الاستمرار بالمقاومة، فاستسلم وذهب مع أسرته إلى قرطبة، وذلك في عام (٣١٨ هـ/ ٩٣٠ م)[٣].

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٩٣، ١٩٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٦٢، ١٦٩، ١٨٢، ١٩١، ١٩٨، ٢٠٠.

(٣) المصدر نفسه ص ١٩٩ـ ٢٠٢.

استرداد طليطلة: والتفت عبد الرحمن الناصر إلى أكبر مدن الثغر الأوسط، طليطلة، لاستردادها من بني قسي وإقرار السلطة الأموية فيها نهائياً، فهاجمها في عام (٣٠٨ هـ/ ٩٢٠ م)، في الحملة المعروفة باسم حملة مويش. ويبدو أن حاكمها لب ابن طربيشة عجز عن المقاومة، فأذعن ظاهرياً ونوى الغدر، ولم تخلص المدينة للحكم الأموي. وظل الوضع على ذلك حتى توفي لب، وخلفه ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث، فجدَّد عبد الرحمن الناصر محاولاته لإخضاع المدينة. وبعد أن فشلت سياسته السلمية باستقطاب سكانها، أرسل جيشاً في عام (٣١٨ هـ/ ٩٣٠ م) وضرب الحصار عليها، وسيطر على المرتفعات المحيطة بها مما ضايق المحاصَرين، وبدت عليهم بوادر الإرهاق، إلا أنهم صمدوا مدة عامين أبدوا بعدها استعدادهم للإذعان. ودخل عبد الرحمن الناصر المدينة في (٢٥ رجب ٣٢٠ هـ/ ١ آب ٩٣٢ م)[١]، وبذلك عادت طليطلة إلى أحضان الدولة الأموية بعد ببشتر وبطليوس، كما عادت مناطق الثغر الأعلى، وانتهى الشريط الدموي الطويل الذي ترجم مأساة الأندلس في تلك المرحلة، وأرَّخ انتقالها من الفوضى والتفتُّت إلى فجر ساطع، وآمال جديدة بعد إعادة الوحدة السياسية إليها.

إحياء الخلافة الأموية في الأندلس

اتخذ عبد الرحمن الثالث، في (أواخر ٣١٦ هـ/ أوائل ٩٢٩ م)، أكبر وأخطر قرار له على مدى حياته السياسية، لم يتجرأ أسلافه على اتخاذه، وهو تلقيب نفسه بلقبين ساميين، الأول لقب الخليفة، والثاني لقب أمير المؤمنين، وأضاف إلى اسمه اللقب الشرفي: الناصر لدين الله، وأرسل إلى كافة الأقاليم يأمرهم بالدعاء له على المنابر باسم أمير المؤمنين الناصر لدين الله، وعهد إلى القاضي أحمد بن بقي، صاحب الصلاة بقرطبة، بأن تتضمن الخطبة، يوم الجمعة (٢ ذي الحجة/ ١٦ كانون الثاني) في المسجد الجامع، ذلك[٢]. واستمر هذا اللقب في عهده وعهد خلفائه من بعده حتى انقرضت دولة الأمويين في عام (٤٢٢ هـ/ ١٠٣١ م).

والواقع أن الإمارة الأموية في الأندلس، على الرغم من أنها استطاعت أن تنافس الدول الإسلامية الكبرى آنذاك، في مجال القوة والتقدم، فإن أمراءها لم يفكروا في

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٧٦، ١٧٩، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٦، ٢٠٧.

(٢) ابن الأبار: جـ ١ ص ١٩٨. ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٩٨.

الإقدام على منافسة الدولة العباسية في ألقاب الخلافة، لأنهم كانوا يرون أن الخلافة لمن يملك الحرمين، وهي تراث لأهل البيت، والواضح أنها سياسة حكيمة، تميز بها هؤلاء خشية من إثارة الفتنة والخلافات الدينية والمذهبية في العالم الإسلامي، غير أن التطور السياسي الذي حدث منذ بداية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وما رافق ذلك من تغيير في خارطة العالم الإسلامي، دفعت عبد الرحمن الثالث إلى اتخاذ ألقاب الخلافة، ويمكن ملاحظة التطورات التالية:

ـ استعادة الأندلس وحدتها السياسية بعد ستة عشر عاماً من الكفاح الصعب الذي انتهى بالقضاء على جميع الثائرين وعلى رأسهم بني حفصون، وأن لقب الأمير لم يعد من الألقاب التي تستوعب طموحات العاهل الأموي، وبخاصة بعد أن زالت حرمة هذا اللقب حين تلقَّب به معظم الخارجين على السلطة الأموية لينافسوا أمير قرطبة، الحاكم الفعلي والشرعي للأندلس، بحيث يتعذر على أي ثائر أن ينازعه داخل حدود إمارته من دون أن يعرِّض نفسه للعقاب.

ـ أدرك عبد الرحمن الثالث أن إمارته وصلت إلى مستوى من القوة يستطيع معه أن يعيد إحياء الخلافة الأموية المشرقية، إذ إن الورثة الشرعيين لها يتمثلون ببني مروان الذين نجحوا في نقل سلطانهم من دمشق إلى قرطبة وحافظوا عليه، ولم يكن العباسيون يوماً من هؤلاء الورثة الشرعيين، ولا أمراء المؤمنين المنشقين في إفريقيا المتمثلين بالفاطميين.

ـ ضعف الخلافة العباسية وانحدار سمعتها إلى الحضيض، بحيث تحوَّلت إلى مطية لأطماع القادة الأتراك المهيمنين على مصائر الخلفاء، والذين أضحوا أصحاب الكلمة النافذة في الدولة غير عابئين بالخلافة بوصفها لقباً له حرمته، ولا بالخليفة بوصفه صاحب سلطة دينية وزمنية، وجاء اغتيال الخليفة المقتدر، على يد قائده التركي مؤنس، ليضع الخلافة العباسية أمام منعطف خطير، ويُشجِّع على اتخاذ مواقف أكثر جرأة في مناهضتها والخروج عليها[1].

ـ لم يكن عبد الرحمن الثالث الحاكم المسلم الأول الذي قطع بهذه الطريقة الرباط الواهي الذي كان يربط أجزاء العالم الإسلامي بالخليفة العباسي في بغداد، وإن وحدة الأمة كانت قد تلاشت بشكل أكثر بروزاً منذ بويع عبيد الله المهدي الفاطمي بالإمامة وتلقب بأمير المؤمنين في عام (٢٩٧ هـ/ ٩١٠ م)، لينافس عدوه الرئيسي خليفة بغداد.

(١) بيضون: ص ٣٠٥، ٣٠٦.

وربما تكون هذه الحادثة أكثر إلحاحاً من تراجع نفوذ الخلافة العباسية في المشرق للإقدام على هذه الخطوة من جانب عبد الرحمن الثالث، بعد أن فَقَدَ احترامه النظري للخلافة الوهمية في بغداد، ولقرب شمالي إفريقيا من الأندلس.

ـ لقد لجأ الأمراء الأمويون، قبل عبد الرحمن الثالث، إلى تلقيب أنفسهم بأبناء الخلفاء بهدف تبرير أحقيتهم بالخلافة.

ـ إن لقب خليفة يُهيِّء للعاصمة قرطبة دوراً أكثر مركزية بحيث يمكنها القبض على أطراف الدولة قاطبة، ويتيح لها الوسائل العملية لقمع أي تحرك إنفصالي بالسرعة القصوى.

تعقيب على إحياء الخلافة الأموية في الأندلس

ـ لقد خرج عبد الرحمن الناصر بعمله هذا عن الأصل النظري للمذهب السُنِّي للخلافة، القائل بأن الخلافة كمؤسسة دينية ودنيوية لا يمكن أن تتجزَّأ حسب المفاهيم السائدة في ذلك الوقت، إلا أنه وضع هذا العمل في موضع الاجتهاد. وأجاز الفقهاء السُنَّة بتعدُّد الخلافة في حال وجود مصلحة عامة للمسلمين، واعترفوا بشرعية وجود إمامين يتوليان حكم المسلمين في وقت واحد، شرط أن تكون المسافة بينهما كبيرة حتى لا يحدث التصادم بينهما[(١)].

ـ بالمقارنة مع الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الفاطمية في القيروان، فإن نظام الخلافة في الأندلس يتوافق مع الخلافتين المذكورتين من حيث أنه يقوم على أساس الوراثة ويستند إلى السياسة ثم الدين، وهو نظام يختلف عن النظام الراشدي الذي يقوم على الشورى والانتخاب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه يختلف عنهما من حيث المفهوم «الديمقراطي». فالخلافة العباسية تقوم على أساس التفويض الإلهي، فقد خطب أبو جعفر المنصور يوم عرفة فقال: «... إنما أنا سلطان الله في أرضه..»[(٢)]، وتعود هذه النظرية بأصولها إلى الكسروية الفارسية في الحكم. أما النظرية الفاطمية في الحكم فتستند على عصمة الإمام، أما الخليفة الأموي فهو إنسان عادي قد يخطىء وقد يصيب، وهو معرَّض للنقد من قِبَل العامة.

ـ كانت النتيجة الأكثر أهمية لهذه البادرة التي قام بها عبد الرحمن الناصر، أن

---

(١) الفيلالي: ص ١٣٨.

(٢) ابن كثير، الحافظ: البداية والنهاية: جـ ١ ص ١٢٢، ١٢٣.

سمحت له بأن يحيط نفسه بطابع السمو الملكي، وبهالة من الهيمنة السياسية والروحية، كما منحته شيئاً لم يكن يملكه أسلافه، وأضحى الخليفة الأندلسي يتمتع بسلطات مطلقة، وقراراته مبرمة لا تقبل المراجعة.

وهكذا اتخذ عبد الرحمن الناصر سمة الخلافة عن يقين بأفضليته وأولوية حقه وحق أسرته، فكان أول أمير من بني أمية بالأندلس يُنعت بأمير المؤمنين.

مشروع توحيد العالم الإسلامي: بعد أن استتب الأمر لعبد الرحمن الناصر، وعمَّ الهدوء والاستقرار في ربوع الأندلس؛ قرَّر القيام بتنفيذ مشروع ضخم هام وحيوي هو توحيد العالم الإسلامي بشقيه المشرقي والمغربي، تحت لواء الخلافة الأموية في قرطبة، ويقضي المشروع بالقضاء على الدولة الفاطمية في القيروان، والإطاحة بالخلافة العباسية في بغداد. وعقد آماله على الجنود المغاربة في تنفيذ هذا المشروع، فكتب إلى كل من محمد بن خزر الزناتي وموسى بن أبي العافية، في شمالي إفريقيا، وكانت تربطه به علاقة جيدة من واقع العداء المشترك للفاطميين، يحثُّه على الاستعداد والتعبئة واستنفار القبائل من أجل هذه الغاية، وانتظار اليوم الذي يحدِّده للتحرك، وأمر عماله في الأندلس بالتأهب وإعداد الرجال والعتاد وتجديد آلات الحرب والأسلحة، وراح يُكثر من جمع المراكب.

لكن هذا المشروع الضخم على أهميته ظل سجين مخيلة الناصر ولم يُنفَّذ على أرض الواقع، بعد أن ثبت له استحالة تنفيذه، نظراً لبعد المسافة وعدم توفر الإمكانات اللازمة لتنفيذه. والراجح أن العاهل الأموي أدرك، منذ بداية التفكير بهذا المشروع، استحالة تنفيذه، إلا أنه مضى في الإعداد له لغاية واحدة هي إشغال الأندلسيين به وصرفهم عن التفكير بالخروج على حكمه وإحداث الفتن والقلاقل في البلاد، وقد حقَّق هذه الغاية.

العلاقات الخارجية

العلاقة مع الفاطميين

قيام الدولة الفاطمية: لن أتطرق هنا إلى نشوء المذهب الشيعي في الأعوام الأولى لظهور الإسلام، وانقسامه بعد ذلك إلى عدة فرق من بينها الفرقة الإسماعيلية بفعل الاختلاف في نظرية الحق الوراثي عند الشيعة، ولا إلى نشأة الحركة الإسماعيلية التي أسسها إسماعيل بن جعفر الصادق؛ التي يمكن للقارىء أن يطَّلع عليها في

المصادر والمراجع المتخصصة[1]، وسأقتصر حديثي على أنه من بين الذين تولوا الدعوة للمذهب الإسماعيلي في النصف الأول من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، الحسين بن أحمد، أبو عبد الله الداعي، وقد أرسله أبو القاسم الحسن بن فرج بن حوشب الكوفي، داعي الإسماعيليين في اليمن، إلى بلاد المغرب في عام (٢٨٨ هـ/ ٩٠١ م)، لنشر الدعوة في هذه البلاد بعد وفاة داعيي الإسماعيلية فيها، وهما أبو سفيان الحسن بن القاسم، وعبد الله بن علي بن أحمد، المشهور بالحلواني.

نجح أبو عبد الله الداعي في استقطاب جماعة من بربر كتامة كانوا يؤدون فريضة الحج، وصحبهم إلى بلاد المغرب حيث بثَّ دعوته بين الناس، وقوي أمره بمن التفَّ حوله من الأتباع، واستولى على القيروان، وقضى على الدولة الأغلبية.

وبعد أن أضحى، في عام (٢٩١ هـ/ ٩٠٤ م)، صاحب السلطان المطلق في الجهات الواقعة إلى الغرب من مدينة القيروان، أرسل إلى عبيد الله المهدي في سلمية من أعمال بلاد الشام، يدعوه للحضور إلى إفريقيا لتسلم الأمر، فغادر سلمية متنكراً بزي التجار وتوجَّه إلى إفريقيا، واستقر في مدينة رقّادة حيث بويع له بالخلافة في (ربيع الآخر ٢٩٧ هـ/ كانون الثاني ٩١٠ م)، وتلقَّب بلقب المهدي، واضعاً بذلك الأساس الذي قامت عليه الدولة الفاطمية[2].

التمدد الفاطمي باتجاه المغرب الأقصى: شكَّل قيام الدولة الفاطمية في إفريقيا خطوة لامتداد نفوذ الفاطميين نحو المغرب الأقصى الذي عدَّه عبيد الله المهدي المجال الحيوي لدولته، تمهيداً للوثوب إلى الأندلس، وهو الهدف الذي وضعه نصب عينيه، للسيطرة على العالم الإسلامي الغربي كله، وقد أدَّى ذلك إلى الاحتكاك بالأدارسة والأمويين في الأندلس. فكلَّف عامله على تاهرت، مصال بن حبوس المكناسي، بالقيام بحملة عسكرية ضد قبائل صنهاجة هناك، فاستولى على حاضرتهم نكور الواقعة على ساحل مراكش، وذلك في عام (٣٠٥ هـ/ ٩١٧ م)، وقتل حاكمها سعيد بن صالح[3]، والتجأت أسرته إلى الأندلس، كما انتزع فاس من الأدارسة، وعيَّن عليها ابن عمه، موسى بن أبي العافية المكناسي، واقتحم سجلماسة،

---

(١) انظر كتابنا: تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقيا ومصر وبلاد الشام.

(٢) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٥٩٧ـ ٥٩٩. ابن عذارى: جـ ١ ص ١٥٢ـ ١٥٦.

(٣) ابن عذارى: جـ ١ ص ١٧٥.

فضمَّ بلاد صنهاجة في المغربين الأوسط والأقصى إلى الدولة الفاطمية[1]، غير أن مصالاً لقي مصرعه في الاشتباكات التي جرت مع الزناتيين في عام (٣١٢ هـ/ ٩٢٤م)، فأضحى موسى بن أبي العافية الرجل الأول في تلك الأنحاء[2].

اتصف موسى بن أبي العافية بالطموح السياسي، فتطلع إلى الاستقلال بالمناطق التي سيطر عليها، فخلع طاعة عبيد الله المهدي وانتمى إلى عبد الرحمن الناصر، الذي كان قد ثبَّت أقدام الأمويين في سبتة، وطارد أنصار الفاطميين، وعمل على القضاء على ما تبقَّى من الأدارسة الذين فروا إلى إقليم الريف[3].

وحرصاً منه على إنقاذ ملكه، قام عبيد الله المهدي، في عام (٣١٥ هـ/ ٩٢٧ م)، بحملة ضد موسى بن أبي العافية والمغراويين، لم تُسفر إلا عن نتائج هزيلة، واضطر قبل وفاته إلى قبول تمركز الأمويين في المغرب الأقصى، وبقاء محمد بن خزر الزناتي في المغرب الأوسط.

النزاع الأموي ـ الفاطمي

في عهد عبيد الله المهدي: اتسمت العلاقة بين الأمويين في الأندلس والفاطميين بالعدائية، وهي استمرار للنزاع القديم الذي قام في المشرق بين الأمويين والعلويين بعامة، ولا شك بأن قيام دولتين متجاورتين على أسس مذهبية مختلفة كان كافياً بأن يُسبِّب صداماً بينهما. ونظر الفاطميون إلى الحكم الأموي في الأندلس على أنه امتداد لخلافة دمشق، لذلك كانت لهم أطماع جدِّية في الأندلس، كما أن التوسع الفاطمي في المغربين الأوسط والأقصى هدَّد، بشكل خطر، الأمويين في هذا البلد، وأدرك عبد الرحمن الناصر أنه إذا لم يتصدَّ لهذا التوسع فسوف يطغى على دولته.

مرَّ النزاع بين الدولتين بمرحلتين متميزتين ومتكاملتين، الأولى دعائية سياسية، والثانية عسكرية توسعية.

تميزت المرحلة الأولى بمراقبة كل عاهل العاهل الآخر، والوقوف على قدراته السياسية والاقتصادية والعسكرية، والتركيز على أماكن القوة والضعف لديه، وأدار كل منهما شبكة تجسس واسعة من أجل هذه الغاية.

---

(١) ابن عذارى: جـ ١ ص: ١٨٣، ١٨٥، ١٨٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٨٩، ١٩١، ٢٠٠، ٢١٣، ٢١٤.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢١٣، ٢١٤.

واعتقد عبيد الله المهدي أن المذهب الذي يدعو إليه لا بد أن يستقطب أتباعاً على الأراضي الأندلسية بمجرد أن يقوم بالدعوة له سراً، وبخاصة بعد النجاح السريع الذي حقَّقته دعوة ابن القط في المجتمع الأندلسي الريفي المؤلف غالباً من البربر، والذي يُعدُّ مجتمعاً خصباً لدعوة من شأنها أن تعمل على قلب النظام، فانهمك بإعداد الدعاة الذين اختارهم من بين العلماء المخلصين لمبادىء المذهب الإسماعيلي، وأرسلهم إلى الأندلس لبثِّ الدعوة الفاطمية ونشر مبادئها في المجتمع الأندلسي.

وكان هؤلاء الدعاة الجواسيس يخفون أهدافهم الحقيقية خلف ستار من المصالح المشروعة، فيدَّعون بأنهم تجار أو علماء أو صوفيون أو سياح، ونشطوا في نهاية القرن الثالث الهجري وخلال القرن الرابع، نذكر منهم: أبو اليسر إبراهيم بن محمد الشيباني، المعروف بالرياضي، وأبو جعفر بن أحمد بن هارون البغدادي، وابن حوقل النصيبي، لكن جهود هؤلاء لم تثمر، إذ لم تلقَ الدعوة الفاطمية الحد الأدنى من التأييد، واصطدمت بتعصب الأندلسيين لمذهب أهل السُنَّة بعامة ومذهب مالك بخاصة، بالإضافة إلى ما تتمتع به الجماعة الأموية من نفوذ قوي.

واستعمل عبد الرحمن الناصر، من جهته، السلاح نفسه، وكانت الإمارة الأموية تعمل، منذ نشأتها، على محاربة أية دعوة شيعية سواء في المغرب الأقصى أو في الأندلس، لا سيما بعد ظهور دولة الأدارسة العلويين. بالإضافة إلى ذلك، كان للأندلسيين نشاط تجاري واسع النطاق في المغرب الأقصى، وأسست الجاليات الأندلسية بعض المحطات التجارية على طول الساحل المغربي في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وأخذ الأندلسيون يتدفقون على هذه المراكز للتجارة والاستقرار.

ولا شك بأن هذه الجماعات الأندلسية أمدَّت عبد الرحمن الناصر بالمعلومات الضرورية عن أوضاع الدولة الفاطمية، وتركت بصمات فكرية ومذهبية بين السكان.

وعمد العاهل الأموي إلى تدعيم سياسته الدعائية باستقطاب الأنصار مثل الأدارسة وبني صالح، أصحاب نكور، مبيناً لهم أخطار الفاطميين، وحثَّهم على محاربتهم، ووعدهم بالمساعدة. وحتى يحكم الطوق على الفاطميين، سعى إلى محالفة بربر زناتة المعادين لهؤلاء، وأخذت الرسائل والوفود الزناتية ترد إلى قرطبة، معبِّرة عن الولاء للأمويين، وحاملة أخبار الفاطميين.

وتميزت المرحلة الثانية بسيطرة عبد الرحمن الناصر على بعض الثغور المفصلية التي تمكِّنه من الهيمنة على السواحل المغربية المواجهة لبلاده مثل سبتة وأصيلة. وتُعدُّ

هذه السيطرة نجاحاً لقضيته، حيث أضحى يملك قاعدة صلبة للعمليات على الساحل المغربي يمسك من خلالها بزمام الإدارة السياسية للمنطقة كلها، والتدخل عسكرياً إذا ما تجرأ أحد على القيام بمغامرة داخل المغرب الأقصى. والمعروف أن سكان سبتة، الذين كانوا يتعرَّضون لضغط الأدارسة، طلبوا المساعدة والحماية من الناصر، فأرسل أسطولاً بحرياً، بقيادة أمية بن إسحاق القرشي، عامله على الجزيرة الخضراء، فدخل المدينة وتسلَّمها من حاكمها الرضى بن عصام، وذلك في (ربيع الأول ٣١٩ هـ/ آذار ٩٣١ م)، أما أصيلة فقد دخلها عنوة في (شوال/ أيلول) بعد أن خلع سكانها طاعته[١].

في عهد القائم: توفي عبيد الله المهدي في (٢٤ ربيع الأول ٣٢٢ هـ/ ٤ آذار ٩٣٤ م) وخلفه ابنه أبو القاسم محمد، الملقب بالقائم، فانتهج سياسة والده تجاه الأمويين في الأندلس، لكنه واجه عدة مشكلات تمثَّلت بثورة أبي يزيد، وثورات أخرى للبربر، الأمر الذي أتاح لعبد الرحمن الناصر، استكمال مخططاته التوسعية على الأراضي المغربية، فسيطر على مرسى واسط، بين سبتة وطنجة، ثم على هذه المدينة الأخيرة، وأضحى يتحكم في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، فتفرَّغ عندئذٍ للتدخل المباشر في شؤون المغربين الأوسط والأقصى لإثارة السكان هناك ضد الدولة الفاطمية.

لم يركن القائم إلى الهدوء، وهو يرى امتداد نفوذ خصمه الأموي ليطغى على نفوذه في المغربين الأوسط والأقصى، وقرَّر استعادة ما انتزعه، فبدأ بموسى بن أبي العافية، حليف عبد الرحمن الناصر، فانتزع منه مدينة فاس وطارده حتى منطقة تازة الجبلية، وتوفي موسى في (ذي الحجة ٣٢٦ هـ/ تشرين الأول ٩٣٨ م) من دون أن يتمكَّن من ردِّ مكانته التي كان عليها، وما كان خضوعه للناصر ذا فائدة كبيرة للعاهل الأموي الذي رأى، إلى جانب الأعداء التقليديين؛ تمرد ائتلاف الأدارسة ضده، ولهذا كان أمر استقطابهم إلى جانبه وإبعادهم عن الفاطميين هو النهج الذي انطوى عليه نشاطه على مدى الأعوام التالية. وتوفي القائم في (رمضان ٣٣٤ هـ/ نيسان ٩٤٦ م) والعلاقة مع الأمويين في الأندلس لا تزال متوترة.

في عهد إسماعيل المنصور: خلف القائم ابنه أبو طاهر إسماعيل، الملقب بالمنصور، وكانت الدولة الفاطمية تمر بمرحلة حرجة، وبدا في الأفق أنها سائرة نحو

---

(١) ابن عذارى: جـ ١ ص ٢٠١، جـ ٢ ص ٢٠٤. بروفنسال: ص ٣٧٣.

الزوال، وذلك نتيجة الضربات المتكررة والمسدَّدة من قِبَل الثائر أبي يزيد وأتباعه من البربر، وكان هذا قد سيطر على القيروان ورقَّادة وهدَّد المهدية حاضرة الفاطميين.

وحتى يُدعم موقفه، سعى أبو يزيد لاستقطاب القوى المحلية المعادية للفاطميين، مثل بلكين بن زيري الصنهاجي وعلي بن حمدون الملقب بالأندلسي، كما أرسل سفارة إلى قرطبة يعلن التزامه بالطاعة والقيام بالدعوة لبني أمية، ويطلب من الناصر أن يمدَّه بالمساعدة(١).

كان العاهل الأموي يراقب باهتمام تطور الصراع الطويل والخطير بين الفاطميين وأبي يزيد، وسُرَّ بالانتصارات التي حقَّقها المتمرد الخارجي على الرغم من أنه كان زعيماً لمذهب يراه أهل السُنَّة إلحاداً(٢)، وسوف يتحوَّل المغرب الأوسط وبلاد الزاب وإفريقيا إلى ميدان صراع رهيب. وتعرَّض أبو يزيد لعدة هزائم على يد القوات الفاطمية، الأمر الذي أضعف موقفه، كما خرجت عليه عدة مدن، منها القيروان، بفعل مساوىء أتباعه. فأرسل سفارة أخرى إلى قرطبة في عام (٣٣٥ هـ/ ٩٤٦ م) لطلب المساعدة، فأمده الناصر بالمال.

والواضح أن العلاقة بين عبد الرحمن وأبي يزيد، تجاوزت العلاقة السلبية، فقد قدَّم العاهل الأموي الدعم المادي للثورة، وربما يكون قد أمدَّ صاحبها بالقوات العسكرية. ومن جهة أخرى فقد خدمت هذه الثورة النفوذ الأموي في المغربين الأوسط والأقصى بفعل تأثيرها في تقلص سلطان الفاطميين وانحساره حول المهدية حتى كادت دولتهم أن يذهب ريحها، وبالتالي، فقد انتشر سلطان الأمويين في شمالي إفريقيا، انتشاراً كبيراً(٣). والمعروف أن هذه الثورة، التي استمرت عشرين عاماً، انتهت بالفشل وقُتل قائدها في المواجهات مع الفاطميين في (٢٨ محرم ٣٣٦ هـ/ ١٩ آب ٩٤٧ م).

في عهد المعز: توفي إسماعيل المنصور الفاطمي في (٢٨ شوال ٣٤١ هـ/ آذار ٩٥٣ م) وخلفه ابنه أبو تميم معد، الملقب بالمعز، واستمر في عهده النزاع مع الأمويين في الأندلس، واتخذ مظهراً مغايراً من واقع التمدد الفاطمي باتجاه المغربين الأوسط والأقصى والصدام المباشر بين الدولتين.

كان أول عمل قام به المعز هو إعادة بسط سلطة الدولة في جبل أوراس معقل

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢١٢، ٢١٣.
(٢) كان أبو يزيد يعتنق المذهب الخارجي.
(٣) الفيلالي: ص ١٧٢.

الهواريين الذين ساندوا ثورة أبي يزيد. والواضح أن هذه الحملة الناجحة كانت خطوة تمهيدية للقيام بعمليات عسكرية واسعة النطاق على نواحي المغرب الأقصى وانتهاج سياسة توسعية غربي مملكته على حساب الأمويين، وحتى يدعم موقفه، تقرَّب من الصنهاجيين، وعيَّن زعيمهم زيري بن مناد والياً على المناطق الشاسعة الممتدة من تخوم الزاب إلى حدود تاهرت، فضمن بذلك ولاء هذه القبيلة البربرية المقيمة في ناحية تيتري في المغرب الأوسط، كما دعا المتطوعين للجهاد والانضمام إلى الحملة التي أعدَّها، فلبى شباب كتامة الدعوة مظهرين حماساً بالغاً.

ولا شك، أن المعز حين أعدَّ تلك الحملة الكبيرة الرامية إلى إعادة بسط سلطة الدولة وهيبتها في المغرب الأقصى، وانتزاعها من النفوذ الأموي، قد فكَّر إما في غزو الأندلس أو تهديد عبد الرحمن الناصر تمهيداً لتوجيه الجنود الكتاميين في الوقت المناسب للقضاء عليه.

ومهما يكن من أمر، فإن المعز كان ينوي الاستفادة إلى أقصى حد من تلك الحملة التي عهد بقيادتها إلى أحد كبار رجال الدولة، وهو جوهر الكاتب الصقلي، ذلك المولى اليوناني الأصل، الذي أخلص في خدمة الدولة.

انطلقت الحملة في عام (٣٤٧ هـ/ ٩٥٨ م) في اتجاه تاهرت للإنتقام من واليها يعلى بن محمد اليفرني الذي خلع طاعة الفاطميين وانضم إلى الأمويين، فقبض عليه وقتله، وأعاد بسط سيادة الفاطميين في المغرب الأوسط، ووضع البلاد في يد زيري ابن مناد الصنهاجي، وتُعدُّ نهاية يعلى بمثابة الضربة القاضية المسدَّدة إلى النفوذ الأموي. وسيطر جوهر بعد ذلك على سجلماسة وقبض على حاكمها الشاكر بالله الموالي للأمويين، ثم حاصر فاس واقتحمها في (٢٠ رمضان ٣٤٨ هـ/ ٢١ تشرين الثاني ٩٥٩ م) وأسر حاكمها أحمد بن بكر وعدداً من الأمراء الأدارسة، وما لبثت المدن الكبرى في شمالي المغرب الأقصى أن استلمت له، باستثناء سبتة وطنجة، ويبدو أنه لم يغامر بالاستيلاء على هذين الثغرين والانطلاق بعد ذلك إلى الأندلس، بسبب ضعف إمكاناته المادية والعسكرية في الوقت الذي بدأ فيه المعز يركِّز على انتزاع مصر من الإخشيديين، وفضَّل العودة إلى إفريقيا.

أثار هذا الامتداد المتواصل للزحف الفاطمي في عمق المغرب الأقصى، الهلع في الأندلس، واضطر عبد الرحمن الناصر إلى التسليم بخضوع ذلك الإقليم للسلطة الفاطمية، ولكنه بادر بتكييف الاستعدادات الدفاعية في السواحل الأندلسية الجنوبية لا سيما في ناحية المرية التي أرسل إليها إمدادات هامة من الجند.

وبادر المعز بشن الحرب البحرية مستخدماً أسطوله الراسي في المهدية وصقلية، بعد أن أدرك أنه يتعذّر عليه القيام بحملة برية انطلاقاً من المغرب الأقصى لعدم توفر الوسائل اللازمة لشن الحرب والشروع في الاستيلاء على الأندلس. ومن الملاحظ أن الأسطول الفاطمي، الذي كان يقوده الحسن بن علي الكلبي، على الرغم من ضآلة عدد سفنه، استطاع أن يصل إلى المرية، أهم مركز بحري أموي على السواحل الشرقية، وفاجأ الأسطول الأندلسي الراسي في الميناء وأحرقه، ونهب أفراده المدينة قبل أن يعودوا إلى إفريقيا محمَّلين بالغنائم والأسرى[1].

أثارت الغارة البحرية على المرية قلق عبد الرحمن الناصر، وخشي أن تثير الهلع في قلوب حلفائه، وتؤثر في هيبته أمام رعاياه، لذلك جاء رده سريعاً لكن ليس فعَّالاً، وتصرَّف على ثلاثة محاور عسكري وسياسي ودعائي.

ففيما يتعلق بالتصرف العسكري، فقد عهد إلى خادمه غالب بن عبد الرحمن الناصري بمهمة مهاجمة السواحل الإفريقية، وعلى الرغم من وصوله إلى مدينة سوسة شمالي المهدية وخرَّبها، إلا أنه جوبه بمقاومة شديدة، وعاد أدراجه.

وفيما يتعلق بالتصرف السياسي، فقد سعى إلى تكوين حلف مناهض للمعز يجمعه مع الامبراطور البيزنطي قسطنطين السابع الذي كان يطمع في استرداد صقلية من أيدي الفاطميين. ونسَّق الطرفان لفرض حصار على الفاطميين من الشرق والغرب، لكن التدخل البيزنطي فشل في فتح جبهة ثانية في صقلية وشلِّ حركة البحرية الفاطمية، الأمر الذي أدَّى إلى فشل حملة عبد الرحمن الناصر ضد شمالي إفريقيا[2].

وتحالف عبد الرحمن الناصر مع هيوج دي بروڤانس الذي كان يرغب في الانتقام من الفاطميين الذين هاجموا إيطاليا في عهد القائم، وخرَّبوا ميناء جنوة.

ويبدو أن المصادر الإسماعيلية غالت في حكمها على هذه التحالفات التي أبرمها عبد الرحمن الناصر مع الدول النصرانية، فاتهمته بالتواطؤ العسكري المشترك مع دول نصرانية ضد الفاطميين، والراجح أنها كانت على غرار التحالفات السابقة التي أُبرمت بين الأمير الأموي عبد الرحمن الثاني والامبراطور البيزنطي تيوفيل في عام (٢٢٥ هـ/ ٨٤٠ م)، وهي تقوم على ترك الحرية لأصدقاء الدولة الأموية في قتال عدوهم المشترك، لكن بدون ارتباط معهم في العمليات العسكرية[3].

---

(١) القاضي النعمان: المجالس والمسايرات ص ١٥٣، ١٥٤. ابن الأثير: جـ ٧ ص ٢١٣.

(٢) القاضي النعمان: المصدر نفسه ص ١٥٤. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢١٣ـ ٢١٥.

(٣) العبادي، أحمد مختار: في التاريخ العباسي والأندلسي ص ٣٥٢، ٣٥٣.

وعمل عبد الرحمن الناصر على توطيد صلاته بالإخشيديين في مصر، فقد أرسل مبلغاً من المال يُقدَّر بعشرة آلاف دينار لتوزيعها على فقهاء المذهب المالكي لمحاربة الدعوة الشيعية هناك.

وفيما يتعلق بالتصرف الدعائي، فقد شكَّك عبد الرحمن الناصر بنسب الفاطميين وأمر بلعن المعز وأسلافه على جميع منابر الأندلس، وبادله المعز بالدعاية نفسها، وحاول كل طرف تقويض الأسس العقائدية والمذهبية للطرف الآخر[1].

وأُتيح لعبد الرحمن الناصر في عام (٣٤٧ هـ/ ٩٥٨ م) أن يقوم بهجوم بحري وبري واسع النطاق على الممتلكات الفاطمية في شمالي إفريقيا، ووصلت القوات الأندلسية إلى مدينة تونس القريبة من المهدية وأرغمت سكانها على دفع غرامات حربية[2].

أثارت هذه الانتصارات الجزئية سخط سكان المغرب الأقصى على الفاطميين وأدَّت إلى انحياز بعض الأمراء الفاطميين إلى عبد الرحمن الناصر. وقد دفع هذا التطور السلبي المعز إلى إرسال حملة إلى المغرب الأقصى، بقيادة جوهر الصقلي، لإعادة هيبة الدولة الفاطمية، ثم تفرَّغ بعد ذلك لتوجيه نشاطه نحو الشرق للاستيلاء على مصر، لكن حدث أن توفي عبد الرحمن الناصر بعد بضعة أشهر من عودة جوهر الصقلي إلى إفريقيا.

العلاقة مع الأدارسة في المغرب الأقصى: تراوحت العلاقة بين عبد الرحمن الناصر والأدارسة بين الودية والعدائية، وتحكَّمت بها الظروف السياسية والعسكرية والمذهبية التي أحاطت بكلا الطرفين، إذ إن الأحقاد القديمة بين البيت الهاشمي والبيت الأموي كانت سبباً في ذلك، كما أن تقلُّب ميزان القوى العسكري بين الأمويين والفاطميين كان سبباً آخر، فعندما يميل هذا الميزان لصالح الفاطميين ينضم الأدارسة إلى صفوفهم، والعكس صحيح، والراجح أنهم اتبعوا هذا الأسلوب المتقلب في الولاء السياسي للمحافظة على سلامة أملاكهم.

العلاقات مع الممالك النصرانية

تمهيد: اتسم عهد عبد الرحمن الناصر بسمات معينة فيما يتعلق بعلاقاته مع ممالك النصارى في الشمال، مستخدماً قوة الدولة في ترويعها وإجبارها على الخضوع وطلب السلام، لكنه لم يجتهد للقضاء عليها، فقد كان معتدلاً في استخدام القوة، مدركاً أنه لا

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٢٠.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٢١، ٢٢٢.

يمكن القضاء على تلك الممالك التي نشأ بعضها منذ أن تواجد المسلمون على أرض الأندلس، والمعروف أنه أحاطت بالمسلمين من الشمال في بداية عهده ممالك ليون وجليقية ونبرَّة وقشتالة وإمارة برشلونة، وقد شكّلت ضغطاً على الأراضي الإسلامية.

والواقع أن المادة التاريخية التي وصلت إلينا من المؤرخين المسلمين والتي تُغطّي عهد عبد الرحمن الناصر، لا تُعبِّر إلا عن الولاء الشديد لمفهومهم التقليدي للتاريخ، ونجد مجالاً كبيراً للإسهاب فيما يتعلق بالانتصارات، وفي المقابل، تضيق المساحات المخصصة للفشل الذي مُنيت به القوات الإسلامية. فالإشارات التي تنطوي على مديح أكبر، تأتي مرتبطة بالنتائج التي حقَّقها العاهل الأموي في صراعه مع النصارى في الشمال والتي تبدو قليلة للغاية، إذ إنها لم تترجم على أرض الواقع بضم الأراضي، وهو الهدف الأسمى الذي يسعى إليه كل حاكم قوي في الأندلس، واكتفى بما كانت تُسفر عنه الصوائف التي كان يرسلها مع ضآلة نتائجها العملية[1].

وكانت هناك عوامل معينة أدَّت إلى موقف القوة في العلاقات مع تلك الممالك النصرانية منها ما يتعلق بالأندلس، مثل وحدة الجبهة الداخلية، لعبة التوازن في الجيش التي اتبعها عبد الرحمن الناصر من خلال الاستعانة بالعناصر الأجنبية وإخضاع مناطق الثغور واستخدامها قواعد لضرب النصارى في الشمال، ومنها ما يتعلق بالممالك النصرانية، مثل تدخل النبلاء في شؤون الحكم، واحتدام الصراع الداخلي بينها بسبب التنازع على مناطق الحدود أو الطمع في ضمِّ إمارة إلى أخرى بالقوة أو انفصال إمارة عن أخرى، وتوقف مساعدة أباطرة الفرنجة لنصارى الشمال الأندلسي بسبب التقارب الذي حصل بينهم وبين عبد الرحمن الناصر.

العلاقة مع مملكة ليون

معركة يابُرة: أشرنا في الفصل السابق إلى تقاسم أولاد ألفونسو الثالث إرث والدهم بعد وفاته. فحكم ابنه الأكبر غرسية إقليم ليون، وكان إقليم جليقية من نصيب ابنه الثاني أردونيو، وأخذ ابنه الثالث فرويلة إقليم أشتوريس، فاستقلَّ كل منهم بما تحت يده وتلقَّب بلقب ملك.

لم يدم حكم غرسية أكثر من أربعة أعوام، شنَّ خلالها غارة ضد الأراضي الإسلامية، لم يكن لها صدى، ربما لأنها لم تحقق أي إنجازٍ مهمٍّ. غير أن الإنجاز

---

(١) بروفنسال: ص ٣٦١.

الذي حقَّقه كان على الصعيد الداخلي حين نقل العاصمة من أوبييدو إلى ليون، وأعاد تعمير المدن الواقعة على الشاطىء الأيمن لنهر دويرة، وتوفي في عام (٣٠١ هـ/ ٩١٣م)، فخلفه أخوه أردونيو الثاني[١]، الذي اتصف بالطموح السياسي والقوة العسكرية، فاستغل فرصة انتقال الحكم والاضطراب الذي كان يعمُّ الأندلس، وهاجم يابُرة في وسط البرتغال في (١٣ محرم ٣٠١ هـ/ ١٩ آب ٩١٣ م)، واقتحمها، وأجرى فيها مذبحة مروعة، ثم خرَّبها وعاد إلى جليقية حاملاً عدداً من الأسرى بلغ أربعة آلاف[٢].

والواقع أن سياسة أردونيو الثاني كانت تستهدف آنذاك طرد المسلمين من أراضيهم وتخريبها وتدمير مقومات الحياة فيها، وبخاصة أن النصارى كانوا عاجزين عن تزويد منطقة كهذه بالطاقات البشرية التي تؤمِّن استمرار الدفاع عنها في هذا المحيط المعادي، لكن هذه السياسة لم تنجح، فما لبثت يابُرة أن استعادت عافيتها، وعُمِّرت بالسكان مرة ثانية[٣].

مهاجمة ماردة: تكرَّرت عمليات الملك الليوني العسكرية ضد الأقاليم الغربية في وقت كان عبد الرحمن الناصر لا يزال غارقاً في همومه الداخلية، فعبر نهر تاجُه على رأس ستين ألف مقاتل، في عام (٣٠٢ هـ/ ٩١٤ م)، واستولى على حصن مولين واقتحم قلعة الحنش الواقعة جنوبي ماردة[٤]، وتابع زحفه باتجاه هذه الأخيرة وهي هدفه الرئيس. ولما وصل إليها ذُهل من ضخامة استحكاماتها، فقرَّر الكفَّ عن حصارها، وأرسل إليه واليها محمد بن تاجيت رسولاً يحمل الهدايا، فقبلها وغادر المدينة[٥]، إلا أنه عاث في المنطقة، واستولى على بعض قلاعها، ثم قصد بطليوس، فارتاع سكانها واسترضوه بالمال، فتركهم وعاد إلى بلاده مثقلاً بالغنائم من دون أن يعترضه أحد.

معركة شنت أشتبين وذيولها: أحدثت حملة أردونيو الثاني ضد ماردة قلقاً عظيماً في قرطبة، ودفعت عبد الرحمن الناصر إلى إجراء تعديل في مخططاته العسكرية حين وجد أنه لم يعد باستطاعته تجاهل النشاط الواسع الذي تقوم به جيوشه في غربي الأندلس، وتجسَّد موقفه بتصميمه على الرد وتوجيه ضربة انتقامية للملك الليوني في

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٦٦.
(٢) بروفنسال: ص ٣٤١.
(٣) بيضون: ص ٣١٠.
(٤) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٤١.
(٥) بروفنسال: ص ٣٤١.

عمق أراضيه. وعلى الرغم من أن ماردة كانت من المناطق الثائرة على حكمه، إلا أنه كان أبعد نظراً من أن يتساهل مع عدوان يقع في صميم الأراضي الإسلامية، بالإضافة إلى أنه رأى أن يستقطب الثائرين بمساعدتهم في رد عدوان النصارى، فأرسل حملة عسكرية في (محرم ٣٠٤ هـ/ تموز ٩١٦ م) لمهاجمة أراضي مملكة ليون، بقيادة وزيره عبد الرحمن وقائده أحمد بن محمد بن أبي عبدة، فعاث القائدان الأمويان في أراضيها وتغلّبا على الفرق العسكرية الليونية في أكثر من مواجهة(١).

لم يتأخر رد الفعل الليوني، ففاجأ أردونيو الثاني سكان الثغور بهجوم خاطف، وهاجم منطقة طلبيرة على نهر تاجُه، فأحرق مدنها وخرَّب ضياعها، فاضطر سكانها إلى التماس المساعدة من عبد الرحمن الناصر الذي لم يتأخر عن إرسال قائده أحمد ابن أبي عبدة ثانية على رأس جيش ضخم، ضمَّ بعض المرتزقة ومتطوعين وفِرَق مجندة من مناطق الحدود.

اخترق الجيش الأموي أراضي قشتالة وحاصر قلعة شنت أشتبين(٢) المنيعة الواقعة على نهر تاجُه، وكادت تسقط في يده لولا أن أنجدها أردونيو الثاني وأجبر القوات الإسلامية على فك الحصار والارتداد عنها، وذلك في (١٤ ربيع الأول ٣٠٥ هـ/ ٤ أيلول ٩١٧ م)(٣).

والواقع أن الجيش الأموي تعرَّض لكارثة بسبب خيانة المجندين، كما عانى من تفكك القوات واختلال نظامها بفعل عدم إخلاص البربر والمرتزقة في القتال، وهم الذين كانوا حريصين على الحصول على الغنائم أكثر من حرصهم على القتال. وقتل القائد أحمد بن أبي عبدة في المعركة(٤)، وعاد أردونيو الثاني إلى ليون منتصراً، وشجعه الانتصار على تكرار محاولاته غزو الأراضي الإسلامية. وحتى يقوِّي جبهته تحالف مع شانجة ملك نبرَّة، فنهضا معاً بعد بضعة أشهر وهاجما ناجرة وتطيلة في الثغر الأعلى، واستولى شانجة على بلتيرة الواقعة في شمالي تطيلة، فأحرق مسجدها ونكَّل بسكانها(٥).

لم يستطع عبد الرحمن الناصر السكوت على هذه الاعتداءات، فنهض للانتقام

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٦٩.

(٢) يطلق عليها ابن عذارى، قاشتر مورش، جـ ٢ ص ١٧٠.

(٣) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٧١.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) بروفنسال: ص ٣٤٢.

لهزيمته في شنت أشتبين، وحشد جيشاً ضخماً عهد بقيادته إلى حاجبه بدر بن أحمد، وأرسله إلى أراضي ليون. ولما علم أردونيو الثاني بخروجه من قرطبة استعد للقائه، لكن هاله ضخامته، وفضَّل عدم الاصطدام به، وتراجع إلى الجبال ليحتمي بها، ومع ذلك فقد هاجم بدر بن أحمد معاقله قبل أن يعود إلى قرطبة في (ربيع الأول ٣٠٦ هـ/ آب ٩١٨ م). وتكرَّرت المواجهة بعد بضعة أشهر حين غزا أردونيو الثاني الأراضي الإسلامية، فتصدَّى له القائد إسحاق بن محمد القرشي وأجبره على التراجع والفرار[1].

لم يُبدِ عبد الرحمن الناصر ارتياحاً بهذين الانتصارين غير الحاسمين، فقرَّر الخروج بنفسه لتأديب حاكم ليون، فخرج من قرطبة في (١٣ محرم ٣٠٨ هـ/ ٤ حزيران ٩٢٠ م) على رأس جيش ضخم، فعبر نهر دويرة وهاجم وخشمة ـ أوسمة ـ وأحرقها، ثم سار إلى شنت أشتبين التي كانت مسرحاً لهزيمة المسلمين المروعة، فاقتحمها ودكَّ دفاعاتها، كما هاجم قلونية الواقعة في شمالي نهر دويرة واقتحمها، فانتقم بذلك للكارثة التي وقعت في عام (٣٠٥ هـ/ ٩١٧ م) بمستوى فاق كل ما فعله أردونيو الثاني[2].

كانت هذه الحملة، بما حقَّقته من مكاسب عسكرية وما أحدثته من تغييرات جغرافية محدودة بسيطرة عبد الرحمن الناصر على عدد من المواقع؛ كافية لتجميد موجة التغلغل العسكري الليوني. وتوفي أردونيو الثاني في عام (٣١٢ هـ/ ٩٢٤ م)، فخلفه أخوه فرويلة الثاني، وقد توفي بعد عام واحد بسبب مرضه من دون أن يُبدي أية محاولة للإغارة على الحدود الإسلامية، فتعرضت مملكة ليون لصراع أسري بين ولدي أردونيو الثاني، وهما ألفونسو الرابع المعروف بالراهب وراميرو الثاني، استمر سبعة أعوام وانتهى لمصلحة الثاني الذي اعتلى الحكم في عام (٣٢٠ هـ/ ٩٣٢ م) وهو المعروف بنزعته الصليبية. وقد أتاح هذا الصراع الأسري لعبد الرحمن الناصر أن يتفرغ للقضاء على الثائرين ضد حكمه، وتحجيم نفوذ الفاطميين في المغرب الأقصى[3].

باشر راميرو الثاني عملياته العسكرية في عام (٣٢١ هـ/ ٩٣٣) حين تصدَّى لهجمات عبد الرحمن الناصر المتكررة على وخشمة، فردَّ عليه العاهل الأموي بغزو أراضي ألبة والقلاع، ووصل في توغله إلى حصن غرماز القريب من ليون، وخرَّب

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٧٢، ١٧٣.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٧٦، ١٧٧.

(٣) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٤١، ١٤٢.

برغش عاصمة قشتالة وفتح عدداً من الحصون، منها المنار وأنّة، واضطر العاهل الليوني، تحت الضغط العسكري، إلى التفاهم معه، ووُقعت معاهدة الصلح في (ربيع الآخر ٣٢٣ هـ/ آذار ٩٣٥ م)[١].

حملة سرقسطة: لم يكن راميرو الثاني صادقاً، وما كانت المعاهدة سوى فرصة لالتقاط أنفاسه، وراح يتحين الفرص لنقضها. وكان التجيبيون في سرقسطة على خلاف شبه دائم مع قرطبة، فاستغل العاهل الليوني هذه الثغرة واستقطب محمد بن هاشم التجيبي، وتحالف معه ضد عبد الرحمن الناصر، وذلك في عام (٣٢٥ هـ/ ٩٣٧ م). وانضمت مملكة نبرَّة إلى الحلف الذي أضحى ثلاثياً[٢].

لم يكن العاهل الأموي ليسمح بمثل هذه الأمور، فقرَّر الخروج لاسترداد سرقسطة، فسار إلى الثغر الأعلى على رأس جيش كثيف، فاسترد قلعة أيوب من الأخوين مطرف والحكم، ابني المنذر التجيبي، وجال في أراضي البشكنس وأجبر ملكة نبرَّة على طلب الصلح، ثم سار بعد ذلك إلى سرقسطة وحاصرها في (١٢ شوال/ ٢٣ آب) فسقطت في يده واضطر محمد بن هاشم إلى طلب الأمان، فأقرَّه الناصر على حاله في محاولة لاستقطابه، وذلك في شهر (ذي الحجة/ تشرين الأول)، ثم دخل المدينة يوم الخميس (١٤ محرم ٣٢٦ هـ/ ٢٢ تشرين الثاني ٩٣٧ م)[٣].

وهكذا استطاع العاهل الأموي أن يمزق أوصال التحالف الخطر وأن يخضع الشمال الشرقي من الأندلس لسلطانه، ولم يبقَ عليه سوى أن يحطم المقاومة الليونية بشخص خصمه راميرو الثاني، وهو محور الكفاح الحقيقي.

معركة الخندق: لم يمضِ سوى عامين على غزوة عبد الرحمن الناصر الأخيرة لمملكة ليون، حتى قاد حملة أخرى لغزو هذه المملكة، تألفت من مائة ألف مقاتل، لم يكونوا على قدر واحد من الإخلاص وتحمل المسؤولية. فخرج من قرطبة في (٢٢ شعبان ٣٢٧ هـ/ ١٤ حزيران ٩٣٩ م)، فعبر نهر التاجُه عند طليطلة ثم نهر دويرة وتوجَّه إلى قلعة شنت منكش حيث كان راميرو الثاني يرابط على مقربة منها في حشود هائلة، ضمَّت قوات من نبرَّة وقشتالة وزوَّده حليفه أمية بن إسحاق بمعلومات استخباراتية ونصائح هامة.

---

(١) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٤٢.

(٢) بروفنسال: ص ٣٥٠.

(٣) المرجع نفسه.

ونشبت بين الطرفين رحى معركة ضارية تخللها كرٌّ وفرٌّ من كلا الجانبين وأجبر راميرو الثاني، تحت ضغط القتال، القوات الإسلامية إلى التراجع إلى خندق عميق، كان قد حفره على مسافة معينة وفق تخطيط مسبق، فتردَّت فيه، وهو الذي تنسب إليه المعركة، وغادر عبد الرحمن الناصر ساحة المعركة مع من تبقَّى من قواته، وعجز راميرو الثاني عن مطاردته، كما لم يحاول استثمار انتصاره. ويبدو أن لذلك علاقة بمدى ما بذله من جهد في القتال أنهك قواته، بالإضافة إلى نصيحة حليفه أمية بن إسحاق الذي حذَّره من الكمين، ورغَّبه في ما تركه المسلمون من غنائم[١].

تعقيب على معركة الخندق

ـ كان وقع الهزيمة ثقيلاً على عبد الرحمن الناصر، ومؤلماً، نظراً لتكبده نحو خمسين ألف قتيل، وبفعل ما كان يحظى به من مكانة رفيعة بحيث استنكف منذ ذلك الحين عن قيادة الحملات بنفسه، تاركاً هذه المهمة لقادته[٢].

ـ أسهبت روايات المصادر في وصف الكارثة التي أصابت الجيش الأموي، غير أن نتائج الهزيمة لم تكن بذات الحجم المُعطى لها بدليل أنه لم ينجم عنها أي تغيير في وضع الأراضي، كما أن استئناف الحملات التقليدية من جانب الخلافة في أعقاب الهزيمة، كان كافياً لردع أية محاولة توسعية يلجأ إليها الملك الليوني[٣].

ـ إن ما يجعل من هذه الهزيمة حدثاً عادياً، ذلك الهدوء الذي ساد العلاقات الإسلامية النصرانية، والتودُّد الظاهر لملك ليون وملكة نبرَّة نحو عبد الرحمن الناصر الذي أضحى أقوى شخصيات العصر[٤].

ـ لا يمكن أن ندرك أسباب الهزيمة بسهولة، وذلك لاختلاف الروايات التاريخية التي اهتمت بتدوين أحداثها. فموازين القوى كانت متكافئة بين الطرفين، ومعنى ذلك أن الجيش الأموي لم يكن ضحية التفوق العددي في الجيش النصراني بقدر ما كان ضحية الانسجام النوعي المفقود بين عناصره المختلفة[٥].

ـ تجاذبت الجيش الإسلامي تيارات مختلفة متناقضة ومتنافرة بين أقلية عربية

---

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٨١. العذري: ص ٤٦، ابن الخطيب: أعمال الأعلام جـ ٢ ص ٣٧. دوزي: جـ ٢ ص ٣٧ـ ٤٠.

(٢) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٤٠، ١٤٢.

(٣) بيضون: ص ٣١٢.

(٤) المقري: جـ ١ ص ٣٤٠.

(٥) المصدر نفسه: ص ٣٥٤، ٣٥٥. بيضون: ص ٣١٢.

وأكثرية من مماليك الصقالبة، إلى جانب فئات أخرى انضمت إلى هذا الجيش، الأمر الذي كان له أثر سلبي على وحدته وتلاحم عناصره في جبهة واحدة منسجمة. ولعل باعث هذا التنافر له علاقة بمدى التفوق الصقلبي على حساب العناصر الأخرى من العرب والبربر التي أخذت تتذمَّر من تراجع نفوذها وانحسار أهميتها في جيش الخليفة، وبخاصة أن الرجل الثاني في حملة الخندق بعد عبد الرحمن كان أحد هؤلاء الصقالبة، وهو نجدة، الذي لقي حتفه في هذه المعركة[١].

ـ حمَّل عبد الرحمن الناصر بعض الضباط العرب مسؤولية الكارثة، فانتقم منهم بعد عودته إلى قرطبة، فقتل ثلاثمائة فارس، ثم عمد إلى إصلاح الجيش فطهَّره من العناصر غير المخلصة[٢].

ـ لم يكن ميدان المعركة في صالح القوات الإسلامية، ولم يسمح لها بالمناورة الكافية عند الضرورة، لذا حُسِمت المعركة مع أول ارتداد أصاب بعض الفرق الإسلامية، ولم يتمكَّن عبد الرحمن الناصر من معالجة الموقف بعد مقتل نجدة، وتراجُع قواته بدون نظام إلى الخندق الذي أضحى مقبرة حقيقية لمعظمها.

ـ عاد راميرو الثاني إلى بلاده من دون أن يستثمر انتصاره، كما ذكرنا، حاملاً معه محمد بن هاشم التجيبي الذي وقع في الأسر[٣].

أحداث ما بعد معركة الخندق: جنح راميرو الثاني إلى السلم بعد معركة الخندق في خطوة غير منتظرة منه. ويبدو أن الذي دفعه إلى ذلك، هو زعزعة جبهته الداخلية من واقع علاقته السلبية بفرديناند كونزالس حاكم قشتالة الذي أعلن الثورة عليه في خطوة نحو الاستقلال عن ليون، إلا أنه أخمد الثورة وقبض على فرديناند وسجنه، وأدّى ذلك إلى نقض الهدنة مع عبد الرحمن الناصر بفعل زوال ظروف عقدها، واستئناف حملاته العسكرية. وردَّ العاهل الأموي على هجماته، فأرسل الصوائف على مدار الأعوام التالية لغزو أراضي ليون، وحصَّن مدينة سالم الحدودية. وتوفي راميرو الثاني في غمرة هذه الأحداث في عام (٣٣٩ هـ/ ٩٥١ م)[٤].

فتحت وفاة راميرو الثاني، لعبد الرحمن الناصر، الباب واسعاً للجهاد المثمر، لأن

---

(١) دوزي: جـ ٢ ص ٣٨، ٣٩.
(٢) ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٣٧.
(٣) دوزي: جـ ٢ ص ٣٩.
(٤) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢١٧. دوزي: جـ ٢ ص ٤٠، ٤٤.

ليون شهدت صراعاً أسرياً على السلطة بين ولديه أردونيو وشانجة السمين[1] والذي انتهى لمصلحة الأول، فاعتلى العرش باسم أردونيو الثالث، وتلقّى قادة الثغور الإسلامية في غضون ذلك، أمراً بضرب كل المواقع النصرانية الحيوية الواقعة في المنطقة الحدودية، وعجز أردونيو الثالث عن صدِّها والردِّ عليها، ووجد نفسه في النهاية مضطراً إلى الدخول في مفاوضات مع قرطبة تنازل بموجبها عن بعض الحصون الحدودية[2]. لكن المعاهدة لم تُنفذ على أرض الواقع، إذ توفي أردونيو الثالث في (أواسط ٣٤٥ هـ/ خريف ٩٥٦ م) في سمورة، ورفض أخوه شانجة، الذي خلفه، توقيعها. فأرسل إليه عبد الرحمن الناصر صائفة في عام (٣٤٦ هـ/ ٩٥٧ م) أجبرته على طلب الصلح[3].

وتعرَّض شانجة، في ذلك الوقت، لضغط شعبي، كما تخلَّى عنه عمه الطموح فرديناند كونزالس حاكم قشتالة، فطُرِدَ من ليون في عام (٣٤٧ هـ/ ٩٥٨ م)، وخلفه أردونيو الرابع بن ألفونسو الرابع الملقب بالشرير، وفرَّ شانجة إلى جدته طوطة ـ تيودا ـ في نبرَّة، إلا أنه استردَّ عرشه بعد مرور عامين بمساعدة عبد الرحمن الناصر مقابل تنازله عن عشرة حصون حدودية. وفرَّ أردونيو الرابع إلى برغش لكنه طُرد منها بعد ذلك فالتجأ إلى قرطبة لطلب المساعدة[4].

العلاقة مع مملكة نبرَّة: تراوحت العلاقة بين الخلافة الأموية في الأندلس وبين مملكة نبرَّة بين العدائية والجيدة، وفقاً للظروف التي مرَّت بها كل من الدولتين. ففي عام (٣٠٣ هـ/ ٩١٥ م) استغل ملك نبرَّة شانجة بن غرسية الأول انهماك عبد الرحمن الناصر في قمع الثورات الداخلية وأغار على مدينة تطيلة. وفي عام (٣٠٥ هـ/ ٩١٧ م) اشترك مع أردونيو الثاني ملك ليون في الهجوم على مدن الثغر الأعلى، كما هاجم حصن بلطيرة، فحطَّم ربضه وأحرق مسجده، ما دفع عبد الرحمن الناصر إلى إرسال الحملة المعروفة بحملة مطونية في عام (٣٠٦ هـ/ ٩١٨ م) بقيادة حاجبه بدر بن أحمد لوضع حد لتعدياته[5].

والواقع أن النصارى في نبرَّة كانوا مستغلي فرص، ولم تكن اعتداءاتهم ضد

---

(١) يذكر ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢١٧، أن النزاع كان بين أردونيو وأخيه غرسية وهذا خطأ.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٢١. (٣) المصدر نفسه.

(٤) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٤٣. دوزي: جـ ٢ ص ٤٤ـ ٤٧.

(٥) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٧٢، ١٧٣.

الأراضي الإسلامية إلا استغلالاً للظروف الداخلية التي كانت تمر بها الخلافة الأموية، وتحالف معهم مولّدو الثغر من بني الطويل، الأمر الذي جعلهم يُحقِّقون انتصاراً هاماً بالاستيلاء على حصن منت شون ـ المنتشون ـ في عام (٣٠٧ هـ/ ٩١٩ م)، ودفع عبد الرحمن الناصر في المقابل إلى القيام بنفسه لردعهم، فترأس الحملة التي خرجت من قرطبة في عام (٣٠٨ هـ/ ٩٢٠ م) والمعروفة باسم حملة مويش، فهاجم أراضي ألبة والقلاع ودمَّر حصني وخشمة وشنت أشتبين ومدينة قلونية، قبل أن ينعطف نحو الثغر الأعلى لنجدة تطيلة التي كانت تتعرَّض لاعتداءات شانجة وحلفائه من بني الطويل، وفصل قسماً من جيشه، بقيادة محمد بن لب القسوي، ففتح حصن قلقرَّة في حين فتح هو حصن قلهرَّة. ولجأ شانجة إلى حصن أرنيط ـ أرنيدو ـ، فأعاد تنظيم صفوف قواته وفاجأ عبد الرحمن الناصر وهو يعبر نهر إبرو، غير أنه تعرَّض للهزيمة وارتدَّ إلى شُعب الجبال واعتصم بها، ثم لجأ إلى حليفه أردونيو الثاني، ونسَّقا معاً لاستدراج القوات الأموية إلى عمق الأراضي النصرانية وضربها[1].

واصل عبد الرحمن الناصر تقدمه باتجاه الشمال تحدوه الرغبة في الاصطدام بأعدائه فوق ميدان سهلي، وعسكر في مكان يُدعى خونكيرا يقع غربي بنبلونة، فعبَّأ قواته وانتظر وصول القوات النصرانية المتحالفة التي كانت تتقدم باتجاه ذلك المكان. واشتبك الطرفان في رحى معركة ضارية، دفع النصارى خلالها ثمن جرأتهم حيث منوا بهزيمة فادحة، وتعرَّضوا للدمار شبه التام، ولم يُنقذهم من الفناء الشامل سوى دخول الليل[2].

كان هذا النصر الذي حقَّقه عبد الرحمن الناصر في خونكيرا في (٦ ربيع الأول ٣٠٨ هـ/ ٢٦ تموز ٩٢٠ م) مدوياً، ولم يشأ أن يُضيِّع ثمرته ويدع فرصة للفارين الذين تجمَّعوا في قلعة مويش المجاورة، لالتقاط أنفاسهم، فهاجم القلعة واقتحمها وقتل جميع من فيها، وكان من بينهم عدد كبير من النبلاء والفرسان، ومكث في المنطقة أربعة أيام يهدم القلاع والأبراج ويهاجم الحصون النصرانية ويجمع الغنائم ويُصلح حصون المسلمين، وبخاصة حصن بقيرة المشرف على الحدود مع نبرَّة، ثم عاد إلى قرطبة بدون أن يستثمر انتصاره ويستغل انهيار المقاومة النصرانية، للزحف نحو بنبلونة التي أضحى الطريق إليها مفتوحاً أمامه، وهذا خطأ سياسي وعسكري، لأن شانجة أعاد

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٧٥ـ ١٧٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٧٨ـ ١٨٠. دوزي: جـ ٢ ص ٢٦ـ ٢٨. بروفنسال: ص ٣٤٤.

تنظيم صفوف قواته واستأنف غاراته على الأراضي الإسلامية واستولى على بقيرة. واضطر عبد الرحمن الناصر للقيام بحملة أخرى للقضاء عليه، فخرج من قرطبة في (١٦ محرم ٣١٢ هـ/ ٢٤ نيسان ٩٢٤ م) على رأس جيش كبير متوجهاً إلى نبرَّة، وهي الحملة المعروفة بحملة بنبلونة، وسلك طريق الشرق مخترقاً إقليمي تدمير وبلنسية، فأخضع عدداً من الثائرين منهم عبد الرحمن بن وضّاح في لورقة ويعقوب بن أبي خالد التوزري في مرسية، وتقدم نحو سرقسطة، فانضم إليه التجيبيون، كما انضم إليه زعماء الثغر في تطيلة، ثم عبر نهر إبرِو فألفى نفسه في أراضي نبرَّة، فدمَّر عدداً من المواقع العسكرية الهامة وسيطر على طريق بنبلونة، وأعاد فتح حصني قلقرَّة وقلهرَّة، وكان شانجة قد استردهما، وفتح حصن قرقشتال في وادي أراغون وهدم عدداً من القلاع في تلك المنطقة، ثم اجتاز مضيق فج المركويز قاصداً العاصمة بنبلونة، وفتح في طريقه بشكونسة، مسقط رأس شانجة، وحاول هذا التصدي له في الممرات الجبلية، إلا أنه فشل في وقف تقدمه، ووصل إلى مداخل العاصمة التي أخلاها سكانها، فدخلها ودمرها وأحرق قصورها، كما هاجم قلعة قيس إلى الشمال منها فشتَّت سكانها الذين جنَّدهم شانجة، وأضرم النار فيها[١].

أدرك عبد الرحمن الناصر، بعد هذا التوغل في عمق أراضي نبرَّة، أنه حقَّق هدفه على أوسع نطاق، فاستدار نحو الجنوب عائداً إلى قرطبة، فاستراح في حصن مسرة، وهو أول حصون المسلمين الحدودية، فحصَّنه وزوَّد سكانه بالمؤن، وهيأ لهم الظروف التي تمكِّنهم من مقاومة أي هجوم قد يشنُّه النصارى، ووصل إلى عاصمته يوم الخميس (٢٢ جمادى الأولى ٣١٢ هـ/ ٢٦ آب ٩٢٤ م)[٢].

وبهذا الاجتياح الإسلامي، تَمَّ وضع نهاية لأول حلقة من الحملات المكثفة التي بدأت ضد الممالك النصرانية في الشمال خلال عهد عبد الرحمن الناصر، ذلك أن شانجة ما لبث أن توفي بعد عامين، وخلفه ابنه الطفل غرسية تحت وصاية والدته طوطة التي رأت أن مصلحة بلادها الآنية تقضي بالتفاهم مع العاهل الأموي. وهكذا استتب السلام بين الجانبين مدة عشرة أعوام، ونعمت الحدود الإسلامية بالهدوء طيلة تلك المدة[٣].

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٨٥ ـ ١٨٩.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٨٩.
(٣) عبد الحليم، رجب محمد: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف: ص ٢٤٤.

والحقيقة أن الملكة طوطة لم تكن صادقة في تفاهمها مع عبد الرحمن الناصر، وبوصفها ملكة نصرانية، كانت تتطلع دائماً إلى التحالف مع راميرو الثاني، ملك ليون، وصاهرته بأن زوَّجت ابنتها أوراكة منه، وراحت تستغل الفرص المتاحة لنقض صلحها مع العاهل الأموي، فاشتركت مع الملك الليوني في معركة الخندق، ثم ساد السلام مرة أخرى بين الجانبين حتى عام (٣٤٧ هـ/ ٩٥٨ م) بسبب تدخُّلها في شؤون ليون الداخلية وفرض الملوك المنحدرين منها بالمصاهرة، وكثيراً ما كانت تلجأ إلى قرطبة طالبة مساعدة الناصر.

العلاقة مع إمارة برشلونة: تراوحت العلاقة بين المسلمين في الأندلس وبين القطلونيين في برشلونة في عهد عبد الرحمن الناصر، بين العدائية والسلمية، وقد وقع عبء النضال على عاتق أمراء الثغر الأعلى. فقد أغار عبد الملك بن عبد الله الطويل حاكم وشقة على برشلونة في عام (٣٠١ هـ/ ٩١٣ م) واستشهد في قتاله مع حاميتها[(١)].

وتتحدث روايات المصادر عن اعتداء قام به القطلونيون ضد الثغر الأعلى في عام (٣٢٧ هـ/ ٩٣٩ م) مستغلين تقهقر القوات الإسلامية على أثر معركة الخندق، ما دفع الناصر إلى إرسال حملة بحرية لضرب برشلونة من البحر بقيادة محمد بن رماحس، وعندما وصل إلى شاطىء المدينة علم أن حاكمها أعدَّ بعثة للسفر إلى قرطبة لعقد الصلح، ومن ثمَّ لم يعد هناك من مجال للحرب، فعاد إلى المرية. ووصلت البعثة في غضون ذلك إلى العاصمة الأموية وعقدت الصلح مع عبد الرحمن الناصر[(٢)].

كان أمراء برشلونة آنذاك مستقلين عن دولة الفرنجة، وتقوم أسرة بوريل بشؤون الحكم فيها. ولما كانت بعيدة عن فرنسا وقريبة من بلاد المسلمين، وأن العصر كان عصر القوة الإسلامي، فقد حافظ أمراؤها على معاهدة الصلح، وجدَّدوها في عام (٣٤٧ هـ/ ٩٥٨ م)[(٣)]. وعليه فقد سارت العلاقات على جانبي البرينيه مع المسلمين في اتجاه سلمي، وأضحى علينا أن ننتظر حتى نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي لكي نرى برشلونة وقد أصبحت هدفاً للحملات الهجومية من جانب الحاجب المنصور وابنه عبد الملك المظفر.

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٦٤.

(٢) العذري: ص ٨١.

(٣) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٤٣.

غزوات المسلمين في أوروبا[1]: خطا المسلمون في بروڤانس خطوة أخرى في سبيل التوغل في عمق أوروبا. ففي عام (٣١٨ هـ/ ٩٣٠ م) غزوا ثغر فريجوس، وهو من أمنع ثغور فرنسا الجنوبية، كما غزوا ثغر طولون، ففرَّ السكان إلى الجبال المجاورة. وفي عام (٣٢٧ هـ/ ٩٣٩ م) غزوا منطقة ڤاليه في جنوبي سويسرا، واستقروا فيها، واتخذوا منها قاعدة لغزو الأراضي المجاورة في سويسرا وإيطاليا، كما غزوا منطقة جريزون في شرقي سويسرا، ونهبوا دير ديزنتي الشهير، ووصلوا في توغلهم إلى بحيرة جنيف، وجاوزوا إلى مفاوز جورا الواقعة في شمالها. والمعروف أن سويسرا كانت آنذاك إقليماً تابعاً لبرغنديا تحكمه الملكة برت، بالوصاية عن ولدها الطفل كونراد، وسيطروا على ولاية ليجوريا في شمالي إيطاليا، وفتحوا آكام الألب وممراتها، وفرضوا الضرائب على المسافرين، واستطاعوا، بسيطرتهم على ممر سان برنار المهم الموصل بين سويسرا وإيطاليا، وغيره من الممرات الجبلية؛ أن يجتاحوا الأنحاء المجاورة، ويبثوا الرعب فيه. واستقرت جموعهم في السهول والضياع القريبة من معاقلهم، ونفذوا إلى منطقة نيس واخترقوا قلب ولاية دوفينيه، وغزوا غرينوبل وسيطروا عليها مدة من الزمن، كما سيطروا على واديها الخصيب جريزيڤودان الذي يجري فيه نهر الإيزر، وهو فرع من نهر الرون، وفرَّ أسقف غرينوبل إلى الشمال. وما جرى من نزاع بين اللمبارديين وبين سكان كامبانيا، هيأ لهم أن يمضوا في غاراتهم، وأن تلتمس القوى المتنازعة في إيطاليا، منهم المساعدة، فهاجموا دير القديس بنيدكت في مونتي كاسينو.

تجاه هذا التوغل الإسلامي في عمق القارة الأوروبية، نهض الملوك والأمراء الأوروبيون لوقف المسلمين عند حدِّهم ودفعهم إلى الجنوب، وعلى رأسهم هيوج، ملك بروڤانس، والامبراطور البيزنطي رومانوس ليكابينوس. وتردَّدت نداءات البابا لدى أمراء أوروبا بالسعي لمكافحة هذا الخطر الداهم، وكان الامبراطور الألماني أوتو أشد ملوك أوروبا اهتماماً بالقضاء على خطر المستعمرات الإسلامية، لأنه يدنو من أملاكه.

ورأى هيوج أن يبدأ بحصن فراكسنتم الذي يمتنع به المسلمون ويتخذونه قاعدة لتأمين مواصلاتهم مع الأندلس وإفريقيا من جهة، والإغارة على الداخل الأوروبي

---

(١) أرسلان: ص ١٦٠ـ ١٧٧، ١٨٥، ١٨٦.

من جهة أخرى، وكتب إلى صهره الامبراطور البيزنطي رومانوس ليكابينوس أن يمدَّه بأسطول بحري من قاذفات النار الإغريقية لمهاجمة المسلمين من البر والبحر، فلبى نداءه. وفي عام (٣٣١ هـ/ ٩٤٣ م) رسا الأسطول البيزنطي في مياه سان تروبيه، وزحف هيوج في الوقت نفسه باتجاه فراكسنتم. وعلى هذا الشكل هاجم المسلمين من البر والبحر فأحرق سفنهم، ونفذ إلى الحصن. وفرَّ المسلمون إلى الآكام، وكاد يقضي على سلطانهم في تلك الأنحاء، لولا أن نازعه على السلطة خصمه ومنافسه بيرانجيه، فغادر المنطقة عائداً إلى إيطاليا، واضطر أن يعقد صلحاً مع المسلمين مقابل أن يتمركزوا في رؤوس الألب وممراته ويغلقوا الطرق بوجه خصمه. وبذلك استعاد المسلمون بعض قلاعهم وسيادتهم في جنوبي بروڤانس.

أما في الشمال، فقد أنشأ المسلمون في الأراضي التي بسطوا سيادتهم عليها، سلسلة من القلاع القوية لتكون مركزاً لغزواتهم في لمبارديا وفي سويسرا، غير أنهم أُخرجوا من بعض الجهات في بيدمونت، وقاد حركة الاسترداد على هذه الجبهة، كونراد، حاكم برغنديا.

العلاقات السياسية ـ الدبلوماسية ـ مع العالم الخارجي

تمهيد: اجتمعت في شخصية عبد الرحمن الناصر مواهب عديدة أهَّلته لأن يكون حاكماً ناجحاً، فهو سياسي مرن، وقائد شجاع، وإداري صلب، يتمتع بثقافة أدبية واسعة، وذوق فني رفيع، ولا بد لشخصية كهذه من أن تترك بصماتها على الأوضاع العامة في الدولة، وأتاحت له الأوضاع السياسية العامة في العالم المعروف آنذاك أن يتبوأ مركز الزعامة في العالم الإسلامي الغربي، وأن يتفوَّق على أقرانه في الشرق، وتحوَّل في العشرة أعوام الأخيرة من عهده إلى رجل العالم الإسلامي القوي الذي له من متانة نظامه في الداخل وسمعته السياسية في الخارج؛ ما يؤهله لأن يكون موضع إعجاب وتقدير الشخصيات المعاصرة التي سعت إلى صداقته وإقامة علاقات ودية معه، ولم يكد يمر عام، في الحقبة الأخيرة من عهده، من دون أن يزور قرطبة عدد من السفراء المسلمين والنصارى يطلبون مقابلة الخليفة.

والواقع أن التعرُّض لموضوع العلاقات السياسية في تلك الحقبة الزمنية من العصور الوسطى، أمر غير يسير، حيث العلاقات العسكرية طاغية على سواها من مظاهر التعاون الودي، وأن الاتصالات والزيارات المتبادلة بين وفود الخلافة الأموية في الأندلس وبين الدول النصرانية، سواء في الشرق أو في الغرب، لم تشغل سوى

جانباً سطحياً في إطار العلاقات الدولية آنذاك، لأن الجانب الأهم كانت تشهده ساحات القتال[1].

العلاقة مع الدولة البيزنطية: كانت الامبراطورية البيزنطية تمر في عهد الامبراطور قسطنطين السابع (٣٣٢ ـ ٣٤٨ هـ/ ٩٤٤ ـ ٩٥٩ م) في وضع القوة في ظل الأسرة المقدونية، وليست بحاجة إلى الدخول في تحالفات مع أطراف خارجية، ومع ذلك، فقد اتسم عهد الامبراطور المذكور بالمحافظة على استمرار العلاقات السياسية الجيدة مع الدول الأجنبية، ومنها الدولة الأموية في الأندلس.

والراجح أن ما اشتهر به هذا الامبراطور من نشاط ثقافي، وما أسهم به في التقدم الفكري البيزنطي، وما أصدره من مؤلفات عديدة، وما أقدم عليه من تشجيع الآخرين على التأليف، كل ذلك كان عملاً رئيساً في التقارب مع قرطبة التي كانت تمر آنذاك في أوج ازدهارها الفكري، وعليه كان بين قرطبة والقسطنطينية انسجام فرضته تطورات الأحداث والظروف المشابهة في عهد كل من عبد الرحمن الناصر وقسطنطين السابع، وأن اتصالات الثاني بالأول تمَّت في هذا الإطار الثقافي، ولا تشير روايات المصادر إلى أبعاد سياسية وراءها أو إقامة علاقة لا تختلف في المضمون والاتجاه عن العلاقات السياسية التي تقوم بين الدول بدافع تبادل التعاون في المجالات الاقتصادية والثقافية والفنية، بدليل أن الامبراطور البيزنطي أهدى العاهل الأموي مخطوطين عظيمين، أحدهما في علم النبات لديسقوريوس، باللغة اليونانية، والآخر في السيرة وأخبار الملوك القدماء لباولو أورسيو، المؤرخ الإسباني اللاتيني الذي عاش في القرن الخامس الميلادي.

يتحدث المؤرخون المسلمون في مجال استئناف العلاقة السياسية بين قرطبة والقسطنطينية عن سفارتين. ففي عام (٣٣٦ هـ/ ٩٤٧، ٩٤٨ م) وفدت على قرطبة سفارة بيزنطية أرسلها قسطنطين السابع تحمل طائفة من الهدايا النفيسة، ويقدمون إلينا تفاصيل شيقة عنها تُلقي ضوءاً على نظم الرسوم السياسية في ذلك العصر. ولما عادت السفارة إلى القسطنطينية، أرسل عبد الرحمن الناصر معها سفيراً هو المستعرب هشام بن هذيل مع هدية قيمة، ليؤكد على المودة، ويوثِّق عرى التقارب بين قرطبة والقسطنطينية، فعاد بعد عامين مع سفارة بيزنطية ثانية، وهي التي حملت

(١) بيضون: ص ٣٢٢.

المخطوطين اللذين أشرنا إليهما. وتفيض الرواية الإسلامية في تفاصيل هذه السفارة إفاضة واضحة، ولكنها لا تُلقي ضوءاً كبيراً على موضوعها وغايتها الحقيقية[1].

العلاقة مع الامبراطورية الرومانية المقدسة: ومن العلاقات المثيرة التي شهدتها قرطبة، أثناء خلافة عبد الرحمن الناصر، ذلك التبادل السياسي بينها وبين فرانكفورت عاصمة الامبراطورية الرومانية المقدسة التي كان يرأسها آنذاك أوتو الأول الملقب بالعظيم (٣٢٤ ـ ٣٦٢ هـ/ ٩٣٦ ـ ٩٧٣ م)، وهو أقوى الشخصيات الأوروبية في ذلك الوقت، والملفت أن هذه العلاقة لا تأخذ سوى حيزاً يسيراً جداً من اهتمام المصادر الأندلسية، فهي تكاد تقتصر على ذكر شخصية السفير وتاريخ الزيارة التي يُرجَّح أنها تمت في حدود عام (٣٤٤ هـ/ ٩٥٥ م)[2].

والمعروف أن عهد أوتو الأول شهد نهضة فكرية كبرى، وأن الإحياء الديني في ذلك العصر، جاء مصحوباً بإحياء ثقافي حتى غدا القصر الملكي في فرانكفورت مركزاً للنشاط الفكري. وقد تزعَّم تلك النهضة التي تُعرف باسم النهضة الأوتية أو السكسونية، برونو، الأخ الأصغر لأوتو، وكان من رجال الدين، كما ظهر عدد كبير من الأدباء الذين كتبوا في الشعر والنثر باللغة اللاتينية، وقد أسهم الملك أوتو نفسه في تلك النهضة على الرغم من مشاغله الكثيرة.

فهل كان التقدم الفكري والثقافي عامل تقارب بين قرطبة وفرانكفورت؟ الواقع أن المصادر لا تشير إلى ذلك على الرغم من احتمال الرغبة لدى أوتو للاطلاع على مظاهر الحضارة الأندلسية.

ويبدو أن عدة اتصالات قد مهَّدت لسفارة أوتو، كان قد بدأها هذا الملك، متخذة طابع الاحتجاج على نشاط البحرية الأندلسية المنطلقة من بروڤانس ضد شواطىء بلاده في جنوبي فرنسا وشمالي إيطاليا وصولاً إلى سويسرا.

وكرد على هذا الاحتجاج، أرسل عبد الرحمن الناصر في عام (٣٣٩ هـ/ ٩٥٠ م) سفيراً إلى أوتو هو راهب مستعرب، وحمَّله رسالة تنطوي على كثير من الغطرسة، وقد توفي في الطريق، فأوصلها مرافقه إلى البلاط الملكي في فرانكفورت، فكان لها الأثر السيء في نفس الملك، فردَّ عليها برسالة حملها يوحنا الجورزيني، وهو رجل دين من دير جورز القريب من متز، فنزل ضيفاً بإحدى المزارع القريبة من العاصمة والمجاورة

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢١٣. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٤٣.

(٢) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٤٣. المقري: جـ ١ ص ٣٥٠.

لكنيسة سان مرتين حيث سُمح له بالمشاركة بالمراسم الدينية التي تجري أيام الآحاد والأعياد، وهي ظاهرة لها دلالة على مناخ الحرية الدينية الشائع في قرطبة في عهد عبد الرحمن الناصر، كما تدل على مرونة هذا الخليفة الذي لم ينفعل إزاء عصبية المبعوث الملكي ورسالته الجدلية حول موضوع الإسلام الذي أصرَّ على إلقائها بين يديه(١).

وجاء تقدير عبد الرحمن الناصر بأن الرسالة التي يحملها الأسقف يوحنا الجورزيني تحتوي على إهانة لكرامته وكرامة الإسلام، فأحاطه علماً بأنه لن يستقبله إلا في حال أن تقتصر المقابلة على تقديم الهدايا التي أرسلها أوتو الأول من دون الرسالة، فرفض يوحنا الجورزيني، وحينئذٍ قرَّر عبد الرحمن الناصر أن يرسل سفيراً إلى الملك الألماني ليستوثق ما إذا كانت الرسالة تُعبِّر عن وجهة نظره أم أن الأسقف اغتنم الفرصة للإفضاء عن آرائه العدائية والمتطرفة في مجلس الخليفة، واختار المستعرب رثموندو، المعروف في المصادر العربية باسم ربيع بن زيد، ليقوم بهذه المهمة، فذهب إلى فرانكفورت واجتمع بالملك الذي رحَّب به، فبدَّد السحب السوداء التي غمرت العلاقة بين البلدين، ولما عاد إلى قرطبة، أرسل معه مبعوثاً شخصياً هو دودون دي فيردون يحمل تعليمات جديدة إلى يوحنا الجورزيني تقضي بالتخلي عن موقفه المتشدِّد، وقرَّر عبد الرحمن الناصر استقباله أخيراً.

لا نعلم شيئاً عن نتائج هذه السفارة، لأن المؤرخين المسلمين لم يتحدثوا عن موضوعها، وأغفل المؤرخون النصارى نتائجها، ولكن الراجح أن وجهة النظر التي أبدتها حكومة قرطبة للسفير الملكي، فيما يتعلق بشأن المستعمرات الإسلامية وغزوات المسلمين لفرنسا وشمالي إيطاليا وسويسرا، أن ليس لها علاقة بتلك المستعمرات، وأنها لا تتحمَّل تبعات أعمالها، ولا تستطيع أن تتدخل في شأنها، وهو استنتاج يؤيده صمت الرواية الإسلامية عن ذكر أخبار هذه المستعمرات، الأمر الذي يدل على أن حكومة قرطبة لم تكن على علاقة رسمية بها، ولا تعني بأمرها، وإن كانت بلا شك تنظر إلى غزواتها وتوغلها في الأراضي النصرانية بعين العطف والرضى، ولكن لوتبراند، وهو مؤرخ كنسي معاصر، يؤكد أن الخليفة كان يحمي المستعمرات ويمدها بالتشجيع والعون(٢).

---

(١) المعروف، وفقاً للعادة المعمول بها، وقبل أن يسلم المبعوث الرسالة التي يحملها رسمياً يجب أن ينقل مضمونها إلى المرسل إليه.

(٢) أرسلان: ص ١٧٩ـ ١٨٢. بروفنسال: ص ٤١٢، ٤١٣.

سفارات أخرى: استمرت سفارات ملوك الدول الأوروبية المختلفة في التوافد على قرطبة لخطب ودِّ عبد الرحمن الناصر، نذكر منها سفارة بطرس بن سيمون الكبير ملك بلغاريا، وسفارة لويس السابع ملك فرنسا، وسفارة بابوية، أرسلها البابا يوحنا الثاني عشر، وكانت تُستقبل بالحفاوة، وتُحقَّق مطالبها(١).

مآثر عبد الرحمن الناصر

توسيع وتحسين المسجد الجامع في قرطبة: تُعدُّ المنشآت المعمارية مظهراً متقدماً من مظاهر الحضارة، ومن ثَمَّ فهي دلالة على الرخاء الاقتصادي واستتباب الأمن في الداخل. ولقد حقَّق عبد الرحمن الناصر في عهده كل المقومات المؤهلة للتقدم الحضاري، بلغت الأندلس خلاله ذروة تفوقها السياسي والعسكري، وهو عهد الانتقال بين مراحل تقدمها وازدهارها ومراحل انحلالها وسقوطها. ولم تحل الحروب التي خاضها من دون قيامه بأعمال إنشائية كبرى، ارتبطت إلى حد كبير بمناخ الاستقرار السياسي الذي خيَّم على الأندلس منذ الثلث الأول من عهده، وقد ساهم فيها الأمراء، ورجال الحكم وأصحاب الثراء من الناس، المتأثرون بالذوق الفني الذي انتقل إلى خارج القصور ليصبح طابع المدينة بصورة عامة(٢).

التفت عبد الرحمن الناصر إلى توسيع وتحسين المسجد الجامع في قرطبة، في خطوة لجعله معلماً حضارياً، فهدم منارته القديمة وبنى مكانها المنارة العظمى، وذلك في عام (٣٤٠ هـ/ ٩٥١ م). وتمتاز هذه المنارة بفخامتها وارتفاعها الشاهق، وهي مربعة الواجهات، ولها أربعة عشر شباكاً ذات عقود، وتحتوي على سلَّمين أحدهما للصعود والآخر للنزول، وركِّب في قمتها ثلاث تفاحات كبيرة، اثنتان من الذهب والثالثة من الفضة(٣). كما أعاد بناء صحن المسجد، فجعل من أعمدته وأسطواناته بدائل تذكارية من دمشق، وهو أمر ليس مستغرباً من أمير أعاد بناء صلة أسرته بسيادة الأمويين على بلاد الشام. وجدَّد واجهة المسجد، وزاد في توسعته زيادات كبيرة، وذلك في عام (٣٤٦ هـ/ ٩٥٧ م). وبنى أبواباً داخلية في مواجهة الأبواب الموجودة في الأسوار، كما بنى مظلة في صحن المسجد تقي المصلين، الذين لا يجدون مكاناً داخل المسجد، أشعة الشمس في أيام الحر.

---

(١) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٤٣.

(٢) بيضون: ص ٣٢٤.

(٣) ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٣٨.

بناء مدينة الزهراء: في الوقت الذي كان فيه بناء المساجد مزدهراً، خُصِّصت أموال طائلة لبناء إحدى المدن الخاضعة لسيطرة عبد الرحمن الناصر المطلقة، والمحيطة بأطراف قرطبة على بُعد خمسة أميال إلى الشمال الغربي منها في سفح جبل العروس. إنها مدينة الزهراء التي بوشر في بنائها في (محرم ٣٢٥ هـ/ تشرين الثاني ٩٣٦ م) واستمر طيلة أعوام عديدة، وتتألف من قصور وسرادقات وحدائق ومساجد ومبانٍ للحياة الملكية والذوق الرفيع كالحمامات والمعامل والثكنات العسكرية[١]. وتكمن دوافع بنائها في الظواهر التالية:

ـ كانت قرطبة قد بلغت آنذاك أوج عظمتها وازدهارها، لكنها ضاقت بما تتطلبه عظمة الناصر وأبهة ملكه، وبدت في نظره غير جديرة بدولة أموية قوية وواسعة، وغير ملائمة بخلافة أموية متنامية، وأخذ يشعر بضرورة أن تكون له إقامة جديدة ورحبة.

ـ أراد عبد الرحمن الناصر الابتعاد عن صخب العاصمة التي اكتظت بالسكان وضاقت بهم مرافقها، وعليه، فإن بناء مدينة الزهراء مرتبط بالضغط البشري على عاصمة الخلافة.

ـ كان عبد الرحمن الناصر شغوفاً بالعمارة والبناء وإبراز فخامة الملك، فأراد أن يذكي هذه النزعة في نفسه بإقامة هذه الضاحية الملوكية لتكون عاصمة جديدة تنعكس عليها ملامح العصر الذهبي للأسرة الأموية في الأندلس.

ـ ربما يكون سبب بناء مدينة الزهراء، أسطورة على غرار الأساطير التي ترتبط بقيام المدن والمنشآت الكبيرة. فيذكر المؤرخون أن بناء المدينة كان بادرة تكريم لإحدى جواريه التي تحمل الاسم نفسه، وأنها هي التي أوحت إليه بهذه الفكرة. ويبدو أن مثل هذه الروايات لم تكن خيالاً أو من وضع المؤرخين المتأخرين، إذ لو أن عبد الرحمن الناصر فكَّر بالاقتداء بالملوك المسلمين العظام لكان الأَولى أن يُطلق على المدينة الجديدة اسم الناصرية.

روعي في تخطيط الزهراء نظام المدينة الكاملة لتستوعب أجهزة الحكم ورجال الحاشية والجيش. وعهد الناصر إلى ابنه وولي عهده الحكم بالإشراف على عملية البناء، واستقدم أمهر المهندسين والصناع الأمويين الفنانين من سائر الأنحاء، لا سيما من بغداد والقسطنطينية، وجلب إليها الرخام الأبيض والأخضر والوردي من المرية

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٣١، ٢٣٢.

وريَّة وقرطاجنة وتونس والشام والقسطنطينية، وكان يعمل في بنائها عشرة آلاف عامل يومياً[1].

وبنى عبد الرحمن الناصر فيها قصراً لم يدَّخر وسعاً في تنميقه وزخرفته حتى غدا تحفة رائعة من الفخامة والجلال، تحفُّ به الحدائق الغنّاء والجنان الساحرة. وأنشأ فيه مجلساً ملوكياً جليلاً سُمي بقصر الخلافة، وخصَّص له جناحاً محمياً من الغرف والدهاليز ما يوحي بقوة الحكم ورغبته في العزلة، إذ كان على من يريد الوصول إلى الخليفة أن يخوض في متاهاتها، فإذا وصل إلى قاعدة العرش، عندها يمكنه مشاهدة الخليفة[2].

لا نعلم، على وجه اليقين، تاريخ انتقال الخليفة مع أهله وبلاطه إلى المدينة الجديدة، على الرغم من أنه لم ينتظر حتى تنتهي أعمال البناء، لكن لدينا دليلاً على إقامة مراسم استقبال في هذا المقر الجديد في عام (٣٣٣ هـ/ ٩٤٥ م)، كما تَّم نقل الخدمات العامة تدريجياً بالإضافة إلى دار السكة.

واهتم عبد الرحمن الناصر بتنشيط الحركة التجارية والعمرانية، فحوَّل الجزء الأسفل من المدينة إلى حي تجاري، وأمر بإنشاء عدد من الأسواق، ومنح التجار الذين يزاولون نشاطهم التجاري حوافز مالية، وبذلك تحولت الزهراء إلى مدينة للمتعة بالإضافة إلى مدينة تجارية وإدارية، على الرغم من أنها لم تُلحق بالتطور الاقتصادي لقرطبة القريبة منها أي نوع من الضرر.

بطانة الخليفة ـ الصقالبة: قامت سياسة الدولة الأموية في الأندلس، منذ أوائل عهد الإمارة، على اصطناع الموالي والصقالبة، واتخاذهم أداة وبطانة. فقد عمد عبد الرحمن الداخل، بتأثير الظروف العصيبة التي أحاطت بقيام إمارته، والثورات الكثيرة التي واجهته، بالإضافة إلى المشكلات التي أثارها خصومه ومنافسوه من زعماء القبائل العربية، الذين بدأت ثقته بهم تضعف؛ إلى الابتعاد عن العرب، وتقريب البربر والموالي الذين ساندوه في أوقات المحنة، ومكّنوه من تثبيت زعامته وإمارته.

وحافظ خلفاء عبد الرحمن الداخل على هذه السياسة. ومنذ عهد الحكم الأول، نلاحظ اشتداد نفوذ الموالي والصقالبة في البلاط وفي أجهزه الدولة، وكانوا أداة طيعة في يد الحكام. وبدأ استخدام هؤلاء يتزايد ويتسع في عهد عبد الرحمن الناصر الذي

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٣١. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٣٨.

(٢) ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٤٠، ٤١.

انتهج سياسة أسلافه، وكان الإطار الذي نُسِجَ حوله يوصف دائماً بأنه محط لحركة دائبة من جانب هؤلاء الذين شكّلوا ما يمكن أن نطلق عليه بيته المدني، أو أفراد أسرته المحيطين به[1]. وحتى يتحرك هؤلاء بحرية داخل القصر الخلافي بما فيها الأماكن التي كانت تحوي النساء، أضحى من الضروري أن يكونوا من الخصيان.

كان الصقالبة من أصل أوروبي، وهو الاسم المماثل للسلافي. وعلى العكس من كل ما يمكن أن تثيره هذه التسمية من اعتقاد حول أصلهم الوضيع؛ لا يوصف هؤلاء بهذا الوصف، بل إن التسمية تكمن في لفظة ذات معنى موازٍ لكلمة عبد في اللغات الأوروبية، حيث أن لفظي سلافي وصقلبي يصدران عن أصل اشتقاقي واحد له المعنى نفسه.

ويطلق الجغرافيون المسلمون اسم الصقالبة في الأندلس على كل العبيد الأجانب من أصل أوروبي. وكان يؤتى بهم أطفالاً، بواسطة البحارة وتجار الرقيق، فيربون تربية إسلامية، ويُستخدمون في القصور. ومنذ عهد عبد الرحمن الناصر ازداد تدخلهم في الشؤون السياسية والإدارية والعسكرية، واستأثروا ببعض المناصب الكبرى، ونبغ عدد منهم في الأدب والنثر والشعر، وامتلكوا الضياع والثروات، وفاق عددهم في عهده عهود من سبقوه، حيث قُدِّروا بثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين، وفي رواية أن عدد الفتيان الصقالبة في مدينة الزهراء، عند وفاة عبد الرحمن الناصر، كان ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين، وعدد النساء بالقصر ستة آلاف وسبعمائة وخمسين، تجري عليهم جميعاً رواتب الطعام بسائر صنوفه[2].

أمدَّ عبد الرحمن الناصر الصقالبة بالنفوذ والسلطان، وأرغم أشراف العرب وزعماء القبائل على الخضوع لهم، ووصل عدد منهم في عهده إلى منصب قيادة الجيش مثل نجدة، كما أن معظم الضباط كانوا منهم. وأدَّت هذه السياسة إلى تراجع قوة الجيش وفتور قواه المعنوية بسبب حنق الضباط والجنود العرب.

كان أكثر الصقالبة أهمية، أولئك الذين تمتعوا بامتياز مكَّنهم من القيام بتأمين الخدمة الشخصية للخليفة، والذي تم تنظيمه بواسطة نظام معقَّد، مماثل لما كان سائداً في بغداد في ذلك الوقت والذي أخذه العباسيون عن الساسانيين الفرس، واختار الخليفة مجموعة أخرى من بينهم، أوكل إليهم حراسته الشخصية.

---

(١) دوزي: جـ ٢ ص ٣٧ـ ٣٩ بروفنسال: ص ٣٩٠.

(٢) ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٤١.

وفاة عبد الرحمن الناصر: مرض عبد الرحمن الناصر في (أوائل عام ٣٤٩ هـ/ ربيع عام ٩٦٠ م) نتيجة برد شديد أصابه، واحتجب بعض الوقت، وانكبَّ الأطباء على معالجته حتى تحسَّنت حالته نسبياً، فعاد إلى الجلوس في القصر كعادته، ولكنه أصيب بنكسة أخرى، واضطر إلى الاحتجاب مجدداً، ولبث أشهراً تشتد به العلة حيناً وتخفُّ أحياناً حتى توفي في (٢ رمضان ٣٥٠ هـ/ ١٥ تشرين الأول ٩٦١ م) في قصر الزهراء وهو في الحادية والسبعين من عمره، واستطال حكمه زهاء خمسين عاماً، وهي أطول مدة حكم فيها خليفة مسلم إذا استثنينا عهد المستنصر بالله الفاطمي في مصر، ودُفن في ضريح العائلة بالقصر(١).

شخصية عبد الرحمن الناصر: هل لنا أن نصدر حكماً على عبد الرحمن الناصر ونضعه في المرتبة التي يستحقها؟ إن المصادر الإسلامية الأندلسية لا تزودنا بصورة كاملة عن شخصيته لأنها تنظر إليه بعين واحدة قلَّما نصادف فيها شيئاً إلا الإغراق في مدحه والثناء عليه. أما المصادر الإسبانية النصرانية، فهي، وإن كانت أكثر نقداً، إلا أنها تتسم غالباً بالتحامل، لكننا إذا قارنَّاه بنظرائه النصارى لوجدناه أكثر تمدناً وحضارة، ويستوقف نظرنا الامبراطور البيزنطي قسطنطين السابع، وأوتو الأول امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة، وهما أقوى حكام أوروبا في ذلك الوقت، إلا أنهما حاولا كسب ودِّه والتقرب منه.

لقد حالف النصر عبد الرحمن الناصر في صراعه الداخلي مع الثائرين على حكمه، وفي صراعه الخارجي مع النصارى في الشمال. والواقع أن الجيوش الأموية توغَّلت في أراضي النصارى، ولكن أي جيش نصراني لم يجرؤ على الاقتراب من قرطبة، وبدا لبعض الوقت أن استمرار الممالك النصرانية في الوجود مردُّه إلى إرادة الناصر وأنه هو الذي سمح بذلك.

استطاع عبد الرحمن الناصر أن يجعل من الأندلس دولة شاع فيها السلام والأمن والازدهار، تنعم بثراء لا حدود له، ومن دون أن يلتقط أنفاسه، شنَّ حرباً ناجحة ضد أعدائه، وضمن بقوة جيشه أمن حدوده، وتجنَّب بمهارة التهديد الفاطمي، وجعل من قرطبة عاصمة تنافس القيروان والمدن الكبرى في المشرق، والتي تجاوزت بكثير العواصم الأوروبية الغربية، وحظيت في عالم البحر الأبيض المتوسط بسمعة طيبة ومكانة يقارنان فقط بما كانت تتمتع به القسطنطينية. وعلى الرغم من الحكم المطلق

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢٢٣، ٢٣٢.

الذي كان سائداً في العالم المعروف آنذاك، فإن حكمه كان بعيداً عن الأخطاء التي كان بالإمكان أن يقع فيها أمير لا يتمتع بكفاءته، ولا يعرف واجباته جيداً.

كان عبد الرحمن الناصر أجرأ وأكرم من أنداده النصارى في مجال التسامح الديني، إذ أجاز للنصارى واليهود ممارسة شعائرهم الدينية في الأندلس بحرية تامة، فقرَّب اليهود، وعيَّنهم في المناصب المالية، هذا في الوقت الذي اتصف فيه النصارى بالتعصب الديني ضد كل ما هو غير نصراني، وآوى إلى بلاطه رجالاً من مختلف الأديان، كان يستشيرهم في شؤون الحكم.

يمكن تصنيف حكم عبد الرحمن الناصر، الذي امتد لنصف قرن، إلى ثلاث مراحل زمنية تكاد تكون متساوية فيما بينها:

الأولى: فرض فيها سلطته على أتباعه ورفع نفسه إلى أعلى درجات الخلافة.

الثانية: خصَّصها لتنظيم البلاد، وإظهار نفسه فيما وراء الحدود كعدو مهاب، والذي يصبح من التعقُّل التعامل معه بكل احترام.

الثالثة: تحوَّل إلى حاكم مستبدٍ بمعنى الكلمة، بفعل العرف السائد آنذاك، مزهواً وفطناً، في دولة يصبح كل شيء فيها تابعاً للحاكم ويصبح القصر مركزاً للحياة العامة، ويشتدُّ نفوذ الحاشية من دون إمكان تفادي مثل هذا الأمر بممارسة نفوذ قوي عليه، وأن هذا البلاط الخليفي المرسوم على نمط شرقي، والذي يمتلىء بالخصيان والنساء، يصبح مسرحاً لكل أنواع الدسائس في دولة تُقرِّر فيها إرادة رجل واحد كل شيء، وبالتالي يتوجب أن يكون هذا الرجل قوياً لا يخضع لتأثير المقرَّبين إليه، وهنا يصبح مصير الدولة مرهوناً بالقرار الذي يصدره في كل أمر من أمورها بوصفه قراراً لا يقبل المناقشة[١].

قدَّر عبد الرحمن الناصر قيمة الحياة الإنسانية تقديراً غير مبالغ فيه، من خلال النبذة التي تركها بعد وفاته بخط يده، يقول فيها: «أيام السرور التي صفت لي بدون تكدير في مدة سلطاني يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا»، «فعُدَّت تلك الأيام فوُجد فيها أربعة عشر يوماً. فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا، وعدم صفائها، وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها. إن الخليفة الناصر ملك خمسين سنة وسبعة أشهر وثلاثة أيام، ولم يَصْفُ له من الدنيا إلا أربعة عشر يوماً، فسبحان ذي العزة العالية والمملكة الباقية، تبارك اسمه وتعالى جَدُّه»[٢].

---

(١) بروفنسال: ص ٤١٤، ٤١٥.

(٢) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢٣٢.

الفَصْلُ الحَادِي عَشَرْ

الحكم المستنصر ـ هشام المؤيد: المرة الأولى

الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر: الحكم الثاني: (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ/ ٩٦١ ـ ٩٧٦م)

تولي الحكم المستنصر الحكم: طويت، بوفاة عبد الرحمن الناصر، ألمع صفحة في تاريخ المسلمين في الأندلس، استقرت الخلافة خلالها على أسس ثابتة، وسُحقت الثورات الداخلية، ورُدَّت اعتداءات النصارى في الشمال، وتمتَّعت الأندلس في أواخر أيامه بعهد من السلم والاستقرار والرخاء لم تشهده من قبل.

خلف عبد الرحمن الناصر أكبر أولاده، الحكم المستنصر، وكان والده قد آثره، منذ حداثته، على سائر إخوته وولَّاه عهده، وبويع في اليوم التالي لوفاة والده في قصر الزهراء، وجلس على العرش في البهو الأوسط الذهبي، وتلقَّى البيعة من إخوته، وسائر الوزراء، ورجال الدولة، وأكابر فتيان الصقالبة، وأهل الخدمة، وكبار قادة الجند[١].

شخصية الحكم المستنصر: تولى الحكم المستنصر منصب الخلافة ولديه تجربة في فن الحكم اكتسبها في عهد والده، إلا أنه لم يكن رجل سياسة محترف، بل كان نموذجاً خاصاً بين الحكام الأمويين في الأندلس. وحرص خلال عهده على عدم تغيير القواعد السياسية التي أرساها والده، واستمر على نهجه في الحكم، لكنه لم يكن على المستوى نفسه من الحزم والقوة التي كان عليها والده[٢]. ولعل الفارق بين الرجلين أن الأب كان شديد الحذر لا يطمئن إلى مساعديه إلا بمقدار، إنطلاقاً من

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٣٣. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٤٢.

(٢) بيضون: ص ٣٢٧.

إيمانه بنظرية الحق المطلق، في حين أن الابن ألقى كثيراً من أعباء الحكم على عاتق وزيره جعفر بن عثمان المصحفي[1]، ويبدو أن لذلك علاقة بمدى اهتمام الخليفة بجمع الكتب وقراءتها الذي لايتفق عادة مع السياسة، والمعروف أن الحكم المستنصر كان عاشقاً للكتب جمَّاعاً لها حتى الهوس، حافظاً للتاريخ، وفي هذا دلالة على أنه كان مدمناً على القراءة، يقضي معظم ساعات النهار في مكتبته الزاخرة بصنوف المخطوطات، أو في صحبة العلماء والفلاسفة والمؤرخين، نذكر منهم ابن حزم، صاحب كتاب جمهرة أنساب العرب وأبو علي القالي اللغوي، صاحب كتاب الأمالي، وربيع بن زيد، عالم الفلك والفلسفة، ورجل له تلك الهواية، من الطبيعي أن يجد في السلطة مكاناً غير مناسب إلى حد ما، ومع ذلك فإنه كان يجد متسعاً من الوقت للقيام بأعباء الحكم ومعالجة شؤون الدولة، والواضح أن التجاه إلى اقتناء الكتب وقراءتها مردُّه إلى الاستقرار السياسي الذي شهده عصره[2].

العلاقات الخارجية

العلاقات مع القوى في شمالي إفريقيا

تمهيد: كانت الدعوة للأمويين قد بدأت تتقلَّص في المغربين الأوسط والأقصى في أواخر عهد عبد الرحمن الناصر، وفَقَدَ هذا الخليفة فجأة ما بذله من جهد لاستقطاب قبائل زناتة وضمان ولاء الأدارسة، وقد أدَّت حملة الفاطميين بقيادة جوهر الصقلي، التي اجتاحت المنطقتين المشار إليهما، إلى التقليل من شأنه. وعندما تولى الحكم المستنصر مقاليد الأمور، لم يرث عن أبيه في شمالي إفريقيا سوى منطقتي سبتة وطنجة، لكنه لم يسمح بتفاقم الوضع، وواجه الموقف بجديَّة وحزم ملتزماً بشكل مطلق بنهج والده فيما يتعلق بالعداء الشديد للفاطميين. وأتاح له توجُّه هؤلاء نحو مصر وتراجع اندفاعهم باتجاه المغرب الأقصى؛ أن يملأ الفراغ الذي تركه المعز الفاطمي، واتخذ عدة خطوات لدعم سياسته، منها:

- حصَّن القاعدتين البحريتين سبتة وطنجة اللتين لم تتعرَّضا لهجمات جوهر الصقلي، وأسقط عن سكانهما الضرائب لتشجيعهم على الصمود.

---

(١) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٤٤.

(٢) المقري: جـ ١ ٣٧٨. بيضون: ص ٣٢٨.

ـ طوَّر الأسطول البحري، فضاعف عديده وعدته، واتخذ من مدينة المرية قاعدة بحرية لمواجهة الأسطول الفاطمي في البحر الأبيض المتوسط.
ـ وثَّق علاقته بزعيم زناتة محمد بن الخير المعادي للفاطميين.
ـ استقطب القبائل البربرية في المغرب الأقصى، من غير الزناتيين، وجيَّشها ضد الفاطميين.
ـ عزَّز سلطة أهل السُنَّة في شمالي إفريقيا، وطارد أنصار المذهب الإسماعيلي، وقاوم الدعاية الفاطمية[(١)].

نتيجة لهذه السياسة الأموية، أسرع الأدارسة الشيعة بتجديد الولاء والطاعة للأمويين، كما تتابعت الرسل والوفود من المغرب لتقديم الطاعة وتدعيم الصلة بين المغاربة والأندلسيين، وتلتمس، في الوقت نفسه، المساعدات العسكرية والمادية من حكومة قرطبة لمواجهة الخطر الفاطمي[(٢)].

وهكذا أضحى المغربان الأوسط والأقصى منقسمين ومتحاربين، فتمكَّن بنو زيري الصنهاجيون من فرض سيطرتهم، باسم الدولة الفاطمية، على القسم الشرقي من المغرب الأقصى حتى نهر ملوية، وظل القسم الغربي من ملوية حتى طنجة خاضعاً لسيطرة زناتة وحلفائها الأمويين في الأندلس، وأدَّى ذلك إلى حدوث نوع من توازن القوى في المنطقة بين الخلافتين الأموية والفاطمية.

العلاقة مع الصنهاجيين: في الوقت الذي كان فيه الحكم المستنصر يعمل على تأمين حدود بلاده الجنوبية من الغزو الفاطمي، باكتساب تأييد زعماء المغربين الأوسط والأقصى، كان المعز الفاطمي بصدد مغادرة إفريقيا إلى مصر بعد أن استولى عليها قائده جوهر الصقلي، وأسس فيها عاصمة جديدة للفاطميين هي القاهرة المعزية[(٣)]، واختار بلكين بن زيري الصنهاجي والياً على أملاك الفاطميين في شمالي إفريقيا[(٤)]، فدخلت المنطقة في عهد جديد، وأضحى الصنهاجيون الطرف الآخر في الصراع مع الأمويين في الأندلس.

كانت هذه نقطة الضعف في السيادة الفاطمية على المغربين الأوسط والأقصى التي استغلها الحكم المستنصر بدعم حليفته زناتة، وذلك لتحقيق هدفين:

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٣٦. (٢) المصدر نفسه: ص ٢٣٩، ٢٤٠.
(٣) عماد الدين، إدريس: عيون الأخبار، السبع السادس ص ١٥٢.
(٤) النويري: جـ ٢٤ ص ١٦٨. ابن خلدون: جـ ٦ ص ٣١٧. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٣٢٠.

الأول: الاحتفاظ بالمواقع العسكرية التي كانت تحت السيطرة الأموية على ساحل المغرب الأقصى مثل سبتة وطنجة ومليلة.

الثاني: إضعاف الحكم الفاطمي في هذه المنطقة بتحقيق تعادل في الموازين السياسية.

وما لبث الصراع في المنطقة أن اتخذ بُعداً محلياً مع غياب الحكم الأموي والفاطمي المباشر، فأخذت القوى السياسية في الداخل تتزاحم على النفوذ مستغلة هذا الفراغ الذي حدث مع تضعضع الزعامة الفاطمية هناك. وتراخت قرطبة على ما يبدو في اندفاعها، إذ لم يعد هناك مخاوف من تدخل فاطمي في شؤون الأندلس، ومع ذلك لم يرَ الحكم المستنصر مانعاً في استمرار قرطبة القيام بدورها كحكم في الشؤون السياسية في المغربين الأوسط والأقصى، فدعم زناتة في صراعها مع صنهاجة.

العلاقة مع الأدارسة: تقلَّصت دولة الأدارسة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وانحصرت في منطقة الريف الشمالية، بين غربي المضيق والمحيط الأطلسي، واتخذ هؤلاء قلعة حجر النسر الشاهقة، الواقعة في جنوبي تطوان، قاعدة لهم بعد أن خسروا مدينة فاس[١]، ومع ذلك لم تكن دولتهم مستقلة تماماً، إذ كانت تنضوي تحت راية المتغلب على المغرب الأقصى، سواء الأمويين أو الفاطميين، في محاولة للمحافظة على ما تبقَّى من كيانها[٢].

كان زعيم الأدارسة، في أواخر عهد عبد الرحمن الناصر، الرجل الطموح الحسن ابن كنون الذي نشأ على كراهية الأمويين على الرغم من طاعته للحكم المستنصر، وقرَّر أن يعيد للأدارسة أمجادهم السابقة، ويمد نفوذه إلى السهول المغربية والمناطق الجبلية الممتدة شمالي وادي ليكوس، فاستغل الصراع الداخلي في المغربين الأوسط والأقصى، بين الزناتيين والصنهاجيين، واستولى على طنجة وتطوان وأصيلة، فأسقط بذلك التفاهم السياسي الهش بينه وبين الأمويين.

انتاب القلق الحكم المستنصر نتيجة توسع الحسن بن كنون الذي أدَّى إلى تقلص النفوذ الأموي في المغرب الأقصى، ورأى ضرورة التدخل المباشر لمعالجة الوضع المتدهور واستئصال شوكة الأدارسة، فأرسل حملة عسكرية ضخمة، بقيادة محمد بن

---

(١) ابن خلدون: جـ ٦ ص ٢١٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢١٨، ٢١٩.

القاسم بن طملس، وأمير البحر عبد الرحمن بن رماحس، نجحت في استعادة طنجة وتعقبت محمد بن كنون الذي فرَّ إلى الجبال. وسيطر محمد بن القاسم بن طملس على مدينة دلول واستردَّ أصيلة[1].

لم يركن الزعيم الإدريسي إلى الهدوء، وما لبث أن أعاد تنظيم صفوف قواته وباغت الجيش الأموي في فحص مهران في ضواحي طنجة وهزمه، وقتل القائد محمد بن القاسم بن طملس مع ألف وخمسمائة من جنده، وذلك في (ربيع الأول ٣٦٢ هـ/ كانون الأول ٩٧٢ م)، وفرَّ من نجا من القوات الأموية إلى سبتة، وطلب أفرادها مساعدة عاجلة من قرطبة[2].

لم يتأخر الحكم المستنصر في تلبية طلب المساعدة، ويدل ذلك على اهتمامه الشديد بمحو آثار الهزيمة واستعادة السيطرة على المغرب الأقصى بخاصة، وإصراره على التحكم في أوضاعه، فاستدعى غالب بن عبد الرحمن، قائد الثغر الأوسط، من مدينة سالم، وكلَّفه بالانتقال إلى المغرب الأقصى لقتال الأدارسة، وأمده بالمقاتلين والأموال لاستقطاب القبائل المغربية المعادية لهم[3].

أبحر غالب بن عبد الرحمن من ميناء الجزيرة الخضراء في (رمضان ٣٦٢ هـ/ حزيران ٩٧٣ م) إلى طنجة، ثم تقدم نحو قلعة حجر النسر التي احتمى بها الحسن ابن كنون، وحاصرها، وسانده أسطول بحري بقيادة عبد الرحمن بن رماحس، إلا أنه لم يتمكَّن من اقتحامها، واضطر إلى طلب المساعدة من قرطبة ومن القوى المحلية الموالية للأمويين، فأمدَّه الحكم المستنصر بقوة عسكرية بقيادة يحيى بن محمد بن هاشم التجيبي قائد الثغر الأعلى[4].

ويبدو أن الأدارسة هالتهم الحشود الأموية الضخمة التي كانت تتقدم نحو البصرة، فانفض عن الحسن بن كنون بعض أنصاره بمن فيهم ابنه المنصور وأخته، وانحازوا إلى القوات الأموية، الأمر الذي أثَّر في قوته المادية والمعنوية، فاضطر إلى الاستسلام. ودخل القائد الأموي قلعة حجر النسر في (٢٩ جمادى الآخرة ٣٦٣ هـ/ ٢٠ آذار ٩٧٤ م)، ثم عاد إلى قرطبة مصطحباً معه الحسن بن كنون وأسرته، وقد عبَّروا عن ولائهم الشديد للخليفة، وكافأ الحكم المستنصر قائده غالب فمنحه أعلى

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢٤٥.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٤٦.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢٤٦، ٢٤٧.

الدرجات العسكرية «ذو السيفين» وأعاده إلى مقر قيادته في مدينة سالم، بينما أسند قيادة القوات الأموية في المغرب الأقصى إلى يحيى بن محمد التجيبي[(١)].

وحدث، بعد بضعة أشهر، أن مرض الحكم المستنصر وأصابه الفالج الذي شلَّ حركته، فانتقلت السلطة إلى وزرائه، وبرز منهم جعفر بن عثمان المصحفي، فأعاد خلط الأوراق بسياسته المغربية، فاستدعى يحيى بن محمد التجيبي من المغرب الأقصى ليسد الثغور الشمالية في وجه النصارى، وعيَّن مكانه أميرين من أصل أندلسي، هما جعفر بن علي بن حمدون وأخوه يحيى، نظراً لخبرتهما في الشؤون المغربية، ولشدة عداوتهما للصنهاجيين، وأخرج الأدارسة من الأندلس ليتخلص منهم ومن نفقاتهم الثقيلة، فأبحروا من ثغر المرية إلى إفريقيا، ثم انتقلوا إلى مصر، فاستقبلهم الإمام الفاطمي العزيز بحفاوة، ووعد الحسن بن كنون بمساعدته على استعادة أملاكه من الأمويين وحلفائهم[(٢)].

العلاقة مع الممالك النصرانية في الشمال: واجه الحكم المستنصر، في بداية حياته السياسية، مشكلة تحديد العلاقة مع الممالك والإمارات النصرانية في شمالي الأندلس، من واقع التقلبات السياسية السريعة لملوكها وأمرائها، وكانت هذه العلاقة تتخذ، منذ أواخر عهد عبد الرحمن الناصر، طابعاً ودياً وبخاصة مع الملك الليوني شانجة، ولكنها انقلبت إلى عدائية بعد وفاته. ويبدو أن ملك ليون نكث بعهده بعد أن استقامت له الأمور وشعر بقوته بعد غياب الناصر القوي، إلا أنه لم يذهب بعيداً في الاصطدام بأعدائه الأمويين لأن الظروف تألبت عليه، وشعر بأنه تورط في خرق نصوص المعاهدة التي التزم بها؛ ذلك أن منافسه المخلوع أردونيو الرابع تقرَّب من الخليفة الأموي، وزاره في قرطبة وحصل منه على وعد بمساعدته لاسترداد عرشه مقابل:

- المحافظة على السلام بين قرطبة وليون.
- ألا يتحالف مع حاكم قشتالة الذي كان يغير على الأراضي الإسلامية.
- يقدم ابنه غرسية رهينة، للدلالة على حسن وفائه.
- يتشاور مع الحكم المستنصر قبل اتخاذ أي قرار من خلال مجلس له نوع من الوصاية مؤلف من ثلاثة من كبار المستعربين هم قاضي أهل الذمة في قرطبة، وأسقف العاصمة إصبغ بن عبد الله بن نبيل، ومطران إشبيلية عبيد الله بن قاسم[(٣)].

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٤٧، ٢٤٨.
(٢) ابن خلدون: جـ ٦ ص ٢١٩.
(٣) المقري: جـ ١ ص ٣٧٢ـ ٣٧٦. بروفنسال: ص ٤٣٥.

وفعلاً وضع الحكم المستنصر تحت تصرفه جيشاً بقيادة غالب بن عبد الرحمن، وبدا مركز شانجة، نتيجة ذلك، حرجاً للغاية، فقد رفضت جليقية الاعتراف بحكمه، وبدا أنها سوف تؤيد أردونيو الرابع، وحذت الإمارات الأخرى التي تتبعه حذوه حتى لا تعرِّض نفسها لغزو المسلمين.

كان على شانجة أن يبادر فوراً إلى انتهاج وسيلة للخلاص من هذا المأزق، ولم تكن تلك الوسيلة سوى اللجوء إلى قرطبة التي أضحت مركزاً لتحقيق التوازن النصراني في الشمال، فأسرع بإرسال سفارة إلى قرطبة، قابل أعضاؤها الحكم المستنصر، وأبدوا أمامه رغبة ملكهم بالاعتراف بحكمه، والتعهد بالتنفيذ الأمين للإتفاقية التي وُقِّعت مع عبد الرحمن الناصر[1].

اكتفى الحكم المستنصر بما تعهد به الملك الليوني، ورأى أن لا فائدة من الوعود التي بذلها أردونيو الرابع إذا ما عاد إلى العرش، غير أن هذا الملك ما لبث أن توفي بطريقة غامضة في قرطبة في أواخر عام (٣٥١ هـ/ ٩٦٢ م)، وأدَّى اختفاؤه المبكر من الساحة السياسية إلى:

- تحرير الحكم المستنصر من التزاماته الأدبية بدعم معركته ضد شانجة.
- تبديد مخاوف شانجة وإراحته من كابوس ثقيل.
- أضحى بوسع ملك ليون أن ينكث مرة أخرى، بما تعهد به للحكم المستنصر، وتكوين حلف ضده يجمعه مع ملك قشتالة وأمراء نبرَّة وبرشلونة.

الواقع أن الممالك النصرانية عادت بعد هذه الأزمة موحدة ومتماسكة، وشعرت بأنها قادرة على استئناف الحرب مع الخلافة الأموية. وكان شانجة قد أضحى أقوى شخصية نصرانية، وأكثر المتحمسين للقيام بدور صليبي يُعزِّز مواقعه بإعطاء زعامته لمعاناً وجاذبية في العالم النصراني.

ومن جهته نهض الحكم المستنصر لمواجهة موقف النصارى المعادي في الشمال، ولم يكن أمامه مخرج آخر غير الحرب، فأعلن التعبئة العسكرية في البلاد. هذا ولا تتوافر لدينا معلومات مسهبة حول الحملات العسكرية التي وجَّهها إلى الأراضي النصرانية، لكنه قام أولاً بمهاجمة إمارة قشتالة، وفتح قلعة شنت أشتبين في صيف عام (٣٥٢ هـ/ ٩٦٣ م) وأجبر حاكمها فرديناند كونزالس على توقيع معاهدة سلام[2].

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٣٥.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٦.

لكن معاهدات السلام مع النصارى لم يكن لها، عادة، ذلك المفعول التنفيذي، إذ لا تلبث أن تُنقَض وتصبح فارغة من مضمونها، ولهذا فإن استمرار الحرب لم يكن يثير الدهشة، حيث شنَّ المسلمون سلسلة من الهجمات، ففتحوا بلدة أنتيسة الحصينة[١]، وهزموا أميرها غرسية شانجة الأول، واستولوا على مدينة قلهرَّة وقلعة غرماج المهمة، على نهر دويرة، واتخذوا منها قاعدة لمواجهة السلوكيات العدوانية التي يقوم بها فرديناند كونزالس. وهاجم حاكم وشقة، مدينة مطونية واستولى عليها، وعاثت قواته في أراضي برشلونة. وغنم المسلمون في هذه الغزوات الكثير من السلاح والدواب والأطعمة والسبي[٢]. وبرز في هذه الهجمات كل من القادة يحيى بن محمد التجيبي، حاكم سرقسطة، وغالب بن عبد الرحمن، وسعيد، أحد عتقاء الحكم المستنصر.

حقَّقت الانتصارات الإسلامية، الأمان لمناطق الحدود، من واقع فرض الهدنة على الممالك النصرانية. ثم حدث أن توفي شانجة، ملك ليون، مسموماً في عام (٣٥٥ هـ/ ٩٦٦ م) وخلفه ابنه الطفل راميرو الثالث الذي لم يتجاوز الثالثة من العمر، فتولَّت عمته، الراهبة ألڤيرا، الوصاية عليه. فرفض أمراء ليون الدخول تحت إمرة طفل ووصاية امرأة، وأخذ كل منهم يعلن استقلاله بما تحت يده من إقطاعات، ويتصرف بمعزل عن الآخر، فتفكَّكت بذلك مملكة ليون إلى عدة كيانات راحت تتسابق في إرسال السفارات إلى قرطبة لطلب المساعدة ضد بعضها البعض.

وأرسلت الممالك والإمارات الأخرى سفارات إلى قرطبة، إما بهدف المساعدة أو لتجديد الصداقة والمودة. من ذلك، فقد أرسلت كل من جليقية وأشتوريس سفارة إلى العاهل الأموي، تطلب منه المساعدة لصد خطر النورمان الواقع عليها. ثم وفدت إلى قرطبة، سفارة من جانب شانجة غرسية الثاني ملك نبرَّة، الذي خلف والده، لطلب الصلح. وفي (شعبان ٣٦٠ هـ/ حزيران ٩٧١ م) وفدت إلى العاصمة الأموية سفارة أمير برشلونة بوريل، لتجديد التقارب والمودة مع الحكم المستنصر. وفي (٦ ذي الحجة/ تشرين الأول) وفدت الراهبة ألڤيرا لعقد معاهدة سلام، وكذلك أرسل كل من فرديناند لينيز، كونت سلمنقة، وغرسية فرديناند ملك قشتالة سفارة إلى قرطبة من أجل تحقيق السلام أيضاً[٣].

---

(١) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٤٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٤٤، ١٤٥. دوزي: جـ ٢ ص ٦٥.

(٣) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٤٥، ١٤٦. دوزي: جـ ٢ ص ٦٥، ٦٦.

كان الحكم المستنصر يستقبل تلك السفارات بحفاوة ويُحقِّق رغبة مُرسليها الأمر الذي جعل قرطبة محط أنظار هؤلاء الملوك والأمراء.

كان هذا التقارب الذي سعى إليه ملوك وأمراء النصارى في الشمال الإسباني يُحقِّق رغبة آنية لدى هؤلاء لن تلبث أن تتلاشى بتغيُّر الظروف التي فرضتها، إذ إن الخلافات بين الطرفين الإسلامي والنصراني الشمالي كان عميقاً بشكل لا يمكن ردمه، واشتهر هؤلاء بتقلباتهم السريعة وبأنهم مستغلو فرص. فقد أرسل ملك قشتالة غرسية فرديناند سفارة إلى قرطبة في (ذي الحجة ٣٦٣ هـ/ آب ٩٧٤ م) لتجديد معاهدة السلام، وقام في الوقت نفسه بمهاجمة الأراضي الإسلامية، فاقتحم حصن ديثا الواقع شمال شرقي مدينة سالم، فأحرق الزرع واستاق الماشية. وصلت أنباء هذا الاعتداء إلى قرطبة في الوقت الذي غادرت فيه السفارة القشتالية، فأرسل الحكم المستنصر مَنْ قبض على أعضائها وأودعهم السجن(١).

والواقع أن تصرُّف ملك قشتالة ينمُّ عن قصر نظر في الحقل السياسي، إذ كان يحاول الاستفادة من غياب غالب بن عبد الرحمن، قائد قوات حرس الحدود، في مهمة في شمالي إفريقيا، لكن سرعان ما عاد هذا إلى مركز عمله بناءً على أوامر الحكم المستنصر لمعالجة الوضع المتدهور.

وحدث في غضون ذلك، أن نجح غرسية فرديناند في إقناع جيرانه في ليون ونبرَّة بمساندته في حربه. وفي شهر (شعبان ٣٦٤ هـ/ نيسان ٩٧٥ م) هاجم جيش مشترك من ليون وقشتالة ونبرَّة، يبلغ تعداده نحو ستين ألف مقاتل، حصن غرماج، ونشب قتال عنيف بينه وبين حاميته في (٥ شوال/ ٢٨ حزيران)، تكبَّد فيه الحلفاء خسائر فادحة واضطروا، تحت ضغط القتال، إلى الارتداد عن الحصن، وتعرَّضوا لعملية مطاردة. وكان غالب بن عبد الرحمن يتقدم، في غضون ذلك، نحو الحصن وهو يحمل أوامر واضحة بفك الحصار عنه، فتلقَّى أنباء انتصار المسلمين في الحصن وهو في الطريق، فأراد استغلال هذا الظرف إلى أقصى حد ممكن، فقام بمهاجمة أراضي قشتالة، وألحق الهزيمة بغرسية فرديناند في بيرلانغا، جنوبي نهر دويرة، ثم استولى على هذه المدينة، كما قام والي سرقسطة المرافق للحملة، بمطاردة قوات نبرَّة وهي عائدة إلى بلادها، وهزمها في إستركويل، بالقرب من تطيلة، وفتح المسلمون مدينة براهوما الواقعة شمالي مدينة سالم(٢).

---

(١) بروفنسال: ص ٤٣٧.

(٢) المرجع نفسه: ص ٤٣٧، ٤٣٨.

وبهذا أعاد القائد الأموي غالب بن عبد الرحمن السيطرة الإسلامية إلى وضعها السابق الذي استمر حتى مجيء الخليفة هشام المؤيد.

تجدُّد الغزو النورماني للأندلس

تمهيد: لم تنقطع غارات النورمان على أوروبا الغربية منذ انطلاقهم من بلادهم في سكنديناوة وشبه جزيرة الدانمارك في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وقد عانت إنكلترا وفرنسا بشكل خاص من خطرها. وعجزت الامبراطورية الكارولنجية عن صَدِّ هذه الغارات ومقاومة تلك الأخطار، واضطر ملوك فرنسا أن يعقدوا معهم المعاهدات لاتقاء خطرهم، كما بذلوا لهم الأموال مقابل وقف تعدياتهم.

لكن سرعان ما أثبتت الأحداث أن الاتفاقيات التي عقدها ملوك الغرب بعامة مع النورمان لا قيمة لها ما دام هؤلاء الملوك لا يملكون القوة التي يجبرون بها أعداءهم على احترام تعهداتهم، لذلك لم يلبث النورمان أن عادوا إلى تهديد فرنسا على مراحل زمنية متقاربة، ولما فشلوا في الاستقرار في برغنديا، وجَّهوا غاراتهم إلى ذلك الجزء من فرنسا الممتد من السوم حتى بريتاني، وكانوا بقيادة زعيمهم رولون، واضطر الملك الفرنسي شارل البسيط أن يعرض عليهم الاستقرار في هذا الجزء بموجب معاهدة سانت كلير الشهيرة في عام (٢٩٨ هـ/ ٩١١ م)، وهو الذي دُعي باسمهم، وعُرف منذ ذلك الوقت باسم نورمنديا.

غارات النورمان على الأراضي الأندلسية: تعرضت الأندلس في عهد الحكم المستنصر إلى غارات النورمان، وشهدت السواحل الغربية عدة اشتباكات بين الطرفين. فقد حدث في عام (٣٥٥ هـ/ ٩٦٦ م) أن أرسل ريكاردو الأول حاكم نورمنديا وحفيد رولون، ثمانية وعشرين سفينة حربية نزل بحارتها على شاطىء منطقة قصر أبي دانس، وهو ثغر برتغالي صغير يقع جنوب شرقي أشبونة، ثم وسَّعوا منطقة عملياتهم، فهاجموا سهول أشبونة، وعاثوا فيها نهباً وتخريباً، فتصدَّى لهم المسلمون في تلك المنطقة وكبَّدوهم خسائر فادحة، فتراجعوا باتجاه الجنوب الشرقي بمحاذاة الشاطىء، فطاردتهم قوة بحرية إسلامية خرجت من إشبيلية، واصطدمت بهم عند مصب نهر شلب في جنوبي البرتغال، وحطَّمت عدداً من سفنهم، وحرَّرت مَنْ كان فيها من أسرى المسلمين. لكن السفن النورمانية ظلت تمخر عباب المياه الغربية للأندلس مهددة الثغور البحرية، والمسلمون متأهبون

للتصدي لهم. وأمر الحكم المستنصر، زيادة في التحوُّط، أن تُحشد بعض سفن الأسطول في نهر الوادي الكبير تجاه قرطبة، وترتيبها على هيئة مراكب النورمان، خشية من أن ينفذ الغزاة، بطريق النهر، إلى العاصمة كما فعلوا حينما هاجموا إشبيلية في غزوتهم الأولى(١).

ولم تمضِ بضعة أعوام حتى عادت مراكب النورمان تجوس خلال المياه الغربية (بداية رمضان ٣٦٠ هـ/ أواخر حزيران ٩٧١ م)، وتُهدِّد شواطىء ولاية الغرب الغنية، وعندئذٍ أمر الحكم المستنصر أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس بالإبحار على رأس أسطوله من المرية، والانضمام إلى الأسطول الثاني في إشبيلية، والمرابط في مياه نهر الوادي الكبير، كما أمر أمراء البحر الآخرين بالانضمام إليه. وهكذا اجتمعت البحرية الأندلسية كلها لمواجهة الغزاة، وجهَّز الحكم المستنصر جيشاً برياً مسانداً، بقيادة غالب بن عبد الرحمن، وعيَّنه قائداً عاماً على القوتين البحرية والبرية(٢).

ويبدو أن هذه الحشود الأندلسية الضخمة، بالإضافة إلى يقظة القادة المسلمين، قد حالت من دون تمكُّن النورمان من إنزال قواتهم إلى البر الأندلسي، وبالتالي لم تحدث اشتباكات بين الطرفين، ثم انسحب النورمان من المنطقة تحت ضغط التفوق الإسلامي.

ولاية العهد ـ وفاة الحكم المستنصر: شعر الحكم المستنصر، في أواخر عهده، بأعراض المرض تدب إليه، فانتقل من قصر الزهراء إلى قرطبة بفعل تأثير برد الجبل عليه، وقرَّر تعيين ابنه هشام، البالغ من العمر أحد عشر عاماً وثمانية أشهر، ولياً لعهده، وأعلن ذلك في (أول جمادى الآخرة ٣٦٥ هـ/ ٥ شباط ٩٧٦ م) أمام كبار رجال الدولة، وأُخذت البيعة من الحاضرين، وأُخرجت الكتب إلى سائر الولايات، وإلى الخاصة والعامة، بذلك، ثم دُعي لهشام في الخطبة في الأندلس والمغرب، ونُقش اسمه على السكة(٣).

تُعدُّ تولية هشام الطفل لولاية العهد، خطأً كبيراً اقترفه الحكم المستنصر بحق ولده المذكور والدولة معاً، مع وجود فتيان العشيرة المؤهَّلين لتولي هذا المنصب. فقد فُرضت وصاية محمد بن أبي عامر الإلزامية على الخليفة الطفل، فهيمن هذا

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٣٨، ٢٣٩.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٤١.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٤٩.

القائد على مقدرات الدولة وحجب الخليفة الذي لم يعد له من سلطات الخلافة غير الاسم، وانتقل حكم الدولة من الأسرة الأموية إلى الأسرة العامرية. وبناءً عليه يمكن القول بأن حكم بني أمية للأندلس ينتهي عملياً بوفاة الحكم المستنصر، ليبدأ عهد جديد في كنف الخلافة الأموية، هو عهد الأسرة العامرية التي استمدت شرعيتها من حماية الخليفة هشام والحكم باسمه.

ويبدو أن الحكم المستنصر لم يكن مطمئناً إلى سير الأمور مع ابنه الطفل بعد وفاته، وعلى الرغم من ذلك فقد ارتكب خطأً آخر معتقداً أن ما يشبه مجلس الوصاية، الذي شكَّله قبل موته من كبار الأعيان الثلاثة: جعفر بن عثمان المصحفي، وغالب بن عبد الرحمن، ومحمد بن أبي عامر، سيأخذ بيد الخليفة الطفل حتى يصبح مؤهلاً للحكم.

أُصيب الحكم المستنصر بعد ذلك بشلل أقعده ومنعه من الحركة والخروج، فلزم فراشه، وتولى جعفر المصحفي تدبير شؤون الدولة، كما أشرنا، وتوفي في (٢ صفر ٣٦٦ هـ/ ٣٠ أيلول ٩٧٦ م)[1].

هشام المؤيد بن الحكم المستنصر: هشام الثاني
المرة الأولى (٣٦٦ ـ ٣٩٩ هـ/٩٧٦ ـ ١٠٠٩ م)

تولي هشام المؤيد الحكم: لم يمر اعتلاء هشام سدة الخلافة من دون معارضة، إذ ما لبث أن احتدم النقاش بين رجال الدولة بعد وفاة الحكم المستنصر، بسبب اختلافهم بشأن هذه المسألة تبعاً لاختلاف مصالحهم السياسية وعلاقاتهم الخاصة، وانحصر بين فئتين رئيستين.

رفضت الفئة الأولى تنصيب الخليفة الطفل متذرعة بصغر سنه وعجزه عن القيام بأعباء الحكم قبل مضي وقت طويل، ورشَّحت عمَّه المغيرة بن عبد الرحمن الناصر، بما له من تجربة سياسية وإدارية. وتزعَّم هذه الفئة إثنان من كبار الصقالبة هما: فائق النظامي وجوذر، واعتقدا أن المغيرة لن يُبعدهما عن مناصبهما، والواقع أنه كان لهذا النمط من التفكير السياسي ما يبرِّره، وهو أن يُعلَّق مصير البلاد في يد طفل.

---

(١) ابن الأبار: جـ ١ ص ٢٠٠، ٢٠١. ابن بسام الشنتريني، أبو الحسن علي: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة جـ ٤ ص ٣٦. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٤٧. المقري: جـ ١ ص ٣٧٨. وقارن بابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٥٣.

وأصرَّت الفئة الثانية على تنفيذ وصية الحكم المستنصر، وبخاصة أن أعضاءها شاركوا في صنعها، ومعظهم من محترفي السياسة ومن أصحاب الطموح، ويرون في تنصيب مرشحهم ضماناً لاستمرار مصالحهم في الحكم. وتزعَّم هذه الفئة أعضاء مجلس الوصاية، وساندهم كبار موظفي القصر[1].

وهكذا تبلورت الصورة السياسية بعد وفاة الحكم المستنصر، فإذا هي صراع وتنافس بين الجيش، الذي يتزعمه الصقالبة، والمدنيين، الذين يمثلهم الوزير جعفر المصحفي، وقد فازوا في هذا الصراع على السلطة، وتمَّ تنصيب الطفل هشام ليكون الخليفة الثالث في مسلسل الخلفاء الأمويين في الأندلس، ولكنه ظل مجرد ألعوبة في يد محمد بن أبي عامر القوي، وخلفائه من بعده.

أما المغيرة، فقد تمَّ التخلص منه بواسطة محمد بن أبي عامر، للقضاء نهائياً على مشروع الصقالبة، وعندما وصل خبر ذلك إلى كل من فائق وجوذر، خشي على نفسه، وسارع إلى إبلاغ جعفر المصحفي بانضمامه إلى صفه، واعترف بخلافة هشام الذي تلقَّب بلقب المؤيد[2].

بروز محمد بن أبي عامر على الساحة السياسية: الواضح أن قوة مستترة كانت وراء جماعة المدنيين الذين جاءوا بهشام المؤيد إلى الحكم وهي الأرملة الناڤارية صبح، والتي بلغ تأثيرها كجارية تحترف الغناء أنها أضحت الشخصية القوية في القصر، وبخاصة بعد إنجابها هشام، ومن ثَمَّ أضحى لها المقام الأول، على الرغم من أن علاقتها بالحكم المستنصر لم تتعدَّ حدود الجارية المحظية، ولكن هذا الخليفة لم يأخذ من هذا الجانب إلا القليل، لأن علاقة إعجاب نمت بينها وبين الشاب الطموح محمد بن أبي عامر البالغ من العمر سبعة وعشرين عاماً، وهو من أسرة عربية يمنية عريقة، فاتحة أمامه سبل الارتقاء إلى تحقيق طموحه الكبير. ويبدو أن هذه العلاقة بينهما لم تتعدَّ حدود الأدب، وتشير قرائنها إلى الشك في أنه كان عشيقها، وذلك استناداً إلى بعض الإشارات والتنويهات التي أبداها المؤرخون على الرغم من أنه استحوذ على اهتمام نسائي عام في القصر[3].

انتقل محمد بن أبي عامر إلى قرطبة لطلب العلم، فدرس الحديث وقرأ اللغة

---

(١) ابن بسام: جـ ٤ ص ٣٦.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) بروڤنسال: ص ٤٤٩.

العربية على أيدي كبار شيوخها أمثال أبي علي القالي، وأبي بكر بن القوطية، وأبي بكر بن معاوية القرشي، وغيرهم من شيوخ المسجد الجامع[١].

وعندما أتَّم تعليمه، بدأ حياته العملية كاتباً لرسائل الشكاوى والعرائض والالتماسات أمام عتبات القصر، وسرعان ما نبغ في هذه المهنة فاستهوته قلوب الناس، وذاع صيته بينهم، وبخاصة عند خدم القصر وفتيانه، ولم يلبث أن سمعت به السيدة صبح، وكانت آنذاك بحاجة إلى كاتب يدير شؤون أعمالها، فأسندت إليه هذه المهمة، فلم يتأخر في عمله وواجباته، وأظهر كفاءة ممتازة وقدرة فائقة في وظيفته حتى جذب أنظارها إليه، ولم تخفِ إعجابها به ورضاها عنه. وكان يُقدِّم لها التحف الثمينة والهدايا المختلفة لدرجة أن الحكم المستنصر صرَّح بذلك علناً أمام خواصه قائلاً: «إن هذا الفتى قد قلب عقول حرمنا بما يتحفهم به»[٢].

ومنذ ذلك الوقت، أخذت السيدة صبح تتوسط له عند الخليفة الحكم المستنصر، وتُذكِّره بمناقبه، وتنوِّه بأعماله وسلوكه، حتى ولَّاه قضاء بعض النواحي بكورة ريَّة، ثم رقَّاه إلى الإشراف على أموال الزكاة والمواريث بإشبيلية، وإدارة الشرطة الوسطى والعليا، وأمانة السكة[٣].

واستمرت كفاءة العامري بالتصاعد، وما زال الحكم المستنصر يُرقِّيه ويُقلِّده الوظيفة تلو الأخرى، حتى جعله وكيلاً على ابنه وولي عهده هشام، فازداد رفعة وقدراً عند الخاصة بولي العهد، ومكانة السيدة والدته، فاحتاج الناس إليه، يلتمسون منه الوساطة وقضاء الحاجة، ووصل إلى مرتبة وزير في أواخر أيام الحكم المستنصر[٤].

وبعد أن شغر منصب الخلافة بوفاة الحكم المستنصر، كان محمد بن أبي عامر القطب الذي تدور حوله الأحداث السياسية والعسكرية، بوصفه أحد مهندسي تنصيب هشام المؤيد والتخلص من المغيرة مرشح الصقالبة.

والحقيقة أن هذا الرجل كان نوعاً فريداً من الرجال الذين لا يقفون بطموحهم عند حدٍّ. فالنجاح الذي حقَّقه حتى الآن، لم يكن بنظره غير خطوة مرحلية لا بد أن يعقبها خطوات أكثر اتساعاً، ليجد نفسه وقد أصبح الرجل الأول في دولة الخلافة الأموية في الأندلس، وهو هدفه الأسمى.

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢٥٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٥١، ٢٥٧.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٥١؛ ابن بسام: جـ ٤ ص ٣٧.

(٤) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢٥٨. ابن بسام: المصدر نفسه.

نكبة الصقالبة: أخذ محمد بن أبي عامر يشق طريقه كقائد عسكري، وسياسي، بإرادة قوية وسعي لا يكلّ، منتهزاً، في ذلك، الفرص المتاحة لتقوية نفوذه، وتوسيع سلطانه، وفرض هيبته، على حساب زملائه من كبار رجال الدولة، واستطاع بدهائه أن يمكر بهم وأن يوقع بينهم حتى قتل بعضهم بعضاً، بدون وازع أخلاقي.

كان التحالف الثلاثي بين أعضاء مجلس الوصاية ضرورياً، في البداية، لكل منهم للكشف عن الدسائس والقضاء عليها، وهي دسائس سيتمخَّض عنها الموقف الجديد وبخاصة من قِبَل كبار القادة الصقالبة في القصر.

وبدأ الوصيان، جعفر المصحفي ومحمد بن أبي عامر، بحكم وجودهما الدائم في القصر، بالعمل على تشييع صورة حسنة للخليفة بين الناس في العاصمة لاكتساب ثقتهم وتعريفهم بخليفتهم الجديد، كما أقدما على إذاعة نبأ على الملأ يتعلق بإلغاء ضريبة الزيت التي كان الناس يعترضون عليها بشدة. وتمَّت ترقية الأول إلى رتبة حاجب، ومُنح الثاني منصب وزير، ومساعد لرئيس الوزراء في إدارة شؤون الخلافة[١].

واتفق الرجلان على انتهاج سياسة جديدة تجاه الصقالبة، تؤدي بالنتيجة إلى القضاء عليهم، تتمثل بتقييد تحركات قادتهم ومراقبتها، وكان هؤلاء يُظهرون نوعاً من الفتور في التعامل مع الوزراء، على الرغم من موافقتهم على اعتلاء هشام المؤيد سدة الخلافة، ويتصلون بزملائهم من حرس الخلافة داخل قرطبة وخارجها. واستناداً إلى المعلومات المتوفرة، فإن هذا الاتصال مع الخارج كان يتمُّ عبر باب حديدي، فصدرت الأوامر بإغلاقه نهائياً وبناء حائط مكانه، فتمَّ قطع الاتصال بين الصقالبة في الداخل وبين زملائهم في الخارج[٢].

وأقدم محمد بن أبي عامر على خطوة ذات منفعة شخصية عندما استقطب بعض الصقالبة وجعلهم تحت إمرته، كما استقطب المقاتلين من البربر، وأخذ يجمع حوله حرساً خاصاً. كان الهدف الظاهري، من هذه الإجراءات الخاصة، هو القضاء على قائدي حرس الصقالبة وأتباعهما، وفعلاً قدَّم جوذر استقالته، ونُفي فائق النظامي إلى

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٥٩. بروفنسال: ص ٤٥٢.

(٢) ابن عذارى: المصدر نفسه ص ٢٦٢.

إحدى جزر البليار، وما لبث أن توفي بعد قليل من ذلك، وقُتِل نحو ألف من أتباعهما، ولم يبق في القصر منهم سوى القليل الذين لا تأثير لهم في مجرى الأحداث السياسية؛ لكن الهدف الحقيقي فيتجلّى في الصراع الخفي بين الرجلين بعد أن خرج غالب بن عبد الرحمن من حلبة الصراع السياسي، إذ كان أكثر تعلقاً بعمله العسكري، وإن ظل لثقله المعنوي تأثير في ترجيح كفة أحد المتصارعين[1].

القضاء على جعفر المصحفي: صبَّت هذه الضربة، التي أنزلها محمد بن أبي عامر بقادة الحرس الصقلبي وأتباعهم، تحت ستار التأديب لموقفهم المناوىء في معركة تنصيب الخليفة، في صالحه، حيث لم يكتشف الحاجب جعفر المصحفي أبعادها.

واستقطب محمد بن أبي عامر، خلال صراعه مع الحاجب، القائد غالب بن عبد الرحمن، فارتبط معه برباط المصاهرة حيث تزوج من ابنته أسماء[2]، فكان ورقة رابحة في يده ضد خصمه. وما لبث أن استبدل الحرس الخليفي بعناصر جديدة موالية له، فكانت هذه الخطوة أولى قراراته الذكية في اتخاذ ركائز له في الدولة، لا سيما القصر، توصلاً إلى تحقيق هدفه[3].

وحدثت في تلك الأثناء حادثة، كان لها دور إيجابي في دفعه إلى الارتقاء. فبعد وفاة الحكم المستنصر بوقت قصير، شنَّت قشتالة هجوماً على الأملاك الإسلامية، وقام جنودها بغارات جريئة ضد منطقة جبال الشارات، وهاجموا قلعة رباح.

أثارت الكارثة التي حلَّت بالقلعة القلق في قرطبة، وبخاصة لدى السيدة صبح، التي خشيت على عرش ابنها، في الوقت الذي لم تحرك مشاعر الحاجب جعفر المصحفي، وهو المسؤول الأول، حيث تجاهلها، ربما لخشيته من مغادرة العاصمة في تلك الأجواء الملبدة[4].

فهدَّأ محمد بن أبي عامر من روع سيدة القصر، ووعدها بأن يستعيد هيبة الخلافة على الثغور مقابل إمداده بالوسائل الضرورية لهذا الغرض، وكان هذا الموقف شركاً أوقع به نفسه بدون أن يدري، ذلك أن سياسة الجهاد في الأندلس عكست ظلالها

---

(١) ابن بسام: جـ ٤ ص ٣٨. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٦٣ـ ٢٦٤.

(٢) المصدران نفساهما: ص ٤٠. ص ٢٧٦.

(٣) بيضون: ص ٣٤٥.

(٤) ابن بسام: جـ ٤ ص ٣٨.

دائماً على شخصية المسؤول وحجمه، حيث تنعكس عليه الانتصارات أو الهزائم، إيجاباً أو سلباً[1].

كان جعفر المصحفي من أصحاب الرأي القائلين بالتروي في معالجة أحداث الشمال، إلا أنه رضخ في النهاية إلى طلب عقد مجلس الحرب. وكان محمد بن أبي عامر يراقب، بارتياح، موقفه اللامبالي من الهجوم القشتالي، فاقترح أن يقود الجيش بنفسه لغزو المملكة الإسبانية رداً على حملة قلعة رباح، ولم يعارض الحاجب ذلك، ولعله رحَّب بخروج منافسه من قرطبة والابتعاد عنها في حرب القلاع البعيدة بعد أن بدأ يشعر بوطأة جهوده وتحركاته السياسية الداخلية المريبة.

ولا بد لنا من التساؤل في هذا المقام عن دور غالب بن عبد الرحمن قائد الثغر الأعلى، والمتمرس في شؤون القتال، وعن غيابه في التصدي لهذا الهجوم القشتالي، فهل كان ذلك بالتنسيق مع محمد بن أبي عامر أم أن لذلك علاقة بأحداث مناطق الشمال النصراني الساخنة؟

الراجح أن غالباً لم يكن في صميم لعبة الصراع على السلطة والتي اتخذت من قرطبة مسرحاً لها، ومن المؤكد أن جبهة الثغر الأعلى عند حدود نبرَّة، وهي دائرة نشاطه العسكري، تُعدُّ من مناطق الحدود الساخنة والخطيرة بحيث صرف كل اهتمامه لها في ذلك الوقت[2].

اختار محمد بن أبي عامر أفضل المقاتلين، وتجهَّز بأفضل الأسلحة والعتاد، وخرج على رأس الحملة في (رجب ٣٦٦ هـ/ شباط ٩٧٧ م)، متوجهاً إلى الشمال الغربي، مُنفِّذاً بذلك تجربته الأولى على مستوى القيادة، واتخذت حملته طابعاً انتقامياً مستهدفة المملكة القشتالية، فعبر نهر آنة ثم نهر تاجُه، وحاصر حصن الحامة الواقع داخل إقليم سلمنقة، وهو موقع حدودي متقدم فدمَّره، وحاز على غنائم كثيرة بما فيها الأسرى، وعاد محملاً بها إلى قرطبة[3].

كانت هذه الحملة متكافئة مع الحملة القشتالية على قلعة رباح، وعلى الرغم من أنها لم تكن ذات نتائج قوية لذلك القائد، إلا أنها بدت له كافية، وحقَّق من خلالها أكثر من هدف، منها:

---

(١) بيضون: ص ٣٤٦.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) ابن بسام: جـ ٤ ص ٣٩. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢٦٤.

ـ لقد جعل من حملته انتصاراً باهراً قوبل بارتياح كبير وإعجاب في قرطبة.

ـ كشفت هذه الحملة عن مواهبه العسكرية، وزادت من شعبيته في قرطبة.

ـ كان جعفر المصحفي هو الخاسر الأكبر، وقد بدأ يشعر بأفول نجمه وتراجع نفوذه.

ـ أتاحت لمحمد بن أبي عامر الاحتكاك المباشر مع الجيش، واستطاع، بفضل لباقته وحنكته، اكتساب تعاطف قادته معه.

لم يدَّخر محمد بن أبي عامر، بعد عودته من حملته العسكرية، وسعاً في متابعة جهوده للاستئثار بالسلطة ومحاصرة خصمه الحاجب جعفر المصحفي بحملات نفسية عنيفة تحجِّمه وتزيد في عزلته، لكن المعركة السياسية بينهما لم تكن بهذه السهولة، فالحاجب لا يزال يهيمن على مقاليد الأمور، ويستأثر بالسيطرة على المناصب الهامة والحساسة، من خلال أبنائه وأقاربه الذين غدوا من كبار الموظفين مع مجيء الخليفة هشام المؤيد، بالإضافة إلى الأموال العامة، وهي ظاهرة هامة لاكتساب الأعوان وشراء الأنصار، هذا على الرغم من أنه فَقَدَ أهم سند له بموت الحكم المستنصر، وأضحى محط عداوة رجال القصر الذين لم يغفروا له بعض المواقف، وإذا ما اعترف الجميع بمواهبه الأدبية واللغوية، إلا أنه لم يكن سياسياً من الطراز الأول.

كان غالب بن عبد الرحمن الحليف الذي راهن عليه محمد بن أبي عامر في الصراع بينه وبين جعفر المصحفي، وهو أحد الذين لا يخفون احتقارهم لهذا الأخير منذ أن اتهمه بالتباطؤ في الدفاع عن الحدود الشمالية، وبخاصة أثناء الهجوم القشتالي على قلعة رباح. وكان غالب هذا يتمتع بحرية الحركة، وله سلطة مطلقة على قوات الثغور، لذلك تحوَّل محمد بن أبي عامر إلى مدافع عنه في القصر، وتبرير موقفه من حادثة قلعة رباح، واقتنع الخليفة بدفاعه، فمنح غالباً لقب «ذو الوزارتين»(١).

في ظل هذه الظروف اشترك محمد بن أبي عامر في الصائفة التي هاجمت قلعة مولة في عام (٣٦٦ هـ/ ٩٧٧ م)، واجتمع مع غالب بن عبد الرحمن في مجريط. كانت الحملة ناجحة، إذ تَمَّ فتح القلعة، وأخذ كل من الرجلين يثني على الآخر بما بذل من جهد(٢).

كانت أولى ثمرات هذا النجاح أن وصلت رسالة إلى قرطبة بعث بها قائد مدينة

---

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢٦٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٦٥، ٢٦٦.

يزيد، أسهمت في فوز محمد بن أبي عامر بحاكمية قرطبة. والراجح أن السيدة صبح لم تكن بعيدة عن هذا الإجراء الذي أطاح بابن المصحفي، محمد بن جعفر، الحاكم السابق[1]، ويُعدُّ ذلك خطوة تمهيدية للإطاحة بالأب الذي شعر بالحصار السياسي والمعنوي المفروض عليه من القصر والجيش، ورأى في حليفه القديم عدواً يُخشى جانبه، وبخاصة أنه يحظى بمساندة نساء القصر، وهذه ميزة تصبُّ في مصلحته، فحاول استقطاب الحليف الآخر غالب بن عبد الرحمن وعرض عليه تزويج أحد أبنائه من ابنته أسماء آملاً أن تكون هذه الخطوة وسيلة لدعم موقفه واجتثاث الدسائس التي تُحاك ضده، لكن تدخل محمد بن أبي عامر في الوقت المناسب أوقف مشروع التقارب حين أقنع غالباً بسحب كلمته وتزويج ابنته أسماء له هو، محققاً نصراً آخر عليه.

كان الإجراء الأخير الذي اتُّخِذ ضده، استصدار مرسوم خلافي قضى بتعيين غالب بن عبد الرحمن شريكاً له في الحجابة[2]، حيث طغى عليه نفوذ القائد، وفَقَدَ صلاحياته التي انتقلت تدريجياً إلى شريكه في الحكم.

أما الضربة القاضية، فجاءت حين عُزِل من منصبه في (١٣ شعبان ٣٦٧ هـ/ ٢٦ آذار ٩٧٨ م) وأُودع السجن بتهمة استغلال أموال الدولة في شؤونه الخاصة، ثم الموت قتلاً، في عام (٣٧٢ هـ/ ٩٨٣ م)[3]، وصودرت أموال عائلته وتَمَّ ملاحقة أفرادها واضطهادهم. وتُعدُّ هذه النكبة مؤشراً لبداية عهد جديد بطله محمد بن أبي عامر الذي تولى منصب الوزارة، وهو لا يتورع في استعمال مختلف الوسائل من أجل تحقيق أهدافه السياسية.

القضاء على غالب بن عبد الرحمن: لم يبق أمام محمد بن أبي عامر ما يخشاه سوى المنافس الخطير الثالث، صهره وشيخ الموالي غالب بن عبد الرحمن، بعد أن انتهى دوره كحليف مرحلي. وكما قضى على المغيرة من قبل وعلى جعفر المصحفي من بعد، فإنه سوف يقضي عليه بالأسلوب نفسه. والواقع أن إجراءات محمد بن أبي عامر الاستبدادية أثارت حساسية غالب بن عبد الرحمن وبخاصة حجره على الخليفة واحتكاره السلطة، وتركت لديه شعوراً بالحذر وعدم الثقة.

---

(١) ابن بسام: جـ ٤ ص ٤٠. ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢٦٦.

(٢) ابن بسام: المصدر نفسه.

(٣) ابن بسام: جـ ٤ ص ٤١، ٤٢، ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢٧٠ـ ٢٧١.

وهكذا انفجر الخلاف بين الرجلين الأكثر قوة في الأندلس آنذاك وأضحت المواجهة بينهما حتمية، وحتى يواجه محمد بن أبي عمر خصمه الذي يتفوق عليه في الشجاعة والإقدام والفروسية، استعان بقائد من طرازه هو جعفر بن علي بن حمدون، فاستقدمه من المغرب مع ستمائة من جنوده المغاربة، واستقطب أبا الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبي، قائد الثغر الأعلى، وحسن بن أحمد بن عبد الودود في معظم سكان الثغور. وفي المقابل استمدَّ غالب بن عبد الرحمن العون من أمير قشتالة غرسية فرديناند، وراميرو حاكم نبرَّة[١].

وتشير أغلب الروايات إلى الموقف الذي اتخذه غالب بن عبد الرحمن عندما التقى الخصمان وجهاً لوجه. فقد توجَّه محمد بن أبي عامر إلى قلعة أنتيسة، الواقعة شمال غربي مدينة سالم، بناءً لدعوة غالب بن عبد الرحمن، وذلك لحضور وليمة، وأثناء الاحتفال انفرد به العامري وأخذ يعاتبه، فوجه إليه غالب نقداً لاذعاً وضربه بسيفه على يده، فما كان من محمد بن أبي عامر إلا الفرار لينجو بحياته. ومنذ تلك اللحظة بدأت الحرب بينهما، فاستولى هذا الأخير على مدينة سالم، وحاز على ثروة منافسه، ووزعها على قواته[٢].

وأخيراً التقى الخصمان أمام قلعة شنت بجنت، في (٣ محرم ٣٧١ هـ/ ٩ تموز ٩٨١ م)، وجرت بينهما، في اليوم التالي، رحى معركة طاحنة، كادت الدائرة تدور على محمد بن أبي عامر، الذي واجه معركة تُعدُّ من أصعب ما واجهه في حياته العسكرية، إذ كاد يفقد حياته مرتين لو لم يُنقذه الحذر في الأولى والحظ في الثانية. فقد كبا جواد غالب بن عبد الرحمن به ووقع ميتاً، فاختل توازن جيشه وولَّى أفراده منهزمين بكل اتجاه، وتكبدوا خسائر فادحة في الأرواح، وكان راميرو حاكم نبرَّة من بين القتلى[٣].

وهكذا انتهى الصراع على النفوذ لصالح محمد بن أبي عامر الذي استبدَّ بشؤون البلاد والعباد.

القضاء على جعفر بن علي: خشي محمد بن أبي عامر من طموح جعفر بن علي ابن حمدون بعد أن اكتسب شعبية في الأندلس نتيجة جهاده ضد النصارى في الشمال، وما أظهره من بسالة في شنت بجنت، وكان قد رفعه إلى منصب الوزارة،

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٧٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٧٩.

(٣) المصدر نفسه. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٦٥ـ ٦٧.

وأضحى التخلص منه ضرورة ملحَّة، فدعاه في (٣ شعبان ٣٧٢ هـ/ ٢١ كانون الثاني ٩٨٣ م) إلى حفل في قصره، وأمر السقاة بتقديم الشراب له، فأفرط جعفر فيه وفَقَدَ وعيه، وخرج يترنح، ثم دسَّ عليه من قتله وهو في الطريق إلى منزله، ووصل الدهاء به أنه تظاهر بالحزن على ضحيته، وأذاع بنفسه على الملأ، نبأ وفاة واحد من أجلِّ أتباعه. وكانت هذه الجريمة المثيرة عنواناً لبعض النواحي القاتمة في مآثره وفي وسائله السياسية وفق مبدأ الغاية تبرِّر الوسيلة، ثم أعدم قاتله حتى لا ينكشف الأمر. وهكذا تخلَّص من آخر الرجال المخلصين الذين قدَّموا له، خلال صراعه مع غالب ابن عبد الرحمن، خدمات جليلة، بعد أن رأى أن دوره انتهى بموت غالب، وأن بقاءه حياً أمر لا مبرر له، فهو لم يعد يحتمل في دولته رجالاً من طرازه، كما تخلَّص بعد ذلك من الأحوص وانفرد بالحكم[١].

تفرُّد محمد بن أبي عامر بالسلطة

بناء الجيش: لا شك بأن السياسة القائمة على الجرأة والإقدام التي اتَّبعها محمد ابن أبي عامر، اعتمدت في تطبيقها على رجال يثق بهم، ويبدو أن معظمهم كان من المغاربة. فهناك ما يشير إلى أنه توجَّه بأنظاره إلى المغرب الأقصى، فاستقدم كثيراً من أبنائه من قبائل زناتة ومكناسة وبرزال وصنهاجة وغيرهم، وأدخلهم في قواته الخاصة، فشكلوا الدعامة الإساسية في نُصرته والدفاع عنه. وكان الذي شجَّعه على استخدامهم، معرفته بطبائعهم التي لم تكن غريبة عنه، فقد سبق أن عاش في بلادهم وبين قبائلهم عدة أعوام.

عبرت الدفعة الأولى من المقاتلين المغاربة إلى الأندلس في عام (٣٦٧ هـ/ ٩٧٨م) مع جعفر بن علي بن حمدون وعددهم نحو ستمائة فارس[٢]، وعبرت الدفعة الثانية على أثر اجتياح بلكين بن زيري الصنهاجي المغرب الأقصى، وأُطلق على هذا الجيش الجديد اسم الحضرة، أي جند العاصمة. وعليه، فقد انقسم الجيش الأندلسي إلى قسمين، خاص وعام.

أضحى قادة وجنود جيش الحضرة من أشد الناس ولاءً للمنصور، الذي وضع خطة كاملة لإعادة تنظيم الجيش الأموي بعامة، على أسس جديدة تكفل له نتائج إيجابية على المستويين الداخلي والخارجي. واستندت تنظيماته على جعل القوات

(١) ابن عذاري: جـ ٢ ص ٢٨٠.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٧٨، ٢٧٩.

المسلحة وحدة نظامية متماسكة خاضعة لقيادة عليا، وإلغاء النظام القديم الذي يقوم على الأساس القبلي والعنصري، فكانت الفرق العسكرية تضم مجموعات مختلطة، وقد أثمرت هذه السياسة فاختفت النزاعات القبلية، وسهل عليه قيادة البلاد.

كانت هذه القوة العسكرية، فضلاً عن كونها دعامة لسلطانه، دعامة للأندلس أيضاً، وأداتها الدفاعية والهجومية، ونستطيع أن نُقدِّر أهميتها وكفاءتها متى علمنا أن حاكم الأندلس المستبد لبث زهاء ربع قرن يقود قواته إلى الغزو المستمر في أراضي الممالك النصرانية، كل ربيع وكل صيف، وإنه كان يرسل الحملات العسكرية إلى المغرب لخوض سلسلة من الحروب الطاحنة.

الحجر على الخليفة: بعد السقوط القوي لجعفر المصحفي بعام واحد، أي في عام (٣٦٨ هـ/ ٩٧٩ م)، حيكت مؤامرة للإطاحة بالخليفة هشام المؤيد وتولية حفيد صغير من أحفاد عبد الرحمن الناصر، هو عبد الرحمن بن عبيد الله، اشترك فيها بعض الشخصيات المؤيدة لجعفر المصحفي، بالإضافة إلى القائد الصقلبي جوذر، وزياد بن أفلح، حاكم قرطبة الجديد، وعبد الملك بن منذر، صاحب الردِّ، وهو ابن القاضي الشهير ابن سعيد البلوطي، ويوسف بن هارون الرمادي، لكن المتآمرين فشلوا في تحقيق هدفهم، ونجا هشام المؤيد من الاغتيال. وحتى ينجو، قبض زياد ابن أفلح على المتآمرين وسجنهم، وحكم بالموت على مرشح الخلافة وعلى شريكه جوذر، وصلب عبد الملك بن منذر[1].

والواقع أن محمد بن أبي عامر كان وراء هذه الأحكام الصارمة، وقد هدف إلى اكتساب رضى الفقهاء الذين تعصبوا للمذهب المالكي، لأن المؤامرة اتخذت طابع مذهب الاعتزال. وعليه، فإن أسباب إصدار تلك الأحكام تتعلق بمصالح شخصية أكثر مما تتعلق بمصالح الدولة. أما الخليفة الصغير فقد وقع تحت تأثير الوزير القوي الذي بدأ الاهتمام به، فحجر عليه، وأبعده عن الحياة العامة، وأمَّن له جواً مليئاً بألوان الترف والملذات الحسية والجسدية، الأمر الذي أدى إلى تراجع قوته الجنسية فيما بعد، لكن والدة الطفل، أدركت هذا الخطر الذي يحيط بالدولة نتيجة ازدياد قوة الوزير، وبابنها نتيجة تلك التدابير الهدَّامة، ولكنها لم تتمكَّن من إنقاذه. ومنذ تلك اللحظة، بدأت علاقتها به تتغيَّر وتتحول شيئاً فشيئاً إلى كراهية، إلا أن الوزير كان حريصاً على إخفاء لعبته، وأبدى الاحترام الظاهري للخليفة. وحتى يتفرد بإدارة الشؤون العامة التي كانت

---

(١) بروفنسال: ص ٤٥٦، ٤٥٧.

تُدار من داخل القصر، اتخذ قراراً جريئاً نقل بموجبه مقر الإدارة إلى خارج القصر، بل إلى خارج قرطبة، حيث يقوم بممارسة سلطته بشكل مطلق، ويتحرَّر من تقديم فروض الولاء والطاعة للخليفة الاسمي كل يوم، وهو الذي استمدَّ منه شرعيته في الحكم، فترك منزله في حي الرصافة وأقام في منية التي أمر ببنائها بالقرب من مدينة الزهراء، وأطلق عليها اسم العامرية، ثم رأى أنه بحاجة إلى بناء مقر إداري دائم، فبنى مدينة الزاهرة على غرار مدينة الزهراء، وانتقل إليها في عام (٣٧٠ هـ/ ٩٨١ م) مع حاشيته وحرسه الخاص، وشحنها بالأسلحة ونقل إليها خزينة الدولة ودواوينها، وأقطع ما حولها لكبار رجال الدولة من مدنيين وعسكريين، فانتهجوا نهجه في بناء القصور والمنتزهات. وكان انتقاله بمثابة عهد جديد في حياته، وكذلك بداية الوحشة بينه وبين الخليفة، فاتخذ بعض التدابير للقضاء نهائياً على أي تأثير له، فأعلن على الناس أن نشاط هشام المؤيد سوف يقتصر على أعمال البر، بعد أن فوَّضه إدارة شؤون الدولة، كما اتخذ بعض الإجراءات التي أدَّت إلى مزيد من عزلته، منها بناء سور يحيط بالقصر الخليفي بالإضافة إلى خندقين، أحدهما داخلي والآخر خارجي، وأصدر قراراً بعدم السماح لأحد بالدخول على الخليفة إلا بتصريح خاص، فابتعد الناس والزائرون عن مدينتي قرطبة والزهراء[١].

التلقُّب بألقاب الخلافة: بعد القضاء على خصومه والتخلُّص من منافسيه، أضحى محمد بن أبي عامر الرجل الأقوى، والحاكم المطلق في دولة الأندلس الأموية التي أخذت منذ ذلك الوقت تخلع ثوبها الأموي، باستثناء لقب الخلافة الذي كان يُتلى في خطبة الجمعة. وغابت عن مؤسسة الدولة شخصيتها الأموية تماماً، وارتبطت كافة أجهزتها بهذا الشاب العامري الطموح الذي توَّج نفسه، بعد انتصاره على غالب والنصارى في الشمال، تحت لقب المنصور بالله تيمناً، بالألقاب الملكية، ونقش اسمه على النقود، وأمر بترديده على المنابر عقب الدعاء للخليفة، ولم يرفض درجة الحجابة، فعُرِف بالحاجب المنصور، وأمر أن تخضع اللقاءات والمقابلات إلى قواعد صارمة، منها تقبيل يده، ومناداته بـ «مولاي»، وأمر العمال في مختلف الأقاليم التابعة للدولة الأموية التقيد بها، وذلك في عام (٣٧١ هـ/ ٩٨١ م)[٢]. وفي عام (٣٨٦ هـ/ ٩٩٦ م) ضمَّ إلى ألقابه لقبين آخرين هما السيد والملك الكريم[٣]، وحتى يظهر

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٧٢ـ ٢٧٨. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٦٤، ٦٥.

(٢) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٩٢. (٣) المصدر نفسه: ص ٢٩٤.

أمام الناس والفقهاء بمظهر التقوى والورع، قام بتوسيع الجامع الكبير، وأصلح الجسر الذي يمر فوق نهر الوادي الكبير.

تعرُّض الحاجب المنصور لمؤامرة داخلية من جانب ابنه عبد الله: أقلقت تدابير الحاجب المنصور للتفرد بحكم الأندلس بعض الشخصيات القيادية مثل عبد الرحمن بن مطرف، من الأسرة الهاشمية، وعبدالله بن عبد العزيز المرواني، حاكم طليطلة، وعبد الرحمن التجيبي، حاكم الثغر، وعبد الله بن المنصور، الناقم على أبيه لإيثاره أخاه عبد الملك، والمعروف أن المنصور كان يشك في بنوة عبد الله ويخشى طموحه. ووعده المتآمرون بتوليته السلطة مكانه، وانضم إلى المؤامرة بعض كبار القادة ورجال الدولة المعارضين للحاجب والناقمين عليه[١].

علم الحاجب المنصور بأنباء المؤامرة قبل تنفيذها، فعمل على إجهاضها، وتمكن من التخلص من معظم زعمائها بمن فيهم ابنه عبد الله. وفرَّ عبد الله بن عبد العزيز المرواني إلى ليون واحتمى بالملك برمودو[٢].

قد يكون هذا العمل المثير والبشع، الذي حدث في عام (٣٨٠ هـ/ ٩٩٠ م) أحد أكبر أعمال الحاجب المنصور، لكننا بالمقارنة مع الظروف التي حصل فيها، بحيث اضطر إلى الإقدام على تلك الخطوة المؤلمة من واقع المؤامرة، التي لو نجحت لوقعت البلاد في التقسيم، وانهارت دعائم الدولة الإسلامية في الأندلس التي نجح في توطيد أركانها.

حصر السلطة في الأسرة العامرية: اتخذ الحاجب المنصور في عام (٣٨١ هـ/ ٩٩١م)، قراراً آخر لتدعيم أسرته والمحافظة على مكتسباتها من واقع احتكار السلطة، فرشَّح ابنه عبد الملك لولاية العهد من بعده، وكان فتى لم يتجاوز الثامنة عشرة، وتنازل له عن الحجابة وبعض الوظائف التي كان يتولّاها، وقلَّده منصب الوزارة[٣].

وستهيمن الأسرة العامرية على مقدرات الخلافة الأموية حتى عام (٣٩٩ هـ/ ١٠٠٩ م)، وستطغى إنجازاتها على إنجازات الخلفاء التي ستغيب عن مسرح الحياة السياسية خلال تلك المدة.

محاولة الحاجب المنصور القضاء على الخلافة الأموية ووراثتها: حقَّق الحاجب المنصور أُمنيته بالاستيلاء على السلطة، وأضحى أقوى رجل في الأندلس، غير أنه

---

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٨٣، ٢٨٤.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٨٤، ٢٨٥.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٩٣.

لم يكتفِ بذلك، إذ إن طموحه يتجاوز ما وصل إليه وما حقَّقه. لقد تطلع نحو منصب الخلافة، فعقد اجتماعاً خاصاً مع مستشاريه للتشاور في هذه المسألة، كان من بينهم ابن حزم وابن عياش وابن الخطيب وبعض الفقهاء. وقد أيَّده كل من ابن عياش وابن الخطيب، في حين عارضه ابن حزم الذي أعرب عن خشيته من أن يحرِّك ذلك العامة، وأنه ليس بحاجة إلى اعتلاء سدة الخلافة وبيده سائر الأمور، كما تردَّد الفقهاء بين الموافقة والاعتراض.

والحقيقة أن الحاجب المنصور نفسه كان متردداً في اتخاذ الخطوات التي من شأنها أن توصله إلى منصب الخلافة خشية من غضب الشعب، وبخاصة أن ارتقاءه في سلَّم المجد اقترن بظروف لا تساعد على اكتساب محبته وتأييده، بالإضافة إلى الوسائل المثيرة والدموية التي لجأ إليها للتخلص من خصومه ومنافسيه، على الرغم من أنه حقَّق العزة للشعب الأندلسي في الخارج، والأمن والرخاء في الداخل، كما عارضت السيدة صبح هذا المشروع، وقد غدت ألدَّ خصومه، منذ أن شعرت بخطورة تدابيره على مركز ابنها الذي أوشك أن يصل إلى الثلاثين من عمره في عام (٣٨٦ هـ/ ٩٩٦ م)، وعلى هذا فإن الوصاية التي مارسها قبل ذلك أضحت الآن غير شرعية، وهيَّأ أنصارها، الذين كان يقودهم أخوها رائق، جواً انقلابياً في خطوة للإطاحة بحكمه.

علم الحاجب المنصور، عن طريق جواسيسه، بهذه المحاولة الذين أخبروه أيضاً بأن السيدة صبح حاولت أن تُخرِج من القصر مبالغ مالية كبيرة حتى تدفع لمن يقومون بالدعاية لها، وتفوز بتأييد بعض الموظفين الكبار، فما كان منه إلا أن أصدر قراراً بعدم أحقيتها فيما تفعل، وتمَّ إعادة الذهب إلى خزانة الدولة[١].

وفي محاولة لتهدئة النفوس، رأى الحاجب المنصور أن يظهر الخليفة في موكب خلافي مهيب أمام سكان قرطبة الذين لم يرَه أكثرهم من قبل، فطاف به في الشوارع وهو يحمل الصولجان ويغطي رأسه شال كبير، كما صدر قرار يتضمن كافة الخطوات الرسمية، وقَّعه العاهل المحجور عليه، ويؤكد على أن الحاجب المنصور هو الشخص الوحيد المخوَّل بإدارة الشؤون العامة[٢].

وفاة الحاجب المنصور: قاد الحاجب المنصور، في عام (٣٩٢ هـ/ ١٠٠٢ م)، آخر الحملات العسكرية ضد الممالك النصرانية في الشمال، وتحديداً ضد أراضي

(١) ابن بسام: جـ ٤ ص ٤٤، ٤٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ٤٥، ٤٦.

قشتالة. وبعد انتهاء الغزوة، وأثناء العودة إلى قرطبة، ألَمَّ به مرض لم يفصح لنا المؤرخون عن طبيعته، لكنه جعله يشعر بقرب النهاية. وتدهورت صحته عندما وصل إلى مدينة سالم الحدودية، وتوفي في (٢٧ رمضان/ ٩ آب)، ودفن في صحن قصر هذه المدينة، بناءً على وصيته[١].

خلفاء الحاجب المنصور

عبد الملك المظفر (٣٩٢ ـ ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٢ ـ ١٠٠٨ م)

خلف الحاجب المنصور ابنه الأكبر عبد الملك، وكان يرافقه في حملته ضد النصارى، فعاد مسرعاً إلى قرطبة ليحصل من الخليفة على براءة الحكم خلفاً لوالده، وترك أخاه الأصغر عبد الرحمن ليقوم بالمهام المتعلقة بجنازة والده والعودة بالجيش. وسارع هشام المؤيد، الذي اعتاد حياة الدعة والعيش في سلام، بتسليمه مرسوماً يخوله الصلاحيات التي كانت لوالده، وطلب منه تجنُّب إراقة الدماء. وقُرىء المرسوم على الملأ في قرطبة وأُرسلت الكتب بذلك إلى الجهات وإلى عدوة المغرب[٢].

والواقع أن عملية نقل السلطة تمَّت بدون عقبات تُذكر، وحظيت بصعود نجم العاهل الأسمى، وعندما وصل موالي العامريين إلى العاصمة، ترافقهم قوات باقي الجيش لم يجدوا ما يستدعي التدخل.

كان عبد الملك في الثامنة والعشرين من عمره حين خلف والده ويُكنى بأبي مروان، ويُلقَّب بسيف الدولة وبالمظفر بالله. قبض على زمام الأمور بحزم، وقرَّر أن يسير على خطى والده سواء في سياسته الداخلية أو في علاقاته مع الممالك النصرانية في الشمال. افتتح عهده بإجراء شعبي كان له وقع طيِّب في نفوس الأندلسيين، فقد أسقط سدس الجباية عن سائر الناس، فخفَّف بذلك عنهم، وأرفق بهم، وبثَّ شعور الرضى والاستبشار بالعهد الجديد[٣].

حكم عبد الملك المظفر ستة أعوام وبضعة أشهر، فقد توفي في (١٦ صفر ٣٩٩ هـ/ ٢١ تشرين الأول ١٠٠٨)[٤]، قضى معظمها في الغزو، ولم يكن لديه متسع من

---

(١) ابن بسام: جـ ٤ ص ٤٦ ـ ٤٨. ابن عذارى: جـ ٢ ص ٣٠١.
(٢) ابن بسام: جـ ٤ ص ٤٩.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه: ص ٥٤.

الوقت ليباشر تدبير الأمور الداخلية بنفسه، فاعتمد على خاصته من أكابر الفتيان العامريين الصقالبة، بالإضافة إلى عيسى بن سعيد اليحصبي، المعروف بابن القطاع، وهو عربي، ولم يكن لأخيه الأصغر عبد الرحمن سوى دور غير واضح، فطمع هؤلاء بالسلطان وحاكوا الدسائس والمؤامرات للقضاء على من يمثلون. وتسابقت العصبيتان الصقلبية والعربية للوثوب على السلطة، وجرى بينهما نزاع مرير انتهى لصالح عبد الملك الذي قتل طرفة، زعيم الصقالبة، في عام (٣٩٦ هـ/ ١٠٠٦ م)، وعيسى بن سعيد اليحصبي في العام التالي[١].

استفاق عبد الملك المظفر، بعد أن قتل وزيره عيسى بن سعيد، فجمع السلطة في يده، وحدَّ من صلاحيات وزرائه وكتّابه، وراح يراقبهم ويحاسبهم ويواظب على الجلوس بنفسه، وهجر حياة اللهو والدعة.

وظهرت آنذاك على عبد الملك المظفر أعراض مرض من الأمراض الصدرية، وتفاقم عندما خرج غازياً في شاتية إلى الشمال النصراني، وتوفي من أثره، وفي رواية أن أخاه عبد الرحمن، الملقب بشنجول، كان وراء الموت المبكر لأخيه[٢].

عبد الرحمن شنجول[٣] ونهاية الأسرة العامرية (٣٩٩ هـ/ ١٠٠٨ ـ ١٠٠٩ م)

خلف عبد الرحمن شنجول أخاه عبد الملك، ولم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، وهو العامري الثالث خلال خلافة هشام المؤيد الأولى. كان نموذجاً مختلفاً عن سلفيه من الأسرة العامرية، فهو أضعف شخصية وأقل جدية وطموحاً، متواضع الذكاء، مغرور، تتسم حياته بعدم الانتظام، وبالتالي فهو أقرب إلى الاسترخاء والميل إلى أجواء الترف في القصور. ولم تستمر ولايته سوى بضعة أشهر، حدثت بعده أزمة سياسية حادة وخطيرة للغاية استمرت أكثر من عشرين عاماً، وانتهت بسقوط الخلافة الأموية في الأندلس[٤].

كان أهم ما يشغل عبد الرحمن شنجول، بعد مجيئه إلى الحكم، أن ينتزع الاعتراف من الخليفة بولاية العهد، أي أنه لم يقتنع بأن تكون السلطة التنفيذية

---

(١) ابن بسام: جـ ١ ص ٧٥ـ ٧٨. جـ ٤ ص ٥٠، ٥١. ابن عذارى: جـ ٣ ص ٢٤ـ ٣٠.

(٢) ابن عذارى: جـ ٣ ص ٣٦، ٣٧.

(٣) شنجول هو تصغير وتحريف لاسم شانجة، أحد أخوال عبد الرحمن، والمعروف أن أمه نافارية أُهديت إلى الحاجب المنصور إثر غزوة إلى هذه المملكة.

(٤) ابن عذارى: جـ ٣ ص ٣٩ـ ٤١. بيضون: ص ٣٧١.

المطلقة في يده، بل تطلَّع إلى منصب الخلافة وأراد الحصول عليه(١)، ويعبِّر ذلك عن سذاجة هذا الرجل وشخصيته الضعيفة.

ولما كان هشام المؤيد يشترك في صفات كثيرة مع وزيره وحاجبه الجديد، فقد منحه لقب ناصر الدولة، وأضاف إليه لقباً آخر هو المأمون(٢)، مما عُدَّ افتئاتاً وغروراً ممن لا تؤهله صفاته ولا نسبه لمثل هذا التكريم، وخطوة غير مدروسة، تنطوي على عواقب خطيرة، والمعروف أن الخلافة كانت، حتى ذلك الحين، عرفاً مسلَّماً به للقرشيين.

كان أشد الساعين لتأييد عبد الرحمن شنجول إثنين من كبار الموظفين هما قاضي الجماعة، أبو العباس أحمد بن عبيد الله بن ذكوان، وكاتب الإنشاء، أبو أحمد بن برد(٣)، فطلب منهما شنجول أن يمهدا له الطريق، وصدرت فتوى عن الفقهاء الذين اشتراهم واختارهم كأتباع له، قضت على التحفظات التي قد تشكل عائقاً أمام الخليفة في اتخاذ قرار كهذا، بشأن مستقبل الأسرة الأموية الحاكمة(٤).

وصدر المرسوم عن الخليفة في (١٥ ربيع الأول ٣٩٩ هـ/ ١٧ تشرين الثاني ١٠٠٨ م)، المتضمن رغبته الشديدة في إرضاء رعيته بإبلاغها باسم من سيخلفه وهو عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر العربي القحطاني، وأنه اتخذ هذا القرار بعد تفكير هادىء، واهتدى إليه من خلال إلهام إلهي، بعيداً عن أية تأثيرات خارجية. والمعروف أن هشاماً لم يُنجب(٥).

كان باستطاعة عبد الرحمن شنجول، بعد أن حصل على ما يشتهي، أن يعمل على تهدئة النفوس، إلا أنه اتخذ عدة إجراءات زادت من حقد الناقمين عليه لا سيما العرب، لعل أهمها:

- اعتمد على العناصر المغربية البربرية.
- استخفَّ ببني أمية وبرجال الدولة من العرب واستفزَّهم في أحيان كثيرة. ففرض عليهم ارتداء الزي البربري المغربي، وأن يغطوا رؤوسهم بالشال البربري بدلاً من العمامة الزاهية الألوان عند حضورهم إلى مقام الخليفة.

---

(١) ابن عذاري: جـ ٣ ص ٤٣، ٤٤. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٨٥.

(٢) المصدران نفساهما: ص ٤٠. ص ٨٤، ٨٥.

(٣) ابن عذاري: جـ ٣ ص ٤٤. ابن الخطيب: المصدر نفسه.

(٤) ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٨٦، ٨٧.

(٥) المصدر نفسه. ابن عذاري: جـ ٣ ص ٤٣ـ ٤٦.

كان من الطبيعي أن تثير هذه التصرفات حفيظة الأمويين وأنصارهم، وعزَّ عليهم أن تنتقل الخلافة من أيدي عصبيتهم المضرية إلى أيدي الأسرة العامريَّة اليمنية، ووصف ابن عذارى رد فعلهم بقوله: «وكانت عندهم أعظم محنة، كلهم يُعزِّي عنها نفسه ويكفكف عبرته... واهتبل بنو مروان وشيعتهم بالبلد غرة العامريين فيما ارتكبوه من ذلك، فدبَّت عقاربهم إلى الناس، وقاموا في قلب الدولة العامرية بجد وبصيرة، فلم يخذلهم الناس، وظفروا بالبقية»(١).

وهكذا، ففي الوقت الذي اعتقد فيه عبد الرحمن شنجول أن الأمور استتبَّت له، كانت تحاك مؤامرة في الخفاء ضده، بزعامة شاب من الأسرة المروانية يدعى محمد ابن هشام بن عبد الجبار، وسانده خصوم العامريين وجماعة البيت الأموي والمحافظون من الحزب القيسي. وأدَّت والدته «الزلفاء» دوراً بارزاً في التحريض على التخلص منه، حين اعتقدت بأن له ضلعاً في قتل عبد الملك المظفر. وتوافق توقيت المؤامرة مع خروجه من عاصمته الزاهرة مع معظم وحدات الجيش إلى الشمال الإسباني للجهاد، وذلك في (جمادى الآخرة ٣٩٩ هـ/ شباط ١٠٠٩ م)، فاقتحم محمد بن هشام بن عبد الجبار مع جماعته قرطبة، واستولى على قصر الخلافة وأجبر هشاماً المؤيد على التنازل وجلس مكانه، ثم زحف نحو الزاهرة واستولى عليها وهدمها(٢).

وعندما علم عبد الرحمن شنجول بخبر الثورة، عاد لتوه من الشمال يطوي المراحل إلى قرطبة، على الرغم من نصيحة أركان حربه بعدم العودة، لأن الجو العام لا يشجع على ذلك. ولما وصل إلى قلعة رباح تمهَّل قليلاً بفعل انفضاض الناس من حوله. وفي محاولة أخيرة لاستقطابهم أعلن أنه يتنازل عن ولاية العهد ويقتصر على الحجابة، وناشدهم بنصرة الخليفة المظلوم، هشام المؤيد، لكن لم يعبأ أحد بدعوته، ومع ذلك فقد استمر في السير إلى قرطبة. ولما وصل إلى بلدة أرملاط، وهي المحطة الأخيرة قبل وصوله إلى العاصمة، استدرك واقعه المتردي وقرَّر الفرار. وكان محمد بن هشام بن عبد الجبار يتتبع أخبار عودته، فقبض عليه، ولما حاول قتل نفسه، انتبه حراسه وقتلوه على الفور، وذلك في (٣ رجب/ ٣ آذار)، فانهارت بوفاته

(١) البيان المغرب: جـ ٣ ص ٤٢، ٤٣.

(٢) ابن عذارى: جـ ٣ ص ٤٩، ٥٢. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ١٠٣.

الأسرة العامرية[١]. ومن الواضح أن لذلك علاقة بمدى تقبُّل الشعب الأندلسي حكم هذه الأسرة التي اصطبغ نظامها بالاستبداد المطلق، على الرغم مما حقَّقته للأندلس من الرخاء والعزة، على أن الأندلسيين لم يجنوا خيراً من هذا الانقلاب، لأنه لم يقف عند حدود القضاء على الأسرة العامرية، بل كان نذيراً بانهيار دعائم النظام والأمن اللذين تمتَّعت بهما الأندلس في ظل حكم هذه الأسرة، ودُفع الأندلسيون إلى معترك مروع من الفتن المضطربة والمتلاحقة، والفوضى الشاملة التي انتهت بانهيار الخلافة الأموية وزوالها وتمزيق وحدة الأمة والبلاد.

العلاقات الخارجية

العلاقات مع القوى في شمالي إفريقيا

في عهد الحاجب المنصور

القضاء على بني مدرار: انتهج الحاجب المنصور سياسة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر والتي تستند على ثلاثة أسس:

الأول: مواصلة الكفاح السياسي والمذهبي ضد القوى الشيعية من الفاطميين وبقية الأدارسة في المغرب الأقصى.

الثاني: استقطاب أمراء المغرب الأقصى ورؤساء القبائل هناك.

الثالث: التدخل المباشر، إذا لزم الأمر.

واعتمد في ضبط الأوضاع في الأراضي المغربية الواقعة وراء سبتة، على أبنائها من أمراء زناتة ومغراوة وبني يفرن ومكناسة وغيرهم من الموالين للدولة الأموية في الأندلس، فاستولى خزرون بن فلفول المغراوي، وهو أحد الأمراء الموالين لبني أمية، على سجلماسة وطرد المدراريين منها وقضى على دولتهم، وأقام الدعوة للخليفة هشام المؤيد، وذلك في عام (٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م)، وهي أول دعوة تقام لبني أمية على منابر سجلماسة منذ تأسيس دولتهم في الأندلس[٢].

الاجتياح الصنهاجي للمغرب الأقصى: أثار التوسع المغراوي بلكين بن زيري الصنهاجي الذي أراد أن يثبت أنه أهلٌ للحكم الذي عُهِد إليه من جانب الفاطميين،

---

(١) ابن عذاري: جـ ٣ ص ٤٩، ٥٢، ٥٣. ابن الخطيب: جـ ٢ ٩٠ ـ ٩٢.

(٢) ابن عذاري: جـ ١ ص ٢٣٠ـ ٢٣٩. ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٣٢.

فهاجم معاقل هؤلاء في المغرب الأقصى في عام (٣٦٩ هـ/ ٩٨٠ م) وأجلاهم عنها، وأجبرهم على التحصن في سبتة، وكانوا بقيادة جعفر بن علي بن حمدون، فأرسل هذا أخاه يحيى إلى قرطبة لطلب المساعدة من الحاجب المنصور(١).

لم يتأخر الحاجب المنصور عن إمداد حلفائه بالمساعدة العسكرية والمادية لمنع عودة النفوذ الفاطمي إلى المغرب الأقصى الذي كاد يخرج نهائياً من السيادة الفاطمية، وخرج هو على رأس جنده إلى الجزيرة الخضراء ليراقب الوضع عن كثب(٢).

وزحف بلكين بن زيري على سبتة، ولما أشرف عليها هالته حصانتها وكثرة جيشها وسرعة إمداداتها، وأدرك أنه يصعب عليه اقتحامها، فانصرف نحو الجنوب، واكتفى بالاستيلاء على فاس وسجلماسة وتلمسان، وخرَّب البصرة وطرد عمال الأمويين، ثم عاد إلى القيروان حيث تلقَّى أمراً من القاهرة بألا يتعدَّى هذه الحدود، وظلت سبتة معقلاً أموياً حصيناً للزناتيين(٣).

ويبدو أن تراجع بلكين بن زيري من أمام سبتة وانسحابه إلى إفريقيا له علاقة بمدى استنفاد حركته أمام الضغط الأموي من جهة، واضطراب الجبهة الموالية للفاطميين وتناقضاتها من جهة أخرى، ذلك أن ظهور الزعيم الإدريسي، الحسن بن كنون، فوق ساحة الصراع السياسي في المغرب الأقصى، أدَّى إلى خلط الأوراق وبلورة مواقف جديدة(٤).

تجدد ثورة الحسن بن كنون: يبدو أن الحسن بن كنون، الذي التجأ إلى القاهرة بعد طرده من الأندلس في عام (٣٦٥ هـ/ ٩٧٥ م) وأقام في كنف الفاطميين؛ قد ثقل وجوده على الإمام الفاطمي العزيز، بما كان يُنفق عليه من أموال باهظة، فحرَّضه على العودة إلى شمالي إفريقيا لإعادة إحياء الدولة الإدريسية. وصادف هذا الاقتراح تقبُّلاً من جانبه، فأقدم على تنفيذه، وتوجه فوراً إلى هناك في عام (٣٧٣ هـ/ ٩٨٣ م)، وكتب له بعهده على المغرب الأقصى، وأمر عامله على إفريقيا بلكين بن زيري أن يمده بالجند والأموال، وسرعان ما حصل على تأييد واسع من البربر وبخاصة من بني يفرن الزناتيين بزعامة يدو بن يعلى وأخيه زيري(٥).

والواضح أن القبيلة الزناتية الكبيرة، المعروفة بولائها للأمويين، قد فقدت وحدتها

---

(١) ابن خلدون: جـ ٦: ص ١٥٦.
(٢) ابن خلدون: جـ ٧ ص ١٩.
(٣) ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٥٦.
(٤) بيضون: ص ٣٥٩.
(٥) ابن خلدون: جـ ٦ ص ٢١٩. ابن أبي زرع، علي بن محمد الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ص ٦٢.

السياسية تحت تأثير المصالح المختلفة التي تجاذبتها بين ولاء وآخر، إذ ليس مستغرباً بأن تنقسم بين اتجاهين متناقضين.

عندما علم الحاجب المنصور بخبر حركته، أرسل قوة عسكرية إلى المغرب الأقصى، في عام (٣٧٥ هـ/ ٩٨٥ م)، بقيادة إبن عمه عمر بن عبد الله، المعروف بعسقلجة، لمحاربته، فعبر إلى سبتة وهاجم مقر الزعيم الإدريسي، فاستسلم وطلب الأمان، على أن يذهب إلى الأندلس، فأمّنه عسقلجة وكتب لابن عمه الحاجب المنصور بذلك، لكن هذا الأخير رفض الاعتراف بأمان ابن عمه بسبب تكرر خروج الحسن بن كنون وأرسل من قتله في الطريق(١).

غابت، بمقتل الحسن بن كنون، آخر حلقة من تاريخ الأدارسة السياسي في المغرب الأقصى، وسقطت معها فكرة إحياء السيادة الفاطمية بالتعاون مع زعماء محليين يضمنون استمراريتها ولو في إطار رمزي، إذ تشير المصادر أن الحاجب المنصور أمر بإخراج الأدارسة من الأندلس والمغرب الأقصى، فتفرقوا في القبائل المغربية، واضطروا أن يتخلوا عن نسبهم العلوي خشية الملاحقة، فانهارت بذلك دعوتهم وتفرَّق أنصارهم وسكنت ريحهم(٢).

ويبدو أن عسقلجة غضب لرفض الحاجب المنصور الأمان الذي أعطاه للحسن ابن كنون، وتلفَّظ بعبارات قاسية كلفته ثمناً غالياً، إذ تمَّ استدعاؤه إلى قرطبة لتوضيح موقفه، ودفع ثمن تهوره، وحل محلَّه الوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود السُلمي، وذلك في عام (٣٧٦ هـ/ ٩٨٦ م)(٣).

اتساع النفوذ الأموي في المغرب الأقصى

وبفضل السياسة الواعية التي اتَّبعها السُلمي وزيري بن عطية، الذي خلفه بعد مرور عامين إثر مقتله، في إحدى المعارك ضد يدو بن يعلى اليفرني، ساد المغرب الأقصى حال من الهدوء والاستقرار امتد نحو عشرة أعوام، بلغ النفوذ الأموي خلاله أقصى اتساعه، إذ امتد من أعمال الزاب وتاهرت وتلمسان شرقاً إلى مدينة سجلماسة جنوباً. ودعَّم هذا النفوذ الانضمام غير المتوقع للزعيم الصنهاجي أبي البهار بن مناد إلى الأمويين، مخالفاً بذلك سياسة ابن أخيه المنصور بن بلكين وذلك في عام (٣٧٩

(١) ابن عذارى: جـ ٢ ص ١٨١. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٣٨٣. ابن خلدون: جـ ٧ ص ١٩، ٢٠.

(٢) ابن أبي زرع: ص ٦٣. بيضون: ص ٣٦٠. (٣) ابن خلدون: جـ ٧ ص ٢٠.

هـ/ ٩٨٩ م) فقطع الخطبة للفاطميين وخطب لهشام المؤيد والحاجب المنصور[١]. غير أن هذا التحول كان مرحلياً، إذ سرعان ما دبَّ الخلاف بينه وبين زيري بن عطية بسبب التنافس على الزعامة السياسية، تطور إلى الصدام المسلح، وأدى إلى عودة أبي البهار إلى الحظيرة الفاطمية، وسيطر زيري على أملاكه، تلمسان ووهران وشلف وغيرها من المناطق، وضمَّها إلى أملاكه، فتوسع بذلك نفوذه، وقويت شوكته، وأضحى يحكم ما بين إقليم الزاب بالمغرب الأوسط إلى السوس الأقصى، وحدث ذلك في عام (٣٨٣ هـ/ ٩٩٣ م)[٢].

ثورة زيري بن عطية ضد الحكم الأموي[٣]: تغيَّرت سياسة المغراويين تجاه الدولة الأموية، بعد مرور عشرة أعوام، بفعل تطورات مفاجئة، وانقلبت إلى علاقات عدائية. ولا نكاد نلمح في الروايات التاريخية التي دوَّنت أخبار ثورة المغراويين أي مبرِّر مقبول باستثناء ما ذُكر من أن أسباباً اقتصادية كانت وراء نفور الزعيم المغراوي، فقد ذكرت:

- أن زيري بن عطية خاطب وطنه، عندما استوت قدماه على أرض طنجة بعد عودته من زيارة له إلى قرطبة، «الآن علمت أنك لي»، ويدل ذلك على ما كان يخالج نفسه من نزوع نحو الاستقلال ببلاده والانفراد بحكمها، وأخذت تصدر عنه بوادر عدم الإذعان.
- أنه احتقر لقب الوزارة الذي منحه إياه الحاجب المنصور، حيث وجد فيه تقليلاً من وزنه السياسي كأمير ينتمي إلى قبيلة كبيرة.
- استصغر العطاء السنوي الذي كان يجريه عليه الحاجب المنصور، وأنكر عليه استبداده بالحكم وحجره على الخليفة هشام المؤيد.
- شعر زيري بقوته من واقع القاعدة الشعبية التي التفَّت حوله من سواد قبائل البربر مدفوعة بحب الاستقلال، وكان قد احتل مكانة عالية لدى جماعته فتحول بنظرهم إلى قائد شعبي تجسَّدت فيه آمالهم البعيدة في السيادة.
- اشتراكه بالمؤامرة التي حاكتها السيدة صبح ضد الحاجب المنصور.

ومهما يكن من أمر، فمن المؤكد أن الزعيم المغراوي كان ينزع نحو الاستقلال وتأسيس دولة على غرار الدولة الصنهاجية في إفريقيا، فشهَّر بسياسة الحاجب

---

(١) ابن عذاري: جـ ١ ص ٢٤٢. ابن خلدون: جـ ٧ ص ٢٠.

(٢) ابن عذاري: جـ ١ ص ٢٤٦، ٢٤٧. ابن خلدون: جـ ٧ ص ٢٢. ابن أبي زرع: ص ٦٣.

(٣) ابن عذاري: جـ ٢ ص ١٨١، ١٨٢. ابن خلدون: جـ ٧ ص ٣٣. مؤلف مجهول: مفاخر البربر ص ٢٨.

المنصور الاستبدادية، وأعلن ثورته على حكمه، وقطع اسمه في الخطبة وطرد عماله من جميع البلاد المغربية باستثناء أولئك الذين يتولون ثغور المغرب الأقصى المطلة على المضيق.

وحتى يتَّقي الحاجب المنصور الضربة القادمة من المغرب، ردَّ على زيري بن عطية بعدة إجراءات سريعة، منها:

- عزله عن خطة الوزارة.
- قطع راتبه السنوي.
- محا اسمه من ديوانه.
- تبرَّأ منه، وعدَّه خارجاً عاصياً عليه.
- أرسل قوات إلى المغرب الأقصى لقمع ثورته تناوب على قيادتها عدد من القادة كان آخرهم عبد الملك، ابن الحاجب المنصور، الذي نجح في قمع الثورة وبسط سلطانه على المغرب الأقصى وما والاه إلى سجلماسة وتلمسان وتاهرت بالمغرب الأوسط، والتجأ زيري إلى الصحراء، ثم يمَّم وجهه شطر المغرب الأوسط ليتدخل في شؤون إفريقيا، فتوغل في أراضيه، وأعلن سيادة هشام المؤيد والحاجب المنصور على المنطقة في محاولة لاسترضاء هذا الأخير، وطلب منه إعادة العهد له بولاية المغرب، وأرسل ابنه وابن أخيه رهينة إلى قرطبة تدليلاً على صدقه وحسن نواياه. فرضي الحاجب المنصور بما قام به، لكنه لم يُرسل إليه بولاية العهد[١].

في عهد عبد الملك المظفر

توفي زيري بن عطية في عام (٣٩١ هـ/ ١٠٠١ م)، وخلفه ابنه المعز[٢]، ويبدو أنه لم يكن راضياً عن سياسة والده المتقلبة تجاه الدولة الأموية في الأندلس، وآثر أن يتفاهم مع الحاجب المنصور، فدخل في طاعته، وما زال على ذلك حتى توفي الحاجب المنصور في العام التالي[٣].

وهكذا استعادت الخلافة الأموية سيادتها على أراضي المغربين الأوسط والأقصى، إذ كان يمثلها على الإقليم الأول المعز بن زيري، ويمثلها على الإقليم الثاني الولاة الذين كان يعيِّنهم الحاجب المنصور، ثم ابنه عبد الملك المظفر الذي حرص على انتهاج سياسة والده من وحي المحافظة على النفوذ الأموي على الجانب الآخر من العدوة.

---

(١) الفيلالي: ص ٢٤٣.

(٢) ابن خلدون: جـ ٧ ص ٣٣.

(٣) المصدر نفسه.

وعندما تأكد عبد الملك المظفر من إخلاص المعز بن زيري، عيَّنه والياً على المغرب كله باستثناء سجلماسة، وكانت إقطاعة خاصة لوانودين بن خزرون وابن عمه فلفول، وذلك في (ذي القعدة ٣٩٧ هـ/ تموز ١٠٠٧ م)[١].

وبهذه السياسة يكون عبد الملك المظفر قد أعاد الثقة إلى حلفاء الدولة الأموية التقليديين، وهم آل خزر المغراويين، واكتسب ولاء زناتة التي نشرت الدعوة الأموية في ربوع المغربين الأوسط والأقصى منذ الرعيل الأول، ضمن ولاء بني زيري الصنهاجيين الذين عبروا إلى الأندلس واستقروا بنواحي غرناطة، فاستخدمهم في جهاد النصارى في الشمال.

في عهد عبد الرحمن شنجول

لم يدم عهد عبد الملك المظفر أكثر من سبعة أعوام، فتوفي في عام (٣٩٩ هـ/ ١٠٠٨ م)، وخلفه أخوه عبد الرحمن شنجول، كما ذكرنا. وعندما علم المعز بن زيري بذلك، أرسل وفداً إلى قرطبة لتهنئته وتجديد الولاء والطاعة.

لم تتوضح سياسة عبد الرحمن شنجول العامة في المغرب الأقصى لأنه حكم بضعة أشهر فقط، وتدل تصرفاته الأولية مع المغاربة أنه كان ينوي انتهاج سياسة والده وأخيه.

العلاقات مع الممالك النصرانية في الشمال

في عهد الحاجب المنصور

تمهيد: امتازت سياسة الحاجب المنصور تجاه الممالك النصرانية في الشمال بطابع خاص، وهي نابعة من خلفيته الدينية وثقافته الإسلامية، إلى جانب استخدامها في تحقيق مآرب شخصية. والواقع أنه كان أكثر حكام الأندلس ارتباطاً بهذه السياسة وتحمساً لها، فهو الوحيد الذي بذل من وقته هذا الاهتمام الزائد بالحملات العسكرية التي كان يقودها بنفسه والتي زادت على الخمسين حملة، ومعنى هذا أنه كان يقوم بحملتين سنوياً[٢].

كان الطابع لهذه الحملات هجومياً صرفاً، فانتزع بذلك المبادرة من أعدائه الذين

---

(١) ابن عذارى: جـ ١ ص ٢٥٤. ابن خلدون: جـ ٧ ص ٣٣، ٣٤. مؤلف مجهول: ص ٤١.

(٢) المراكشي، عبد الواحد بن علي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٨.

أُرغموا على تغيير خططهم العسكرية من الهجوم إلى الدفاع، وظلّت قواتهم قابعة ضمن حدودهم الإقليمية بعد أن شُلّت حركتها باتجاه التوغل أو حتى الاقتراب من الحدود الإسلامية، وسلك في عملياته العسكرية أراضٍ لم تسكلها الجيوش الإسلامية من قبل، ولا حاولت الوصول إليها. وهذا الواقع في العلاقات العدائية بين المسلمين في الأندلس والنصارى في الشمال، لم نجد له مثيلاً في العهود السابقة باستثناء عهد عبد الرحمن الناصر.

والحقيقة أن السلام بين الجانبين امتد حتى وفاة الحكم المستنصر في عام (٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م)، وشكّلت وفاته انتهاء هذه المرحلة وبداية مرحلة جديدة من الصراع غير المتكافئ بينهما. وعلى الرغم من ذلك، لم يكن الحاجب المنصور ذلك الرجل الجبار العنيد الذي سحق العدو ودمَّر بلاده، وإنما كانت تحدوه روح إصلاحية، على الرغم من أنه كان قادراً على اقتلاع جذور النصارى والقضاء على الممالك النصرانية وضم أراضيهم إلى الممتلكات الإسلامية، مفوِّتاً فرصة ذهبية ورغبة المسلمين العامة في الأندلس. ويبدو أنه ندم في أواخر حياته لأنه عمَّر المناطق التي استولى عليها، بدليل ما جاء في حوار مع حاجبه، عندما شعر بدنو أجله، فقال عن نفسه إنه يستحق القتل والإحراق بالنار من المسلمين، لأنه عندما استولى على أراضٍ تابعة للممالك النصرانية، عمَّرها بالأقوات من كل مكان ووفَّر لها المؤن ووصلها ببلاد المسلمين، وحصَّنها غاية التحصين، فاتصلت العمارة بين الأندلس الإسلامية والممالك النصرانية، وتمنّى لو أنه كان قد خرَّب من تلك البلاد مقدار مسيرة عشرة أيام، وجعلها فيافي قفاراً حتى لا يصل النصارى إلى بلاد المسلمين إلَّا بمشقة كبيرة، ومن ثَمَّ يمكن الدفاع وإنقاذ البلاد من خطرهم[(١)].

وإذا كان الحاجب المنصور قد لجأ أحياناً إلى التدمير خلال حملاته العسكرية، إلا أن ذلك لم يكن يُقارن بما كان يفعله النصارى عندما كانوا يقتحمون مدينة أو قرية أو حصناً، إذ لم يكن التخريب والقتل سوى أسلوبهم المفضَّل، ولم يكن أمامه إلا معاملتهم بالمثل حتى يفرض السلام عليهم.

العلاقة مع مملكة ليون: كانت فاتحة أعمال الحاجب المنصور الجهادية، مهاجمة مملكة ليون في عام (٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م)، وجاءت رداً على غارة قام بها الملك راميرو

---

(١) ابن الكردبوس: الاكتفاء في أخبار الخلفاء، نشر أحمد مختار العبادي، مجلد ١٣ ص ٦٤، ٦٥.

الثالث (٣٥٥ ـ ٣٧٢ هـ/ ٩٦٦ ـ ٩٨٢ م)، على الثغر الأوسط إثر وفاة الحكم المستنصر، فهاجم حصن الحامة في جليقية، إلا أنه فشل في فتحه، وفتح حصن مولة، وسبى كثيراً وغنم غنائم وافرة(١).

وقام في عام (٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م) بغزوتين ضد أراضي مملكة ليون، فتح في الأولى حصن أرنيق، وخرَّب مدينة سلمنقة، وهاجم في الثانية نبرَّة وبرشلونة(٢). وتعدُّ حملته الرابعة ضد مملكة ليون، من أشهر حملاته وأكثرها خطورة. ففي (صفر ٣٧١ هـ/ آب ٩٨١ م) هاجم مدينة سمورة، غير أنه اضطر إلى فك الحصار عنها لمواجهة التحالف النصراني الذي تشكَّل آنذاك من راميرو الثالث ملك ليون وغرسية فرنانديز حاكم قشتالة وشانجة بن غرسية، المعروف بشانجة أباركا، ملك نبرَّة، وجرى اللقاء بين الطرفين عند روطة، إلى الجنوب الشرقي من شنت منكش، وأسفر عن انتصار المسلمين، وتعرَّضت قوى التحالف إلى كارثة حقيقية، وطاردها المسلمون حتى أبواب ليون، وسيطروا على أستورقة وشنت منكش، ولما عاد الحاجب إلى قرطبة خلع عليه الخليفة لقب المنصور(٣).

وفي شهر (ربيع الأول/ أيلول) هاجم الحاجب المنصور مدينة ليون نفسها في محاولة لاقتحامها، غير أنه ارتد عنها بفعل هبوب عاصفة ثلجية قوية، أعاقت العمليات العسكرية(٤).

أدَّت الهزائم المتلاحقة التي تعرَّض لها راميرو الثالث في كل من سمورة وروطة وشنت منكش إلى ابتعاد معظم النبلاء عنه، ورأوا أنه لم يعد يصلح لحكم المملكة، فخلعوه وولوا ابن عمه برموندو الثاني مكانه (٣٧٢ ـ ٣٨٩ هـ/ ٩٨٢ ـ ٩٩٩ م)، لكن راميرو الثالث لم يُذعن لهذا القرار، فحشد أنصاره واصطدم بخصمه في إحدى القرى الواقعة على حدود جليقية، وهي بورتيا دي أريناس، غير أن أياً منهما لم يستطع حسم المعركة لصالحه. وفي شهر (شوال ٣٧٤ هـ/ آذار ٩٨٥ م) نجح برموندو الثاني في أن ينتزع من خصمه عاصمته ليون، فهرب راميرو الثالث لاجئاً إلى أستورقة، بعد أن استأذن الحاجب المنصور، وتوفي بعد ذلك ببضعة أسابيع.

وتقرَّب برموندو الثاني من الحاجب المنصور والتمس منه التأييد والعون لقمع

(١) ابن بسام: جـ ٤ ص ٣٨، ٣٩. (٢) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٦٧.

(٣) العذري: ص ٧٨. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٨٠، ١٨١.

(٤) ابن خلدون: المصدر نفسه. دوزي: جـ ٢ ص ١١٦.

تمرد النبلاء الذين رفضوا الاعتراف بحكمه، على أن يدخل في طاعته وحمايته ويدفع له جزية سنوية. فأرسل إليه قوة عسكرية، نزلت في مدينة ليون، وبذلك أضحى تابعاً له(١).

استمر الوضع على هذا الحال حتى عام (٣٧٦ هـ/ ٩٨٦ م)، إذ حدث في غضون ذلك أن وطَّد برموندو الثاني مركزه، واشتد ساعده بعد أن قضى على المعارضة، فقرَّر إخراج الجيش الإسلامي من ليون، ونظر إليه على أنه جيش احتلال، فطلب من الحاجب المنصور سحبه من المدينة، غير أن هذا تجاهل طلبه، فما كان منه إلا أن نقض الهدنة، وكانت هذه الخطوة بمثابة إعلان الحرب.

جاء رد الحاجب المنصور سريعاً على أحداث مملكة ليون، فأرسل حملتين عسكريتين، هاجمت الأولى مدينة قلمرية ودمرتها تدميراً شديداً لدرجة أنها ظلت مهجورة مدة سبعة أعوام، واستهدفت الثانية ليون نفسها، فاقتحمتها كالإعصار وحطمت المدن والقلاع، وكان برموندو الثاني قد هجرها إلى سمورة، وتركها تحت حماية حاكم جليقية كونزالتو كونزالس. قاومت المدينة مدة أربعة أيام قبل أن تستسلم وتفتحها القوات الإسلامية وتدمرها(٢)، ثم انسحب الحاجب المنصور عائداً إلى سمورة، فهرب منها الملك الليوني، وقام السكان بتسليمه المدينة، واعترف جميع حكام المقاطعات في المملكة بحكمه.

ظل السلام مستتباً على الجبهة الليونية حتى عام (٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م) حين قام عبد الله بن المنصور بالتآمر على أبيه بمعاونة عبد الله بن عبد العزيز المرواني، ولما اكتُشفت المؤامرة، فرَّ عبد الله بن المنصور إلى قشتالة، والتجأ عبد الله بن عبد العزيز إلى أستورقة، واحتمى بالملك برموندو الثاني الذي كانت له سلطة اسمية على البلاد، إذ إن النبلاء قد استقلوا بمقاطعاتهم، وأعلنوا تبعيتهم لقرطبة.

وجهَّز الحاجب المنصور حملة عسكرية لغزو ليون وقشتالة وإجبار حاكميها على تسليم المتآمرَيْن من دون أي التفات لعلاقة النسب التي تربطه ببرموندو الثاني، والمعروف أن الحاجب المنصور كان قد تزوج من ابنته تيريز في عام (٣٨٣ هـ/

---

(١) العذري: ص ٧٩. بروفنسال: ص ٤٦٦.

(٢) الضبي، أحمد بن يحيى بن عميرة: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ص ٧٣، ٧٤.
ابن الفرضي، عبد الله بن محمد بن يوسف: تاريخ العلماء والرواة للعلم في الأندلس جـ ٢ ص ٩٠.
دوزي: جـ ٢ ص ١٢٦.

٩٩٣م)[(١)]. قامت القوات الإسلامية بتدمير أستورقة التي اختارها برموندو الثاني عاصمة، بدلاً من ليون، فاضطر هذا إلى استجداء السلام وسلّم عبد الله بن عبد العزيز، ووافق على دفع جزية سنوية[(٢)].

لم يكن برموندو الثاني صادق النية في تعامله مع الحاكم الأندلسي، فانتهز فرصة تمرد زيري بن عطية ضد الحكم الأموي في الأندلس، ونقض الهدنة، فخرج الحاجب المنصور على رأس جيش في صيف (٣٨٧ هـ/ ٩٩٧ م) قاصداً مملكة ليون، فاخترق أراضيها ووصل إلى قلب جليقية، وتجاوز في هذه الحملة ما اعتاد من إنزال العقاب ببرموندو الثاني، ونهب المزارع والقرى وإحراق المحاصيل الزراعية وأسْر العديد، إلى مهاجمة أكثر الأماكن النصرانية قدسية. فقد تحوَّلت شنت ياقب، ابتداء من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلاي، إلى عاصمة إسبانية روحية ومركزاً للحج، ففيها رفات شنت ياقب ـ يعقوب الرسول ـ. فأراد الحاجب المنصور هدمها وتسويتها بالأرض.

وصل الحاجب المنصور إلى المدينة في (٢ شعبان/ ١٠ آب) وكان سكانها قد نزحوا عنها، فدخلها ودمَّرها، وتركها قاعاً صفصفاً، كما دمَّر كنيستها الضخمة باستثناء قبر الرسول يعقوب، وأرسل فرقة عسكرية توغلت في أراضي الشمال حتى وصلت إلى ساحل المحيط الأطلسي بالقرب من لاكرونيا، وبعد تدمير المدينة عاد إلى قرطبة[(٣)].

وقام الحاجب المنصور، بعد مرور عامين على غزوته، بإسكان المسلمين مدينة سمورة وشحنها بالمقاتلة وولَّى عليها أبا الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبي، ودخل سكان جليقية في طاعته، وكان حكامهم كالعمال لديه[(٤)].

لم يلبث برموندو الثاني أن توفي في عام (٣٨٩ هـ/ ٩٩٩ م)، وترك طفلاً لم يبلغ الخامسة من عمره يُدعى ألفونسو، وهو الخامس في هذه السلسلة، فتولى الكونت ميندو كونزالس تربيته والوصاية عليه، فتراجعت مملكة ليون، نتيجة ذلك، عن المواجهة السياسية، وانتقل مركز الثقل إلى قشتالة.

---

(١) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٨١.

(٢) دوزي: جـ ٢ ص ١٣٠. عبد الحليم: ص ٢٣٧.

(٣) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٩٤ـ ٢٩٨. بروفنسال: ص ٤٧١، ٤٧٢.

(٤) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٨١. بروفنسال: ص ٤٧٢.

العلاقة مع مملكة نبرَّة: عاد ملك نبرَّة شانجة غرسية الثاني إلى بلاده، بعد معركة روطة، يجر أذيال الهزيمة. وكان عليه أخيراً أن يزور قرطبة ليقدم اعتذاره للحاجب المنصور ويعلن طاعته له. وقضى بقية حياته في سلام، وتوفي في عام (٣٨٤ هـ/ ٩٩٤ م) فخلفه ابنه غرسية شانجة الثاني (٣٨٤ ـ ٣٩٠ هـ/ ٩٩٤ ـ ١٠٠٠ م)، الذي لم يكن على مستوى والده من القوة، وأطلقت عليه روايات المصادر لقب المرتعد لضعفه، وانتهج سياسة سلمية مع جيرانه. واستمر في الحكم أكثر من خمسة أعوام، ثم توفي تاركاً ابناً صغير السن لم يتجاوز الرابعة من عمره يُدعى شانجة، فرحل مع والدته القشتالية إلى قشتالة واستقر في عاصمتها برغش حيث تربى هناك، وزوَّجه الأمير القشتالي ابنته الكبرى القيرا[١].

العلاقة مع مملكة قشتالة: بعد هزيمة قوى التحالف النصراني في معركة روطة، اضطر غرسية فرديناند، حاكم قشتالة، إلى التخلي عن أنتيسة وسيبولفيد للحاجب المنصور، وتعهَّد بالتزام الهدوء، غير أنه نوى الغدر. وجاءته الفرصة عندما تآمر عبد الله على أبيه الحاجب المنصور وفرَّ من المعسكر الإسلامي إلى قشتالة، فحاول أن يستغل الموقف لصالحه، ووعد عبد الله بحمايته، وحافظ على وعده مدة سنة قبل أن يقوم الحاجب المنصور بالضغط عليه، وأجبره على توقيع معاهدة تَم بمقتضاها تسليم عبد الله، ومع ذلك لم يصفح عنه وحرَّض عليه ابنه شانجة، فأعلن الثورة عليه في عام (٣٨٤ هـ/ ٩٩٤ م)[٢].

لم يستسلم الأمير القشتالي لهذا الأمر الواقع، وقام بعدة غارات على المناطق الإسلامية الحدودية بالقرب من مدينة سالم، وأسر في إحداها في (١٥ ربيع الآخر ٣٨٥ هـ/ ١٩ نيسان ٩٩٥ م)، بعد أن جُرح، فحُمل إلى مدينة سالم، وتوفي فيها بعد بضعة أيام، فخلفه ابنه شانجة غرسية (٣٨٥ ـ ٤٠٧ هـ/ ٩٩٥ ـ ١٠١٧ م)، فتقرَّب من الحاجب المنصور وصالحه على الجزية[٣].

لكن العلاقات الجيدة بين الطرفين أخذت تتلاشى تدريجياً بعد الضربة العنيفة

---

(١) عبد الحليم: ص ٢٤٧، ٢٤٨.

(٢) ابن عذارى: جـ ٢ ص ٢٨٣، ٢٨٤.

(٣) الحميدي، محمد بن أبي نصر فتوح: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ص ٢١٤. ابن بسام: جـ ٤ ص ٢٨.

التي أنزلها الحاجب المنصور بمدينة شنت ياقب، ويبدو أن تدمير المدينة أثار روح الحماسة والمقاومة لدى النصارى بعامة. وخلال صيف عام (٣٩٠ هـ/ ١٠٠٠ م) نجح شانجة غرسية في عقد عدة تحالفات مناهضة للمسلمين، ووحَّد الممالك والإمارات النصرانية، من بنبلونة في الشرق إلى أستورقة في أقصى الغرب، وتولى بنفسه قيادة التحالف نظراً لأن أمير نبرَّة كان طفلاً يعيش في بلاطه، وألفونسو الخامس، ملك ليون، كان أيضاً طفلاً تحت وصاية أحد نبلاء جليقية، لذلك شكَّلت قشتالة محور المقاومة ومركز الثقل في الصدام العسكري مع المسلمين.

لم يفقد شانجة غرسية الأمل في أن يُنزل بالمسلمين ضربة قوية بعد الاستعدادات والحشود الضخمة التي جنَّدها، وسانده نبلاء ليون ونبرَّة. وتجمَّعت هذه الحشود في المنطقة الوسطى لوادي نهر دويرة، وهي منطقة جبلية تسمى صخرة جربيرة، شديدة الانحدار من ناحية المسلمين، ومتصلة بالسهول الخصبة من الشمال بحيث يسهل وصول المؤن والإمدادات إلى النصارى.

كان الحاجب المنصور آنذاك في طريقه إلى الشمال، فتوقف قليلاً في مدينة سالم قبل أن يتابع زحفه إلى معسكر أعدائه. وعندما وصل إلى المكان وعاين الأمر على الطبيعة، هاله ذلك، فتشاور مع أركان حربه حول الخطة الواجب اتباعها، فاختلف هؤلاء فيما بينهم، وعاجلهم شانجة بالهجوم وهم مجتمعون في (٢٥ شعبان ٣٩٠ هـ/ ٣٠ تموز ١٠٠٠ م)، وركَّز ضرباته على الجناحين لإخراجهما من المعركة حتى ينكشف القلب، فيقضي عليه. وشعر الحاجب المنصور بالقلق وهو يراقب سير القتال، فأردف الجناحين بابنيه عبد الملك وعبد الرحمن.

وارتكب شانجة غرسية، خلال إدارته للمعركة، خطأً تكتيكياً قاتلاً عندما وقع في خدعة، إذ رأى الحاجب المنصور وهو ينقل خيمة القيادة من أسفل الوادي إلى ربوة عالية، يشرف منها على أرض المعركة، فظن أن قوات جديدة دخلت ساحة القتال فانهارت قواه، وتضعضع نظام جيشه، وفرَّ جنوده بكل اتجاه فطاردهم المسلمون. ورغبة منه في استغلال النصر، أرسل الحاجب المنصور فرقاً عسكرية أغارت على مناطق مختلفة في قشتالة، ودخلت إحداها مدينة برغش يوم عيد الفطر، ومكث الحاجب المنصور فيها بعض الوقت ثم غادرها عائداً إلى قرطبة عن طريق بنبلونة[1].

---

(١) ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٦٨.

اضطر شانجة غرسية، تحت ضغط القتال والغارات الإسلامية ضد أراضيه، إلى الإذعان، فاستأذن الحاجب المنصور لزيارة قرطبة. وسُرَّ العاهل الأندلسي بمجيئه فأعد له استقبالاً حافلاً، وعاتبه على سلوكه العدائي، وصفح عنه وخلع عليه[١].

ويبدو أن الحاجب المنصور أدرك، ببُعد نظره، مدى خطورة هذا الزعيم النصراني، فقام بآخر غزواته ضده في (شعبان ٣٩٢ هـ/ حزيران ١٠٠٢ م)، وهي الغزوة التي تُعرف بغزوة كاناليس والدير، لأنه وصل إلى كاناليس، الواقعة جنوب غربي ناجرة في إقليم ريوخة التابع لقشتالة، أما الدير فهو دير شنت أمليان لأن الحاجب المنصور قام بنهبه، وبعد انتهاء هذه الغزوة، وخلال العودة إلى قرطبة، كان الموت بانتظاره في مدينة سالم[٢].

العلاقة مع إمارة برشلونة: كانت برشلونة تحت حكم الملك بوريل، منذ عام (٣٤٣ هـ/ ٩٥٤ م) لكن تحت الوصاية الفرنجية، وهي وصاية أضحت اسمية بمرور الزمن. وكان على علاقة جيدة مع قرطبة، غير أن استقلال النبلاء بإقطاعاتهم، بسبب النظام الإقطاعي السائد، أدَّى إلى الفوضى. وأدرك الحاجب المنصور أن أمراء قطلونية لن يحصلوا على أية مساعدة من جيرانهم إذا ما هاجمهم المسلمون. وقد لمس ذلك مرتين حين غزا بسيط برشلونة في عامي (٣٦٧ هـ/ ٩٧٨ م) و (٣٧٤ هـ/ ٩٨٤ م)، لذلك أعدَّ حملة عسكرية ضخمة لإخضاع قطلونية للحكم الإسلامي المباشر، خرجت من قرطبة في (١٢ ذي الحجة ٣٧٤ هـ/ ٥ أيار ٩٨٥ م)، ومرَّت بالبيرة وبسطة ومرسية قبل أن تنحرف شمالاً بحذاء الساحل الشرقي.

تصدَّى بوريل للحملة الإسلامية عند بيغش في الطريق إلى برشلونة لكنه مُني بهزيمة قاسية. وتابع الحاجب المنصور زحفه، بعد انتصاره، إلى برشلونة، فوصل إليها في شهر (صفر ٣٧٥ هـ/ تموز ٩٨٥ م) فاقتحمها ودمَّرها وقتل معظم سكانها وجندها وأسر الباقي، ثم وضع فيها حامية عسكرية وعاد إلى قرطبة محملاً بالغنائم[٣].

لم يدم حكم المسلمين لبرشلونة أكثر من سنة، إذ إن الفرنجة انتهزوا فرصة انهماك الحاجب المنصور في حملته على بنبلونة في عام (٣٧٦ هـ/ ٩٨٦ م)،

---

(١) ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٦٩، ٧٠.
(٢) المصدر نفسه: ص ٧٦. ابن بسام: جـ ٤ ص ٤٦، ٤٧.
(٣) ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٧٠.

فأرسلوا إليها جيشاً مدعَّماً بقوة بحرية، فاستولى على المدينة، التي انسحبت منها الحامية الإسلامية باتجاه نهر إبرو[1].

في عهد خلفاء الحاجب المنصور

تُركِّز الروايات، بصورة خاصة، على الجانب الجهادي في شخصية عبد الملك بن المنصور الذي وجد نفسه في مواجهة التحركات النصرانية المعادية على جبهة الحدود مع النصارى بحيث أُتيحت الفرصة للأمراء والملوك النصارى أن يجتازوا خط الدفاع الذي فرضه عليهم الحاجب المنصور، ويستأنفوا الهجمات ضد الأراضي الإسلامية بعد وفاته. لذلك، استعادت الجبهة الشمالية تحالفها التقليدي الذي اهتز في أعقاب الهزائم العديدة في العهد السابق، وكان حاكم برشلونة أول المبادرين إلى خرق السلام في هذا الإقليم[2].

واستطاع عبد الملك، من خلال سياسته الشمالية، أن يحفظ لقرطبة هيمنتها العسكرية على الممالك النصرانية التي أضعفتها الصراعات الداخلية، وأضحت غير قادرة على التحالف فيما بينها لمواجهة هجمات المسلمين. والواقع أنه كان لوفاة الحاجب المنصور رد فعل إيجابي في الدوائر النصرانية التي أعربت عن ارتياحها لإزالة ذلك الضغط الذي جثم على صدرها أكثر من عشرين عاماً. وكان النصارى شديدي الكراهية له لدرجة أن أحد كهنتهم كتب في حولياته «مات المنصور ودفن في الجحيم»[3]، واعتقدوا أنهم لن يعانوا مجدداً من وقع الضربات التي كان ينزلها بهم.

لكن تطور الأحداث أثبت خطأ اعتقادهم، وربما كان لشهرة عبد الملك العسكرية أثر في إحجام بعض الممالك النصرانية عن القيام بشن هجوم في المدة التي جرى فيها انتقال السلطة، على الرغم من المؤشرات التي أوحت، بعد غياب الحاجب المنصور، بأن اختلالاً في الموقف بين الطرفين، كان من المرتقب أن يحدث ويعيد الوضع العسكري في المنطقة الشمالية إلى سابق عهده، والاستثناء الوحيد نجده في مسلك أمير برشلونة الذي كان قد عقد هدنة مع الحاجب المنصور منذ وقت قصير.

وأعدَّ عبد الملك حملة عسكرية لتأديب أمير برشلونة، وبالغ في تجهيزها.

---

(١) ابن الكردبوس: ص ٦٧. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٨٤، ١٨٥.

(٢) ابن عذاري: جـ ٣ ص ٤ـ ٨.

(٣) Crow, John, A: Spain the Root and Flowers P. 63.

فاستدعى المتطوعين من شمالي إفريقيا ومن سائر أنحاء الأندلس، ورغَّبهم في المشاركة في الجهاد، حتى ضاقت بهم قرطبة وأرباضها. وفي (١٣ شعبان ٣٩٣ هـ/ ١٧ حزيران ١٠٠٣ م)، خرج من قرطبة على رأس الجيش متوجهاً إلى إقليم قطلونية، عبر الثغر الأوسط، مخالفاً بذلك خطط والده الذي كان يتخذ الطريق الساحلي الشرقي المار عبر طليطلة. وعندما وصل إلى مدينة سالم انضمت إليه القوات النصرانية التي بعث بها إليه شانجة غرسية أمير قشتالة وفقاً للاتفاقية المعقودة بين الجانبين، كما رافقه واضح، حاكم مدينة سالم. ولما اجتاز سرقسطة ولاردة وجد نفسه أمام جبال قطلونية، فعبرها حتى وصل إلى السهول المحيطة ببرشلونة. وكانت الحصون الواقعة على طريق زحف الجيش، هي الأهداف الأولى لعبد الملك، ففتح حصن موما قصر، من أعمال برشلونة، وأرسل قائده واضح ففتح حصن مادانيش، كما فتح حصن برشلونة، وأغرى المسلمين بتعميره والاستيطان فيه. وجال الجيش الإسلامي بعد ذلك في أنحاء قطلونية، يُدمِّر كل ما يصادفه من مقاومة، وأرسل عبد الملك بكتاب الفتح إلى قرطبة قبل أن يعود هو وجيشه إليها[1].

شكَّلت الحملة رادعاً للنصارى بعامة الذين حافظوا على عهودهم السلمية مع المسلمين، ولبوريل حاكم برشلونة بخاصة الذي هاله ما أصاب بلاده من تدمير، فجنح إلى السلم وأرسل سفارة إلى قرطبة من أجل هذه الغاية.

ظلَّت قرطبة، في ظل حكم عبد الملك، محور التجاذب على صعيد العلاقات بينها وبين الممالك النصرانية من جهة، وبين هذه الممالك من جهة أخرى. ففي عام (٣٩٤ هـ/ ١٠٠٤ م) تنازع حاكم قشتالة شانجة غرسية مع حاكم جليقية منديث كونزالس والوصي على ملك ليون الشاب ألفونسو الخامس، وكانت أمه ألڤيرا أختاً لشانجة غرسية، وكان هذا يرى أنه أحق بالوصاية على الملك الليوني بوصفه خاله وليمارس باسم أخته وصايته عليه.

وللخروج من هذا المأزق، رأى الطرفان أن يحتكما إلى عبد الملك، الذي استغل هذه الأجواء كورقة ضغط ضد أعدائه، ومدخلاً إلى تغذية التمزق السياسي بينهم، ولم يكن قراره، الذي جاء لمصلحة حاكم جليقية، إلا عاملاً لتصعيد الفوضى في أكبر الممالك النصرانية التي ظلت مشلولة حتى أواخر عهده[2].

---

(١) ابن عذارى: جـ ٣ ص ٤ ـ ٧. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٨٣.

(٢) ابن عذارى: جـ ٣ ص ١٠. ابن الخطيب: المصدر نفسه.

ويبدو أن هذا القرار لم يُرضِ شانجة غرسية، فنقض عهده مع قرطبة وأخذ يستعد لمهاجمتها، فعاجله عبد الملك بصائفة توغلت في الأراضي القشتالية من دون أن تلقى مقاومة. واضطر، تحت ضغط الأحداث، إلى التفاهم مجدداً مع قرطبة، وزار المدينة من أجل ذلك ووعد عبد الملك بأن يشارك في الحملات المقبلة التي يسيِّرها العاهل القرطبي ضد مملكة ليون أو ضد أملاك مناوئيه من بني غومس دي كاريون[1].

وفي عام (٣٩٥ هـ/ ١٠٠٥ م)، خرج عبد الملك من قرطبة غازياً مملكة ليون، وانضم إليه في طليطلة القائد واضح وشانجة غرسية، حاكم قشتالة، وتوغل في أراضيها حتى وصل إلى قلعة لونا الحصينة الواقعة على النهر الذي يحمل الاسم نفسه، وهو أحد روافد نهر أوربيغو[2].

ولا يبدو أن هذا التوغل الجريء في أراضي مملكة ليون يهدف إلى تحقيق مكاسب مادية بالاستيلاء على الأراضي وضمِّها إلى الأملاك الإسلامية، فمنذ زمن طويل لم يتوغل جيش إسلامي بهذا الشكل في سلسلة جبال كنتبرية، بدليل أن عبد الملك فشل في اقتحام لونا، ولم يحقِّق نتائج عسكرية ذات شأن باستثناء الغنائم والسبي، وقفل عائداً إلى قرطبة[3].

وخرج عبد الملك غازياً على رأس صائفة في عام (٣٩٦ هـ/ ١٠٠٦ م) قاصداً بنبلونة عاصمة نبرَّة، فاقتحم عدة قرى وبلدات منها روطة، ثم عاد إلى قرطبة. ويبدو أن سكان العاصمة لم يرضوا عن تلك النتائج الهزيلة التي حققتها الحملة، فلم يستقبلوا عبد الملك بحماسة[4].

وحظيت صائفة عام (٣٩٧ هـ/ ١٠٠٧ م) باهتمام المؤرخين المسلمين، لأن عبد الملك نال على أثرها لقب المظفر. فقد نُمي إليه أن أمير قشتالة شانجة غرسية يستعد للحرب فباغته في عقر داره، وعُرفت هذه الصائفة بغزوة النصر أو غزوة كلونية. فسار مخترقاً أراضي قشتالة حيث واجه فيها تحالفاً نصرانياً يقوده شانجة غرسية الذي استعاد قدرته على التحرك بعد ثلاثة أعوام من الهدنة، فكوَّن حلفاً من ألفونسو الخامس، ملك ليون، وشانجة الثالث، ملك نبرَّة وعدد من الزعماء النصارى في

---

(١) ابن بسام: جـ ٤ ص ٥٢، ٥٣.
(٢) ابن عذارى: جـ ٣ ص ١١. بروفنسال: ص ٤٩٠.
(٣) ابن عذارى: جـ ٣ ص ١٢.
(٤) ابن عذارى: جـ ٣ ص ١٢، ١٣. ابن بسام: جـ ٤ ص ٥٣.

مقدمتهم بنو غومس. وجرى اللقاء بين الطرفين في كلونية الواقعة شمالي نهر دويرة على مقربة من شنت أشتبين، وأسفر عن انتصار واضح للمسلمين، وتعرض الحلفاء النصارى لهزيمة مروعة. وفتح عبد الملك حصن كلونية ثم عاد إلى قرطبة(١).

وعلى الرغم من هذا النجاح، وجد عبد الملك نفسه مضطراً لغزو قشتالة بعد عودته إلى قرطبة بوقت قصير، لوضع حد لتعديات أميرها على الأراضي الإسلامية. فخرج من قرطبة في (أوائل صفر ٣٩٨ هـ/ تشرين الأول ١٠٠٧ م) غازياً، فاخترق أراضي قشتالة الوسطى حتى ضفاف نهر دويرة، وهاجم قلعة شنت مرتين المنيعة الواقعة على الضفة اليمنى للنهر، واقتحمها وأجبر حاميتها على الاستسلام، وأمر بقتل الجند وسبي النساء والذرية، وإصلاح ما تهدم من القلعة، وعاد إلى قرطبة(٢).

إلا أن هذا الانتصار لم يُحقِّق الأمن على كافة الحدود الوسطى، إذ ظل شانجة غرسية على سياسته العدائية، فما كان من عبد الملك إلا أن غزا أراضيه مرة أخرى في (شوال ٣٩٨ هـ/ حزيران ١٠٠٨ م) فيما عُرف بغزوة العلة(٣)، ذلك أنه ما كاد يصل إلى مدينة سالم حتى اشتد به المرض، فمكث بها حيناً ينتظر الشفاء. وشعر الجنود بدنو أجله، فتفرق عنه أكثرهم، واضطر للعودة إلى قرطبة وهو عليل من دون أن يقوم بأي عمل عسكري يُذكر.

وقرَّر، بعد شهرين من ذلك، القيام بحملة أخرى ضد قشتالة بعد أن شعر بالتحسن، لكن المنية وافته وهو في الطريق، إذ كان يعاني من مرض في صدره، وفي رواية بأنه توفي مسموماً من شربة دُسَّت له بتحريض من أخيه عبد الرحمن، وكانت وفاته في (١٦ صفر ٣٩٩ هـ/ ٢١ تشرين الأول ١٠٠٨ م) كما ذكرنا(٤).

أراد عبد الرحمن شنجول أن يقتدي بأبيه وأخيه في سياسته الخارجية، وكان النصارى في الشمال يتابعون تطورات الأحداث في قرطبة، وما يسودها من اضطراب، فأحجم شانجة غرسية، أمير قشتالة، عن تنفيذ بنود الاتفاق المعقود مع المسلمين، واحترام السلم، وأخذ يغير على مناطق الحدود الإسلامية، فقرَّر عبد الرحمن شنجول أن يغزو جليقية، فاعترضه كبير الفتيان الصقالبة، وحذَّره من مغادرة قرطبة في هذا

---

(١) ابن بسام: جـ ٤ ص ٥٣، ٥٤. ابن عذارى: جـ ٣ ص ١٣ ـ ١٦. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٨٤.

(٢) ابن عذارى: جـ ٣ ص ٢١ ـ ٢٣.

(٣) المصدر نفسه: جـ ٣ ص ٢٣.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٦، ٣٧.

الوقت وأوضح له أن المروانية يأتمرون به للتخلص منه وانتزاع الحكم، وأن كثيراً من الجند يميلون إليهم، فلم يصغِ إليه وأمر بالخروج للغزو، وعهد بإدارة الحكومة، أثناء غيابه، إلى ابن عم أبيه عبد الله بن أبي عامر[1]. وخرج من قرطبة في (١٦ جمادى الأولى ٣٩٩ هـ/ ١٦ كانون الثاني ١٠٠٩ م) أي في فصل الشتاء، متوجهاً إلى جليقية عن طريق طليطلة، واخترق حدود مملكة ليون ودخل جليقية.

لم يتصدَّ ألفونسو الخامس لزحف المسلمين وتحصَّن في رؤوس الجبال آملاً أن تقضي عليهم عوامل الطبيعة. وفعلاً لم يجد عبد الرحمن شنجول سبيلاً لقتاله، كما أن فيضانات الأنهار وكثرة الثلوج أعاقت تقدم قواته، فقرَّر عند ذلك العودة إلى قرطبة، ولم تحقق غزوته هذه أي إنجاز. وما إن وصل إلى طليطلة حتى وافته الأنباء بانقلاب حدث ضده في قرطبة، وأن الثائرين استولوا على مدينة الزاهرة ونهبوا محتوياتها وأضرموا النار فيها، وتسرَّبت هذه الأنباء إلى الجند المرافقين له، فاضطربوا، واضطر أن يسير بهم إلى قلعة رباح في طريقه إلى قرطبة.

---

(١) ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٩٠.

الفَصْلُ الثَّانِي عَشَر

سقوط الخلافة الأموية وزوالها

(٣٩٩ ـ ٤٢٢ هـ/١٠٠٩ ـ ١٠٣١ م)

محمد المهدي: المرة الأولى

بعد نجاحه في القضاء على الأسرة العامرية، اعتلى محمد بن هشام بن عبد الجبار سدة الخلافة في (١٧ جمادى الآخرة ٣٩٩ هـ/١٦ شباط ١٠٠٩ م) وتلقَّب بالمهدي[١]، فانقضى بذلك عهد السلطة الثنائية لتعود السلطة الموحَّدة في حكم البلاد. ويبدو أنه استمد قوته من الفئات الشعبية التي ساندته في انقلابه ضد النظام العامري وخليفته الضعيف[٢]، فظهر للوهلة الأولى وكأنه رجل المرحلة المعقودة عليه الآمال لإقامة نظام ثابت ومستقر، غير أن التجربة أثبتت خطأ هذا الاعتقاد بعد فشله في إقامة توازن سياسي بين الأطراف المتنازعة.

والواقع أن الظروف التي باتت عليها الأندلس آنذاك لم تكن تسمح لأي سلطة نظامية أن تستقر وتستمر، بالإضافة إلى ذلك، فقد كان الخليفة الجديد شخصية ضعيفة، متهورة ومائعة، تحركها النزعات الخاصة، وليس لها هدف أسمى، فتحوَّل إلى حاكم غير مرغوب فيه.

لعل أول ما ارتكبه محمد المهدي من أخطاء، أنه أحاط نفسه ببطانة من السوقة من غير ذوي الخبرة، ضارباً عُرض الحائط بالمصلحة العامة[٣]. فتطلَّعت فئات المجتمع المتوثبة نحو السلطان إلى المشاركة في تقطيع أوصال الدولة المنهارة والحصول على نصيبها من الأسلاب.

---

(١) ابن عذاري: جـ ٣ ص ٥٠.

(٢) المصدر نفسه: ص ٥٦، ٥٧.

(٣) المصدر نفسه: ص ٥١.

فالمروانيون، أو بنو أمية، يرون أنَّهم أصحاب الحق الشرعي في الخلافة بعد القضاء على الأسرة العامرية، وتطلع الفتيان العامريون وأنصارهم، من الصقالبة ومن والاهم من الجند المرتزقة، إلى وراثة هذه الأسرة، وكانوا قوة ذات بأس. ونزع البربر إلى الاستقلال بمناطق نفوذهم، وقد شكَّلوا عماد الجيش العامري، وتضاعف عددهم في أواخر أيام المنصور وخلفائه من بعده، بما توافد منهم إلى الأندلس.

وشكَّل الشعب القرطبي، الذي ساند محمد المهدي والتفَّ حوله؛ قوة ضغط خطرة وفاعلة، لكن متقلبة، اتصفت بكثرة الأهواء وتعدُّد النزعات، وظنَّ هؤلاء أنهم تخلَّصوا من مساوىء العهد العامري المرهقة، ليستقبلوا عهداً أكثر تسامحاً.

الواقع أن محمد المهدي لم يكن رجل الموقف، إذ ما كاد يشعر باستقراره واطمئنانه على سلطانه، حتى أطلق العنان لطغيانه ولأنصاره الذين جنَّدهم أثناء الثورة، فأخذوا يُضيِّقون على سكان قرطبة ويعاملون الطبقة «الأرستقراطية» التي كان أفرادها يتردَّدون على القصر لحلِّ مشكلاتهم؛ بغلظة، ولم يتمكَّن محمد المهدي، في كثير من الأحيان، من السيطرة عليهم أو كبح جماحهم. وكانت أعمالهم الجرمية مثار استنكار معظم القوى في البلاد، وعرَّضوا أمن قرطبة للخطر بما أحدثوا فيها من الفوضى والخراب، وضايق حرسه طائفة البربر الذين انضموا طواعية إلى النظام الجديد وضيَّقوا على زعمائهم وسعوا إلى الحط من مكانتهم، كما أن العامة في قرطبة كانوا يكرهون البربر ويعتدون عليهم، ويهاجمون ممتلكاتهم[(١)].

لم تكن الأمور بحاجة إلى مزيد من التدهور حتى يتم الوقوف بشدة في وجه محمد المهدي، الذي لم يقدم للبربر سوى حججاً واهية في الوقت الذي كان عليه أن يستقطبهم ويُشركهم معه في المصير، مبرهناً عن قصر نظر في الحقل السياسي، كما لم يكن كثير الذكاء في موقفه من الضباط الصقالبة أتباع العامريين الذين عاهدوه على الولاء والطاعة. ففي الوقت الذي أرسل الفتى واضح، صاحب مدينة سالم والثغر الأعلى، كتاباً إلى قرطبة يؤكد فيه طاعته لمحمد المهدي، اتخذ هذا الخليفة قراراً جائراً قضى بإجلاء الفتيان عن قرطبة، فرحلوا إلى المنطقة الشرقية وقاموا بحملة دعاية سياسية لصالحهم أثمرت، بعد وقت قليل، بقيام مناطق نفوذ مستقلة[(٢)].

وتولى محمد المهدي، بعد ذلك، مطاردة الخليفة السابق هشام المؤيد، بعد أن

---

(١) ابن عذاري: جـ ٣ ص ٥٦، ٥٧، ٨٠، ٨١.
(٢) المصدر نفسه: ص ٧٦، ٧٧.

أجبره على خلع نفسه، فأمره بمغادرة القصر ووضعه في الإقامة الجبرية، في دار الحسن بن حي، وجرَّده من جواريه وفتيانه ودوابه باستثناء امرأة واحدة من محظياته ترافقها خادمتان[1].

وحدث أن توفي في ذلك الوقت، رجل يشبه الخليفة المخلوع، فجيء بجثته إلى القصر، وأعلن محمد المهدي وفاة الخليفة، وأحضر الوزراء والفقهاء، ومنهم القاضي ابن ذكوان، ليشهدوا على وفاته، ثم أمر بدفنه في مدافن القصر يوم (٢٧ شعبان ٣٩٩ هـ/ ٢٦ نيسان ١٠٠٩ م)[2].

لم ينخدع المروانيون بهذه المسرحية الأكذوبة، وحتى يقضي محمد المهدي على الشائعات الدائرة سجن بعضهم، كان من بينهم عميد الأسرة سليمان بن هشام بن الناصر، وهو رجل طاعن في السن، سبق للمهدي أن عينه ولياً لعهده، كما سجن بعض الزعماء العرب وسرَّح كثيراً من العرب من الجيش، فأضحوا عنصراً من عناصر التوتر والشغب[3].

وعندما شعر محمد المهدي باستتباب الأمور، انغمس في الشهوات، وبالغ في الاستهتار والمجون والمجاهرة بالفسق والفجور، بصورة مثيرة، أفقدته عطف الكثير واحترامهم. فتزعَّم أحد أبناء سليمان بن هشام، ويُدعى هشام، وقد خشي سوء العاقبة على بني أمية وانهيار أمرهم؛ مجموعة من الناقمين على الخليفة من بينهم جماعة الفتيان العامريين وبعض مجموعات من البربر؛ بهدف الإطاحة به، وانضم إلى هؤلاء سبعة آلاف من الجنود النظاميين ممن سرَّحهم الخليفة. والواقع أنه اعتقد أن هؤلاء الجنود، الذين اختارهم من بين صفوف العامة من سكان قرطبة، لا يمثلون بالنسبة له إلا قوة شديدة التواضع، لذلك اتخذ هذا القرار حتى يتخلَّص من نفقاتهم[4].

اتخذ هشام بن سليمان، الذي لقَّبه أنصاره بالرشيد، من فحص السرادق مقراً لقيادته، وهو سهل يقع على مقربة من قرطبة من ناحية الشمال، وكان من قبل مركزاً لتجمُّع القوات قبل انطلاقها للغزو، وعندما شعر محمد المهدي بالخطر المحدق به مال إلى التفاهم معه، فأرسل إليه القاضي ابن ذكوان وأبا عمر بن حزم، فأجريا معه مفاوضات لم تسفر عن نتيجة، إذ أعلن أنه أحق من محمد بالعرش. وتدليلاً على

---

(١) ابن عذارى: جـ ٣ ص ٦٠، ٦١، ٧٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ٧٧. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ١٠٦.

(٣) ابن عذارى: جـ ٣ ص ٧٨.

(٤) المصدر نفسه: ص ٧٨ـ ٨٠.

حسن نواياه، أطلق محمد المهدي سراح سليمان بن هشام، لكن مطالب ابنه هشام كانت مرتفعة لدرجة لا يمكنه قبولها.

التفَّت العامة، في الربض الغربي، حول محمد المهدي الذي خرج على رأس مجموعة لمقاتلة خصومه الثائرين. ودار قتال بين الطرفين على مدى يومين، أسفر عن انتصار محمد المهدي وهزيمة هشام وجموعه من العامريين والبربر، ووقع هذا في الأسر مع ابنه وأخيه أبي بكر، بالإضافة إلى نفر من الزعماء، فقتلهم محمد المهدي جميعاً، وهاجم العامة دور البربر فنهبوها ودمَّروها، وحدث ذلك في (شوال ٣٩٩ هـ/ حزيران ١٠٠٩ م). وانسحب البربر على إثر ذلك إلى أرملاط، إحدى ضواحي قرطبة، لكن ذويهم تعرَّضوا لمعاملة عنيفة، فقد سلَّط عليهم محمد المهدي عامته، فأساءوا معاملتهم، وقتلوا بعضهم بتحريض منه[(١)].

سليمان المستعين: المرة الأولى

أدرك محمد المهدي، بعد هذه الأحداث الدامية، مدى فداحة الخطأ الذي وقع فيه، فحاول إصلاح الموقف والتفاهم مع البربر، وأصدر، من أجل ذلك، أماناً لهم، لكن هؤلاء لم يأبهوا إليه، وغادروا أرملاط إلى قلعة رباح شمالاً[(٢)]، وهناك أخذوا ينظمون أنفسهم، واضعين نصب أعينهم مهاجمة قرطبة وتنصيب أحد الأمويين الموالين لهم مكانه.

وكان ممن فرَّ من بني أمية، عقب هزيمة هشام بن سليمان ومصرعه، ابن أخيه سليمان بن الحكم، فسار مع البربر، وقد رشَّحوه لتولي منصب الخلافة ولقَّبوه بالمستعين. وجاءتهم، في هذه الأثناء، رسالة من محمد المهدي يعدهم فيها بالعفو عنهم، لكنهم رفضوا العرض واستهزؤوا به، ثم انتقلوا من قلعة رباح إلى مدينة وادي الحجارة، ووصلوا إلى أسوار مدينة سالم، فقاومهم حاكمها واضح ورفض التجاوب معهم، وأصدر تعليماته إلى حكام المناطق الحدودية الوسطى برفض التعامل معهم أو تركهم ليعيشوا في هذه النواحي[(٣)].

وهكذا انقسمت الأندلس إلى قسمين من حيث الميول السياسية، قسم يدعو لمحمد المهدي، وقسم يؤيد البربر وسليمان المستعين. وبدأت نذر الكارثة تلوح في

---

(١) ابن عذارى: جـ ٣ ص ٨٠ ـ ٨٥. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ١٠٦.

(٢) ابن عذارى: جـ ٣ ص ٨٤.

(٣) المصدر نفسه. ابن بسام: جـ ١ ص ٢٢. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ١٠٧.

الأفق، فقد قرَّرت كل فئة من الفئتين المتخاصمتين الاستعانة بنصارى الشمال لتقوية موقفها، وتسابقت لاستقطاب ملك قشتالة. فلجأ إليه البربر، وفاوضه سليمان المستعين باسمهم، على أن يمدهم بالجند مقابل تسليمه بعض الحصون الواقعة على حدود نهر دويرة. واستقبل الملك القشتالي، في الوقت نفسه، سفارة من واضح، حاكم مدينة سالم، ورسالة من محمد المهدي من أجل هذه الغاية، وبعد أن قارن بين التنازلات الممنوحة له، قرَّر الوقوف إلى جانب البربر[١].

وفي خطوة لمضايقة البربر، عرقل واضح وصول المؤن إليهم من مدن الثغر، ومنع السكان من تزويدهم بالغذاء، فارضاً عليهم حصاراً غذائياً، ولم يُنقذهم من هذه الضائقة الاقتصادية سوى العاهل القشتالي، فأمدَّهم بقطعان من الماشية وحمولة ألف عربة دقيق، وأردف ذلك بإرسال جيش إليهم[٢].

ووصلت إلى واضح، في غضون ذلك، إمدادات من قرطبة أرسلها محمد المهدي بقيادة غلامه بليق. فخرج من مدينة سالم للتصدي لقوى التحالف التي عسكرت بالقرب من مجريط ـ مدريد ـ ناحية الشرق، وبالتحديد بالقرب من قلعة هنارس، وانتهى القتال بهزيمة واضح، واستولى البربر على معسكره وسلاحه، وفرَّت فلوله إلى قرطبة، وذلك في (ذي الحجة ٣٩٩ هـ/ آب ١٠٠٩ م)[٣].

ارتاع محمد المهدي لتلك الهزيمة، وأدرك أن قرطبة ستكون الهدف التالي للبربر، فحصَّنها، وأمر بحفر خندق عند مخارج الأرباض الشمالية، وفي فحص السرادق، وزاد عدد قواته، وعبَّأها استعداداً للقاء المرتقب، ووصل واضح في غضون ذلك إلى قرطبة مع أربعمائة من فلوله المنهزمين، فانضموا إلى قوات الحكومة[٤].

لم يكن هناك أي عائق أمام القوات المتحالفة للزحف نحو عاصمة الأندلس التي وصلت إليها في (١١ ربيع الأول ٤٠٠ هـ/ ٣ تشرين الثاني ١٠٠٩ م) وعسكرت عند سفح جبل قنتش، بشرقها، وجرى اللقاء بين الطرفين يوم السبت في (١٣ ربيع الأول/ ٥ تشرين الثاني)، وسرعان ما دبَّ الخلل في صفوف القوات القرطبية، تحت ضغط القتال، فارتدت منهزمة إلى وادي النهر، وطاردهم البربر حتى ضاقت بهم المسالك، وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف، وثبت واضح حتى جنَّ الليل، فانسحب تحت جنح الظلام فاراً إلى الثغر[٥].

---

(١) ابن عذارى: جـ ٣ ص ٨٦، ٨٧.
(٢) المصدر نفسه ص ٨٦.
(٣) المصدر نفسه: ص ٨٧.
(٤) المصدر نفسه: ص ٨٨.
(٥) المصدر نفسه: ص ٩٠. ابن بسام: جـ ١ ص ٢٥، ٢٦.

وأُسقط في يد محمد المهدي عندما رأى هزيمة قواته، وأضحى لا حول له ولا قوة، وفي المقابل، أصبح سليمان المستعين سيد الموقف وإمام البربر. وفي خطوة يائسة، حاول الأول إنقاذ موقفه من واقع إظهار الخليفة هشام المؤيد والاعتراف بخلافته الشرعية، لكن البربر ردوا عليه بجفاء وسخرية، لذلك لم يكن أمامه سوى الفرار من قرطبة فخرج متنكراً إلى طليطلة. ودخل الزاوي بن زيري قصر الخلافة يوم الإثنين (١٥ ربيع الأول/ ٧ تشرين الثاني)، وانضم إلى سليمان المستعين، وفي اليوم التالي نودي به خليفة في المسجد الجامع، وتَمَّ منحه لقب المستعين بالله، واستقبله القرطبيون بحماسة شأنه شأن كل متغلب[١].

كلَّف سليمان المستعين بعض الحراس الصقالبة بالمحافظة على حياة هشام المؤيد. ونزل البربر في الزهراء منعاً لاحتكاكهم مع العامة، ومع ذلك فقد تعرَّضوا لبعض الاعتداءات في دروب قرطبة وأزقتها. ووفد شانجة غرسية ملك قشتالة إلى قرطبة، فاستقبله الخليفة بالحفاوة وخلع عليه وعلى أمرائه، ووعده البربر بتسليمه الحصون التي تعهدوا له بتسليمها إليه متى استقر سلطانهم، ثم غادر قرطبة بعد أن ترك مائة فارس في ربض منية العقاب[٢].

محمد المهدي: المرة الثانية

رفضت الأقاليم والولايات المختلفة الاعتراف بخلافة سليمان المستعين باستثناء ولايات الجنوب، كما أن سكان العاصمة ازدادوا نقمة على البربر بعد أن أضحوا الحكام المستترين، وبذلك كثرت الحوادث التي ساعدت على تعقيد الموقف، واستمرت منطقة الثغور الوسطى التي يسيطر عليها واضح على ولائها لمحمد المهدي. والواقع أنه إذا ما استمرت الأوضاع على هذا الشكل، يمكن أن يتعرَّض حكم سليمان المستعين للتهديد، وحتى يتجنَّب حصول ذلك، قرَّر الخروج من قرطبة للاصطدام بمحمد المهدي وأتباعه. وفي (١١ جمادى الآخرة ٤٠٠ هـ/ ٣٠ كانون الثاني ١٠١٠ م) اتخذ طريقه صوب وادي نهر التاجُه، فرفضت طليطلة استقباله، ولم تسفر الحملة التي أرسلها إلى مدينة سالم عن نتائج تذكر. ولما كانت الظروف المناخية غير مؤاتية، كانهمار المطر بغزارة وتساقط الثلوج، عاد إلى قرطبة من دون أن يُحقِّق هدفه[٣].

---

(١) ابن بسام: جـ ١ ص ٢٢. ابن عذاري: جـ ٣ ص ٩٠.

(٢) ابن عذاري: جـ ٣ ص ٩٠، ٩١.

(٣) المصدر نفسه: ص ٩٢، ٩٣.

واتجه واضح آنذاك، إلى التماس مساعدة النصارى أسوة بخصومه، فاتصل باثنين من أهم قادة ثغر الفرنجة هما رامون بوريل الثالث، أمير برشلونة، وأرمنجو، أمير أورقلة، وأجرى معهما مباحثات حصل بنهايتها على دعمهما مقابل:

ـ أن يدفع تعويضات مالية باهظة، مائة قطعة ذهبية يومياً، بالإضافة إلى دينارين عن كل جندي.

ـ أن يؤمِّن الغذاء والنبيذ للقوات النصرانية.

ـ أن يحتفظ الجنود النصارى بالغنائم التي يستولون عليها.

ـ أن تكون مدينة سالم من نصيبهم، وقد استولوا عليها بالفعل وهم في طريقهم إلى طليطلة بعد أن أخلاها المسلمون(١).

واحتشد نحو أربعين ألف جندي بقيادة واضح، ربعهم من الفرنجة، وزحفوا إلى قرطبة، وانضم إليهم محمد المهدي في قواته. لم يكن لدى سليمان المستعين من القوات إلا مجموعات من البربر، ذلك أن القرطبيين رفضوا الانضمام إليه، فخرج على رأسهم من قرطبة لملاقاة خصومه. وجرى الاشتباك على بُعد نحو عشرين كيلو متراً شمالي العاصمة الأندلسية في مكان يُعرف بعقبة البقر، وذلك في (١٥ شوال ٤٠٠ هـ/ ٢٢ أيار ١٠١٠ م)(٢).

حقَّق البربر النصر في بداية المعركة، فكبدوا خصومهم خسائر فادحة في الأرواح، وكان أرمنجو من بين القتلى، لكن فرقة إفرنجية تمكَّنت من اختراق صفوف البربر في إحدى مراحل المعركة، فظن سليمان المستعين أن الهزيمة لحقت بقواته، وعلى الرغم من النصائح التي أسداها له البربر بالصمود، اعتقد أن خط الرجعة قد قُطع عليه، فأسرع بالهرب، وتسبَّب ذلك في تفكيك الجيش، فارتد البربر فوراً نحو مدينة الزهراء، فأخذوا أهلهم وذويهم وأموالهم، وغادروا مسرعين إلى الجنوب. وفرَّ سليمان المستعين في بقية أتباعه شرقاً صوب شاطبة(٣).

ودخل محمد المهدي وواضح مدينة قرطبة في جو الانتصار، وجدَّد البيعة لنفسه بالخلافة، وعيَّن واضحاً في منصب الحجابة، فابتدأت عندئذٍ مدة ولايته الثانية(٤).

كانت المدة الثانية لمحمد المهدي أقصر من الأولى، ولما كانت الخزانة فارغة

---

(١) ابن عذارى: جـ ٣ ص ٩٣، ٩٤.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه: ص ٩٥.
(٤) ابن بسام: جـ ١ ص ٢٦. ابن عذارى: جـ ٣ ص ٩٦، ٩٧.

من الأموال، فقد طلب من القرطبيين أن يمدوه بالمال اللازم لسداد الأموال التي وعد بها حلفاءه الفرنجة، وحثَّه القرطبيون على المزيد من العمل للقضاء على البربر، وكان هؤلاء قد توجَّهوا إلى الجزيرة الخضراء تمهيداً للعبور إلى المغرب الأقصى إذا ما ازدادت الأوضاع سوءاً، فحشد نحو ثلاثين ألف مقاتل بالإضافة إلى تسعة آلاف من الفرنجة، وخرج على رأسهم من قرطبة، لمطاردة البربر الذين وصلوا عندئذٍ إلى وادي يارو، واصطدم بهم هناك في (٦ ذي القعدة ٤٠٠ هـ/ ٢١ حزيران ١٠١٠ م)، وانتصر البربر هذه المرة، فقتلوا ما لا يقل عن ثلاثة آلاف من أعدائهم وغرق عدد غفير من هؤلاء، واستولى البربر على أسلحتهم وأمتعتهم[١].

ارتدَّ محمد المهدي إلى قرطبة، بعد الهزيمة، في حين غادر النصارى إلى بلادهم بعد أن رفضوا طلبه، للخروج معه مرة ثانية لمحاربة البربر، واضطر نتيجة ذلك إلى التحصُّن بقرطبة، وتحمُّل الحصار الذي قد يفرضه البربر بعد استيلائهم على مقاطعة إلبيرة، وحفر خندقاً على طول السور المحيط بالمدينة، وأقام حوائط مساندة لحمايته[٢].

أدرك واضح، الرجل الوفي لمحمد المهدي، أن هذا الأخير بدأ يرتكب الأخطاء التي ارتكبها خلال ولايته الأولى، وأن لا شيء يمكن أن يُنتظر من رجل يتسم بالإباحية وعدم الذكاء والإدمان على الشراب والمجون، وكان الفتيان العامريون ينقمون عليه بسبب ما فعله بهشام المؤيد وبني عامر، فحاك الجميع المؤامرة التي أدَّت إلى اغتياله في (٨ ذي الحجة/ ٢٣ تموز)، وتنصيب هشام المؤيد[٣].

هشام المؤيد: المرة الثانية

استردَّ هشام المؤيد الخلافة بعد سلسلة من الأحداث الدامية، وكان يومئذٍ كهلاً في السابعة والأربعين من عمره، وتولى واضح منصب الحجابة. وهدأت الفتنة، وأرسل الخليفة برأس غريمه إلى سليمان المستعين وحلفائه البربر، وطلب منهم العودة إلى الطاعة، وأخذ يظهر في شوارع قرطبة خلافاً لما كان عليه في الماضي، إظهاراً لهيبة الخلافة وسلطانها[٤].

أوضح هذا التحول السريع للفتيان الصقالبة أن هؤلاء لم يفقدوا الأمل في الهيمنة

---

(١) ابن عذارى: جـ ٣ ص ٩٦ـ ٩٨. ابن الخطيب: ٢ ص ١٠٩.

(٢) ابن عذارى: جـ ٣ ص ٩٩.

(٣) ابن بسام: جـ ١ ص ٢٦، ٢٧. ابن عذارى: جـ ٣ ص ١٠٠.

(٤) المصدران نفساهما: ص ٢٧. ص ١٠٠، ١٠١.

على مقدرات الخلافة، وأنهم ما زالوا الحلفاء الطبيعيين لأولياء نعمتهم من العامريين. فهل تطلع واضح إلى منصب القائم بشؤون القصر إلى جوار الخليفة الضعيف، كما فعل المنصور العامري من قبل؟ من المحتمل أن يكون هذا التصوُّر قائماً بدليل أنه تولى منصب الحجابة، وهو أعلى درجات المناصب الإدارية في الدولة، وأن القائم بهذا المنصب يكون لصيقاً بالخليفة، ومُوجِّهاً له وبخاصة إذا كان ضعيف الشخصية(١).

وهكذا وُجدت على الساحة السياسية فئتان تتصارعان على النفوذ والسلطان. تتمثل الأولى بالفتيان الصقالبة بزعامة واضح، وقد هيمنوا على الشؤون العامة، وتتمثل الثانية بالبربر المتوثبين والمتأهبين للزحف على قرطبة. وظلّت الأسر العربية العريقة والفقهاء، في الظل إما بسبب الأنانية أو الخوف أو اللامبالاة بما سيحدث في المستقبل(٢).

لم تؤدِّ عودة هشام المؤيد إلى الخلافة، إلى الانفراج السياسي كما أراده واضح، فقد رفض البربر، ومعهم إمامهم سليمان المستعين دعوة هشام المؤيد للاعتراف بالوضع الجديد، وأبدوا تمسُّكهم بولاية خليفتهم(٣).

والواقع أن البربر كانوا ينقمون على القرطبيين نظراً لما أصابهم منهم من الاضطهاد والقتل، ويرغبون في الانتقام(٤)، لذلك حاولوا الاستعانة بشانجة غرسية مرة أخرى، لتقوية موقفهم من جهة، ويحولوا بينه وبين الانضمام إلى خصومهم من جهة أخرى، وذلك مقابل التنازل له عن كافة الحصون الأمامية التي فتحها المستنصر والمنصور من قبل، غير أن الملك القشتالي رفض عرضهم، وقرَّر عرض مساعدته على هشام المؤيد مقابل تسليمه بعض المعاقل الحدودية(٥).

ومهما يكن من أمر، فقد زحف البربر نحو قرطبة، ووصلت جموعهم إلى مدينة الزهراء، فهاجموها وقضوا على حاميتها ثم دخلوها في (٢٣ ربيع الأول ٤٠١ هـ/ ٤ تشرين الثاني ١٠١٠م)، وكانوا قد أخضعوا جيان وإلبيرة ومالقة والجزيرة الخضراء، جنوباً، واعترفت هذه المناطق بخلافة سليمان المستعين ثم زحفوا نحو أرباض قرطبة، وعاثوا فيها، ولما حاول واضح صدَّهم، تجنَّبوا الاشتباك مع جنده، في خطوة أدَّت إلى تذمر سكان قرطبة، فازدادوا حقداً عليهم، وتحرُّقاً للانتقام منهم(٦).

---

(١) ابن بسام: جـ ١ ص ٢٧.
(٢) بروفنسال: ص ٥٢١.
(٣) ابن عذاري: جـ ٣ ص ١٠١.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه: ص ١٠٣، ١٠٤.
(٦) المصدر نفسه: ص ١٠٠ـ ١٠٢.

ووصلت في تلك الأثناء سفارة من ملك قشتالة تطالب بالحصون التي فتحها المستنصر والمنصور في المناطق الحدودية، ولم يرَ هشام المؤيد وحاجبه واضح بداً من الموافقة على طلب شانجة غرسية، لاتقاء عدوانه من جهة، ومنعاً لتحالفه مع البربر من جهة أخرى، والمعروف أن تلك الحصون استمرت على ولائها لواضح، وحرَّرا وثيقة منحاه بموجبها حصون شنت أشتبين وكلونية ووخشمة وغرماج، ووعد الملك القشتالي القيمين في قرطبة بألا يشنَّ عمليات عسكرية عدوانية على منطقة الثغور الوسطى، وبذلك خسرت الأندلس خط دفاعها الأول، وتركت حدودها الشمالية مفتوحة أمام هجمات النصارى[1].

استمر البربر على حصارهم لقرطبة وعبثهم في أرباضها حتى ضاقت السبل بسكانها الذين أصرُّوا على الصمود والمقاومة. ومن جهتهم فإن البربر لم يكونوا مستعدين للدخول في مفاوضات لإحلال السلام، واستولوا على احتياط المؤن الموجودة في الحقول المجاورة، فازدادت الحالة الاقتصادية تفاقماً.

كانت خزائن بيت المال فارغة، فاضطر واضح إلى بيع جزء من مقتنيات المكتبة العامرة التي جمعها الحكم الثاني في قصره، للحصول على المال، كما أرهق القرطبيين بالمطالب والمغارم لشراء الخيل والسلاح حتى ضاقوا ذرعاً.

ومضت بضعة أشهر من دون أن تظهر في الأفق أية بوادر حل، وحدث أن فاض نهر الوادي الكبير، بعد انقضاء فصلي الشتاء والربيع، فجرفت المياه ألفي منزل في العاصمة، وقضت على عدة آلاف من السكان، وخلخلت أساسات الأسوار، في الوقت الذي نفدت المؤن في المدينة وارتفعت الأسعار، ووصلت الأزمة إلى ذروتها، وحمل الصيف معه وباءً ضرب سكان العاصمة.

وشعر واضح أخيراً أنه يواجه وضعاً صعباً، فقرر مغادرة قرطبة سراً، أملاً أن يحقِّق طموحه بعد ذلك عندما تتحسَّن الأوضاع، لكن كُشِف أمره فقبض عليه علي ابن وداعة، وهو أحد قادة الجند، وعاتبه على ما بدَّده من أموال، وما أساء من تصرف، ثم قتله، وذلك في (١٥ ربيع الآخر ٤٠٢ هـ/ ١٦ تشرين الثاني ١٠١١ م)[2].

وهكذا أضحت الجريمة وسيلة شائعة في قرطبة للفوز بالسلطان أو التخلص من

---

(١) ابن عذاري: جـ ٣ ص ١٠٣، ١٠٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٠٣ـ ١٠٥. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ١١٠، ١١١.

المنافسين. فقد عيَّن هشام المؤيد القاتل على شرطة المدينة، فاستعمل الحزم والشدة في قمع أعمال الشغب وتأمين النظام وفرض الأمن، فهابته العامة، وتقلَّصت أعمال الشغب، لكن خطر البربر ظل قائماً، فالتمس هشام المؤيد المساعدة من سكان الثغور، غير أن هؤلاء اعتذروا عن عجزهم عن إرسال الإمدادات، ونصحوا القائمين بالأمر بالتفاهم مع البربر أو طلب المساعدة من ملك قشتالة، عندئذٍ كتب الخليفة إلى زاوي بن زيري البربري يحثُّه على عقد الصلح ويعده بما شاء من مال أو ولاية. كان رد الزعيم البربري مهذباً، فقد أبلغ الخليفة أنه لا يستطيع مخالفة أصحابه، ومع ذلك فإنه على استعداد للعمل على جمع كلمة المسلمين وحقن دمائهم.

كان الوضع في قرطبة يزداد سوءاً يوماً بعد يوم في ظل عجز هشام المؤيد عن إيجاد الحلول، فاعتذر لقصوره، وفوَّض سكان قرطبة بعمل ما يرونه مناسباً. وحدث آنذاك أن قوة من البربر، بقيادة حباسة بن ماكسن، ابن أخي زاوي، عسكرت تحت أسوار قرطبة في خطوة استفزازية، فانقضَّ عليها نفر من القرطبيين وقتلوا أفرادها عن آخرهم[1]، وعندما انتشر الخبر بين البربر اضطربوا، واشتبكوا مع القرطبيين في عدة معارك كانت سجالاً. وفي (٢٦ شوال ٤٠٣ هـ/ ٩ حزيران ١٠١٣ م) نشبت بين الطرفين معركة عامة أسفرت عن انتصار البربر، واضطر القرطبيون إلى طلب الأمان، فمُنِحوا إياه مقابل مبالغ باهظة، ومع ذلك استعمل البربر الشدَّة في معاملة السكان، وفتكوا بكثير منهم، وسلبوا الدور، وارتكبوا أشنع ضروب السفك والإثم، وكانت محنة من أقسى ما شهدته عاصمة الخلافة[2].

سليمان المستعين: المرة الثانية

دخل سليمان المستعين، في اليوم التالي، قصر قرطبة وأعلن نفسه خليفة للمرة الثانية، ثم استدعى هشام المؤيد وعنَّفه على موقفه، فاعتذر بأنه لا حول له ولا قوة، وأنه مغلوب على أمره، وأكَّد له أن اعتلاءه العرش مرة ثانية، كان بسبب الضغط الواقع عليه، وأنه تنازل للمرة الثانية، عن الخلافة لصالحه[3].

وهنا تختلف الروايات بشأن مصيره. فقد أشار المؤرخون المسلمون إلى هذه المسألة باقتضاب شديد. فمن قائل إن هشاماً حُكِم عليه بالموت، فقد أخفاه سليمان

---

(١) ابن عذارى: جـ ٣ ص ١١١، ١١٢.

(٢) المصدر نفسه: ص ١١٢. المراكشي: ص ٣٢. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٥١، ١٥٢.

(٣) ابن عذارى: جـ ٣ ص ١١٣. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ١١٢، ١١٣.

المستعين في أحد القصور ثم قتله سراً. وفي رواية أن محمداً، أحد أبناء المستعين، هو الذي أقدم على خنقه في (١٥ ذي العقدة ٤٠٣ هـ/ ٢٨ أيار ١٠١٣ م)، وأشاع نبأ تسهيل هربه، وأنه عاش ردحاً من الزمن في المرية، عيشة ضنكاً، وعمل سقاء حتى توفي. وتشير روايات أخرى أن المستعين سجنه في أحد القصور حتى استطاع الفرار إلى المرية حيث توفي فيها[١].

وتشير قرائن الأحداث على أنه قُتل، فهو لم يظهر مرة أخرى على الساحة السياسية، غير أن اسمه ظل يتردَّد على المنابر في الكثير من مساجد الأندلس[٢]، كما أن الشخص الذي أرادوا تقديمه في إشبيلية على أنه هشام المؤيد، كما سنرى، لم يكن إلا شبيهاً أُريد له الظهور لأسباب سياسية.

والواقع أن حياة هشام المؤيد السياسية قد انتهت بالطريقة نفسها التي ابتدأت بها يوم تولى الخلافة، أي نهاية قاتمة، شديدة التواضع، وتأرجح في مواقفه وفقاً لتطورات الأحداث من دون أن يحاول التعبير عن شخصيته. وعندما تمَّ إقصاؤه للمرة الثانية، وربما إلغاؤه، كان عمره يناهز الخمسين عاماً، وإذا ما بحثنا في التاريخ الإسلامي فلن نجد إلا القليل من هذه الشخصيات الضعيفة ذات المعالم غير الواضحة[٣].

بدأ سليمان المستعين ينظِم شؤون الحكومة المضطربة في ظل الفوضى التي تعمُّ كافة الأقاليم والنواحي، وتفكُّك عرى الدولة، بحيث اقتصر نفوذ الحكومة المركزية على قرطبة وما يجاورها، ثم انتقل إلى مدينة الزهراء، مع حاشيته وقادة البربر وجندهم، وقد قبض هؤلاء على السلطة الفعلية، وتولوا المناصب الرئيسة، فكان سليمان هذا أول دولة البربر في قرطبة[٤].

أدرك البربر، بعد قليل من الوقت، أن الوحدة السياسية للأندلس قد تفكَّكت، وأن عليهم مشاركة باقي الأطراف في اقتطاع ما يمكن اقتطاعه من أقاليم والاستقلال بها، فطلبوا من سليمان المستعين أن يقطعهم كور الأندلس الجنوبية والوسطى بحجة ضمان مستقبلهم، فوافق على طلبهم[٥].

وهكذا حصلت صنهاجة على ولاية إلبيرة بكاملها، ومغراوة على الأحياء الشمالية في العاصمة، وبني برزال وبني يفرن على ولاية جيان والأراضي التابعة لها،

---

(١) ابن عذارى: جـ ٣ ص ١١٣. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ١١٤، ١١٥.

(٢) ابن الخطيب: جـ ٢ ص ١١٥. (٣) بروفنسال: ص ٥٢٤.

(٤) ابن عذارى: جـ ٣ ص ١١٤ برواية ابن حيان. (٥) المراكشي: ص ٣٢.

وبنو دمَّر وأزداجة على منطقة شذونة وموررور، والمنذر بن يحيى على سرقسطة والثغر الأعلى، وهو رجل من الفرع التجيبي من بني هاشم، وابنا حمود الأدارسة، علي والقاسم، على شقندة بضاحية قرطبة. والمعروف أن المنطقة الداخلية من المغرب الأقصى كانت قد خرجت نهائياً من الحماية القرطبية، ولم يبقَ سوى بضع نقاط عسكرية على الشاطىء تتواجد فيها وحدات أندلسية، وهي سبتة وطنجة وأصيلا، فكان علي بن حمود والياً على سبتة وأخوه القاسم على الجزيرة الخضراء وطنجة وأصيلا[١].

والواقع أن هذا الاقتطاع يُعدُّ خطأً فادحاً، لأن البربر سوف يستقلون بما تحت أيديهم من مناطق، وأن الأسرة الحمودية سوف تنشط بعد ذلك وتقضي على حكم سليمان المستعين وتحكم الأندلس بدلاً من الأسرة الأموية. وقد أثار تعيين الأخوين دهشة الحاشية البربرية المحيطة بالخليفة لأنهما لم يكنَّا للخليفة إلا قليلاً من الاحترام.

وكان الفتيان العامريون قد فرُّوا إلى شرقي الأندلس بعيداً عن سلطان الحكومة المركزية وخشية من بطش البربر، وأنشأوا هناك قواعد لهم وحكومات محلية، فحكم مجاهد دانية والجزائر الشرقية، واستولى خيران على المرية ومرسية[٢].

مكث سليمان المستعين في الحكم نحو ثلاثة أعوام، استمرت خلالها الاضطرابات والفوضى وبخاصة في قرطبة، وتحكَّم البربر في مقدرات الأمور، واشتد طغيانهم، ولبثت الأهواء المتوثبة تجيش في صدور الطامعين من زعمائهم حتى تمخَّضت عن انقلاب جديد.

حُكم الأسرة الحمودية

استيلاء علي بن حمود على السلطة: عندما زال حكم الأدارسة من المغرب الأقصى في خلافة الحكم المستنصر، ثم في ظل حكم المنصور العامري، وأصبحت ولاية أندلسية تخضع مباشرة لحكومة قرطبة، تفرَّق زعماء الأدارسة في مختلف الجهات، واختفوا عن الأنظار بعيداً عن ملاحقة السلطة، وراحوا يترقبون الفرص لاستعادة سلطانهم، وهاجر عدد كبير منهم إلى الأندلس، وانخرطوا في صفوف العامريين، وساعدوهم في تثبيت دولتهم وتدعيم جيشهم.

---

(١) ابن عذارى: جـ ٣ ص ١١٣، ١١٤.
(٢) المصدر نفسه: ص ١١٥.

وعندما انهارت الأسرة العامرية، وعمَّ الاضطراب والفوضى في قرطبة في ظل الصراع الأموي ـ البربري، برز من بين الزعماء المغاربة، الذين قادوا جموع البربر في معركة قرطبة، رجلان من عقب الأدارسة هما علي والقاسم، ابنا حمود بن ميمون ابن حمود، وهما من الفرع الحسني. غير أن بني حمود كانوا ينتمون، من حيث النشأة والعصبية والمصير، إلى البربر، وكان الطابع البربري غالباً عليهم، حتى في الكلام حيث كانوا يتكلمون باللهجة البربرية[1].

كان علي بن حمود أكثر الأخوين جرأة وطموحاً، فلم يُخفِ نواياه تجاه الخليفة وتطلع نحو السلطة وأقدم، فور وصوله إلى سبتة، على قتل القاضي محمد بن عيسى وابن يربوع، وهو أحد كبار الفقهاء، وكان الاتهام الموجَّه إليهما هو أنهما هاجماه أمام الخليفة المستعين، وقد جرى تنفيذ الحكم في عام (٤٠٤ هـ/ ١٠١٤ م)[2].

وساعدته الظروف السياسية آنذاك على تحقيق هدفه، ولعل أهمها:

ـ ادعاؤه بأن الخليفة هشام المؤيد ولّاه العهد من بعده، وأظهر كتاباً منسوباً إليه كإثبات لادعائه[3].

ـ انتماؤه إلى عائلة مشهورة، وتزعمُّه لقبيلة زناتة البربرية التي تُعدُّ من أقوى القبائل البربرية في الأندلس.

ـ هيَّأ تفكُّك الوحدة السياسية للأندلس، وتعدُّد السلطات الحاكمة، الجو المناسب لكي ينتزع الخلافة لنفسه.

ـ سوء سياسة الخليفة المستعين، وبخاصة حين ولّاه وأخاه ثغور المغرب من دون تفكير دقيق.

ـ كسب ودِّ جميع القوى المتعاطفة مع الخليفة هشام المؤيد، مثل الصقالبة بقيادة خيران، وكان يناهض الخليفة سليمان المستعين.

ـ انحياز بعض حكام الثغور الجنوبية إليه، مثل عامر بن فتوح الفائقي، مولى الحكم المستنصر ووزير ولده هشام المؤيد، وكان يومئذٍ حاكماً على مالقة.

عبر علي بن حمدون من سبتة إلى الجزيرة الخضراء في عام (٤٠٦ هـ/ ١٠١٦ م) وزحف، على رأس أتباعه من البربر، إلى مالقة، فسلمها إليه عامر بن فتوح وبايعه على طاعة هشام المؤيد حال ظهوره حياً، وانضم إليه خيران بالإضافة إلى زاوي بن

(١) ابن عذارى: جـ ٣ ص ١١٩. ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٥٠، ٥١. المراكشي: ص ٣٢.

(٢) ابن الخطيب: جـ ٢ ص ١١٥، ١١٦.

(٣) ابن عذارى: جـ ٣ ص ١١٦.

زيري وحبوس الصنهاجي في جموعهما من البربر، وظل أخوه القاسم مرابطاً في الجزيرة الخضراء وهو على استعداد للتدخل عند الضرورة[١].

كان سليمان المستعين قد علم بزحف القوات المعادية باتجاه العاصمة، فخرج منها على رأس قواته للتصدي لهم ووقف زحفهم، غير أنه تعرض لهزيمة قاسية ووقع في الأسر. ودخل علي بن حمود العاصمة في (٢٢ محرم ٤٠٧ هـ/ أول تموز ١٠١٦ م)[٢]، وعندما تأكد من مقتل هشام المؤيد، اتهم سليمان المستعين بمقتله، وقتله من أجل ذلك، ونصَّب نفسه خليفة في قرطبة، واتخذ اللقب الشرفي الذي كان لعبد الرحمن الثالث وهو الناصر لدين الله[٣].

سياسة علي بن حمود الداخلية ـ مقتله: كانت هذه هي المرة الأولى التي يعتلي فيها كرسي الخلافة في قرطبة عاهل من غير المروانيين منذ قدوم الأسرة الأموية إلى الأندلس، ومع هذا كان علي بن حمود واعياً ومدركاً لمتطلبات الحكم في بداية حياته السياسية كخليفة، على الأقل، ليحظى بتقدير القرطبيين الذين لم يكن هناك شيء يرضيهم إلا التضييق على البربر، الذين كانوا يرابطون في العاصمة ويرتكبون الجرائم وهم موقنون بأن لا عقاب سيقع عليهم، فاشتدَّ في ملاحقتهم وعاقبهم على أعمالهم، مطبقاً الحدود الشرعية بحرفيتها، وساعده في ذلك عدد من رجال الخلافة السابقين مثل أبي الحزم جهور، وأحمد بن برد وغيرهما.

غير أن الأحداث ما لبثت أن تطورت بسرعة نحو التدهور، بعد أن تخلَّى علي بن حمود عن سياسته المعتدلة. وفي المقابل، تخلَّى القرطبيون عنه واتخذوا منه موقفاً متحفظاً، فأخذوا ينتقدونه وينعتونه بالأجنبي الذي اغتصب السلطة، وجاهروا بتأييدهم لقضية الأموي المرتضى، وهو الرجل الذي رشَّحه الصقالبة في الأقاليم الساحلية الشرقية. وخشي خيران العامري، الذي دخل قرطبة مع علي بن حمود، من سطوة هذا الأخير، فغادر المدينة وسار إلى الشرق حيث يحتشد معظم الزعماء العامريين من الصقالبة، وقد أعادوا الدعوة إلى بني أمية، ورشحوا عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ولقبوه بالمرتضى، وانضم إليهم المنذر بن يحيى التجيبي، والي سرقسطة والثغر الأعلى، بالإضافة إلى ولاة

---

(١) المراكشي: ص ٣٢، ٣٣. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ١١٥، ١٢٢.

(٢) ابن عذاري: جـ ٣ ص ١٢٠.

(٣) الحميدي: جذوة المقتبس ص ٢٣، ٢٤. ابن عذاري: جـ ٣ ص ١١٧. المراكشي: ص ٣٢، ٣٣، ٣٧.

شاطبة وبلنسية وطرطوشة وغيرها[1]، وأعلن المرتضى خلافه مع علي بن حمود الناصر.

كانت قرطبة تعيش آنذاك أجواء مشحونة في ظل حكم بوليسي قاسٍ وإجراءات القبض المتكررة على الزعماء والعامة من الناس، ومصادرة الأملاك والأموال، ولم يكن هناك من مخرج سوى استدعاء المرتضى وإقصاء الناصر عن كرسي الخلافة. وقرَّر علي بن حمود الناصر الخروج إلى جيان لمقاتلته وصدِّه قبل أن يصل إلى قرطبة. وفي الوقت الذي كان يستعد، قام ثلاثة من الخدم الصقالبة في القصر، من موالي بني أمية، بالهجوم عليه، وهو في الحمام، وقتلوه، وذلك في (٢ ذي القعدة ٤٠٨ هـ/ ٢٢ آذار ١٠١٨ م)[2].

كان القرطبيون ينتظرون قدوم عبد الرحمن المرتضى، لكن حياته انتهت بشكل مأساوي قبل أن يصل، فقد سار بجموعه أولاً إلى غرناطة لمهاجمة الصنهاجيين بقيادة زاوي بن زيري، وجرت بين الطرفين رحى معركة ضارية انتهت بهزيمته ومقتله وتفرق جيشه[3].

الأوضاع السياسية بعد مقتل علي بن حمود: استدعى زعماء زناتة القاسم بن حمود، أخا علي، وكان في إشبيلية، إلى قرطبة ليخلف أخاه، وأعلموه بمقتله، فحضر مسرعاً، وبويع بالخلافة بعد ستة أيام من مقتل أخيه وتلقَّب بالمأمون، فقبض على الفتيان العامريين الثلاثة الذين قتلوا أخاه وأعدمهم[4].

وازدادت مرارة القرطبيين عندما علموا بمقتل المرتضى، وخشوا من قسوة المأمون فيما لو انتهج سياسة أخيه. والواقع أن القاسم عدل عن سياسة الشدة التي اتبعها أخوه، فأحسن إلى الناس، ونادى بالأمان، وأسقط كثيراً من المكوس، فاكتسب بذلك محبة القرطبيين، فهدأت النفوس، واطمأن الناس على حاضرهم ومستقبلهم[5].

وكانت حركة المرتضى قد وصلت، في غضون ذلك، إلى ذروتها، ونشبت

---

(١) الحميدي: جذوة المقتبس ص ٢٤. ابن عذارى: جـ ٣ ص ١٢١، ١٢٢. المراكشي: ص ٣٧.

(٢) الحميدي: ص ٢٥. المراكشي: ص ٣٧. ابن عذارى: جـ ٣ ص ١٢١، ١٢٢.

(٣) ابن عذارى: جـ ٣: ص ١٢٥، ١٢٦.

(٤) الحميدي: ص ٢٥. ابن عذارى: جـ ٣ ص ١٢٤.

(٥) الحميدي: ص ٢٥. ابن عذارى: جـ ٣ ص ١٣٠.

الحرب بين جموعه وبين قوى البربر، فانهزم الفريق الأول، وقُتل المرتضى كما ذكرنا. وأرسل زاوي بن زيري، الذي اعترف بخلافة القاسم، إلى هذا الأخير يخبره بما حصل مع سهمه من الغنائم، ومنها سرادق المرتضى، فَسُر القاسم بإزاحة مطالب أموي آخر بالخلافة، وعرض سرادق المرتضى على نهر قرطبة ليراه القرطبيون في محاولة للضغط عليهم ووضعهم أمام الأمر الواقع. وهكذا شهدت قرطبة، بفعل سياسة القاسم الهادئة ومقتل المرتضى الذي وضع القرطبيون آمالهم على انتصاره، هدوءاً واضحاً لمدة ثلاثة أعوام(١).

وحتى يتخلَّص من قبضة البربر وسيطرتهم عليه، اتخذ القاسم بطانة من السود، فجعلهم حرسه الخاص، وأسند إليهم المناصب القيادية، كما استقطب الصقالبة. فاستقبل خيران في بلاطه، واعترف بحكمه للمرية، ومنح الفتى العامري الآخر، وهو زهير، جيان وبياسة وقلعة رباح، ومع ذلك لم يستقر وضعه السياسي، فضعف أمره وتكاثرت عليه الصعاب(٢).

والواقع أن القاسم تعرَّض للمضايقة من جانب ابني أخيه يحيى وإدريس اللذين اتهماه باغتصاب إرث والدهما. كان الأول والياً على سبتة والثاني حاكماً على مالقة. وتلقَّى يحيى رسالة من البربر في قرطبة أعربوا له فيها عن نقمتهم على القاسم، وحثُّوه على القدوم لانتزاع السلطة من يدِ عمِّه، فاستجاب لدعوة القرطبين، وزحف باتجاه المدينة. عندما علم القاسم بذلك، خشي سوء العاقبة، وآثر الانسحاب على الحرب، فغادر المدينة في (٢٢ ربيع الآخر ٤١٢ هـ/ ٥ آب ١٠٢١ م) قاصداً إشبيلية. ورفع البربر يحيى إلى العرش وتلقَّب بالمعتلي بالله، واعترف سكان إشبيلية من جانبهم بالقاسم خليفة عليهم وتلقَّب بالمستعلي(٣).

وهكذا أضحى هناك خليفتان متجاوران، والملفت أن القاسم وابن أخيه اتفقا على أن يعترف كل منهما بحكم الآخر «وهو أمر لم يُسمع في الدنيا بأشنع منه ولا أدل على إدبار الأمور»(٤).

غير أن هذا الوضع الشاذ لم يستمر طويلاً، فقد خلع البربر يحيى المعتلي في (١٢ ذي القعدة ٤١٣ هـ/ ٦ شباط ١٠٢٣ م) بسبب تعاليه وكبريائه الشديد، فغادر

---

(١) ابن عذارى: جـ ٣ ص ١٢٥ـ ١٢٨. (٢) المصدر نفسه: ص ١٣٠.

(٣) الحميدي: ص ٢٥. ابن عذارى: جـ ٣ ص ١٣٢، ١٣٣.

(٤) ابن عذارى: المصدر نفسه.

قرطبة إلى مالقة، وعاد عمه القاسم إلى قرطبة، تلبية لدعوة البربر، ليتولى السلطة فيها، إلا أن حكمه لم يدم إلا بضعة أشهر، إذ إنه لم يُوفَّق في سياسته المنحازة إلى البربر وقد مكَّن لهم في قرطبة، فاشتطُّوا في التعامل مع سكانها، وفشل هو في الحدِّ من سطوتهم وتماديهم. وضاق القرطبيون ذرعاً بتلك الحالة فثاروا على القاسم وخلعوه عن العرش، واصطدموا بالبربر، واضطر الخليفة إلى مغادرة المدينة إلى إشبيلية، لكنه صُدَّ عنها، فذهب إلى بلدة شريش، وقام القاضي محمد بن إسماعيل ابن عباد بضبط الأمور في قرطبة[1].

ظل القاسم في شريش حتى استولى عليها ابن أخيه يحيى المعتلي، فقبض عليه وعلى أبنائه ونقلهم إلى مالقة وسجنهم فيها، وانفرد برئاسة البربر، وبسط سيادته على شريش ومالقة وسبتة وطنجة، وبايعه البربر بالخلافة. استمر القاسم ردحاً من الزمن وهو في السجن حتى قُتل خنقاً في عام (٤٣١ هـ/ ١٠٤٠ م)[2].

الأيام الأخيرة لدولة الخلافة الأموية: سئم سكان قرطبة حكم البربر وأتباعهم فقرروا ردَّ الأمر إلى بني أمية. وبرز على الساحة السياسية ثلاثة مرشحين هم سليمان ابن المرتضى ومحمد بن العراقي وعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر، وفرض هذا الأخير نفسه بالقوة، وبويع بالخلافة في (١٦ رمضان ٤١٤ هـ/ ٢ كانون الأول ١٠٢٣ م)، وتلَّقب بالمستظهر بالله، وكان في الثالثة والعشرين من عمره[3]. وعلى الرغم من أنه تميز بثقافته الواسعة، إلا أنه لم يكن مؤهلاً لممارسة السلطة السياسية على شعب غير مستقر، واحتاج إلى مزيد من الوقت كي يستردَّ سلطة أجداده بشكل كامل، على الرغم من أنه أحاط نفسه ببعض المستشارين من ذوي الخبرة والكفاءة أمثال أبي عامر بن شهيد وعبد الوهاب بن حزم، والكاتب الكبير علي بن حزم، والمعروف أنه لم يمكث في الحكم سوى سبعة وأربعين يوماً حيث عاجلته الظروف وغلبته على أمره. واتصفت سياسته الداخلية بالتهور، فلجأ إلى وسائل غير مشروعة للحصول على الأموال اللازمة لملء الخزانة الفارغة ما أفقده كثيراً من رصيده الشعبي، ولما كان بحاجة إلى الجند، فقد جنَّد فرقة من البربر الذين جاءوا إلى قرطبة لعرض خدماتهم، ما أثار القرطبيين. وقبض على عدد من الوزراء والأعيان وزجَّهم في

(١) الحميدي: ص ٢٥، ٢٦. ابن عذارى: جـ ٣ ص ١٣٣، ١٣٤.

(٢) الحميدي: المصدر نفسه. ابن عذارى: جـ ٣ ص ١٤٤. المراكشي: ص ٣٩.

(٣) ابن بسام: جـ ١ ص ٢٨، ٢٩ برواية ابن حيان الذي كان شاهد عيان على ما حصل.

السجن وصادر أموالهم وممتلكاتهم، كما قبض على عدد من أبناء عمه المروانيين، واعتقلهم في القصر مع ابني عمه سليمان ومحمد بن العراقي[1].

والواقع أن هذه التصرفات كانت وبالاً عليه، فقد أذكت السخط وأوغرت صدر العامة، وقضت على هيبته، ومما زاد في تعقيد الأوضاع إحجام المدن والثغور عن تأييده والالتفاف حوله.

وأخيراً هاجم العامة قصره واقتحموه، وفتحوا أبواب السجون وأخرجوا من كان فيها من المعتقلين. وأدرك عبد الرحمن المستظهر أنه هالك، فاختبأ في أتون الحمام. واختار القرطبيون أموياً آخر هو محمد بن عبد الرحمن، أحد أحفاد الناصر، ونصَّبوه خليفة في (٣ ذي القعدة ٤١٤ هـ/ ١٧ كانون الثاني ١٠٢٤ م)، واتخذ لقب المستكفي بالله، وكان أول إجراء اتخذه هو أنه قبض على سلفه المستظهر وقتله[2].

كان محمد الثالث المستكفي في الخمسين من عمره عندما اختير لتولي الخلافة، واتصف بالخلال السيئة، ميالاً إلى البطالة، شغوفاً بالشراب، مولعاً بالمجون، ضعيف الشخصية، إباحياً، يحيط نفسه برجال ذي غلظة، فكان مثار سخرية العامة التي لقَّبته بالخوَّاف والسمين، بسبب جبنه وسمنته. مكث في الحكم نحو عام وخمسة أشهر وهو يتخبَّط في سياسته. قتل ابن عمه محمد العراقي، وكان قد عيَّنه وريثاً له، ونعاه للناس بنفسه، وعيَّن ابن عمه الآخر سليمان بن هشام ولياً لعهده بدلاً منه، وسجن بعض وزراء سلفه، وهُدِمَت القصور الناصرية في أيامه كما خُرِّبت قصور المنصور العامري بالزاهرة[3].

واضطهد محمد المستكفي معظم الرجال البارزين من السياسيين القدماء ومن المفكرين، وسجن كل من ابن حزم وزيري بن عبد الرحمن، فاضطر كثير منهم إلى مغادرة قرطبة إلى مالقة حيث احتموا بيحيى بن حمود، كان من بينهم الوزير السابق والشاعر أبو عامر بن شهيد. ووصف هؤلاء ليحيى سوء الأوضاع في قرطبة، وحثّوه على وضع يده عليها[4].

ويبدو أن الزعيم الحمودي لم يكن في عجلة من أمره للظهور مجدداً على الساحة القرطبية، ولم يكن متحمساً للزحف إلى قرطبة، كما أن المنطقة التي يحكمها

---

(١) ابن بسام: جـ ١ ص ٢٩ ـ ٣١.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣١، ٣٢. الحميدي: ص ٢٧. المراكشي: ص ٤٠.

(٣) ابن عذاري: جـ ٣ ص ١٤١، ١٤٢.

(٤) المصدر نفسه ص ١٤٢، ١٤٣.

في جنوبي الأندلس، من مالقة حتى شريش، تدرُّ عليه أرباحاً تفوق بقيمتها ما يمكن أن يحصل عليه من هذه العاصمة التي خَرِبَت وانهارت قواها[1].

والواقع أن قرطبة لم تعد تستقطب الأمراء، سواء أكانوا أمويين أم غير أمويين، كذلك لم يعد عرش الخلافة، حتى في حال شغوره، محطَّ أنظار الطامعين بالحكم، بعد أن أدرك الجميع أن كل من يسعى للجلوس على العرش ستكون نهايته مأساوية، من واقع تعرُّضه للمخاطر والقتل وذلك مقابل لقب لا قيمة له، وفوائد مادية ضئيلة، كما أن صلاحياته لا تتعدَّى حدود قرطبة. وكذلك، أحجمت المدن الأندلسية، مثل إشبيلية وغرناطة وجيان وغيرها من المدن الشرقية، عن التدخل في شؤون العاصمة، ولم تعد تُبدي أيَّ اهتمام بها.

ولبث يحيى بن حمود مدة ستة أشهر قبل أن يقرِّر الزحف نحو قرطبة، ولما وصل إليها في (١٥ رمضان ٤١٦ هـ/ ٩ تشرين الثاني ١٠٢٥ م)، مكث فيها بضعة أشهر، ثم غادرها عائداً إلى مالقة وهو مسرور لأن الوزير أبا جعفر أحمد بن موسى حلَّ محله في حكمها ووضع تحت إمرته عدة مئات من الجنود البربر[2].

أثار وقوع العاصمة تحت سيطرة البربر الفتيان العامريين الصقالبة، وبخاصة خيران صاحب المرية، ومجاهد، صاحب دانية، فهاجماها وحثَّا القرطبيين على التخلص من الحامية البربرية، ففتكا بأفرادها البالغ عددهم زهاء ألف مقاتل، وفرَّ الوزير أحمد بن موسى وزميله دوناس بن أبي روح إلى مالقة، وذلك في (٢٠ ربيع الأول ٤١٧ هـ/ ١١ أيار ١٠٢٦ م)[3].

ويبدو أن القرطبيين اختلفوا مع العامريَّيْن على نوع الحكم، فعاد خيران إلى المرية، وعاد مجاهد إلى دانية، وتركا قرطبة الغارقة في الفوضى في أيدي أهلها. وبرز، في غمرة هذه الفوضى، بعض الأعيان الذين حافظوا على موقفهم التقليدي، وقد شعروا بأن عليهم واجباً لا بد من القيام به وهو تحمُّل المسؤولية.

والواقع أنه على الرغم من حصول المجازر خلال الأعوام الماضية واضطرار الكثير من السكان، الذين أرهقتهم الاضطرابات إلى مغادرتها، ظلَّت بعض الأسر التي عملت تحت راية الأمويين، في المدينة، وراحت تسعى لإعادة الأيام الذهبية

---

(١) بروفنسال: ص ٥٣٢.

(٢) ابن عذارى: جـ ٣ ص ١٤٣.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٤٣، ١٤٤.

للأسرة الأموية، في الوقت الذي شعرت فيه العناصر الثورية بأن الأحداث التي افتعلتها قد تجاوزت قدراتها.

وعلى الرغم من المتاعب الكثيرة التي تعرَّضت لها هذه الأسر، فإن الرجال الحكماء الذين لم يشتركوا في الأحداث، والذين كان من بينهم الوزير أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور؛ ظلوا نافذي الكلمة في الأوساط الشعبية، كما في مختلف الأقاليم والثغور، وكذلك بين القادة المستقلين من الصقالبة العامريين المنتشرين في كل مكان.

وبوصفه عِميداً لبني أمية كان على أبي الحزم جهور أن يختار أميراً أموياً يعمل على توحيد كلمة الأندلسيين ويقبله هؤلاء جميعاً. والواضح أنه لم يكن من السهل العثور على أموي يقبل القيام بهذا الدور المرتقب ويحظى برضى الجميع، ولكنه نجح بعد مشقة أن يختار هشام بن محمد بن عبد الله بن الناصر، الشقيق الأكبر لعبد الرحمن المرتضى، وكان يعيش في قلعة البونت الواقعة في شمال غربي بلنسية في ضيافة زعيم عربي هو عبد الله بن قاسم الفهري، وبايعه القرطبيون، واتخذ لقب المعتد بالله، وذلك في (ربيع الأول ٤١٨ هـ/ نيسان ١٠٢٧ م)، وخطب له على منابر قرطبة، ولكنه استمر يعيش في قلعة البونت ولم يدخلها إلا بعد مرور عامين وسبعة أشهر على اختياره، أي في (٨ ذي الحجة ٤٢٠ هـ/ ١٨ كانون الأول ١٠٢٩ م)[(١)]، فرحَّب به القرطبيون وجدَّدوا له البيعة. واستمر في كرسي الخلافة مدة عامين آخرين، إلا أنه فوَّض إدارة الشؤون العامة لرجل من الموالي، يعمل في الحياكة لا نسب له، ويتسم بالتآمر وشدة الطموح، يُدعى حكم بن سعيد القزاز، متجاوزاً رجال حاشيته الذين أملوا بأن يوليهم المناصب على أثر استدعائهم له، فاستأثر هذا بالسلطات كلها، وانصرف الخليفة إلى التمتع بمباهج الحياة ما وسعه ذلك، من واقع الفرصة السانحة التي يمثلها تواجده في قرطبة، وكان الحكم بن سعيد يشجعه على ذلك، ويقدم له أجمل المغنيات، والموسيقيين من ذوي الخبرة في التسلية[(٢)].

ومن جهة أخرى، قبض الحكم بن سعيد على السلطة بكلتا يديه، يجبي من فوائدها المادية والمعنوية ما وسعه، وأحاط نفسه بحاشية لا همَّ لها سوى الكأس

---

(١) الحميدي: ص ٢٨.

(٢) ابن عذارى: جـ ٣ ص ١٤٦ـ ١٤٨.

والشراب وارتياد الحدائق والتسلي بأعراض الناس، ففسدت الأمور وتضاءلت شعبيته.

وللخروج من هذا المأزق، قرر القرطبيون اللجوء إلى العصيان المدني. وصادف آنذاك وصول فتى أموي من أبناء عمومة هشام المعتد، هو أمية بن عبد الرحمن العراقي، من أحفاد الناصر، وهو فتى طموح وجريء لكن تنقصه الفطنة ولا يتمتع بالذكاء، وتلقى هذا وعداً بأنه إذا ما استطاع إقصاء هشام المعتد عن الخلافة، وخلَّص المدينة من الوزير المشؤوم، فإنه سوف يتولى الخلافة، لكن الوعد كان كاذباً، لأن الأسر العربية النافذة في قرطبة، بقيادة أبي الحزم جهور، قرَّرت إلغاء الخلافة الأموية وطرد الأمويين نهائياً من قرطبة.

والواضح أن أمية لم يدرك الدور الثانوي الذي طُلب منه أن يؤديه، وقام بتكوين جماعة من صفوف الجند الناقمين على الأوضاع العامة، والمحرومة من مرتباتها، وكمن للوزير وقتله، وذلك في (١٢ ذي العقدة ٤٢٢ هـ/ ٣٠ تشرين الثاني ١٠٣١ م)، ثم هاجم القصر واندفع العامة وراءه، فخشي هشام المعتد على نفسه، فغادره مع أسرته وهو يناشد أهل قرطبة الناقمين والغاضبين حقن دمه، وبعد أن نُهبت معظم محتويات القصر، تدخَّل الوزير أبو الحزم جهور، فزجر العامة، وأوقف عملية النهب[(١)].

وقرر القرطبيون التخلص من بني أمية وإبطال رسم الخلافة، فخلعوا هشام المعتد وأبعدوه إلى أحد الحصون القريبة، ثم غادره بعد أيام إلى الثغر، ولجأ إلى سليمان ابن هود، صاحب لاردة، حيث قضى هناك بقية حياته، وتوفي في عام (٤٢٨ هـ/ ١٠٣٧ م)، كما أبعدوا أمية بن عبد الرحمن عن القصر، وكان يطمح في تولي الخلافة، وعندما رأى تصميم القوم على الفتك بالأمويين، غادر قرطبة واختفى عن الأنظار. ونودي في سائر أنحاء قرطبة وأرباضها بأن لا يبقى بها أحد من بني أمية، وألا يأويهم أحد، وتولى أبو الحزم جهور تنفيذ هذا الأمر بمنتهى الحزم، حتى أجلاهم عن المدينة[(٢)].

وبخلع هشام الثالث المعتد تنتهي الخلافة الأموية بصورة نهائية، وينقطع ذكرها إلى الأبد من منابر الأندلس والمغرب الأقصى.

---

(١) ابن عذارى: جـ ٣ ص ١٤٨ـ ١٥٢.

(٢) المصدر نفسه. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ١٣٤، ١٣٥.

أسباب سقوط دولة الخلافة الأموية: تعرَّضت دولة الخلافة الأموية، خلال مراحل تاريخها، لهزات عنيفة زلزلت كيانها وأدَّت إلى نهايتها. ويمكننا تحديد الأسباب التي أدَّت إلى هذا التهاوي السريع، على الرغم من أن المؤرخين المسلمين لا يكادون يشيرون إلى شيء منها، وهي على الشكل التالي:

ـ من الثابت أن خلافة بني أمية كانت قد انتهت فعلياً قبل ذلك بكثير، ومنذ أن برز محمد بن أبي عامر وقبض بكلتا يديه على السلطة لاغياً الدور التقليدي للخلافة كمؤسسة دينية وسياسية.

ـ ارتباط الخلافة بفرد وليس بنظام، حيث جاء إعلانها مع الموقف القوي الذي بلغه عبد الرحمن الثالث الناصر بعد إعادة وحدة البلاد السياسية، وإثبات حضوره على مختلف الجبهات، ثم غابت مع غيابه حيث افتقرت إلى قائد من طرازه وعلى نمطه، قادر على الحسم في الوقت المناسب. والمعروف أن القائد المطلوب عادة يكون نمطاً خاصاً من الرجال يولد من رحم الأزمات والتحديات المصيرية، وهو وحده القادر على توجيه الأدوات في اتجاه الأهداف المركزية للدولة بعد امتلاكه لجميع القدرات الفاعلة في الردَّ على التحدي بتحدٍ أكثر قوة. وعليه، فإن الأندلس، خلال المرحلة الأخيرة من حياة الخلافة، كانت تحتاج إلى رجال قادرين على التفاعل مع الأحداث من طراز عبد الرحمن الداخل، مؤسس الدولة، وعبد الرحمن الناصر، مؤسس الخلافة وباني مجدها السياسي والحضاري.

ـ فقدان التلاحم البشري في المجتمع الأندلسي الذي كان خليطاً متنوع الهويات العرقية، ومتناقض الانتماءات سياسياً واجتماعياً واقتصادياً. فقد تألف هذا المجتمع من أخلاط من الناس متنافرة، من عرب وبربر وصقالبة ومولَّدين ومستعربين ويهود، ولكل من هذه العناصر العرقية ميل للسكن في بقعة معينة. فالعنصر العربي غالب في قرطبة، ويكثر المولَّدون في إشبيلية وطليطلة، وغلب البربر في غرناطة وقرمونة ومالقة.

كان لهذا التوزع أثر كبير في دفع هذه التكتلات البشرية إلى النزوع إلى الاستقلال والخروج على السلطة المركزية، ما كان يقضي باستعمال القوة كوسيلة لتحقيق الوحدة السياسية، ومع ذلك لم تكن القوة وحدها تكفي للسيطرة على سائر البلاد.

ـ طبيعة الأندلسيين وتباين أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية. فقد كان هناك ما يشبه صراع الطبقات بسبب التفاوت في توزيع الثروة ومستوى المعيشة، بين طبقة

أرستقراطية حاكمة ومسيطرة تتمتع بالغنى والثروة والنفوذ، وطبقة متوسطة اغتنت بفضل نشاطها في الزراعة والتجارة والصناعة، وطبقة فقيرة من الحرفيين والعمال والعامة. فالعامل يكره صاحب العمل، والطبقة الوسطى تحسد طبقة الأغنياء والجميع يكرهون البربر والصقالبة، لكن هؤلاء جميعاً، كانوا يخفون مشاعرهم ويعيشون في هدوء طالما كان الحاكم قوياً، فلما ضعف الحكام بفعل التنازع على السلطة، لم يكن أمام هذه الطبقات إلا الانضمام لأي ثورة تقوم، وتتفق أهدافها مع مصالحها. من هنا يمكن القول بأن القوى الاجتماعية التي استند عليها الأمويون كانت مفكَّكة، فانهارت عند أول صدمة، وانهار الأمويون معها، وكانت هذه الصدمة داخلية نبعت من تناقضات وعيوب النظام الذي انتهجه الأمويون، والعامريون من بعدهم، والتي لم تظهر للعيان إلا عندما تراخت قبضة الحكام، وجسَّمتها طبيعة الشعب الأندلسي وتكوينه العنصري بالإضافة إلى طبيعة البلاد الجغرافية. فعلى الرغم من أن المصاهرة والتجاور، قرَّبت بين تلك العناصر إلا أنه بقي من مظاهر التناقض ما يكفي لقيام الصراع فيما بينها إذا ما سنحت الفرصة. وساعدت الطبيعة الجغرافية وتنوع التضاريس، من أودية وجبال تزخر بالعديد من القلاع والحصون، على تأجيج الصراع من واقع الحماية التي تؤمنها للثائرين وتساعدهم على النهوض ضد الحكومة المركزية.

ـ انقسام القوى المسلحة الأندلسية وتصارع عناصرها على النفوذ والسلطان. لقد وضع الأمويون والعامريون بذور هذا الانقسام عندما استعانوا بالموالي والصقالبة والبربر وعيَّنوهم في الجيش والإدارة، وأضحت هذه العناصر تترقَّب ضعف أو اضطراب الحالة العامة حتى تعمل لمصلحتها الخاصة وتصبح لها السيادة على البلاد. والواقع أن هذه العناصر لم تكن مخلصة لا للأمويين ولا للعامريين، فكثيراً ما تآمر الصقالبة ضد بني أمية، كما انتهزوا فرصة وفاة المنصور محمد بن أبي عامر وقالوا: «هل كُتب علينا أن نبقى في حجر آل أبي عامر الدهر الداهر؟»، فتخلَّى الفتى الصقلبي واضح عن عبد الرحمن شنجول عندما ثار بنو أمية ضده، كما تخلى عنه البربر، الأمر الذي أدَّى إلى وقوعه في أيدي محمد المهدي الأموي، الذي قتله وقضى على الأسرة العامرية.

ـ استمر الحكم في الأندلس يجمع بين السلطتين الزمنية والروحية إلى أن سيطر محمد بن أبي عامر، المنصور، ثم أبناؤه من بعده، على مقاليد الأمور في عهد

الخليفة هشام المؤيد، فانتزعوا السلطة الزمنية لأنفسهم، وتركوا الخلافة التي أُفرغت من مضامينها الأساسية، ثم مرَّت بأجواء عاصفة ومشحونة بالصراع الدموي بين أفراد الأسرة الحاكمة، فكانت مرحلة تشبه الاحتضار، حيث تلقَّف هذا المنصب عدد من الخلفاء الضعاف والعابثين الذين لم يكونوا على قدر من المسؤولية تؤهلهم لنيل هذا المنصب، وقد مرَّوا بشكل متسارع.

ـ ارتكب خلفاء بني أمية الأواخر خطأين مميتين:

الأول: فتح باب الاستعانة بالقوى النصرانية في الشمال، أثناء الصراع على العرش مقابل التنازل لهم عن بعض المدن والحصون، الأمر الذي قضى على هيبة الخلافة ودلَّ على ضعف الحماس الديني والعزة، لدى هؤلاء الخلفاء الضعاف، فاستهان الناس بهم، وأضحوا لا ينظرون إليهم كما كانوا ينظرون إلى الناصر والمنصور من قبل. ومما زاد من هوانهم في نظر الناس ما اتصف به معظم هؤلاء الخلفاء من استهتار بالفضائل والقيم الدينية والخلقية، ومن سوء سياسة وتخبُّط في شؤون الحكم والإدارة.

الثاني: أنهم تخلوا عن حكم أقاليم الدولة وولاياتها، وتركوها في أيدي عناصر الصقالبة والبربر وغيرهم، بل إن بعضهم قام بتوزيعها عليهم، كما فعل سليمان المستعين، ولم يلبث حكام الولايات هؤلاء، أن استقلُّوا بها عقب مقتل هذا الأخير، وأعلن آخرون استقلالهم عن كل سلطة، وقد أدَّى ذلك إلى التجزئة السياسية للبلاد.

ـ ارتكب الحكام الأقوياء من بني أمية وبني عامر، أخطاء لم تظهر في عهدهم، نظراً لقوة شخصيتهم ولقدرتهم على القيادة والسيطرة على مقاليد الأمور، ولما انهارت الأسرة العامرية، ونشب النزاع بين خلفاء بني أمية الأواخر على كرسي الخلافة، ظهرت تلك الظواهر السلبية وقادت البلاد إلى ذلك المصير المحزن الذي أنهى عصر الخلافة الأموية، وافتتح عهد دول الطوائف، من ذلك، الاستعانة بالعناصر الأجنبية، وكان الناصر قد افتتح هذه السياسة بتنحية العنصر العربي عن ميدان الزعامة والقيادة، واستعان بالعناصر الأجنبية في الجيش والإدارة، لسهولة السيطرة عليها وضمان عدم تمردها، ما أدَّى إلى حرمان الدولة من ذوي الكفاءات من العرب والبربر، وإلى زرع الحقد والضغينة بينهم وبين الصقالبة الذين أضحوا قوة يُخشى بأسها. وقد ظهر خطر الاستعانة بهذا العنصر الصقلبي أثناء الاضطربات، وبرز واضحاً أثناء الصراع مع البربر. وأخذ هذان العنصران، البربر والصقالبة،

يتحكمان في تولية الخلفاء وعزلهم، كما اعتدوا عليهم بالقتل والتشريد، واستبدوا بالحكم من دونهم، وتمادوا حين تحالفوا مع النصارى في الشمال لتحقيق أهدافهم.

ـ تولية الخلافة خلفاء صغاراً، من ذلك ما أقدم عليه الحكم المستنصر حين ولَّى ابنه الطفل هشاماً ولاية العهد متجاوزاً الكثير من الشخصيات الأموية القادرة على قيادة البلاد بحزم وكفاءة، لكن الحكم المستنصر آثر مصلحته الشخصية من واقع حصر الحكم في أسرته، وأدى ذلك إلى زرع الحقد والضغينة في أمراء البيت الأموي.

ـ سياسة بني عامر في إضعاف الخلافة والاستبداد بالدولة. والواقع أن سياسة المنصور قامت على مبدأ الاستبداد بحكم الأندلس، فقضى، من أجل ذلك، على قوى المعارضة من الصقالبة والعرب، بالإضافة إلى من كان يخشى بأسه من الأسرة الأموية، وأوصى ابنه، حين حضرته الوفاة، بألَّا يتوانى عن هذه الفئة، وأن يأخذها بالشدة والعنف، الأمر الذي أدَّى إلى سقوط هيبة الخلافة وبني أمية في نفوس الناس وإلى ضياع مجدهم. وقد أثَّرت هذه السياسة سلباً على قدرات الخلفاء الذين جاءوا بعد سقوط الأسرة العامرية، إذ لم يحسنوا السياسة، ونسوا أساليب آبائهم في الحكم واصطناع الأنصار. فقد تعصَّب سليمان المستعين للبربر، واستعان هشام المؤيد بالصقالبة، والتمس كلاهما مساعدة النصارى في الشمال، وبذلك تكرَّس انقسام الدولة إلى حزبين متصارعين.

ـ محاولة العامريين اغتصاب منصب الخلافة. وقد راودت المنصور هذه الفكرة، لكن مستشاريه نصحوه بالعدول عنها لأنها سوف تثير الأمويين والشعب ضده، لكن ابنه عبد الرحمن شنجول أقدم على تلك الخطوة وأخذ البيعة لنفسه بولاية عهد هشام المؤيد، وكانت خطأً فادحاً وقاتلاً، إذ تخلَّى عنه الجميع عندما قام محمد المهدي الأموي بالثورة ضده، وذلك لأن هذا الأمر كان يعني تحويل الخلافة من المضرية إلى اليمنية، وأن المجتمع القبلي القديم لم يختفِ تماماً على الرغم من قيام الناصر والمنصور بتوجيه ضربات قاسية للعنصر العربي.

ـ موقف العلماء والفقهاء المتذبذب، فهم الذين أيَّدوا النظام العامري، وأفتوا بجواز ولاية شنجول العهد، وحضروا البيعة وباركوها، وعندما انهارت الأسرة العامرية، انتهزوا الفرصة، وأعلنوا تأييدهم للنظام الجديد، وبذلك أضحت الانتهازية والنفعية طابع كثير منهم.

ـ تغذية الملوك النصارى الصراعات الداخلية، وبدا ذلك واضحاً منذ عهد عبد الرحمن الناصر، فعندما غضب على أقربائه من بني إسحاق بن أمية وقتل زعيمهم، أحمد بن إسحاق، بسبب تآمره عليه واتصاله بالفاطميين، وتحريضه لبني تجيب على الثورة ضده، فرَّ أخوه أمية إلى شنترين في غربي الأندلس ورفع راية الثورة، فانتهز راميرو الثاني ملك ليون الفرصة وعرض مساعدته على أمية، ثم استقدمه إلى بلاطه وعيَّنه وزيراً، وأشركه في حرب الناصر، وزوَّده أمية بمعلومات مهمة عن قوة الناصر العسكرية، وأوضاعه الداخلية، الأمر الذي سهَّل عليه النصر في معركة الخندق. وفي غمرة الصراع على العرش بين أمراء بني أمية الأواخر، ساعد هؤلاء الملوك فريقاً ضد الآخر، الأمر الذي أضعف الجبهة الداخلية، وجعل مسلمي الأندلس يضربون بعضهم بعضاً، وأدَّى ذلك إلى تعميق الأحقاد والانفصال بينهم، وأضحوا لقمة سهلة يستطيع ملوك النصارى التهامها في أي وقت يريدون.

الباب الرابع

عهد دول الطوائف والسيطرة المغربية
سقوط الأندلس

(٤٢٢ ـ ٨٩٧ هـ/١٠٣١ ـ ١٤٩٢ م)

الفصل الثالث عشر : دول الطوائف.

الفصل الرابع عشر : الأندلس في ظل حكم المرابطين.

الفصل الخامس عشر : الأندلس في ظل حكم الموحدين.

الفصل السادس عشر : مملكة غرناطة ـ سقوط الأندلس النهائي.

الفصل الثالث عشر

دول الطوائف

(٤٢٢ ـ ٤٧٩ هـ/١٠٣١ ـ ١٠٨٦ م)

الأوضاع الداخلية

تمهيد

إن دولة تسقط وتزول بسبب سلبياتها وليس نتيجة انتصار أعدائها الخارجيين عليها، لا تثير في الواقع عطفاً كبيراً، غير أن ما يدعو إلى التأمل أن يكون سقوط الدولة القديمة بعثاً لوحدات جديدة، ذلك لأن كل هدم يتبعه عمل إنشائي جديد.

لقد سقطت دولة الخلافة الأموية، وزالت عن مسرح الحياة السياسية في الأندلس، ضحية غطرسة الحرس الخليفي من الصقالبة، وأطماع الولاة، وانحلال شعب فَقَدَ حبَّه وولاءه للأسرة الحاكمة. فمن كان ذا قوة، كان يجنح إلى استخدام قوته لصالحه الشخصي وليس لصالح المصلحة العامة. وتقاسمت الأُسر القبلية وقادتها أشلاء الدولة التي لم تمت بزوال الخلافة، وإنما كان زوالها في الواقع بداية الصراع فيما بينها[١].

يُعدُّ عهد دول الطوائف من أكثر عهود التاريخ الأندلسي تعقيداً وتشابكاً واضطراباً. ففيه انفرط عقد البلاد وتقاسمته نحو ستة وعشرين دولة تتفاوت فيما بينها في الحجم والقوة والضعف، حتى كان لكل مدينة تقريباً حاكمها المستقل متخذاً لقب الملك أو الأمير أو الوالي أو القاضي، تبعاً لحجم المنطقة أو المدينة التي يحكمها.

وعلى الرغم من أن هذا العهد لا يتجاوز، من حيث المدى الزمني، ستين عاماً،

---

(١) أشباخ، يوسف: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين جـ ١ ص ٣٠، ٣١.

إلا أن تتبُّع تاريخ الأسر الحاكمة التي ملكت تلك الدول، أمر عسير، لأن الحروب المتصلة بينها أدَّت إلى تحولات مستمرة في مسارها التاريخي يتراوح بين النشوء والسقوط وعدم ثبات الحدود، فهي في تغيُّر مستمر. فالقوي ينقضُّ على الضعيف فيبطش به ويسلبه أملاكه، حرباً أو صلحاً، أو يقتطع أجزاء منها. ويلجأ الضعيف حتى يدرأ الخطر عنه، إلى التحالف مع جار أقوى، فيغدو تابعاً له. والنصارى في الشمال، الذين تتزايد قوتهم، لا يكفُّون عن التدخل في شؤون تلك الدول، فيفرضون الجزية على كثير منها، ويعملون على الاستيلاء على ما يستطيعون من أملاكها. وهكذا يتعذَّر رسم حدود ثابتة لتلك الدول التي لا تستقر على حال.

ولم يكن التمزق الذي حدث في الأندلس، منذ أوائل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، سياسياً فحسب، بل كان تمزقاً اجتماعياً أيضاً، بمعنى أن العناصر المختلفة التي تألف منها المجتمع الأندلسي، قد عادت إلى الانفكاك، ولكن بصورة مختلفة بعض الشيء عما حدث في عهد الأمير عبد الله في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، بفعل دخول عناصر جديدة مثل الصقالبة الذين أضحى لهم دور سياسي فاعل ومتزايد في شؤون الدولة منذ أيام عبد الرحمن الناصر، بالإضافة إلى الجنود المرتزقة من البربر الذين استكثر الحكم المستنصر من استجلابهم، وأصبحوا عماد الجيش في عهد الحاجب المنصور العامري، وكوَّنوا كتلة ذات شأن.

من هنا يمكن أن نقسِّم أُسر الطوائف، من الناحية الاجتماعية، إلى أربع فئات[1].

الفئة الأولى: الأرستقراطية العربية، وأشهر أسرها: بنو عبَّاد اللخميون، الذين حكموا إشبيلية، وبنو تجيب اليمنيون، الذين حكموا سرقسطة والثغر الأعلى خلال الثلث الأول من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وبنو صمادح، وهم فرع من بني تجيب، وقد حكموا المرية حتى دخول المرابطين، وبنو هود الأدارسة، الذين ملكوا الثغر الأعلى بعد التجيبيين حتى سقوط سرقسطة في يد ملك أراغون، وبنو طاهر، أصحاب مرسية في شرقي الأندلس، وهم من القيسية.

الفئة الثانية: موالي بني أمية، الذين كانت أسرهم عماد الدولة في عهد الأسرة الأموية، وشتَّت الحاجب المنصور العامري أكثر هؤلاء، غير أنه بقيت منهم بقية كان

(١) انظر مكي، محمود: تاريخ الأندلس السياسي، فصل في كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس جـ ١ ص ١٠٠ـ ١٠٢.

منها أسرة بني أبي عبدة حسان بن مالك الذي وَزرَ لعبد الرحمن الداخل، وإلى هذا البيت ينتمي بنو جهور الذين حكموا قرطبة بعد زوال الخلافة الأموية إلى أن قضى عليهم المعتمد بن عبَّاد.

الفئة الثالثة: بقايا أسرة الحاجب المنصور العامري، ومن كان في خدمتهم من الصقالبة الذين استكثر منهم الحاجب المنصور، فخدموا في القصر، وتولى بعضهم منصب القيادة. وبرز من أسرة العامريين عبد العزيز المنصور بن عبد الرحمن الذي حكم بلنسية أربعين عاماً، وأورث ابنه الإمارة من بعده. وحكم الصقالبة معظم مدن شرقي الأندلس خلال الشطر الأول من عصر الطوائف، وبرز منهم خيران وزهير، اللذان حكما المرية قبل بني صمادح، ومبارك ومظفر، أميرا بلنسية قبل أن تؤول إلى حفيد الحاجب المنصور، ومقاتل ولبيب، أميرا طلوشة ـ طرطوشة ـ قبل أن يستولي عليها بنو هود، ومجاهد صاحب دانية وجزر البليار، وابنه علي إقبال الدولة.

الفئة الرابعة: البربر، وينتظمون في ثلاث مجموعات:

١ ـ البربر الذين استقروا في الأندلس منذ الفتوح الأولى واندمجوا في المجتمع الأندلسي. وعلى الرغم من أن بعضهم ظل محتفظاً بنسبه القديم إلا أن البعض الآخر اصطنع لنفسه نسباً عربياً، الأمر الذي يدل على مدى ذوبانهم في المجتمع الأندلسي، مثل بني الأفطس، ملوك بطليوس وغربي الأندلس، وترجع أصولهم إلى بربر مكناسة، ولكنهم انتسبوا إلى قبيلة تجيب العربية، وبني ذي النون، من قبيلة هوارة البربرية ملوك طليطلة، الذين أقاموا في منطقة شنتبرية، وحكموا مدن وبذة وأقليش وقونقة، وظلوا يحكمون طليطلة إلى أن انتزعها منهم ألفونسو السادس ملك قشتالة، وبنو رزين، الذين سكنوا السهول المنسوبة إليهم بالإضافة إلى منطقة تيروال، وكانوا من قبيلة هوارة أيضاً.

٢ ـ البربر الذين وفدوا على المنصور، محمد بن أبي عامر، من الجند المرتزقة الذين استعان بهم في غزواته، وشكَّلوا «أرستقراطية» عسكرية متميزة مرهوبة الجانب، ولم يندمج هؤلاء في المجتمع الأندلسي، نظراً لحداثة قدومهم إلى الأندلس من ناحية، وبسبب الكراهية الشديدة التي كان الأندلسيون يكنُّون بها لهم بفعل دورهم في الفتنة البربرية من ناحية أخرى. والمعروف أنهم اندمجوا مؤخراً في المجتمع، نذكر منهم: بنو زيري الصنهاجيين الذين استولوا على غرناطة وحكموها حتى انتزعها منهم المرابطون، بنو زناتة، ومنهم بنو برزال، وقد حكموا قرمونة،

ومورور التي حكمها بنو نوح من قبيلة دَمَّر، ورندة، وهي إقطاع بني أبي قرَّة، وكانوا من بني يفرن، وأركش التي حكمها بنو خزرون. وقد قضى المعتمد بن عباد، صاحب إشبيلية، على هؤلاء الأمراء الصغار، وضم أملاكهم إلى أراضيه.

٣ ـ العرب المتبربرين، ونعني بهم بني حمود، وهم من سلالة الأدارسة الحسنيين، غير أنهم على الرغم من نسبهم العربي فقد عاشوا في كنف البربر وصاهروهم، لذلك التفَّ البربر حولهم لا سيما الصنهاجيون، واعترفوا بإمامتهم. وحكم هؤلاء الحموديون مناطق جنوبي الأندلس وأهمها مالقة والجزيرة الخضراء، وامتدت سلطتهم، أيام الفتنة، إلى قرطبة وإشبيلية وغيرها.

وهكذا تكوَّنت، بعد معارك دامية بين الأسر الطوائفية، سبع دول رئيسة غلبت على جميع الدويلات الأخرى أو تحالفت معها.

١ ـ ففي قرطبة وما يجاورها من المدن والأراضي الوسطى، حكم بنو جهور، وهم من الموالي، وقد قضى عليهم بنو عبَّاد.

٢ ـ وفي إشبيلية حكم بنو عبَّاد العرب، وهم من قبيلة لخم، وتوسعوا في الجنوب على حساب بني حمود والبربر، واضطر أميرا قرطبة وبطليوس إلى الانضواء تحت لوائهم حلفاء، أو مغلوبين، وحاولوا الاستيلاء على الأندلس كلها، إلا أنهم اصطدموا ببني ذي النون، حكام طليطلة الأقوياء، غير أن أراضيهم امتدت حتى المحيط الأطلسي.

٣ ـ وحكم بنو ذو النون طليطلة أو الثغر الأوسط، ودخلوا في صراع مع بني عبَّاد، وتصدَّوا لطموحاتهم التوسعية، غير أن ذلك لم يكن إلا على حساب استقلالهم، ذلك أنهم كانوا يدفعون الجزية لملك قشتالة التماساً لمساعدته ضد خصومهم.

٤ ـ وحكم بنو زيري، وهم من البربر، غرناطة ومالقة في جنوبي الأندلس، بعد بني حمود الأدارسة.

٥ ـ وحكم بنو هود منطقة سرقسطة، أو الثغر الأعلى.

٦ ـ وحكم بنو الأفطس بطليوس، وهم من البربر.

٧ ـ وكان بنو عامر في بلنسية ومرسية، في شرقي الأندلس، إلا أنهم كانوا أضعف من الأسر الأخرى وأقل استقلالاً.

طبيعة عهد دول الطوائف: يختلف عهد دول الطوائف، في كثير من مظاهره، عن العهود الأندلسية السابقة، ذلك أن هذه التجمعات الأسرية لم تسترشد بسياسة إسلامية سواء في علاقاتها بعضها ببعض أو في علاقاتها بشعوبها، تقوم على الجهاد وتوسيع رقعة أراضيها على حساب النصارى في الشمال الأندلسي. ونلاحظ، في مجال العلاقات المتبادلة فيما بينهم، أن ملوك الطوائف كانوا في نزاع مستمر، ولم يقيموا سياستهم على أساس التعايش السلمي، والمحافظة على الأمر الواقع، ولعل سبب ذلك يعود إلى التفاوت فيما بينهم من حيث القوة والضعف والأطماع الشخصية وحب الظهور والتملك، بالإضافة إلى اشتداد الخطر النصراني. فالقوي يقهر الضعيف ويستولي على أملاكه، سواء عن طريق الحرب أو المؤامرات أو الشراء أو المعاهدات. ويبدو أن لطبيعة دول الطوائف أثراً كبيراً في اتباع تلك السياسة، فهي في الواقع لم تكن دولاً بالمعنى المعروف بل إنها كانت أقرب إلى وحدات الإقطاع وإلى عصبية الأسرة القوية، ومن ثمَّ لم تكن بها حكومات منظَّمة بالمعنى الصحيح تعمل على رفاهية شعبها، وإنما كانت أُسراً أو زعامات تعمل لمصلحتها ورفعة شأنها وتنمية مواردها وثرواتها وتدعيم سلطانها، والطابع الظاهر لها هو الشكل المدني الذي يتمثل في لقب الرئيس الذي عُرف به الأمير. وعلى الرغم من أن لقب الرئيس يختلف عما كان متعارفاً عليه من ألقاب الإمارة والملك والحجابة، فإن رؤساء الطوائف حملوا كل هذه الألقاب، باستثناء أمير المؤمنين، وأطلق الكتَّاب على الكبار منهم ألقاباً مثل: «كبير أمراء الأندلس» الذي أُطلق على يحيى بن ذي النون، و «أسد الملوك وشهاب الفتنة» الذي أُطلق على المعتضد بن عبَّاد[1].

وعليه، فإن عهد دول الطوائف، هو عهد الأطماع والأنانية والمصالح والمؤامرات وهو عهد كانت فيه الجارية تُرفع إلى عرش الملكات، ويهبط الملوك إلى درك العوز والفاقة والتسول[2].

لم يكن الصراع الداخلي بين دول الطوائف قائماً على الحزبية أو الجنس، كالصراع بين العرب والبربر، كما لم يكن صراعاً بين فريقين أو حزبين، بدليل أن البربر حاربوا بعضهم بعضاً. والمعروف أن بربر زناتة لا يثقون في بربر صنهاجة، ولذلك انضم بربر قرمونة ورندة وتاكرنا إلى بني عبَّاد العرب، في أحيان كثيرة، ضد

(١) ابن بسام: جـ ٢ ص ٥١١.

(٢) عبد الحليم: ص ٢٧٤، ٢٧٥.

بربر صنهاجة في غرناطة. كما حارب العرب بعضهم بعضاً، فقد اصطدم بنو عبَّاد مع بني جهور حكام قرطبة وقضوا عليهم، وضمُّوا قرطبة إلى أملاكهم. ولما كان الصراع قد اتخذ سمة الشخصية، فقد اتبع الجميع مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، حتى أن الأخ كان يغدر بأخيه ويستعين بالنصارى على حربه[1].

افتقد حكم دول الطوائف إلى الأساس الشرعي بفعل أن حكامها متغلبون ومستبدون، ولم يكونوا من أُسر حاكمة، إمارة أو خلافة، قبض كل منهم على زمام الأمور في ناحيته وأقام ملكه عليها عقب انهيار الأسرة العامرية وزوال الخلافة الأموية، وادعى كل منهم بأنه سوف يحافظ على ما تحت يده حتى يظهر الحاكم الشرعي فيتنازل له طواعية، وهم في ذلك غير صادقين. وحتى يُضفوا الشرعية على حكمهم، أقاموا لهم خلفاء من بني أمية ومن غيرهم، مثل بني حمود، واستتروا وراءهم، وقد جاء وقت وُجِد فيه أربعة خلفاء في وقت واحد لم يكونوا إلا دمى لم تنل احترام الناس وتقديرهم، وهم: خلف المصري المشبَّه بهشام المؤيد بإشبيلية، ومحمد بن القاسم بن حمود في الجزيرة الخضراء، ومحمد بن إدريس بن علي بن حمود في مالقة، وإدريس بن يحيى بن علي بن حمود في ببشتر وسبتة، وإن دلَّ هذا على شيء، فإنه يدل على مدى الابتذال الذي وصل إليه هذا المنصب السامي، لكنها مصلحة الأمراء الشخصية التي فرضت هذه الأوضاع، وما إن ينتهي الهدف منها حتى تزول بأمر من أقاموها[2].

واستعان ملوك الطوائف ببعض الفقهاء والعلماء ورجال الدين لتدعيم نفوذهم، والواقع أن هؤلاء شكَّلوا سنداً قوياً لهم في وقت ساد فيه الانحلال والفوضى الأخلاقية والاجتماعية والسياسية، وكانوا عضداً لهم في تبرير ظلمهم وطغيانهم، وتزكية لتصرفاتهم وابتزازهم أموال الناس. أما المخلصون من الفقهاء والعلماء الذين لم يرضوا عن تصرفات ملوك الطوائف وسلوكهم، فقد اعتزلوا ورفضوا تولي المناصب القضائية والإدارية، احتجاجاً، وتعرَّضت فئة منهم لغضب الحكام وانتقامهم، وكان هذا من عوامل الضعف التي ألمَّت بدول الطوائف، وبذلك انهارت الدعامة الروحية التي استند عليها ملوك الطوائف في حكمهم.

واعتمد ملوك الطوائف على القوة العسكرية ليحقِّقوا أهدافهم بعد أن أدركوا

---

(١) عبد الحليم: ص ٢٧٦.

(٢) ابن الخطيب: جـ ٢ ص ١٣٩. عبد الحليم: ص ٢٧٨، ٢٧٩.

حقيقة أوضاعهم التي لا تستند على أساس شرعي، وذلك كتعويض عن ذلك الأساس، وتتمثل هذه القوة في العبيد والجنود المرتزقة. وكان الخلفاء والأمراء من قبل، يعتمدون على العامة حين يدعون إلى الجهاد، ولم يكن لملوك الطوائف أن يستنفروا الناس وقد توقفوا عن الجهاد، لذلك لجأوا إلى تجنيد المرتزقة على نطاق واسع بغض النظر عن أصلهم أو دينهم، وهكذا تدفَّقت عليهم أعداد غفيرة من نصارى الشمال مقابل أجور مغرية، فاستعانوا بهم كمأجورين أو حلفاء.

والواقع أن أسوأ ما يُنسب إلى ملوك الطوائف، في بداية أمرهم، إلى جانب سوء العلاقات فيما بينهم، هو سوء العلاقات الداخلية فيما بينهم وبين وزرائهم الذين انغمسوا بالتالي في الفتنة[1].

دولة بني جهور في قرطبة (٤٢٢ ـ ٤٦٢ هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٧٠ م)

أضحت قرطبة، بعد التخلص نهائياً من بني أمية وإجلائهم جميعاً عن المدينة، من دون خلافة ولا حكومة، فتوجَّهت الأنظار نحو الوزير أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور للاضطلاع بأعباء الحكم، وهو ينتمي إلى أسرة موالي عريقة، وتولى عدة مناصب إدارية وقيادية، منها: الكتابة لعبد الرحمن شنجول، والوزارة لعلي بن حمود الذي نقم عليه بعد ذلك واعتقله، وعندما ثار القرطبيون ضد بني حمود والبربر، كان عميدهم أبو الحزم جهور فاختاروه بالإجماع حاكماً لمدينتهم ورئيساً لحكومتها الجديدة[2].

ابتكر أبو الحزم جهور نظاماً سياسياً جديداً أشبه بالنظام الجمهوري، فهو لم يتفرَّد بالرئاسة، ولم يستأثر بتدبير الأمور والبتِّ فيها، ولكنه شكَّل مجلساً من الوزراء وأهل الرأي، يرجع إليهم في الأمور، ويُصدر القرارات باسمهم، ولا يبرم أمراً إلا بمشورتهم، وسمَّى نفسه أمين الجماعة[3]. والواقع أن ابتكار هذا النظام يُعدُّ ضرباً من بُعد النظر والدهاء السياسي، ونموذجاً بديعاً من حكم الشورى في عصر سادت فيه نزعة الرئاسة الفردية والحكم المطلق، ويندر أن نراه في الدول الإسلامية في ذلك الوقت، واستطاع، من خلال هذا النظام، أن يضع الجميع، زعماء وأفراداً، أمام مسؤولياتهم وواجباتهم.

---

(١) عبد الحليم: ص ٢٨٠، ٢٨١.
(٢) الحميدي: ص ٢٩.
(٣) ابن بسام: جـ ١ ص ٣٧٤. ابن عذاري: جـ ٣ ص ١٨٦.

وأجرى أبو الحزم جهور إصلاحات عديدة تناولت ما يمس الحياة العامة. فقد خفَّض الضرائب الفادحة التي كان يدفعها الناس، وألغى البعض منها، وفرض رقابة صارمة على الجباة، وأصلح القضاء الذي انهارت دعائمه في أواخر عهد الأمويين، نتيجة انتشار الرشوة، وأنشأ هيئة قضائية من المحامين لإنجاز المعاملات القضائية وحل القضايا وتبسيط سير العدالة، وأوقف أدعياء الطب عن العمل، ولم يسمح بمزاولة مهنة الطب إلا لمن يجتاز الامتحان المخصَّص لذلك أمام هيئة من كبار الأطباء، وأنشأ شرطة مدرَّبة للسهر على حسن تموين المدن بالمواد الغذائية ومراقبة أسعارها، وعهد إلى الجند الشعبي، الذي دُرِّب خلال الحرب الأهلية، بالسهر على أمن المدينة، وَرَصَدَ إيرادات الدولة ونفقاتها في سجلات خاصة كانت تُذاع سنوياً على الشعب[1].

وقرن أبو الحزم جهور إصلاحاته العامة بإجراء شخصي، فقد كان قنوعاً في حياته، تجنَّب الإسراف، وجنح إلى البساطة والاعتدال، ورفض السكن في القصور الملكية تفادياً لما يقتضيه ذلك من كثرة الحشم، ولم يحط نفسه بأي مظهر من مظاهر الأبهة والفخامة.

وهكذا أمسك أبو الحزم جهور بالوضع في قرطبة إلى أن يأتي مستحق يُتَّفق عليه فيسلمه مقاليد الأمور، كما أذاع بين الناس. واستمرت حكومة الجماعة برئاسته نحو إثنتي عشرة سنة، سادت فيها السكينة والأمن، وأضحت قرطبة واحة سلام في وسط محيط يعج بدول الطوائف التي كانت تعصف بها الحروب والنزاعات، ولهذا فقد كانت ملاذاً وملجأ للمنفيين والفارين من الأمراء المخلوعين عن عروشهم. وقد عمل أبو الحزم على أن يُنصِّب نفسه رسول سلام بين جيرانه المتنازعين، وإن كان نجاحه في التوفيق بينهم محدوداً، على أن قرطبة نفسها لم تسلم من مطامع أولئك الجيران الأقوياء الذين أرادوا ضمَّها إلى أملاكهم، ولا سيما في أواخر أيام الدولة الجهورية[2].

وشهدت قرطبة، إلى جانب الاستقرار السياسي، ازدهاراً اقتصادياً وانتعاشاً في الحياة التجارية بعد أن أمِنَ التجار على أموالهم نتيجة القسوة التي فُرضت على المتلاعبين بالأمن، بالإضافة إلى ما كانوا يحصلون عليه من تسليفات وقروض يستغلونها في تجاراتهم، ويستفيدون من ربحها، ثم يسدِّدونها[3].

---

(١) ابن بسام: جـ ١ ص ٣٧٤.

(٢) مكي: ص ١٠٢.

(٣) ابن بسام: جـ ١ ص ٣٧٤.

ويُبدي ابن حيان، وكان من شهود هذا التحول، دهشته من تحقُّق الأمن والنظام والرخاء في قوله: «فعجب ذو التحصيل للذي أرى الله في صلاح الناس من القوة، ولما تعتدل حال، أو يهلك عدو، أو تقو جباية، وأمر الله تعالى بين الكاف والنون»[١].

حاول أبو الحزم جهور، بعد أن استتبت له الأمور في قرطبة أن يتوسع شيئاً فشيئاً حتى يغدو مثلما كان عليه سلطان الأمويين من قبل، وكانت هذه تطلعات جريئة، وبخاصة إذا علمنا أن نفوذه لم يتعدَّ قرطبة وما يجاورها من مدن. فأرسل إلى أمراء مالقة وغرناطة وإشبيلية وطليطلة وسرقسطة وبطليوس وبلنسية، يدعوهم إلى الاعتراف بطاعته، لكن هؤلاء لم يتنازلوا حتى بالرد عليه، وحاولوا أن يشيعوا أخباراً عن حكمه الذي عدُّوه ظالماً.

ومن جانبه، كان أبو الحزم جهور يتجاهل استقلالهم ومزاعمهم ويمتدح، في رسائله إليهم، غيرتهم وعنايتهم بتأييد السلام في الأقاليم التي يحكمونها، وكان محمد بن عبَّاد، حاكم إشبيلية، أقلَّهم اكتراثاً، وكان يومئذٍ قد انتزع قرمونة من حاكمها البرزالي، بيد أنه عندما هرع أميرا مالقة وغرناطة لنجدة هذا الأخير وهزما الجيش الإشبيلي، رأى محمد بن عبَّاد أن يتقرَّب من أبي الحزم جهور ويتحالف معه ضد خصومه، لكن حاكم قرطبة فضَّل التعاون مع أعداء ابن عبَّاد، واستقبلهم في قرطبة في عام (٤٢٦ هـ/ ١٠٣٥ م)[٢].

وكان لأبي الحزم جهور موقف من قضية ادعاء محمد بن عبَّاد بظهور الخليفة هشام المؤيد ودعوته سكان قرطبة الدخول في طاعته. والواقع أن القرطبيين مالوا إلى الاعتراف به وحثُّوا أميرهم على ذلك، غير أنه رفض هذا الادعاء، الأمر الذي أثارهم، فانتفضوا ضد حكمه، وشُغِل هذا بقمع الثورة فلم يكن بوسعه أن يتقدم لمحاربة محمد بن عبَّاد، واضطر إلى الاستجابة لهذه الدعوة على الرغم من أنه لم يكن يؤمن بها. وعقدت البيعة في قرطبة لهشام المؤيد، غير أنه ندم بعد ذلك عندما طلب منه محمد بن عبَّاد أن يدخل في طاعته وأعلن تبرُّؤَه من ذلك الدَّعي[٣].

إستمر أبو الحزم جهور في حكم قرطبة حتى وفاته في (محرم ٤٣٥ هـ/ آب ١٠٤٣م)، وخلفه ابنه أبو الوليد محمد[٤]، وقد اقتفى آثار أبيه في سياسته، وأقرَّ الحكام

---

(١) ابن بسام: جـ ١ ص ٣٧٤.

(٢) ابن عذارى: جـ ٣ ص ١٨٨، ١٨٩.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٩٨، ١٩٩.

(٤) ابن بسام: جـ ١ ص ٣٧٥.

والموظفين في مناصبهم. ويبدو أنه اضطر، نتيجة ظروف عديدة، إلى الابتعاد عن العمل السياسي، وقدَّم ابنه عبد الملك الذي لم يكن على المستوى المطلوب، فأهمل الشؤون العامة وقرَّب الأوغاد والسوقة، وسعى إلى الألقاب السلطانية مكتفياً من الحكم بمظاهره، وفوَّض إلى وزير أبيه، إبراهيم بن يحيى بن السقاء، مقاليد الأمور، فأجرى إصلاحات مهمة، ووطَّد الأمن والنظام، الأمر الذي أثار حفيظة المعتضد بن عبَّاد، أمير إشبيلية، الذي كان يطمع في الاستيلاء على قرطبة، وينتظر الفرصة المناسبة من واقع إثارة الاضطرابات فيها وزعزعة الأمن، وأدرك بأن استمرار هذا الوزير في منصبه من شأنه أن يشكِّل عقبة أمام تحقيق غايته، فسعى لدى عبد الملك إلى الإيقاع به، فحذَّره من أطماعه واستئثاره بالسلطة، وأغراه بقتله، وكان عبد الملك سيء الخلق والتدبير، فاغترَّ بتحريض المعتضد وفتك بوزيره في عام (٤٥٥ هـ/ ١٠٦٣م)[١].

وما حدث آنذاك من التنافس بين عبد الملك وأخيه عبد الرحمن على الحكم، أن دبَّت الفوضى في قرطبة. وكان محمد بن جهور قد أدركته الشيخوخة آنذاك، وزهد في الحكم، فتخلَّى عن صلاحياته لولديه ووزَّع سلطاته بينهما، وذلك في عام (٤٥٦ هـ/ ١٠٦٤ م). فعهد إلى عبد الرحمن النظر في أمر الجباية والإشراف على أهل الخدمة، والتوقيع على الصكوك السلطانية، والدخل والخرج وجميع أنواع النفقات، وخصَّ عبد الملك النظر في شؤون الجند والإشراف على أعطياتهم وتجريدهم في البعوث، وجميع ما يتعلق بأوضاعهم[٢].

كان ذلك أول مظاهر الاختلال، إذ تحول النظام الديمقراطي إلى ملك وراثي، وأدَّى إلى ازدياد التنافس بين الأميرين، وكان لعبد الملك الغلبة على أخيه عبد الرحمن، فقبض عليه ووضعه في الإقامة الجبرية، واستبدَّ بالأمر من دونه[٣].

وحدث أن اندلعت الاضطرابات في قرطبة نتيجة سوء سياسة عبد الملك، الأمر الذي دفع المأمون يحيى بن ذي النون، أمير طليطلة، إلى الاستيلاء على حصن المدور، الواقع غربي العاصمة، ثم زحف إلى قرطبة للاستيلاء عليها، فاضطر عبد الملك إلى التماس العون من المعتضد بن عبَّاد الذي كان يطمع هو الآخر بالاستيلاء على قرطبة، وخدع عبد الملك حين تظاهر بأنه على استعداد لمساندته، لكن المعتضد توفي في عام (٤٦١ هـ/ ١٠٦٩ م) وخلفه ابنه المعتمد فاستنجد به عبد

(١) ابن بسام: جـ ١ ص ٣٧٦، ٣٧٧. ابن عذارى: جـ ٣ ص ٢٥٨، ٢٥٩.

(٢) ابن بسام: المصدر نفسه. (٣) ابن عذارى: جـ ٣ ص ٢٥٨.

الملك، فأرسل إليه قوة عسكرية أجبرت المأمون يحيى بن ذي النون على فك الحصار عن قرطبة، غير أن قائدي جيش المعتمد غدرا بعبد الملك، فلم يكد خطر المأمون يحيى بن ذي النون ينحسر حتى اقتحما قرطبة بمساعدة بعض القرطبيِّين الناقمين على حكم بني جهور، وخلعا بني جهور وأقاما الدعوة للمعتمد بن عبّاد، وذلك في عام (٤٦٢ هـ/ ١٠٧٠ م)، واعتقلا عبد الملك وأخاه عبد الرحمن وأباهما المقعد، وأرسلوهم إلى إشبيلية، ونفاهم المعتمد إلى جزيرة شلطيش الواقعة عند مصب نهر أراد تجاه ولبة[١].

وهكذا انتهت دولة بني جهور بعد أن استمرت ما يقارب الأربعين عاماً، وكانت أول دولة تسقط من بين دول الطوائف، وضمَّ المعتمد المدينة إلى أملاكه ويتصل تاريخها منذ ذلك الوقت بتاريخ إشبيلية.

دولة بني عبَّاد في إشبيلية: (٤١٤ ـ ٤٨٤ هـ/ ١٠٢٣ ـ ١٠٩١ م)

محمد بن إسماعيل بن عبَّاد: (٤١٤ ـ ٤٣٣ هـ/ ١٠٢٣ ـ ١٠٤٢ م): ينتمي بنو عبَّاد إلى المنذر بن ماء السماء، فهم لخميون، وجدُّهم عطاف بن نعيم، الداخل إلى الأندلس مع طالعة بلج بن بشر، نزل في قرية يومين قرب بلدة طشانة من أعمال إشبيلية[٢]، ولهذه الأسرة نصيب وافر في تاريخ الأندلس. فقد برز عميدها إسماعيل ابن عبَّاد، الذي تقلَّب في مناصب الدولة سنين عديدة آخرها قضاء إشبيلية، وتمكَّن من السيطرة على الوضع العام في المدينة خلال أيام الفتنة التي ضربت الأندلس، واشتهر بالحكمة والثراء والوجاهة، وأتاحت له سياسته الرصينة أن يكسب رضى بني حمود الذين كان نفوذهم يتردد بين قرطبة وإشبيلية. وعندما اعتزل مناصبه نتيجة لتقدمه في العمر، قدَّم القاسم بن حمود، الملقب بالمستعلي، ابنه محمداً وعيَّنه في منصب القضاء[٣]، غير أن الظروف التي مرَّت بها دولة بني حمود والصراع الداخلي على السلطة دفعت سكان إشبيلية إلى النزوع نحو الاستقلال في إدارة مدينتهم، لذا فعندما غادر المستعلي إشبيلية ليتولى منصب الخلافة في قرطبة، أعلن الإشبيليون استقلالهم، وشكلَّوا مجلساً لإدارة المدينة برئاسة محمد بن إسماعيل بن عبَّاد[٤].

---

(١) ابن بسام: جـ ١ ص ٣٧٨ـ ٣٨٨. ابن عذاري: جـ ٣ ص ٢٥٩ـ ٢٦١.

(٢) ابن بسام: جـ ٢ ص ٥.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ابن عذاري: جـ ٣ ص ١٩٥.

وبدأ محمد بن عبَّاد يمارس سلطاته باتجاه الاستقلال التام، وعلى الرغم من أنه يدين للحموديين بتولي السلطة فإنه ما لبث أن انقلب عليهم، واستطاع أن يتفوق على الخليفة، يحيى بن علي بن حمود، في معركة نشبت بينهما في جوار إشبيلية، ومنعه من دخول المدينة[1]، وراح يسعى بعد ذلك إلى تأسيس ملك خاص بأسرته، ويعمل على تجنيد قوات مخلصة له، فعمد إلى شراء العبيد، وحشد الرجال، واقتنى السلاح، ولم يخفَ عليه أن الحموديين وأنصارهم من البربر يتربصون به ويطمعون في امتلاك إشبيلية.

لم تقف أطماع محمد بن عبَّاد عند حدود إشبيلية، بل اتجه للتوسع نحو الغرب، إذ كانت المناطق الغربية المجاورة لإشبيلية تتبع، بحكم طبيعتها الإقليمية، هذه المدينة، وكانت آنذك خالية من منافسين أقوياء. وأدّى هذا التوسع إلى الاصطدام ببني الأفطس حكام بطليوس، وهم يجاورون إشبيلية من ناحية الشمال، وكان هدف الصراع السيطرة على مدينة باجة. ونجحت القوات الإشبيلية بقيادة إسماعيل بن محمد بن عبَّاد في اقتحامها وذلك في عام (٤٢١ هـ/ ١٠٣٠ م)[2].

ولعل من أشهر أعمال محمد بن عبَّاد، في تلك المرحلة، ادعاءه بظهور الخليفة هشام المؤيد، وقد نصَّبه خليفة في قرطبة، في عام (٤٢٦ هـ/ ١٠٣٥ م)[3] ودعا حكام الطوائف للاعتراف به، مدفوعاً بعاملين:

الأول: إبعاد خطر الحموديين عن مناطق نفوذه، نهائياً، والتحلل من التبعية الاسمية لهم.

الثاني: إضفاء الصبغة الشرعية على حكمه، وتبرير الأعمال التوسعية التي قام وسيقوم بها.

وتقرَّب محمد بن عبَّاد من محمد البرزالي صاحب قرمونة، ليواجه بتحالفه معه قوة الحموديين الطامعين في إشبيلية. وقد أثار هذا التقارب يحيى بن حمود، فهاجم قرمونة وانتزعها من يد صاحبها، فلجأ هذا إلى إشبيلية والتمس مساعدة حليفه، ثم هاجم إشبيلية نفسها، غير أنه فشل في اقتحامها.

جاء رد فعل محمد بن عبَّاد سريعاً، فهاجم قرمونة واقتحمها، وكان يحيى بن حمود بداخلها، فقُتل وهو يدافع عنها. وأعادها ابن عبَّاد إلى صاحبها محمد البرزالي

---

(١) ابن بسام: جـ ٢ ص ٥.

(٢) ابن عذارى: جـ ٣ ص ٢٠٢، ٢٠٣.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٩٧، ١٩٨.

وذلك في عام (محرم ٤٢٧ هـ/ تشرين الثاني ١٠٣٥ م)، غير أنه طمع فيها بعد أعوام قلائل بوصفها حصن إشبيلية من الشرق، فأرسل قوة عسكرية بقيادة ابنه إسماعيل، فحاصرها واستولى عليها كما استولى على عدة مدن تابعة للبرزالي منها إستجَّة[١].

وحتى يواجه قوة حليفه السابق، وخصمه الحالي، طلب محمد البرزالي مساعدة عاجلة من البربر، فهرع لمساعدته كل من إدريس المتأيد، صاحب مالقة، وباديس ابن حبوس، صاحب غرناطة، وكانا يخشيان اندفاع محمد بن عبَّاد وأطماعه. ونجح البربر في اختراق الأراضي الإشبيلية ووصلوا إلى قلعة جابر الواقعة إلى الشرق وهزموا إسماعيل بن محمد بن عبَّاد وقتلوه وذلك في (محرم ٤٣١ هـ/ تشرين الأول ١٠٣٩ م)[٢].

كان لتلك الهزيمة وقع أليم في نفس محمد بن عبَّاد، فتوفي بعد عامين من حدوثها وذلك في (جمادى الأولى ٤٣٣ هـ/ كانون الثاني ١٠٤٢ م)[٣].

عبَّاد بن محمد: المعتضد: (٤٣٣ ـ ٤٦١ هـ/ ١٠٤٢ ـ ١٠٦٩ م): خلف عبَّاد بن محمد أباه محمد بن عبَّاد، وتلقب بالمعتضد بالله. اشتهر بوفرة ذكائه وبوسامته، وأسبغت عليه شهرته بالقريض والغزل المضطرم، والشجاعة والبذخ صورة أمير من أمراء الفروسية[٤].

وإلى جانب هذه الصورة الزاهية، هناك صورة قاتمة في حياته تُعبِّر عن فجوره وقسوته واستهتاره البالغ في الدين وتقلُّبه في معاملة أصدقائه وأفراد حاشيته[٥].

وضع المعتضد خطة أولية للتوسع نحو الغرب وانتزاع مدنه من أيدي حكامه، من الوادي الكبير حتى المحيط الأطلسي، واستهلها بمهاجمة مدينة لبلة، الواقعة غربي إشبيلية، وكانت تحت حكم محمد بن يحيى اليحصبي الملقب بعز الدولة. ولما كان هذا عاجزاً عن صدِّه، تنازل عن حكمها إلى ابن أخيه أبي نصر فتح على أن يعقد الصلح معه ويؤدي له الجزية، وانتقل هو إلى قرطبة ليعيش في كنف محمد بن جهور[٦].

ويبدو أن المعتضد لم يقنع بهذا الحل بدليل أنه نقض الصلح المعقود مع فتح

---

(١) ابن بسام: جـ ١ ص ١٩٤، ١٩٥.
(٢) ابن عذاري: جـ ٣ ص ٢٠٣.
(٣) ابن عذاري: جـ ٣ ص ٢٠٤. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ١٥٠.
(٤) ابن بسام: جـ ٢ ص ١٠، ١٢.
(٥) المصدر نفسه: ص ١٠، ١١.
(٦) ابن بسام: جـ ٢ ص ١٦، ١٧، ١٤٤، ١٤٥. ابن عذاري: جـ ٣ ص ٢٠٩ـ ٢١١، ٢٤٠، ٢٤١.

اليحصبي وهاجم المدينة واقتحمها في عام (٤٤٥ هـ/ ١٠٥٣ م) وأجبره على التنازل له عنها وغادرها فتح إلى قرطبة ليعيش فيها إلى جانب عمه[١].

يُعَدُّ سقوط لبلة في يد المعتضد إيذاناً بسقوط منطقة الغرب كلها بفعل ضعف كياناتها. فهاجم ولبة وجزيرة شلطيش وانتزعهما من يد عبد العزيز البكري، فغادر هذا إلى قرطبة ليعيش في كنف بني جهور[٢].

وتنازل محمد بن سعيد بن هارون للمعتضد مكرهاً عن شنتمرية الغرب الواقعة على المحيط الأطلسي جنوبي البرتغال، وانتزع المعتضد منه مدينة أكشونبة، وذلك في عام (٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م) ولم يبقَ من إمارات غربي الأندلس سوى إمارة شِلب، التي تُعدُّ أهمَّ إمارات الغرب بعد إشبيلية، غير أنها وقعت فريسة سهلة في يد المعتضد حين تنازل له عنها حاكمها محمد بن عيسى تحت الضغط العسكري، كما انتزع منه مدينة باجة، وقتله، وذلك في (شوال ٤٥٥ هـ/ تشرين الأول ١٠٦٣ م)، فانتهت بوفاته دولة بني مرين[٣].

ويبدو أن المعتضد لم يقنع بهذا التوسع نحو الغرب، وطمع في الاستيلاء على الإمارات البربرية الصغيرة في جنوبي البلاد حتى يؤمِّن حدود إمارته في تلك الناحية ويتفرغ للتوسع باتجاه الشمال والشرق. وتنحصر هذه الإمارات في أربع رقع جغرافية هي: إمارة بني يفرن في رندة، وإمارة بني دمَّر في مورور، وإمارة بني خزرون في شذونة وأركش، وإمارة بني برزال في قرمونة، فحاك مؤامرة لأمرائها وقتل ثلاثة منهم أثناء زيارة لهم إلى قصره، وهم أبو نور بن قرة، صاحب رندة، ومحمد بن نوح الدمري، صاحب مورور، وعبدون بن خزرون، صاحب أركش، وضمَّ أراضيهم إلى أملاكه، ولم يلبِّ صاحب قرمونة الدعوة، وقد حدث ذلك بين عامي (٤٥٧ ـ ٤٥٨ هـ/ ١٠٦٥ ـ ١٠٦٦ م)، وكان قد استولى قبل ذلك على الجزيرة الخضراء في عام (٤٤٦ هـ/ ١٠٥٤ م) وانتزعها من أيدي الحموديين[٤].

وهكذا أضحت مملكة إشبيلية، في عهد المعتضد، تضم أراضي الأندلس القديمة، وهي رقعة شاسعة تشمل المثلث الجنوبي من شبه الجزيرة وأرض الفرنتيرة شمالاً حتى شواطىء نهر الوادي الكبير، ثم من منحى هذا الوادي غرباً حتى

---

(١) ابن عذاري: جـ ٣: ص ٢٤٠، ٢٤١.
(٢) ابن بسام: جـ ٢ ص ١٨، ١٤٥.
(٣) المصدر نفسه: ص ١٨.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢٠، ٢١.

البرتغال وشاطىء المحيط الأطلسي، فكانت بذلك أعظم دول الطوائف، وأغناها من حيث الموارد الطبيعية وأقواها عسكرياً.

قطع الخطبة لهشام المؤيد: تعرَّض المعتضد في عام (٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ م)، لمؤامرة حاكها كل من ابنه وولي عهده إسماعيل، ووزيره محمد بن أحمد البزلياني. ويبدو أن الابن كان يحقد على أبيه لأسباب شخصية، غير أنه كشف المؤامرة قبل تنفيذها، فقبض على الرجلين وقتلهما(١).

وقطع المعتضد في عام (٤٥١ هـ/ ١٠٥٩ م) الخطبة لهشام المؤيد بعد أن نعاه أمام وجوه دولته(٢)، وأنه مات بالفعل قبل ذلك، ولكن لم تُعلن وفاته يومئذٍ بفعل الظروف التي كانت سائدة من اشتداد الفتنة والصراع بين الأمراء المتألبين عليه، والمعروف أن هذه هي المرة الرابعة التي تُعلن فيها وفاة هشام المؤيد. فقد أُعلنت لأول مرة إثر حركة محمد بن هشام المهدي بعد استيلائه على السلطة، ودُفن بموجب محضر من العلماء والفقهاء في (شعبان ٣٩٩ هـ/ نيسان ١٠٠٩ م)، وظهر بعد نحو عام على يد الفتى واضح وتولى الخلافة. وتوفي للمرة الثانية قتيلاً على يد سليمان المستعين أو ولده محمد بن سليمان في عام (٤٠٣ هـ/ ١٠١٢ ـ ١٠١٣ م)، ودُفن خفية. ولما استولى علي بن حمود على السلطة في قرطبة، وكان الاعتقاد سائداً بأن هشاماً ما زال حياً، بحث عنه، ولكنه لم يجده، فأعلن عندئذٍ عن وفاته ودعا لنفسه بالخلافة وذلك في عام (٤٠٧ هـ/ ١٠١٦ م). وعندما ظهر القاضي ابن عبَّاد على المسرح السياسي في عام (٤٢٦ هـ/ ١٠٣٥ م) أعلن ظهور هشام المؤيد ودعا له، ليضفي على حكمه صبغة شرعية أمام دعاوى بني حمود.

وفاة المعتضد: توفي المعتضد في (٢ جمادى الآخرة ٤٦١ هـ/ ٢٩ آذار ١٠٦٩ م) بسبب نوبة قلبية، وفي رواية أن حزنه العميق على ابنته الحسناء طاهرة قد عجَّل بموته(٣).

محمد المعتمد: (٤٦١ ـ ٤٨٤ هـ/ ١٠٦٩ ـ ١٠٩١ م)

إنجازات المعتمد السياسية: خلف المعتضد بن عبَّاد ابنه محمد، الملقب بالظافر

---

(١) ابن عذارى: جـ ٣ ص ٢٤٨، ٢٤٩.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٤٩.
(٣) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان جـ ٥ ص ٢٤. وقارن بابن عذارى: جـ ٣ ٢٨٣، ٢٨٤.

والمؤيد بالله، والمعتمد على الله، وهو اللقب الذي غلب عليه واشتهر به. كان فتى في الثلاثين من عمره، وهو كأبيه جمع في شخصه صفات مشرقة وأخرى قاتمة.

لم يواجه المعتمد خلال حياته السياسية من يخشاه من ملوك الطوائف الذين حطَّمتهم الحروب الداخلية أو غزوات النصارى، باستثناء أمير طليطلة. ولعل أول عمل سياسي قام به هو تدخله في أحداث قرطبة بناءً على طلب عبد الملك بن جهور عندما هدَّدها طوفان المأمون بن ذي النون أمير طليطلة، فدخلت قواته المنتصرة المدينة وقضت على أسرة بني جهور وضمَّتها إلى دولة إشبيلية، وذلك في عام (٤٦٢ هـ/ ١٠٧٠ م) وعين المعتمد ابنه عبَّاداً حاكماً عليها[١].

وتركَّز الصراع بين الرجلين في عام (٤٦٥ هـ/ ١٠٧٣ م) حول أملاك العامريين في تدمير ومرسية، وأسفر عن ضمِّ المأمون مرسية وأريولة وعدة مدن أخرى بحيث أضحى يسيطر على أواسط الأندلس، أي ما يعادل ثلث أراضيها، وحتى يضيِّق الخناق على المعتمد، تصرف على محورين:

الأول: أرسل جيوشه إلى نواحي سرقسطة وبطليوس لمراقبة تحركات بني هود وبني الأفطس حلفاء المعتمد.

الثاني: تحالف مع ألفونسو السادس ملك قشتالة.

وهاجم المأمون، في عام (٤٦٧ هـ/ ١٠٧٤ م)، قرطبة واستولى عليها، وأصيب حاكمها عبَّاد بجراح مميتة، ثم هاجم إشبيلية نفسها في العام التالي واقتحمها مستغلاً غياب المعتمد مع معظم وحدات الجيش في مهمة للاستيلاء على مالقة، إلا أنه ارتكب خطأً سياسياً وعسكرياً فادحاً حين لم يقض عليه، الأمر الذي أتاح لهذا الأخير أن يقوِّي موقفه ويتوسع على حساب بني حمود وبني باديس، فانتزع جيان والجزيرة الخضراء ومالقة، وبعض القرى من عبد الله بن بلكين صاحب غرناطة، كما استعاد قرطبة بعد وفاة المأمون في (ذي الحجة ٤٦٧ هـ/ تموز ١٠٧٥ م) وحاز على معظم أراضي مملكة طليطلة الجنوبية الشرقية من المعدن شرقاً حتى قونقة، واستولى على مرسية وبلنسية من يحيى القادر بالله، حفيد المأمون وخليفته[٢].

لم يطمئن المعتمد، على الرغم من هذا التوسع، على أوضاعه ما دام في وسع يحيى القادر أن يعتمد على ملك قشتالة، لذلك كان لا بد من التفريق بين الرجلين،

---

(١) ابن بسام: جـ ٢ ص ١٦٤، ١٦٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٦٤ـ ١٦٦.

ولو أنه استقطب ألفونسو السادس ودفعه إلى تهديد طليطلة، لكان من المحقَّق أن يسحق الإمارتين الباقيتين، وهما إمارة بني باديس في غرناطة وإمارة بني الأفطس في بطليوس، ثم إن بني هود في سرقسطة لا بد أن يخضعوا لسلطانه لأنهم محاطون بالأعداء من كل صوب، فأرسل مفاوضه البارع محمد بن عمار إلى ليون، فأجرى مفاوضات مع ألفونسو السادس انتهت إلى عقد معاهدة تحالف بين الجانبين، وأهم ما جاء فيها:

ـ يساعد ملك قشتالة المعتمد، في حروبه ضد سائر أعدائه من الأمراء المسلمين، ويمدُّه بالجند المرتزقة.

ـ يؤدي المعتمد للملك القشتالي جزية سنوية كبيرة.

ـ يُسمح للمعتمد بغزو أراضي مملكة طليطلة الجنوبية على أن يُسلِّم منها إلى الملك القشتالي الأراضي الواقعة شمالي جبال سيراموريتا ـ الشارات.

ـ لا يعترض المعتمد على مشروع ألفونسو السادس القاضي بالاستيلاء على طليطلة.

وهكذا ضحَّى المعتمد بمعقل إسلامي مهم لكي يفوز بإمارات لم تخضع له بعد، وهذا خطأ سياسي جسيم يضاف إلى أخطائه، ودلالة على استهتاره نحو أمته ودينه. ولم يستفق إلا عندما استولى ألفونسو السادس على طليطلة. وكان يشهد تطور هذه المأساة جامداً، بالإضافة إلى إلحاح الملك القشتالي عليه بدفع الجزية، وقد أرهقه بطلباته المتكررة، بل أنه هاجم أراضيه للضغط عليه. وهنا أدرك فداحة الخطأ الذي تردّى فيه، ولم يرَ مخرجاً من هذا المأزق إلا الاستعانة بقوة خارجية في عدوة المغرب. فطلب المساعدة من يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين، ويرتبط تاريخ إشبيلية ومصير المعتمد بعد ذلك بالتطور الذي سوف يطرأ على الأندلس بعد دخول المرابطين.

دولة بني ذي النون في طليطلة: (٤٢٧ ـ ٤٧٨ هـ/ ١٠٣٦ ـ ١٠٨٥ م)

إسماعيل بن ذي النون: الظافر: (٤٢٧ ـ ٤٣٥ هـ/ ١٠٣٦ ـ ١٠٤٣ م): تكمن أهمية دولة بني ذي النون في طليطلة وأعمالها في ضخامة مساحتها، وموقعها على المشارف الشمالية والوسطى للأندلس، وكانت تُعرف منذ الفتح الإسلامي بالثغر الأوسط لمتاخمة حدودها للممالك النصرانية في الشمال، فشكّلت بذلك حاجزاً للدولة الإسلامية في تلك الناحية. فقد امتدت من قورية وترجالة شرقي دولة

بطليوس، نحو الشمال الشرقي حتى قلعة شنتبرية الشرق، وجاورت دولة بني هود في الثغر الأعلى من ناحية الجنوب الغربي، وتجاوزت نهر تاجُه في الشمال الشرقي حتى تاخمت حدود قشتالة، وجاورت قرطبة في الجنوب الغربي. وأهم مدنها طليطلة وسالم ووادي الحجارة وقونقة وبذة وأقليش وطلبيرة وترجالة وغيرها.

لم يتغير الوضع الميداني لهذه الرقعة الجغرافية بقيام دولة بني ذي النون على أراضيها بعد انهيار الخلافة الأموية. وهذه الأسرة من أصل بربري من قبائل هوارة، كان أفرادها يتوارثون الزعامة في شنتبرية[1].

وكانت طليطلة قد غرقت بالفوضى عقب انهيار الخلافة الأموية، فقرَّر سكانها التخلص من زمرة الأمراء المتغلبين، فالتمسوا المساعدة من عبد الرحمن بن ذي النون ووعدوه بتسليمه المدينة، فأرسل إليهم ابنه إسماعيل في عام (٤٢٧ هـ/ ١٠٣٦ م)، فدخلها وتلقَّب بالظافر، وتوسَّع ملكه، فامتد حتى قونقة وجنجالة، وعيَّن كبير الجماعة أبا بكر يحيى بن سعيد الحديدي مستشاراً له[2].

يحيى بن إسماعيل: المأمون: (٤٣٥ ـ ٤٦٧ هـ/ ١٠٤٣ ـ ١٠٧٥ م): توفي إسماعيل في عام (٤٣٥ هـ/ ١٠٤٣ م) وخلفه ابنه يحيى الملقب بالمأمون[3]، فسار على خطى والده في الحكم، إلا أن عهده لم يكن كعهد والده من حيث الهدوء، فقد دبَّ النزاع بينه وبين سليمان المستعين بن هود صاحب سرقسطة، والمعتمد بن عبَّاد صاحب إشبيلية وابن الأفطس حاكم بطليوس.

تركَّز النزاع مع سليمان المستعين بن هود في المناطق الحدودية، وكانت سلسلة المدن والقلاع الحصينة الممتدة بين الثغر الأعلى وبين مملكة طليطلة بدءاً بقلعة أيوب حتى وادي الحجارة؛ أماكن هذا الاحتكاك، الذي اتخذ بُعداً خارجياً بفعل التماس كل طرف المساعدة من الملوك النصارى. فتحالف المأمون في بداية الصراع مع فرديناند الأول ملك قشتالة قبل أن يستقطبه سليمان المستعين ويخرجه من التحالف، فتحول إلى أخيه غرسية ملك نبرَّة وتحالف معه[4].

استمر النزاع المسلح بين هذين الأميرين مدة ثلاثة أعوام (٤٣٥ ـ ٤٣٨ هـ/ ١٠٤٣ ـ ١٠٤٦ م)، وتوقف بوفاة سليمان المستعين بن هود، ونتج عنه استباحة

---

(١) ابن عذاري: جـ ٣ ص ٢٧٦، ٢٧٧. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ١٧٦، ١٧٧.

(٢) ابن عذاري: المصدر نفسه. ابن بسام: جـ ٤ ص ٩١.

(٣) ابن بسام: المصدر نفسه.

(٤) ابن عذاري: جـ ٣ ص ٢٧٧، ٢٧٨.

النصارى لأراضي الدولتين الإسلاميتين، فانهارت خطوط الدفاع، وساءت أوضاع السكان المسلمين.

كان المأمون يخشى من ازدياد قوة المعتضد بن عبَّاد بعد حروبه الناجحة ضد بني حمود، وانضمام معظم الأمراء العامريين إليه فقرَّر تحجيم قوته، ودعا صهره هشام المعتمد بن عبد العزيز بن أبي عامر إلى مساعدته، إلا أنه اعتذر بحجة التفاف العامريين حول صاحب إشبيلية، وأن إقدامه على هذه الخطوة يشكل خطراً على بلنسية.

الواضح أن المأمون لم يقتنع بحجة صهره، وخشي من انضمامه إلى المعتضد، فهاجم بلنسية بمساعدة فرديناند الأول ملك قشتالة واستولى عليها، واعتقل صهره وذلك في عام (٤٥٧ هـ/ ١٠٦٥ م)، وعاد إلى طليطلة بعد أن نظَّم أوضاع المدينة ليستعد لمحاربة ابن عبَّاد[١]، لكن حالت من دون ذلك بعض التطورات على الساحة النصرانية. ذلك أن الملك فرديناند الأول توفي بعد بضعة أشهر من عودته من بلنسية، فاقتسم أبناؤه الثلاثة مملكته، ونشبت بينهم حروب شديدة. فانتهز المأمون هذه الفرصة وتوقف عن دفع الجزية التي كان قد تعهد بدفعها إلى الملك القشتالي المتوفى، الأمر الذي حرمه من القوة النصرانية التي بدونها لم يكن باستطاعته لقاء أمير إشبيلية عسكرياً، وتوفي في (ذي القعدة ٤٦٧ هـ/ تموز ١٠٧٥ م)[٢].

يُعدُّ المأمون بن ذي النون من أعظم ملوك الطوائف وأطولهم عهداً، وازدهرت طليطلة في عهده وعمَّها الرخاء، وامتازت قصوره التي بناها بفخامتها وروعتها، كما اشتهر مجلسه المسمى «المكرم» وهو آية في الروعة والبهاء، ما أذهل المؤرخ ابن حيان الذي شهد فيه إحدى حفلات المأمون الباذخة[٣].

يحيى بن إسماعيل بن يحيى: القادر: (٤٦٧ ـ ٤٧٨ هـ/ ١٠٧٥ ـ ١٠٨٥ م): خلف المأمون، حفيده يحيى بن إسماعيل بن يحيى، وتلقَّب بالقادر. كان ضعيف الشخصية، قليل الحنكة السياسية، وقع تحت تأثير العبيد والموالي، وأطلق سراح جماعة من أعيان طليطلة كان المأمون قد اعتقلهم بإيعاز من ابن الحديدي، فأوغروا صدره عليه، فقتله، وظنَّ بعد هذه الجريمة أنه تخلَّص من نفوذ وزيره، لكنه لم يلبث أن أدرك فداحة ما ارتكبه من خطأ حين وقع فريسة سهلة في أيدي هذه الجماعة التي

---

(١) ابن عذارى: جـ ٣ ص ٢٦٦، ٢٦٧.

(٢) ابن الخطيب: جـ ٢ ص ١٧٧.

(٣) ابن بسام: جـ ٤ ص ٩٢، ٩٣.

تولت قتل ابن الحديدي، وهم الذين حقدوا عليه، كما حقدوا على جده المأمون من قبل، وبدأ هؤلاء يحيكون الدسائس للتخلص منه[١].

وتعرَّض يحيى القادر، في هذا الوقت، لضغط جيرانه ملوك الطوائف، كما واجه ثورة عاتية تزعمها أبو بكر بن عبد العزيز في بلنسية، فخلع طاعته واستقل بحكمها، وكادت كارثة ثالثة تحل به حين هاجم شانجة راميرو، ملك أراغون، مدينة قونقة، لولا أن افتداها سكانها بمبلغ كبير من المال[٢].

وحتى يخفِّف الضغط الواقع عليه، التمس مساعدة ألفونسو السادس مقابل التنازل له عن بعض الحصون الحدودية، منها سرتة وقنتورية وقنالش، بالإضافة إلى دفع الجزية، فتجرَّدت طليطلة من حصونها الأمامية في الوقت الذي كان أعداؤه يأتمرون به في الداخل، ونجحوا في إشعال الثورة في عام (٤٧٢ هـ/ ١٠٧٩ م)، ففرَّ من المدينة ولجأ مع أسرته إلى حصن وبذة. وألفى سكان طليطلة أنفسهم بلا أمير حاكم في الوقت الذي استفحلت الفوضى في أرجاء المدينة، فتشاور أعيانها فيمن يحكمهم من ملوك الطوائف، واستقر رأيهم على دعوة عمر المتوكل بن الأفطس، ووافق هذا، بعد تردُّد، على قبول الدعوة[٣].

وغادر يحيى القادر، في غضون ذلك، حصن وبذة إلى مدينة قونقة، والتمس مساعدة ألفونسو السادس، فأمدَّه بقوة عسكرية قادها بنفسه، وهو ينوي اقتناص الفرصة للنيل من المسلمين جميعاً. وهاجمت القوات القشتالية مدينة طليطلة وأجبرت عمر المتوكل على مغادرتها، وأعاد ألفونسو السادس يحيى القادر إلى الحكم، إلا أنه انتهج سياسة تهدف إلى الاستيلاء على المدينة، وقد نجح في ذلك، وهذا ما سنبحثه في العلاقات بين ملوك الطوائف والممالك النصرانية[٤].

دولة بني زيري في غرناطة ومالقة: (٤٠٣ ـ ٤٨٣ هـ/ ١٠١٢ ـ ١٠٩٠ م)

ذكرنا، من قبل، ما أقدم عليه الخليفة سليمان المستعين حين وزَّع البربر على الكور والثغور، فكان نصيب زاوي بن زيري، أحد زعماء البربر، كورة إلبيرة، فأقام فيها مع قومه واتخذ من مدينة إلبيرة عاصمة له. ويبدو أن طبيعة المدينة الجغرافية لم تكن تصلح للدفاع عنها، فاختار موقعاً آخر في السهل الواقع على مقربة منها في

---

(١) ابن بسام: جـ ٤ ص ٩٤ـ ٩٦.

(٢) المصدر نفسه: ص ٩٦، ٩٧.

(٣) المصدر نفسه: ص ٩٧ـ ٩٩.

(٤) المصدر نفسه: ص ٩٩ـ ١٠١.

وادي شنيل المنحدر من جبل الثلج على نهر دارُّو، واستحدث في هذا المكان مدينة وجعلها قاعدة لسلطانه وعاصمة لملكه، هي غرناطة(١).

تأثر بنو زيري بما كان يجري على أرض الأندلس من تطورات داخلية، وكانت لزاوي وقائع مع الخليفة عبد الرحمن المرتضى، فهزمه في عام (٤٠٩ هـ/ ١٠١٨ م) وقتله، وردَّ فلوله إلى قرطبة. ويبدو أن الزعيم البربري لم يرَ في نتيجة المعركة انتصاراً له ولقومه، وخشي من رد فعل الأندلسيين الذين لن يتورَّعوا عن محاربة البربر حتى يقضوا عليهم أو يجبروهم على الخروج من البلاد، أو أنه طمع بعرش القيروان بعد وفاة الملك باديس، وتولية ابنه الطفل المعز. ونتيجة لهذا التفكير السياسي، قرَّر مغادرة الأندلس إلى المغرب على الرغم من معارضة ابنه بلكين ووجوه قومه، فخرج من غرناطة في عام (٤١٠ هـ/ ١٠١٩ م) وعبر المضيق من المنكَّب حاملاً أمواله وذخائره(٢).

خلف زاوي ابنُ أخيه حبوس بن ماكسن إما بعهد منه أو أن القاضي ابن أبي زمنين اختاره وعيَّنه خلفاً لعمه. اشتهر بحسن السياسة والتدبير، ونعمت غرناطة في عهده بالهدوء والاستقرار، وتوسَّعت عندما ضمَّ قبرة. واتبع في سياسته الخارجية منطق المسالمة تجاه جيرانه، وقامت سياسته الداخلية على الشورى، وتوفي في عام (٤٢٨ هـ/ ١٠٣٧ م)(٣).

وخلف حبوس ابنه باديس، ويُعدُّ من أقوى حكام هذه الدولة وأوفرهم حظاً بالسياسة والنهوض بأعباء الحكم. وجرياً على عادة ملوك الطوائف، دخل باديس في صراع مع زهير العامري حاكم المرية بسبب:

- التجاء محمد بن عبد الله، زعيم زناتة، وعدو باديس، إلى زهير العامري.
- طمع زهير العامري في التوسع على حساب غرناطة عقب وفاة حبوس.

وجرى قتال بين الطرفين انتهى لمصلحة باديس الذي ضمَّ القسم الغربي من أراضي المرية المتاخمة لأراضيه ومنها جيان وأعمالها، وقسماً من أراضي كورة قرطبة الجنوبية(٤).

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة جـ ١ ص ١٣، ٤٠، ٤١.

(٢) ابن عذارى: جـ ٣ ص ١٢٥ـ ١٢٩، مذكرات الأمير عبد الله، المسماة التبيين: ص ٢٤.

(٣) ابن عذارى: جـ ٣ ص ١٩١، ٢٦٤.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٩١. ابن الخطيب: جـ ١ ص ٢٤١.

واتسمت علاقة باديس ببني عبَّاد بالعدائية بسبب خشيته من أطماع هذه الأسرة بجنوبي الأندلس، وتسابق الطرفان لكسب مناطق النفوذ على حساب الحموديين. ونجح باديس بالقضاء على هذه الأسرة وانتزع منها الجزيرة الخضراء في عام (٤٤٦ هـ/ ١٠٥٤ م) ومالقة في العام التالي، غير أن سكان هذه المدينة الذين سئموا حكم البربر، بفعل النزاعات الداخلية بينهم؛ التمسوا المساعدة من المعتضد بن عبَّاد للتخلص منهم، فأرسل إليهم حملة عسكرية بقيادة ابنيه جابر والمعتمد، لكن الحملة فشلت في تحقيق الهدف، وتعرَّض الجيش الإشبيلي لهزيمة قاسية، وفرَّ ابنا المعتضد إلى رندة، وذلك في عام (٤٥٨ هـ/ ١٠٦٦ م)[١].

استمر النزاع بين الطرفين أعواماً أخرى تبودلت خلالها السيطرة على المناطق العديدة، منها قاعدة أركش، وبسط بنو عبَّاد نفوذهم على سائر منطقة شذونة. وعلى الرغم من ذلك، بدت دولة بني زيري في عهد باديس أقوى دول الطوائف، إذ امتدت من بسطة شرقاً حتى إستجَّة ورندة غرباً، ومن بياسة وجيان شمالاً حتى البحر جنوباً، وكانت مسؤولة عن حماية الإمارات البربرية بعامة. وورث باديس الصراع القديم بين البربر وبين سائر العصبيات الأندلسية الأخرى وبخاصة العربية. ودفعت به هذه النزعة العصبية إلى الإقدام على اتخاذ قرارات خطيرة أحياناً، من ذلك، أنه خطَّط للتخلص من رعاياه الأندلسيين في غرناطة، والمعروف أنهم عرب، لولا أن حذَّره وزيره اليهودي يوسف بن نعزالة من عواقب عمله[٢].

وحصَّن باديس مدينة غرناطة التي غدت، منذ ذلك الحين، من أهم قواعد الأندلس الجنوبية، وبنى قصبة فوق أنقاض قلعتها القديمة سُمِّيت باسمها القديم القلعة الحمراء، وأنشأ جيشاً قوياً، ووطَّد أركان الدولة، ونظَّم مراتبها وعمالاتها.

توفي باديس في عام (٤٦٥ هـ/ ١٠٧٣ م) وخلفه حفيده عبد الله بن بلكين، وكان صبياً حدثاً، فتولى الوزير سماجة تسيير أمور الدولة ورعاية الصبي، وهو أحد شيوخ صنهاجة المرهوبي الجانب[٣]، ودخلت غرناطة في عهده في صراع مع إشبيلية بسبب طموح المعتمد بن عبَّاد بضمِّ أراضي دول الطوائف، والتمس كل طرف المساعدة من ألفونسو السادس، ملك قشتالة، مما سنشرحه في حديثنا عن علاقات دول الطوائف بالممالك النصرانية.

---

(١) ابن عذارى: جـ ٣ ص ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٧٣، ٢٧٤.

(٢) ابن الخطيب: جـ ١ ص ٢٤١، ٢٤٢.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٨٩.

التفت عبد الله بن بلكين بعد ذلك إلى تنظيم أوضاع دولته، فعزل الوزراء والولاة الذين استأثروا بالسلطان واشتهروا بالظلم والقسوة في معاملة الناس، ومنهم الوزير سماجة، وعيَّن مكانهم رجالاً ظنَّ فيهم العدل وحسن السيرة.

وتعرَّضت غرناطة خلال عهده إلى صراع أُسري وبدأت أوضاعها بالتفسخ. فقد نازعه أخوه تميم واستقل بحكم مالقة وأعمالها وتلقَّب بالمنتصر بالله، واستمر حكم عبد الله حتى دخول المرابطين مدينة غرناطة في عام (٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠ م)[١].

دولة بني الأفطس في بطليوس: (٤١٣ ـ ٤٨٨ هـ/ ١٠٢٢ ـ ١٠٩٥ م)

تقع مملكة بطليوس إلى الشمال من مملكة إشبيلية، تفصل بينهما جبال الشارات، وهي رقعة كبيرة تمتد من غربي طليطلة عند مثلث نهر آنة حتى المحيط الأطلسي، أي أنها تشمل أراضي البرتغال كلها تقريباً وتتوسطها العاصمة بطليوس. وتكمن نقطة الضعف فيها، على الرغم من مناعتها، تباعد مدنها وتوزُّعها في الجنوب والشرق.

حكم بنو مسلمة، أو بنو الأفطس، هذه المملكة ما يزيد على سبعين عاماً، وينتمون إلى إحدى قبائل مكناسة المغربية، على الرغم من أنهم يرجعون نسبهم إلى بني تجيب. ووزِر جدهم عبد الله بن محمد لسابور الفارسي، أحد فتيان فائق مولى الحكم المستنصر، واستبدَّ بالحكم بعد وفاته في عام (٤١٣ هـ/ ١٠٢٢ م)، متجاوزاً ولديه الصغيرين عبد الملك وعبد العزيز[٢]. وبوصفه جاراً لمملكة إشبيلية فقد دخل في صراع مع القاضي محمد بن عبَّاد من أجل السيطرة على باجُه التي كانت من نصيب عبد الله بن محمد.

توفي عبد الله بن محمد في عام (٤٣٧ هـ/ ١٠٤٥ م) وخلفه ابنه محمد وتلقَّب بالمظفر[٣]، وسار على نهجه في الحكم وفي النظرة السياسية المعادية لبني عبَّاد. والواقع أن الطرفين اصطدما في عدة معارك حول لبلة وفي وادي آنة وصولاً إلى يابرة، حتى تدخل أبو الوليد بن جهور بينهما وأقنعهما بالتفاهم وحقن الدماء، وذلك في (ربيع الأول ٤٤٣ هـ/ تموز ١٠٥١ م)، كما دخل في صراع مع المأمون بن ذي النون بسبب طمع هذا بضم بطليوس، وتعرَّض أيضاً لهجمات النصارى على أطراف دولته[٤].

---

(١) ابن الخطيب: جـ ٣ ص ٢٩٠، ٢٩١.
(٢) ابن عذاري: جـ ٣ ص ٢٣٥، ٢٣٦.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٣٦.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢٣٧.

ولا بد لنا، في هذا المقام، من أن نشير إلى النشاط الفكري الذي اشتهر في عهده بفعل حبِّه وتشجيعه للعلم، ولا غرو في ذلك فقد كان هو نفسه من أهل العلم، شغوفاً بالشعر والأدب ويتمتع بقدرة فائقة على النقد، وألَّف موسوعة أدبية وتاريخية ضخمة عُرفت باسم المظفري، نسبة إلى لقبه[1].

توفي محمد بن عبد الله في عام (٤٦٠ هـ/ ١٠٦٧ م) وخلفه ابنه يحيى الملقب بالمنصور، ونازعه أخوه عمر حاكم يابرة، وتوفي يحيى فجأة في عام (٤٦١ هـ/ ١٠٦٨ م)، فانفرد عمر بالسلطة، فدخل مدينة بطليوس وتلقَّب بالمتوكل على الله، وعيَّن ابنه العباس حاكماً على يابرة[2].

لعل أشهر الأحداث السياسية في عهد عمر المتوكل ما جرى من دخول طليطلة في فلك دولة بني الأفطس، وانتقاله إليها في عام (٤٧٢ هـ/ ١٠٧٩ م)، مما شرحناه آنفاً. والمعروف أن بني الأفطس بعامة كانت تحدوهم الرغبة في السيطرة على طليطلة لأسباب عسكرية، فهي أكثر تحصيناً من بطليوس، كما أن أسوارها أكثر متانة من أسوار بطليوس التي تغمرها مياه وادي آنة، وباستطاعتها أن تصدَّ هجوماً واسع النطاق يمكن أن يشنَّه الملك القشتالي، ومع ذلك، انتقل إليها عمر المتوكل متثاقلاً وهو كاره، غير أنه لم يمكث فيها أكثر من عشرة أشهر، اضطر بعدها إلى الفرار منها بعد ورود أنباء عن اقتراب يحيى القادر منها بمساعدة ألفونسو السادس، وعاد إلى بطليوس.

وتعرَّض عمر المتوكل بعد عودته إلى عاصمته لضغط من ألفونسو السادس الذي طمع في الاستيلاء على مملكته، ما سنبحثه في علاقات ملوك الطوائف بالممالك النصرانيَّة.

دولة سرقسطة: (٤٠٨ ـ ٥١٢ هـ/ ١٠١٧ ـ ١١١٨ م)

في عهد بني تجيب: (٤٠٨ ـ ٤٣٠ هـ/ ١٠١٧ ـ ١٠٣٩ م): تُعدُّ دولة سرقسطة، أو الثغر الأعلى، من أكبر دول الطوائف مساحة، وتتميز، فضلاً عن ذلك، بموقعها الدقيق والخطر، المتاخم لدول الممالك النصرانية، فهي دولة ثغرية بين قطلونية من الشرق ونبرَّة من الشمال الغربي وقشتالة من الجنوب الغربي، ويحتم عليها موقعها هذا أن تبقى في جهوزية دائمة.

---

(١) المراكشي: ص ٥٦. ابن الخطيب: أعمال الأعلام: جـ ٢ ص ١٨١.

(٢) ابن الخطيب: المصدر نفسه: ص ١٨٢.

استولى بنو تجيب، بزعامة محمد بن عبد الرحمن، المعروف بالأنقر، على سرقسطة، وأقرَّه الأمير عبد الله بن محمد على حكمها بهدف استقطابه. وتولى يحيى ابن عبد الرحمن حاكمية هذا الثغر في عام (٣٧٩ هـ/ ٩٨٩ م) بإقرار من الحاجب المنصور، وظل في الحكم حتى وفاته في عام (٤٠٨ هـ/ ١٠١٧ م)، فخلفه ابنه المنذر الذي يُعدُّ أقوى حكام هذه الدولة، وتلقَّب، كغيره من ملوك الطوائف، بالألقاب السلطانية، فتسمَّى بذي الرئاستين والمنصور، كما حمل لقب الحاجب، وعُرِف عنه أنه وصولي[١].

وانغمست هذه الدولة في الأحداث الجارية على الساحة الأندلسية، فساند المنذر الأندلسيين في حربهم ضد البربر في عام (٤٠٩ هـ/ ١٠١٨ م)، ومع خسارة الأندلسيين، أدرك أنه يساند قضية خاسرة، فتطلع إلى ميدان آخر لنشاطه يمكن أن يحقق طموحه[٢].

وكانت بلنسية تشهد، آنذاك، صراعاً داخلياً على السلطة بفعل تنافس الصقالبة، الأمر الذي دفع سكانها إلى استدعاء المنذر ليحكمهم، فصدَّه الفتى مجاهد. واستمر الصراع بينهما حتى تمَّ اختيار عبد العزيز بن عبد الرحمن شنجول حاكماً على المدينة في عام (٤١١ هـ/ ١٠٢١ م)، فانسحب المنذر عائداً إلى سرقسطة[٣].

ورأى المنذر، ببعد نظره وحنكته ومرونة تفكيره السياسي، أن مصلحة بلاده تقضي بالتقرب من جيرانه النصارى، فارتبط مع كل من رامون، أمير برشلونة، وشانجة الكبير، ملك نبرَّة وابنه فرديناند الأول، ملك قشتالة، وألفونسو الخامس، ملك ليون؛ بعلاقات طيبة، وتمادى في صداقته لهم حتى سخطت عليه العامة واتَّهمته بالخيانة، إلا أنه جنَّب بلاده ويلات الحروب وخسارة الأراضي، في الوقت الذي كانت فيه الغارات النصرانية تجتاح الأراضي الإسلامية جنوباً حتى الجزيرة الخضراء وطريف، ولم يدرك الناس ذلك إلا بعد وفاته[٤].

إن الروايات القليلة التي وصلت إلينا عن تاريخ هذه الأسرة، بعد ذلك، يناقض بعضها بعضاً، فبعضها يذكر بأن حكم المنذر بن يحيى انتهى بموته في عام (٤١٤ هـ/ ١٠٢٣ م)، وخلفه في الحكم ابنه يحيى الملقب بالمظفر، فاستمر في الحكم

---

(١) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٦٣.

(٢) ابن بسام: جـ ١ ص ١١٢ـ ١١٤. ابن عذارى: جـ ٣ ص ١٢٦.

(٣) ابن عذارى: جـ ٣ ص ١٦٤ـ ١٦٦.

(٤) ابن بسام: جـ ١ ص ١١٢ـ ١١٤.

حتى عام (٤٣١ هـ/ ١٠٣٩ ـ ١٠٤٠ م) حين انتزع سليمان بن هود الحكم منه وقتله[١]. وتُغفل روايات أخرى ذكر المظفر هذا وتذكر أن منذراً استطال حكمه حتى (ذي الحجة ٤٣٠ هـ/ أيلول ١٠٣٩ م) حين اغتاله ابن عم له يدعى عبد الله بن حكيم، وقد خلفه في الحكم[٢].

والراجح من سياق الروايات المختلفة والمتناقضة أن المنذر بن يحيى توفي في عام (٤١٤ هـ/ ١٠٢٣ م) وخلفه ابنه يحيى الملقب بالمظفر، وقد خالف سياسة والده في علاقاته الطيبة مع جيرانه النصارى ما عرَّضه لغارات رامون، أمير برشلونة، الذي انتزع منه بعض الحصون المهمة، وتوفي في عام (٤٢٠ هـ/ ١٠٢٩ م)، فخلفه ابنه المنذر الثاني الذي تلقَّب بمعز الدولة، ولا تذكر روايات المصادر ما جرى في أعوام حكمه العشرة باستثناء تفاصيل اغتياله في (ذي الحجة ٤٣٠ هـ/ أيلول ١٠٣٩ م) على يد ابن عم له يدعى عبد الله بن حكيم الذي خلفه في الحكم.

ويبدو أن عبد الله هذا كان مكروهاً، وتعرَّض لسخط العامة الذين استدعوا سليمان بن هود، فقدم من مدينة لاردة وانتزع الحكم من يد عبد الله بن حكيم في (أول محرم ٤٣١ هـ/ ٢٣ أيلول ١٠٣٩ م)[٣].

في عهد بني هود: (٤٣١ ـ ٥١٢ هـ/ ١٠٣٩ ـ ١١١٨ م): انتشر نبأ اغتيال المنذر ابن يحيى في كافة أنحاء الأندلس، فهرع خاله إسماعيل بن ذي النون صاحب طليطلة إلى سرقسطة، للإمساك بزمام الأمور فيها، في ظل اشتداد الفوضى وبروز بوادر فتنة، لكن سبقه سليمان بن محمد بن هود الجذامي، أحد كبار القادة العسكريين في الثغر الأعلى والمتغلب على لاردة وتطيلة، فدخل المدينة في (أول محرم ٤٣١ هـ/ ٢٣ أيلول ١٠٣٩ م) واستولى عليها، وتلقَّب، كغيره من ملوك الطوائف، بالألقاب السلطانية، فاتخذ لقب المستعين بالله. وتميزت أعوام حكمه بالصراع المرير مع المأمون بن ذي النون، وتركَّز في المنطقة الحدودية بين الدولتين حول مدينة وادي الحجارة، واستعان كل طرف بالنصارى ضد خصمه مقابل دفع

---

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٦٣٣. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٦٣.

(٢) ابن بسام: جـ ١ ص ١١٤. ابن عذارى: جـ ٣ ص ١٧٥ ـ ١٨١. يذكر ابن عذارى في مكان آخر أن آخر أمراء بني تجيب هو يحيى المنذر الذي تسمى بالحاجب وبمعز الدولة، وهو الذي قتله ابن عمه عبد الله بن حكيم. ص ٢٢١، ٢٢٢.

(٣) ابن عذارى: جـ ٣ ص ١٨٠، ١٨١.

الأموال. فتحالف سليمان المستعين مع فرديناند الأول، ملك قشتالة، والتمس المأمون بن ذي النون مساعدة غرسية ملك نبرَّة. واستمر هذان الزعيمان النصرانيان يغذيان الفتنة ويعملان على التفرقة حتى وفاة سليمان المستعين في عام (٤٣٨ هـ/ ١٠٤٦ م)[١].

قسَّم سليمان المستعين، قبل وفاته، أراضي دولته بين أولاده الخمسة مرتكباً خطأً سياسياً، لأن هذا التقسيم انعكس سلباً على أوضاع الدولة. فولَّى ابنه أحمد العاصمة سرقسطة، ويوسف مدينة لاردة، ومحمد قلعة أيوب، ولب مدينة وشقة، والمنذر مدينة تطيلة، فاستقل هؤلاء، كلٌّ، بولايته وطمع في ضمِّ أملاك إخوته، وعلى هذا الشكل بدأ النزاع بينهم[٢].

كان أحمد، الملقب بالمقتدر، أقدر هؤلاء الإخوة وأشدهم طموحاً، فقبض على ثلاثة من إخوته هم محمد ولب والمنذر، وسجنهم واستولى على إقطاعاتهم، الأمر الذي أثار العامة عليه بالإضافة إلى أخيه يوسف، وخرجت معظم المدن على طاعته وانحصر في العاصمة، غير أنه استطاع، بما بذله من جهد، أن يستردها[٣]، واستولى على طرطوشة في عام (٤٥٢ هـ/ ١٠٦٠ م)[٤] منهياً بذلك حكم الصقالبة في هذا الثغر الذي يُعدُّ منفذ سرقسطة إلى البحر إذا استثنينا ثغر طركونة، وانتزع دانية من صهره علي إقبال الدولة، في عام (٤٦٨ هـ/ ١٠٧٦ م)[٥]، منهياً بذلك حكم الدولة المجاهدية، فغدت سرقسطة، بعد تلك الضمائم، أعظم دول الطوائف من حيث الرقعة الجغرافية، وقد مهَّد لها هذا الامتداد إلى الشرق أن تتطلَّع إلى ضمِّ بلنسية.

تميز أحمد المقتدر، الذي توفي في عام (٤٧٥ هـ/ ١٠٨٢ م)، بمقدرة سياسية وعسكرية عالية، على أن مشروعاته وتصرفاته انطوت أحياناً على صفات سيئة، وتمتعت سرقسطة في عهده بمكانة مميزة، وضمَّ بلاطه كبار علماء عصره في العلوم والآداب، وكان هو عالماً شغوفاً بدراسة الفلسفة والفلك والرياضيات، واشتهر قصره «الجعفرية»، نسبة إلى كنيته أبو جعفر، بنقوشه وتحفه الذهبية وبخاصة بهوه الذي سمِّي بالبهو الذهبي أو مجلس الذهب[٦].

---

(١) ابن عذارى: جـ ٣ ص ٢٢٢، ٢٧٧ـ ٢٨٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٢٢، ٢٢٣.

(٤) المصدر نفسه: ص ٢٢٤.

(٥) المصدر نفسه: ص ٢٢٨.

(٦) ابن عذارى: جـ ٣ ص ٢٢٩. ابن الخطيب: أعمال الأعلام جـ ٢ ص ١٦٨. عنان: دول الطوائف ص ٢٨٣. يذكر ابن خلدون: أنه توفي في عام ٤٧٤هـ. جـ ٤ ص ١٦٣.

قسَّم أحمد المقتدر مملكته، قبل وفاته، بين ولديه مرتكباً الخطأ نفسه الذي ارتكبه والده من قبل. فخصَّ ابنه الأكبر يوسف المؤتمن بسرقسطة وأعمالها، وابنه المنذر بلاردة وطرطوشة ودانية، وطمع كل من الأخوين بأملاك الآخر وجرى بينهما قتال، أجَّجه استعانة كل منهما بالمرتزقة النصارى. فتحالف يوسف المؤتمن مع السيد القمبيطور، الفارس القشتالي[1]، صديق والده، والتمس المنذر المساعدة من شانجة راميرو، ملك أراغون، ورامون برنجار أمير برشلونة. وتعرَّض المنذر وحلفاؤه لهزيمتين قاسيتين، الأولى عند قلعة المنار القريبة من لاردة، في عام (٤٧٥ هـ/ ١٠٨٢ م)، والثانية عند أحواز موريلا على مقربة من طرطوشة، برز فيهما السيد القمبيطور كحليف مخلص ليوسف المؤتمن[2].

وطمع يوسف المؤتمن بضم بلنسية نظراً لأهمية موقعها ووفرة غلالها، فرأى حاكمها أبو بكر بن عبد العزيز، من واقع العلاقات القائمة بين دول الطوائف، أن يتقرب منه، فزار سرقسطة وأجرى معه مفاوضات ناجحة تمخَّضت عن التفاهم والتقارب بالمصاهرة، حيث قدَّم أبو بكر بن عبد العزيز ابنته عروساً لأحمد بن يوسف وذلك في (رمضان ٤٧٧ هـ/ كانون الثاني ١٠٨٥ م)[3].

توفي يوسف المؤتمن في عام (٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م)، وشكلت وفاته المفاجئة ضربة قاضية لمشروعاته، واشتهر هذا الأمير بإنجازاته العلمية، فكان عالماً رياضياً وفلكياً، كتب رسالة في العلوم الرياضية هي «الاستكمال»[4]، ترجمت إلى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي[5].

خلف يوسف المؤتمن ابنه أحمد المستعين، ويُعرف بالمستعين الأصغر[6].

---

(١) اسمه رودريغو ديا دي فيغار، من مواليد قرية فيغار قرب برغش. أما تلقبه بالسيد فهو تحريف لكلمة السيد العربية، وقد أطلقها عليه المسلمون الذين خدم بينهم وحارب معهم. أما وصفه بالقمبيطور، ومعناها المحارب الشجاع، فنظراً لبسالته وشغفه بالقتال واتخذت الأساطير القشتالية من أعماله عناصر بطولته، ورفعته إلى مرتبة بطل إسبانيا القومي. لكن هذا الفارس ضرب بعرض الحائط كل القيم الفروسية، وخرج على كل مبدأ ديني وقومي، بدافع حب الظهور والحصول على الغنائم، فيؤجر نفسه وجنوده تارة للأمراء المسلمين، وتارة للأمراء النصارى، ويتدخل في الثورات والحروب على كل الأراضي الأندلسية والنصرانية، وكانت ظروف البلاد وأوضاعها تفسح للقادة من أمثاله مجالاً لأطماعهم ومغامراتهم.

(٢) عنان: ص ٢٨٥. عبد الحليم: ص ٣٤٣، ٣٤٤. (٣) ابن عذارى: جـ ٣ ص ٣٠٤.

(٤) القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا: جـ ٥ ص ٢٤٦.

(٥) عنان: ص ٢٨٦. (٦) المرجع نفسه.

تعرَّض في مستهل حياته السياسية لخطر خارجي تمثل في محاولة ألفونسو السادس ملك قشتالة الاستيلاء على سرقسطة، غير أنه قنع بالجزية التي عرضها عليه أحمد المستعين بفعل ورود أنباء عن قدوم المرابطين إلى الأندلس.

تطلع أحمد المستعين، بعد زوال الخطر القشتالي، إلى ضم بلنسية، وجاءته الفرصة عندما هاجم المنذر صاحب لاردة وطرطوشة المدينة وحاصرها في عام (٤٨١ هـ/ ١٠٨٨ م)، فالتمس صاحبها يحيى القادر مساعدته، وطلب هو بدوره مساعدة السيد القمبيطور، واتفقا سراً على أن تكون الأسلاب من نصيب الفارس الإسباني، وأن تكون المدينة من نصيبه هو. وما كادت القوات المشتركة تقترب من المدينة حتى أدرك المنذر أنه لا طاقة له بمقاومة قوى التحالف، وآثر الانسحاب، وعرض على يحيى القادر صداقته[1].

لم يدم تحالف الأطراف الثلاثة، أحمد المستعين ويحيى القادر والسيد القمبيطور، طويلاً بعد ذلك حيث نكث كل طرف بتعهداته وراح يعمل لحسابه الخاص، وأدّى ذلك إلى قطع أحمد المستعين علاقته بالسيد، وصالح ملك قشتالة وتحالف مع رامون برنجار، أمير برشلونة، وهو ألد أعداء الفارس القشتالي.

تعرَّض أحمد المستعين في أواخر أيام حكمه لخطرين خارجيين، تمثل الأول بتجدُّد أطماع النصارى، في حين تمثل الثاني بدخول المرابطين على الخط السياسي ومحاولاتهم ضم كافة دول الطوائف وإعادة وحدة البلاد، فتقلَّب في تحالفاته بين الطرفين حتى قُتل في معركة بلتيرة أمام ألفونسو المحارب ملك أراغون في (رجب ٥٠٣ هـ/ كانون الثاني ١١١٠ م) وكان قد خسر مدينة وشقة عندما استولى عليها بيدرو الأول بن شانجة راميرو في (ذي القعدة ٤٨٩ هـ/ تشرين الثاني ١٠٩٦ م)[2].

وانتهى حكم بني هود في سرقسطة في عهد عبد الملك بن أحمد في عام (٥١٢ هـ/ ١١١٨ م) وهذا ما سنبحثه في علاقات دول الطوائف مع المرابطين.

دولة بلنسية: (٤٠٠ ـ ٤٩٥ هـ/ ١٠٠٩ ـ ١١٠٢ م)

تُعدُّ بلنسية من القواعد المهمة في شرقي الأندلس، وتمتاز بغلبة العنصر الصقلبي الذي نزح إليها بعد انهيار الدولة العامرية في عام (٣٩٩ هـ/ ١٠٠٨ م)، وكان يحكمها

---

(١) ابن الكردبوس: ص ٩٨. عنان: ص ٢٨٧. (٢) ابن عذاري: جـ ٤ ص ٥٣.

آنذاك مجاهد العامري، ثم انتزعها منه الفتيان مبارك ومظفر، فحكم الأول شاطبة، واختص الثاني بحكم بلنسية نفسها[1].

أقام هذان الفتيان علاقات طيبة مع ولايات شرقي الأندلس لكنهما دخلا في نزاع مع سرقسطة التي حاول حكامها التوسع نحو الشرق، فاصطدم مبارك بالمنذر بن يحيى التجيبي وتغلَّب عليه، وانتهت دولتهما بوفاتهما في عام (٤٠٨ هـ/ ١٠١٧ م)، وخلفهما الفتى لبيب، وشاركه مجاهد في الحكم، غير أن الأمور لم تستقم بفعل ما دبَّ بينهما من خلاف، ولم يُحسم الأمر إلا باختيار عبد العزيز بن عبد الرحمن شنجول في عام (٤١١ هـ/ ١٠٢١ م)[2].

ويبدو أن اعتلاء عبد العزيز سدة الحكم في بلنسية لم يصادف قبولاً عند بعض الفتيان، منهم خيران صاحب المرية ومرسية وأريولة، وزهير الذي خلفه بعد وفاته في عام (٤١٩ هـ/ ١٠٢٨ م)، لكن هذا تجاوز المعارضة الصقلبية بعد وفاة زهير وسيطر على المرية، وقد أثار هذا التوسع الفتى مجاهد صاحب دانية والجزائر الشرقية، فاجتاح الأراضي من شاطبة إلى لورقة، الأمر الذي أوقعه في نزاع مع عبد العزيز، الذي اصطدم به وتغلَّب عليه وانتزع منه شاطبة، وذلك في عام (٤٣٣ هـ/ ١٠٤١ م)، فعزز بذلك سلطته في مدن شرقي الأندلس، وساد الأمن ربوع دولته حتى وفاته في عام (٤٥٢ هـ/ ١٠٦٠ م)[3].

خلف عبد الملك أباه عبد العزيز واستقر في بلنسية، وتلقَّب بنظام الدولة وبالمظفر. تزوج من ابنة المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة، وكان هذا يطمع، من وراء هذه الزيجة، في ضمِّ بلنسية إلى دولته، فاستولى عليها وقبض على صهره ونفاه إلى إحدى القلاع في قونقة أو أقليش، بحجة:

- سوء معاملته لزوجته.
- إيوائه لعدد من خصومه السياسيين الفارين من طليطلة.
- رفضه لمساعدته في حملته ضد ابن عبَّاد.

وذلك في عام (٤٥٧ هـ/ ١٠٦٥ م)[4].

عهد المأمون إلى أبي بكر محمد بن عبد العزيز بإدارة شؤون المدينة، وشُغل عنه

---

(١) ابن عذاري: جـ ٣ ص ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨ ـ ١٦١. (٢) المصدر نفسه: ص ١٦٣، ١٦٤.
(٣) المصدر نفسه: ص ١٦٥، ١٦٧. (٤) المصدر نفسه: ص ١٦٥، ١٦٦.

بحروبه مع بني عبَّاد والصراع على قرطبة. وعندما توفي المأمون، في عام (٤٦٧ هـ/ ١٠٧٥ م)، انتهز أبو بكر محمد هذه المناسبة واستقل بحكم بلنسية.

وفي غمرة الصراع بين بلنسية وسرقسطة، طمع المؤتمن بن هود، صاحب سرقسطة والثغر الأعلى، في ضمِّ بلنسية إلى أملاكه، والتمس مساعده فرديناند الأول، ملك قشتالة، من أجل ذلك، غير أن أبا بكر محمد صرفه بالكلمة الطيبة والجزية، ثم رأى أن مصلحته تقضي بالتفاهم مع المؤتمن، ففاوضه وتقرَّب إليه بالمصاهرة، كما ذكرنا ذلك من قبل.

توفي أبو بكر محمد بن عبد العزيز في (٧ صفر ٤٧٨ هـ/ ٤ حزيران ١٠٨٥ م) وخلفه ابنه عثمان[١]. وسقطت طليطلة بعد بضعة أيام في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة، الأمر الذي أثَّر سلباً على مجرى الأحداث في الأندلس بعامة وفي بلنسية بخاصة من واقع اتفاق الملك القشتالي مع يحيى القادر بن ذي النون لاسترداد بلنسية وإعادة هذا الأخير إلى حكمها.

وانقسم سكان بلنسية، بين مؤيد للانضواء تحت حماية أحمد المستعين بن هود صاحب سرقسطة، ومساند ليحيى القادر بن ذي النون. وفي غمرة الجدل المحتدم بين الفئتين، هاجم الأخير المدينة بمساعدة فرقة من الجنود القشتاليين واقتحمها، وخلع عثمان بن محمد، وأعاد سيطرة بني ذي النون مرة أخرى على شرقي الأندلس، وذلك في (شوال ٤٧٨ هـ/ شباط ١٠٨٦ م)[٢].

كانت سيادة يحيى القادر بن ذي النون منقوصة لأنه حكم المدينة تحت رعاية الملك القشتالي الذي أبقى فيها قوة عسكرية بقيادة البرهانس، وقد باتوا يشكلون عبئاً ثقيلاً نتيجة إلحاحهم في طلب الأموال، واشتط يحيى القادر في جبايتها حتى أرهق الرعية فساءت أوضاع المدينة وغادرها كثير من أعيانها.

وكانت الأندلس آنذاك مقبلة على مرحلة جديدة نتيجة دخول المرابطين، ثم كانت معركة الزلاقة وانتصار المسلمين، الأمر الذي انعكس إيجاباً على بلنسية، فقد غادرتها الحامية القشتالية، ويرتبط تاريخها بعد ذلك بتاريخ المرابطين والفارس القشتالي السيد القمبيطور.

---

(١) ابن عذاري: جـ ٣ ص ٣٠٣، ٣٠٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٠٤.

إمارات صغيرة متفرقة: وقامت في الأندلس إمارات صغيرة متفرقة لم ترقَ إلى مستوى دول الطوائف، حُكِمَت من قبل الأسر المتغلِّبة، ولم يكن لها شأن كبير، بَيْدَ أنها كانت محوراً يثير النزاع بين دول الطوائف، نذكر منها:

ـ أسرة مجاهد العامري، في دانية والجزائر الشرقية.

ـ أسرة بني طاهر، في مرسية.

ـ أسرة بني برزال، في قرمونة.

ـ أسرة بني يفرن، في رندة.

ـ أسرة بني دمَّر، في موررور.

ـ أسرة بني خزرون، في أرقش.

العلاقات الخارجية مع الممالك النصرانية في الشمال

تمهيد: مرَّت الممالك النصرانية، في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، بمرحلتين متداخلتين أثَّرتا بشكل أو بآخر على أوضاعها الداخلية من جهة، وعلى علاقاتها بدول الطوائف من جهة أخرى.

تميزت **المرحلة الأولى** بالضعف الناتج عن الصراع الداخلي فيما بينها، بالإضافة إلى النزاع الأسري داخل كل مملكة.

واتصفت **المرحلة الثانية** بالقوة والفاعلية من واقع الوحدة السياسية التي تحقَّقت، وهيَّأت للنصارى الفرصة لفرض سيطرتهم السياسية على شبه الجزيرة الإيبيرية حتى قدوم المرابطين.

وقد ساعدتهم عدة عوامل على هذا التحول والانتقال إلى مرحلة المواجهة مع المسلمين، لعل أهمها:

١ ـ تنامي قوة الملكية[(١)]: نتج عن توحيد الممالك النصرانية في القرن المذكور، وتفرُّد أسرة شانجة الكبير بالحكم، إلى ازدياد قوة الملكية، والمعروف أنها كانت تُحكم في القرن السابق من قِبَل ثلاث أُسر منفصلة، واحدة في نبرَّة، وأخرى في قشتالة وثالثة في ليون، بالإضافة إلى برشلونة، وأدَّى هذا التوحد في قوة النصارى إلى:

ـ تحوُّل ميزان القوى السياسي والعسكري لصالحهم في ظل تفكك وحدة المسلمين.

ـ قيادة أسرة شانجة الكبير الصراع ضد دول الطوائف المتهالكة.

---

(١) عبد الحليم: ص ٣١٩ ـ ٣٢٢.

فقد وحَّدت الأسرة النافارية، بشخص قائدها شانجة الكبير، نبرَّة وقشتالة وأخضعت ليون. وحذا ابنه فرديناند حذوه، فوحَّد قشتالة وليون وجليقية ونبرَّة وأخضع أراغون، هذا في الوقت الذي كان فيه الحكم في الأندلس يتوزع بين ست وعشرين أسرة، تتصارع فيما بينها وتستعين بالنصارى حتى ضعفت وتعرَّضت لضغط هؤلاء ودفعت لهم الجزية. حدث ذلك على الرغم من أن الجبهة النصرانية لم تكن دائماً على مستوى واحد من القدرات العسكرية والتوحُّد السياسي. فقد دخل النصارى في حروب دموية لا تقل عنفاً عما كان موجوداً بين ملوك الطوائف، ويكفي دلالة أن ثلاثة من أولاد شانجة الكبير الأربعة سقطوا قتلى في حروبهم ضد بعضهم البعض، وأن ابنه الرابع فرديناند، الذي أعاد الوحدة إلى المملكة، قد تنازع أبناؤه الثلاثة أيضاً بعد وفاته فقُتل أحدهم وسُجن الثاني حتى مات في سجنه. والملفت أن هذه الخلافات ما إن تنتهي حتى تعود البلاد إلى سابق عهدها من الوحدة والقوة والرغبة في استئناف الحرب ضد المسلمين.

٢ ـ ضعف طبقة النبلاء[١]: تراجع نفوذ النبلاء في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي في ظل الوحدة السياسية للممالك النصرانية، واختل الوضع السياسي عما كان عليه في القرن السابق حين كان النبلاء هم صانعو الملوك. فقد لجأ ملوك النصارى إلى رجال الدين والإقطاعيين للحد من سلطاتهم، كما قاموا بعدة إصلاحات كنسية ومدنية صبَّت في إضعاف نفوذهم.

فقد ألغى ألفونسو السادس «حق القوة»، وهو العرف الذي كان يسمح للقوي بأن يستخدم العنف للحصول على حق قد يكون مزعوماً، أو تحصيل الحقوق باغتصابها وتغليب الأقوى، وفرض على حكام المدن أن يعاقبوا مرتكبي الجرائم، بدون تحيز، وأن يتحروا العدل وفقاً لأحكام الشرائع القوطية، الأمر الذي قضى على نشاط بعض النبلاء الذين كانوا يمارسون أعمال السرقة والتعدي تحت دعوى المكوس والضرائب[٢].

ونتيجة لهذه الإصلاحات، كانت قشتالة هي البلد الوحيد في أوروبا الذي يستطيع التجار والنساء والعزَّل، مواجهة النبلاء من دون أن يتعرَّضوا لأذى الفرسان أو القتلة

(١) عبد الحليم: ص ٣٢٣ ـ ٣٢٥.

(٢) أشباخ: جـ ١ ص ٣٥. Livermore, H.: A History of Spain PP. 61 - 63.

أو اللصوص، فضعف شأنهم، ولم يعودوا مصدر خطر على الملوك كما كانوا في العهود السابقة.

وزاد من ضعف تلك الطبقة ما حدث من تنافس وانقسام بين أفرادها بفعل الصراع مع المسلمين، وصراع الإخوة الملوك. وقد نتج عن هذا الصراع الأخير اضطرار أطراف النزاع إلى الاستعانة بأولاد المزارعين وصغار الناس، فرفعوهم إلى مرتبة الفرسان، فتحولوا بذلك إلى نبلاء، نافسوا النبلاء القدامى الذين كانوا يرثون النبالة عن آبائهم أجدادهم، واحتقر بعضهم بعضاً، وراح كل طرف يسعى للقضاء على الآخر، بالإضافة إلى ذلك، فعندما تسود مملكة على أخرى، يرتفع شأن نبلائها، وينخفض شأن نبلاء المملكة الأخرى، الأمر الذي يؤدي إلى إثارة الأحقاد والعداوات.

وحاول الملوك إصلاح ذات البين والتقليل من تأثير خطر هذه الأحقاد على الوحدة السياسية والصراع مع المسلمين. من ذلك أنه عندما اعتلى ألفونسو السادس عرش قشتالة، علا نجم النبلاء الليونيين، لأن ألفونسو السادس كان ملكاً على ليون قبل أن يحكم المملكة الموحَّدة، وثارت الأحقاد بينهم وبين نبلاء قشتالة، فبذل الملك محاولة لإقامة الصلح بينهم بأن عمد إلى تزويج فارسه السيد القمبيطور من نبيلة قشتالية.

وهكذا تضافرت العوامل، التي ذكرت، على إضعاف نفوذ النبلاء، وأتاحت للأسرة الحاكمة أن تسيطر عليهم وتُوجِّه اهتمامها إلى خدمة القضية الأسمى وهي محاربة المسلمين واسترداد الأرض.

٣ ـ دور الكنيسة[١]: كان النصارى الإسبان، باستثناء سكان الثغر الإسباني، حتى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، منعزلين عن باقي أوروبا النصرانية، ولم يُتحْ لهم أن يساهموا في الأحداث الأوروبية الكبرى بسبب معاركهم المستمرة مع المسلمين منذ الفتح الإسلامي، والتي شغلت كامل وقتهم. وفي المقابل، انهمكت البابوية في روما بصراعها مع ملوك أوروبا على السلطة الزمنية، وبالتالي فإنه من المشكوك فيه أن النصارى الإسبان كانوا يعترفون بسلطة البابا الروحية[٢].

لكن هذا الوضع تغيَّر في القرن المذكور، إذ إن شانجة الكبير، ملك نبرَّة، أعاد

---

(١) عبد الحليم: ص ٣٢٥ ـ ٣٣١.

(٢) Crow: P. 91.

فتح مسالك غربي شبه الجزيرة الإيبيرية للتأثيرات الأوروبية بانفتاحه على الإصلاحات البندكتية[1]، فتدفق الآباء الكلونيون إثر ذلك على ممالك قشتالة وليون وجليقية وأشتوريس، وملأوا جميع أديرة الشمال الإسباني، وتولوا أسمى المناصب الكنسية، حتى أن أحدهم، وهو الراهب برنارد، رئيس دير ساهاجون البندكتي، أضحى مطراناً على طليطلة بعد أن استردها ألفونسو السادس، ثم ترقَّى فأضحى رئيساً للكنيسة النصرانية في إسبانيا كلها، ومن ثَمَّ فقد عمل هؤلاء الآباء على توطيد السيادة البابوية في إسبانيا، وفرضوا الطقوس الرومانية في الصلاة، وألغوا الطقوس القوطية القديمة، وأعطوا حركة الاسترداد دفعاً معنوياً ومادياً قوياً.

استخدم الملوك النصارى الكنيسة وسيلة لتدعيم نفوذهم على رعاياهم وفي صراعهم ضد بعضهم البعض بالإضافة إلى نزاعهم مع المسلمين، وتجاوبت الكنيسة مع هذا التوجه، فأمرت السكان بأن يلتزموا بالولاء والطاعة لملوكهم. وعمد الملك راميرو الأول، ملك أراغون، إلى استخدام ورقة البابوية والكنيسة في صراعه مع أخيه فرديناند الأول، ملك قشتالة وليون، والتزم بإرسال عُشر إيرادات الدولة، وعُشر الجزية التي يحصل عليها من المسلمين، إلى روما.

وفي عام (٤٧١ هـ/ ١٠٧٩ م) تزوج ألفونسو السادس من الأميرة الفرنسية كونستاس بعد أن طلَّق زوجته السابقة أغنيسيا بموافقة البابا، الأمر الذي سمح بازدياد نشاط الحركة الكلونية، وتدفُّق الرهبان والمقاتلين الفرنسيين على إسبانيا النصرانية. وأبدى رهبان دير ساهاجون غيرةً وحماساً شديداً في تحقيق أهداف البابوية في القضاء على المسلمين في الأندلس.

وكانت ظروف الحرب المستمرة بين المسلمين والنصارى في الأندلس قد حملت رجال الدين على مرافقة الحملات العسكرية لشحذ الهمم والاشتراك أحياناً في القتال، الأمر الذي أعطى الكنيسة الإسبانية وضعاً حقوقياً خاصاً، فهي كنيسة محاربة، تخدم في ميدان القتال، كما تخدم في ميدان الدعوة إلى النصرانية، وأسست فرقاً من الفرسان المقاتلين التابعين لها، مثل فرسان سانتياغو ـ شنت ياقب ـ. كانت

---

(١) البندكتية حركة دينية أسسها القديس بندكت في عام ٥٢٨ للميلاد في دير كاسيني بإيطاليا، ثم انتشرت بعد ذلك في جميع أنحاء أوروبا، وقد امتاز الكثير من رجالها بالعلم حتى أصبحت كلمة بندكتي تطلق على العالِم المتبحر.

مهمة هؤلاء، في بداية تأسيسهم، حماية طريق الحج إلى مزار القديس يعقوب، ثم انخرطوا في الجيوش المحاربة ضد المسلمين.

من هنا، كان ضغط البابوية وقرارات المجامع الكنسية التي عقدت على مراحل زمنية متقاربة أو متباعدة، مثل مجمع جويانسا في عام (٤٤٢ هـ/ ١٠٥٠ م)، ومجمع طليطلة في (رمضان ٤٧٩ هـ/ كانون الأول ١٠٨٦ م) عقب هزيمة الزلاقة، بالإضافة إلى سياسة الإصلاح التي تبناها ملوك النصارى، وبناء الكثير من الكنائس والأديرة، والترفق في معاملة الناس؛ شديداً في الصراع ضد مسلمي الأندلس، الذي اتصف بالصليبي بفعل رعاية كنيسة روما ومباركتها له والدعوة إليه، وتجنيد النصارى من أجل المشاركة فيه. من ذلك أن البابا إسكندر الثاني عمد في عام (٤٥٥ هـ/ ١٠٦٣م) إلى تنظيم حملة لشدِّ أزر النصارى في صراعهم مع المسلمين اشترك فيها أمراء فرنسيون ونورمان وإيطاليون، وقد هاجمت الحملة مدينة ببشتر وحاصرتها مدة أربعين يوماً، ولما استسلم المحاصَرون أمعن الغزاة فيهم قتلاً.

«استراتيجية» النصارى في الحرب ضد المسلمين: إذا كان القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، هو عصر محنة للمقاومة النصرانية، فقد قُدِّر لهذه المقاومة أن تُبعث في القرن التالي بعثاً جديداً. فقد سقطت الخلافة الأموية، وتفرَّق شمل المسلمين وانهارت قواهم، وتحوَّل ميزان القوى السياسي والعسكري بشكل ظاهر لصالح النصارى الذين دخلوا في طور جديد هو استنزاف الموارد الإسلامية وبداية حركة الاسترداد.

والواقع أن هذه المرحلة من الصراع الإسلامي النصراني في الأندلس تطورت في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، إلى استنزاف الموارد الإسلامية. ذلك أن مشروع الاسترداد النصراني كان يهدف إلى تهجير السكان من أراضيهم قبل استردادها ومن ثَمَّ إعادة الانتشار فيها. وفي ضوء هذا المخطط، تحوَّلت تقنية الحرب من معارك الميادين المفتوحة إلى حرب المعاقل والحصون والتي تمتد على مدار أشهر بل أعوام، وتنتهي عادة بالاستسلام والجلاء بعد أن تكون المنطقة قد خلت من سكانها الفارين، فتصبح ملكاً يستثمره المنتصرون، وفي هذا الإطار، سقطت المدن الأندلسية الحصينة أو استسلمت بعد أن أُحيط بها. وأتاحت سياسة الاستنزاف للملوك النصارى، إلى جانب جباية الأموال، بيع الإقطاعات في دائرة سيطرتهم لمن يدفع الثمن، كما فعل المؤتمن بن هود الذي اشترى موافقة ألفونسو السادس على الاستيلاء على بلنسية المشمولة بحماية النصارى.

كان شانجة الكبير هو باعث هذه الحركة الكبرى المعروفة بحرب الاسترداد، والتي اتخذت في عهد ولده فرديناند الأول طابعاً عالمياً من واقع انفتاحها على أوروبا واشتراك الدول الأوروبية فيها، كما اتخذت طابع القداسة من خلال تدخل البابا في توجيهها وفقاً لأهداف البابوية. وأضحى فرديناند الأول يطالب بإجلاء المسلمين عن البلاد «... فإنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديماً في أول أمركم، فقد سكنتموها ما قُضِيَ لكم، وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم، فارحلوا إلى عُدوتكم واتركوا لنا بلادنا، فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم، ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا وبينكم»[1]، وهي عبارة على درجة كبيرة من الأهمية إذ توضح سياسة النصارى وتبيِّن أهدافهم في استرداد الأرض وقد نظروا إلى المسلمين كأجانب ودخلاء مهما عمَّروا من السنين وأقاموا الدول والمنشآت.

هل نجح فرديناند الأول في الوصول إلى الغاية التي ينشدها من وراء حركة الاسترداد؟ الواقع أن سياسة هذا الزعيم النصراني كانت ذا شقين. فقد كان يعمل على إرهاب القوى الإسلامية ويبث الذعر في قلوب المسلمين، فلا يترك لهم الفرصة للراحة أو الطمأنينة، فهو يريد أن تظل القوى الإسلامية متأهبة حتى يثقل على الأمراء والناس، حتى إذا ضاق بالأمراء ذرعاً وخشوا بطش زعيم النصرانية، اضطروا إلى دفع الجزية والاستعانة بالأموال لدفع الخطر النصراني، فيثقلوا كاهل رعاياهم بالضرائب لتحصيل الأموال، الأمر الذي يؤدي إلى نفور هؤلاء ونزوحهم إلى مدينة أكثر رخاءً وأمناً.

ودفع أصحاب طليطلة وإشبيلية وبطليوس وسرقسطة الجزية، واشتط فرديناند في طلبها، وجنى من ورائها أموالاً طائلة، ثم إنه إذا أنس من الأمراء المسلمين ضعفاً مضى في توسعه لا يلوي على شيء، وبدا للناس أن أيام المسلمين في الأندلس باتت معدودة.

علاقة دولة إشبيلية بالممالك النصرانية: تطورت العلاقات بين إشبيلية، وبين الممالك النصرانية في عهد المعتضد بن عبَّاد من حال السكون إلى حال الحركية. فقد كان فرديناند الأول ملك قشتالة يطمع في أن يبسط سيادته على إسبانيا كلها، وتمكَّن من إخضاع بطليوس وسرقسطة وطليطلة، ودفعت له الجزية، ثم تطلع إلى

(١) ابن عذاري: جـ٣ ص ٢٨٢.

الهيمنة على أملاك بني عبَّاد، فهاجم في عام (٤٥٥ هـ/ ١٠٦٣ م) أراضي إشبيلية، وأحرق قراها، فرأى المعتضد أن من حسن السياسة أن يحذو حذو الأمراء المسلمين الآخرين في ظل ضعف هؤلاء وعجزه عن مقاومة الملك النصراني، على الرغم من أنه كان أقوى حكام الأندلس، فذهب إلى معسكره وقدم إليه الهدايا ملتمساً صداقته. وتمَّ الاتفاق بينهما على أن يدفع المعتضد الجزية، ويقوم بتسليم رفات القديسة خوستا التي استشهدت في عصر الاضطهاد الروماني والمدفونة في إشبيلية[1].

توفي فرديناند الأول في عام (٤٥٧ هـ/ ١٠٦٥ م)، وكان قد قسَّم مملكته بين أولاده الثلاثة، شانجة وألفونسو وغرسية، فنال الأول، قشتالة، وحصل الثاني على ليون وأشتوريس، واختص الثالث بإقليم جليقية والبرتغال وغربي ليون.

أدى هذا التقسيم إلى نشوب الحرب الأهلية بين الإخوة. فقد سخط شانجة على أخويه وأراد أن يضع يده على كامل مملكة والده بوصفه الابن الأكبر، فاصطدم بأخيه ألفونسو وتغلَّب عليه وأجبره على التنازل عن الحكم، وسقط أخوه غرسية أمام غضب الشعب بفعل سوء إدارته، ولجأ إلى المعتضد في إشبيلية، واستولى شانجة على نصيبه من التركة، فتوحدت بذلك قشتالة وليون وجليقية تحت سلطانه[2].

خلف المعتضد في حكم إشبيلية ابنه المعتمد، وقد عاصر الملك ألفونسو السادس الذي استعاد عرشه بعد مقتل أخيه شانجة في (محرم ٤٦٥ هـ/ تشرين الأول ١٠٧٢ م) خلال الحرب الأهلية، ووحَّد الممالك النصرانية ليون وقشتالة وجليقية، وتطلع إلى طرد المسلمين من الأندلس متبنياً سياسة والده في ذلك، ومستغلاً الخلافات العنيفة بينهم.

وكان الصراع قائماً آنذاك بين إشبيلية وغرناطة بعد أن استولى بنو عبَّاد على جيان التابعة لغرناطة في عام (٤٦٦ هـ/ ١٠٧٣ م)، فارتمت هذه الأخيرة في أحضان ألفونسو السادس وتحالفت معه لمواجهة بني عبَّاد. وقام ألفونسو السادس بإرهاق المملكتين بمطالبته المستمرة بالجزية. ورأى المعتمد أن يستقطب الملك النصراني، ويلتمس مساعدته للاستيلاء على غرناطة مقابل دفع الجزية على أن تكون أموالها للملك النصراني والمدينة للمعتمد بن عبَّاد[3].

---

(١) دوزي: جـ ٣ ص ٧٩، ٨٠. عنان: ص ٤٨. (٢) أشباخ: جـ ١ ص ٢١ ـ ٢٤.

(٣) مذكرات الأمير عبد الله: ص ٦٩ ـ ٧١.

ويبدو أن هذا الحلف لم يسفر عن أية نتيجة إيجابية للمعتمد، لأن عبد الله بن بلكين حاكم غرناطة أقنع ألفونسو السادس بخطر التحالف مع المعتمد على الممالك النصرانية لأن دولة بني عبَّاد سوف تتضخم، وربما هاجمت النصارى، وعرض عليه تجديد التحالف معه مقابل دفع الجزية بالإضافة إلى المتأخرات[١].

وهكذا فشل المعتمد بن عبَّاد في تحريض ألفونسو السادس ضد غرناطة، والتفت، عقب فشله، إلى التحالف مع رامون برنجار حاكم برشلونة، والمعروف أن ملوك الطوائف كانوا أضعف من مواجهة بعضهم بعضاً من دون مساعدة خارجية، ونجح في عقد معاهدة معه في عام (٤٧١ هـ/ ١٠٧٨ م) تقضي بمساعدته في الاستيلاء على مرسية وانتزاعها من يد آل طاهر مقابل مبلغ عشرة آلاف مثقال من الذهب. وتبادل الطرفان الرهائن من أجل حسن التنفيذ، فقدَّم المعتمد ابنه الرشيد وقدَّم رامون ابن أخيه. وحاصرت قوة مشتركة المدينة، غير أن المعتمد ترك الوقت يمر من دون أن يؤدي المبلغ المتفق عليه، الأمر الذي أثار رامون فسحب قواته من أمام مرسية. وسجن كل طرف رهينته ولم يُفرج عنها إلا بعد أن اتفقا على أن يدفع المعتمد المبلغ المطلوب[٢].

أضحى المعتمد من دون قوة خارجية مساندة، فاضطر، إلى سحب قواته من أمام مرسية، غير أن وزيره ابن عمار أغراه بغزوها مرة ثانية. فعهد إليه بهذه المهمة، ونجح هذا الوزير الطموح في الاستيلاء عليها، ودخلها في موكب فخم، وراح يتصرف كالأمراء ويُوقِّع بتوقيعاتهم، الأمر الذي أثار حفيظة المعتمد. ولما شعر ابن عمار بالخطر لجأ إلى ألفونسو السادس ليحتمي به بعد أن فشل في استقطاب حاكم طليطلة، واتفق معه على غزو مرسية، غير أن حاكمها ابن رشيق صرف ألفونسو السادس عنها بالهدايا والأموال، فأعرض عن ابن عمار، فتحوَّل هذا إلى سرقسطة وخدم بني هود، وانتهى به المطاف إلى القبض عليه وإرساله إلى المعتمد الذي قتله بنفسه[٣].

وعمد ألفونسو السادس إلى إقامة نوع من التوازن بين القوى الإسلامية المتعادية حتى يتحكم بمصائرها، وذلك عن طريق إجبارها على دفع الأتاوات وتسليم الحصون الأمامية، كما كان يُغذِّي الخلافات بينها، ويساند أكثر من دولة متعادية ومتخاصمة في الوقت نفسه. ففي عام (٤٧٢ هـ/ ١٠٧٩ م) أرسل الفارس السيد

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله: ص ٦٩ ـ ٧١. (٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن بسام: جـ ٢ ص ٢٥٦، ٢٥٧. ابن الخطيب: أعمال الأعلام جـ ٢ ص ١٥٦ ـ ١٥٨، ١٩١.

القمبيطور لاستلام الجزية من المعتمد وفقاً للمعاهدة المعقودة بينهما، وصادف، أثناء وصوله، أن قوات عبد الله بن بلكين صاحب غرناطة كانت تهاجم أراضي إشبيلية بمساندة فرقة قشتالية، بموجب معاهدة الصداقة التي عقدها هذا مع ألفونسو السادس. وهكذا أخذ الوضع العسكري، قبل تدخل المرابطين، شكل الأمر الواقع، وبدأت الدعوة من جانب ملوك الطوائف إلى قبوله وعلى رأسهم المعتمد.

علاقة دولة طليطلة بالممالك النصرانية

سقوط مدينة طليطلة: تعرضت طليطلة لضغط النصارى أسوة بإشبيلية؛ فقد هاجم فرديناند الأول في عام (٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢ م) أراضيها الشمالية والشرقية، ولا سيما مدينة سالم ووادي الحجارة وقلعة النهر، ووصل في توغله إلى قلعة الخشب، فطلب السكان المساعدة من المأمون بن ذي النون، ويبدو أنه كان عاجزاً عن مواجهة الموقف بالقوة، وفضَّل انتهاج سياسة سلمية، فذهب إلى معسكر فرديناند الأول وقدَّم إليه الهدايا، وأعلن اعترافه بطاعته، وتعهد له بدفع الجزية[١].

وخلال الحرب الأهلية، التي نشبت بين أولاد فرديناند الأول، لجأ ابنه ألفونسو إلى طليطلة محتمياً بالمأمون بن ذي النون، فعاش في بلاطه زهاء تسعة أشهر في ضوء سياسة المأمون اصطناع الأحلاف، وساعده على العودة إلى بلاده واستعادة ملكه، وكان ذلك بداية صداقة وطيدة بين الرجلين، ثم بين الملك النصراني وبين يحيى القادر حفيد المأمون، في ظل تحوُّل الأوضاع السياسية والعسكرية لصالح النصارى بعد توحيد ليون وقشتالة تحت حكم ألفونسو السادس، وقطع الملك القشتالي عهداً باحترام حدود مملكة طليطلة ودوام علاقة الصداقة بين المملكتين، ومساعدة المأمون ضد خصومه ملوك الطوائف[٢].

وما كاد ألفونسو السادس يعتلي عرش قشتالة وليون حتى أراد أن يعرب عن امتنانه للمأمون بن ذي النون، فساعده في حربه ضد ابن عبَّاد. واستطاع بفضل هذه المساعدة، الاستيلاء على قرطبة، وختم المأمون بن ذي النون حياته بهذا النصر إذ توفي في العام نفسه (٤٦٧ هـ/ ١٠٧٥ م)[٣].

خلف المأمون بن ذي النون حفيده يحيى، الملقب بالقادر، اتصف بضعف

---

(١) ابن الخطيب: جـ ٢ ص ١٧٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٧٩.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٧٧.

الشخصية والخنوع، وورث إمارة تستند إلى حماية ألفونسو السادس من الخارج، وتعاني من عداء رعيتها في الداخل، الأمر الذي لا يستقيم في سياسة الدول. إذ في الوقت الذي كانت العلاقة تتوقف طردياً بينه وبين ألفونسو السادس، كانت العلاقة تفتر بينه وبين أفراد شعبه وبخاصة رجال الدين والعلماء وأفراد الطبقة الوسطى[1]، والمعروف أن يحيى القادر ورث هذا الفتور عن جدِّه المأمون بن ذي النون الذي ضيَّق على مشيخة طليطلة وسجنهم. فقد انفجر الموقف بينه وبين الوزير ابن الحديدي منذ تسلُّم الحكم وانتهى بمقتل الوزير في (١٠ محرم ٤٦٨ هـ/ ٢٥ آب ١٠٧٥ م)، وأدَّى إلى اتساع الهوة بينه وبين شعبه بالإضافة إلى عصبية آل الحديدي القوية[2].

استغل ألفونسو السادس هذه الفرصة ليجرِّد طليطلة من حصونها المحيطة بها تمهيداً للانقضاض عليها، ضارباً عرض الحائط بالعهد الذي قطعه للمأمون، وكان يحيى القادر في وضع لا يستطيع معه إلا الموافقة على اقتطاع أطراف دولته. وعندما ظهرت بوادر تحرك العامة بتدبير من المسجونين في المطبق وبعض أنصار عمر المتوكل بن الأفطس، صاحب بطليوس، الذي كان قد خرج إلى طليطلة للاستيلاء عليها، خشي يحيى القادر على نفسه وفرَّ من المدينة هارباً إلى قونقة، والتمس المساعدة من ألفونسو السادس[3].

وتدل قرائن الأحداث أن أنصار عمر المتوكل والفئات الشعبية المعارضة، لم تستطع أن تسيطر على الوضع العام في المدينة التي عمتها الفوضى. وسار يحيى القادر، في هذه الظروف الحرجة من نهايات الوجود الإسلامي في طليطلة، بصحبة ألفونسو السادس نحو المدينة لاستعادتها، وسكانها في حال ارتباك وبخاصة بعد فرار عمر المتوكل المفاجىء منها، ودخلها تحت مظلة الحراب القشتالية في (١٠ ذي الحجة ٤٧٣ هـ/ ٢٢ أيار ١٠٨١ م) بعد معركة مع العامة بقيادة ابن مغيث، وهو أحد القادة الذين تمرَّسوا على الحرب في ثغور قشتالة[4].

وقضى اتفاق يحيى القادر وألفونسو السادس، حصول الثاني على أموال المدينة بعد استعادتها، لذلك قام الأول بجمع الأموال من السكان لإعطائها لألفونسو السادس مستخدماً الشدَّة في ذلك، الأمر الذي أثار الرعب بينهم ويبدو أن الملك النصراني لم

---

(١) ابن بسام: جـ ٤ ص ٩٣، ٩٤.
(٢) المصدر نفسه: ص ٩٤ ـ ٩٧.
(٣) المصدر نفسه: ص ٩٩، ١٠٠.
(٤) المصدر نفسه.

يكتف بذلك، وتطلع إلى الاستيلاء على مناطق الضواحي وفق خطة وُضعت مسبقاً لتجريد طليطلة وعزلها تمهيداً للاستيلاء عليها، فاستولى على صورية ـ الناعورة ـ التي كان المأمون يحشد فيها كل حسن، واتخذ من عروشها مرابط لأفراسه، وإيواناتها ملاعب لأراذلته وأرجاسه، كما استولى على قورية، وأخذ حصن قنالش رهناً، وبثَّ الجالية النصرانية في ثنايا ما استولى عليه كخطوة في سبيل الاستقرار[١].

وعندما اشتد فصل الشتاء، وبدأ الطليطليون يعانون من وطأة الاحتلال، لجأوا إلى سياسة المداراة، وحاولوا أن يعقدوا اتفاق صلح مع الملك النصراني يُنقذ مصالحهم ومعايشهم، ولكن ألفونسو السادس رفض إلا الاستسلام. وعندما أشار الوفد الطليطلي إلى إمكان استعانتهم عليه ببعض ملوك الطوائف، الأمر الذي كانوا يعرفون عدم جدواه، استهزأ بهم، وأظهر أمامهم رسل ابن عبَّاد خائفين، ورفض قبول هداياهم راكلاً إياها برجله، فأُسقط في أيدي أعضاء الوفد، وعادوا إلى المدينة وقد أيقنوا بسقوطها[٢].

وهكذا عاشت طليطلة مدة ثلاثة أعوام في ظل الحصار القشتالي المتقطع (شوال ٤٧٤ هـ ـ محرم ٤٧٨ هـ/ آذار ١٠٨٢ م ـ أيار ١٠٨٥ م) في الوقت الذي تعرَّضت فيه أيضاً إلى هجمات ابن عبَّاد من الغرب وابن هود من الشرق، فأدرك يحيى القادر عندئذٍ أن لا طاقة له على الدفاع عن مملكته، ولا سبيل أمامه إلا تسليم عاصمته إلى ألفونسو السادس، فكتب إليه وتخلَّى له عنها وعما يتبعها من مدن وحصون على أن يساعده في الاستيلاء على بلنسية عوضاً عنها.

وأُسقط في يد السكان الذين اضطروا إلى التجاوب مع الحل الاستسلامي، وعرضوا تسليم المدينة مقابل الشروط التالية:

ـ تأمين المسلمين فيها على أنفسهم وأموالهم وأملاكهم.

ـ من شاء منهم الهجرة، هاجر، ومن شاء منهم الإقامة، أقام، على أن يدفع الجزية على عدد من عنده من الأشخاص.

ـ كل من يرجع بعد الهجرة إلى المدينة، فله عقاره بدون أدنى معارضة.

ـ يبقى المسجد الجامع في حوزة المسلمين، والمعروف أن ألفونسو حوَّله بعد ذلك إلى كنيسة.

---

(١) ابن بسام: جـ ٤: ص ١٠١ ـ ١٠٣.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٠٢، ١٠٣.

تَمَّ الاتفاق على هذه الشروط، وتظاهر ألفونسو بقبولها. وفي (المحرم ٤٧٨ هـ/ أيار ١٠٨٥ م)، دخل الملك النصراني المدينة على رأس قواته القشتالية والليونية، وجنود من أراغون ومتطوعين ومرتزقة من فرنسا، وقد جاؤوا للاشتراك في حملة تخدم القضية النصرانية الأمر الذي يؤكد الطابع الصليبي في استرداد طليطلة[١].

تعقيب على سقوط طليطلة

- إذا كان الواقع السياسي والعسكري لسقوط طليطلة يلقي اللوم على يحيى القادر، حفيد المأمون بن ذي النون، على أساس أن الرجل كان جباناً لا يعرف الحزم، مريضاً لا يقوى على العمل، فإنه من الظلم أن تُلقى على كتفي الرجل كارثة عهد بأكمله، أي ضياع طليطلة في عهد ملوك الطوائف. وهكذا يمكن الإشارة إلى ملوك الطوائف على أنهم المسؤولون جميعاً عن ضياع طليطلة، وهنا تكون مسؤولية الجدِّ، وهو المأمون، أفدح من مسؤولية الحفيد، وهو يحيى القادر، فالأول هو الذي تعاون أولاً مع ألفونسو السادس وصادقه وآواه في طليطلة، الأمر الذي ساعده على التعرف على عورات المدينة ونقاط ضعفها، كما أنه يُعدُّ مسؤولاً عن تدهور العلاقة بينه وبين سكان طليطلة، وهم رعيته، وذلك من واقع القبض على مشيخة المدينة وسجنهم في سجن المطبق.

- لقد سقطت طليطلة في ظل الموقف المتخاذل أو المتهاون لملوك الطوائف. فالمعتمد بن عبَّاد، عقد حلفاً مع ألفونسو السادس تعهد فيه بدفع الجزية وإطلاق يده في طليطلة على أن يساعده ضد خصومه، ملوك الطوائف، وبالتالي فقد أخرج نفسه من الصراع. وكان المقتدر بن هود، صاحب سرقسطة، منهمكاً بنزاعه المستمر مع ملوك أراغون وأمراء برشلونة الذين استولوا على قلاع الحدود في ولبة وجرادوس وموزن، وبالتالي فإنه عجز عن مدِّ يد المساعدة، وكانت بلنسية قد عادت، بعد وفاة أميرها أبي بكر، إلى ولائها لطليطلة، ولكن شغلها أمير دانية، فغضَّت الطرف، مكرهة، عن تقديم المساعدة.

وشُغلت بطليوس بمقاومة أطماع المعتمد بن عبَّاد، فلم تستطع تقديم مساعدة جديَّة، إذ إن ابن الأفطس أرسل ابنه الفضل على رأس قوة عسكرية، لكنه هُزم أمام تفوق القوات النصرانية وعاد إلى بطليوس تاركاً المدينة تحت رحمة القوات القشتالية.

---

(١) ابن بسام: جـ ٤ ص ١٠٢، ١٠٣.

ـ كان لسقوط طليطلة في يد ألفونسو السادس أثر عظيم في حركة الاسترداد، وفي إلهاب حماس القوى النصرانية. فقد كانت هذه المدينة في الماضي عاصمة لدولة القوط، وكان استردادها نذيراً بإحياء ملك القوط القديم، والعمل على طرد المسلمين نهائياً من الأندلس.

ـ لم يلبث ألفونسو السادس إلا قليلاً حتى أغار على نواحي طليطلة واستولى على جميع أعمالها من وادي الحجارة إلى طلبيرة، ثمانين حصناً سوى القرى والمدن العامرة.

ـ سما قدر ألفونسو السادس في نظر معاصريه إلى مرتبة رفيعة، فاتخذ لقب الامبراطور ذي الملتين ـ الإسلام والنصرانية[١] ـ، وتهافت عليه رسل ملوك الطوائف مهنئين ومباركين وواضعين أنفسهم وأموالهم في خدمته. وبلغ من تهافتهم وتخاذلهم واستسلامهم وضعف حميتهم أن أهدى إليه أحدهم هدية قيمة، فأعطاه بدلاً عنها قرداً، فصار يفخر بذلك على جميع ملوك الطوائف، معتقداً بأنه حاز رضى الملك النصراني[٢].

ـ أثار دخول طليطلة في حظيرة الإمارات النصرانية، ضجَّة جعلت من سقوطها حدثاً مركزياً من أحداث الاسترداد، وإن كان من الممكن أن تستمر هذه الحركة أعواماً بل قروناً عديدة.

ـ إذا كان النصارى قد تضاعفت آمالهم، فإن المسلمين قد فتَّ في عضدهم وتفشَّى الرعب في أوصالهم، وبادروا إلى ألفونسو السادس يخطبون وده ويسترضونه، كما ذكرنا.

ـ حقَّقت حركة الاسترداد النصرانية كل أهدافها في طليطلة التي استردتها كاملة على كافة المستويات من:

ـ سياسية، تمثلت بالانضمام إلى مملكة ألفونسو السادس المتحدة.

ـ إجتماعية، من واقع تحول جمهرة أهل المدينة والمنطقة إلى مجتمع نصراني من الإسبان القدامى والأندلسيين الجدد.

ـ ثقافية، من خلال التحول إلى اللغة الرومانية الإسبانية التي سيكتبها

---

(١) Pidal P. 207.

(٢) ابن الكردبوس: ص ٨٨.

المتأخرون بالحروف العربية، كما الفارسية في المشرق، ونقصد بذلك الأعجمية المعروفة بالخميارة[١].

ـ وفي ألفونسو السادس بوعده ليحيى القادر، فساعده في الاستيلاء على بلنسية، وهو لن يكون، على أي حال، إلا تابعاً له، ففرض بذلك نفوذه على جزء من شرقي الأندلس، ودخل في صراع مع السيد القمبيطور حول امتلاك بلنسية.

ـ تمَّت الهزيمة في الجانب الإسلامي الأندلسي على طرفي الصراع، بين الأمراء المطالبين ببقاء الأمر الواقع، المتمثل في دول الطوائف، والتعايش معه، وبين الفقهاء المطالبين بالاستعانة بالمرابطين في المغرب الأقصى طالما افتقدت وحدة الجماعة في قرطبة[٢].

ـ كان من رأي وزير ألفونسو السادس، اليهودي ششنند، أن يلتزم الملك النصراني بالاعتدال في معاملة سكان المدينة لئلا يستثيرهم، لأن غالبيتهم من المسلمين، وألا يلحَّ بالغزو على ملوك الطوائف لأنه لن يجد عمالاً أطوع منهم، وحتى لا يضطرهم إلى التماس المساعدة من الخارج. لكن الملك القشتالي اغتر بنصره فرفض أن يلبس التاج إلا بعد أن يستولي على قرطبة وسائر دول الطوائف، ثم إنه حوَّل مسجد طليطلة إلى كاتدرائية بعد شهرين من استرداد المدينة، وهو عمل متسرع أثار ثائرة عامة أهل الأندلس، بعد الضجة التي أثارها فقهاء الإمارات الأخرى، بضغط من فقهاء طليطلة اللاجئين إليها، وعلى رأسهم شيخ الجامع المغامي. وهكذا تعالت أصوات الفقهاء بالجهاد.

ـ خرجت طليطلة من يد المسلمين إلى الأبد، بعد أن حكموها زهاء أربعة قرون، وأضحت حاضرة لمملكة قشتالة، وغدا قصرها منزلاً للبلاط القشتالي. وجاء سقوطها ضربة قاسية للمسلمين في الأندلس، لأنها تتوسط شبه الجزيرة، وتستطيع، من موقعها هذا، أن تهدِّد جميع دول الطوائف، وليطرح قضية الوجود الإسلامي برمته في الأندلس.

ـ تحوَّل ميزان القوى لصالح ملوك النصارى، وأضحى أمراً لا شك فيه. ومن جهة أخرى، كان لتلك النكبة التي حلَّت بالإسلام والمسلمين في الأندلس أثر عميق في

---

(١) جمال الدين، عبد الله محمد: المنصَّرون الموريسكوس ص ٤٧٣ وما بعدها.

(٢) عبد الحميد، سعد زغلول: عملية الإنقاذ المرابطي في الأندلس. مقال في كتاب: بحوث ندوة الأندلس ص ٢٣٨.

نفوس ملوك الطوائف الذين استدركوا واقعهم، وإن متأخرين، فقد ارتاعوا جميعاً وأدركوا، بعد فوات الأوان، أنها نذير بالقضاء عليهم واحداً تلو الآخر، فنبذوا خلافاتهم لأول مرة، وتوجَّهوا بأنظارهم إلى ما وراء البحر يلتمسون المساعدة من إخوانهم المرابطين.

علاقة دولة غرناطة بالممالك النصرانية: لم تزوِّدنا المصادر بمعلومات عن علاقة بني زيري الصنهاجيين، حكام غرناطة، بالممالك النصرانية إلا ابتداء من عهد آخر أمرائها عبد الله بن بلكين. ويبدو أن موقع غرناطة المتطرف في جنوبي الأندلس كان له أثر في ذلك، والمعروف أن النصارى ركَّزوا هجماتهم على الأراضي الإسلامية المجاورة لهم. وكان للنزاع الذي جرى بين عبد الله بن بلكين والمعتمد بن عبَّاد علاقة بالمدى الذي تدخل من خلاله ألفونسو السادس في شؤون الدولتين.

فقد عقد عبد الله بن بلكين، بتوجيه من وزيره سماجة، حلفاً مع ألفونسو السادس، على نمط معظم ملوك الطوائف، تعهد فيه بدفع جزية سنوية قدرها عشرون ألف دينار مقابل مساعدته على ردِّ المعتمد بن عبَّاد، وبفضل هذا التعاون استرد عبد الله بن بلكين حصن قبرة في جنوب غربي جيان[١].

وجاء رد المعتمد بن عبَّاد سريعاً على خطوة عبد الله بن بلكين، فتقرَّب من ألفونسو السادس وأغراه بفك تحالفه مع صاحب غرناطة، وعقد تحالفاً معه يقضي بتعاونهما في الاستيلاء على غرناطة على أن تكون المدينة للمعتمد بن عبَّاد، وأن يكون سائر ما فيها من الأموال لملك قشتالة، وأن يؤدي إليه صاحب إشبيلية فوق ذلك جزية سنوية قدرها خمسون ألف دينار[٢].

وهكذا بلغ التردي بين ملوك الطوائف أن استعانوا بملوك النصارى ضد بعضهم البعض. واستناداً إلى هذا التحالف هاجمت قوة قشتالية بسائط غرناطة ولا سيما أراضي مرجها.

وتلقى المعتمد بن عبَّاد، في غضون ذلك، ضربة قاسية بسقوط قرطبة في يد المأمون بن ذي النون في عام (٤٦٧ هـ/ ١٠٧٤ م)، كما صبَّت هذه الحادثة في مصلحة غرناطة، فانتهز صاحبها هذه الفرصة واستولى على الحصن الذي كان الوزير ابن عمار قد بناه بمساعدة النصارى، قرب غرناطة[٣]، ورأى أن يتقرَّب مجدداً من

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله: ص ٦٩.
(٢) المصدر نفسه: ص ٧٠.
(٣) المصدر نفسه: ص ٧٠ ـ ٧٢.

ألفونسو السادس ويتفاهم معه لقطع الصلة التي تربطه ببني عبَّاد، فسار إليه بنفسه واجتمع به وتعهد بأن يؤدي له جزية سنوية مقدارها عشرة آلاف مثقال من الذهب، ويمنحه بعض الحصون الواقعة جنوب غربي جيان، والمعروف أن ألفونسو السادس باعها بعد ذلك إلى المعتمد بن عبَّاد(١).

لم يتم الصلح بين غرناطة وإشبيلية إلا بعد مقتل الوزير ابن عمار في عام (٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤ م)، وسوِّيت جميع الخلافات بينهما، ولكنهما لم يتخذا موقفاً موحَّداً تجاه التهديد النصراني(٢)، واقتصر الأمر على مجرد التشاور وتحذير كل منهما للأخرى إذا ما شعرت باقتراب خطر النصارى، ويبدو أن لذلك علاقة بضعف الدولتين، وعندما سقطت طليطلة بيد ألفونسو السادس، في عام (٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م)، كان عبد الله بن بلكين من المؤيدين لاستدعاء المرابطين، وشارك في الحملة الأندلسية ـ المرابطية المشتركة في معركة الزلاقة.

علاقة دولة سرقسطة بالممالك النصرانية: كان إقليم سرقسطة محط أطماع النصارى منذ عهد المنذر بن يحيى التجيبي، وهو يشمل مدناً وحصوناً مهمة مثل سرقسطة العاصمة وقلعة أيوب ودروقة وببشتر ووشقة ومدينة سالم وصورية وغيرها، لكن الخلاف الأسري الذي نشب بين بني تجيب أدَّى إلى القضاء عليهم وقيام بني هود في حكم سرقسطة منذ عام (٤٣١ هـ/ ١٠٣٩ م).

ودخل بنو هود في معترك الصراعات المحلية للتوسع على حساب ملوك الطوائف، وأدَّى النزاع بين سليمان المستعين بن هود والمأمون بن ذي النون، واستعانة كل منهما بملوك النصارى، إلى إعطاء الفرصة لهؤلاء بأن يقوموا بتخريب أراضي المملكتين ونهب أموالهما، واستمر فرديناند وأخوه شانجة يعيثان في أراضي الدولتين حتى توفي سليمان المستعين في عام (٤٣٨ هـ/ ١٠٤٦ م)، وخلفه ابنه أحمد المقتدر بعد صراع مع إخوته(٣).

وتعرَّضت سرقسطة في عام (٤٥٥ هـ/ ١٠٦٣ م) لهجوم قام به راميرو الأول ملك أراغون، فالتمس أحمد المقتدر المساعدة من فرديناند الأول ملك قشتالة وأقرَّ له بالطاعة، فأرسل إليه قوة عسكرية بقيادة ابنه شانجة ورافقه السيد القمبيطور، اصطدمت بالجيش الأراغوني أمام أسوار حصن جرادوس وانتصرت عليه وقتل

(١) مذكرات الأمير عبد الله: ص ٧٢ ـ ٧٦.

(٢) المصدر نفسه: ص ٨٢.

(٣) ابن عذارى: جـ ٣ ص ٢٢١، ٢٢٢.

راميرو الأول في المعركة، وأدّى مقتله إلى إثارة الشعور الديني ضد مسلمي الثغر الأعلى، فتنادى النصارى للقيام بحملة صليبية، تزعَّمها البابا إسكندر الثاني. واحتشدت في نورمانديا، في فرنسا، قوات نورمانية وأراغونية وفرنسية بلغ تعدادها أربعين ألف فارس، بقيادة جيروم دي مونري، وهو أحد كبار الفرسان في ذلك العهد، وقائد الجيوش الرومانية والبابوية، وتسمِّيه الرواية الإسلامية البيطبين[(١)]، وانطلقت منها باتجاه الأراضي الإسلامية الشرقية، وحاصرت مدينة وشقة، إحدى مدن سرقسطة، إلا أنها فشلت في اقتحامها، فتابعت زحفها متوجهة إلى مدينة بربشتر، إحدى القواعد الأندلسية المنيعة الواقعة على فرع نهر صغير من فروع نهر إبرو بين مدينتي لاردة ووشقة، وحاصرتها، والراجح أن الحصار تَّم في (شهر جمادى الآخرة ٤٥٦ هـ/ شهر أيار ١٠٦٤ م)[(٢)].

لم يبادر أحمد المقتدر بنجدة المدينة، إذ كانت من أعمال أخيه يوسف المظفر، مبرهناً عن قصر نظر، كما لم يستطع يوسف نفسه تقديم المساعدة لها، فتركها تواجه مصيرها. استمر الحصار مدة أربعين يوماً، جرت خلالها معارك عديدة خارج المدينة، حتى قلَّت الأقوات، واشتدَّ الضِّيق بالسكان، كما قطع النصارى الماء عنهم، ثم اقتحموا المدينة الخارجية، فتحصَّن السكان بالقصبة والمدينة الداخلية، وكان باستطاعتهم الصمود لمدة طويلة لولا أن اهتدى النورمان إلى مجرى الماء الذي يغذي المدينة الداخلية، فردموه، فانقطع الماء عن المحاصَرين، واشتدَّ ظمؤهم، وخيَّم شبح الموت عليهم[(٣)].

وللخروج من هذا الموقف الصعب، عرض السكان الاستسلام مقابل الأمان على أنفسهم وأولادهم، لكن النورمان رفضوا ذلك، واقتحموا المدينة الداخلية، وأجروا فيها مذبحة مروعة اهتزت لها الأندلس كلها، وعُدَّت من أفظع ما حدث فيها من أعمال وحشية، وجرائم مذهلة ومثيرة، وقدَّر المؤرخون المسلمون عدد القتلى بين أربعين وخمسين ألفاً. واستولى النورمان على مقادير هائلة من السبي والغنائم، لا سيما الأطفال والنساء، ثم غادروها بعد أن تركوا فيها حامية عسكرية، واستعمروها بالسكان النصارى الذين جلبوهم من المناطق النصرانية المجاورة[(٤)].

---

(١) مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ص ٥٤. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار ص ٤٠. ابن عذارى: جـ ٣ ص ٢٢٥.

(٢) ابن عذارى: جـ ٣ ص ٢٥٣.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٢٥، ٢٢٦.

(٤) المصدر نفسه. مؤلف مجهول: الحلل الموشية ص ٥٤.

كان لنكبة بربشتر أثر كبير وصدى عميق في كافة أنحاء الأندلس، وبخاصة في نفس أحمد المقتدر الذي اتُّهم بالتقصير في مساعدة المدينة والدفاع عنها، فقام تيار يدعو للجهاد، ولبَّى الدعوة كثير من المتطوعين بلغ عددهم ستة آلاف، فساروا إلى الثغر، وقدَّم ابن عبَّاد، وصاحب إشبيلية، خمسمائة فارس[1].

وقاد أحمد المقتدر القوات الإسلامية باتجاه بربشتر لاستعادتها، ولما وصل إليها، ضرب حصاراً عليها. تحصَّن النصارى داخل المدينة وقاوموا القوات الإسلامية، غير أن المسلمين نجحوا في فتح ثغرة كبيرة في الأسوار، فنفذوا منها إلى داخل المدينة، وجرى قتال في الشوارع والأزقة اتَّسم بالشدَّة بفعل الحماس الديني لكلا الطرفين، وأسفر عن انتصار المسلمين، وهلك معظم النصارى وأُسر من نجا منهم. ودخل المسلمون المدينة في (٨ جمادى الأولى ٤٥٧ هـ/ ١٧ نيسان ١٠٦٥ م)[2].

تدلُّ مأساة بربشتر على مدى الضعف والخلل الذي أصاب الحياة الإسلامية في ذلك الوقت، وبخاصة فيما يتعلق بأمراء المسلمين. وعلا نجم أحمد المقتدر بعد استرداد المدينة، فأضاف إلى أملاكه أراضي جديدة انتزعها من جيرانه النصارى والمسلمين على السواء، فاستولى على طرطوشة ودانية وجزء من طركونة، وأطراف بنبلونة، وطمع في بلنسية، فاستعان بألفونسو السادس من أجل ذلك.

انقسمت مملكة سرقسطة، بعد وفاة أحمد المقتدر في عام (٤٧٤ هـ/ ١٠٨١ م)، بين ولديه، يوسف المؤتمن والمنذر، وجرى بينهما قتال.

وحدث آنذاك أن فرَّ عمُّهما يوسف المظفر من سجنه في قلعة روطة، والتجأ إلى ألفونسو السادس، وما لبث أن توفي هناك، فانتهز الملك القشتالي الفرصة وهاجم سرقسطة بحجة أن يوسف المظفر تنازل له عن حقه المغتصب من أراضي المملكة، لكن حملته باءت بالفشل. وكرَّر محاولته بعد أن استردَّ طليطلة، ولم ينقذها منه هذه المرة سوى انتشار الأنباء عن نزول المرابطين في الأندلس حيث عاد إلى قشتالة ليعبىء قواته استعداداً للاصطدام بهم.

علاقة دولة بطليوس بالممالك النصرانية: كانت أطراف مملكة بطليوس الشمالية، الواقعة بين نهري التاجُه ودويرة، تشمل منطقة مجرَّدة من وسائل الدفاع، فاخترقها الملك القشتالي فرديناند الأول في عام (٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م) واستولى على مدينتي

(١) ابن عذاري: جـ ٣ ص ٢٢٧.

(٢) المصدر نفسه. الحميري: ص ٤١.

لايجو وبازو، الواقعتين شمالي البرتغال الحالية، فاسترقَّ السكان المسلمين، وأسكن المدينتين بالنصارى. ولم يبذل المظفر محمد بن عبد الله بن مسلمة، المعروف بابن الأفطس، أي جهد في مساعدة سكانهما، غير أنه توقف عن دفع الجزية للملك القشتالي، ما دفع هذا الأخير إلى أن يرسل حملة عسكرية، مؤلفة من ثلاثين ألف مقاتل، هاجمت شنترين وشنتمرية الغرب، ولكن من دون جدوى، غير أنه استولى على قلمرية في عام (٤٥٦ هـ/ ١٠٦٤ م)، وهي من أهم مدن شمالي البرتغال، وعمد إلى تهجير المسلمين من الأراضي الواقعة بين نهري دويرة ومنديجو، تنفيذاً لمخططه بإخلاء الأراضي المجاورة لمملكته منهم، وشدَّد ضغطه على الثغور الغربية وفرض الجزية على سكانها[١].

وتدخل عمر المتوكل، الذي خلف أباه المظفر محمد بن الأفطس في شؤون طليطلة، كما ذكرنا، الأمر الذي أثار حفيظة ألفونسو السادس، فهاجم قورية، الواقعة في أطراف مملكة بطليوس الشمالية، في عام (٤٧٣ هـ/ ١٠٨٠ م) واستولى عليها. وأرسل إلى عمر المتوكل رسالة يهدِّده فيها ويطالبه بتسليم بلاده، فردَّ عليه رداً عنيفاً مدركاً، في الوقت نفسه، خطورة هذا الطلب، فحثَّ زعماء الأندلس على لَمِّ الشعث وتوحيد الكلمة لمواجهة خطر الملك القشتالي، غير أن دعوته لم تثمر، فالتفت عندئذٍ إلى عدوة المغرب وطلب المساعدة سن المرابطين.

علاقة دولة بلنسية بالممالك النصرانية: تُمثِّل بلنسية نموذجاً للفوضى السياسية التي كانت سمة عهد ملوك الطوائف، فقد شهدت تقلبات سريعة في تناوب الحكم، كما ذكرنا، ويُعدُّ تاريخها خير مثال يمكن أن نضربه للتعرُّف على حقيقة العلاقات السياسية التي كانت موجودة على أرض شبه الجزيرة الإيبيرية في ذلك الوقت[٢].

تعرَّضت بلنسية، في عام (٤٥٧ هـ/ ١٠٦٥ م)، لهجمة شرسة من جانب فرديناند الأول، ويبدو أنها كانت ردَّ فعل لاسترداد بربشتر من أيدي النصارى على يد أحمد المقتدر بن هود، وتوقفه عن دفع الجزية للملك النصراني، فما كان من هذا الأخير إلا أن هاجم أراضي سرقسطة ثم أشرف على بلنسية وحاصرها، غير أنه مرض، أثناء الحصار، فرفعه وعاد إلى بلاده[٣].

وتعرضت بلنسية أيضاً، في ظل حكم يحيى القادر، لضغط المنذر بن هود

---

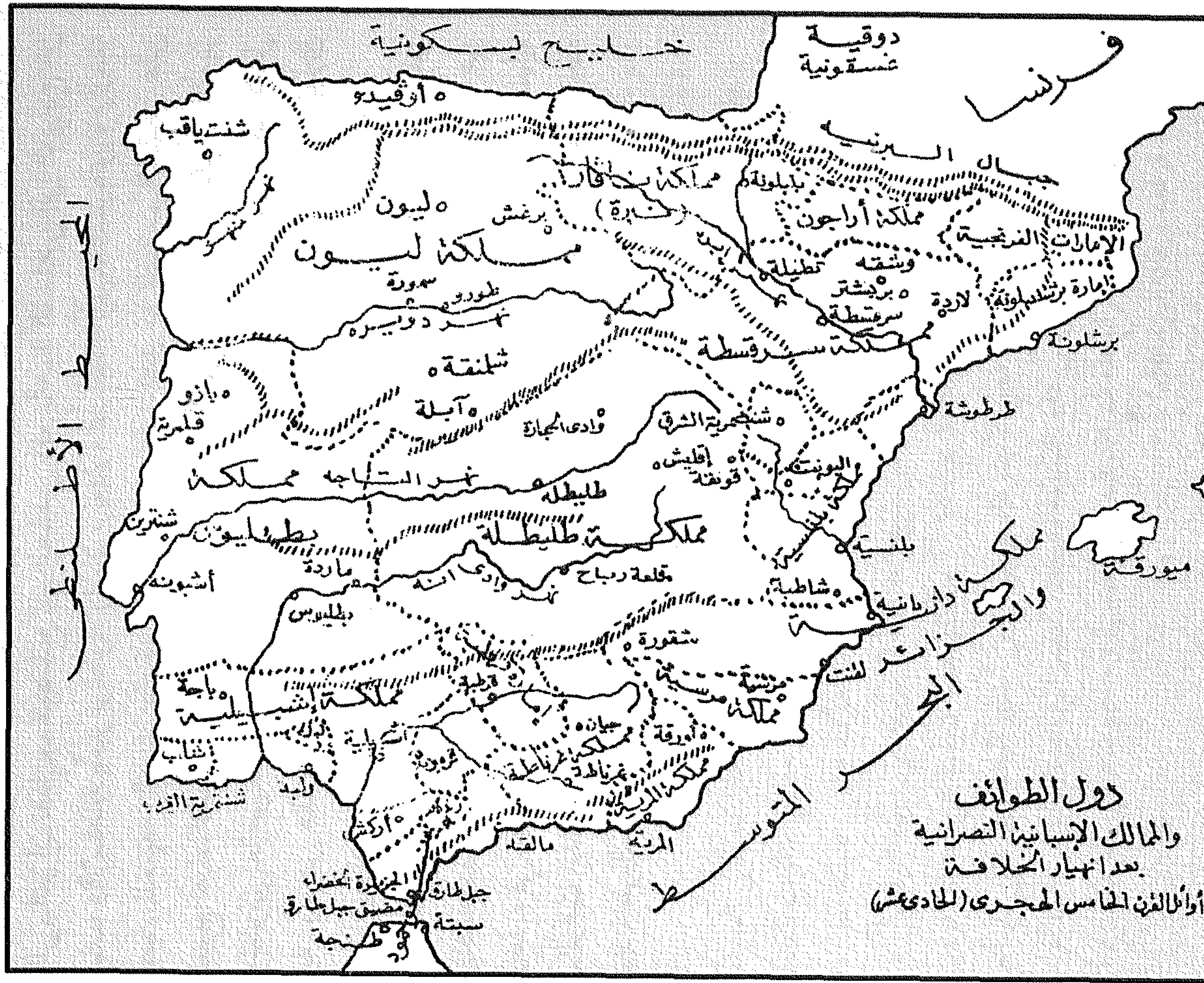
(١) ابن عذاري: جـ ٣ ص ٢٣٨.
(٢) عبد الحليم: ص ٣٤٧.
(٣) المرجع نفسه: ص ٣٤٨، ٣٤٩.

صاحب طرطوشة ودانية والجزء الشرقي من مملكة سرقسطة، وكانت المدينة تشطر أملاكه، فالتمس المساعدة من كل من ألفونسو السادس وأحمد المستعين صاحب سرقسطة، فهرع هذا إلى بلنسية ومعه حليفه السيد القمبيطور على رأس سبعة آلاف فارس، غير أن تضارب المصالح بين الحليفين دفع بأحمد المستعين إلى الخروج من الحلف والاستعانة بأمير برشلونة رامون برنجار، ألدِّ أعداء السيد القمبيطور، وأرسله لحصار بلنسية. والجدير بالذكر أن السيد القمبيطور اتفق مع ألفونسو السادس على أن يبيح له امتلاك وتوريث ما يحصل عليه من أراضي المسلمين، غير أن الأمير البرشلوني تعرَّض للهزيمة ووقع في أسر السيد القمبيطور الذي أطلق سراحه مقابل فدية. وفرض هذا سيطرته على شرقي الأندلس، كما فرض الجزية على القرى والضياع، وتعهد يحيى القادر بدفع مبلغ مائة ألف دينار سنوياً مقابل حمايته له[١].

ويبدو أن أعداءه في البلاط القشتالي أثاروا ألفونسو السادس ضده وخوَّفوه من ازدياد نفوذه ومن غدره لأنه يعمل لمصلحته الشخصية، وبخاصة أنه تخلَّف عن مساعدته في حصار حصن لييط ـ أليدو ـ فقبض على زوجته وأولاده، وهاجم بلنسية في الوقت الذي كان فيه السيد القمبيطور في سرقسطة، لتنظيم الدفاع عنها تجاه ازدياد خطر المرابطين[٢].

(١) ابن الكردبوس: ص ٩٨. عنان: ص ٢٢٩، ٢٣٠.

(٢) ابن الكردبوس: ص ١٠٠. عنان: ص ٢٣٩.



عنّان: القسم الأول ـ العصر الثاني، ص ٢٧

الفصل الرابع عشر

الأندلس في ظل حكم المرابطين

(٤٧٩ ـ ٥٤١ هـ/١٠٨٦ ـ ١١٤٦ م)

عهد يوسف بن تاشفين (٤٧٩ ـ ٥٠٠ هـ/ ١٠٨٦ ـ ١١٠٦ م)

أصل المرابطين(١): ينتمي المرابطون ـ الملثمون(٢) ـ إلى قبائل لمتونة وجدالة ومسوّفة وهي تتفرع من صنهاجة الصحراء، وكانت تعيش في أقصى جنوبي المغرب الأقصى في الصحراء الممتدة من غدامس شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن جبال درن في الشمال حتى مصب نهر السنغال في الجنوب امتداداً إلى منحنى النيجر، وتتخطّى مضاربهم هذا النهر إلى الشرق فتصل إلى تادمكة في قلب الصحراء الكبرى، وكانوا يعيشون حياة رعوية تعتمد على رعي الماشية والزراعة الصحراوية.

قُدِّر لقبيلة جدالة القوية والفتية، في عهد زعيمها يحيى بن إبراهيم، أن تتبنّى الحركة الدينية التي انتهت بقيام دولة المرابطين. كان هذا الرجل مستنيراً، أراد

---

(١) المرابطون، نسبة إلى الرباط، والرباط حصن عسكري يُقام في الثغور المواجهة للعدو للدفاع عنها. ولعل هذه التسمية مقتبسة من القرآن الكريم: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال/ ٦٠]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران/ ٢٠٠]. ويحتوي الرباط على برج مراقبة وحصن صغير. وبدلنا تفسير كلمة الرباط على معالم التطور الذي أصاب حركة المرابطين في الشرق والغرب. فالرباط معناه ملازمة ثغر العدو، ومعناه أيضاً المحافظة على أوقات الصلاة، واتخذ معنى مجازياً دلالة على المجاهدين في سبيل الله المميزين بشدة البر وحسن البلاء.

(٢) تميز رجال القبائل الصحراوية في ارتداء اللثام لستر الوجه فلا تبدو إلا محاجر العينين، فعرفوا بالملثمين، وانفردوا بهذا التعريف من دون سائر قبائل البربر حتى غدا الاسم علماً عليهم. وعلى الرغم من تعدُّد أسباب ارتداء اللثام، من اتقاء الحر وغبار الصحراء وخداع العدو في الحرب، فإنه أضحى، بمضي الزمن، عادة متغلغلة في النفس سمت إلى مرتبة العقيدة.
انظر: محمود، حسن أحمد: قيام دولة المرابطين ص ٤٩، ٥٠.

الانفتاح على الشمال عن طريق وصل مجتمعه بسائر المجتمعات المغربية، مدركاً البون الشاسع بين بيئته الصحراوية التي يظلُّها الجهل، وبين بيئة المغرب الغنية بالحياة العقلية، لذلك يمَّم وجهه صوب المغرب طلباً للعلم أو بحثاً عن فقيه ليعلِّم قومه قواعد الإسلام، فقصد القيروان واجتمع فيها بإمام المالكية الفقيه أبي عمران الفاسي، فتتلمذ على يديه، ثم طلب منه فقيهاً من تلاميذه ليصحبه إلى بلاده ليعلم أبناء قبيلته تعاليم الإسلام، فسيَّره إلى أحد تلاميذه من فقهاء المغرب الأقصى يدعى وجاج بن زللو اللمطي، وكان يقيم في داره في السوس، التي خصَّها لنشر العلم وعمل الخير وسماها دار المرابطين، فاجتمع به وسلَّمه كتاب الإمام، فندب معه أحد تلاميذه ويدعى عبد الله بن ياسين الجزولي(١).

كانت التجربة الإصلاحية الأولى فاشلة، وانتهت بمؤامرة تزعمها فقيه محلي يُدعى الجوهر بن سكن، كادت تؤدي بحياة عبد الله بن ياسين ـ ويبدو أن لذلك علاقة بمدى تجذر العادات السيئة في مجتمع الملثمين وصرامة عبد الله بن ياسين في محاربة ما هم عليه ـ فانسحب مع يحيى بن إبراهيم إلى جزيرة في حوض نهر السنغال وأسسا فيها رباطاً للعبادة والإصلاح(٢).

بدأت المرابطة في الجزيرة بسبعة أشخاص من جدالة في عام (٤٣٣ هـ/ ١٠٤١م)، وأطلق عليهم عبد الله بن ياسين اسم المرابطين لملازمتهم لرباطه، وسرعان ما تكاثر عددهم بما كان ينضم إليهم من المريدين. وأنشأ هذا الإمام مذهباً خاصاً راح يفرضه على أتباعه، يستند في أحكامه على الشريعة الإسلامية على مذهب الإمام مالك، وأهم أسسه، الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتزام أحكام الدين في جميع الأمور، وإقامة الحدود، وجباية الأموال. وبعد أن كثر أنصاره، واستكمل قوته، خرج مع أتباعه من الجزيرة لنشر مبادىء مذهبه بين قبائل الصحراء، فأخضع جدالة ومسوّفة، وفرض مذهبه على اتباعهما وبايعته لمتونة(٣).

واجه عبد الله بن ياسين، عقب وفاة يحيى بن إبراهيم في عام (٤٤٠ هـ/ ١٠٤٨ م)، أزمة سياسية حادة كادت تعصف بوحدة المرابطين، ذلك أن الجداليين تمسَّكوا باحتكار السلطة بوصفهم الفئة التي آوت عبد الله بن ياسين واحتضنت دعوته، لكن عبد

(١) ابن عذارى: جـ ٤ ص ٧، ٨. ابن أبي زرع: ص ٧٧، ٧٨.

(٢) ابن عذارى: جـ ٤ ص ١٠.

(٣) ابن أبي زرع: ص ٧٩. البكري: المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب ص ١٦٦، ١٦٧.

الله لم يشأ أن ينساق وراء نزعات قبلية ضيقة، وإنما أراد أن يختار أصلح القوم وأقدرهم على تحمُّل عبء الجهاد، فاختار يحيى بن عمر اللمتوني أميراً على المرابطين، واستطاع هذا، بسياسة القوة والحزم، أن يحافظ على وحدتهم، وعادت جدالة إلى ساحل المحيط الأطلسي لَتتزعَّم المعارضة ضد المرابطين، وبذلك انتقلت الزعامة السياسية والعسكرية من قبيلة جدالة إلى قبيلة لمتونة[1].

تمدُّد المرابطين نحو الشمال ـ السيطرة على المغرب الأقصى: استشهد يحيى بن عمرأثناء القتال الذي نشب مع الغانيين الوثنيين في عام (٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م)، وخلفه أخوه أبو بكر[2]، فتجاوزت شهرة المرابطين في عهده جبال درن، إلى الشمال. وكان من الطبيعي، بعد تأمين جبهة الجنوب، بالانتصار على الغانيين وإعادة السيطرة على طرق التجارة مع الشمال، أن يتطلع عبد الله بن ياسين إلى التمدد باتجاه الشمال، إلى المغرب الأقصى، وقد تحكَّمت عدة دوافع بهذه السياسة التوسعية نحو الشمال، لعل أهمها:

الدافع الديني: كان المرابطون قبل كل شيء أصحاب رسالة دينية يريدون نشرها في المجتمع الإسلامي في المغرب والأندلس.

الدافع السياسي: يتمثَّل في الصراع القديم بين صنهاجة البرانسية وزناتة البترية، والمعروف أن هذه الأخيرة أذلَّت الملثمين طوال قرون، وأجبرتهم على النزوح إلى الصحراء في الجنوب مستقوية بالخلافة الأموية في الأندلس وخروج الفاطميين من شمالي إفريقيا، لكن شمل زناتة تفرَّقَ وضعف أمرها بعد زوال الخلافة المذكورة في الوقت الذي اتحدت فيه صنهاجة الجنوب واشتد ساعدها، وتطلعت للأخذ بثأرها القديم، وانتزاع الأرض الخصبة التي ظل الزناتيون يسيطرون عليها مدة طويلة.

الدافع الاقتصادي: يتمثَّل هذا الدافع برغبة المرابطين في السيطرة على طرق التجارة الشمالية والتمتُّع بأراضي المغرب الخصبة بعد أن تعرَّضت بلادهم للجفاف، والتخلُّص من مشاركة القبائل الزناتية لهم، في تجارة المغرب والسودان، يضاف إلى ذلك، فقد أضحت الصحراء تضيق بجموع الملثمين الذين كانوا يتزايدون يوماً بعد يوم، وكان لا بد من أن يجد القيِّمون مجالاً حيوياً يتوجهون إليه بعد أن ضاقت في وجوههم سبل الرزق في الصحراء.

---

(١) ابن عذارى: جـ ٤ ص ١٢.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٤.

كان المغرب الأقصى يعاني، آنذاك، من محنة سياسية ودينية، وتوزعت القوى على أربع إمارات رئيسية:

الأولى: إمارة برغواطة، في إقليم تامسنا، التي دان أفرادها بدين مستقل عن الدين الإسلامي ممزوج بتأثيرات يهودية إلى جانب التأثيرات الإسلامية.

الثانية: إمارة غمارة في جبال الريف الشمالية، وقد انحرف عدد كبير من أفرادها عن الإسلام، لذلك يتوجب قتالها.

الثالثة: إمارة شيعية في بلاد السوس، وحاضرتها مدينة تارودنت.

الرابعة: إمارة الزناتيين التي توزعت على عدد من القبائل مثل بني يفرن في سلاوتادلا، وبني مغراوة في فاس وأغمات، وبني خزرون في سجلماسة وكانت تمثل القوة الشرعية الحاكمة في المغرب على المذهب السُّنِّي.

وبعد سلسلة من المواجهات العسكرية مع تلك الإمارات، نجح المرابطون في السيطرة على مدن المغرب الأقصى كافة بما فيها طنجة وسبتة، وكان أبو بكر بن عمر قد أسس مدينة مراكش في عام (٤٦٢ هـ/ ١٠٧٠ م) واتخذها عاصمة له[١].

ظهور يوسف بن تاشفين: برز يوسف بن تاشفين كقائد عسكري في معركة الواحات. وبعد ضم سجلماسة عيَّنه ابن عمه أبو بكر عمر اللمتوني والياً عليها، فأظهر مهارة إدارية في تنظيمها، ثم تولَّى قيادة القوات المرابطية التي ضمَّت المغرب الأقصى.

وحدث أن اختار المرابطون، بعد مقتل زعيمهم الروحي عبد الله بن ياسين، أبا بكر بن عمر اللمتوني خلفاً له[٢]، وقد صبَّت هذه الحادثة في مصلحة يوسف بن تاشفين، وشكَّلت الخطوة الأولى نحو اعتلائه منصب رئاسة الدولة الناشئة. إذ إن الإمام جمع بين السلطتين الدينية والسياسية، لكن الصبغة السياسية للأمير أخذت تغلب على صبغته الدينية، لأن الدولة كانت تمر بدور من أدوار النضال السياسي والعسكري، فثقل العبء عليه، وازداد اعتماده على ابن عمه يوسف بن تاشفين، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، اضطر أبو بكر بن عمر أن يعود أدراجه إلى الجنوب بفعل تجدُّد الصراع بين جدالة ولمتونة، الذي من شأنه إذا ما استمر أن يقوِّض أسس الحركة ويقضي عليها، كما أن ملوك الزنوج استغلوا فرصة انصراف غالبية القوات

---

(١) ابن عذارى: جـ ٤ ص ١٤ ـ ٢١.

(٢) ابن أبي زرع: ص ٨٣.

الملثمة إلى القتال في الشمال، فحاولوا أن يطعنوها من الخلف، واستخلف قبل عودته يوسف بن تاشفين على المغرب الأقصى كله، وترك له ثلث الجيش المرابطي[1].

وعندما استقام أمر الجنوب، عاد إلى المغرب، واجتمع بابن عمه يوسف، وجدَّد له استخلافه على المغرب الأقصى، وتخلَّى طائعاً عن السلطة واكتفى بالسيادة الاسمية. ويُعَدُّ يوسف هذا المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين على الرغم من جهود من سبقه، واتخذ لقب الأمير، وبايعه أمراء وشيوخ القبائل.

الأندلسيون يلتمسون المساعدة من المرابطين: تعود فكرة التماس الأندلسيين المساعدة من المرابطين في العدوة المغربية إلى أعوام قبل سقوط طليطلة في يد ألفونسو السادس في عام (٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م). ففي (٤٧٥ هـ/ ١٠٨٢ م) أرسل الملك القشتالي سفارة إلى المعتمد بن عبَّاد، برئاسة وزيره اليهودي ابن شاليب، لقبض أموال الجزية، ويبدو أنه كانت للسفارة أهداف أخرى، إذ طلب أعضاؤها من المعتمد السماح لزوجة ألفونسو السادس أن تلد في مسجد قرطبة، وفقاً لإشارة القساوسة والأساقفة، كما طلبوا أن تنزل الزوجة في قصر الزهراء وفقاً لإشارة الأطباء، واشتطَّ رئيس البعثة في مطالبه كما في أسلوبه المملوء بالتهديد، وانتهى الأمر بقتله واعتقال بقية أعضاء السفارة[2].

تطورت الأمور عقب ذلك نحو التأزم، فأقسم ألفونسو السادس أن ينتقم بشدة، فأرسل فرقاً عسكرية عاثت في أراضي غربي الأندلس، وسار هو، على رأس جيشه، باتجاه إشبيلية، ولما وصل إليها ضرب حصاراً مركزاً عليها. ويبدو أن الحصار قد طال، فكتب إلى المعتمد: «كثر بطول مقامي في مجلسي الذباب، واشتد عليَّ الحر، فألقني من قصرك بمروحة أروِّح بها على نفسي واطرد الذباب عني». فأجابه المعتمد: «قرأت كتابك، وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية في أيدي الجيوش المرابطية تروِّح منك ولا تروِّح عليك إن شاء الله»[3]. فلما تُرجم له توقيع المعتمد أطرق من لم يخطر له بذلك ببال، لكن سقوط طليطلة، كان العامل المباشر الذي دفع بهذه الفكرة إلى حيز التنفيذ.

---

(١) ابن عذاري: جـ ٤ ص ٢١. مؤلف مجهول: الحلل الموشية ص ١٧.

(٢) الحميري: الروض المعطار ص ٨٤. المقري: جـ ٦ ص ٢٣.

(٣) الحميري: المصدر نفسه: ص ٨٥.

تحاول روايات المصادر أن تُظهر المعتمد بن عبَّاد بمظهر صاحب الفكرة في استدعاء المرابطين إلى الأندلس، تبنَّى الفكرة ودافع عنها، وراسل يوسف بن تاشفين يُصوِّر له سوء الأوضاع، ويلهب حميته وحماسته، ويستدر عطفه، ويستنهض همته، وتصوِّر الخلاف في وجهات النظر بينه وبين ابنه الرشيد الذي عارض هذه الفكرة خشية من أن يطمع في ملكه ويصرفه عما بيده من البلاد. فردَّ عليه بكلمات ختمها بقوله: «رعي الجمال خير من رعي الخنازير»[1]، إشارة إلى تفضيله العيش تحت حكم يوسف بن تاشفين، مأكولاً له، يرعى جماله في الصحراء، على حكم ألفونسو السادس، ممزقاً، أسيراً له، يرعى خنازيره في هضاب قشتالة وأشتوريس، وهي إشارة إلى تبرير ما أقدم عليه يوسف بن تاشفين من أَسْر المعتمد بن عبَّاد بعد ذلك.

ويبدو أن غالبية ملوك الطوائف توجسوا خيفة من مشروع المعتمد بن عبَّاد، ونصحوه بمداراة ألفونسو السادس ومصانعته والرضوخ لمطالبه وشروطه، والراجح أنهم كانوا يتابعون تطور الأوضاع السياسية والعسكرية في المغرب الأقصى نظراً للارتباط الوثيق بين العدوتين والتأثير المتبادل بين شمالي إفريقيا والأندلس، وهي ظاهرة تتجدَّد وتتكرَّر في كل عهد منذ الفتح الإسلامي، وقد أثارهم توسع المرابطين وتمدُّدهم باتجاه طنجة وسبتة، فتوجسوا خيفة، وشعروا بأن قوة جديدة قد ظهرت على حدودهم الجنوبية، وتتهيأ للتدخل في شؤونهم، وكرهوا أن يقعوا بين عدوين: الفرنج عن شمالهم والمرابطين عن جنوبهم.

غير أن هناك ناحية هامة كشفت عن الدور الكبير الذي أدَّاه الفقهاء في الأندلس لإنقاذ البلاد من التمزق السياسي، والوقوف في وجه الخطر النصراني، وبخاصة بعد سقوط طليطلة، فعقدوا مؤتمراً في قرطبة للتشاور فيما يجب عمله، وعرضوا على قاضي المدينة عبيد الله بن أدهم ما وصل إليه وضع المسلمين من الذل، واقترحوا عليه التماس المساعدة من عرب إفريقيا الهلاليين، ولكن القاضي خشي من أن يُقدموا على تخريب الأندلس كما فعلوا بإفريقيا، وأشار عليهم الاتصال بالمرابطين لأنهم أصلح منهم وأقرب إلى الأندلس، ففوَّضوه بهذا الأمر، وكان من الطبيعي أن يقف العامة وراء الفقهاء يساندونهم في دعوتهم.

يُعدُّ مؤتمر قرطبة أول اجتماع شعبي للخروج بالأندلس من محنتها، بزعامة الفقهاء

(١) الحميري: الروض المعطار ص ٨٥. ابن خلكان: جـ ٧ ص ١١٥. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ١٥٦.

ملاذ الأمة في الظروف الصعبة. وتجاوز الأندلسيون حكامهم السياسيين والتجأوا إلى قادتهم الروحيين من أجل الخلاص والحفاظ على الملّة والبلاد والعباد.

وهكذا أضحت كفة الاستعانة بالمرابطين، من أجل تقويم الموقف الصعب في الأندلس، هي الراجحة، وضغطت على ملوك الطوائف وبخاصة المعتمد بن عبّاد والمتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس. وجرت مباحثات بين هذين الأميرين والأمير عبد الله بن بلكين الصنهاجي صاحب غرناطة، تقرَّر بنتيجتها إرسال وفد إلى المغرب لمقابلة يوسف بن تاشفين والطلب منه العبور إلى الأندلس لمساعدة الأندلسيين.

تشكّلت البعثة الرسمية من قاضي قرطبة عبد الله بن أدهم، وقاضي بطليوس ابن مقانا وقاضي غرناطة ابن القليعي، وأرسل المعتمد معهم وزيره أبا بكر بن زيدون، وحمل أعضاؤها رسالة مكتوبة من المعتمد بن عبَّاد إلى يوسف بن تاشفين يبين فيها ما أضحى عليه المسلمون من الذل وما تتعرَّض له المدن والحصون من الغارات المدمرة من جانب النصارى، ويدعوه للعبور إليه.

عبر أعضاء البعثة إلى المغرب الأقصى واجتمعوا بيوسف بن تاشفين في مراكش وسلّموه الرسالة، وكانت وفود شعبية عديدة ترد من الأندلس وتؤمُّ مراكش مستغيثة بالأمير المرابطي(١).

أطلع يوسف بن تاشفين أركان حربه ووزرائه على مضمون الرسالة والمباحثات التي جرت مع أعضاء البعثة الأندلسية، وكان هؤلاء متحمسين لدخول الأندلس والجهاد ضد النصارى، فوافقوا على طلب الاستغاثة، وعدُّوها واجباً على كل مسلم.

دوافع المرابطين للاستجابة لطلب المساعدة: الحقيقة أن المرابطين بعامة ويوسف ابن تاشفين بخاصة، كانوا مدفوعين بعدة عوامل جعلتهم يوافقون على طلب الأندلسيين، لعل أهمها:

العامل الجهادي: كان باستطاعة يوسف بن تاشفين أن يتوسع باتجاه الشرق، حيث توقف المد المرابطي عند مدينة بجاية التي كان يحكمها بنو حماد الصنهاجيون، ويبسط نفوذه على تلك النواحي، ولكنه لم يفعل بسبب قرابته من بني حماد من جهة، كما أنه لم يكن يسعى إلى كسب مادي، بل إلى نصر أدبي، وهو تحقيق أهداف عبد الله بن ياسين من واقع إبقاء جذوة الجهاد مشتعلة في نفوس أتباعه، وتوجيههم

---

(١) الحميري: ص ٨٧. المقري: جـ ٦ ص ١٢٩.

إلى ميدان جديد من الجهاد الذي أضحى الطابع المميز لهم، ولوْ وقف مكتوف اليدين أمام أحداث الأندلس، لكان في موقف الخارج على رسالة إمامه الروحي، لذلك كان على استعداد للتدخل حتى لو لم يستنجد به ملوك الطوائف.

العامل السياسي: تُعدُّ الأندلس المجال الحيوي للمغرب الأقصى، وترتبط حركة عبور المرابطين إلى هذا البلد بواقعه المرير القاتم، إذ بدأ النصارى يطرقون أبوابه ويستردون الأرض وينكِّلون بالمسلمين، وبدأت أطماع يوسف بن تاشفين واضحة في استنقاذه من أيدي النصارى وضمِّه إلى المغرب الأقصى. يضاف إلى ذلك، فقد أراد أمير المرابطين حماية مكتسباته في المغرب الأقصى بضم الأندلس والسيطرة على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط بعد نمو البحرية المرابطية.

العامل الجغرافي: كان لهذا العامل أثر في توجيه قوة الدولة المرابطية. فقد أطلَّ المرابطون على سواحل البحر الأبيض المتوسط، وأضحت شواطىء بلادهم الطويلة معرَّضة لغارات الأساطيل الفرنجية، فكان من الطبيعي أن تهتم الدولة بما كان يجري في الحوض الغربي لهذا البحر، كما أضحت تطل على الأندلس وتهتم بما كان يجري فيه.

عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس: المرة الأولى: أراد يوسف بن تاشفين أن يحافظ على خطوط تموينه قبل عبوره إلى الأندلس، ويؤمِّن طريق العودة إذا ما انتصر العدو عليه، لذلك طلب من المعتمد بن عبَّاد تسليمه الجزيرة الخضراء، فارتضى وقَبِل بهذه التضحية على الرغم من اعتراض ابنه الرشيد، كما وافق مع ملوك الطوائف على تقديم التسهيلات اللازمة للمرابطين، وبخاصة المؤن والعلف والضيافات على طول الطريق إلى جبهة القتال. وبعد حصوله على الجزيرة الخضراء، حشد يوسف بن تاشفين جيشاً من مختلف أنحاء المغرب، وأصدر أوامره بالعبور إلى الأندلس، كما أمر بعبور الجمال بأعداد كثيرة لاستخدامها في القتال، ولما تكامل عبور الجيش، عبر في إثره يوم الخميس (١٥ ربيع الأول ٤٧٩ هـ/ ٣٠ حزيران ١٠٨٦ م)، ونزل في الجزيرة الخضراء، فاستقبله سكانها بالترحاب. وبعد استراحة بضعة أيام سار إلى إشبيلية، وكان المعتمد بن عبَّاد قد خرج منها والتقى به على بُعد مرحلة من الجزيرة الخضراء، ثم تابعا طريقهما معاً إلى إشبيلية، فوصلا إليها بعد ثلاثة أيام[(١)].

---

(١) الحميري: ص ٩٧. ابن خلكان: جـ ٧ ص ١١٦. المراكشي: ص ٩٢، ٩٣. المقري: جـ ٦ ص ١٢٩.

كان هدف يوسف بن تاشفين حشد القوى الإسلامية في جبهة واحدة لمواجهة العدو، فاستنفر ملوك الطوائف للجهاد، فلبى الدعوة منهم، عبد الله بن بلكين صاحب غرناطة وأخوه تميم صاحب مالقة، وأرسل المعتصم، صاحب المرية، ابنه معز الدولة، وكذلك أصحاب الثغر الأعلى، وابن ذي النون، وبنو عزون، ولم يبقَ من ملوك الطوائف إلا من بادر وأعان وخرج وأخرَج[(١)].

والملفت أن ملوك الطوائف اتحدوا بعد تفرُّق، وتوحدت جهودهم بعد طول تحاسد، وبدا كأن يوسف بن تاشفين قد وصل ما انقطع من تاريخ البلاد منذ وفاة المنصور محمد بن أبي عامر، وأن المجتمع الأندلسي قد أفاق فجأة من سبات طويل، وبدأ ينتفض بقوة على يد المرابطين[(٢)].

معركة الزلاقة

مقدمات المعركة: شعر النصارى في شمالي الأندلس بالخطر الداهم، وأدركوا أن ثمة تغييراً قد طرأ على الجبهة الإسلامية. وكانت أنباء العبور قد وصلت إلى مسامع ألفونسو السادس وهو يحاصر سرقسطة في معظم أفراد جيشه، فارتاع، وخشي على عاصمته وعلى أراضيه الجنوبية، ففك الحصار عنها وعاد مسرعاً إلى طليطلة للاستعداد لدفع الخطر الذي داهمه على غفلة. فاستنفر كل قادر على حمل السلاح في مملكته، وتحالف مع ملوك وأمراء النصارى، إذ كانت المحنة عامة، أمثال شانجة راميرو ملك أراغون، والأمير رامون برنجار حاكم بنبلونة، واستدعى قائده البرهانس من بلنسية، كما طلب المساعدة من وراء جبال البرينيه من لانجدوك وجويانة وبرغونية وبروڤانس، وباركت الكنيسة الدعوة، وأذكت الحماس في نفوس الأوروبيين المتطوعين، فجاء الفرسان من إيطاليا وفرنسا[(٣)].

كانت التطورات العسكرية تُنذر بأن الصدام بين المسلمين والنصارى، هذه المرة، سيكون فاصلاً لكليهما، وكانت الروح المعنوية العالية التي بثَّها مجيء المرابطين وحركة الوحدة التي تفشَّت بين ملوك الطوائف؛ قد جدَّدت العزائم، وقوَّت القلوب، وأحيت الآمال. وفي المقابل، كانت القوة النصرانية قد بلغت مرحلة متقدمة، في شبه

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله: ص ١٠٤. الضبي: ص ٣١.

(٢) محمود: ص ٢٣٤، ٢٣٥.

(٣) الحميري: ص ٨٨. ابن أبي زرع: ص ٩٤. ابن خلكان: جـ ٥ ص ٢٩. أشباخ: جـ ١ ص٨٠.

الجزيرة الإيبيرية، تقارب الذروة، تذكيها نزعة صليبية تهدف إلى طرد المسلمين من الأندلس. وأظهر الأندلسيون حماساً للجهاد والقتال، ولكن غلبت على معظمهم حياة الدعة والخنوع، فهم متردِّدون، حريصون على حياتهم، فلا يرغبون في الاستشهاد، باستثناء قلَّة منهم، وقد أدرك يوسف بن تاشفين ذلك، فعمد إلى فصل المعسكرين الأندلسي والمرابطي عقب خروجه من إشبيلية.

خرجت القوى الإسلامية من إشبيلية متوجهة إلى بطليوس بناءً على دعوة صاحبها عمر المتوكل بن الأفطس، لأنها من أكثر المدن الإسلامية عُرضة لهجمات ألفونسو السادس، وعسكرت في بطاح فحص الزلاقة، على بُعد إثني عشر كيلومتراً شمال شرقي بطليوس، وتسميه الرواية النصرانية سَكْر الياس، ثم وصلت قوات ألفونسو السادس وعسكرت على بُعد ثلاثة أميال من معسكر المسلمين، وفصل بينهما نهر صغير هو نهر حجير أو نهر بطليوس، وضرب يوسف بن تاشفين معسكره الخاص وراء ربوة منفصلاً عن معسكر الأندلسيين[1].

أحداث المعركة: كانت الدلائل تشير إلى تفوق القوى النصرانية على القوى الإسلامية، من حيث:

ـ العدد، فقد بلغ عدد أفراد جيش ألفونسو السادس خمسين ألفاً نصفهم من الفرسان، في حين بلغ عدد أفراد الجيش الإسلامي ثمانية وأربعين ألفاً نصفهم من الأندلسين[2].

ـ قرب القوى النصرانية من بلادها، بحيث يستطيع ألفونسو السادس طلب المزيد من القوات والمؤن والأسلحة.

ـ تحميها من ورائها سلسلة من الحصون المنيعة تلجأ إليها في حال الهزيمة.

ووفقاً للمبدأ الشرعي، أرسل يوسف بن تاشفين كتاباً إلى ألفونسو السادس يخيِّره بين ثلاث: الدخول في الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب. فلما وصل كتابه إليه قال للرسول: «قل للأمير لا تتعب نفسك أنا واصل إليك»، وقد أدركته الأنفة وداخله الغرور عندما قال: «بهذا الجيش ألقى إله محمد صاحب كتابكم»[3] كما حاول أن يخدع يوسف بن تاشفين حين حدَّد تاريخ اللقاء يوم الإثنين (١٥ رجب ٤٧٩ هـ/ ٢٦

---

(١) ابن أبي زرع: ص ٩٤. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٠٩.

(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه. ابن خلكان: جـ ٥ ص ٢٩.

(٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٠٨. ابن خلكان: جـ ٥ ص ١١٦.

تشرين الأول ١٠٨٦ م)، ليفاجىء المسلمين بالهجوم يوم الجمعة[١] (١٢ رجب/ ٢٣ تشرين الأول) فأرسل فرقة عسكرية في سحر ذلك اليوم بقيادة الأميرين غرسية وروردريك، انقضَّت على معسكر الأندلسيين في محاولة لإخراجهم من المعركة، لكنه دُهِش حين رأى هؤلاء، وقد تنبَّهوا للخدعة، يتصدُّون لقواته قبل أن تصل إلى معسكرهم، وأرسل يوسف بن تاشفين عشرة آلاف فارس لمساعدتهم بقيادة داوود ابن عائشة، فأجبروهم على الارتداد.

وعبَّأ ألفونسو السادس قواته استعداداً للهجوم العام، فتمركز هو في القلب، وعهد إلى كل من شانجة راميرو ورامون برنجار بقيادة الجناحين، ثم زحف نحو معسكر الأندلسيين، ما أثار الرعب في قلوبهم، فلم يصمدوا أمام ضغط القتال، ولاذوا بالفرار نحو أسوار بطليوس، في حين صمد المعتمد بن عبَّاد وداوود بن عائشة. وأيقن الملك النصراني ببلوغ النصر حينما رأى مقاومة المعتمد تضعف تباعاً، وحركة الفرار تتسع في صفوف قواته شيئاً فشيئاً، ظاناً أن هذه القوات هي كل ما حشده المسلمون، ثم نظَّم عملية مطاردة للفارين باتجاه بطليوس، تاركاً معسكره مكشوفاً وبدون حماية.

والحقيقة أن الملك النصراني أخطأ تقدير الموقف العسكري الذي تغيَّر فجأة لغير صالحه، عندما أرسل يوسف بن تاشفين القائد سير بن أبي بكر على رأس فرقة العبيد، فارتفعت معنويات المسلمين، قبل أن يزحف بحرسه المرابطي تتقدمه الجمال لحماية الجنود من سهام الأعداء، وأصوات الطبول الهائلة، وقام بحركة التفاف سريعة باغت معها معسكر الأعداء من الخلف وأحرق الخيام وأباد الحراس، ما أحدث بلبلة في صفوف فرسان ألفونسو السادس الذي توقف عن مطاردة الأندلسيين، وارتد فوراً ليسترد معسكره، لكن يوسف بن تاشفين لم يمنحه الفرصة، وانقضَّ على جموعه. ودام القتل الذريع بين الجانبين بضع ساعات، وسقط آلاف القتلى، وهُزِم ألفونسو السادس الذي أصيب بطعنة خنجر في فخذه على يد أحد عبيد يوسف بن تاشفين، وتمكَّن من الفرار تحت جنح الظلام مع خمسمائة من فرسانه، ولحق بطليطلة[٢].

---

(١) المراكشي: ص ٩٤، ٩٥.

(٢) مذكرات الأمير عبد الله: ص ٣٣٩. الحميري: ص ٩٠. ابن أبي زرع: ص ٩٤ ـ ٩٦. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٠٨، ٣٠٩. ابن خلكان: جـ ٧ ص ١١٦، ١١٧.

تعقيب على معركة الزلاقة

ـ تعدُّ معركة الزلاقة من المعارك الهامة في الصراع الإسلامي ـ النصراني في الأندلس، فمنذ أيام المنصور محمد بن أبي عامر لم تشهد الجبهة الإسلامية انتصاراً مدوياً كهذا.

ـ اعتمد يوسف بن تاشفين على فن القتال البدوي الصحراوي، وهو الفن الذي لم تعرفه الأندلس في ذلك الوقت، ولم يشهده النصارى في معاركهم مع الأندلسيين. والواقع أن هؤلاء كانوا يعتمدون على الشجاعة الفردية، ويهتمون بالفارس كفرد، لذلك كانوا يغالون في لبس الزرد والدروع التي تغطي كامل الجسم، وقد حقَّق لهم هذا الفن القتالي النصر على الأندلسيين. أما في الزلاقة فقد واجهوا جيوشاً منظمة على أسس قتالية جديدة تعتمد على صفوف أمامية من الإبل تشكل درعاً واقياً للقوات المهاجمة، هذا إلى جانب صفوف متراصة من الجنود تتحرك وكأنها كتلة واحدة وتتقدم بخطى رتيبة تلقي القذائف من السهام والرماح وفق حركات مرسومة، فتطعن الخيل، فتجمح بفرسانها وتولي الأدبار.

ـ استعمل المرابطون طبولاً كبيرة الحجم، تدق فتهتز لها الأرض، وترتعد لها فرائص الفرسان هولاً، وتصمُّ آذانهم بدويها المزعج.

ـ قاتل المرابطون بروح تضطرم بالحمية الدينية والحماسة والتسابق إلى الاستشهاد. وكان يوسف بن تاشفين يتنقَّل بفرسه بين الصفوف يحض رجاله على القتال ويرغِّبهم بالموت في سبيل الله[(١)].

ـ اشترك الفقهاء والقضاة في المعركة، يعظون المقاتلين ويشدُّون من عزائمهم، وقضى منهم جماعة، مثل قاضي مراكش عبد الملك المصمودي والفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي[(٢)].

ـ مكث الجيش الإسلامي أربعة أيام في ساحة المعركة يجمع الغنائم التي تركها النصارى وراءهم، وأعطاها يوسف بن تاشفين لملوك الأندلس مبرهناً لهم بأن هدفه الجهاد في سبيل الله وليس الحصول على الغنائم.

ـ رفع النصر روح الأندلسيين المعنوية بعد أن أوشكوا على الانهيار الكامل إثر الهزائم المتتالية. فقد أنقذت سرقسطة من سقوط محتم، وأزاح ملوك الطوائف

---

(١) Pidal: P. 218.

(٢) المقري: جـ ٦ ص ١٣٩.

كابوس النصارى ومتطلباتهم التي لا تنتهي من الجزية وغيرها، وتنفسوا الصعداء بعد الكبت والتضييق عليهم، غير أن هيبتهم سقطت أمام رعاياهم، وبخاصة أنهم هُزموا في بداية المعركة لولا تدارك يوسف بن تاشفين لهم، فتوقفوا عن دفع الضرائب غير الشرعية لهم، وقد دفعهم ذلك إلى التعلُّق بالمرابطين. والواقع أن معركة الزلاقة شكَّلت خطوة تمهيدية لإسقاط هؤلاء فيما بعد على يد منقذيهم.

ـ قرن الأندلسيون يوم الزلاقة بيوم القادسية واليرموك، على الرغم من النتائج المتباعدة. فمعركتا القادسية واليرموك شكَّلتا انعطافة كبرى في مسير الفتوح الإسلامية ومصير الامبراطورية الفارسية، وتراجع قوة الامبراطورية البيزنطية، أما معركة الزلاقة فلم تُحقِّق أهم أهدافها وهو استرجاع طليطلة، وكأنها أرجأت تقرير مصير المسلمين في الأندلس إلى عام (٦٠٩ هـ/ ١٢١٢ م) حيث كانت معركة العقاب الفاصلة التي قرَّرت نهاية الوجود الإسلامي في الأندلس باستثناء قطعة صغيرة في الجنوب متمثلة في إمارة غرناطة، ولم تكن سوى معركة كسبها المسلمون، إنما لم يكسبوا الحرب.

ـ كان لهذا النصر صدى كبير في الشعور الإسلامي العام، إذ سرعان ما تناقله الناس في الأندلس والمغرب واحتفلوا به. وأرسل يوسف بن تاشفين الكتب إلى شمالي إفريقيا حيث قُرِئَت في جميع المساجد، وصلّى المسلمون صلاة الشكر ابتهاجاً، وتغنى به الشعراء والأدباء حتى ظهر ما يسمى بأدب الزلاقة، كما عمَّت الفرحة المشرق الإسلامي حتى قيل إن الإمام الغزالي هنَّأ يوسف بن تاشفين بهذا النصر وعدَّه الأمير المثالي الذي كان يرجو أن يظهره الله ليعيد للإسلام سابق عهده وقوته.

ـ تألق نجم يوسف بن تاشفين وعَمَّت الفرحة قلبه، وأدرك منذ تلك اللحظة أنه يتوجب عليه أن ينفرد بتحمُّل الأعباء السياسية والعسكرية، إذ إن ملوك الطوائف لا جدوى منهم ولا يمكن الاعتماد عليهم وذلك بسبب تنازعهم وتباغضهم. ويبدو أنه قرَّر إسقاطهم وضمَّ الأندلس إلى المغرب عندما يحين الوقت المناسب.

ـ ساعد هذا النصر يوسف بن تاشفين على حلٍّ مشكلاته المغربية التي كانت تعترض سبيله، وأدرك الناس هناك أن القوة المرابطية الفتية لا يمكن دفعها أو مغالبتها، فأطاعته القبائل المترددة، وسارت طائعة في ركب الدولة الجديدة، كما ارتفع قدره بين أمراء لمتونة.

ـ كانت خسارة النصارى يوم الزلاقة فادحة حقاً، فقد اعترف مؤرخوهم بهول

الكارثة ولم ينكروا آثارها السلبية على الوضع النصراني العام، ولا غضُّوا الطرف عن نتائجها، فقد حطَّمت آمالهم باسترداد أراضي الأندلس وطرد المسلمين منها.

ـ جعلت المعركة ألفونسو السادس يتخبَّط في سياسته، ويغيِّر من خطط حرب الاسترداد. فبعد أن كان يعتمد على القوة الذاتية للنصارى في إسبانيا، لجأ إلى طلب المساعدة من الخارج، من فرنسا وإيطاليا، حتى أنه هدَّد الحكام الأوروبيين بأنه سيدع المرابطين يجتازون جبال البرينيه لمهاجمتهم في حال عدم إجابة طلبه، لكن عودة يوسف بن تاشفين المفاجئة إلى المغرب، دفعته إلى التخلي عن استخدام تلك النجدة.

ـ اتسم القتال في الزلاقة بالروح الصليبية، واتخذ طابع الجهاد الديني، فقد استعان ألفونسو السادس بمتطوعين من أوروبا، وقام الأساقفة والرهبان برفع صلبانهم ونشر أناجيلهم لتأجيج الحماس الديني، وعدُّوا المعركة حرباً مقدسة ضد أعدائهم المسلمين.

ـ كان لانتصار المسلمين أثر واضح في نفسية ألفونسو السادس الذي أغراه الزهو والغرور، فلم يعرف لأطماعه حداً، ولا لرغباته نهاية، بل كان يأمل بأن يبسط سلطانه على شبه الجزيرة الإيبيرية كلها، فلما تغلَّب عليه المرابطون شعر، لأول مرة. بأنه أمام جبهة متحدة من المغرب والأندلس تقف له بالمرصاد، وتهدِّده، وأيقن أن هذا النظام الجديد، الذي بعث في الأندلسيين قوة بعد ضعف، ووحدة بعد تفرُّق، لن يتيح له تحقيق أهدافه، بل إن المسلمين سوف يستردون كل ما استولى عليه من قلاع وحصون.

ـ أذكى هذا النصر الحماس في الزعامة البابوية في روما، بحيث عقدت العزم على مدافعة المسلمين والاستعداد للمعركة المقبلة.

ـ ارتكب ألفونسو السادس خطأً تكتيكياً حين قام بمطاردة المسلمين بدون أن يؤمِّن ظهره، الأمر الذي أتاح ليوسف بن تاشفين أن يفاجىء حراس معسكره، فيقتل معظمهم ويحرق المعسكر.

ـ ارتكب يوسف بن تاشفين، هو الآخر، خطأً تكتيكياً حين أحجم عن مطاردة النصارى المنهزمين ولو فعل ذلك لكان قد سحق المملكة النصرانية. فقد أتاح هذا الإحجام لألفونسو السادس أن ينهض من كبوته ويعيد تنظيم صفوف قواته ويستأنف الحرب، ولعله رأى من سير المعركة، وكانت غاية في العنف، أن الأمر أصعب بكثير من أن يخوض فيه، كما أنه لا بد أن يكون قد فطن إلى ما يسود الأندلسيين من

ضعف وتخاذل، وملوك الطوائف من أنانية وتباغض، يضاف إلى ذلك ما يذكر أنه بلغته أنباء عن وفاة ابنه الأكبر وولي عهده أبي بكر، واضطراب الوضع في المغرب الأقصى، فاضطر إلى التعجيل بالعودة، وتذكر روايات المصادر أنه حدث اختلاف في الرأي بينه وبين المعتمد بن عبَّاد بشأن هذه المسألة[١].

ذيول معركة الزلاقة

عودة يوسف بن تاشفين إلى المغرب: عاد يوسف بن تاشفين إلى إشبيلية بعد المعركة، وعقد اجتماعاً مع ملوك الطوائف، وطلب منهم الاتفاق والاتحاد ضد عدوهم المشترك الذي استغل تشتتهم وتفرُّقهم، فأجابه الجميع بالإيجاب[٢].

كان أمير المرابطين مضطراً إلى ترك الساحة الأندلسية والعودة إلى المغرب الأقصى، فما الذي تغيَّر في الأفق السياسي؟ الواقع أن هناك عدة أسباب حملته على الإسراع بالعودة، لعل أهمها:

- لقد تلقى أنباء مزعجة عن وفاة ابنه وولي عهده أبي بكر، كما ذكرنا، وقد استخلفه على سبتة، وكان مريضاً، فخشي أن يضطرب الأمر بعد موته[٣].
- لقد خشي من عمل قد يقوم به إبراهيم بن أبي بكر بن عمر لاسترداد حق أبيه الشرعي كزعيم أعلى للمرابطين في المغرب الأقصى، وكان والياً على سجلماسة من قِبل أبيه، وبخاصة أنه سبق له أن قام بمحاولات فاشلة في انتزاع السلطة منه.
- اضطراب الأوضاع على الحدود الشرقية لدولته، إذ تحالف بنو حماد الصنهاجيون مع عرب بني هلال، وحاولوا غزو المناطق الحدودية للدولة المرابطية في المغرب الأوسط، مغتنمين فرصة وجود يوسف بن تاشفين مع أكثرية جيشه في الأندلس.
- خشيته من أن ينقلب نصره إلى هزيمة، لأنه لم يعد يملك القوة الكافية ليستولي على بلاد النصارى، وقد تخوَّف من إلحاح الأندلسيين عليه بمطاردة ألفونسو السادس، إذ ربما أرادوا من ذلك نهاية الفريقين المرابطي والإسباني النصراني، فيتخلصون منه بطريقة سهلة.

وصل يوسف بن تاشفين إلى المغرب الأقصى واستقر في عاصمته مراكش، وحدث أن توفي أبو بكر بن عمر في عام (٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ م) فانفتح الطريق أمامه ليضع يده على السلطة من دون منازع[٤].

---

(١) الحميري: ص ص ٩٣.
(٢) مذكرات الأمير عبد الله: ص ١٠٦.
(٣) ابن أبي زرع: ص ٩٨.
(٤) ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٣٨٨، ٣٩٢.

المسلمون يهاجمون المواقع النصرانية: غادر يوسف بن تاشفين الأندلس وهو مطمئن. فقد استولى على الجزيرة الخضراء، ووثَّق الصلة بين العدوتين، وعمل على توحيد جهود ملوك الطوائف، وترك في الأندلس ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة سير بن أبي بكر لمواصلة حركة الجهاد[1].

تشجَّع ملوك الطوائف بتراجع القوى النصرانية، فقاموا بشن هجمات على بعض المواقع لاستردادها، من ذلك ما قام به أمير بطليوس من الغارة على أواسط البرتغال الحالية، مما يلي نهر تاجُه، وشاركه سير بن أبي بكر، فأثخنا في تلك النواحي وأسرا عدداً من السكان، لكنهما لم ينجحا في استرداد أية مدينة أو قرية أو حصن. ونفَّذ المعتمد بن عبَّاد هجوماً واسعاً على ولاية طليطلة، واستولى على عدة مدن منها: أقليش وقونقة، ثم نفذ إلى أرض مرسية حيث كانت جموع من قوات النصارى بقيادة السيد القمبيطور تغير على المدن الإسلامية لحسابها الخاص، وكانت قد هاجمت المرية قبل ذلك، وضيَّقت على صاحبها[2].

واغتر المعتمد بن عبَّاد بالنصر الذي تحقَّق بالزلاقة، فلم يأبه لهذه القوة النصرانية لكونها كانت تقلُّ عن قوته عدداً، فاشتبك معها من دون أن يحتاط، فتعرَّض للهزيمة، وارتد على أعقابه خاسراً مضيعاً ثمار نصره الأخير، ولولا التجائه إلى صديقه محمد ابن لبون، صاحب قلعة لورقة، لقضي عليه، ثم غادر هذه الأخيرة إلى قرطبة تاركاً مرسية لمصيرها المحتوم[3].

رد الفعل النصراني: بدا للأندلسيين وكأن معركة الزلاقة لم تكن حاسمة، لأنها لم تقضِ على القوة النصرانية قضاءً مبرماً، إذ أخذ ألفونسو السادس يفيق من هول الصدمة ويستردُّ قوته، ويعمل على مواصلة عدوانه على الأراضي الإسلامية، وضغطه على ملوك الطوائف، والثأر لما ناله من المرابطين، وقد انتهز فرصة عودة يوسف بن تاشفين إلى المغرب، وعودة ملوك الطوائف إلى التنازع، فاستأنف أعماله الحربية لكن على الجبهة الشرقية، بعد أن أدرك مناعة الجبهة الغربية، حيث تقوم أقوى دول الطوائف، إشبيلية وبطليوس، فخرج غازياً حتى وصل قريباً من إشبيلية، وفصل فرقة عسكرية استولت على حصن الليبط القريب من لورقة، وهو من أملاك المعتمد بن عبَّاد، فشحنه بالمقاتلين، واتخذه قاعدة لشن الغارات على أملاك

---

(١) ابن خلكان: جـ ٧ ص ١١٩.
(٢) أشباخ: جـ ١ ص ٩٣.
(٣) المرجع نفسه.

المعتمد بشكل خاص لمضايقته عقاباً له على دوره الأساسي في استدعاء المرابطين إلى الأندلس(١).

وتعرَّضت منطقة شرقي الأندلس لغارات مدمرة، والمعروف أن إمارات بلنسية ومرسية ولورقة والمرية، كانت أضعف إمارات الأندلس عسكرياً، وأضحت دانية وشاطبة ومرسية مهدَّدة بالوقوع في قبضة النصارى.

حدث هذا في الوقت الذي انفضَّ فيه ملوك الطوائف عقب معركة الزلاقة، وانصرف كل أمير إلى بلده، وعادوا إلى سيرتهم الأولى من التنازع والاتصال بالعدو. فقد كانوا جميعاً في مرحلة من الاضطراب والتخبُّط والشعور بالضياع، وذهبت وصية يوسف بن تاشفين لهم أدراج الرياح. فقد تنازع المعتمد بن عبَّاد مع عبد العزيز بن رشيق، صاحب مرسية، حول ملكية هذه المدينة، وكانت بلنسية خاضعة، بصورة غير مباشرة، للنصارى، يحكمها القادر بن ذي النون، صنيعة ألفونسو السادس، وكان ابن إياس صاحب لورقة أضعف من أن يُقاوِم، والتمس كلٌّ من ابن الأفطس وعبد الله بن بلكين خطب ودِّ ألفونسو السادس وموادعته.

هكذا بدت منطقة شرقي الأندلس بعد الزلاقة مباشرة، وكأنها على حافة السقوط في أيدي النصارى، فارتفعت أصوات الاستغاثة من جديد تستنجد بيوسف بن تاشفين، وأخذت الوفود الشعبية، وعلى رأسها الفقهاء، تعبر إلى المغرب مستغيثة ومستنجدة به لإنقاذ الأندلس من محنتها المتجدِّدة، كما كتب له سير بن أبي بكر رسالة يشرح له فيها ما آلت إليه أوضاع الأندلس بعد رحيله(٢).

كان المعتمد بن عبَّاد أكثر ملوك الطوائف خوفاً من تجدُّد الخطر النصراني المحدق به من الشرق، وكان يخشى أن يصبح أول ضحية للمعركة القادمة، لذلك، عبر إلى المغرب مع بعض وجهاء بلنسية ولورقة ومرسية، ليطلع يوسف بن تاشفين على الأوضاع السيئة في شرقي الأندلس والتي تؤذن بخطر جسيم إن لم يتداركها، وتجري الرواية الأندلسية أنه اجتمع به في المعمورة من وادي سبو، وأطلعه على حال الأندلس، فوعده يوسف خيراً(٣).

---

(١) ابن أبي زرع: ص ٩٨.

(٢) الحميري: ص ٩٤. ابن خلكان: جـ ٧ ص ١١٩ ـ ١٢٢.

(٣) مذكرات الأمير عبد الله: ص ١٠٨. ابن أبي زرع: ص ٩٨.

عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس: المرة الثانية

معركة حصن الليبط: عبر يوسف بن تاشفين المضيق إلى الجزيرة الخضراء في (ربيع الأول ٤٨١ هـ/ حزيران ١٠٨٨ م) على رأس جيش ضخم، وتوجَّه إلى حصن الليبط معقل المقاومة النصرانية، عن طريق مالقة والمرية ولورقة، للإنقضاض عليه، وكتب إلى ملوك الطوائف يستنفرهم للجهاد، فاستجاب له كل من المعتمد بن عبَّاد، وتميم وعبد الله ابنا بلكين بن زيري صاحبا مالقة وغرناطة، والمعتصم بن صمادح صاحب المرية، وعبد الرحمن بن رشيق صاحب مرسية، وأمراء آخرون أقل أهمية، ولم يتخلَّف سوى ابن الأفطس صاحب بطليوس(١).

ويبدو أن يوسف بن تاشفين، عندما عبر إلى الأندلس، كان ينوي مهاجمة النصارى في المنطقة الشرقية لتخفيف الضغط عن المسلمين هناك، غير أنه بدَّل خطته العسكرية بتأثير المعتمد بن عبَّاد الذي أقنعه بمهاجمة حصن الليبط لاسترجاعه، والمعروف أن صاحب إشبيلية كان يعاني من حامية الحصن التي كانت تغير على أراضيه.

توافدت القوات الإسلامية على حصن الليبط وحاصرته، وجرى قتال مع حاميته. وتعرَّض الحصن للضرب المتواصل بالمجانيق والعرادات، كما قطع المسلمون الماء عنه. ودافعت حاميته، المؤلفة من ألف فارس وإثني عشر ألف راجل، عنه بشكل لافت. وبعد أربعة أشهر من الحصار والضرب، وردت الأنباء عن تقدم ألفونسو السادس لإنقاذ الحصن وحاميته، في الوقت الذي تفاقمت فيه الخلافات بين الأندلسيين. فقد تنازع المعتمد بن عبَّاد مع كل من عبد الله وتميم، ابني بلكين بن زيري، كما استأنف خلافه مع عبد الرحمن بن رشيق بعد أن اتهمه بالتحالف مع ألفونسو السادس، وأنه دفع له جباية مرسية كجزية، وأدَّى خدمات لحامية الحصن(٢).

وخشي عبد الرحمن بن رشيق على نفسه من انتقام المعتمد بن عبَّاد، فاحتمى بيوسف بن تاشفين، لكن هذا الأمير سلَّمه للمعتمد بعد أن استفتى الفقهاء واشترط المحافظة على حياته، فسجنه المعتمد.

---

(١) ابن أبي زرع: ص ٩٩. السلاوي، شهاب الدين أبو العباس أحمد الناصري: الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ ١ ص ١١٩.

(٢) مذكرات الأمير عبد الله: ص ١١٢.

كان لهذا الحادث أثر سيء على وضع الجبهة الإسلامية التي تصدَّعت، وانتهى الأمر بفك الحصار عن الحصن وانسحاب يوسف بن تاشفين، ودخل ألفونسو السادس الحصن وهدمه قبل أن يغادره، ولم يحتفظ به بفعل موقعه في قلب بلاد المسلمين وحاجته إلى حامية كبيرة للدفاع عنه، فاسترجعه المعتمد بن عبَّاد[(١)].

وهكذا تخلَّص هذا الأمير من عدوين، عبد الرحمن بن رشيق وحامية الحصن، من خلال تسخيره للحملة المرابطية، مؤثراً مصلحته الشخصية على المصلحة الإسلامية العامة، والملفت أن يوسف بن تاشفين قد وافقه على تصرفه هذا.

عاد يوسف بن تاشفين إلى لورقة وترك أربعة آلاف مقاتل مرابطي بقيادة داود بن عائشة للمحافظة على منطقة مرسية، كما فصل فرقة عسكرية إلى بلنسية بقيادة محمد ابن تاشفين.

الواقع أن كلاً من يوسف بن تاشفين وألفونسو السادس أحجما عن خوض معركة سافرة. فقد واجه الأول الشقاق الذي نشب بين حلفائه الأندلسيين فجنح إلى الانسحاب من دون الدخول في معركة لا يدرك نتائجها، أما الثاني فقد كان قد لُقِّن درساً قاسياً في الزلاقة، وظل متردداً منذ ذلك الحين قبل أن يتورط في حرب مع المرابطين، والراجح أنه كان لا يملك القدرة على الاستمرار في الحرب.

تعقيب على معركة حصن الليط

ـ وضعت معركة حصن الليط حداً للغارات التي كانت تُشنُّ من هذا الحصن على جنوب شرقي الأندلس.

ـ بيَّنت المعركة عجز ملوك الطوائف عن الوقوف جبهة واحدة لمناهضة النصارى، وقد لمس يوسف بن تاشفين ذلك.

ـ ساعدت المعركة المعتمد بن عبَّاد على استعادة نفوذه في مرسية، كما أتاحت له استرجاع الحصن.

ـ تُعد هذه المعركة فاصلاً بين وضعين متميزين، فقد أنهت فكرة الجبهة المتحدة، وآذنت ببدء عهد جديد، ومهَّدت السبيل لتوحيد المغرب والأندلس.

عاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب في عام (٤٨٢ هـ/ ١٠٨٩ م)، بعد أن تغيَّرت نفسه على ملوك الطوائف.

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله: ص ١٠٨، ١١٢. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٣٩٢.

ضم الأندلس إلى الدولة المرابطية

تمهيد: تضافرت عدة عوامل دفعت يوسف بن تاشفين إلى اتخاذ قراره النهائي بخلع ملوك الطوائف وإنقاذ الأندلس من خطر النصارى، لعل أهمها:

- كان للإخفاق في فتح حصن الليبط أثر كبير في نفسه، فقد عاد إلى المغرب وهو ناقم على مواقف ملوك الطوائف المخزية.

- استمرار الخلاف والشقاق بين ملوك الطوائف بعد معركة الزلاقة، الأمر الذي صرفهم عن مواجهة النصارى المتربصين بهم، في معركة قد تصبح حاسمة بالنسبة لمصير الإسلام في الأندلس.

- لقد أرهق ملوك الطوائف رعاياهم بالضرائب التي أنفقوها على حياة الترف واللهو، فكثرت شكاواهم وتظلماتهم ليوسف بن تاشفين كي يخلِّصهم من أمرائهم الجائرين.

- عدم إخلاص ملوك الطوائف في جهادهم. ففي معركة حصن الليبط، شغلتهم خلافاتهم الشخصية عن الجهاد، وقدَّم بعضهم العون للعدو.

- عمد ملوك الطوائف إلى الغدر بيوسف بن تاشفين وقواته عندما قطعوا الإمدادات عن معسكراته[(1)].

- ما وقف عليه يوسف بن تاشفين من المعاهدات السرية التي أبرمها بعض ملوك الطوائف مع ألفونسو السادس، وما زوَّدوه به من الهدايا والأموال، لكي يكون نصيرهم ضد التدخل المرابطي في بلادهم، وهذا ما سلكه عبد الله بن بلكين صاحب غرناطة، ثم حذا حذوه المعتمد بن عبَّاد وابن الأفطس[(2)].

- ما قام به الفقهاء من إظهار مساوىء ملوك الطوائف أمام يوسف بن تاشفين، وقد حفَّزوه على خلعهم. وكانت الرعية تلوذ بهم وتلتمس معونتهم وتتوسل إليهم أن يشفعوا لهم عنده. وكان يوسف بن تاشفين، من جهته، يحترم الفقهاء ويعتدُّ بهم، ويُصغي إليهم، ويشاورهم في كل أمر، وقد انقلب هؤلاء على ملوك الطوائف لا سيما بعد معركة حصن الليبط.

---

(1) ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٨٧.

(2) المصدر نفسه. مذكرات الأمير عبد الله: ص ٨٩، ٩٠.

ـ استئناف ألفونسو السادس غاراته على الأراضي الإسلامية، فقد وجد هذا الملك القشتالي، بعد أن غادر يوسف بن تاشفين إلى المغرب، أن الجبهة الإسلامية قد تفكَّكت، وعاد ملوك الطوائف إلى سابق عهدهم من التنازع والتخاصم، فراح يهاجمهم منفردين، فأرسل قائده البرهانس إلى عبد الله بن بلكين، يهدِّد ويتوعد، ويطالب بالجزية المتأخرة، كما عاثت قواته في أراضي المعتمد بن عبَّاد، وراحت تهدِّد إشبيلية[١].

ـ كان للعامل «الإستراتيجي» دور هام في قرار يوسف بن تاشفين بضم الأندلس، وتُعدُّ هذه البلاد من الثغور الإسلامية الهامة، كما أن الصلة بينها وبين بلاد المغرب وثيقة جداً، وأن تهديدات النصارى المستمرة لملوك الطوائف العاجزين عن الوقوف في وجههم، قد تؤدي إلى سقوط الأندلس في أيديهم، وبالتالي سقوط خط الدفاع الشمالي، وتهديد النصارى في إسبانيا لسلامة وأمن المغرب.

ـ كان للدافع الاقتصادي دور أيضاً في قرار يوسف بن تاشفين بضم الأندلس، وهو طمعه في الاستيلاء على هذا البلد لما ينعم به من ثراء. فحين عاد إلى المغرب قال لأصحابه: «كنت أظن أنني ملكت شيئاً، فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي ، فكيف الحيلة في تحصيلها؟»[٢]، وبالتالي فإن هذه الرواية توضح لنا بصراحة ووضوح مدى أطماع يوسف بن تاشفين في الأندلس، ورغبته الشخصية في الاستيلاء على تلك الأراضي الغنية.

ضمُّ غرناطة: كان على يوسف بن تاشفين، في هذا الدور الجديد، أن يخوض معركتين منفصلتين، واحدة ضد ملوك الطوائف، وأخرى ضد النصارى لعزلهم ومنعهم من مساعدة هؤلاء، فحشد الجنود عند مدينة سبتة وعبر بها المضيق في عام (٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠ م) وهو العبور الثالث له[٣].

لم يبدأ الأمير المرابطي بالإطباق فوراً على ملوك الطوائف، خشية من أن يتعرَّض لهجوم نصراني من الخلف بالاتفاق مع هؤلاء الملوك، وراح يصانعهم ويترفق بهم، ولم يُفصح لهم عن أهدافه. وتدليلاً على هذه السياسة، غزا طليطلة، ولم يَدْعُ ملوك الطوائف لمشاركته في الجهاد، كما كان يفعل في السابق. ويبدو أن هؤلاء شعروا بإعراضه عنهم، لذلك راحوا يراقبون تحركاته عن كثب. ووصلت قواته في تقدمها

(١) مذكرات الأمير عبد الله: ص ٨٩، ٩٠.
(٢) المراكشي: ص ٩٨.
(٣) ابن عذارى: جـ ٤ ص ٤٢. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٣٩٢.

مما يلي شمالي طليطلة، وحاصرت قلعة رباح التي تسيطر على الطريق المؤدي إلى مملكة قشتالة، ولم يجرؤ ألفونسو السادس على التصدّي له.

وبعد أن حقَّق يوسف بن تاشفين هدفه بقطع الصلة بين ملوك الطوائف والنصارى، زحفت قواته إلى غرناطة، وقد فاق صاحبها عبد الله بن بلكين نظراءه ملوك الطوائف بالخيانة والتآمر والاتصال بالعدو، فعقد معاهدة مع البرهانس، وكيل ألفونسو السادس، في جهات غرناطة والمرية، تنازل له بموجبها عن نصيب من العائدات، وتمادى حين عقد حلفاً مع ألفونسو السادس وسدَّد له الجزية عن ثلاثة أعوام سابقة، وقد برَّر تصرُّفه هذا بأن الأموال التي دفعها للملك القشتالي جاءت من جيبه الخاص لا من الضرائب، وأن صلحه معه من أجل ألا يعترض بلاده ويغدر به، وأن يوسف بن تاشفين لم يترك له حامية مرابطية لمواجهة خطر النصارى، إلا أن تبريراته لم تُجدِهِ نفعاً بعد التواطؤ السافر مع ألفونسو السادس[(١)].

قسَّم يوسف بن تاشفين جيشه إلى أربع فرق، أرسل إحداها إلى غرناطة للاستيلاء عليها، وجالت الفرق الأخرى في أراضي الكورة للسيطرة عليها ومنع أي تدخل نصراني. وعندما وصل الجيش المرابطي إلى غرناطة ضرب الحصار عليها. كان عبد الله بن بلكين أعجز من أن يقاوم، وبعد شهر من الحصار فتح أبواب مدينته أمام هذا الجيش الذي دخلها في (١٣ رجب ٤٨٣ هـ/ ١١ أيلول ١٠٩٠ م)، وسلَّم نفسه إلى يوسف، فأرسله إلى الجزيرة الخضراء ومنها إلى سبتة، ثم نُقل إلى مكناسة، وعلى هذا النحو خُلع أول أمير من أمراء الطوائف، وسقطت مدينته في يد المرابطين[(٢)].

ضمُّ مالقة: توجَّه يوسف بن تاشفين إلى مالقة بعد أن فرغ من ضمِّ غرناطة وفيها تميم بن بلكين، شقيق عبد الله. ويبدو أنه خشي من قيامه بثورة ثأراً لأخيه، فاستسلم من دون قتال، فقبض عليه يوسف وأرسله إلى السوس، كما ضمَّ جيان والمنكَّب، فقضى بذلك على دولة بني زيري[(٣)].

ضمُّ قرطبة وإشبيلية: ارتاع ملوك الطوائف لما أصاب غرناطة، واسترجعوا خطاب عبد الله بن بلكين وتحذيره لهم حين ألَّبوا يوسف بن تاشفين عليه، ورفضوا مساعدته ضد المرابطين: «هذا الأمر منجرٌّ عليكم، واليوم بي وغداً بكم»[(٤)]. وحتى يتجنبوا

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله: ص ١٢٢، ١٢٥ ـ ١٢٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٢٠، ١٤٩، ١٦٠، ١٦١. الحميري: ص ٩٦. ابن أبي زرع: ص ١٠٠.

(٣) مذكرات الأمير عبدالله: ص ١٦٢، ١٦٣. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٣٩٢.

(٤) مذكرات الأمير عبد الله: ص ١٦٦.

غضبة يوسف قدموا عليه للتهنئة، وكان قد عاد إلى سبتة، كان من بينهم المعتمد بن عبَّاد الذي كان يُمنِّي نفسه بامتلاك غرناطة، وكان الأمير المرابطي قد وعده، قبل قدومه إليها، بأن يسلمها إليه، لأنه أدرى أكثر من غيره من ملوك الطوائف بمصالح المسلمين، والمتوكل بن الأفطس، وأرسل المعتصم بن صمادح ابنه.

استقبل يوسف بن تاشفين الوفد الأندلسي بفتور ظاهر، فاعتقل ابن المعتصم ورفض إعطاء المعتمد بن عبَّاد مدينة غرناطة عندما طلبها منه. عندئذٍ أدرك صاحب إشبيلية فداحة الخطأ الذي ارتكبه باستدعاء المرابطين إلى الأندلس، ولكن بعد فوات الأوان. وحتى يواجه هذا الموقف الحرج، رأى أن يتعاون مع ألفونسو السادس، وكذلك كانت نظرة المتوكل السياسية، لذلك ما إن عادا إلى بلديهما حتى أجريا اتصالات معه أسفرت عن عقد تحالف موجَّه ضد المرابطين، كما دعيا ملوك الطوائف لعقد حلف لمواجهة الخطر المرابطي، ثم شرعا في تحصين بلديهما استعداداً للدفاع عنهما[1].

علم يوسف بن تاشفين بهذه التوجُّهات السياسية للمعتمد، فدعاه إلى عقد اجتماع معه للتشاور، فرفض المعتمد، عند ذلك طلب منه أن:

- يطبق أحكام الشرع في بلاده.
- لا يفرض ضرائب مخالفة لتعاليم لإسلام.
- يرابط في الثغر للدفاع عن بلاد المسلمين[2].

لكن المعتمد بن عبَّاد امتنع عن الإجابة، فعدَّ يوسف بن تاشفين ذلك إعلاناً للحرب، فجهَّز أربعة جيوش وأرسلها إلى الأندلس[3]:

الأول: بقيادة سير بن أبي بكر ووجهته مدينة إشبيلية، فإذا انتهى من ضمِّها توجَّه إلى بلاد ابن الأفطس لضم حاضرته بطليوس، وفوَّض إلى هذا القائد شؤون الأندلس.

الثاني: بقيادة أبي عبد الله بن محمد بن الحاج، ووجهته مدينة قرطبة.

---

(١) مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية: ص ٥١، ٥٢.

(٢) مذكرات الأمير عبد الله: ص ١٦٩.

(٣) ابن أبي زرع: ص ١٠٠. الحلل الموشية: ص ٥٢.

الثالث: بقيادة زكريا بن واسينو، ووجهته مدينة المرية.

الرابع: بقيادة جرورا الحشمي ووجهته مدينة رندة.

وبقي هو في سبتة على رأس جيش احتياطي لكي يقوم عند الحاجة بإنجاد هذا الجيش أو ذاك[1].

انطلقت الجيوش المرابطية إلى أهدافها في (ذي العقدة ٤٨٣ هـ/ كانون الثاني ١٠٩١ م)، فسقطت طريف في يد سير بن أبي بكر[2]، ولما وصل إلى إشبيلية ضرب عليها حصاراً مركزاً، وفصل فرقة عسكرية بقيادة بطي بن إسماعيل، هاجمت جيان ودخلتها صلحاً[3]، وهي المدينة الثانية التي تسقط في أيدي المرابطين بعد طريف.

وكان الجيش الثاني قد وصل إلى قرطبة وحاصرها، فتلقى بطي بن إسماعيل أمراً من سير بن أبي بكر بالتقدم إلى قرطبة لمساعدة ابن الحاج وقد تحصَّن فيها الفتح بن المعتمد وراح ينظم عملية المقاومة.

كان المعتمد بن عبَّاد حذراً من سقوط قرطبة في أيدي المرابطين، فهي حاضرة الخلافة الأموية، وتشكل قوة معنوية دافعة له ولمملكته، لذلك أوصى ابنه بالمقاومة والصبر[4]. واضطربت أوضاع المدينة نتيجة الحصار الشديد، فتآمرت جماعة من العامة مع المرابطين على حكمه وفتحت أبواب المدينة أمام العساكر المرابطية، وكان هؤلاء قد أحدثوا فتحات في الأسوار، فدخلوا المدينة يوم الأربعاء (٢ صفر ٤٨٤ هـ/ ٢٦ آذار ١٠٩١ م)، بعد حصار دام ثلاثة أشهر، وحاول الفتح أن يشق طريقاً له إلى خارج المدينة فقُتل خلال ذلك[5].

وجالت القوات المرابطية بعد ذلك في أراضي المعتمد بن عبَّاد، وضمَّت قلعة رباح وبياسة وأبذة وحصن البلاط والمدور والصخيرة وشقورة وقرمونة، ونتيجة لهذا الضمِّ فتحت أمامهم طريق قشتالة.

أدرك المعتمد بن عبَّاد، الذي كان عاجزاً عن التصدي للقوات المرابطية، أن النهاية باتت قريبة، فجدَّد استغاثته بألفونسو السادس، وقد أضحى الأمل الوحيد له، ووعده بأن يعطيه «الطارف والتليد»[6]، وكان المرابطون قد اقتربوا من طليطلة بعد

---

(١) ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٣٩٢.

(٢) المراكشي: ص ٩٨.

(٣) ابن أبي زرع: ص ١٠٠.

(٤) نصر الله: ص ١٢٥.

(٥) المراكشي: ص ٩٨، ٩٩. ابن أبي زرع: ص ١٠٠، ١٠١. السلاوي: جـ ١ ص ١٢٠.

(٦) ابن أبي زرع: ص ١٠٠، ١٠١. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٤١. ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٨٧.

ضمِّهم لمعظم أراضي المعتمد بن عبَّاد، وهدَّدوها، فشعر ألفونسو السادس بالخطر المرابطي الداهم، ووجد الفرصة سانحة للثأر من هذا العدو المغربي، فأرسل جيشاً مؤلفاً من أربعين ألف راجل وعشرين ألف فارس، بقيادة البرهانس، غير أن قوة مرابطية مؤلفة من عشرة آلاف مقاتل، بقيادة إبراهيم بن إسحاق اللمتوني، تصدَّت له بالقرب من حصن المدور وهزمته، وقطعت الاتصال بين المعتمد وألفونسو السادس[1].

انهارت آمال صاحب إشبيلية بعد هذه الضربة، لكنه قرَّر الاعتماد على قوته الذاتية، فاستمر بالدفاع مع يقينه بأن معركته خاسرة، فاقتحمت القوات المرابطية إشبيلية، ودخلها سير بن أبي بكر يوم الأحد (٢٧ رجب ٤٨٤ هـ/ ١٤ أيلول ١٠٩١ م)، وفرَّ السكان مذعورين في كل اتجاه، واستسلم المعتمد بن عبَّاد وقُتل ابنه مالك أثناء القتال، وتحصَّن ولداه، المُعْتَد والراضي، في مارتلة ورندة وقادا عملية مقاومة، فهدَّدهما سير ابن أبي بكر وطلب منهما أن يستسلما، فاستجاب المعتد فوراً، فأبقى على حياته، وتأخر الراضي فكان جزاؤه القتل[2]. وعلى هذا الشكل سقطت دولة بني عبَّاد وانضوت تحت سيادة المرابطين.

كانت خاتمة حياة المعتمد بن عبَّاد محزنة حقاً، وهي عبرة لتقلب الدهر، ذلك أن هذا الأمير الذي قبض على مقاليد الحكم في إشبيلية، مدة ربع قَرْن، وقَرَنَ تاريخه بتاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية، والذي يعود الفضل إليه في استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة، والذي استدعى المرابطين إلى الأندلس؛ قد قُبض عليه وعلى نسائه وأبنائه وبناته، وأُرسلوا إلى المغرب.

وعامل يوسف بن تاشفين الأسرة العبادية بمنتهى القسوة بدون مراعاة لماضيها. فنقل المعتمد إلى أغمات القريبة من مراكش، وألقى به في غياهب سجن مروع حيث تعرَّض لشتى أنواع العذاب النفسي والجسدي، ليلقى حتفه ببطء في (١١ شوال ٤٨٨ هـ/ ١٤ تشرين الأول ١٠٩٥ م)[3].

ويبدو أن تلك المعاملة القاسية سببها تحالف المعتمد بن عبَّاد مع ألفونسو

---

(١) ابن أبي زرع: ص ١٠٠، ١٠١. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٤١. ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٨٧.

(٢) مذكرات الأمير عبد الله: ص ١٧٠، ١٧١. المراكشي: ص ٩٩ ـ ١٠١. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٤١.

(٣) المراكشي: ص ١٠١ ـ ١٠٣. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٤١، ٣٤٢. ابن خلكان: جـ ٥ ص ٣٠ ـ ٣٧. ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٨٧.

السادس، فاضطر المرابطون إلى خوض معركة ضارية معه قرب حصن المدوَّر تكبَّدوا خلالها كثيراً من القتلى بالإضافة إلى ما فقدوه من عناصر بشرية في معركة إشبيلية، وفي سائر أنحاء المملكة العبَّادية، وقد ذهبت هذه الضحايا في صراع داخلي سبَّبه المعتمد بن عبَّاد، وكان بإمكانها إحراز انتصارات على النصارى بدل استنزافها داخلياً، الأمر الذي أوغر صدر يوسف ضد المعتمد، فصبَّ جام غضبه وعذابه عليه[1].

ضمُّ المرية: التفت سير بن أبي بكر، بعد بسط سيادة المرابطين على دولة بني عبَّاد، إلى ضمِّ المرية، وكان أميرها أبو يحيى محمد بن صمادح الملقب بالمعتصم قد بدَّل موقفه المساند للمرابطين، وتخلَّف، كسائر ملوك الطوائف، عن حصار طليطلة، فأرسل إليه سير بن أبي بكر جيشاً بقيادة أبي زكريا بن واسينو، فحاصره من البر والبحر، وضيَّق عليه، ودار قتال بين الطرفين، فارتاع المعتصم، وكان مريضاً، فتوفي يوم الخميس (٢٢ ربيع الأول ٤٨٤ هـ/ ١٥ أيار ١٠٩١ م)، فدخل المرابطون المدينة، وفرَّ ابنه معز الدولة إلى بجاية في إفريقيا محتمياً بالمنصور بن الناصر بن علناس الحمادي[2].

ضمُّ مرسية ووابرة ودانية وشاطبة: ما كاد يوسف بن تاشفين ينتهي من تحقيق انتصاراته ويسيطر على القسم الجنوبي من بلاد الأندلس، حتى تهيأ للنضال في منطقة شرقي البلاد التي بدت وكأنها على وشك السقوط في أيدي النصارى، الذين كانوا يتقدمون صوب حوض نهر الإبرو ويشدِّدون الضغط على سرقسطة. وراحت سفن جنوة وبيزة تغير على موانىء الشرق وتنال منها، وهاجم غرسية المرية، والبرهانس مرسية، والسيد القمبيطور شاطبة، وأصابوا المسلمين في أموالهم وأنفسهم وأعراضهم، الأمر الذي أثار يوسف بن تاشفين، فعيَّن ابنه محمداً بن عائشة والياً على شرقي الأندلس وأمره بمحاربة النصارى والتصدّي لغاراتهم.

سار محمد إلى مرسية، فخلع صاحبها ابن رشيق وضمَّها إلى الأملاك المرابطية وذلك في (شوال ٤٨٤ هـ/ تشرين الثاني ١٠٩١ م)، ثم دخل وابرة في (شعبان ٤٨٥ هـ/ أيلول ١٠٩٢ م)، كما دخل دانية بعد فرار واليها ابن مجاهد العامري الذي التجأ إلى بجاية محتمياً بالناصر بن حماد، ثم ضمَّ شاطبة بعد فرار حاكمها ابن منقذ[3].

---

(١) نصر الله: ص ١٣١، ١٣٢.

(٢) مذكرات الأمير عبد الله: ص ١٦٧. ابن أبي زرع: ص ١٠١. ابن خلكان: جـ ٥ ص ٤٤.

(٣) ابن أبي زرع: ص ١٠١.

ضمُّ بلنسية: كانت إمارة بلنسية تحت حكم القادر بن ذي النون، وعندما تقدم المرابطون صوب مرسية وضمُّوها، ثم تدفقوا صوب دانية وشاطبة، أضحت قواتهم تجاور أراضي هذه الإمارة، فراحوا يتطلعون إلى ضمِّها. وظهر داوود بن عائشة أمام سكان شرقي الأندلس بمظهر المنقذ، فتطلع سكان بلنسية إلى الإصلاح الذي ظفرت به المدن الأندلسية التي ضمَّها القائد المرابطي، وبخاصة أن الجزية التي فرضها السيد القمبيطور على المدينة كانت باهظة تثقل كاهل السكان وتثير سخطهم[١].

والواقع أنه تنازعت إمارة بلنسية ثلاث قوى هي: قوة المرابطون الذين طمعوا في ضمِّ الأندلس كلها إلى دولتهم المغربية، كما احتدم الخلاف بين ألفونسو السادس والسيد القمبيطور لتخلُّف هذا الأخير عن مساعدة الأول في معركة اللييط، فانعكس ذلك على وضع الإمارة التي كانت مسرحاً لعملاء الطرفين.

استغل قاضي بلنسية جعفر بن عبد الله بن جحاف المعافري هذه الفرصة، بالإضافة إلى تذمر الشعب من حكم القادر، للسيطرة على مقاليد الأمور، فاتصل بمحمد بن عائشة وطلب منه المساعدة ووعده بإعطائه المدينة. استجاب القائد المرابطي لطلب القاضي، وأرسل قوة عسكرية مؤلفة من خمسمائة فارس بقيادة أبي ناصر، شقَّت طريقها إلى المدينة، واستولت على القلاع الواقعة على الطريق إليها. وحاول أحد عملاء السيد القمبيطور، ويُدعى أبو الفرج، اعتقال القاضي، إلا أنه فشل في ذلك. وفتح السكان أبواب المدينة أمام القوة المرابطية التي دخلتها في (٣ رمضان ٤٨٥ هـ/ ٨ تشرين الأول ١٠٩٢ م)، فاعتقلت أبا الفرج وقبضت على القادر، وأوعز القاضي إلى أنصاره باغتياله فقتله ابن الحديدي وتولى ابن جحاف رئاسة المدينة[٢].

لم يجرؤ السيد القمبيطور على التدخل عسكرياً في أحداث بلنسية، ولعله كان يخشى من قوة المرابطين، فلجأ إلى الدهاء للتفريق بينهم وبين القاضي ابن جحاف. فقد أراد هذا أن يتشبَّه بملوك الطوائف في الصيت ووفرة النفوذ، وكان يخشى من قوة السيد القمبيطور والمرابطين معاً، فاستثقل هؤلاء، وشعر بأن وجودهم يحدُّ من تصرفاته، ونظر إليهم على أنهم مرتزقة، ولكنه كان بحاجة إليهم لحماية نظامه، وهكذا ساءت العلاقة بينه وبينهم[٣].

---

(١) محمود: ص ٢٧١.
(٢) ابن عذارى: جـ ٤ ص ٣١، ٣٢.
(٣) المصدر نفسه: ص ٣٢.

استغل السيد القمبيطور هذا التباعد بين الطرفين، فأوغر صدر ابن جحاف ضد المرابطين، وحمله على أن يصرفهم عن بلنسية صرفاً، وأوهمه أنه قد يجد في محالفته ومحالفة ابن هود ما يُعوِّضه عن محالفتهم. وبعد أن نجح في عزل الطرفين عن بعضهما، تقدم نحو المدينة وحاصرها مدة عشرين شهراً حتى سقطت في يده يوم الخميس (٢٨ جمادى الأولى ٤٨٧ هـ/ ١٥ حزيران ١٠٩٤ م)، فأجلى المسلمين عنها وأحلَّ محلهم النصارى، واعتقل القاضي ابن جحاف وصادر أمواله ثم أمر بحرقه، وذلك في (ربيع الآخر ٤٨٩ هـ/ نيسان ١٠٩٦ م)[١].

أثار سقوط بلنسية وإحراق القاضي ابن جحاف موجة عارمة من السخط في الأوساط الإسلامية الأندلسية، ولما حاول محمد بن عائشة استرداد المدينة مُني بهزيمة أمام قوات السيد القمبيطور وحليفه بدرو، ملك أراغون، على مقربة من بلدة بيرين، واستولى الأول على مدينة مربيطر[٢].

وحدث، في عام (٤٩٢ هـ/ ١٠٩٩ م)، أن توفي السيد القمبيطور، فحاولت زوجته شيمين متابعة رسالته والصمود في مواجهة حملات المرابطين المستمرة، والتمست المساعدة من ألفونسو السادس الذي جاء إلى بلنسية ومكث فيها شهراً[٣].

وعندما حانت الظروف التي تسمح للمرابطين من خوض معركة ناجحة أرسل يوسف بن تاشفين جيشاً بقيادة أحد أمهر قادته، ويدعى محمد بن مزدلي، فاصطدم بألفونسو السادس وأجبره على مغادرة المدينة، ولم تستطع شيمين الصمود والمقاومة، فأحرقت المدينة حتى لا يستفيد المسلمون منها، ودخلها القائد المرابطي في (رمضان ٤٩٥ هـ/ حزيران ١١٠٢ م)[٤].

كان لسقوط بلنسية في أيدي المرابطين وضمِّها إلى الدولة المرابطية أثر بالغ الأهمية في سير حركة الجهاد في شرقي الأندلس. فقد تفكَّكت الجبهة النصرانية، وتوغلت القوات المرابطية في أراضي الإمارة، فاستولت على مربيطر والمنارة والسهلة والبونت، ودخلت شنتمرية في (٨ رجب ٤٩٧ هـ/ ٥ نيسان ١١٠٤ م)، وقد أدَّى هذا الانتشار المرابطي إلى:

---

(١) ابن عذارى: جـ ٤ ص ٣٣ ـ ٤١.

(٢) المصدر نفسه: ص ٤٠، ٤١.

(٣) المصدر نفسه: ص ٤١، ٤٢.

(٤) المصدر نفسه: ص ٤٢، ٤٣. ابن بسام: جـ ٣ ص ٦٢.

ـ حماية ظهر إمارة سرقسطة وتوثيق علاقتها بالمرابطين.

ـ أضحى المرابطون على أبواب برشلونة، فغزاها محمد بن مزدلي فهدم بِيَعِها وأحرق مناطقها، وعاد محملاً بالأسلاب والغنائم[1].

ضمُّ بطليوس: زحف سير بن أبي بكر إلى بطليوس، بعد أن سيطر على إشبيلية، وتضم هذه الولاية مساحة شاسعة من الأراضي في غربي الأندلس، فارتاع صاحبها المتوكل عمر بن الأفطس وخشي على نفسه، وكان شديد التمسك بمدينته المتاخمة لحدود العدو، لذلك تردَّد بالولاء بين المرابطين وألفونسو السادس، فكان يُظهِر الطاعة للقائد المرابطي ويتصل سراً بألفونسو السادس يلتمس مساعدته ضد المرابطين.

ونتيجة لهذه السياسة أرسل سير بن أبي بكر أحد أعوانه إلى بطليوس، ويُدعى ابن الأحسن السجلماسي، ليقيم مع المتوكل ويراقب تحركاته، ما جعل هذا الأخير يتوجس خيفة، وتوتَّرت العلاقة بينهما، الأمر الذي دفعه إلى الجهر بتحالفه مع الملك القشتالي، وتخلَّى له عن ثلاث مدن مهمة، هي شنترين وشنتمرية الغرب وأشبونة، مقابل مساعدته ضد المرابطين[2].

لكن هذا التوجُّه للمتوكل كان له آثار سلبية على وضعه السياسي، إذ سرعان ما تخلَّى عنه السكان واستدعوا المرابطين، كما أثار القائد المرابطي سير بن أبي بكر فأرسل جيشاً ضمَّ شلب ويابرة وحاصر بطليوس ودخلها في (صفر ٤٨٧ هـ/ آذار ١٠٩٤ م) بعد أن فتح سكانها، الناقمون على المتوكل، أبوابها أمامه، ولم يستطع ألفونسو السادس تقديم المساعدة الفعَّالة لحليفة الذي أضحى وجهاً لوجه أمام المرابطين الذين نجحوا في بسط سيادتهم على مملكته بسهولة ويسر. وتَّم إعدام المتوكل وولديه الفضل والعباس في حين فرَّ الابن الثالث، المنصور، لينضمَّ إلى الممالك النصرانية ثم تمكَّن سير بن أبي بكر من استرداد أشبونة وشنترين[3].

معارك شرقي الأندلس: لم يغفل المرابطون، أثناء جهادهم في الأندلس، عن ألفونسو السادس الذي ما انفك يغير على الأراضي الإسلامية. ففي الوقت الذي كانوا فيه يوطدون أقدامهم في مرسية ودانية، ويتطلعون إلى بلنسية، كانت قواتهم تشتبك مع قوة قشتالية عند بلدة جيان في عام (٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م)، فهزموها

---

(١) ابن عذاري: جـ ٤ ص ٤٣، ٤٤. ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٨٨.

(٢) مذكرات الأمير عبد الله: ص ١٧٤. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ١٨٣.

(٣) ابن الخطيب: المصدر نفسه. ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٨٧.

وأجبروها على الانسحاب[1]. وتكرر المشهد القتالي عند كنشرة، وهي من أعمال طليطلة، فعندما احتل ألفونسو السادس قلعة أيوب وحاصر مدينة سالم، أرسل يوسف بن تاشفين حملة تأديبية بقيادة محمد بن الحاج، فالتقيا في كنشرة يوم السبت (٤ رمضان ٤٩٠ هـ/ ١٥ آب ١٠٩٧ م) وحلَّت به الهزيمة، فلاذ بالفرار إلى طليطلة، فحاصره محمد بن الحاج مدة سبعة أيام، ثم رحل عنها مكتفياً بالنصر الذي حققه، وقد فَقَدَ السيد القمبيطور أحد أبنائه في هذه المعركة، ويُدعى دييغو، كما هزم المرابطون، بقيادة ابن عائشة، البرهانس وحلفاءه الأراغونيين عند قونقة، واستولوا على جزيرة شقر، ثم ركَّزوا جهودهم لاستعادة طليطلة، فهاجموها في عام (٤٩٣ هـ/ ١١٠٠ م) بقيادة يحيى بن أبي بكر بن يوسف وصحبه القائدان سير ومحمد بن الحاج، غير أنهم فشلوا في اقتحامها، وارتدوا عنها بعد أن عاثوا في أنحائها وبثوا الرعب في قلوب سكانها[2].

وتكرَّرت المعارك بين الطرفين أمام طليطلة، وشدَّد القائدان محمد بن فاطمة ومحمد بن الحاج ضغطهما على المدينة، ولكن من دون جدوى، واستشهد محمد ابن الحاج في هذه الغزوة. وتابع محمد بن فاطمة الضغط عليها، وانتصر على النصارى عند فحص اللجج من بلاد العروس. وعندما شاع في الأندلس مرض يوسف بن تاشفين، ظنَّ ألفونسو السادس أن الفرصة قد سنحت له للثأر من المسلمين، فجرَّد حملة توغلت في الأراضي الإسلامية ووصلت قريباً من إشبيلية، فتصدّى له القائد سير بن أبي بكر، وأردفه يوسف بن تاشفين بقوة عسكرية بقيادة عبد الله بن الحاج، ونجحا في ردِّه وأجبراه على الانسحاب والعودة إلى بلاده[3].

وبذلك توحَّدت الأندلس لتتحول إلى ولاية تابعة للمغرب، ولم يبقَ خارج نطاق هذه الوحدة سوى إمارة سرقسطة، وذلك بفعل وضعها الحدودي الخاص، وقد قدَّر يوسف بن تاشفين جهود صاحبها أحمد المستعين بن هود في حربه للنصارى، والمحافظة على أراضيه.

تمخَّضت حركة الجهاد، التي قادها يوسف بن تاشفين في الأندلس، إلى تعثُّر حركة الاسترداد التي تبنَّاها ملوك قشتالة منذ أيام فرديناند الأول، فقد غُلِب ألفونسو

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٥٢.

(٢) ابن الكردبوس، أبو مروان، عبد الملك: الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تاريخ الأندلس ص ١١١ ـ ١١٣.

(٣) المصدر نفسه. ابن عذاري: جـ ٤ ص ٤٤، ٤٥.

السادس، وتبدَّدت أحلامه وآماله، ووقف حائراً أمام هذه القوة التي وحَّدت الأندلس بشكل لم تشهده هذه البلاد منذ أيام المنصور محمد بن أبي عامر، كما أن القوى الصليبية بعامة لم تستطع أن تتجاوز سرقسطة إلى الجنوب، وأضحى الزعيم المرابطي أعظم شخصية في المغرب الإسلامي.

عهد أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين (٥٠٠ ـ ٥٣٣ هـ/ ١١٠٦ ـ ١١٣٨ م)

الأوضاع الداخلية

توفي يوسف بن تاشفين إثر مرض ألَّم به في (مستهل محرم ٥٠٠ هـ/ ٢ أيلول ١١٠٦ م)، وخلفه ابنه علي، الذي كان قد اختاره ولياً للعهد[1]. واجه في مستهل حياته السياسية معارضة لحكمه في أنحاء متفرقة من بلاده التي تضم المغرب والأندلس، إلا أنها لم تؤثر في صرح الدولة، وسرعان ما تلاشت من دون عناء كبير من جانب السلطة، وذلك بفعل:

- افتقارها إلى الشخصية القيادية الموهوبة والقادرة.
- عدم توفر سند شرعي يبرر قيامها.
- حدثت في وقت كانت الدولة المرابطية في أوج قوتها وازدهارها. نذكر منها:
- ثورة فاس في عام (٥٠٠ هـ/ ١١٠٦م) بقيادة يحيى بن أبي بكر، حفيد يوسف ابن تاشفين، وكان يرى أنه أولى وأجدر بخلافة جده.
- ثورة أبي عبد الله بن الحاج، في العام المذكور، وهو أحد قادة المرابطين ووالي قرطبة.
- محاولة سكان غرناطة وإشبيلية القيام بحركات تمردية ضد ولاتهم في عامي (٥٠٧ و ٥١٢ هـ/ ١١١٤ و ١١١٨ م).
- ثورة سكان قرطبة في عام (٥١٤ هـ/ ١١٢٠ م)، وسببها تعرُّض أحد عبيد الوالي لإحدى النساء ورفض هذا الأخير الاقتصاص منه.
- ثورة العامة في إشبيلية ضد القاضي أبي بكر العربي في عام (٥٢٩ هـ/ ١١٣٥ م) بسبب صرامته في إقامة الحدود على الجناة والمعتدين، الأمر الذي لم يرق لمن تعوَّد على حياة الترف والتلذذ بالمحرمات.

---

(١) ابن خلكان: جـ ٧ ص ١٢٥. ابن أبي زرع: ص ٥٥. الحلل الموشية: ص ٦٠، ٦٧. يذكر أنه توفي في شهر ربيع الأول. ابن عذارى: جـ ٤ ص ٤٥. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥٣١. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٣٩٣.

ـ ثورة العامة في قرطبة ضد القاضي ابن رشد، في عام (٥٣٤ هـ/ ١١٣٩ ـ ١١٤٠م).

وإذا كان لنا أن نذكر الأسباب العامة لهذه الثورات، في ظل صمت روايات المصادر، فإن استئثار المرابطين بالوظائف القيادية أثار سخط الأندلسيين، بالإضافة إلى أساليب تعاملهم الخشنة معهم.

وأخيراً نذكر ثورة محمد بن تومرت التي سنتحدث عنها في موضعها من البحث.

العلاقات الخارجية

العلاقة مع مملكة قشتالة

معركة أقليش: أرسل الأمير المرابطي أخاه تميماً، في (رمضان ٥٠١ هـ/ نيسان ١١٠٨ م)، لغزو أراضي قشتالة، وكان عليه قبل أن يدخلها أن يقضي على حامية مدينة أقليش، وهي قاعدة كورة شنتبرية، وكانت على طريق زحفه وتحول بينه وبين القيام بعمل عسكري من هذه الناحية، فهاجم الحامية واقتحم المدينة في (١٤ شوال/ ٢٧ أيار)، وعندما علم ألفونسو السادس بهذا التطور العسكري السلبي، أرسل جيشاً لاستعادتها بقيادة ابنه الوحيد شانجة، البالغ من العمر خمسة عشر عاماً، يساعده القائد البرهانس وسبعة من الكونتات. وجرى اللقاء الدامي بين الجيشين على مسافة قريبة من أقليش، يوم الجمعة (١٦ شوال/ ٢٩ أيار)، وأسفر عن انتصار واضح للقوات المرابطية، التي نفَّذت عملية مطاردة للفلول الهاربة حتى حصن بلنشون، على بُعد عشرين كيلومتراً غربي أقليش، ولقي الأمير القشتالي شانجة مصرعه مع الكونتات السبعة عندما حاولوا الالتجاء إلى الحصن المذكور، وعُرفت المعركة في المدونات النصرانية باسم معركة الأقماط ـ الكونتات ـ السبعة، بينما عُرفت في المصادر الإسلامية باسم معركة أقليش. ونجح البرهانس بالانسحاب نحو طليطلة مع فلول جيشه، وتكبَّد ثلاثة آلاف قتيل[١].

وبعد أن جُمعت الغنائم في ساحة المعركة، وأعيد لأقليش طابعها الإسلامي، غادر تميم المدينة عائداً إلى غرناطة التي أضحت العاصمة الرسمية بدل قرطبة، من دون أن يستثمر انتصاره بالتوغل في عمق أراضي مملكة قشتالة، وهو أمر يثير الاستغراب والحيرة. وأرسل رسالة إلى علي بن يوسف يخبره بانتصاره، وترك

---

(١) ابن أبي زرع: ص ٥٩. ابن عذارى: جـ ٤ ص ٤٩، ٥٠. ابن القطان، أبو محمد حسن بن علي.. نظم الجمان ص ٦٣ ـ ٦٧.

القائدين محمد بن عائشة ومحمد بن فاطمة لحصار القلعة الداخلية، التي تحصَّن فيها بعض المدافعين عن المدينة، فاقتحماها بعد ذلك.

كان وقع الهزيمة ثقيلاً على الملك القشتالي حتى أنه لم يعش بعدها إلا أقل من عام، فقد توفي في (٢٨ ذي القعدة ٥٠٢ هـ/ ٢٩ حزيران ١١٠٩م) وخلفته ابنته أوراكة. وكان قد اختار لها زوجاً ليساعدها في تحمُّل أعباء الحكم، هو ألفونسو المحارب ملك أراغون ونبرَّة. وكان من المتوقع أن يحقق هذا الزواج الوحدة بين قشتالة وأراغون، ولكن حدث العكس، فانقلب شؤماً ونقمة على النصارى، ودفع بهم إلى أتون الحرب الأهلية التي استمرت أعواماً طوالاً، وحدَّ من اتحادهم ضد المسلمين، وقد تفجَّرت الخلافات بين الزوجين بسبب ممارسة السلطة.

أتاحت هذه النزاعات الداخلية في مملكة قشتالة فرصة طيبة لعلي بن يوسف ليُسدِّد ضرباته إلى أعماقها.

حملة المرابطين ضد طليطلة: كانت طليطلة هدفاً دائماً للمسلمين لاستعادتها من أيدي النصارى، وكان علي بن يوسف قد تشجَّع بالنصر الذي حقَّقه في أقليش، واضطراب الجبهة النصرانية بفعل الحرب الأهلية، فقاد حملة ضد طليطلة في عام (٥٠٣ هـ/ ١١٠٩ م)، وحتى يحكم الحصار عليها فتح طلبيرة، الواقعة في ناحيتها الغربية، بالإضافة إلى عدد من الحصون والقلاع المحيطة بها، غير أن محاولته لاقتحامها باءت بالفشل، بفعل متانة أسوارها وقوة حاميتها، فاضطر إلى رفع الحصار عنها وعاد إلى قرطبة، وفتح في طريق عودته مجريط ووادي الحجارة وقلعة هنارس[١].

المرابطون يهاجمون غربي الأندلس: في الوقت الذي كان فيه علي بن يوسف يهدِّد طليطلة، سار جيش مرابطي آخر، بقيادة سير بن أبي بكر، إلى البرتغال، ويبدو أن لهذه الحملة علاقة بمدى ارتباطها بمملكة قشتالة، فقد رأى أنه لا يتسنى له فتح طليطلة إلا بعد تجريدها من كل معاقلها لمنع المدد عنها، والمعروف أن هذه الولاية كانت تتمتَّع بحماية ملك قشتالة. مكثت الحملة في الأراضي البرتغالية حتى شهر (ذي القعدة ٥٠٤ هـ/ أيار ١١١١ م)، وفتحت بعض المدن في غربي الأندلس، مثل بطليوس ويابرة وأشبونة وشنترين وغيرها، وهدَّدت قلمرية، وتوغلت حتى مشارف بورتو[٢].

---

(١) ابن عذارى: جـ ٤ ص ٥٢. ابن القطان: ص ٦٩ ـ ٧٠.

(٢) ابن أبي زرع: ص ٦١.

مواقع غزوات المرابطين
التى قام بها على وتاشفين
فى أراضى قشتالة والبرتغال

عنّان: العصر الثالث، ص ١٣٧

وتبادل الطرفان المرابطي والقشتالي الهجمات على مدار الأعوام التالية التي لم تسفر عن تغيير جذري في وضع الأراضي، وما كان لها من أثر سوى إتلاف المزروعات وتخريب البساتين وترويع السكان. وإذا كانت غزوات المرابطين لم تُصدَّ بشكل جذري فذلك يعود إلى الحروب الأهلية التي كانت تضطرم بين ألفونسو المحارب وزوجته أوراكة، ومع ذلك فإن المرابطين لم يتمكّنوا من استغلال هذا الوضع المضطرب لفتح الشمال الإسباني. نذكر من بين المعارك التي خاضها الطرفان: معركة قرب الزلاقة في عام (٥٢٨ هـ/ ١١٣٣، ١١٣٤ م)، ومعركة فحصن البكار في العام نفسه، ومعركة فحصن عطية في عام (٥٣٠ هـ/ ١١٣٥، ١١٣٦م).

العلاقة مع مملكة أراغون

سقوط سرقسطة بيد ألفونسو المحارب: توفي الملك شانجة راميرو في عام (٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م)، فخلفه ابنه بيدرو الأول في حكم أراغون ونبرَّة. وسلك هذا الملك نهج والده في حرب الاسترداد وتوفي في (محرم ٤٩٨ هـ/ أيلول ١١٠٤ م)، من دون أن يترك ولداً ذكراً يخلفه، فخلفه أخوه ألفونسو الأول، وقد غلب عليه لقب المحارب بفعل حروبه المستمرة ضد المسلمين وضد خصومه من النصارى، والمعروف أنه حكم أراغون ونبرَّة وقشتالة لبعض الوقت بفعل زواجه من أوراكة القشتالية.

وفي الوقت الذي كان فيه ألفونسو المحارب في قشتالة، هاجم أحمد المستعين ابن هود، صاحب سرقسطة، مناطق الحدود مع أراغون ونبرَّة، ففتح حصن أرنيط في عام (٥٠٣ هـ/ ١١٠٩ م)، وعند عودته إلى عاصمته فاجأه ألفونسو المحارب عند بلتيرة، الواقعة على ضفاف نهر إبرو، وانتصر عليه، واستشهد أحمد المستعين في المعركة مع عدد كبير من أفراد جيشه[1].

ترتَّب على معركة بلتيرة أن فقدت سرقسطة آخر أمرائها الكبار من بني هود، إذ إن ابنه وخليفته عبد الملك لم يكن على مستوى والده في القدرة السياسية، وفشل في وضع حدٍّ لانقسام المجتمع السرقسطي بين داعٍ للدخول في تبعية المرابطين وبين مؤيد للأسرة الهودية، كما تعرَّض لتهديدات خارجية، من جانب الأراغونيين. وأخذ نفوذ العائلة الهودية يتراجع يوماً بعد يوم، الأمر الذي دفع الطرفان المرابطي والأراغوني إلى التسابق للسيطرة على أملاك الهوديين.

(١) ابن عذاري: جـ ٤ ص ٥٣. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ١٧١.

كان سكان سرقسطة قد اشترطوا على عبد الملك، حين بايعوه، بعدم التحالف مع جيرانه النصارى، وأن لا يستخدم المرتزقة النصارى في الجيش[1]، لكنه نقض وعده لهم، ولم يفِ بالشروط التي التزم بها، ويبدو أنه خشي على مملكته من طموح المرابطين، فأراد أن يستقوي بهم ضد هؤلاء. وأفتى الفقهاء بعدم جواز مسالمة عبد الملك لتحالفه مع النصارى، ما كان دافعاً لعلي بن يوسف لاستئصال شأفة بني هود، فأمر حاكم بلنسية، محمد بن الحاج، بالتوجه إلى سرقسطة وانتزاعها من أيدي عبد الملك، فخرج إليها في (١٠ ذي القعدة ٥٠٣ هـ/ ٣١ أيار ١١١٠ م)، ولما وصل، فتح السكان أبوابها له ودخلها، وخرج عبد الملك منها وتوجَّه إلى حصن روطة على بُعد خمسة وثلاثين كيلومتراً، فأقام به والتمس مساعدة النصارى[2].

والواضح أن تحالف عبد الملك مع ملك أراغون أدى إلى قيام المرابطين بضمّ سرقسطة لإنقاذها والثغر الأعلى من الزحف الأراغوني من جهة والضغط القطلوني الواقع عليها من جهة أخرى.

وبسقوط سرقسطة بيد المرابطين، تبدأ مرحلة جديدة من العلاقة المرابطية، الهودية والنصرانية المشتركة، ذلك أن ألفونسو المحارب كانت له أطماع في اقتطاع أجزاء أخرى من مملكة سرقسطة التي لم يكن قد بقي من أعمالها سوى روطة وتطيلة ولاردة وإفراغه وطرطوشة، إلا أنه كان منهمكاً آنذاك بتثبيت حكمه في قشتالة وليون، فلم يُعرْ فكرة استرداد سرقسطة التفاتة جديَّة، واكتفى بإقامة فِرَق عسكرية على الحدود مدرَّبة تدريباً خاصاً، وكلَّفها بمناوأة المرابطين ومضايقتهم.

وعندما انتهى من مشكلاته الداخلية تفرَّغ لقضية سرقسطة، فهاجمها مع حليفه عبد الملك أكثر من مرة، ابتداء من عام (٥٠٤ هـ/ ١١١١ م) غير أنه فشل في اقتحامها، فأدرك عندئذٍ أنه ليس بقادر على اقتحامها منفرداً، فالتمس المساعدة من الأوروبيين، وكانت شهرته آنذاك في قتال المسلمين قد عمَّت أرجاء أوروبا، فجاءته الإمدادات من فرنسا بقيادة كونت تولوز، وبارك رجال الدين هذه الدعوة إلى حملة صليبية ضد مسلمي الأندلس[3].

وهكذا، احتشدت حملة صليبية تُقدَّر بخمسين ألف مقاتل، ضمَّت جموعاً

---

(١) ابن الخطيب: جـ ٢ ص ١٧١. (٢) ابن عذارى: جـ ٤ ص ٥٤.

(٣) المصدر نفسه. ابن أبي زرع: ص ٨٨. عنان: عصر المرابطين والموحدين ص ٨٧.

Lacarra: La Conquista de Zaragoza P. 68.

مختلفة، فرنسية ونورمانية وبشكنسية وأراغونية وناڤارية وقشتالية، مزوَّدة بآلات الحصار الضخمة والأبراج الخشبية والمجانيق، عبرت جبال البرينيه من بوابة سان كريستينا وتقدَّمت حتى نهر إبرو، واستولت في طريقها على بعض المواقع الدفاعية للمسلمين، مثل قلعة المدور، الأمر الذي جعل الطريق إلى سرقسطة مفتوحاً أمامها. وتمَّ اختيار غاستون دي بيارن قائداً عاماً لها نظراً لشهرته العسكرية. ولما وصلت إلى المدينة ضربت حصاراً فورياً عليها، وذلك في (صفر ٥١٢ هـ/ أيار ١١١٨م)، ولم ينتظر غاستون دي بيارن وصول الملك الأراغوني الذي كان في مملكة قشتالة لإخضاع طليطلة، وعليه كانت فكرة الحصار أراغونية، أما التنفيذ فقد تولاه الفرنجة. والجدير بالذكر أن ألفونسو المحارب وصل بعد خمسة عشر يوماً من الحصار»[١].

استمر الحصار نحو ستة أشهر، عانى الطرفان خلالها من مر القتال وتناقص الأقوات، وهلك أكثر سكان المدينة جوعاً. وازداد الوضع الداخلي تفاقماً على أثر وفاة حاكمها عبد الله بن مزدلي، إذ أضحى الأمر فوضى بعده. ومما عقَّد الأمور تقاعس تميم بن يوسف وإحجامه عن مساعدة المدينة على الرغم من تدخله في آخر مدة الحصار كي يرفع عنه المسؤولية. وأرسل سكان المدينة رسالة عاجلة إلى علي بن يوسف في مراكش يطلبون تدخله على وجه السرعة، فأرسل جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل لإنقاذهم، ولما وصل إلى المدينة وجدها قد سقطت في أيدي الأعداء[٢].

واضطر المحاصَرون إلى الاستسلام بعد أن أجهدهم طول الحصار، وتضييق النصارى عليهم، وفشل جهود المرابطين في إنقاذهم. وتمَّ توقيع معاهدة التسليم في قصر السدَّة في (٢٥ شعبان/ ١١ كانون الأول)، ودخل ألفونسو السادس إلى المدينة في (٣ رمضان/ ١٨ كانون الأول)، وغادرها نحو خمسين ألفاً من سكانها المسلمين.

اتخذ ألفونسو المحارب من سرقسطة عاصمة لمملكته، فنظم شؤونها، وحوَّل المسجد الجامع إلى كنيسة سميت لاسيو دي سرقسطة، أو سان سلفادور، وجعلها مركز أسقفية، ومنح سكانها النصارى امتيازات الأشراف، وعيَّن غاستون دي بيارن حاكماً عليها، فتبدلت بذلك صورتها الإسلامية بصورة نصرانية، وطبعها بالطابع النصراني[٣].

---

(١) السلاوي: جـ ١ ص ٣٥. Lacarra: P. 63. (٢) ابن أبي زرع: ص ٨٩.

(٣) ابن الأبار، أبو عبد الله محمد.. القضاعي: الحلة السيراء ص ٢٤٨، ٢٤٩. المقري: جـ ١ ص ٤٢٢. Lacarra: P. 94.

تعقيب على سقوط سرقسطة

ـ كان استرداد سرقسطة من تخطيط ملك أراغون ألفونسو المحارب، وكانت الحروب الصليبية التي اندلعت في المشرق الإسلامي قد أثارت الفرنجة ودفعتهم إلى الاشتراك في الحروب الصليبية في الأندلس بهدف تخليص نصارى إسبانيا من الخضوع للحكم الإسلامي، بالإضافة إلى استرداد الأراضي الإسبانية من المسلمين، فوفدت من وراء البرينيه أعداد كبيرة من الفرسان والمشاة لمساعدة الأراغونيين، واكتفى المرابطون، من جانبهم، بإرسال جيوش قليلة العدد تحت قيادات ضعيفة لمواجهة هؤلاء، ولهذا باءت محاولاتهم لإنقاذ المدينة بالفشل.

ـ ترتَّب على استرداد سرقسطة أن اتسعت مملكة أراغون وأصبحت تهدِّد بقية مدن الثغر الأعلى، واشتد الخطر الأراغوني على الجزء الشمالي الشرقي للأندلس، وبخاصة بلنسية.

ـ تطلَّب استرداد مدينة سرقسطة، إخضاع كل المملكة التي حكمتها أسرة بني هود لضمان خط دفاعي جيد لحماية العاصمة الجديدة، فاستغل ألفونسو المحارب انتصاره الكبير هذا، بالإضافة إلى وضع المرابطين الحرج، وتحسُّن علاقته بأمير برشلونة عن طريق المصاهرة، وهاجم المدن والقلاع التي يسيطر عليها المرابطون، فاستولى على تطيلة وطرَّسونة وغيرها من المدن والحصون الواقعة على الضفة اليمنى لنهر إبرو، وحاصر قلعة أيوب.

ويبدو أن المرابطين لم يهتموا كثيراً بتأكيد سلطتهم في بعض المناطق الداخلية البعيدة عن الطرق المألوفة الأمر الذي سهَّل مهمة ألفونسو المحارب في إخضاع وادي إبرو ووادي شلون.

ـ تأكيداً لمواصلة حركة الاسترداد، أسَّس ألفونسو المحارب جماعة دينية ـ عسكرية في مدينة بلشر من إخوة يخدمون الرب ويحاربون المسلمين، ويدافعون عن الحدود. وشكَّلت هذه الجماعة خط دفاع أمامي عن سرقسطة، وتمتَّع أفرادها بفوائد روحية ومادية كبيرة، على غرار المنظمات الدينية ـ العسكرية التي تأسست منذ أعوام قليلة في الإمارات الصليبية في المشرق الإسلامي، كالإسبتارية والداوية.

ـ يُعدُّ سقوط سرقسطة نقطة تحوُّل في تاريخ المرابطين في الأندلس والمغرب، وذلك بظهور محمد بن تومرت، وأخذ نجمهم في الأفول، ونفوذهم في الانحسار تحت ضغط النصارى وهجمات الموحدين.

معركة كتندة: عندما علم علي بن يوسف بسقوط سرقسطة، كلَّف أخاه إبراهيم بن يوسف، وإلى إشبيلية، بإعداد حملة ضد ملك أراغون لاستردادها، أو على الأقل وقف الزحف الأراغوني باتجاه الشرق، وأرسل إلى حكام المدن وولاة الأندلس وزعمائها، يستحثُّهم على تقديم العون والمساعدة للحملة. واحتشدت قوات من قرطبة ولاردة وغرناطة ومرسية، بالإضافة إلى عدد كبير من المتطوعين جاؤوا من مختلف أنحاء الأندلس.

انطلقت الحملة من مرسية، في (صفر ٥١٤ هـ/ أيار ١١٢٠ م)، باتجاه كتندة، الواقعة على مسافة إثني عشر كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من دروقة، وهي من عمل سرقسطة، وقد بلغ تعدادها خمسة آلاف فارس وعشرة آلاف من المشاة باستثناء المتطوعين، ورافقها عدد من القضاة والفقهاء، لحث المقاتلين على الجهاد، نظراً لأهمية التعبئة النفسية للجند قبل خوض المعركة.

كان ألفونسو المحارب يحاصر آنذاك قلعة أيوب، فلما علم بتقدم القوات المرابطية، رفع الحصار عنها، وتوجَّه إلى لقاء الجيش المرابطي. وجرت بين الطرفين رحى معركة ضارية عند بلدة كتندة في (١٨ ربيع الأول/ ١٧ حزيران)، انتهت بهزيمة المسلمين هزيمة قاسية ومقتل عدد كبير منهم. ويبدو أن خسائر المرابطين كانت ضئيلة لأنهم تركوا المتطوعين يتحملون وحدهم عبء القتال، وغنم النصارى غنائم كثيرة، من ضمنها عدد كبير من الأسرى، وانسحب إبراهيم بمن تبقَّى من جيشه إلى بلنسية[١].

استغل ألفونسو المحارب هذا الانتصار، فاستولى على كتندة ودروقة، واستسلمت له قلعة أيوب، وخضعت له كل المدن الواقعة على نهر شلون بالإضافة إلى الضفة اليمنى لنهر إبرو، وقطع الطريق الشرقي أمام المسلمين لتأمين سيطرته على مملكة سرقسطة. وبانهيار مملكة سرقسطة، انهار خط الدفاع الأول عن الأندلس، وترتب على ذلك أن تعرَّضت أراضي المسلمين للغزو النصراني من الشمال الشرقي ومن الوسط.

أدرك علي بن يوسف خطورة هذه الضربة التي تلقاها، وما يترتب على هذه الهزيمة وما سبقها من هزائم، من تضعضع لمركز المرابطين في الأندلس، فحمَّل أخاه إبراهيم مسؤولية الهزيمة في كتندة، وعدَّه مقصِّراً في الاستعداد الكافي للدخول في معركة ناجحة، وقرَّر أن يعيد ثقة الأندلسيين به، فعبر إلى الأندلس في عام (٥١٤ هـ/ ١١٢٠ م) للثأر لهزيمة كتندة، غير أنه لم يحاول إنقاذ سرقسطة، وبدلاً من التوجه

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦٦٦. المقري: جـ ٦ ص ٢١٩.

إلى شرقي الأندلس حيث مسرح العمليات العسكرية توجَّه إلى الغرب، تاركاً مجالاً واسعاً لنشاط ألفونسو المحارب التوسعي، وهذا خطأ فادح ترتَّب عليه ضياع جزء كبير من أراضي الأندلس.

حملة ألفونسو المحارب الكبرى ضد المناطق الشرقية والجنوبية: واصل ألفونسو المحارب أعماله العسكرية لالتهام مزيد من أراضي المسلمين، متشجعاً بانتصاراته السابقة، واضطراب أوضاع المرابطين، فقام في عام (٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م) بحملة كبرى لانتزاع المناطق الشرقية والجنوبية، ومهَّد لحملته بأن استولى على حصن بنياكاديلا الواقع بين أراضي بلنسية ولقنت، ويُعدُّ الممر الطبيعي إلى بلنسية، ويبدو أنه خطط للدخول عبره إلى الأندلس. وجاء الرد المرابطي سريعاً، فقد أمر علي بن يوسف الجند المرابطين والأندلسيين، باستعادة الحصن، غير أنهم منوا بهزيمة نكراء، وتعقَّبتهم حاميته وطاردت فلولهم[1].

كان ألفونسو المحارب على اتصال دائم مع النصارى في غرناطة الذين كانوا يكرهون المسلمين ويحاولون التخلُّص من تبعيتهم، فأغروه بمهاجمة المدينة، وهوَّنوا عليه أمرها، والمعروف أن غرناطة اشتهرت بضخامة المستعربين فيها، من حيث العدد والثراء والنفوذ، فحشد جيشاً مؤلفاً من خمسة آلاف فارس وخمسة عشر ألفاً من المشاة، اختارهم من أراغون وتوابعها، وأحاط حملته بالكتمان الشديد، وخرج من سرقسطة، في (شعبان ٥١٩ هـ/ أيلول ١١٢٥ م)، باتجاه الشرق، فاخترق أراضي لاردة وإفراغة الإسلامية، ثم انحرف نحو الجنوب حتى وصل قريباً من بلنسية، في (٢٠ رمضان/ ٢٠ تشرين الأول)، فاشتبك مع الحامية المرابطية بقيادة بدر بن ورقاء. وانضم إليه في غضون ذلك عدد كبير من المستعربين كمرشدين ومخبرين، ثم غادر أراضي بلنسية نحو مرسية عن طريق بسطة، الواقعة شمال شرقي غرناطة، وشنَّ الغارات أينما مرَّ، ووصل إلى وادي آش في (أول ذي القعدة/ ٢٩ تشرين الثاني)، ثم تابع تقدمه حتى وصل إلى قرية فنيانة، الواقعة في الجنوب الشرقي من مدينة وادي آش، وأقام عليها شهراً، وكان المستعربون، في غضون ذلك، يتدفَّقون عليه وينضمُّون إلى قواته. وتحرك نحو قرية دجمة، إحدى قرى غرناطة، يوم عيد الأضحى، فصلَّى الناس صلاة الخوف، ولما وصل إلى مدينة غرناطة ضرب عليها الحصار، وكانت قواته قد وصلت إلى

---

(١) صالح، نادية موسى: العلاقات الإسلامية المسيحية في إسبانيا في عهد الملك ألفونسو الأول ص ٢٢٠، ٢٢١.

خمسين ألفاً. استمر الحصار مدة أربعة عشر يوماً لم يتمكَّن خلالها من اقتحام المدينة بفعل تساقط الأمطار بغزارة وانخفاض درجة الحرارة، وضراوة مقاومة حاميتها، ولم يجرؤ المستعربون في داخلها على فتح أبوابها له، الأمر الذي جعله يفقد كل أمل في الاستيلاء عليها، وأدرك عندئذٍ أنه تورَّط في مشروع متهوِّر وغير مفيد، لذلك رفع الحصار عن المدينة واكتفى بتخريب وسلب ما حولها، فطاردته حاميتها واشتبكت معه بالقرب من حصن اللسانة إلى الشمال الغربي من غرناطة، انتصر فيه ألفونسو المحارب، فتشجَّع بهذا النصر وقرَّر العودة مرة أخرى إلى غرناطة لاقتحامها، وعسكر على بُعد ثلاثة فراسخ منها، وأقام هناك مدة ثلاثة أيام. ويبدو أنه صادف مقاومة من الحامية التي أعادت تنظيم صفوفها، فاضطر إلى فك الحصار، وعاد إلى بلاده، مصطحباً معه عدداً كبيراً من مستعربيها يُقدَّر باثني عشر ألفاً، وقد فضَّلوا مغادرتها خشية من انتقام المرابطين، فتعقبته القوات المرابطية وفتكت بجنود مؤخرته. وازداد وضعه حرجاً حين تفشى الوباء بين صفوف قواته، فأخذ يطوي المسافات للحاق ببلاده، من دون أن يُحقِّق الهدف الذي خرج من أجله، واستغرقت حملته سنة وثلاثة أشهر[1].

كشفت حملة ألفونسو المحارب عن نوايا المستعربين المعادية، ونبَّهت الدولة المرابطية إلى خطورتهم، فشدَّدت المراقبة عليهم، كما بيَّنت عدم كفاءة قائد الجيوش المرابطية في الأندلس، تميم بن يوسف، وضُعف وسائل الدفاع، وبخاصة فيما يتعلق بالقلاع والأسوار، بدليل أن الملك الأراغوني استطاع أن يخترق الأندلس من الثغر الأعلى شمالاً حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط جنوباً من دون أن تستطيع قوة مرابطية أن تقف في سبيله وتحول من تقدمه.

نتيجة هذه الأوضاع الصعبة، تشاور علماء وفقهاء الأندلس فيما يجب عمله لإنقاذ الموقف، فاستقرَّ رأيهم على إرسال قاضي قرطبة أبي الوليد بن رشد إلى مراكش لشرح ما آلت إليه الأوضاع، والطلب من علي بن يوسف العمل على:

ـ تغريب المستعربين على ما اقترفوه من استدعاء ألفونسو المحارب وتقويته على المسلمين وإمداده بالمساعدات، فنقضوا العهد، وخرجوا على الذمة، فسقطت عنهم الحماية الممنوحة لهم.

ـ عزل أخيه تميم، بعد أن ثبت عجزه وعدم كفاءته في إدارة البلاد.

---

(١) ابن عذاري: جـ ٤ ص ٦٩ ـ ٧٢.

ـ ترميم أسوار القلاع والمدن وتقويتها.

استجاب علي بن يوسف لهذه المطالب وقام بتنفيذها. والملفت أن تميماً توفي قبل أن يعزله أخوه، وعيَّن الأمير المرابطي ابنه تاشفين حاكماً على الأندلس[١].

معركة القليعة ـ قليرة: أدرك ألفونسو المحارب، بعد عودته إلى بلاده، عدم قدرة المرابطين على مواجهته في معركة مكشوفة، كما أراد استغلال الظروف التي كانت تمر بها الدولة المرابطية في المغرب في صراعها مع الموحدين، فقرَّر الاستيلاء على بلنسية لتأمين الاتصال مع منطقة الساحل الشرقي وقطع الإمدادات إلى القواعد الإسلامية الباقية في الثغر الأعلى وعزلها.

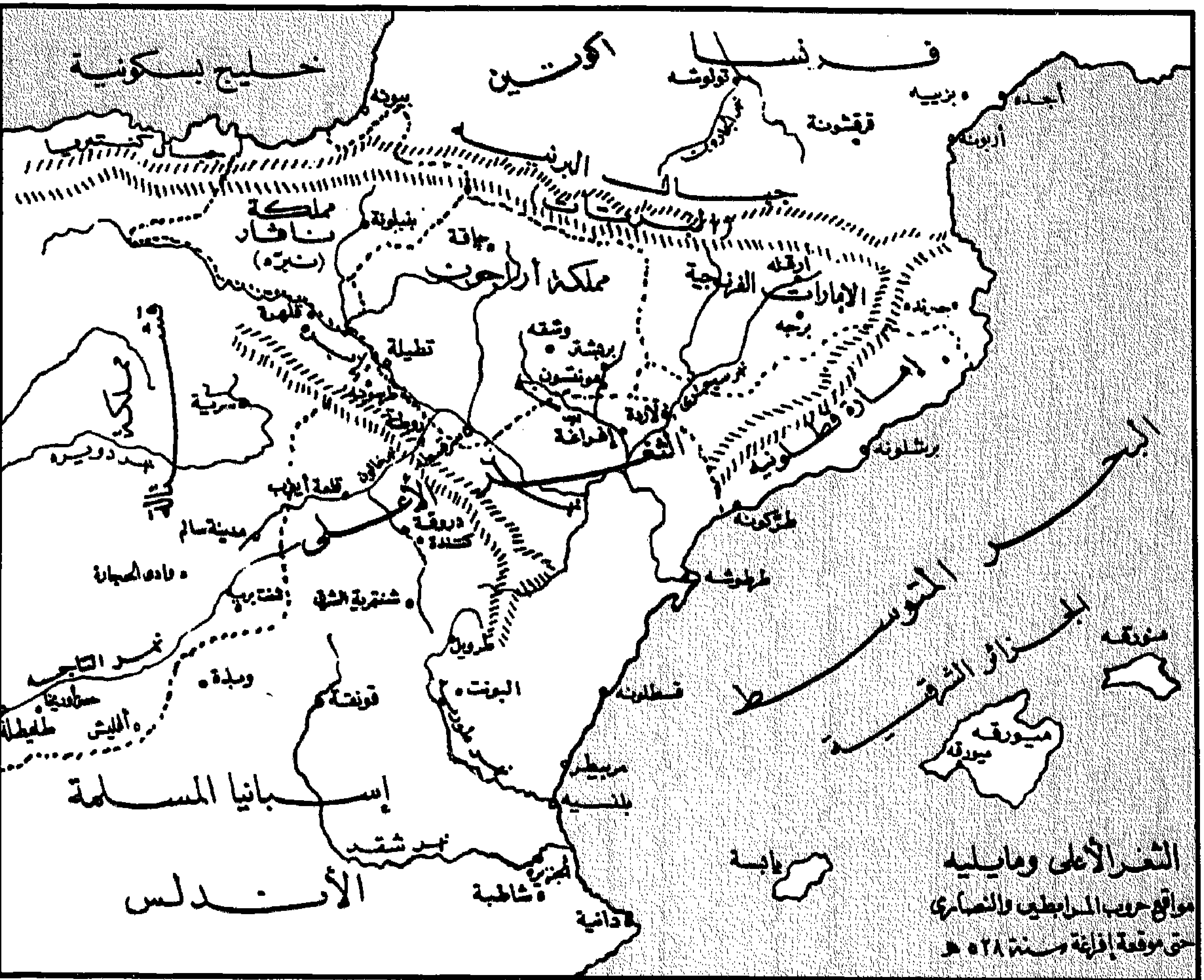
وبدأ حملته في (جمادى الأولى ٥٢٣ هـ/ أيار ١١٢٩ م)، فحاصر المدينة واستولى على بعض مراكزها الدفاعية الأمامية، وقاد قسماً من قواته باتجاه الجنوب، حتى إذا وصل إلى القليعة، الواقعة على مقربة من جزيرة شقر، تصدى له المرابطون، بقيادة أبي محمد بن أبي بكر بن سير اللمتوني، وجرى اشتباك بين الطرفين أسفر عن انتصار الملك الأراغوني الذي استولى على القليعة، إلا أنه لم يستثمر انتصاره بالاستيلاء على بلنسية، ويبدو أنه تكبَّد خسائر جسيمة، كما خشي من مقاومة حاميتها، واكتفى بأعمال العبث والتخريب لإضعاف موارد المدينة تمهيداً لمهاجمتها في وقت لاحق[٢].

معركة إفراغة: يبدو أن ألفونسو المحارب أدرك صعوبة تحقيق تطلعاته بغزو الشرق الأندلسي والوصول إلى ساحل البحر، عن طريق مملكة بلنسية، وعزم على تحقيقها عن طريق غزو ضفاف نهر إبرو حتى طرطوشة، كما كان عليه ضمان سلامة الملاحة في هذا النهر وضرورة الدفاع عن حدوده المهدَّدة بالخطر. فقد كان المرابطون يسيطرون على المنطقة الواقعة شرقي سرقسطة، وأهم قواعدها لاردة وإفراغة، ومكناسة، وكذلك على المنطقة الممتدة على طول نهر إبرو حتى مصبه عبر ثغر طرطوشة[٣]. وقد انتهز المرابطون فرصة انهماكه بحروبه في قشتالة وجنوبي فرنسا، واضطراره إلى الانصراف عن سياسة الاسترداد؛ فقاموا بشن الغارات من لاردة وطرطوشة على أراضي أراغون وإمارة برشلونة، وعندما عاد من جنوبي فرنسا، استأنف جهوده الحربية، فأرسل فرقاً عسكرية سيطرت على الملاحة في نهر إبرو

(١) ابن عذارى: جـ ٤ ص ٧١ ـ ٧٣.

(٢) ابن القطان: ص ١٥٢، ١٥٣. عنان: وثيقة رقم ٤، ٦، ٧، ص ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٤ ـ ٥٤٦.

(٣) أشباخ: جـ ١ ص ١٧٢.



عنَّان: العصر الثالث، ص ٩١

وقطعت الاتصالات والمواصلات مع المسلمين في الداخل، تمهيداً للتوغل في المنطقة. وفي منتصف عام (٥٢٧ هـ/ ١١٣٣ م) حشد الجيش والمعدات العسكرية في مدينة سرقسطة، ثم خرج منها متوجهاً إلى طرطوشة للاستيلاء عليها وقطع طريق الإمدادات البحرية عن المرابطين، لكنه كان عليه، قبل أن يبدأ بحصارها، أن يستولي على المعاقل الداخلية التي تشكل المراكز الأمامية لهؤلاء، مثل مكناسة وإفراغة، فاستولى على الأولى في (شعبان/ حزيران)، واتخذها مركزاً لعملياته العسكرية، ثم تقدَّم نحو إفراغة وحاصرها، فالتمس صاحبها سعد بن مردنيش المساعدة من المرابطين، فجاءته الإمدادات من مرسية بقيادة يحيى بن غانية، ومن لاردة بقيادة عبد الله بن عياض[(١)].

واستدرج المرابطون ألفونسو المحارب إلى كمين وانقضوا على قواته وفرَّقوها، ونجا الملك بأعجوبة، ولاذ بالفرار مع قوَّة من فلول جيشه عائداً إلى سرقسطة، وجرت المعركة في (٢٣ رمضان ٥٢٨ هـ/ ١٧ تموز ١١٣٤ م)[(٢)].

الواضح أن ألفونسو المحارب استهان بقوة المرابطين، وغرَّته انتصاراته السابقة عليهم، فلم يتوخَّ الحذر، فدارت الدائرة عليه، وتوفي من أثر الصدمة بعد شهر ونصف، في (١٦ ذي القعدة ٥٢٨ هـ/ ٧ أيلول ١١٣٤ م).

لم يستثمر المرابطون انتصارهم هذا بمهاجمة سرقسطة التي أضحى الطريق إليها مفتوحاً، واستعادتها من أيدي الأراغونيين، مرتكبين خطأً سياسياً وعسكرياً فادحاً، كما لم ينتهزوا هذه الفرصة لاستعادة طليطلة من القشتاليين.

العلاقة مع إمارة برشلونة

اتسمت علاقة المرابطين العامة مع إمارة برشلونة بالعدائية، وكانت الجزائر الشرقية محط أطماع الأمير رامون برنجار الثالث، فاستولى على جزيرة يابسة وحاصر جزيرة ميورقة، وحتى يُخفِّف المرابطون الضغط عن تلك الجزائر هاجموا برشلونة نفسها، غير أنهم هابوا ضخامة استحكاماتها واكتفوا بشن الغارات على ضواحيها وتدمير منافعها، لحرمان العدو من الاستفادة منها، وقفلوا عائدين إلى بلادهم، فكمن لهم النصارى عند حصن كونغست دل مارتوريل، في مكان ضيق ووعر وهاجموهم. وجرى قتال عنيف بين الطرفين قُتل خلاله القائد محمد بن الحاج

---

(١) ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٣٩٣.
(٢) المصدر نفسه.

ونجا مساعده القائد محمد بن عائشة، وتُعرف هذه الموقعة في المصادر الإسلامية بموقعة البورت، ومعناها الباب، بينما تُعرف في الروايات النصرانية باسم كونغست دل مارتوريل[١].

خلف محمد بن الحاج الأمير أبو بكر بن إبراهيم بن تافلويت[٢]، فقرَّر أن ينتقم لهزيمة البورت، فنظم حملة ضد برشلونة في (ذي الحجة ٥٠٨ هـ/ أيار ١١١٥ م) انتهت بهزيمته.

أقلق استيلاء ألفونسو المحارب على سرقسطة، وهزيمة المرابطين في كتندة، حاكم لاردة باهلال، الملقب بالحاجب، فتحالف مع رامون برنجار الثالث، أمير برشلونة، الذي كان ينافس الملك الأراغوني حول السيطرة على لاردة، وعقد اتفاقاً ودياً معه في (٢٠ شعبان ٥١٤ هـ/ ١٤ تشرين الثاني ١١٢٠ م)[٣].

وسرعان ما علم ألفونسو المحارب بهذا الاتفاق الذي يتعارض مع منطقه التوسعي، فتصرف على محورين:

الأول: قام بشن الغارات على الأراضي الواقعة بين سينكا وشقر.

الثاني: التمس الحلفاء من أعداء أمير برشلونة، مثل أمير طلوشة.

ورد عليه الأمير القطلوني بالتحالف مع صاحب بواتيه، عدو الملك الأراغوني.

وعندما حاول ألفونسو المحارب مهاجمة لاردة في (ذي الحجة ٥١٦ هـ/ شباط ١١٢٣ م) هبَّ أمير برشلونة لمساعدة صاحبها الحاجب. ونشبت بين الطرفين معركة محدودة، تدخل بعدها الأساقفة والأعيان، وأقنعوا الطرفين بوقف الحرب والتوصل إلى اتفاق، وجرى تقاسم النفوذ بينهما، فَوُضِعَتْ لاردة تحت وصاية أمير برشلونة، وحصل الملك الأراغوني على مكناسة وإفراغة[٤].

---

(١) ابن أبي زرع: ص ١٠٤، ١٠٥. ويذكر ابن عذارى أن القائد محمد بن الحاج قُتل في معركة قرطبة في عام ٥٠٩ هـ. جـ ٤ ص ٦١.

(٢) ابن عذارى: جـ ٤ ص ٦١، ٦٢.

(٣) Lacarra: Alfonso el Batallador P. 79.

(٤) Ibid: P. 81.

الفصل الخامس عشر

الأندلس في ظل حكم الموحِّدين

(٥٤١ ـ ٦٤٢ هـ/١١٤٦ ـ ١٢٤٤ م)

عهد عبد المؤمن بن علي (٥٤١ ـ ٥٥٨ هـ/ ١١٤٦ ـ ١١٦٣ م)

أصل الموحدين: كان نجاح عبد الله بن ياسين في تأسيس حركة دينية إصلاحية واسعة النطاق في المغرب، ثم تمهيده الطريق لقيام دولة صنهاجية استطاعت أن تُخلِّص الصنهاجيين من استبداد الزناتيين؛ حافزاً لفقيه مغربي آخر هو محمد بن تومرت من قبيلة هرغة المصمودية[١]، للقيام بدعوة مماثلة طابعها التجديد وهدفها تحقيق وحدة إسلامية شاملة عن طريق قيام دولة جديدة تحل محل الدولة المرابطية.

وتمتاز هذه الحركة بتخصصها القوي وصبغتها البربرية وبأسلوبها الديني الواضح الذي انبثقت منه قبل أن تتطور بسرعة إلى حركة سياسية يتزعمها الإمام المعصوم والمهدي المنتظر، والواضح أنها تمثل حركة قومية داخلية تضطرم بين فريقين من القبائل البربرية تحت ستار الدين[٢].

رأى هذا الفقيه أنه مكلَّف بأداء رسالة إلهية تقوِّم الأوضاع السائدة، وتنشل المجتمعات الإسلامية من حال الضعف، وبخاصة المجتمع المغربي، فراح يبث تعاليمه في المغرب، القائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهرع الناس إليه والتفَّ حوله الطلاب والمريدون[٣].

أثار محمد بن تومرت، بزيه المتواضع وزهده البالغ وورعه وتقشُّفه، وخطبه القوية الحارة، حفيظة علي بن يوسف وفقهاء الدولة المرابطية وقضاتها، فقبض عليه

(١) ابن خلدون: جـ ٦ ص ٢٢٥.
(٢) عنان: ص ١٥٧.
(٣) المراكشي: ص ١٢٦.

الأمير المرابطي وأودعه السجن في مراكش، في عام (٥١٤ هـ/ ١١٢٠ م)، ثم أطلق سراحه بشرط أن يغادر المدينة، فذهب إلى أغمات ثم إلى بلاد السوس، موطن عشيرته، واستقرَّ في مكان حصين خوفاً من ملاحقة السلطة، هو إيجليز، ويعني الجبل، وذلك في عام (٥١٥ هـ/ ١١٢١ م)، ثم انتقل، بعد ثلاثة أعوام، إلى مكان أكثر حصانة وأمناً، إلى قلعة تينملل، في قلب جبال الأطلس، فجعل منها دار هجرته، وراح يدعو الناس للهجرة إليه والانضمام إلى جماعته، فافتتن المصامدة به، وأضحوا طواعية أمره، ونظم أتباعه في طبقات هرمية وفق إخلاصهم له والسابقة في انضمامهم إليه، وأطلق عليهم اسم الموحدِّين وذلك تعريضاً بالمرابطين وفقهائهم لقولهم بالتجسيم وعدولهم عن التأويل، وإقرارهم التشابهات، وإيمانهم بها كما وردت، فأضافوا بذلك صفات بشرية ومادية على ذات الله، لذلك اعتقد الموحِّدون أنهم المؤمنون حقاً من دون غيرهم، وكفَّروا جميع خصومهم[1].

وراح محمد بن تومرت يهاجم حكومة المرابطين ويتهمها بالفساد والمنكر والفجور، ليتوصل إلى نظرية تقضي بوجوب قتالها[2]، ويبدو أن هذا الهجوم العنيف يُخفي في طياته مواقف سياسية وقبلية:

ـ فمن حيث المواقف السياسية، فقد اتصف محمد بن تومرت بالطموح السياسي، فأراد أن يؤسس دولة تحلِ محل دولة المرابطين. وأن المرء ليعجب من هذا العنف الدموي المرير الذي يتجلَّى في أفكاره، وهو الذي أذهله الطموح السياسي عن كل حقيقة، حتى تخطَّى في كلامه أخلاقيات الإسلام التي لا تعرف هذه الصفات في الخصومة.

ـ ومن حيث المواقف القبلية، فقد أراد محمد بن تومرت إحلال قبيلته مصمودة محل قبيلة صنهاجة في حكم المغرب، وإذلال الصنهاجيين، من واقع الصراع القبلي البربري الذي كان سمة العهد[3].

سقوط دولة المرابطين في المغرب: أدرك المرابطون، بعد فوات الأوان، خطورة حركة محمد بن تومرت، فعملوا على تشويه سمعته والتشهير بأنصاره، وأشاعوا بأن الموحدين خوارج، وتطورت العلاقة بينهما إلى حد الصدام المسلح. وتمكَّن محمد

---

(١) ابن القطان: ص ٦٧، ٦٨، ٨١ ـ ٨٣، ٩٤، ١٢٤، ١٣٣، ١٣٩. المراكشي: ص ١٣٠ ـ ١٣٣.

(٢) ابن القطان: ص ٩٩.

(٣) مؤنس، حسين: تاريخ المغرب وحضارته جـ ٢ ص ٧٦، ٧٧.

ابن تومرت من إلحاق هزائم متكررة بقوات علي بن يوسف، وهاجم عاصمته مراكش أكثر من مرة من دون أن ينال منها، وتوفي محمد بن تومرت في غضون ذلك في (١٤ رمضان ٥٢٤ هـ/ ٢١ آب ١١٣٠ م)، فخلفه، في رئاسة الموحدين، عبد المؤمن بن علي[١]. وواصل الموحدون في عهده ضغطهم العسكري على المرابطين، وأخذوا، في أعوام قلائل، يسيرون من نصر إلى نصر، واشتد ساعدهم بمن انضم إليهم من القبائل التي انشقت عن هؤلاء، وأخذ نجم المرابطين بالأفول يوماً بعد يوم.

واتخذ عبد المؤمن بن علي لقب أمير المؤمنين في عام (٥٢٨ هـ/ ١١٣٤ م)، وأمر بسك نقود جديدة مربَّعة الجوانب، تمييزاً لها عن نقود المرابطين، وهما من مظاهر السلطة.

كان الضغط شديداً على علي بن يوسف، فاستدعى ابنه تاشفين من الأندلس ليعاونه في إدارة مملكته المضطربة، فعبر إلى المغرب مع معظم أفراد الجيش، غير أنه لم يكن أكثر نجاحاً من والده، وتعرَّض للهزيمة في كل المعارك التي خاضها، وتوفي علي بن يوسف في غمرة هذا الصراع الدامي في (٧ رجب ٥٣٧ هـ/ ٢٦ كانون الثاني ١١٤٣ م)، وخلفه ابنه تاشفين[٢].

تعرَّض تاشفين بن علي لخطرين كبيرين لم يستطع مواجهتهما:

تمثَّل **الأول** بتفسخ جبهته الداخلية من واقع ظهور الخصومة بين قبيلتي مسوفة ولمتونة، فخرج عليه بعض زعماء مسوفة واحتموا بالموحدين، كما خرج عليه بنو ومانوا، وهم من زناتة، وانضووا تحت لواء هؤلاء.

وتمثَّل **الثاني** باشتداد الحركة الموحدية.

وفضَّل أن يرتحل إلى الأندلس فلحق بوهران، وأرسل ابنه إبراهيم إلى مراكش للدفاع عنها، فهاجمه عبد المؤمن بن علي وهو يهمُّ بركوب السفينة، ولما حاول الهرب ليلاً تردَّى به فرسه من حافة فمات، وذلك في (٢٧ رمضان ٥٣٩ هـ/ ٢٢ آذار ١١٤٥ م)، فاستغل أمير المؤمنين هذه الحادثة واستولى على المدينة، ثم سار إلى تلمسان واستولى عليها أيضاً[٣].

خلف إبراهيم أباه تاشفين، ونازعه عمه إسحاق بن علي، وعجَّل هذا النزاع حول

(١) ابن القطان: ص ١٢٩ ـ ١٤٢، ١٥٦ ـ ١٦٧، ٢٠٤. المراكشي: ص ١٣٧.

(٢) ابن عذارى: جـ ٤ ص ٩٩ ـ ١٠١.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٠٤. وقارن بالمراكشي الذي يذكر أنه توفي في عام ٥٤٠ هـ. ص ١٤٣.

العرش بسقوط دولة المرابطين التي بدا انهيارها واضحاً في الأفق، وظهرت في هذه السنة دعوة الموحدين في الأندلس[(١)].

تابع عبد المؤمن بن علي خطواته المظفرة، فاستولى على مدينة فاس في (ذي القعدة ٥٤٠ هـ/ نيسان ١١٤٦ م)، وسقطت في يده سائر المدن المغربية، مثل مكناسة وسلا والرباط، وحاصر مراكش حتى سقطت في (١٨ شوال ٥٤١ هـ/ ٢٤ آذار ١١٤٧م)، فقبض على الأمير إبراهيم، وقتله، كما قتل إسحق بن علي بن يوسف[(٢)].

وبموت إبراهيم انتهت دولة المرابطين في المغرب، وجلس الموحدون على عرشهم بعد أن شقوا لأنفسهم إليه طريقاً تغمره الدماء، وكانت الأندلس آخر من خضع.

ثورات الأندلسيين ضد المرابطين في أواخر حكمهم

تمهيد: كان من الطبيعي أن ينعكس الصراع بين المرابطين والموحدين في المغرب على الأوضاع العامة في الأندلس، واقتضى ذلك سحب معظم القوة المرابطية من هذا البلد، فخلت الساحة السياسية من التواجد العسكري الكثيف، الأمر الذي دفع الأندلسيين للانتفاض على الحكم المغربي بعامة. وعليه يمكن تصنيف ثورات الأندلسيين ضد الوجود المرابطي التي قامت بين عامي (٥٣٩ ـ ٥٤١ هـ/ ١١٤٤ ـ ١١٤٧ م) تحت دافعين:

الأول: ذات سمة عنصرية، فهي استمرار للصراع القديم بين العرب والبربر.

الثاني: ذات علاقة بالأطماع الشخصية.

والملفت في هذه الثورات المتشابهة تلك الظاهرة، وهي أن قادتها لم يكونوا من الجند وإنما قضاة وفقهاء وعلماء، وهذا يعود إلى النفوذ والمركز اللذين تمتَّع بهما هؤلاء في ظل الحكم المرابطي، حيث تركَّزت فيهم الزعامات المحلية، فلما بدأ سلطان المرابطين بالأفول، قام هؤلاء بحركاتهم الثورية من أجل استرداد السلطان المفقود، إلا أن معظم هذه الحركات تمَّ القضاء عليها، إما بواسطة القوات المرابطية الموجودة في الأندلس، أو بانضواء قادتها تحت لواء الدولة الموحدية.

---

(١) ابن عذارى: جـ ٤ ص ١٠٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٠٨. ابن خلدون: جـ ٦ ص ١٨٩. المراكشي: ص ١٤٤.

ثورة أحمد بن الحسين بن قسي في غربي الأندلس: قامت أولى الثورات على المرابطين في غربي الأندلس، قادها أحد شيوخ الصوفية، أحمد بن الحسين بن قسي المولَّدي، وسرعان ما ألقى هذا قناع الزهد والعلم والوعظ، وظهر في ثوبه الحقيقي زعيماً سياسياً وشعبياً، فاستولى على حصن ميرتلة المنيع في وادي آنة في (صفر ٥٣٩ هـ/ آب ١١٤٤ م)، وكتب إلى أعيان غربي الأندلس يحثُّهم على الثورة، فاستجابوا له وطردوا الحاميات المرابطية من بلادهم[١].

بثَّ نجاح الثورة الروع في قلوب أفراد حامية باجة، فغادروا المدينة إلى إشبيلية، ودخلها القائد محمد بن منذر صاحب شِلب، وعبر هذا وادي آنة واستولى على مدن دلبة ولبلة وطلياطة وحصني القصر والزاهر، وحاصر إشبيلية واستولى على طريانة الواقعة في ظاهرها[٢].

هال امتداد الثورة، على هذا النحو، كبير قادة المرابطين في الأندلس، يحيى بن غانية، فنهض للتصدي لمحمد بن منذر، فاصطدم به وأجبره على الارتداد من أمام إشبيلية ثم سار إلى لبلة وحاصرها مدة ثلاثة أشهر من دون أن ينال منها، ويبدو أن لذلك علاقة بالبرد القارس من جهة وقيام القاضي ابن حمدين بالثورة على المرابطين في قرطبة، من جهة أخرى.

انتهز أحمد بن الحسين بن قسي ثورة قرطبة للسيطرة على المدينة، وعندما اقتربت قواته منها، علمت بأن سكانها طردوا أحمد بن حمدين، واستدعوا سيف الدولة أحمد ابن عبد الملك بن هود ليتولى أمورهم، وفشلت محاولة ابن قسي في مهدها.

وحدث بعد ذلك أن نشب خلاف بين أحمد بن الحسين بن قسي وبين حليفه سيدراي بن وزير، صاحب باجة، فأرسل الأول قائده محمد بن منذر لقتاله، لكن حلَّت به الهزيمة، وقبض عليه واعتقل. واستولى سيدراي على ميرتلة وشِلب، ودعا لابن حمدين صاحب قرطبة، وذلك في (شعبان ٥٤٠ هـ/ كانون الثاني ١١٤٦ م)، وفرَّ ابن قسي إلى المغرب، ليلتمس مساعدة الموحدين[٣].

الثورات في جنوبي الأندلس: نشبت الثورات ضد حكم المرابطين في معظم مدن جنوبي الأندلس، في رندة وشريش وقادس ومالقة والمرية وغرناطة، وقامت فيها حكومات مستقلة.

---

(١) ابن الأبار: الحلة السيراء جـ ٢ ص ١٩٧ ـ ٢٠٢. (٢) أشباخ: جـ ١ ص ٢١٧.

(٣) ابن الأبار: جـ ٢ ص ٢٧١، ٢٧٢. ابن خلدون: جـ ٦ ص ٢٣٤.

تزعَّم الثورة في رندة الأديب الشاعر أخيل بن إدريس الرندي، لكن جماعة من خصومه سعوا إلى إسقاطه، فاستدعوا أبا الغمر بن السائب بن عزون، قائد الثورة في شريش، فسار إليهم واستولى على رندة، وفرَّ أخيل إلى المغرب. وضمَّ أبو الغمر رندة إلى شريش، وأسس حكومة مستقلة، وراح يتوسع في بعض النواحي المجاورة، فاستولى على أركش(١).

واستبدَّ علي بن عيسى بن ميمون، قائد الأسطول المرابطي، بحكم قادس، فخلع طاعة المرابطين وخطب للموحدين(٢).

وثار القاضي أبو الحكم الحسين بن حسون الكلبي في مالقة، فخلع طاعة المرابطين واتخذ لقب أمير، وحاول هؤلاء القضاء عليه واستعادة المدينة، فعجز أبو الحكم عن مقاومتهم، واستعان بالجند المرتزقة من النصارى، وفرض ضرائب على رعيته لتغطية نفقات الحرب، فنقم السكان عليه وائتمروا به، فقتل نفسه.

وثار سكان المرية على حكم المرابطين، وطردوا الحامية المرابطية من المدينة، وعينوا عليهم رجلاً يدعى أبو عبد الله محمد بن ميمون، ولم يزل حاكماً عليها حتى سقطت بيد النصارى(٣).

وتزعم الثورة في غرناطة القاضي أبو الحسن علي بن عمر بن أضحى(٤)، وحاصر الثائرون الحامية المرابطية في قلعة المدينة، غير أن ابن أضحى عجز عن طردها فاستنجد بالمدن الأندلسية الأخرى، وتلقّى مساعدة عسكرية من مرسية ومن ابن حمدين، زعيم ثورة قرطبة، ومن سيف الدولة أحمد بن هود، غير أن المرابطين تغلبوا على قوى التحالف واستعادوا المدينة(٥).

الثورات في وسط الأندلس: لعل أبرز الثورات التي اندلعت في وسط الأندلس هي الثورة التي نشبت في قرطبة بقيادة القاضي ابن حمدين، فاستولى على الحكم فيها ونادى بنفسه أميراً عليها وتلقَّب بلقب المنصور بالله، ودُعي له على منابرها وفي معظم مدن الأندلس، وذلك في (رمضان ٥٣٩ هـ/آذار ١١٤٥ م)، وطارد أنصار

---

(١) ابن خلدون: جـ ٣ ص ٢٣٣، ٢٣٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٣٤.

(٣) المراكشي: ص ١٤٧.

(٤) انظر ترجمته في الإحاطة: جـ ٤ ص ٦٤ ـ ٦٧.

(٥) ابن الأبار: جـ ٢ ص ٢١٢ ـ ٢١٥.

المرابطين. ويبدو أنه لم ينجح في فرض سيطرته الكاملة على المدينة. فقد خرج عليه بعض خصومه، واستدعوا سيف الدولة أحمد بن هود، فسار إليهم ودخل قرطبة بمساعدة قوة نصرانية. وهرب ابن حمدين إلى أحد الحصون المجاورة، وذلك بعد أربعة عشر يوماً من حكمه لها، غير أن مزاج القرطبيين المتقلب أطاح به بعد ثمانية أيام، إذ نفر هؤلاء من عسف وزيره ابن الشماخ، كما أزعجهم وجود الجند النصارى داخل مدينتهم، فقتلوا الوزير، واضطر سيف الدولة إلى الفرار إلى جيان، فعاد ابن حمدين إلى المدينة وحكمها للمرة الثانية، وبسط نفوذه على رندة والأرك وشريش وشذونة وقونقة ومرسية.

استمرت إمارة ابن حمدين مدة سنة، ثم بدأ حكمه بالانهيار، فقد خرجت مرسية عليه، واستدعى خصومه يحيى بن غانية، فسار إلى قرطبة وهزمه ودخل المدينة، وفرَّ ابن حمدين إلى بطليوس، ثم لحق بحصن أندوجر الواقع شرقي قرطبة، وراح يستعيد سلطانه على البلاد المجاورة، والتمس مساعدة ملك قشتالة، فسارا معاً إلى المدينة ودخلاها، وتحصَّن يحيى بن غانية بقلعتها، وعاث الجنود النصارى في المدينة واستباحوا المسجد الجامع ومزَّقوا المصاحف وأحرقوا الأسواق[1].

ووردت الأخبار، في هذه الأثناء، بعبور الموحدين إلى الأندلس وأن سكان إشبيلية خلعوا طاعة المرابطين، فرأى ملك قشتالة أن يعقد صلحاً مع يحيى بن غانية حتى يجعله حاجزاً بينه وبين الموحدين، وقد تضمَّن البنود التالية:

- يدفع يحيى بن غانية مبلغاً من المال لملك قشتالة، ويتنازل له عن مدينتي رندة وبياسة.
- يعود ملك قشتالة إلى بلاده ويكفُّ عن الغزو[2].

واستولى ملك قشتالة، أثناء عودته، على قلعة رباح، مفتاح الطريق بين طليطلة والأندلس، واتخذها مركزاً لجمعية دينية.

وعبر ابن حمدين البحر إلى المغرب، فاجتمع بعبد المؤمن بن علي تحت أسوار مراكش، ثم عاد بعدها إلى الأندلس ونزل في مالقة، وحاول أن يسترد سلطانه المفقود لكن من دون جدوى، فاستقر في مالقة حتى وفاته في عام (٥٤٦ هـ/ ١١٥١ م)[3].

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام جـ ٢ ص ٢٢٨ ـ ٢٣٠.
(٢) ابن خلدون: جـ ٦ ص ٢٣٥.
(٣) ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٢٣٠.

واندلعت الثورات أيضاً في عدة مدن أخرى، منها قرمونة وجيان، وهزم سيف الدولة أحمد بن هود المرابطين بالثغور الجوفية، ثم استولى على جيان وبسط سلطانه على قرطبة وقاتل المرابطين في غرناطة[١].

الثورات في شرقي الأندلس: وثارت مدن شرقي الأندلس على الحكم المرابطي، واستبدَّ زعماء الثوار بالمدن والنواحي، نذكر منها ثورة أحمد بن محمد بن ملحان الطائي، في وادي آش، وقد تلقَّب بالمستأسد بالله، والثورة في بلنسية، وقد تناوب على الحكم فيها كل من القاضي مروان بن عبد الله بن عبد العزيز، وأبي محمد بن عياض والي مرسية.

ضمُّ الموحدين جنوبي ووسط الأندلس: في الوقت الذي كان فيه زعيم الموحدين عبد المؤمن بن علي منهمكاً بحصار مراكش والقضاء على المرابطين في المغرب، لم يفتهُ أن يولي الأندلس جانباً من اهتمامه، وهي التي كادت أن تضيع مجدداً مع ضعف دولة المرابطين ونتيجة الثورات والحركات الاستقلالية فيها، وتوَّثبْ الممالك النصرانية واستعدادها لاستئناف حركة الاسترداد، والراجح أن الأسباب التي دفعته للعبور إلى هذا البلد هي نفسها التي دفعت يوسف بن تاشفين من قبل.

أرسل عبد المؤمن بن علي ثلاثة جيوش عبرت إلى الأندلس في (محرم ٥٤١ هـ/ حزيران ١١٤٦ م)، وانتشرت في جنوبي البلاد بعد أن نجحت في السيطرة عليها، ووضعت حاميات عسكرية في طريف والجزيرة الخضراء وشريش وغيرها، وضمَّت لبلة وميرتلة وحصن طبيرة وبطليوس وشِلب وباجة ويابرة وإشبيلية ومالقة، ودخل سكان هذه المدن في طاعة الموحدين وخطبوا لهم على المنابر[٢].

كان بُغض الأندلسيين للمرابطين ورغبتهم في الانتقام منهم عاملاً مساعداً على سرعة تقدم الموحدين، وإن كانت سيادة هؤلاء لا تُبشِّر في نظرهم بحسن المصير، بدليل أن معظم هذه المدن ارتدت عن طاعتهم، مثل إشبيلية وطلياطة وحصن القصر وشِلب وقادس وبطليوس باستثناء شريش، كما استعاد يحيى بن غانية الجزيرة الخضراء ومنع وصول الإمدادات من المغرب، والمعروف أن الأندلسيين بعامة كانوا يكرهون كل ما هو مغربي، إنما اضطرتهم الظروف السياسية الاستعانة بالموحدين

---

(١) ابن الخطيب: جـ ٢ ص ١٧٥.

(٢) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٤٦. المراكشي: ص ١٤٩. ابن أبي زرع: ص ١٣٠. ابن خلدون: جـ ٦ ص ٢٣٤.

لطرد المرابطين من بلادهم آملين أن يتغير وضعهم السياسي في ظل حكمهم، ولكن عندما تصرَّف الموحدون كالمرابطين ثاروا عليهم(١).

نتيجة لهذا الوضع المتدهور، أرسل عبد المؤمن بن علي تعزيزات عسكرية بقيادة يوسف بن سليمان، وأمره بالقضاء على الثورات التي اندلعت ضد حكمه، واستكمال ضمِّ البلاد، فسلَّمه يحيى بن غانية مدينتي قرطبة وقرمونة مقابل الأمان لنفسه، وذلك في عام (٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م)، ويبدو أن لذلك علاقة بمدى تدخل ملك قشتالة في هذه القضية حين طلب من يحيى بن غانية «بالزيادة في بيته أو الإفراج له عن قرطبة(٢)».

وأخذ عبد المؤمن بن علي بعد ذلك، يرسل السرايا لضمِّ بقية أراضي وسط الأندلس، وآثر ملك قشتالة عدم الاشتباك بهم، فسحب قواته من مدينتي أبدة وبياسة، ودخلتهما القوات الموحدية. وفرَّ دردوش، المستبد بمدينة قرمونة، إلى ابن مردنيش أمير شرقي الأندلس، وضمَّ الموحدون بقية مدن وحصون المنطقة باستثناء غرناطة وأنتقيرة ومالقة ووادي آش، بينما كانت المرية بيد النصارى منذ استيلائهم عليها في عام (٥٤٢ هـ/ ١١٤٧ م).

وحتى يوهن من عزيمة زعماء المدن، استدعاهم إلى مراكش لعقد اجتماع معه، واحتجزهم عنده لبعض الوقت، وضمَّ أملاكهم إلى دولته، كان من بينهم سيدراي بن وزير صاحب يابرة وباجة، وأبو الغمر بن عزون صاحب شريش ورندة، ويوسف بن أحمد البطروجي صاحب لبلة، ومحمد بن الحجام صاحب بطليوس، وعامل بن مهيب صاحب طبيرة، وتخلَّف أحمد بن الحسين بن قسي، صاحب شلب وميرتلة، عن الحضور، غير أن هذا تعرَّض للتآمر من جانب شعبه بسبب تعاونه مع البرتغاليين، وقُتِل في (جمادى الأولى ٥٤٦ هـ/ أيلول ١١٥١ م)، وتولى محمد بن المنذر حكم أملاكه وانضوى تحت لواء الموحدين. وتنازل لهم أحمد بن ملحان عن وادي آش وبسطة، وضمَّ هؤلاء مالقة، في عام (٥٤٧ هـ/ ١١٥٢ م)، وتنازل لهم ميمون بن بدر اللمتوني عن غرناطة في عام (٥٥١ هـ/ ١١٥٦ م)(٣).

---

(١) أشباخ: جـ ١ ص ٢٣٢.

(٢) ابن أبي زرع: ص ١٢٥. ابن خلدون: جـ ٦ ص ٢٣٥.

(٣) ابن خلدون: المصدر نفسه.

وهاجم الموحدون، بقيادة أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن بن علي، مدينة المرية وحاصروها براً وبحراً، وفشلت جهود ألفونسو السابع، ملك قشتالة، وحليفه محمد بن سعد بن مردنيش لإنقاذها، واستمر حصار المدينة مدة سبعة أشهر سقطت بعدها في أيدي الموحدين مقابل الأمان لسكانها النصارى، وذلك في (٥٥٢ هـ/ ١١٥٧ م)[١].

ثورة ابن مردنيش في شرقي الأندلس: كانت إمارة شرقي الأندلس تحت حكم محمد بن سعد بن مردنيش المولَّدي الأصل[٢]، وامتدت من مدينة بلنسية شمالاً حتى مدينة المرية جنوباً، وجاورت حدود النصارى من ثلاث جهات: مملكة أراغون في الشمال ومملكة قشتالة في الشمال الغربي ونصارى المرية في الجنوب، وجاورت حدودها من الجهة الرابعة الأراضي التي يسيطر عليها الموحدون. وبقيام هذه الإمارة تتهيأ الظروف لفصل جديد من الصراع بين الأندلس الثائرة والموحدين، وهو صراع سوف يستمر سنوات طويلة، وتخوضه منطقة الشرق كلها.

اتصف ابن مردنيش بالطموح السياسي وحب الاستقلال والتوسع، فاصطدم بالموحدين. وحتى يتفرَّغ لمواجهتم عقد اتفاقيات صداقة مع الممالك النصرانية كي يأمن جانبها، وهي مملكة قشتالة ومملكة أراغون وإمارة برشلونة، تعهد بموجبها أن يدفع جزية سنوية.

وقد وقع في بداية حكمه حادثان خطيران أثَّرا سلباً على الوجود الإسلامي في الأندلس.

تمثل **الأول** باستيلاء النصارى على ما تبقَّى بأيدي المسلمين من قواعد الثغر الأعلى مستغلين ثورات الأندلسيين ضد المرابطين وانهماك هؤلاء في إخمادها، مثل طرطوشة ولاردة، اللتين سقطتا في يد رامون يرنجار أمير برشلونة في عامي (٥٤٣، ٥٤٤ هـ/ ١١٤٨، ١١٤٩ م) واستولى القشتاليون على أقليش وسرانية وإفراغة ومكناسة، فانتهت بذلك سيادة المسلمين في الثغر الأعلى[٣].

وتمثل **الثاني** باستيلاء ألفونسو السابع، ملك قشتالة، على ثغر المرية، في(٢٠ جمادى الأولى ٥٤٢ هـ/ ١٧ تشرين الأول ١١٤٧ م)[٤].

انتهز ابن مردنيش فرصة انهماك عبد المؤمن بن علي باستكمال ضمِّ شمالي

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٤١، ٢٤٢.

(٢) تنسبه الرواية العربية إلى قبيلة جذام العربية، انظر: ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٢٣٤.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ١٦٤.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٥٢.

إفريقيا، وهاجم المدن الواقعة تحت سيادة الموحدين، فاستولى على جيان وقرمونة، وفشل أمام قرطبة وإشبيلية[١].

تجاه هذا الضغط العسكري الواقع على الموحدين في الأندلس، أرسل عبد المؤمن بن علي تعزيزات عسكرية، وحصَّن قاعدة جبل طارق، فأنشأ فيها مدينة كبيرة سماها مدينة الفتح، أو جبل الفتح، واتخذها قاعدة عسكرية، وذلك في عام (٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م)[٢].

كان الموقف لا يزال على خطورته في منطقة إشبيلية، وسكان قرمونة على تمردهم وتعاطفهم مع إبراهيم بن همشك حليف ابن مردنيش، فأرسل أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن قوة عسكرية لاستردادها، وضيَّق الجيش الموحدي الحصار عليها حتى اضطر سكانها إلى الاستسلام في (١٠ محرم ٥٥٧ هـ/ ٣٠ كانون الأول ١١٦١ م)[٣].

التفت ابن همشك إلى غرناطة لانتزاعها من أيدي الموحدين بعد أن عزَّزوا جبهتهم في إشبيلية وقرطبة، وتلقَّى مساعدة من ابن مردنيش الذي قدم بنفسه لإدارة المعركة. وجرى قتال بين الطرفين في مرج الرقاد، على مسافة أربعة أميال من غرناطة، تعرَّض الموحدون خلاله لهزيمة قاسية، وقُتل عدد كبير من قادتهم وأشياخهم، ودخل ابن همشك مع قواته القلعة الحمراء. والواقع أن هذه المعركة، التي جرت في (جمادى الأولى ٥٥٧ هـ/ نيسان ١١٦٢ م)، كانت نكبة بالغة الخطورة على وضع الموحدين[٤].

وسرعان ما تدارك عبد المؤمن بن علي الموقف، فأرسل جيشاً كبيراً إلى غرناطة بلغ تعداده عشرين ألف مقاتل بقيادة ابنه أبي يعقوب يوسف، وانضم إليه في الأندلس أخوه أبو سعيد عثمان. ولما علم ابن مردنيش بذلك، زحف هو الآخر إلى غرناطة للتصدي للقوات الموحدية، إلا أنه ارتكب خطأً تكتيكياً عندما عسكر على الضفة الأخرى لنهر صدرة الذي يفصله عن معسكر ابن همشك، الأمر الذي أتاح للموحدين بأن يصطدموا بهذا الأخير ويتغلَّبوا عليه، ولم يستطع ابن مردنيش عبور

---

(١) ابن صاحب الصلاة، عبد الملك: المن بالإمامة ص ٦٥ ـ ٧٠.

(٢) المصدر نفسه: ص ٨٤ ـ ٨٩. المراكشي: ص ١٤٩.

(٣) ابن صاحب الصلاة: المصدر نفسه: ص ٩٠ ـ ٩٢، ١٢٠ ـ ١٢٣.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٢٣ ـ ١٢٦.

النهر والاشتراك في المعركة. وتُعرف هذه المعركة بمعركة السبيكة. ودخل الموحدون، على أثر انتصارهم، مدينة غرناطة ظافرين في (٢٨ رجب/ ١٣ تموز)[١].

مرض عبد المؤمن بن علي في سلا بأقصى المغرب وهو يهم بالعبور إلى الأندلس لتعزيز التواجد الموحدي، وتوفي يوم الأحد (٢٧ جمادى الآخرة ٥٥٨ هـ/ ٢ حزيران ١١٦٣ م)، فحُمل جثمانه إلى تينملل ودُفن بجانب قبر المهدي[٢].

عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن: (٥٥٨ ـ ٥٨٠ هـ/ ١١٦٣ ـ ١١٨٤ م)

القضاء على ثورة ابن مردنيش ـ ضمُّ شرقي الأندلس: خلف أبو يعقوب يوسف أباه عبد المؤمن بن علي[٣]، فاستغل ابن مردنيش وضع انتقال السلطة وهاجم غرناطة للاستيلاء عليها، إلا أنه فشل في ذلك. والواقع أن القوة الموحدية في الأندلس احتاجت إلى إمدادات لمواصلة النزاع مع هذا الثائر والقضاء عليه. وبناءً على طلب القيادة العامة، أرسل أبو يعقوب يوسف جيشاً آخر من المغرب إلى الأندلس، فاستولى على حصن أندوجر، القريب من قرطبة، وهو من معاقل الزعيم الثائر. وبادر سكان الحصون المجاورة إلى إعلان ولائهم، وقد حدث ذلك في عام (٥٦٠ هـ/ ١١٦٥ م)[٤].

وتوغل الموحدون، بعد ذلك، في أراضي ابن مردنيش وانتزعوا بعض الحصون، منها حصن بلج وبسطة، وذلك في عام (٥٦٢ هـ/ ١١٦٧ م). وردَّ ابن مردنيش، فغزا رندة ووادي شنيل، وحدث آنذاك أن تعرَّض هذا الزعيم الثائر لاهتزازات داخلية أثَّرت سلباً على قوته. فقد ثار عليه بعض قادته، ربما بسبب اعتماده كثيراً على النصارى والاهتمام بهم، فقتل منهم جماعة وعذَّب آخرين، وصادر أملاكهم وأعطاها للنصارى، كما أخرج كثيراً من سكان مرسية المسلمين وأسكن النصارى دورهم، كما ساءت علاقته بصهره يوسف بن هلال، وانقطع صهره ابن همشك عن زيارته خشية على حياته، فردَّ عليه بأن طلَّق زوجته، وهي ابنة همشك، الأمر الذي أدَّى إلى نشوب النزاع بينهما، وارتمى هذا الأخير في أحضان الموحدين، فأدرك

---

(١) ابن صاحب الصلاة: ص ١٢٧ ـ ١٣٨، ١٤٧، ١٤٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٥٤، ١٥٥. المراكشي: ص ١٦٦.

(٣) ابن صاحب الصلاة: ص ١٦٣. ابن الأثير: جـ ٩ ص ٢٩٩، ٣٠٠.

(٤) ابن صاحب الصلاة: ص ١٩٥ ـ ١٩٨، ٢٤٦.

عندئذٍ أن «ساعده قد كُسر»، وحتى يعوِّض بعض قوته، تمادى في اعتماده على النصارى[1].

وأرسل أبو يعقوب يوسف جيشاً آخر إلى الأندلس في عام (٥٦٥ هـ/ ١١٧٠ م) للقضاء على حركة ابن مردنيش، فهاجم مرسية في العام التالي وحاصرها، وانتشر في الأراضي المجاورة، وانتفض سكان الحصون عليه وطردوا النصارى، وارتموا في أحضان الموحدين، مثل لورقة وألج وبسطة وشقر والمرية. وقد أثَّرت هذه الأحداث السلبية، على وضع الثائر «.. وقلَّ من أصحابه عونه، واختلَّ ذهنه»[2].

خشي النصارى من انهيار حليفهم الأمر الذي يؤثر على خططهم السياسية والعسكرية وعلاقتهم بالمسلمين في الأندلس، فقرَّر ملكا قشتالة ألفونسو الثامن، وأراغون ألفونسو الثاني، تقديم الدعم له، فغزا الثاني أراضي بلنسية المتاخمة لحدود قطلونية لتخفيف الضغط عن مرسية، واستولى على عدة حصون.

وكانت الضربة التي قضت عليه ما بلغه من عبور الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف إلى الأندلس في جموع كثيفة في (شوال ٥٦٦ هـ/ حزيران ١١٧١ م)، وانفضاض قادته ووزرائه وأقربائه من حوله وانضوائهم تحت لواء الموحدين، كما تركه حلفاؤه النصارى الذين فضَّلوا عدم الاصطدام بالموحدين في هذه المرحلة، فأدرك عندئذٍ أن نهايته باتت قريبة. ولما ألفى نفسه وحيداً مال إلى التفاهم مع الموحدين، غير أن العلة اشتدت عليه وتوفي بمرسية في (١٠ رجب ٥٦٧ هـ/ ٩ آذار ١١٧٢ م)[3].

خلف محمد بن سعد بن مردنيش ابنه أبو القمر هلال، وكان بعيد النظر في التفكير السياسي، فتنازل عن أملاكه للموحدين مقابل تعويضه بمناصب يتقلدها هو وقادته، وأراضي تُقطع لهم. وتوثيقاً لعرى الصداقة، تزوج أبو يعقوب يوسف، زائدة، ابنة ابن مردنيش وحفيدة ابن همشك[4].

وهكذا ضمَّ الموحدون شرقي الأندلس وتفرَّغوا للجهاد ضد النصارى. ويبقى أن نذكر أن حركة ابن مردنيش مثَّلت طموحات الأندلسيين بالاستقلال، التي كانت تجيش في نفوسهم منذ أن ضمَّ المرابطون بلادهم، كما أنهم نظروا إلى المرابطين والموحدين بعين واحدة، فهم أجانب، ومن العنصر البربري الذي لم يلقَ عطفاً كبيراً

---

(١) ابن صاحب الصلاة: ص ٢٢٠، ٢٢١، ٣٠٢ ـ ٣٠٤. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٢٣٦.

(٢) ابن صاحب الصلاة: ص ٢٢١، ٣١٢ ـ ٣١٩، ٣٧٩.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٧٩. المراكشي: ص ١٧٧. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٢٣٦.

(٤) ابن صاحب الصلاة: ص ٣٨٠ ـ ٣٨٢. المراكشي: المصدر نفسه.

منذ الفتح الإسلامي، ولم تكن فكرة الجهاد التي حمل هؤلاء لواءها لتقضي على فكرة الاستقلال الأندلسية، غير أن تحالف ابن مردنيش مع النصارى واعتماده الكبير عليهم، أفقده تأييد الأندلسيين المطلق.

العلاقات الخارجية

العلاقة مع مملكة قشتالة

غزوة وبذة: واصل الموحدون رسالة المرابطين في الجهاد ضد نصارى إسبانيا. ففي (صفر ٥٦٦ هـ/ تشرين الأول ١١٧٠ م)، أعلن الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف بدء الجهاد، وعبر مضيق جبل طارق إلى الأندلس في جيش بلغ تعداده عشرين ألفاً، ونزل في العاصمة إشبيلية، وأشار عليه أعيان شرقي الأندلس أن يغزو النصارى من جهة بلادهم، وحدَّدوا له مدينة وبذة قرب أقليش، كهدف، نظراً لضعف تحصيناتها. فخرج من إشبيلية في (شوال ٥٦٧ هـ/ حزيران ١١٧٢ م) متوجهاً إليها وفتح في طريقه حصني بلج والكرس، وعسكر على الجبل المطل عليها، وحاصرها، وضايقها بأن قطع الماء عنها[(١)].

خشي سكان المدينة مغبة الحصار والمضايقة، فعرضوا الاستسلام مقابل الأمان، لكن الخليفة رفض عرضهم، وربما استند إلى ما نُقل إليه من شدة عطشهم وكثرة من يموت منهم، فطمع باقتحام المدينة والحصول على الغنائم. وتعرَّض الجيش الموحدي، في غضون ذلك، لعدة عوامل أثَّرت سلباً على قدراته القتالية، منها: هطول الأمطار بغزارة، نقص المؤن، إحجام العرب المشاركين في الحملة عن الاشتراك في القتال في الساعات الحرجة؛ الأمر الذي شلَّ حركة الجيش بكامله.

ورأى الخليفة، في ظل هذه التطورات السلبية، العودة إلى قبول عرض السكان، لكن هؤلاء رفضوا ذلك، لما رأوه من اختلال أوضاع الجيش، وما لمسوه من استعداد ألفونسو الثامن، ملك قشتالة، لمساعدتهم. واضطر الخليفة إلى رفع الحصار والعودة إلى إشبيلية[(٢)].

وهكذا فشلت غزوة وبذة على الرغم من ضخامة الجيش وُضعف تحصينات المدينة، وربما يعود ذلك إلى:

---

(١) ابن صاحب الصلاة: ص ٣٩٨ ـ ٤٠٣.
(٢) المصدر نفسه: ص ٤٠٤ ـ ٤٠٩.

ـ عجز القيادة الموحدية وافتقارها إلى القادة الأكفاء.
ـ التخطيط غير السليم واتخاذ قرارات مرتجلة.
ـ أضاع الجيش جهداً ووقتاً في فتح حصني بلج والكرس.
ـ إحجام الخليفة عن قيادة الجند وإدارة المعركة، فقد قبع في خيمته مع الطلبة الموحدين يناقشهم في بعض المسائل الفقهية[1].
ـ رفض الخليفة عرض السكان، الاستسلام مقابل الأمان، وهو العرض الذي عاد وقَبِله عندما تحرَّج موقفه مرتكباً خطأً عسكرياً فادحاً، ومبرهناً عن قِصَر نظر في الحقل السياسي.
ـ التفكك الذي ساد الجيش الموحدي، وانعدام التناسق بين مختلف العناصر التي تكوَّن منها.
ـ سوء تنظيم الحملة وما ترتب على ذلك من ندرة الأقوات والعلوفات، مع ما كان يصيب الجندي نتيجة ذلك من الضيق والحرمان وانهيار الروح المعنوية.
ـ تقلُّب العرب وإحجامهم عن القتال في الساعات الحرجة.

ذيول غزوة وبذة: تشجَّع النصارى بالنصر الذي حقَّقوه في معركة وبذة، فجهَّزوا حملة عسكرية لغزو الأراضي الإسلامية، خرجت من مدينة آبلة في (شعبان ٥٦٨ هـ/ آذار ١١٧٣ م) بقيادة حاكمها الكونت خمينو، واخترقت قلب الأندلس باتجاه الجنوب في طريقها إلى قرطبة وعاثت في واديها، فأتلفت الزرع واستاقت الماشية وأسرت أكثر من مائة وخمسين من المسلمين، ثم سارت صوب مخاضة بليارش، على مقربة من بلدة القصر، فتصدَّى لها جيش موحدي بقيادة ابني الخليفة، أبي زكريا يحيى وأبي إبراهيم إسماعيل، وجرى قتال بين الطرفين في مكان يُعرف بفحص كركوي على مقربة من قلعة رباح، أسفر عن انتصار الموحدين الذين استردوا أسراهم وماشيتهم، وقُتل خمينو في غمرة القتال[2].

شجَّع هذا النصر، الذي تلا فشل حملة وبذة، الموحدين على إرسال حملتين لغزو الأراضي القشتالية هاجمتا أحواز طلبيرة وطليطلة. ويبدو أن قشتالة قد ضاقت بنتائجهما وخشيت من غزوات أخرى في الوقت الذي كانت فيه في حرب مع مملكة نبرَّة بشأن السيطرة على الحصون الحدودية؛ فمالت إلى الصلح، وأرسلت سفارة إلى إشبيلية عقدت اتفاق الصلح في (ذي الحجة ٥٦٨ هـ/ تموز ١١٧٣ م)، وكانت موافقة

---

(١) ابن صاحب الصلاة ص ٤٠٦.
(٢) المصدر نفسه ص ٤٢٨ ـ ٤٣٥.

الخليفة نابعة من رغبته في التفرغ لإصلاح الثغور وتعمير الأماكن المقفرة[1].

مكث الخليفة في الأندلس بعد ذلك زهاء ثلاثة أعوام، قضاها في البناء والتعمير، ثم غادر إشبيلية في (شعبان ٥٧١ هـ/ شباط ١١٧٦ م) عائداً إلى مراكش، وعيَّن أخويه أبا علي الحسين والياً على إشبيلية، وأبا الحسن علي والياً على قرطبة[2].

سقوط قونقة: ما كاد الخليفة أبو يعقوب يوسف يغادر الأندلس عائداً إلى مراكش حتى نقض ألفونسو الثامن الهدنة واستأنف الحرب ضد المسلمين، فسار بقواته إلى قونقة، وهي من حصون ولاية بلنسية الأمامية المنيعة، وحاصرها، فأمدَّها الموحدون بإمدادات مباشرة، لكنها لم تصل لأن ألفونسو الثاني، ملك أراغون، تصدَّى لها ومنعها من الوصول إلى المدينة المحاصَرة، فاضطر سكانها عندئذٍ، تحت ضغط الجوع والعطش والمرض، إلى الاستسلام وذلك في (ربيع الآخر ٥٧٣ هـ/ تشرين الأول ١١٧٧ م)، فدخلها الملك القشتالي وحوَّل مسجدها الجامع إلى كنيسة جرياً على العادة المتبعة، وجعل المدينة مركزاً أسقفياً[3].

شكَّل سقوط قونقة بأيدي النصارى ثغرة خطيرة في خط الدفاع الشمالي الشرقي للأندلس، وتقع مسؤولية سقوطها على الموحدين، لأنهم لم يهتموا بتحصينها وشحنها بالمقاتلة، وهذا خطأ عسكري يكشف عن ناحية أخرى من ضعف وسائل الدفاع الموحدي عن الأندلس.

غزوات متبادلة: ترتَّب على سقوط قونقة امتداد حدود مملكة قشتالة ناحية الشرق، كما شجَّعت ملك أراغون على غزو الأندلس. وتجنباً لنشوب الخلاف بينهما بشأن تقسيم مناطق الاسترداد، عقد الملكان اتفاقية كاسولا في (شوال ٥٧٤ هـ/ آذار ١١٧٩م)، حدَّدت مناطق الاقتطاع، فكان نصيب ملك أراغون الأراضي الإسلامية الواقعة في شرقي الأندلس من مدينة بلنسية شمالاً حتى بلدة إلبيرة جنوباً، واختص ملك قشتالة بالأراضي الواقعة وراء هذه البلاد، ونصَّت الاتفاقية على تعاونهما ضد الخصوم والأعداء[4].

وقام ملك قشتالة بمهاجمة الأراضي الواقعة ضمن حقوقه، فغزا قرطبة وإشبيلية، وعاث في أراضيهما، وهزم الموحدين في قرمونة، وهاجم إستجَّة ورندة فأحرق

---

(١) ابن صاحب الصلاة: ص ٤٣٦.
(٢) ابن خلدون: جـ ٦ ص ٢٤٠.
(٣) أشباخ: جـ ٢ ص ٧٠ ـ ٧١. Ocallaghan: PP.239, 240.
(٤) Ibid: P 240.

زرعها واستولى على أحد حصونها بخيانة اليهود، كما استولى على حصني المنار وشنتفيلة، وذلك في (١٧ صفر ٥٧٨ هـ/ ٢٢ حزيران ١١٨٢ م)[١].

كان استيلاء ألفونسو الثامن على حصن شنتفيلة المنيع الواقع بين قرطبة وإشبيلية، أخطر ما حققه في تلك الغزوة، واهتم الملك القشتالي بتحصينه نظراً لأهميته العسكرية، ووضع فيه حامية قوية، وشحنه بالنصارى، وقال حين استولى عليه «الآن آخذ قرطبة وإشبيلية».

أدرك الموحدون أهمية وخطورة الضربة التي تلقوها بفقدان حصن شنتفيلة، فقرروا استعادته، فهاجمه محمد بن يوسف بن وانودين، والي إشبيلية، في شهر (ربيع الآخر/آب)، وحاصره، لكن ألفونسو الثامن تصدَّى له وأجبره على فك الحصار والانسحاب من المنطقة[٢].

وغزا محمد بن يوسف بن وانودين أراضي قشتالة، فعبر نهر التاجُه والتقى بسرية قشتالية مؤلفة من عشرين فارساً، فقاتلها وأسر أفرادها باستثناء فارس تمكَّن من الفرار، فارتاع القشتاليون ودهشوا بفعل أنهم لم يروا، منذ سبعين عاماً، مسلماً في تلك المنطقة إلا من كان مأسوراً عندهم. واستمر في توغله حتى بلغ جهات طلبيرة الواقعة غربي طليطلة على نهر التاجُه، وهي أولى مدن الحدود القشتالية، واشتبك هناك مع قوة قشتالية وانتصر عليها وعاد إلى إشبيلية ظافراً غانماً[٣].

وفاة أبي يعقوب يوسف: لا تتحدث روايات المصادر عن غزوات أو حروب نشبت بين الموحدين والقشتاليين خلال الأعوام الخمسة التالية. فقد انهمك الموحدون بقتال ابن غانية في شمالي إفريقيا، وشُغِل ألفونسو الثامن بالنزاع مع مملكتي ليون والبرتغال، كما ساءت علاقته بملكي أراغون ونبرَّة، والمعروف أن الملك القشتالي كان مستغل فرص، فهو يضع مصلحة بلاده فوق كل مصلحة أخرى، فلا يتقيَّد باتفاقية سلام أو معاهدة صلح إلا بما يخدم قضيته.

وكانت مملكة البرتغال قد أُضيفت إلى الممالك النصرانية الأخرى منذ أن انفصلت عن مملكة قشتالة في عام (٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م)، واتخذت من قلمرية عاصمة لها، وشكلت في عهد ملكها ألفونسو هنريكيز خطراً على الأملاك الإسلامية في المنطقة الغربية من الأندلس، الأمر الذي دفع أبا يعقوب يوسف للعودة إلى الأندلس، لاسترداد

---

(١) ابن خلدون: جـ ٦ ص ٢٤١.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه. عنان: ص ١٠٤، ١٠٥.

شنترين التي استولى عليها البرتغاليون عام (٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م)، لذلك ضرب حولها الحصار من دون أن يتمكّن من فتحها لشدة مناعتها وتحصينها، فاستعد للتوجه نحو أشبونة، لكن البرتغاليين رصدوا تحركاته وهو يعبر نهر التاجُه، فهاجموه، وأُصيب أبو يعقوب يوسف بسهم مسموم، وتوفي بعد ليلتين، في يوم الأحد (٧ رجب ٥٨٠ هـ/ ١٤ تشرين الأول ١١٨٤ م)، وحملت جثته إلى تينملل حيث دُفن بجوار قبر أبيه عبد المؤمن بن علي[١].

عهد أبي يوسف يعقوب المنصور: (٥٨٠ ـ ٥٩٥ هـ/ ١١٨٤ ـ ١١٩٩ م)

العلاقات الخارجية

العلاقة مع مملكة قشتالة

معركة الأرك: خلف أبو يوسف يعقوب أباه أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، وكان يرافقه في حملته على شنترين، وتلقَّب بلقب المنصور، وانهمك في بداية حياته السياسية، في إعادة الهدوء إلى ربوع المغرب على أثر الثورات العنيفة التي قامت ضد حكمه، كما يحدث غالباً عند تغيير الحكم، وبخاصة ثورة بني غانية في المغرب والجزائر الشرقية، واستمر يكافح حتى قضى عليها في عام (٥٨٤ هـ/ ١١٨٨م)[٢]، ثم استأنف الجهاد ضد النصارى في الأندلس، وكان هؤلاء قد نَفَّذوا، في غضون ذلك، عدة غزوات ضد الأراضي الأندلسية أحرزوا فيها النصر تارة ومنوا بالهزيمة تارة أخرى، وبلغوا في غزواتهم أحواز قرطبة وإشبيلية، فدبَّ الذعر في نفوس سكان تلك النواحي.

عبر أبو يوسف يعقوب الأندلس في (محرم ٥٨٦ هـ/ شباط ١١٩٠ م)، وسار شمالاً إلى قرطبة. وتجنَّب ألفونسو الثامن الاشتباك به ومال إلى التفاهم معه. ولما كان الخليفة الموحدي قد خطَّط آنذاك لغزو مملكة البرتغال للانتقام لهزيمة والده ومقتله، فقد وافق على عقد الصلح ليتجنَّب القتال على جبهتين. وبعد أن استردَّ بعض الحصون وعاث في أراضي تلك المملكة، عاد إلى المغرب في أواخر عام

(١) المراكشي: ص ١٨٢ ـ ١٨٥. وقارن بابن الأثير: جـ ٩ ص ٤٨٠، ٤٨١، فقد ذكر أن يوسف بن عبد المؤمن توفي إثر مرض ألَمَّ به. انظر أيضاً ابن خلدون: جـ ٦ ص ٢٤١.

(٢) المراكشي: ص ١٨٩ ـ ١٩٦.

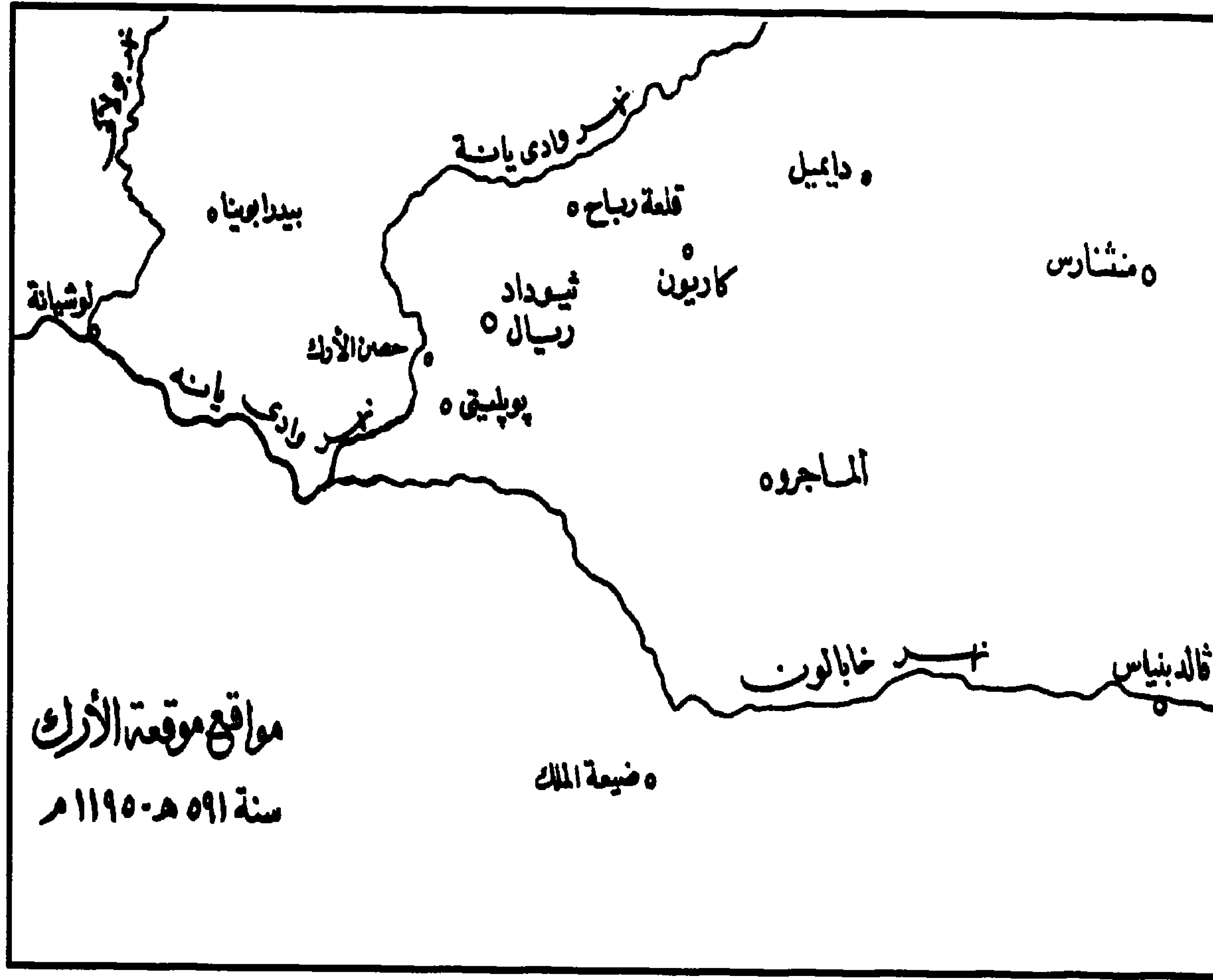
(٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م)، ويبدو أن لذلك علاقة بالثورة التي قامت ضد حكمه في تونس.

انتهز ألفونسو الثامن، ملك قشتالة، فرصة عودة أبي يوسف يعقوب المنصور إلى مراكش، فنقض معاهدة الصلح وهاجم أراضي الأندلس، وبلغت قواته أحواز إستجَّة وجنوبي الأندلس، ودمَّرت، في طريقها، كل شيء بدون هوادة أو رحمة[١]. وحتى يُموِّه على حملته، أرسل سفارة إلى مراكش أكَّدت التزامه بمعاهدة الصلح، إلا أن الخليفة الموحدي علم، بواسطة قادته في الأندلس، بحقيقة الوضع المتردي ونقض الملك القشتالي لبنود معاهدة الصلح، وطلبوا منه نجدة عاجلة، فعبر إلى الأندلس على رأس جيش كبير في (جمادى الآخرة ٥٩١ هـ/ أيار ١١٩٥ م)، ونزل في إشبيلية، فمكث فيها مدة أسبوعين يحشد الجند والمتطوعة، ثم رحل عنها شمالاً باتجاه قلعة رباح وعسكر على بُعد مرحلتين منها، ووضع خطة عسكرية تقضي باختراق قلب مملكة قشتالة وفتح طليطلة. علم ألفونسو الثامن بزحف الموحدين، فخرج بقواته، التي حشدها والبالغ تعدادها أكثر من مائة ألف مقاتل، وسار نحوهم للاصطدام بهم قبل أن ينقضوا على عاصمته، وتوقف في قلعة الأرك التي كان قد بناها على نهر وادي آنة بين قرطبة وقلعة رباح، ينتظر وصول ملك ليون مع قواته كي يشترك معه في القتال، لكن الملك الليوني تباطأ في الزحف وتأخر في الوصول، عندئذٍ تقدم ألفونسو الثامن وضرب معسكره تجاه معسكر الموحدين وتعبَّأ كل طرف استعداداً للمواجهة، التي أرادها أن تكون حاسمة.

والتحم الجيشان يوم الأربعاء في (٩ شعبان ٥٩١ هـ/١٨ تموز ١١٩٥ م) في رحى معركة طاحنة تخلَّلها كرٌّ وفر من كلا الجانبين. وحقق القشتاليون النصر في بدايتها حين حطَّموا قلب الجيش الموحدي وقتلوا القائد العام أبا يحيى بن أبي حفص، غير أن تدخل الجناح الأيمن لهذا الجيش قَلَبَ نتيجة المعركة، عندما ضرب قلب الجيش القشتالي، بقيادة ألفونسو الثامن، ثم تدخل الخليفة مع قواته الاحتياطية، وكان متوارياً وراء التلال، وضغط على الجنود القشتاليين ففرُّوا في غير اتجاه، لا يلوون على شيء، وعاد ألفونسو الثامن مكرهاً إلى قلعة الأرك للتحصن بها، فطارده الجنود الموحدون وحاصروا القلعة، فخشي على نفسه ولاذ بالفرار من الباب الخلفي عائداً إلى طليطلة، واقتحم الموحدون القلعة واستولوا على ما بداخلها[٢].

(١) ابن أبي زرع: ص ١٤٥.

(٢) المراكشي: ص ٢٠٠، ٢٠١. ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٣٢ ـ ١٣٥.



عنّان: العصر الثالث، ص ٢٠١

وعلى هذا الشكل انتهى يوم الأرك الدامي بهزيمة قاسية للقشتاليين الذين تكبَّدوا نحو ثلاثين ألف قتيل.

تعقيب على معركة الأرك

ـ عرف أبو يوسف يعقوب المنصور كيف يستغل ظروف العداء المستحكم بين ألفونسو الثامن ملك قشتالة وبين ملكي ليون ونبرَّة، في الوقت الذي أساء فيه الملك القشتالي تقدير قوة الموحدين لأنه كان واثقاً من النصر، بدليل أنه أحضر معه جماعة من التجار اليهود لشراء أسرى المسلمين، كما تمكَّن المنصور من استقطاب بيدرو فرنانديز دي كاسترو وهو من ألد أعداء ألفونسو الثامن.

ـ فتح الموحدون، بعد المعركة، بعض الحصون القريبة، ومنها قلعة رباح وقد انتزعوها من أيدي فرسان جمعية قلعة رباح المتولين الدفاع عنها، وقتلوا قائد الجماعة نونيو دي فوينتس، وغادر الفرسان القلعة إلى قلعة شلبطرة القريبة منها، والمعروف أن قلعة رباح سقطت في أيدي النصارى في عام (٥٤٢ هـ/ ١١٤٧ م)، وأمر أبو يوسف يعقوب المنصور بتطهير مسجدها الذي كان قد حُوِّل إلى كنيسة، وقدَّم على حاميتها يوسف بن قادس[١].

ـ قضت معركة الأرك على القوة الميدانية للجيش القشتالي، ولن ينهض من كبوته ويستعيد مكانته إلا بعد مرور عدة أعوام.

ـ أثارت نتيجة المعركة الذعر والفزع بين نصارى الممالك الأخرى، مثل أراغون والبرتغال وليون، فكانوا يتوقَّعون أن يقوم الموحدون بغزو بلادهم، وكانت مملكة نبرَّة على استعداد لدفع الجزية للموحدين.

ـ رفع الانتصار في معركة الأرك من شهرة الموحدين الذين بلغوا الذروة، وأمر أبو يوسف يعقوب المنصور بإذاعة النبأ من على منابر المساجد في جميع أنحاء مملكته الشاسعة، وخصَّص خُمس الغنائم لبناء مسجد ضخم في إشبيلية.

ـ عامل أبو يوسف يعقوب المنصور الأسرى والعزَّل بدماثة، فلم يستعمل القسوة ضدهم، كما لم يشأ، جرياً على سنن الحرب المتَّبعة يومئذٍ، أن يقتلهم أو يستعبدهم، وآثر أن يمنحهم جميعاً الحرية من دون افتداء، والمعروف أن عدد الأسرى في المعركة وصل إلى عشرين ألفاً[٢].

---

(١) المراكشي: ص ٢٠١. ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٣٤، ١٣٥.

(٢) ابن أبي زرع: ص ١٥٢.

ـ عاد أبو يوسف يعقوب المنصور إلى إشبيلية بعد انتهاء المعركة من دون أن يستثمر انتصاره الكبير لاسترداد المدن أو فرض سيطرته على الممالك النصرانية التي كانت في حال ضعف، ولا حتى على مملكة قشتالة المنهزمة، مرتكباً خطأً سياسياً وعسكرياً، وربما يعود ذلك إلى شعوره بأن نصره هذا لم يتحقق إلا اتفاقاً بسبب استيلاء القشتاليين على بعض رايات المسلمين، الأمر الذي أدى إلى إثارة حفيظة بعض القبائل، وإذ ظنوا أن أصحابهم هُزموا، حملوا على العدو، فأوغلوا وهم لا يعلمون حقيقة الوضع.

ـ عاد ملك قشتالة إلى بلاده، وصبَّ جام غضبه على حلفائه من الممالك النصرانية، وحمَّلهم مسؤولية الهزيمة لتقاعسهم عن نجدته، وعدم اشتراكهم إلى جانبه في القتال.

ـ انتهز ملكا ليون ألفونسو التاسع، ونبرَّة شانجة السابع، هزيمة ألفونسو الثامن، فقام كل منهما بغزو مملكة قشتالة من ناحيته لاسترداد المدن والحصون التي سبق أن استولى عليها الملك القشتالي من المملكتين قبل نشوب المعركة ببضعة أعوام[1].

ـ فقدت سياسة التحالف بين النصارى أهميتها، وراحت كل مملكة تعمل لمصلحتها الخاصة بغض النظر عن المصلحة النصرانية العامة، فأجرت مملكتا ليون ونبرَّة مفاوضات مع الموحدين لعقد تحالف معهم موجَّه ضد مملكة قشتالة. وكانت أراغون قد أدركها الوهن عقب وفاة ملكها ألفونسو الثاني، ومزَّقتها الحروب الأهلية. أما البرتغال فكانت أعجز من أن تُقدم على عمل عسكري من دون مساعدة خارجية.

ذيول معركة الأرك: أتاحت الظروف السياسية المتردية للممالك النصرانية، الفرصة لأبي يوسف يعقوب المنصور بغزو قشتالة، ورفض عرضاً من الملك القشتالي بعقد الصلح، واختار ولاية أسترا مادورة ـ بلاد الجوف ـ كهدف لاسترداد ما انتزعه القشتاليون من قواعد وحصون. فخرج من إشبيلية يوم الإثنين (١٤ جمادى الأولى ٥٩٢ هـ/ ١٥ نيسان ١١٩٦ م)، باتجاه حصن منتانجش ـ منت أنبتش ـ فاستسلمت حاميته. وخشي نصارى ترجالة، وهي قاعدة الثغر الشمالي، مقاومة الموحدين، فاستسلموا وقنعوا بالسلامة والفرار. ثم عبر نهر التاجُه وفتح بعض المدن والحصون مثل بلازنسيا وعسقلونة، واستعصت عليه طلبيرة، وظهر أمام طليطلة، ولم

(١) Ocallaghan: PP. 244, 245.

يجرؤ ألفونسو الثامن على الخروج من عاصمته للتصدي له، وفشل الخليفة في اقتحامها لافتقاره إلى آلات الحصار، فارتد عنها بعد أسبوع من الحصار المتواصل، وهاجم مدينة سلمنقة واقتحمها، وقتل حاميتها وسبى النساء والأطفال، ثم أحرقها، وفعل مثل ذلك بوادي الحجارة، واستعصت عليه مجريط(١).

واستغل ملك ليون ألفونسو التاسع وجود القوات الإسلامية في أراضي قشتالة ليشارك في استرداد المدن والحصون الواقعة على الحدود بين المملكتين، وطلب مساعدة أبي يوسف يعقوب المنصور فاستجاب له واشترك معه في القتال الأمر الذي أثار غضب البابا سلستين الثالث، فأصدر ضده عقوبة النفي الكنسي، وناشد ملك البرتغال بقتاله. وكان ملك نبرَّة شانجة السابع يقوم في الوقت نفسه بغزو مملكة قشتالة من ناحيته، فاقتحم مدينة صورية، وعاث في تلك المنطقة تخريباً ونهباً(٢).

وهكذا حاقت الأخطار بألفونسو الثامن، الذي رأى، للخروج من هذا المأزق، أن يعقد الصلح مع أبي يوسف يعقوب المنصور، ولكن هذا رفض ذلك، ولم يُنقذه من هذا الموقف الحرج سوى وفاة ألفونسو الثاني ملك أراغون، في (رجب ٥٩٢ هـ/ حزيران ١١٩٦ م) واعتلاء ابنه بيدرو الثاني عرش المملكة، وقد سلك الملك الجديد سياسة حسنة تجاه ملك قشتالة، وعقد معه معاهدة تحالف، واتفقا على غزو نبرَّة واقتسامها فيما بينهما(٣).

عاد أبو يوسف يعقوب المنصور إلى إشبيلية بعد ثلاثة أشهر ليستعد لغزوة ثانية ضد أراضي قشتالة، فخرج في (جمادى الآخرة ٥٩٣ هـ/ أيار ١١٩٧ م)، متوجهاً نحو طلبيرة. وكان ألفونسو الثامن لا يزال يعاني من الضعف، فرأى أن يعقد معه معاهدة صلح، لكن هذا رفض العرض وأمر بصرف أعضاء السفارة. غير أن المنصور فشل أمام طلبيرة كما فشل أمام مكادة، فسار جنوباً نحو طليطلة، وبلغه اجتماع ملكي قشتالة وأراغون في حصن مجريط، فترك طليطلة وسار للقائهما، لكنهما غادرا الحصن، وتركا فيه حامية عسكرية. واضطر المنصور أن يهاجم قلعة هنارس ووادي الحجارة وهو يتلف المزروعات ويخرِّب الضياع، ثم سار إلى وبذة وحاصر قونقة، وارتد نحو أقليش، ثم الكرس وبياسة، وعاد بعد ذلك إلى قرطبة في أواخر

---

(١) ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٣٥.

(٢) O'callaghan: P. 244.

(٣) Ibid.

(رمضان/آب). ولم ينتج عن غزوته الثانية أي تغيير في وضع الأراضي، واضطر أخيراً إلى الاستجابة لطلب ألفونسو الثامن المتكرر بعقد معاهدة صلح لمدة عشرة أعوام[١]، ولعل لذلك علاقة بمدى استفحال ثورة علي بن إسحاق الملثم الميورقي في إفريقيا، فأراد التفرغ لإخماد ثورته، ثم غادر الأندلس عائداً إلى مراكش[٢].

وعندما انتهى أبو يوسف يعقوب المنصور من إخماد الثورة، وأعاد الهدوء إلى ربوع المغرب، عيَّن ابنه محمداً ولياً للعهد، وحمل جميع الولاة والقادة على الاعتراف به، وأشركه معه في الحكم، وذكر اسمه في الخطبة إلى جانب اسم أمير المؤمنين. ولم يمضِ على ذلك غير قليل من الوقت حتى مرض أبو يوسف يعقوب المنصور وتوفي بقصره في مراكش يوم الجمعة (٢٢ ربيع الأول ٥٩٥ هـ/ ٢٢ كانون الثاني ١١٩٩ م)، وهو في الأربعين من عمره، بعد أن حكم خمسة عشر عاماً[٣].

عهد محمد الناصر (٥٩٥ ـ ٦١٠ هـ/ ١١٩٩ ـ ١٢١٣ م)

أوضاع الممالك النصرانية عقب معركة الأرك: تحرَّج وضع النصارى على إثر معركة الأرك، واشتد الخطر عليهم بشكل لم يعهدوه من قبل. فبالإضافة إلى انتصارات الموحدين، وضغطهم العسكري، شهدت الممالك النصرانية خصومات داخلية نتج عنها حروب طاحنة مزَّقت ما تبقّى من الوحدة النصرانية وحالت من دون اتحاد النصارى لمواجهة الخطر الموحدي الواقع عليهم، ولم ينقذهم سوى عودة أبي يوسف يعقوب المنصور إلى مراكش ثم موته المفاجىء، ما قضى على خطط الموحدين في الفتح[٤].

والواقع أن شبه الجزيرة الإيبيرية كانت ستنضوي كلها تحت حكم الموحدين لو أن محمداً الناصر، خليفة أبي يوسف يعقوب المنصور، سار على نهج والده في الحرب وانتهاز الفرص بذكاء. ذلك أن الممالك النصرانية كانت يومئذٍ مزيجاً مضطرباً من العناصر المتخاصمة، وعلى الرغم مما بذله ألفونسو الثاني ملك أراغون

---

(١) المراكشي: ص ٢٠٢. وعند ابن الأثير: خمس سنوات. جـ ١٠ ص ١٣٥. وكذلك عند ابن خلكان: جـ ٧ ص ٩.

(٢) المراكشي: ص ٢٠٢. ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٣٥.

(٣) ابن أبي زرع: ص ١٥٢. ابن الأثير: جـ ١٠ ص ١٦١، ١٦٢. ابن خلكان: جـ ٧ ص١٠، مع اختلاف في التواريخ. O'Callaghan: P 244.

(٤) أشباخ: جـ ٢ ص٩٤.

والبابا سلستين الثالث، من جهود للتوفيق بين الملوك وتوحيد كلمتهم؛ فإن هذه الجهود لم تثمر، فاستمرت الخصومة على أشدها بين ملكي قشتالة وليون بسبب التنازع حول الأراضي التي انتزعاها من الموحدين في منطقة إشبيلية، ولام الأول الثاني على تقاعسه عن مساعدته في معركة الأرك[1].

وفي الوقت الذي كان فيه الموحدون يهاجمون جنوبي قشتالة حيث استردوا قلعة رباح وقاموا بغارات مدمرة في منطقة طلبيرة وطليطلة والقليعة ـ القلعة ـ كان حليفاهم ملكا ليون ونبرَّة، يهاجمانها من الشمال. فاجتاح ألفونسو التاسع ملك ليون أراضيها ووصل إلى مدينة كريون، ولم يجد ألفونسو الثامن تجاه هذه الضغوط العسكرية بداً من التحالف مجدداً مع بيدرو الثاني ملك أراغون.

وأدرك الجميع أخيراً مدى ما يترتب على هذا التنازع من أخطار في ظل استعدادات الموحدين الضخمة ومحاولتهم الاستفادة من هذا الظرف لإخضاع الممالك النصرانية، وكان لا بد من العودة إلى التفاهم والاتحاد حتى لا تسقط إسبانيا النصرانية في أيديهم، فعقد ملكا قشتالة وليون الصلح، وردَّ الثاني الأماكن المتنازع عليها، وذلك في عام (٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧ م)، كما عُقدت معاهدة صلح بين قشتالة ونبرَّة في اجتماع وادي الحجارة، وتمَّ تحقيق السلم والتحالف في العام التالي بين نبرَّة وأراغون، كما تحالفت قشتالة والبرتغال، واتفق الجميع على غزو الأندلس والتعاون على قتال المسلمين.

وهكذا اجتمعت الممالك النصرانية كلها في جبهة واحدة تحت رعاية ملك قشتالة وقيادته وبمباركة البابوية وجهودها، لتحقيق هدفين:

الأول: إحلال السلام الداخلي بين النصارى.

الثاني: دفع تيار الاسترداد بأقصى سرعة.

أوضاع الموحدين في بداية عهد محمد الناصر: خلف محمد الناصر أباه أبا يوسف يعقوب المنصور في حكم الموحدين[2]، واضطر في بداية حكمه أن يعمل على إخماد ثورات عديدة قامت في وجهه في جبال غمارة وفي الجزائر الشرقية حيث بقايا المرابطين، فأرسل حملة بحرية إلى جزيرة ميورقة، نزل أفرادها إلى الشاطىء على الرغم من المقاومة التي أبداها حاكمها عبد الله بن إسحاق الميورقي،

---

(١) أشباخ: جـ ٢ ص ٩٤، ٩٥.

(٢) المراكشي: ص ٢١٩.

وحاصروا عاصمتها واستولوا عليها عنوة، وقبضوا على عبد الله وقتلوه. ولم تُبد الجزيرتان الأخريان منورقة ويابسة أية معارضة، وخضعتا للفاتحين، وذلك في عام (٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧ ـ ١٢٠٨ م)، وعندئذٍ تفرغ محمد الناصر للشؤون الأندلسية[١].

معركة العقاب

تمهيد: قرَّر ألفونسو الثامن ملك قشتالة أن يمحو وصمة هزيمة الأرك، فحصَّن قلعة مورة الحدودية، ولم يجدِّد معاهدة الصلح المعقودة مع الموحدين، ثم سار بقواته مع فرسان قلعة رباح لغزو الأراضي الأندلسية، فهاجم القرى والحصون الحدودية، ونهبها وأتلف زرعها وسبى سكانها، وتوغل في أراضي المسلمين، فبلغ جيان وأندوجر وأحواز مرسية.

بلغ محمد الناصر أخبار غزوات الملك القشتالي المتكررة على الأراضي الأندلسية، فأعلن الجهاد، وعبر إلى الأندلس، على رأس قوات كثيفة، في (٢٥ ذي القعدة ٦٠٧ هـ/ ١٠ أيار ١٢١١ م) واستقر في إشبيلية. وأثار عبوره الهلع في قلوب النصارى، فأخذوا في تحصين مواقعهم، وسار بعضهم إلى إشبيلية يخطب وده، كان من بينهم ملكا ليون ونبرَّة[٢].

كان هدف محمد الناصر القضاء على مملكة قشتالة، فسار نحوها، ولما همَّ باختراق حدودها أشار عليه وزيره، أبو سعيد بن جامع، أن يفتح قلعة شلبطرة أولاً نظراً لأهميتها العسكرية كقاعدة حدودية متقدمة، لكن هذه القلعة قاومت بشدة الحصار الذي ضربه عليها الموحدون والذي استمر طوال الصيف، وفي رواية ثمانية أشهر، قبل أن تسقط في أيديهم، وكان قد دخل فصل الشتاء الذي لا تصلح معه العمليات العسكرية، فاضطر محمد الناصر إلى العودة إلى إشبيلية، وأجَّل مشروعه بغزو قشتالة إلى العام القادم، وفتح في طريقه حصن بلج[٣].

كان ألفونسو الثامن واقعياً في تفكيره، فلم يتصدَّ لزحف الموحدين مدركاً أنه لن يستطيع بمفرده الوقوف في وجههم، لذلك تصرَّف على محورين، داخلي وخارجي لتدعيم جبهته:

---

(١) المراكشي: ص ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

(٢) المراكشي: ص ٢٢٨. ابن أبي زرع: ص ١٥٥، ١٥٩، ١٦٠. السلاوي: جـ ١ ص ١٩١، ١٩٦، ١٩٧.

(٣) المراكشي: ص ٢٢٨.

فعلى الصعيد الداخلي، فقد دعا ملوك وأمراء الممالك النصرانية الإسبانية إلى عقد اجتماع في قونقة تمخَّض عنه قيام تحالف بين هذه الممالك لقتال الموحدين.

وأما على الصعيد الخارجي، فقد استعان بأوروبا معطياً حركة المقاومة الإسبانية بُعداً إقليمياً، فأرسل الأساقفة إلى روما لمناشدة البابا أنوسنت الثالث إعلان الحرب الصليبية، كما أرسل مبعوثين إلى أنحاء أوروبا ليثيروا حماس شعوبها ويشجعونهم على الاشتراك في قتال المسلمين(١)، ثم أعلن الحرب الصليبية في إسبانيا وأطلق صرخته المشهورة «كلنا صليبيون».

وتوافدت المساعدات العسكرية من كافة الممالك النصرانية، كما توافد المتطوعون وفرسان الجمعيات الدينية من كافة أنحاء المدن الإسبانية والفرنسية بقيادة رجال الدين، وقد تقلَّدوا شارة الصليب(٢).

واحتشد في طليطلة، التي خُصِّصت كمكان لاجتماع الجند، أكثر من مائتي ألف مقاتل من الفرسان والمشاة. وليس أدل على الأهمية التي علَّقها الغرب الأوروبي يومئذٍ على هذه الحملة الصليبية، وصول مساعدات مادية وعينية من إيطاليا وفرنسا، كما أمر البابا أنوسنت الثالث بالصوم ثلاثة أيام التماساً لانتصار الجيوش النصرانية، وأقيمت الصلوات العامة، وارتدى رجال الدين والرهبان والراهبات السواد، وساروا حفاة كما سارت المواكب الدينية في الطرقات متمهلة من كنيسة إلى أخرى، وألقى البابا عظة دينية ناشد فيها النصارى أن يضرعوا إلى الله التماساً لنصر الإسبان(٣).

الزحف نحو العقاب: خرجت الجموع الصليبية المحتشدة في طليطلة من المدينة في (١٧ محرم ٦٠٩ هـ/ ٢٠ حزيران ١٢١٢ م) في ثلاثة جيوش، اخترقت حدود الأندلس واستولت على حصن بلاغون، وهو من حصون الحدود الإسلامية، وحاصرت قلعة رباح، فاستسلمت حاميتها بقيادة أبي الحجاج يوسف بن قادس مقابل الأمان وانسحاب أفراد الحامية(٤).

ويبدو أن استيلاء النصارى على قلة رباح أثار الشقاق بينهم، ذلك أن الصليبيين الوافدين استاؤوا من السماح للحامية الانسحاب بالأمان، فأرادوا أن يقوموا بعملية

---

(١) Scott: P 325.

(٢) أشباخ: جـ ٢ ص ١١٠، ١١١. Scott: Ibid. Ocallaghan: PP. 246, 247.

(٣) عنان: ص ٢٩٤.

(٤) المراكشي: ص ٢٢٩. أشباخ: جـ ٢ ص ١١٢، ١١٣. Scott: PP.325, 326.

مطاردة لأفرادها ويفتكوا بهم، لكن ألفونسو الثامن وحلفاءه رفضوا ذلك وأبدوا استعدادهم للتصدِّي لهم، الأمر الذي أثار سخطهم وحقدهم. وازداد الوضع تفاقماً بين الطرفين عندما اتهم هؤلاء الملك القشتالي بالاستئثار بالتحف والذخائر النفيسة التي كانت في القلعة على الرغم من أنه وزَّع الغنائم بالتساوي بين المقاتلين، فقرروا عندئذٍ أن يعودوا إلى بلادهم بحجة أنهم غير معتادين على مناخ إسبانيا الحار، وأيَّدهم مطران بوردو. وفشل ألفونسو الثامن في إقناعهم بالبقاء، وهكذا تخلى عنه خمسون ألف مقاتل[١].

استأنف الصليبيون زحفهم، بعد استيلائهم على قلعة رباح، باتجاه قلعة شلبطرة، غير أنهم لم يحاولوا اقتحامها توفيراً للجهد وإضاعة الوقت في حصار لا طائل منه، وهذا تفكير عسكري مستنير. وعبروا جبال الشارات وممر موردال لكي يواجهوا الموحدين في الناحية الأخرى، واستولوا على حصن العقبان وقتلوا حاميته الإسلامية[٢].

كان محمد الناصر، في غضون ذلك، قد سار بجيوشه الكثيفة، شمالاً للقاء النصارى وهو على تعبئة، وقسَّمها إلى وحداتها العنصرية والقبلية كما جرت العادة. فاخترق ممرات جبال الشارات من الجهة الأخرى المؤدية إلى بياسة وأبدة ومنها ممر لوسا الوعر، وعسكر في البسيط الواقع تجاه هذا الممر، وتدعوه روايات المصادر باسم المرشة، وهو سهل أبدة، وفي رسالة بعثها ألفونسو الثامن إلى البابا أنوسنت الثالث بعد انتهاء المعركة، ذكر أنه يستحيل على أية قوة عسكرية أن تخترق هذا الممر إذا تولى الدفاع عنه ألف مقاتل فقط[٣].

كان على القوات الصليبية أن تعبر ذلك الممر للوصول إلى البسيط الواقع تجاهه، حيث المعسكر الموحدي، وبدا أن المخرج الوحيد يكمن في الارتداد ومحاولة دخول المنطقة من طريق آخر، لكن ألفونسو الثامن أصرَّ على رفض الفكرة، وإذ تقدم راعٍ من رعاة هذا المكان فأرشد الجيش إلى طريق يقع في مرتفع آخر ويمكن عبوره من دون أن يفطن الموحدون، وينحدر إلى السهل. وهكذا عسكر الطرفان تجاه بعضهما[٤].

---

(١) Scott: P. 326.

(٢) أشباخ: جـ ٢ ص ١١٠. O'Callaghan: P 247.

(٣) المرجع نفسه: ص ١١٦.

(٤) المرجع نفسه: ص ١١٦، ١١٧.

أحداث المعركة: عبَّأ كل طرف قواته استعداداً لخوض المعركة، فنظم ألفونسو الثامن قواته إلى قلب وجناحين واتخذ مكانه في القلب مع قوات مملكتي ليون والبرتغال، وشغل ملك نبرَّة شانجة السابع الجناح الأيمن مع قوات صورية وآبلة وشقوبية وفرسان فرنسا الوافدين مع مطران أربونة، واتخذ ملك أراغون بيدرو الثاني مكانه في الجناح الأيسر، وانتشر فرسان الداوية والأسبتارية وقلعة رباح في أماكن متفرقة بين القلب والجناحين(١).

ونظَّم محمد الناصر قواته، فجعل المتطوعة في المقدمة، واتخذ الجند الموحدون مكانهم في القلب، والجند الأندلسيون في الجناح الأيمن، والقبائل البربرية في الجناح الأيسر، وتمركزت الساقات والبنود والطبول خلف هذا التنظيم بقيادة الوزير أبي سعيد بن جامع، وضرب الخليفة قبته الحمراء على ربوة عالية مشرفة على ميدان المعركة(٢).

ودارت بين الطرفين رحى معركة ضارية يوم الإثنين (١٥ صفر ٦٠٩ هـ/ ١٧ تموز ١٢١٢ م) هاجمت في بدايتها مقدمة الجيش الموحدي الجيش النصراني واصطدمت به، غير أن النصارى امتصوا الضربة وأطبقوا على المسلمين المهاجمين وكبدوهم خسائر فادحة في الأرواح. وفي رواية أن الجنود المتطوعين استشهدوا عن آخرهم، ولم تتحرك وحدات الجيش الأخرى إلى إنقاذهم(٣).

تشجَّع النصارى بهذا الانتصار، فهاجموا قلب الجيش الموحدي، واشتبكوا مع أفراده، لكنهم رُدّوا على أعقابهم، وبدا أن النصر إلى جانب المسلمين. وتدخل في تلك اللحظة ألفونسو الثامن فاندفع بقواته وقوات ليون ونبرَّة وأراغون تجاه جناحي الجيش الموحدي وبدَّدهما، ولاذ أفرادهما بالفرار، ثم ركَّز على القلب وفرَّق أفراده، وبهذه الضربة انهزم الجيش الموحدي واستولى ألفونسو الثامن على المعسكر الإسلامي بجميع محتوياته(٤).

ولما رأى محمد الناصر الهزيمة قد حلَّت بجيشه، وعلم بمقتل ابنه وهو يقاتل، لم يشأ فيما يبدو أن يعيش بعده، فجلس في خيمته والعدو يدنو منه حتى ناشده أحد

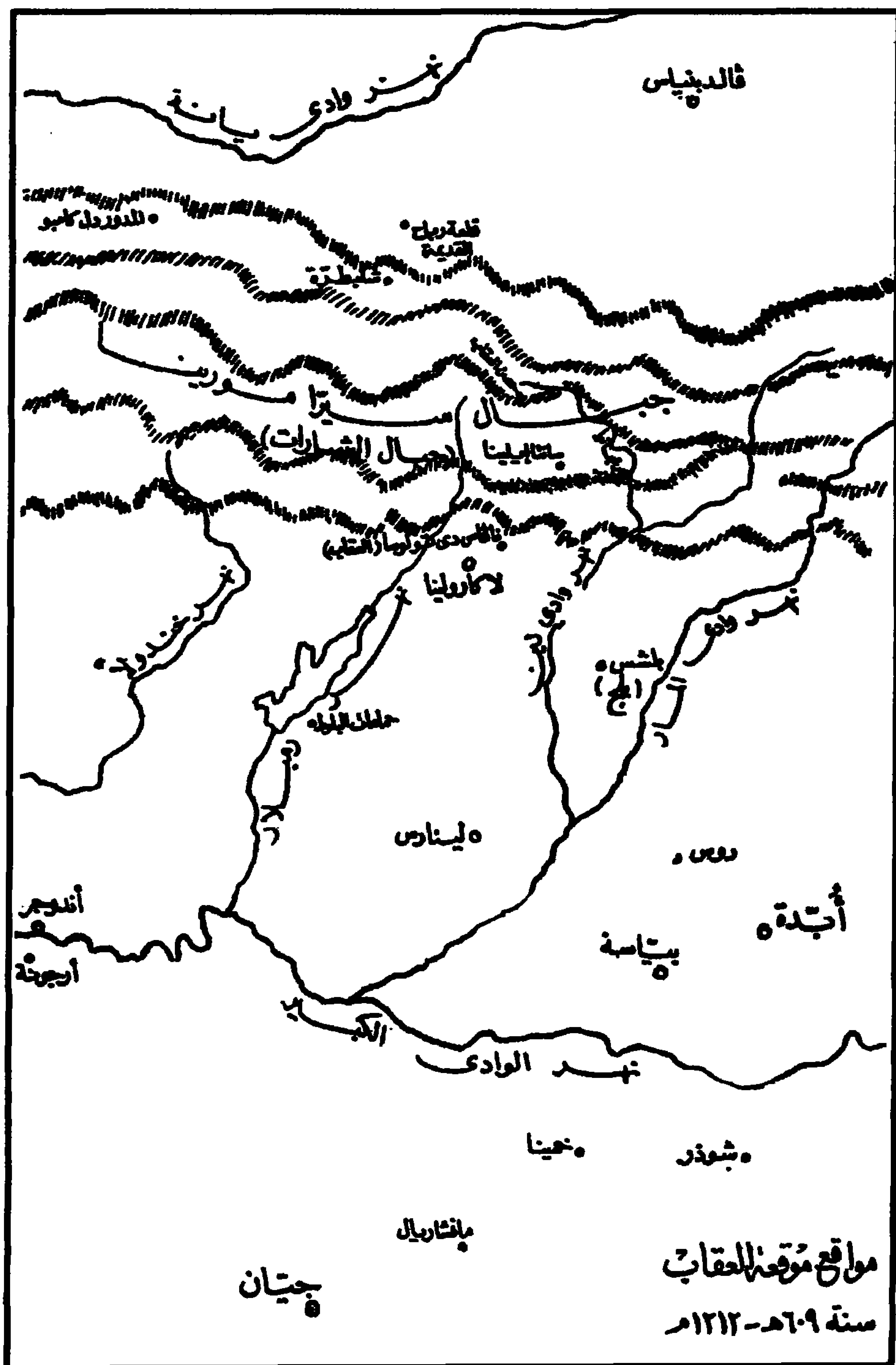
---

(١) أشباخ: جـ ٢ ص ١١٧. عنان: ص ٣١٠ Ocallaghan P.248. Scott: P. 330.

(٢) أشباخ: جـ ٢ ص ١١٨. عنان: ص ٢٠٨ ـ ٢١٠.

(٣) المراكشي: ص ٢٣٠. ابن أبي زرع: ص ١٥٨، السلاوي: جـ ٢ ص ١٩٩.

(٤) المراكشي: المصدر نفسه.



عنّان: العصر الثالث، ص ٢٩٩

الأعراب، فامتطى صهوة جواده وغادر ميدان المعركة مع نفر من أركان حربه، وعاد إلى إشبيلية. ونظَّم ألفونسو الثامن عملية مطاردة للفلول المنهزمة وقضى على معظمها(١).

تُعرف هذه المعركة في المصادر العربية باسم معركة العقاب، نسبة إلى حصن أموي قديم قرب فحص البلوط حيث جرت المعركة، بينما تُعرف في الروايات النصرانية باسم ناڤاس دي تولوزا، أو معركة أبدة، حيث عسكر ألفونسو الثامن في وديان ناڤاس قرب بلدة تولوزا.

من المسلَّم به أن خسائر المسلمين كانت فادحة جداً، فقد هلك معظم أفراد الجيش، كان من بينهم عدد من أشياخ الموحدين وعلمائهم وحفاظهم، وفي المقابل، تبالغ الروايات النصرانية في التقليل من خسائر النصارى.

أسباب هزيمة المسلمين

- على عادة إنسان العصور الوسطى، المتأثر بالروح الدينية، نسب المسلمون تلك الهزيمة بتخلِّي الله عنهم إذ فقدوا عون الباري، في حين نسب النصارى انتصارهم على عدوهم، الذي يفوقهم في العدد، إلى عون الله الذي هيأ لهم بما عمدوا إليه قبل المعركة من الصلاة والابتهال، ولذا فإنهم لم ينسوا أن يقدِّموا شكرهم إلى الله في حفل قداس نظَّمه رجال الدين في ميدان الحرب، وَرُتلت فيه أناشيد الشكر.

- غطرسة محمد الناصر الذي وضع كل ثقته في جنده وفي مقدرة قادته، وقد خذلوه يوم القتال، كما نكَّب أثناء زحف الحملة ببعض أشياخ الموحدين بتحريض من ابن مثنى صاحب الأعمال المخزنية. فغضب أشياخ الموحدين بعامة، فلم يُخلصوا في القتال، ووجدوا في الهزيمة العزاء، لذلك ربط الناس والأشياخ بين ابن مثنى والهزيمة، فضربوا بهما المثل وقالوا: «مدها قل لابن مثنى يردها».

- أثار مقتل القائد الأندلسي، أبي الحجاج يوسف بن قادس صاحب قلعة رباح، الأندلسيين، فحقدوا على الخليفة ووزيره ابن جامع، وانسحبوا من المعركة أثناء القتال، وجرُّوا الهزيمة على الموحدين، والمعروف أن محمداً الناصر سخط على هذا القائد بعد استسلامه واعتقد أنه قصَّر في واجبه، وقتله(٢).

---

(١) المراكشي: ص ٢٣٠.

(٢) ابن أبي زرع: ص ١٥٧، ١٥٨. السلاوي: جـ ٢ ص ١٩٨، ١٩٩.

ـ اختلاف الموحدين فيما بينهم، ذلك أن محمداً الناصر أبطأ عن الجند النظاميين عطاءهم، فاتهموا الوزراء في ذلك، فخرجوا وهم كارهون، فلم يسلُّوا سيفاً، ولا شرعوا رمحاً، ولا أخذوا في شيء من أهبة القتال، بل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليهم قاصدين لذلك[1].

ـ ارتكب محمد الناصر خطأً عسكرياً فادحاً حين أرسل خيرة جنده إلى حصن شلبطرة الجبلي المنيع، فأنهك بذلك قواهم بفعل ما عانوا من قسوة الطقس والمرض الذي أودى بحياة آلاف منهم. ولا شك بأن مقاومة شلبطرة الطويلة أنقذت إسبانيا النصرانية.

ـ قضت الهزيمة نهائياً على سمعة الموحدين العسكرية في شبه الجزيرة الإيبيرية، وتحطَّم ذلك الدرع الذي كانت تشكله الجيوش الموحدية القادمة من وراء البحر لحماية المسلمين في الأندلس من هجمات النصارى، وتضعضع الحكم الموحدي في هذه البلاد التي أخذت منذ ذلك الحين تنحدر إلى براثن الفوضى الطاحنة.

ـ فتحت معركة العقاب الباب واسعاً لاستئناف حركة الاسترداد المنظم، الذي سوف يستمر من ذلك الحين في قطف ثماره بانتزاع المدن الإسلامية واقتطاع أشلاء الأندلس بصورة متتابعة، وفي مدد زمنية قصيرة.

ـ مما لا شك فيه أن تعاون الممالك النصرانية واشتراكها جميعاً في القتال لأول مرة، ثم استجابة الصليبيين الأوروبيين لنداء البابا إلى الحرب الصليبية واشتراكهم في القتال إلى جانب النصارى الإسبان، كل هذا كان من العوامل التي أدت إلى هزيمة الموحدين، والجدير بالذكر أن انسحاب خمسين ألفاً منهم لم يؤثر على سير المعركة.

ـ غَدْر ملكي ليون ونبرَّة بالموحدين، ذلك أنهما حضرا إلى إشبيلية قبل المعركة لعقد معاهدة صلح وسلام، فعقد الخليفة لهما صلحاً أبدياً ما دامت دولته قائمة وصرفهما مُكرَّمين، ثم ضربا بقواعد الصلح واشتركا في القتال إلى جانب ملك قشتالة ضد الموحدين. ويذكر ابن خلدون أن ملك ليون حضر إلى إشبيلية لعقد معاهدة صلح باتفاق سابق مع ملك قشتالة حتى يجر الهزيمة على الموحدين، وأشار محمد الناصر إلى غدر ملك نبرَّة في الكتاب الذي أصدره بعد المعركة[2].

---

(١) المراكشي: ص ٢٣٠.

(٢) العبر: جـ ٦ ص ٢٤٩، ٢٥٠. ابن أبي زرع: ص ١٥٥، ١٥٦. السلاوي: جـ ٢ ص ١٩٧.

ذيول المعركة: أتاح النصر الواضح في معركة العقاب لألفونسو الثامن أن يتوغل في الأراضي الإسلامية الخالية ممن يدافع عنها أو يحميها، فاستولى على حصون فرال وبلج وبانيوس وتولوزا. ولما سار إلى مدينتي بياسة وأبدة القريبتين من ميدان المعركة، خشي سكان المدينة الأولى على أنفسهم، فغادروها باستثناء الضعفاء والمرضى وجرحى المعركة، وكان هؤلاء قد احتشدوا في مسجد المدينة الكبير، فشاءت قسوة الملك القشتالي التي هبطت به إلى الدرك الأسفل أن يجهز عليهم جميعاً بالسيف، باستثناء قلَّة قليلة منهم، أخذهم أسرى، ثم أحرق دور المدينة وخرَّب مسجدها، وحاصر المدينة الثانية وضيَّق على سكانها، ويبدو أنه صادف صعاباً في اقتحامها بدليل أنه قَبِل ما عرضه عليه السكان من فدية مقابل أن يتركهم أحراراً يعيشون في مدينتهم وفقاً لشريعتهم وشعائر دينهم، غير أن رجال الدين المتعطشين إلى دماء المسلمين رفضوا هذا الاتفاق وأعلنوا بطلانه، ورأوا أن تستسلم المدينة من دون قيد أو شرط، فنزل الملك عند رغبتهم متذرعاً بأن المسلمين لم يؤدوا الفدية المقررة فور فَتْحهم لأبواب المدينة. وسرعان ما اقتحم النصارى المدينة وأجروا فيها مذبحة مروعة، وقتلوا ستين ألفاً من سكانها، وعندئذٍ أبدى رجال الدين رضاهم(١).

اتحاد مملكتي قشتالة وليون: يبدو أن الجبهة النصرانية المتحدة كانت مرحلية فقط لمواجهة خطر الموحدين المتزايد، وما لبث أن تصدَّعت عقب معركة العقاب بفعل تجدُّد النزاع بين قشتالة وليون. وأقدم ألفونسو التاسع ملك ليون على احتلال القلاع الواقعة على ضفاف نهر دويرة على حدود المملكتين، مدعياً بأن ملك قشتالة انتزعها ظلماً من مملكة ليون، الأمر الذي عرقل مؤقتاً، حركة الاسترداد النصرانية. ولم يمض سوى قليل من الوقت على عودة ألفونسو الثامن إلى طليطلة حتى علم باعتداء ملك ليون على أراضيه، ولما كان يسعى جاهداً لتحقيق السلام بين الملوك النصارى، ولم يتردَّد في بذل أية تضحية في سبيل ذلك؛ فإنه لم يبادله بهجمات مضادة. والواقع أنه لم يكن يتوقع، تجاه ازدياد النزاعات الداخلية بين الممالك النصرانية، أي نجاح في محاربة المسلمين. فبالإضافة إلى سعيه لعقد الصلح بين ليون والبرتغال، فقد أبدى استعداده لنبذ أية فكرة في استرداد الأماكن التي انتزعها الليونيون قسراً على حدود مملكته، كما هدم الحصون المجاورة تعبيراً عن حسن نيته، وفي مقابل ذلك،

---

(١) المراكشي: ص ٢٣٠. عنان: ص ٣٢٣. Scott: PP 339, 340.

وعده ملك ليون بالمساعدة في حملته القادمة ضد الموحدين. والواقع أن غزوات النصارى المتفرقة ضد الأراضي الإسلامية، لم تنقطع على الرغم من عجزهم عن القيام بحملات كبيرة، ويكفي أنها شغلت الحاميات الموحدية عن الاهتمام بالوضع الداخلي المتأزم.

توفي ألفونسو الثامن في (٢٩ جمادى الأولى ٦١١ هـ/ ٦ تشرين الأول ١٢١٤ م)، وخلفه ابنه هنري الأول، وهو دون الحادية عشرة من عمره، فتولت والدته الملكة إلينور الوصاية عليه، ولكن لأيام قليلة فقط، إذ توفيت في (٢٤ جمادى الآخرة/ ٣١ تشرين الأول)، فتولت أخته الملكة برنجيلا، مطلقة ألفونسو التاسع ملك ليون، الوصاية عليه، وقد واجهت معارضة من أسرة لارا القوية الطامعة هي الأخرى بالوصاية على الملك، فتعرَّضت قشتالة بسبب ذلك لخضَّة سياسية، واندلعت فيها حرب الوصاية.

وحدث في غضون ذلك أن توفي الملك إثر إصابته بحجر أثناء اللعب في فناء القصر، وذلك في (٢٨ صفر ٦١٤ هـ/ ٦ حزيران ١٢١٧ م)، فانهارت الدعامة التي كان يستند عليها سلطان الوصي. وكان ألفونسو الثامن قد أوصى أنه إذا توفي من دون عقب من الذكور، فإن عرش قشتالة يؤول من بعده إلى كبرى بناته الملكة برنجيلا ثم إلى أعقابها الشرعيين، غير أن الشعب القشتالي لم يرضَ بأن تحكمه امرأة، فاضطرت الملكة برنجيلا إلى التنازل عن العرش لصالح ابنها فرديناند الذي رُزِقَت به من زوجها ألفونسو التاسع ملك ليون، وكان فتى في الثامنة عشرة من عمره، وحكم باسم فرديناند الثالث، وعُرف بالقديس. وفي عام (٦٢٧ هـ/ ١٢٣٠ م) توفي ألفونسو التاسع ملك ليون، وخلفته ابنتاه سانشا ودولشا بناء لوصيته، لكن هاتين الأميرتين ما لبثتا أن تنازلتا عن العرش إلى أخيهما، وبذا اتحدت مملكتا قشتالة وليون مرة أخرى ومعهما استرامادورة وجليقية وأشتوريس، وسوف يترتب على هذا الاتحاد ازدياد الضغط على المسلمين في الأندلس، حيث يغدو هذا الملك قاهر الأندلس والمستولي على مدنها الكبرى.

وفاة محمد الناصر: غادر محمد الناصر ميدان المعركة إلى إشبيلية، ثم غادر إلى المغرب في (رمضان ٦٠٩ هـ/ شباط ١٢١٣ م)، ويبدو أنه زهد في الحكم، أو أنه حاول أن ينسى هزيمته، فاحتجب في قصره بمراكش وانغمس في اللهو، وتوقف عن إدارة شؤون الحكم، وعيَّن ابنه أبا يعقوب يوسف ولياً لعهده، وكان فتى في السادسة

عشرة من عمره، ثم مرض وتوفي يوم (١٠ شعبان ٦١٠ هـ/ ٢٥ كانون الأول ١٢١٣م)[١].

انهيار دولة الموحدين في المغرب والأندلس

بدأت، مع وفاة محمد الناصر، بداية انهيار دولة الموحدين في المغرب والأندلس، فقد جاء بعده خلفاء ضعاف لم يكونوا على مستوى الأحداث الخطيرة آنذاك، أولهم ابنه أبو يعقوب يوسف الذي تلقب بالمستنصر بالله[٢]، وكان أضعف من أن يتولى مقاليد الحكم بنفسه في تلك الظروف الحرجة. فقد مال إلى حياة الدعة، وانغمس، في اللهو والترف، وترك تدبير شؤون الحكم لأعمامه الطامحين ووزرائه من ذوي الخلال السيئة، وأبعد الأندلسيين الذين ساءهم ذلك الأمر الذي عرَّضهم للاضطهاد والملاحقة، فسخطوا على الموحدين.

توزَّع الحكم في الأندلس آنذاك بين ثلاثة من أعمام يوسف المستنصر هم عبد الله، في بلنسية ودانية وشاطبة ومرسية، وأبو الحسن، في غرناطة، وأبو العلاء إدريس، في قرطبة. وتوفي المستنصر وهو يلهو بين أبقاره، إذ هجمت عليه بقرة منها وضربته بقرنيها في موضع القلب، فتوفي لساعته، وذلك يوم السبت (١٢ ذي الحجة ٦٢٠ هـ/ ٦ كانون الثاني ١٢٢٤ م)[٣].

مهَّدت وفاة يوسف المستنصر الفجائية من دون عقب، لأقاربه الذين كانوا يحكمون ولايات المملكة، فرصة كبيرة لتحقيق أطماعهم، كما ظهر الخلاف واضحاً بين أشياخ الموحدين حول خلافته. وللخروج من هذا المأزق اختار هؤلاء أبا محمد عبد العزيز ابن أبي يعقوب يوسف[٤] خليفة كحل مؤقت حتى يتمكَّنوا من الاتفاق على خليفة دائم. ولم يمض على ذلك شهران حتى ثار عليه ابن أخيه عبد الله، والي مرسية، وأعلن نفسه أميراً باسم العادل، واعترف أخوه أبو العلاء إدريس، والي قرطبة، بسيادته،

---

(١) ابن أبي زرع: ص ١٦٠. المراكشي: ص ٢٣١.

(٢) المراكشي: ص ٢٣١. ابن خلدون: جـ ٦ ص ٢٥٠.

(٣) المراكشي: ص ٢٣٥. ابن خلدون: جـ ٦ ص ٢٥١. ابن أبي زرع: ص ١٦١.

(٤) المراكشي: ص ٢٣٥ ـ ٢٣٨. وهو شاهد عيان، وقد عرف السيد عبد العزيز شخصياً. وقارن بابن خلكان: جـ ٧ ص ١٦ وابن خلدون: جـ ٦ ص ٢٥١ اللذين يذكران أن الذي خلف يوسف المستنصر هو أبو محمد عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن. وانظر عنان: عصر المرابطين والموحدين، القسم الثاني: ص ٣٤٨، ٣٤٩.

ودخلت غرناطة ومالقة في طاعته، وأوعز إلى أنصاره في مراكش بالثورة على عبد العزيز فخُلع في (١٣ صفر ٦٢١ هـ/ ٧ أذار ١٢٢٤ م) وقُتل بعد ثلاثة أيام[١].

رأى العادل، حتى لا يفقد الأندلس، أن يتحالف مع ملك قشتالة مقابل منحه ربع موارد بياسة وأندوجر ومرطوس، الأمر الذي أثار عليه خصومه. وعلم، في غضون ذلك، بما جرى في مراكش من خلع عبد العزيز وقتله، فعبر إلى المغرب في (ذي القعدة ٦٢٢ هـ/ تشرين الثاني ١٢٢٥ م) ليعتلي الحكم، وعيَّن قبل مغادرته أخاه أبا العلاء إدريس حاكماً عاماً على الأندلس، ولما وصل إلى العاصمة الموحدية تسلم الحكم فعلاً واستقر في قصر الخلافة[٢].

غادر العادل الأندلس في ظل اضطراب وضعها بفعل صراع المتغلبين وكانت حركة عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب جيان والملقب بالظافر والمعروف بالبياسي، قد اتسع نطاقها بعد أن سيطر على أبدة وقيجاطة وبياسة. وحتى يقوّي موقفه تحالف مع فرديناند الثالث ملك قشتالة، وفشل العادل في إخضاعه. أتاح هذا التحالف للملك القشتالي أن يستولي على عدد من الحصون الواقعة على نهر الوادي الكبير مثل القبذاق وباجة ومرتش وأندوجر، فأثار ذلك سكان قرطبة وقد خشوا أن يغدر بهم ويسلِّم قرطبة للنصارى، فثاروا عليه وقتلوه في عام (٦٢٣ هـ/ ١٢٢٦ م)، وانضوى ما بقي من الأندلس تحت راية الموحدين بقيادة أبي العلاء إدريس. لكن حدث بعد ذلك أن سقط حصن كابيلا الواقع شمالي قرطبة في يد فرديناند الثالث في (شعبان/ آب) ثم أعقبته بياسة في (ذي الحجة/ كانون الأول) كما سقطت شوذر، وشعر أبو العلاء بأنه عاجز أمام القشتاليين فهادنهم[٣].

وشهد عهد العادل في المغرب، الذي استمر مدة عامين، أحداثاً مضطربة وازدياداً في الفوضى، وتوالي عبث العرب والبربر في الأنحاء القريبة من العاصمة، كما ازداد شأن بني مرين، وتغلّبوا على كثير من النواحي، وفرضوا الأتاوات على المدن القريبة من مضاربهم مثل فاس ومكناسة، ووصلت غاراتهم المدمِّرة إلى مراكش[٤].

---

(١) المراكشي: ص ٢٣٥ ـ ٢٣٨. ابن خلكان: جـ ٧ ص ١٦. ابن خلدون: جـ ٦ ص ٢٥١. عنان: ص ٣٤٨، ٣٤٩.

(٢) المراكشي: ص ٢٣٨، ٢٣٩. ابن خلدون: جـ ٦ ص ٢٥١، ٢٥٢.

(٣) ابن خلدون: جـ ٦ ص ٢٥٢. عنان: ص ٣٥٧ ـ ٣٦٣.

(٤) ابن أبي زرع: ص ١٦٦. ابن خلدون: المصدر نفسه.

وفي الوقت الذي كان فيه المغرب يشهد هذه الاضطرابات، وقع في الأندلس حادث جديد أثَّر على مجرى الأحداث في هذا البلد بالإضافة إلى المغرب، ذلك هو خروج أخي العادل،أبي العلاء إدريس على حكم أخيه، فخلع طاعته ودعا لنفسه في إشبيلية في (٢ شوال ٦٢٤ هـ/ ١٥ أيلول ١٢٢٧ م)، وتلقب بالمأمون، وبايعه بعض ولاة الأندلس وفي مقدمتهم والي بلنسية، كما بايعته سبتة وطنجة من عدوة المغرب، ثم كتب إلى أشياخ الموحدين في مراكش يدعوهم إلى بيعته والفتك بأخيه، فاقتحموا عليه القصر وقتلوه وذلك في (٢١ شوال ٦٢٤ هـ/ ٥ تشرين الأول ١٢٢٧ م)، وعقدوا البيعة له[(١)]. لكن خلافاً نشب بين الطرفين بسبب الإصلاحات التي أجراها المأمون في نظام الموحدين وحدَّت من حقوق الأشياخ، وسرعان ما تطور الأمر إلى حرب أهلية، فخلع هؤلاء المأمون واختاروا أبا زكريا يحيى، ابن أخيه محمد الناصر، خليفة عليهم، وكان فتى في السادسة عشرة من عمره وتلقب بالمعتصم[(٢)].

وعندما وصلت أنباء هذه التطورات إلى المأمون وكان لا يزال في الأندلس، استشاط غضباً، فعبر البحر إلى المغرب مع جيشه من الموحدين، لمحاربة ابن أخيه ومعاقبة أشياخ الموحدين الذين غدروا به ونكثوا بيعته، ولم يترك بإشبيلية، وباقي مدن الأندلس، سوى بعض الحاميات الضئيلة العدد. فاستعاد عرشه وقضى على خصومه وطارد أنصار العهد السابق، وقاد حركة تجددية ألغى بموجبها بعض النظم الموحدية، منها إبطال عصمة المهدي ومحو اسمه من الخطبة والسكة، فكفَّره الشعب من أجل ذلك. وأدَّت هذه الحركة إلى انفصال إفريقيا عن الدولة الموحدية بقيادة بني حفص وخروج معظم مدن الأندلس على حكم الموحدين[(٣)].

فقد قام محمد بن يوسف، سليل أسرة بني هود، في منطقة مرسية، وهو يحمل كرهاً عربياً بالغاً للمغاربة الموحدين، فاستولى على مدينة مرسية ونادى بنفسه أميراً باسم المتوكل على الله، واستقطب الأندلسيين وألَّبهم على قتال الموحدين. وسرعان ما اعترفت معظم مدن الأندلس بحكمه، منها جيان وقرطبة وماردة وبطليوس، واستولى على حصن غرناطة المنيع. ولم يرَ الموحدون سبيلاً للاحتفاظ بما تبقّى من سلطانهم المضطرب سوى التماس المساعدة من النصارى، متبعين نهج أسلافهم

---

(١) ابن أبي زرع:ص ١٦٦، ١٦٧. المراكشي: ص٢٣٨، ٢٣٩. ابن خلدون: جـ ٦ ص ٢٥٢.

(٢) المراكشي: ص ٢٣٩. ابن خلدون: جـ ٦ ص ٢٥٣. أشباخ: جـ ٢ ص ١٥٨.

(٣) ابن خلدون: جـ ٦ ص ٢٥٣.

الأمويين والمرابطين. وهكذا حصل المأمون على قوة عسكرية نصرانية من المرتزقة القشتاليين مقابل التنازل لملك قشتالة عن بعض الحصون ومبالغ طائلة، غير أن هذه القوة لم تنقذه من المآزق التي وقع فيها، وكان يرى انهيار سلطانه التدريجي وهو يفقد مدينة بعد أخرى ومقاطعة بعد أخرى[1].

وانتهز منافسه يحيى المعتصم غيبته عن مراكش في محاولة لإخضاع أخيه أبي موسى الثائر في سبتة فهاجم العاصمة الموحدية واقتحمها عنوة، وعندما علم المأمون بسقوط عاصمته، فك الحصار عن سبتة وارتدَّ بقواته إلى مراكش، ولما وصل إلى وادي العبيد مرض فجأة وتوفي في (آخر ذي الحجة ٦٣٠ هـ/ ١٧ تشرين الأول ١٢٣٣ م)[2]، ويُعدُّ نهجه السياسي السبب الرئيسي في انهيار جبهة الوادي الكبير في الأندلس.

خلف المأمون ابنه عبد الواحد الرشيد، وكان فتى في الرابعة عشرة من عمره، واعترف بولايته قسم من الأندلس مثل إشبيلية والجزيرة الخضراء، واستمر الصراع بينه وبين ابن عمه المعتصم حتى توفي هذا الأخير في (رمضان ٦٣٣ هـ/ أيار ١٢٣٦م)، ثم توفي الرشيد في (٩ جمادى الآخرة ٦٤٠ هـ/ ٤ كانون الأول ١٢٤٢ م)، وخلفه أخوه السعيد أبو الحسن علي وتلقب بالمعتضد[3]، وحفل حكمه بنزول الكوارث، فبرز بنو زيان وبنو مرين كمنافسين قويين، وأخذا ينازعان الموحدين على السيادة في المغرب، وقُتل السعيد أثناء القتال ضد بني زيان في (٢٩ صفر ٦٤٦ هـ/ ٢٣ حزيران ١٢٤٨ م)[4].

خلف السعيد عمرُ بن أبي إبراهيم إسحاق، وهو من أحفاد أبي يعقوب يوسف، وتلقَّب بالمرتضى[5]. نشط في محاربة خصومه، ولم يستطع، على الرغم مما بذله من جهد، أن ينهض بالدولة من عثارها، وكانت النواحي تخرج من قبضة الموحدين واحدة بعد أخرى، وآلت أنقاض دولتهم في المغرب إلى المرينيين، أما في الأندلس فقد سيطر أمير غرناطة، محمد بن الأحمر، على الأجزاء الجنوبية في حين سقطت مدن الأندلس الكبرى في أيدي النصارى.

---

(١) المراكشي: ص ٢٣٩، ٢٤٠.
(٢) ابن خلدون: جـ ٦ ص ٢٥٤.
(٣) في ابن خلدون: المقتدر بالله. جـ ٦ ص ٢٥٦.
(٤) المراكشي: ص ٢٤٠. عند ابن خلدون، قتل على يد بني عبد الواد بتامزردكت. جـ ٦ ص ٢٥٨.
(٥) المراكشي: المصدر نفسه.

سقوط ماردة وبطليوس: في الوقت الذي اندلعت فيه الثورات في ربوع الأندلس، كانت الممالك النصرانية تسير بخطى ثابتة، وتتطلع بأمل إلى استرداد كافة المدن الأندلسية من أيدي المسلمين، مستغلة انهيار الجبهة الدفاعية وتراجع القوة العسكرية الموحدية وانهماك الموحدين بخلافاتهم الداخلية وحروبهم الأهلية، فهاجم ألفونسو التاسع ملك ليون مدينة قاصرش في عام (٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م) واستولى عليها، وأضحى الطريق مفتوحاً أمامه للانسياب إلى ماردة وبطليوس الواقعتين جنوبي قاصرش، كما استولى على حصن منتانجش الواقع شمالي ماردة في (أوائل عام ٦٢٧ هـ/ أواخر عام ١٢٢٩ م) وحاصر هذه الأخيرة واقتحمها في (رجب ٦٢٧ هـ/ أيار ١٢٣٠ م) وفشل محمد المتوكل، الذي تصدَّى له، في إنقاذها، كما سقطت بطليوس في يده، وكان هذا النصر العسكري آخر عمل حربي قام به ألفونسو التاسع ملك ليون، حيث توفي بعد ذلك[1].

نشاط فرديناند الثالث في جنوبي ووسط الأندلس ـ سقوط أبدة: توزَّعت أراضي الأندلس الوسطى آنذاك بين عدد من الأمراء المحليين وولاة موحدين. فقد حكم محمد المتوكل بن هود الأراضي الممتدة من مالقة إلى المرية وغرناطة وقرطبة حتى مرسية، في حين حكم أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس النصري، المعروف بابن الأحمر، أرجونة ووادي آش وبياسة وجيان، وحكم بعض الولاة الموحدين إشبيلية وما يجاورها من النواحي[2].

وكان فرديناند الثالث ملك قشتالة يراقب بحذر وخشية تطور الأوضاع في تلك المناطق بفعل تأثيرها على مملكته، وبخاصة اتساع نطاق حركة محمد المتوكل ودخول معظم مدن الأندلس في طاعته الأمر الذي يجعل منه كتلة قوية متماسكة يصعب تحطيمها. ورأى أن يسرع في التحرك ليقطع الفرصة عليه قبل أن يصبح قوة لا تُقهر، فغزا أراضيه، وهاجم أندوجر وعبر الوادي الكبير ووصل في توغله جنوباً حتى فحص غرناطة، وهو يتلف الزرع ويُدمِّر القرى ويُسبي النساء والأطفال، ثم عاد إلى الشمال وحاصر جيان، غير أنه فشل في اقتحامها بفعل مناعتها وبسالة المدافعين عنها،

---

(١) ابن الخطيب: إحاطة جـ ٢ ص ٧٥. عنان: ص ٥٩٦، ٥٩٧.

(٢) ابن الخطيب: المصدر نفسه ص ٧٥، ٧٦.

ففكَّ الحصار عنها بعد مضي ثلاثة أشهر وعاد أدراجه، وما كاد يصل إلى قشتالة حتى علم بوفاة والده ألفونسو التاسع ملك ليون، فتوجه إلى هذه المملكة على وجه السرعة ليجلس على عرشها مكانه ويُنشيء اتحاداً بين مملكتي قشتالة وليون[1].

لم يدرك الأمراء المسلمون مدى جديَّة الخطر النصراني، فراحوا يتنافسون ويتحاربون، الأمر الذي أتاح لعدوهم التفوق عليهم، واستغل فرديناند الثالث ذلك فأرسل حملة عسكرية بقيادة أخيه ألفونسو والقائد ألڤار بيريز، هاجمت منطقة قرطبة وتقدمت إلى إشبيلية، وتجاوزتها إلى فحص شريش، فعاثت في النواحي وبثَّت الذعر بين السكان بسبب العنف الذي أثارته، فتصدَّى لها محمد المتوكل عند ضفاف وادي لكة وأجبرها على الانسحاب. ويبدو أن الملك القشتالي هدف، من وراء هذه الغزوة، أن يقطع صلة محمد المتوكل بالثغور الجنوبية تمهيداً لانتزاعها من أيدي المسلمين.

جدَّد فرديناند الثالث هجماته على المدن الإسلامية، فحاصر أبدة مدة سبعة أشهر حتى سقطت في يده، ودخلها في (ذي الحجة ٦٣١ هـ/ أيلول ١٢٣٤ م)[2].

ظهور محمد بن يوسف بن نصر ـ ابن الأحمر ـ: شعر محمد المتوكل، بعد انهيار الموحدين وبسط سيادته على معظم مدن الأندلس، أنه غدا زعيم البلاد الأوحد وقائد حركة المسلمين في صراعهم مع النصارى، والمسؤول عن حماية الأرض والشعب، لكن نافسه أبو جميل زيان في بلنسية، غير أن هذه المنافسة في الشرق لم تضايقه، إنما خشي من بروز زعيم آخر أخذ نجمه يسطع في أواسط الأندلس وجنوبها بسرعة، ويظفر بطاعة مدينة بعد أخرى، ذلك هو الزعيم الأندلسي الجديد محمد بن يوسف بن نصر، المعروف بابن الأحمر. وما لبث أن شعر بخطورة حركته، فقرَّر القضاء عليه، غير أنه انهزم أمامه في معركة جرت بالقرب من إشبيلية في عام (٦٣١ هـ/ ١٢٣٤ م).

ويبدو أن الزعيمين المسلمين أدركا، بعد ذلك، خطر الحرب الأهلية بينهما، وأن فرديناند الثالث المتربص بهما هو المستفيد الأول، لذلك مالا إلى التفاهم وعقدا صلحاً بينهما تضمَّن اعتراف محمد بن الأحمر بطاعة محمد المتوكل مقابل أن يقرَّه هذا الأخير على جيان وأرجونة وبركونة وأحوازها[3].

---

(١) Conzales, J: Las Conquistas de Fernando en Andalucia PP. 62, 63.

(٢) ابن سعيد، علي بن موسى بن محمد: المغرب في حلى المغرب جـ ٢ ص ٦١.

(٣) ابن أبي زرع: ص ١٨٧. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٧٠.

رأى فرديناند الثالث في تحالف الزعيمين خطراً عليه، فتدخَّل ليفرِّق بينهما، فهاجم منطقة جيان التابعة لمحمد بن الأحمر من جهة، وعقد صلحاً مع محمد المتوكل لمدة ثلاثة أعوام من جهة أخرى، على أن يدفع له هذا الأخير جزية سنوية قدرها مائة وثلاثون ألف دينار، ويتنازل له عن بعض الحصون الواقعة في منطقة جبال الشارات، ثم ارتد عائداً إلى بلاده، واستولى في طريقه على حصن الأطراف، وشنت أشتبين، وثلاثين حصناً آخر[1].

سقوط قرطبة: الواقع أن غزوات فرديناند الثالث المتوالية لأراضي الأندلس، وعقده الاتفاقيات المهدئة مع محمد المتوكل، وسيطرته على حصون منطقة جيان ومدينة أبدة؛ لم تكن سوى مقدمات لحدث أخطر وأبعد مدى، كان يعمل على تحقيقه، ألا وهو الاستيلاء على قرطبة، وكانت المدينة آنذاك تمر بمرحلة عصيبة بسبب اختلاف سكانها، وتفشِّي الأحقاد والخصومات بينهم، التي وصلت إلى حد الخيانة، كما تدهورت أوضاعها بشكل محزن بسبب ابتعاد الموحدين عنها واتخاذهم مدينة إشبيلية عاصمة لهم، بالإضافة إلى إهمال الولاة لها، وتحوَّل كثير من أحيائها إلى خرائب، ولم تكن أوضاعها المتدهورة بخافية على فرديناند الثالث.

ففي (أواخر ربيع الآخر ٦٣٣ هـ/ أوائل كانون الثاني ١٢٣٦ م)، سار قسم من الجيش النصراني الذي استولى على أبدة، إلى منطقة أندوجر الواقعة شرقي قرطبة، وعلم أفراده أن المدينة في وضع سيء وقد أُهملت وسائل الدفاع عنها، فطمعوا في الاستيلاء عليها، فساروا إليها وأشرفوا عليها حين جنَّ الليل، وقد تطوَّع بعض الخونة ممن ينقمون على زعمائهم، لمساعدتهم، فدلُّوهم على الأمكنة الضعيفة الحراسة، فأحدثوا ثلمة في سور المنطقة الشرقية واقتحموها، وأحدثوا فيها مذبحة مروعة، وهرب من نجا من سكانها إلى داخل المدينة.

تحصَّن المهاجمون في الأبراج ورأوا أنهم لا يستطيعون، بجمعهم القليل، اقتحام مثل تلك المدينة الكبيرة، لذلك طلبوا مساعدة عاجلة من حاميات الحدود ومن الملك فرديناند الثالث، فهرع ألفار بيريز بجميع جند الحدود لنجدتهم، وتبعه الملك القشتالي.

انتاب سكان قرطبة الفزع والروع، فالتمسوا المساعدة من محمد المتوكل. لم

(١) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٧١.

يجهل هذا الزعيم الأندلسي مدى أهمية قرطبة كعاصمة للمسلمين في الأندلس، ومدى الخطر الذي سوف يتعرَّض له هؤلاء إذا سقط هذا المعقل في أيدي النصارى، ومن ثَمَّ فإنه لم يتردَّد في حشد جيش ضخم بلغ تعداده خمسة وثلاثين ألف مقاتل، وسار لإنقاذ المدينة المهدَّدة. ولما وصل إلى إستجَّة علم بأن فرديناند الثالث قد اقترب منها، فتوقف عن الزحف، وتخلَّى عن مشروعه بتقديم المساعدة، ويبدو أنه خشي أن يصطدم بالملك القشتالي على الرغم من تفوقه العددي.

ووصل إليه في تلك اللحظة نداء استغاثة من أبي جميل زيان، صاحب بلنسية، الذي كان يتعرَّض آنذاك لضغط أراغوني، ووعده بأن ينضوي تحت لوائه. فقرَّر أن ينجده، وترك قرطبة تواجه مصيرها آملاً أن يصمد سكانها. وربما كان إحجامه هذا مردَّه إلى تجديد الهدنة مع فرديناند الثالث لمدة أربعة أعوام، حيث كان التخلِّي عن مساعدة قرطبة من ضمن شروط الهدنة الجديدة. وهكذا يتحمل محمد المتوكل مسؤولية سقوط قرطبة في أيدي النصارى[١].

وشدَّد فرديناند الثالث حصاره على المدينة وعزلها عن الخارج، فنضبت أقواتها واضطر سكانها إلى التفاوض معه بشأن التسليم مقابل الأمان على أنفسهم، وفيما يستطيعون حمله من أموالهم. وافق الملك القشتالي على تلك الشروط، إلا أنه لم يسمح لهم بالاحتفاظ بشيء من أملاكهم. ودخل النصارى المدينة يوم الأحد (٢٢ شوال ٦٣٣ هـ/ ٢٩ حزيران ١٢٣٦ م)، وغادرها سكانها وتفرقوا في إنحاء ما تبقّى من مدن الأندلس. وحوَّل يوحنا، أسقف أوسمة، مسجدها الجامع إلى كنيسة، ورفع الصليب على قمة صومعته، ودخل الملك القشتالي المدينة في اليوم التالي في موكب النصر يتقدمه الكهنة وفرسان الجمعيات الدينية، وصلّى صلاة الشكر في الكنيسة. واقتسم النصارى الدور المهجورة الأملاك[٢]، والمعروف أن المسلمين حكموا هذه المدينة مدة خمسمائة وخمسة وعشرين عاماً.

أعقب سقوط قرطبة، خضوع معظم المدن الصغيرة والحصون التابعة لها، وتعهد سكانها بدفع الجزية، والسماح بإقامة حاميات نصرانية فيها، نذكر منها أستجَّة، أشتبة، بياسة، مرشانة، قبرة، أليُسانة، مورور، قرونة، أشونة وغيرها.

---

(١) ابن أبي زرع: ص ١٨٣. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٧١. عنان: ص ٤٢٣.

(٢) ابن أبي زرع ص ١٨٣. ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٧١.

وفاة محمد المتوكل وأثرها على الوضع العام في الأندلس ـ قيام مملكة غرناطة

غادر محمد المتوكل منطقة قرطبة وتوجَّه إلى المرية في محاولة لنقل جنده منها بالسفن كي يصل بسرعة إلى بلنسية، فاستقبله حاكمها محمد بن عبد الله الرميمي بالحفاوة، وكان نائبه فيها ووزيره، ولكنه عندما آوى إلى غرفة نومه قتله خنقاً في (٤ جمادى الآخرة ٦٣٥ هـ/ ٢١ كانون الثاني ١٢٣٨ م)، ربما بسبب جارية نصرانية رائعة الجمال كان محمد المتوكل قد أودعها الرميمي، فأغراها هذا واستأثر بها، فخشي سوء العاقبة[١].

أحدثت وفاة محمد المتوكل انعطافة كبيرة في تاريخ المسلمين في الأندلس، إذ كان حتى وفاته أقوى الأمراء المسلمين في جنوبي البلاد، فانهارت دولته بوفاته والتي كانت تُبشِّر ببعث أندلسي جديد، وتُعدُّ آخر الحركات الثورية ضد الموحدين والتي بدأها محمد بن سعد بن مردنيش، وآل معظم تراثه إلى محمد بن الأحمر أمير جيان وأرجونة، فاستولى على المرية وغرناطة، واعترفت مالقة بحكمه، في حين احتفظت إشبيلية، وشريش ومدن الغرب باستقلالها أو انضوت تحت حكم الموحدين المحتضر. وحكم باقي ممتلكات محمد المتوكل، أي مرسية وما يجاورها، أخوه علي بن يوسف عضد الدولة، بعد أن تغلَّب على ابنه أبي بكر محمد بن محمد المتوكل الملقب بالواثق[٢].

وهكذا أخذت صورة الوضع السياسي للدولة الإسلامية الجديدة في الأندلس، تتوضح تحت حكم محمد بن الأحمر الذي اتخذ غرناطة عاصمة له بدلاً من جيان التي كانت واقعة تحت تهديد النصارى المستمر. وقد اجتمعت تحت ظلال هذه الدولة أشلاء الأندلس المنهارة والتي انكمشت أطرافها فيما وراء الوادي الكبير جنوباً، وشغلت شرقاً رقعة متواضعة تمتد من جيان وبياسة وأستجَّة حتى البحر، ومن المرية وإلبيرة غرباً حتى مصب الوادي الكبير. على أن هذه المملكة الصغيرة، وهي الدولة النصرية أو مملكة غرناطة، هي آخر من حكم الأندلس من المسلمين. وكانت جديرة بأن ترث التركة الأندلسية، واستمرت بفضل وعي حكامها وسياساتهم المرنة زهاء مائتين وخمسين عاماً أخرى كمستودع للحضارة الأندلسية، واضطلعت في الوقت نفسه بذلك النضال القديم الخالد ضد الممالك النصرانية حتى لقيت مصرعها في النهاية وهي مرفوعة الرأس[٣].

---

(١) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٦٩.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) عنان: ص ٤٣٠، ٤٣١.

سقوط الجزائر الشرقية: خطَّط چايم الأول ملك أراغون للاستيلاء على الجزائر الشرقية بفعل أهمية موقعها العسكري، واهتم سكان قطلونية بهذه الجزائر بفعل مزاولتهم التجارة البحرية فساندوا الملك في مشروعه، وكان تراجع قوة الدولة الموحدية قد انتهى إلى انتزاع أبو جميل زيان حكم تلك الجزائر مع بلنسية.

وفي (رجب ٦٢٦ هـ/ أيار ١٢٢٩ م) احتشد الجيش الأراغواني، الذي اتخذ أفراده شارة الصليب شعاراً لهم، وأبحروا في مائة وخمسين سفينة كبيرة وعدد من الزوارق الصغيرة باتجاه جزيرة ميورقة، وانضم إليهم كثير من الجنويين والبروڤانسيين، ونجحوا في النزول إلى البر على الرغم من مقاومة حاكمها أبي عثمان سعيد بن حكم بن عمر القرشي، وشقوا طريقهم نحو العاصمة واقتحموها في (صفر ٦٢٧ هـ/ كانون الأول ١٢٢٩ م)، واستسلم أبو عثمان للملك الأراغوني وبايعه على الطاعة ودفع الجزية، وحذا المسلمون في جزيرة منورقة حذو مسلمي ميورقة، واستولى مطران طرَّكونة على جزيرة يابسة، وأقطعها چايم الأول للكنيسة.

سقوط بلنسية: ما كاد چايم الأول ينتهي من الاستيلاء على الجزائر الشرقية حتى خطَّط للاستيلاء على بلنسية، الثغر الإسلامي الكبير. واقتضى المشروع السيطرة أولاً على سائر الحصون الأمامية للإقليم لعزل المدينة وتجريدها من وسائل الدفاع. ورأى أن يطبع حملته بطابع صليبي كي يحصل على مساعدة الجماعات الدينية العسكرية، فاستعان بالبابا جريجوري التاسع الذي أصدر مرسوماً أضفى الصبغة الصليبية على المشروع، الأمر الذي دفع الكثير من الفرسان والمقاتلين من فرنسا وإنكلترا للاشتراك بالحملة. وانضم أبو زيد محمد المنصور، والي بلنسية السابق، إلى الحملة، وكان قد التجأ إلى بلاط چايم الأول على أثر انتزاع أبو جميل زيان الحكم منه.

بدأت المرحلة الأولى في عام (٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م)، فانتشرت القوات الأراغونية في الأراضي الشمالية لإقليم بلنسية واستولت على الحصون والبلدات الأمامية مثل: أرش ومورلة وبريّانة وبنشكلة وشغيت وبريول وقسطلُّونة وغيرها، الأمر الذي حرم المدينة من قواعد الحماية والتموين، على الرغم من المقاومة التي أبداها أبو جميل زيان، حاكم الإقليم.

وبدأت المرحلة الثانية في عام (٦٣٤ هـ/ ١٢٣٦ ـ ١٢٣٧ م)، فتوجهت القوات الأراغونية إلى حصن أنيشة المهم والمنيع الذي يشرف على مرج بلنسية وحدائقها، واستولت عليه وكان خراباً، هدمه أبو جميل زيان حتى لا يقع في أيدي الأراغونيين.

وبنى چايم الأول مكانه حصناً جديداً وشحنه بالعساكر، واتخذه قاعدة انطلاق للإغارة على مختلف نواحي إقليم بلنسية.

وشعر أبو جميل زيان بالضغط الأراغوني المنطلق من حصن أنيشة فقرر استعادته على الرغم من وضعه السيء، وبخاصة أن حليفه محمد المتوكل الذي كان يأمل بمساعدته قُتل في المرية، غير أنه تعرض لهزيمة قاسية أدَّت إلى انهيار قوى بلنسية الدفاعية، وقرَّبت من نهايتها.

كان چايم الأول في عجلة من أمره للاستيلاء على مدينة بلنسية، إذ خشي من امتداد الزحف القشتالي إلى تلك المنطقة الشرقية بعد تغلب فرديناند الثالث على قرطبة ومعظم أراضي المنطقة الشمالية من الأندلس الوسطى، كما كان واثقاً من تراجع قوة المدينة الدفاعية بعد معركة أنيشة، وصبَّت وفاة محمد المتوكل في مصلحته بحيث لم يبقَ ثمة أمل لسكان بلنسية في تلقِّي أية مساعدة من الخارج.

وحشد الملك الأراغوني الجنود من أراغون وقطلونية وانضم إليه متطوعون فرنسيون بقيادة مطران أربونة، وخرج على رأس الجيش، الذي بلغ تعداده ستين ألفاً من المشاة وعشرة آلاف من الفرسان، متوجهاً إلى بلنسية، فاستسلمت له بعض الحصون الواقعة على طريق زحفه، ولما وصل إليها ضرب حصاراً شديداً عليها.

التمس أبو جميل زيان المساعدة من مرسية ومن الحفصيين في تونس، فأرسل إليه الأمير الحفصي أبو زكريا مساعدة عن طريق البحر، إلا أن الأسطول الحفصي لم يتمكَّن من إفراغ حمولته في بلنسية بفعل تدخل الأسطول الأراغوني الذي منعه من الاقتراب من المدينة. وهكذا واجهت مدينة بلنسية الحصار الأراغوني منفردة حتى نضبت مواردها، وبلغ سكانها الإعياء، واضطر أبو جميل زيان أن يتفاوض مع چايم الأول بشأن الاستسلام، وعُقدت معاهدة التسليم يوم الثلاثاء في (١٧ صفر ٦٣٦ هـ/ ٢٩ أيلول ١٢٣٨ م)، وقد منحت الأمان للسكان المسلمين وسمحت لمن يريد المغادرة أن يخرج بجميع أمواله[(١)].

ودخل چايم الأول المدينة فاتحاً يوم الجمعة في (٢٧ صفر/ ٩ تشرين الأول)، فرفع العلم الأراغوني على قمة أعلى برج في أسوارها، وحوَّل مساجدها إلى كنائس، وطمس قبور المسلمين، وقسَّمها بين رجال الدين والفرسان وسكانها الذين

---

(١) المقري: جـ ٦ ص ٢١٥، ٢١٩.

اشتركوا في الحرب إلى جانب النصارى، كل بنسبة ما اشترك به، وغادرها فوراً زهاء خمسين ألفاً من سكانها المسلمين لأنهم اعتقدوا بأنهم أضحوا غير آمنين في ظل حكم النصارى، كما غادرها أبو جميل زيان مع أهله إلى جزيرة شقر. وما كاد يستقر فيها حتى هاجمها چايم الأول بحجة أنها غير داخلة في نطاق اتفاق الهدنة، فغادرها إلى دانية، وحاول أن يعوِّض عما فقده بالاستيلاء على مرسية التي كانت تمر آنذاك بوضع مضطرب نتيجة الصراع على السلطة، فدخلها واستولى على الحكم، ودخلت معظم القواعد الباقية في شرقي الأندلس في طاعته[١].

وفي ظل التسابق الأراغوني ـ القشتالي لاسترداد البلاد من المسلمين استولى چايم الأول على الضفة اليمنى لنهر شقر وعلى حصون المنطقة الهامة ومنها دانية وذلك في عام (٦٤١ هـ/ ١٢٤٤ م)، ثم استولى بعد عامين على شاطبة، غير أن المسلمين كانوا لا يزالون يشكلون غالبية سكان المناطق المستردَّة، ويقومون بنشاط معادٍ للنصارى، لذلك أقدم الملك الأراغوني على طردهم من أملاكهم في عام (٦٥١ هـ/ ١٢٥٣ م)، وضمَّت غرناطة جميع النازحين، وتلقب الملك الأراغوني بعد هذا النجاح بالفاتح.

سقوط مرسية: كانت مرسية آنذاك تحت حكم أبي جميل زيان، فدعا للأمير الحفصي أبي زكريا صاحب إفريقيا وتلقّى منه تقليداً بحكم مرسية وشرقي الأندلس، ودخلت معظم المنطقة في طاعته باستثناء أوريولة ولورقة. وواجه، بعد مرور عامين على حكمه، ثورة قام بها أحد أبناء عمومة محمد المتوكل، ويدعى محمد بن هود، وسانده سكان مرسية، فانتزع الحكم منه وتلقَّب ببهاء الدولة، وخرج أبو جميل زيان إلى لقنت، لكن الأراغونيين استولوا عليها في عام (٦٤٤ هـ/ ١٢٤٦ م) فغادرها إلى تونس ومكث فيها إلى أن توفي في عام (٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩ م).

وشعر سكان مرسية بالخطر الأراغوني يقترب من مدينتهم، على أثر توالي سقوط مدن الشرق في أيدي الأراغونيين، في الوقت الذي لم يُغنهم انضواؤهم تحت لواء صاحب إفريقيا شيئاً، فرأوا أن يتفاهموا مع ملك قشتالة، وعرضوا عليه الاعتراف بطاعته وتأدية الجزية، والسماح له بوضع حامية عسكرية في المدينة مقابل بقاء حكمها في أيديهم، فوافق على ذلك. ودخل ابنه ألفونسو المدينة مع أفراد الحامية العسكرية في (١٠ شوال ٦٤٠ هـ/ ٢ نيسان ١٢٤٣ م)، واحتفظ أمير مرسية بسيادته على لقنت

---

(١) عنان: ص ٤٥٠.

وأوريولة وألش، ولم تدخل لورقة ومولة وقرطاجنة في هذا الصلح واحتفظت باستقلالها حيناً حتى استولى عليها القشتاليون في عام (٦٤٣ هـ/ ١٢٤٥ م).

ولبثت مرسية عدة أعوام تحت حكم بهاء الدولة محمد بن هود، ثم تحت حكم ابنه أبي جعفر أحمد بحماية ملك قشتالة. وحدث في عام (٦٦٢ هـ/ ١٢٦٤ م) أن خرج عليه الواثق أبو بكر محمد بن محمد المتوكل وانتزع الحكم منه، وأعلن خلع طاعة ملك قشتالة، ربما بحكم كراهية المسلمين للزعماء الذين يعتمدون في المحافظة على سلطانهم على النصارى. لكن الواثق تعرَّض لضغط أراغوني واضطر أن ينضوي تحت لواء ابن الأحمر أمير غرناطة، غير أن هذا لم يستطع الدفاع عن المدينة ضد غزوات النصارى واضطر أن يتخلَّى عن حمايتها[١].

وكان ألفونسو العاشر ملك قشتالة، الذي خلف والده فرديناند الثالث بعد وفاته في عام (٦٥٠ هـ/ ١٢٥٢ م)، منهمكاً في الدفاع عن ممتلكاته الأندلسية الجديدة لا سيما منطقة شريش وشذونة، ويراقب نشاط ابن الأحمر في غرناطة، كما خشي مما جرى من عبور قوات مرينية من المغرب إلى الأندلس لمناصرته، ورأى نفسه من جهة أخرى عاجزاً عن إخماد ثورات سكان مرسية واستعادة سيادته على المدينة، ومن ثَمَّ طلب من حميه چايم الأول، ملك أراغون، وكان قد تزوج ابنته ڤيولانتي، أن يساعده، فلبَّى نداء المساعدة من واقع أن الثورة في مرسية تهدِّد سيادته في بلنسية، فهاجمها واستولى عليها، وعوَّض الواثق بحصن يُسر، وذلك في (جمادى الأولى ٦٦٤ هـ/ شباط ١٢٦٦ م)، وسمح للسكان المسلمين بالبقاء فيها كما سمح للنصارى بالهجرة إليها.

وانتهت بسقوط مرسية سيادة المسلمين على تلك الرقعة الواسعة من الأندلس، وأضحى سكانها المسلمون الذين آثروا البقاء فيها، تحت حكم النصارى الجدد مدجَّنين تتلاعب بهم أهواء الحكام الجدد[٢].

سقوط أرجونة وجيان: في الوقت الذي كانت فيه مدن وحصون شرقي الأندلس تسقط تباعاً في أيدي الأراغونيين، كان فرديناند الثالث ملك قشتالة يتابع غزواته في منطقة وسط الأندلس، وتعرَّضت أرجونة وجيان لغاراته، فتصدى له محمد بن الأحمر وهزمه في معركة مرتش في عام (٦٣٦ هـ/ ١٢٣٨، ١٢٣٩ م)، غير أنه فشل في استثمار انتصاره واستعادة القلعة.

---

(١) عنان: ص ٤٦١، ٤٦٢.

(٢) المرجع نفسه: ص ٤٦٣، ٤٦٤.

وكرَّر فرديناند الثالث محاولاته، فاستولى على أرجونة في (أواسط ٦٤٢ هـ/ أواخر ١٢٤٤ م) بالإضافة إلى بعض الحصون الأخرى في فحص غرناطة منها قسطيلة، وأشرف على جيان وحاصرها وخرَّب المناطق المحيطة بها لحرمانها من المؤن. ولم يتمكن محمد بن الأحمر من مساعدتها، فقد تعرَّض للهزيمة على يد القوات القشتالة، وشعر بأنه لا بد من أن يلتمس الوسيلة لتأمين استمرارية حكمه في ظل قوة قشتالة التي تهدِّده، وبخاصة أن غزوات القشتاليين وصلت إلى ضواحي غرناطة نفسها، مدركاً، في الوقت نفسه، عُقم المقاومة، وأن الملك القشتالي لن يقف في تقدمه عند الاستيلاء على جيان، لذلك مال إلى الاستسلام، وأجرى معه مفاوضات أسفرت عن عقد معاهدة تضمنت البنود التالية:

- يخضع محمد بن الأحمر لسيادة ملك قشتالة ويقدم إليه طاعته.
- تُسلم مدينة جيان وأعمالها إلى ملك قشتالة.
- يحكم محمد بن الأحمر مملكة غرناطة بوصفه تابعاً للملك القشتالي، ويتعاون معه في السلم والحرب، ويشهد اجتماع المجلس النيابي وسائر حفلات البلاط الرسمية، ويؤدي له جزية قدرها خمسون ألف مثقال من الذهب(١).

ودخل فرديناند الثالث مدينة جيان في (ذي الحجة ٦٤٣ هـ/ نيسان ١٢٤٦ م)، وحوَّل مسجدها الجامع إلى كنيسة، ووضع فيها حامية كبيرة، وغادرها معظم سكانها المسلمين، وتفرقوا في مدن الأندلس الجنوبية. وتنازل محمد بن الأحمر للقشتاليين عن أرجونة وبركونة ووادي الحجارة والفرنتيرة، لعجزه عن الدفاع عنها(٢).

وهكذا اشترى محمد بن الأحمر سلامته وسلامة مملكته وأراضيه بهذا الثمن الفادح، وارتضى أن يُضحِّي باستقلاله السياسي إلى حين، كي يأمن شر عدوان خصمه القوي القاهر، ويتفرَّغ إلى تنظيم مملكته وتوطيد حكمه الداخلي.

سقوط إشبيلية: كان توالي سقوط مدن الأندلس، في المنطقتين الشرقية والوسطى، يعني أن هذه البلاد قد انهارت دعائمها، وتحطَّمت منعتها وقواها الدفاعية الأمر الذي شجَّع الملك القشتالي على التطلع نحو إشبيلية، المعقل الكبير وعاصمة الموحدين في الأندلس، وما سرَّع على تنفيذ هذه الفكرة انتهاء الحرب بين مملكتي قشتالة وغرناطة.

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة: جـ ٢ ص ٥٥ .Conzales: PP. 94, 95

(٢) المصدر نفسه. عنان: ص ٤٦٩.

كانت الأوضاع الداخلية للمدينة مضطربة وعُرضةً للتقلبات السريعة منذ أن انتفضت على حكم الموحدين ودخلت في طاعة الحفصيين في تونس، فأرسل أبو زكريا الحفصي ابن أخيه أبا فارس عبد العزيز، مع وفد إشبيلي ليتسلم الحكم باسمه. ويبدو أن حاشية الوالي الأفارقة قاموا بارتكاب ضروب من الفساد مع القاضي أبي عمرو بن الجد، حاكم المدينة الفعلي الذي جرَّد خصومه من مناصبهم الإدارية والعسكرية، وبخاصة القائد شقَّاف، فأخرجهم الإشبيليون من مدينتهم وقتلوا ابن الجد(١)، ويُعدُّ مقتله الشرارة التي أشعلت نار الحرب، ودفعت فرديناند الثالث لبدء العمليات العسكرية نظراً لارتباط الرجلين برباط المصالحة، على نمط المعاهدة التي عُقدت بين الملك القشتالي وبين محمد بن الأحمر.

وأدرك الإشبيليون حقيقة وضعهم الضعيف أمام قوة الملك القشتالي، فحاولوا التفاهم معه، لكنه رفض، واتخذ من مقتل ابن الجد ذريعة لاسترداد المدينة وقواعدها والسيطرة على كامل منطقة الوادي الكبير، ووضع خطة عسكرية تقضي بالسيطرة أولاً على حصونها الأمامية وعزلها عن محيطها ثم حصارها.

والواقع أن أحداث سقوط إشبيلية مرَّت بمرحلتين:

ابتدأت **المرحلة الأولى** في عام (٦٤٤ هـ/ ١٢٤٦ م)، حين قاد فرديناند الثالث قواته إلى عمق أراضي إشبيلية فاستلمت له قرمونة ولورة والقولة. وتولى محمد بن الأحمر الذي رافقه في هذه الحملة(٢)، تنفيذاً لبنود المعاهدة المعقودة بينهما، إقناع حاميات عدد من الحصون الأخرى على الاستسلام، مثل قلعة جابر وجويلانة وريَّة وجرنية، واستطاع أن يحصل من الملك القشتالي على وعد بالتساهل في شروط التسليم، وبألا يستعمل العنف حيث لا ضرورة لاستعماله. وفرَّق فرديناند الثالث قواته في النواحي لتغير على الأراضي المحيطة بإشبيلية(٣).

وفي الوقت الذي كانت فيه القوات القشتالية تجوس خلال أراضي إشبيلية، تلقَّى فرديناند الثالث نبأ وفاة والدته، فأمر بوقف العمليات العسكرية وصرف أمير غرناطة وسار، هو، إلى قرطبة ومنها إلى جيان حيث قضى فيها جانباً من فصل الشتاء. وعلى هذا الشكل جُرِّدَت إشبيلية من حصونها الأمامية وخطوطها الدفاعية.

---

(١) ابن خلدون: جـ ١ ص ١٧١.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) أشباخ: جـ ٢ ص ١٩٥.

وابتدأت **المرحلة الثانية** في (جمادى الأولى ٦٤٥ هـ/ أيلول ١٢٤٧ م) بفرض حصار شديد على المدينة من البر والبحر، واشترك محمد بن الأحمر في عملية الحصار إلى جانب القوات النصرانية. وتخلَّل الحصار اشتباكات كانت ضارية أحياناً، وأخذ شبح القحط يُهدِّد السكان، وبدأ الجوع يفتك بهم، وفقدوا كل أمل في الإنقاذ.

والواقع أن الموحدين لم يتحرَّكوا لإنقاذ المدينة بفعل انهماكهم بمحاربة المرينيين في المغرب والحفصيين في إفريقيا، كما لم يتحرك أمير إفريقيا الحفصي بفعل ما سبق من موقف الإشبيليين المعادي تجاه عماله.

ولما بلغ الضيق أشدَّه، نزل الإشبيليون على حكم الظروف، فعرضوا الاستسلام على فرديناند الثالث بشروط. لكن الملك القشتالي أصرَّ على استسلام المدينة من دون قيد أو شرط، واضطر هؤلاء إلى القبول مُرغمين. وخيَّرهم فرديناند الثالث بين البقاء والمغادرة، ودخل المدينة في موكب النصر يوم الإثنين (٥ شعبان ٦٤٦ هـ/ ٢٣ تشرين الثاني ١٢٤٨ م)، فرفع العلم القشتالي فوق برج القصر، وحوَّل مسجدها الجامع إلى كنيسة، كما رفع علم النصرانية وعلم قشتالة على قبة البرج الأعلى للكنيسة الجديدة وهو الذي سُمِّي بالجيرالدا[(١)].

وهكذا سقطت إشبيلية حاضرة الموحدين في الأندلس، بعد أن حكمها المسلمون خمسة قرون وثلث القرن، وحكمها الموحدون زهاء قرن، فجاء سقوطها، بعد سقوط قرطبة ومدن الشرق، تصفية نهائية لسلطان المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية.

واستثمر فرديناند الثالث انتصاره الكبير، فاستولى على جميع المدن الواقعة على مصب نهر الوادي الكبير وفي منطقة وادي لكة نذكر منها: شريش والفرنتيرة وشذونة وقلعة الغزال وبلش وقادس وشنتمرية وروطة وأرك.

سقوط مدن وثغور غربي الأندلس: هاجم ألفونسو الثاني، ملك البرتغال في (ربيع الآخر ٦١٤ هـ/ تموز ١٢١٧ م) قصر أبي دانس وحاصره من البر والبحر بمساعدة قوة صليبية قادمة من جنوبي ألمانيا كانت في طريقها إلى فلسطين. تحصَّن سكان الثغر داخل المدينة. وطلبوا مساعدة عاجلة من الموحدين، فأمر الخليفة المستنصر ولاة قرطبة وإشبيلية وجيان بمساعدتهم، فحشد هؤلاء جيشاً ضخماً سار إلى نجدة الثغر، ولكن النصارى هزموه، ولم يتمكَّن هؤلاء على الرغم من هذا

---

(١) ابن خلدون: جـ ٤ ص ١٧١. المقري: جـ ٦ ص ٢٢٩ .Conzales: P. 118

النصر من الاستيلاء على القصر إلا بعد ذلك بستة أسابيع. وعومل السكان الذين فتحوا أبواب مدينتهم أمام النصارى معاملة ما يُفتح عنوة، فقُتِلوا وأُسروا، وسُلِّمت المدينة إلى فرسان شنت ياقب لما أظهروه من شجاعة أثناء القتال.

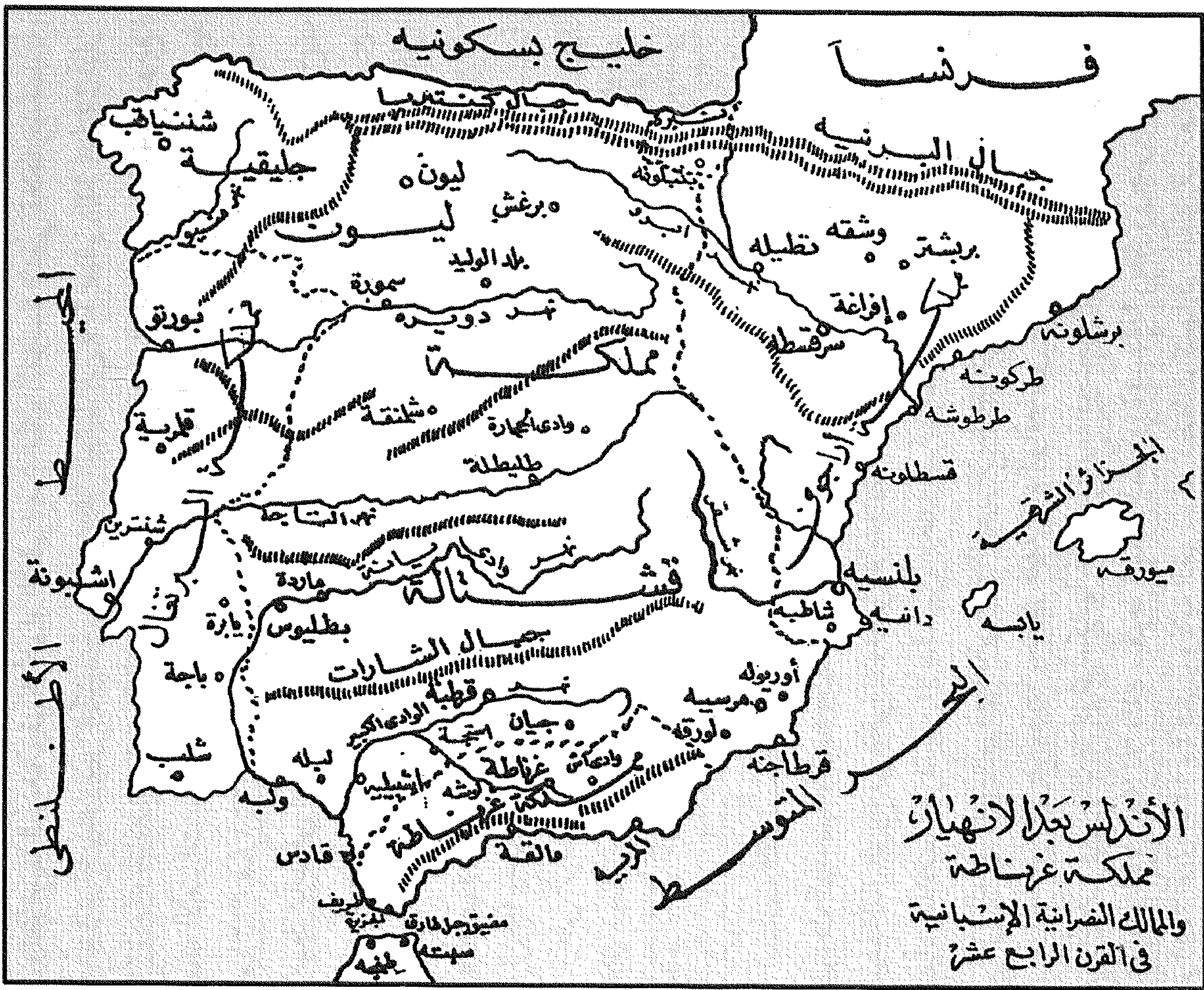
وتعرَّضت البرتغال في الأعوام الأخيرة من حكم ألفونسو الثاني للاهتزاز بسبب تجدُّد النزاع بينه وبين الكنيسة. وتوفي هذا الملك في (٢٠ صفر ٦٢٠ هـ/ ٢٥ آذار ١٢٢٣ م) وخلفه ابنه شانجة الثاني، الذي بدأ حكمه بحل الخلافات مع الكنيسة ومع عماته الأميرات بشأن الإرث، ثم نهض لحرب المسلمين، فاستولى على إلفاس في عام (٦٢٣ هـ/ ١٢٢٦ م) وشحنها بالنصارى. واستغل في الأعوام التالية فرصة نشوب الاضطرابات في الدولة الموحدية فعمل على توسيع حدوده الجنوبية، فاستولى على حصن شرية وجلمانية وغيرهما من حصون الحدود الواقعة على ضفة وادي آنة، ثم استولى على ميرتلة ذات الموقع الحصين التي تصلح لأن تكون قاعدة انطلاق للداخل الأندلسي ومنحها لفرسان شنت ياقب، كما استولى على شِلب في عام (٦٤٠ هـ/ ١٢٤٢ م) وعلى ثغر طبيرة، في العام التالي، ووهبهما أيضاً لفرسان شنت ياقب.

وعلى الرغم من أن الملك شانجة الثاني بذل جهداً حثيثاً لإرضاء رجال الدين من خلال محاربة المسلمين ونشر النصرانية؛ فإنه لم يستطع أن يتجنَّب تجدُّد النزاع معهم الذي أدَّى إلى خلعه عن العرش بموجب قرار بابوي، واعتلاء أخيه ألفونسو العرش مكانه باسم ألفونسو الثالث وذلك في (صفر ٦٤٣ هـ/ تموز ١٢٤٥ م)[1].

استأنف ألفونسو الثالث حركة الاسترداد النصرانية في غربي الأندلس، وكانت الظروف الداخلية والخارجية مهيأة للقيام بهذا النشاط العسكري، ذلك أن سقوط إشبيلية أثار الروع في باقي الأراضي الإسلامية، وكانت دولة الموحدين قد انهارت تماماً، وسادت التفرقة بين الأندلسيين، وغدا أمير غرناطة، أقوى الأمراء الأندلسيين، من أتباع الملك القشتالي، وبالتالي فإن الثغور الإسلامية في منطقة الغرب سوف تُحرم من أية مساعدة خارجية. وبدأ بحصار قلعة فارد الواقعة بين شلِب وطبيرة فحاصرها من البر والبحر، وسرعان ما أدرك سكانها عُقم المقاومة فجنحوا إلى السلم وذلك في عام (٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م). تلا ذلك سقوط المدن المجاورة بسهولة ويسر، وحتى منتصف عام (٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠ م) كانت ولاية الغرب قد سقطت كلها في أيدي البرتغاليين، وبذلك تمَّ القضاء نهائياً على سلطان المسلمين في الأراضي البرتغالية.

---

(١) أشباخ: جـ ٢ ص ٢١٤، ٢١٥.



عنّان: العصر الرابع ـ نهاية الأندلس، ص ٨٩

الفصل السادس عشر

مملكة غرناطة وسقوط الأندلس النهائي

(٦٣٥ ـ ٨٩٧ هـ/١٢٣٧ ـ ١٤٩٢ م)

محمد بن يوسف بن نصر: (٦٣٥ ـ ٦٧١ هـ/ ١٢٣٧ ـ ١٢٧٣ م)

تمهيد: في الوقت الذي أخذت فيه مدن الأندلس الكبرى تسقط تباعاً في أيدي النصارى، وتعرَّضت البلاد لخطر الزوال؛ هيَّأت الظروف الداخلية والخارجية لقيام مملكة إسلامية جديدة في جنوبي الأندلس هي مملكة غرناطة، أسَّسها محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي، المعروف بابن الأحمر، نظراً لنضارة وجهه واحمرار شعره على الأرجح.

عمِّرت هذه المملكة مدة قرنين ونصف على الرغم من صغر حجمها الجغرافي وقلَّة عدد سكانها، وحافظت على ما بقي للمسلمين من سلطان سياسي وتراث حضاري، ولا شك بأنه كان لهذا الصمود، طوال تلك المدة، أسباب لعل أهمها:

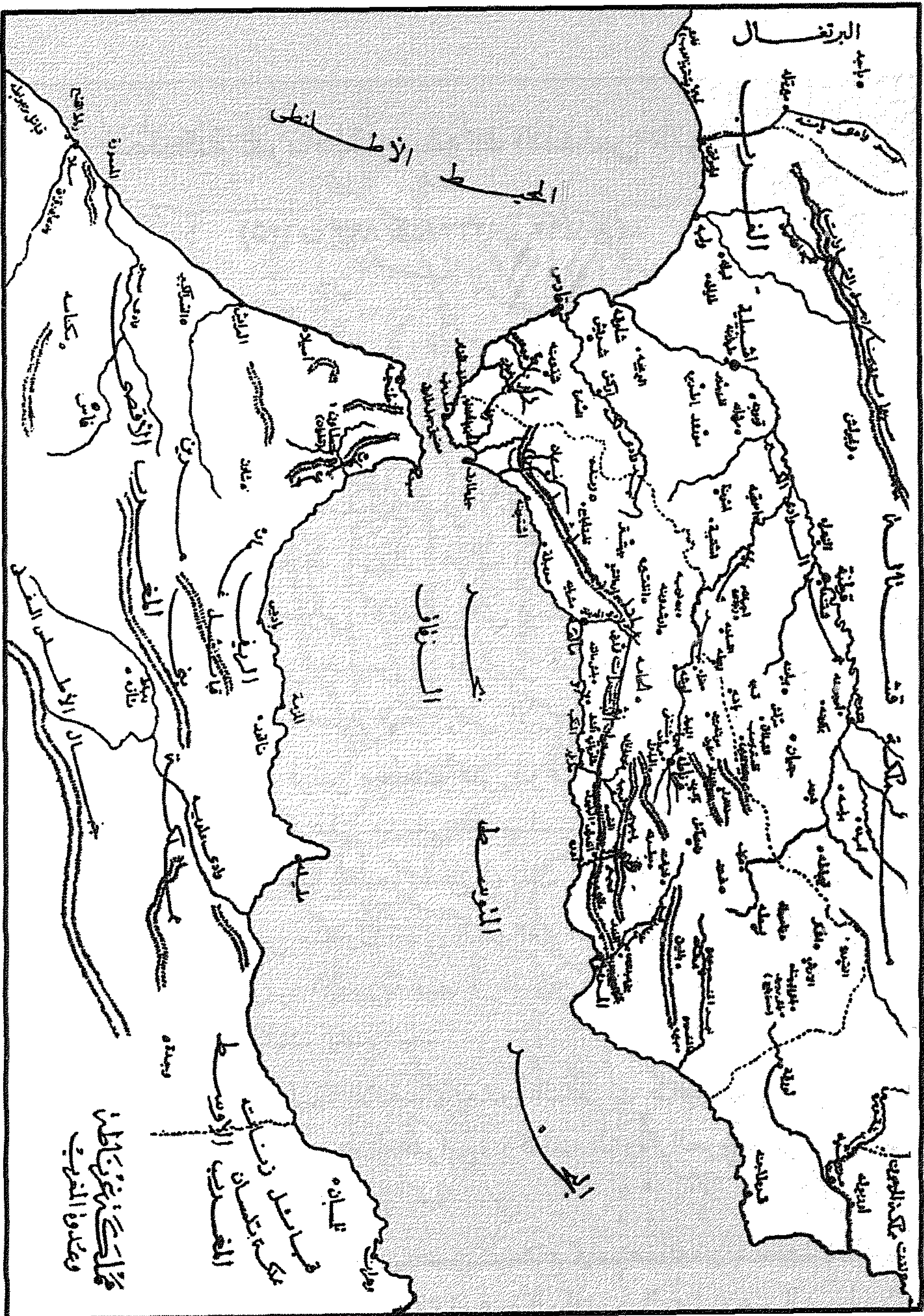
ـ بُعد مملكة غرناطة عن متناول أيدي الممالك النصرانية، فهي محصورة في الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الإيبيرية فيما وراء نهر الوادي الكبير، آخر الحواجز الطبيعية بين الأندلس والممالك النصرانية.

ـ سهَّل موقع المملكة عليها الاتصال بعدوة المغرب طالبة العون من الدول المغربية كلما اشتد عليها الضغط النصراني، وكانت الدولة المرينية في المغرب السند الرئيسي لها.

ـ درَّبت مملكة غرناطة سكانها على حمل السلاح واستعماله، والاستعداد الدائم لملاقاة العدو[1]، وأضيفت إلى هذا القوة، قوة الوافدين إليها، وهم المسلمون

---

(١) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، في الدولة النصرية ص ٣٩.



عنان: العصر الرابع، ص ٩

الفارّون أمام هجمات النصارى. والمعروف أن غرناطة كانت ملاذاً لهؤلاء بعد سقوط المدن في أيدي النصارى، يلتجئون إليها ويحتمون بها، كان بينهم المقاتلة والعلماء وقد صمَّموا على الصمود والتضحية.

ـ عامل الجهاد الذي التزم به سكان هذه المملكة، إذ إن الالتزام بالإسلام والمعاني الإسلامية التي بقيت في نفوس الناس، وهبت الحياة لهذه المعاني، وهي التي جمَّعت هذه الطاقات ودفعتها للوقوف مجتمعة، والاستعداد للبذل، كما كانت العامل وراء وقوف بني مرين مع إخوانهم، ثم الانتفاع بكل الإمكانات الأخرى ضمن الظروف المتاحة[١].

أعمال محمد بن الأحمر في أواخر أيامه: وُلدت مملكة غرناطة من رحم الفوضى التي سادت الأندلس على أثر انهيار حكم الموحدين، في ظروف غير عادية. ونشأ محمد بن الأحمر وحيداً في بلدته أرجونة[٢] على غير ما نشأ عليه ابن مردنيش وابن هود، وكلاهما ينتمي إلى أسرة حكمت ولاياتها منذ أيام الموحدين. وكمنت قوته الحقيقية في جرأته ومساندة أسرته له، بالإضافة إلى جمع من الأصدقاء والحلفاء مثل بني أشقيلولة المولَّدين.

كانت هذه المملكة بحاجة إلى الاستقرار كي تنطلق، في الوقت الذي واجه فيه مؤسسها كثيراً من الصعاب في ظل توثب النصارى واندلاع الحروب الأهلية بين المتغلبين الأندلسيين، والذين فضَّل معظمهم الانضواء تحت راية النصارى للاحتفاظ بسلطانهم، محجمين عن التعاون مع محمد بن الأحمر، أمثال محمد المتوكل بن هود، وحكام لقنت وأوريولة وقرطاجنة وجنجالة وغيرها.

تجاه هذه الصعاب اضطر محمد بن الأحمر أن يدخل فيما دخل فيه هؤلاء بعد أن أدرك عُقم مقاومة النصارى، وللمحافظة على أرواح من بقي من المسلمين في تلك الرقعة الصغيرة. وكان فرديناند الثالث، ملك قشتالة، يرى فيه، بعد وفاة ابن هود، زعيم الأندلس الحقيقي والخصم الذي يجب تحطيمه. وتمَّ التفاهم بين العاهلين على تحديد الإطار الجغرافي لمملكة غرناطة ودفع ضريبة سنوية، ودور ابن الأحمر المساند للقضية النصرانية. وبهذه المعاهدة أمَّنت غرناطة على نفسها من شر العدو، ولكن إلى حين. وقَبِل محمد بن الأحمر أن يضحِّي بحريته السياسية

---

(١) الحجي: التاريخ الأندلسي ص ٥١٩ ـ ٥٢٣.

(٢) ابن الخطيب: ص ٤٢.

متطلعاً إلى ظروف أفضل يستطيع أن يجدِّد فيها النضال ضد عدوه، كما تقرَّب من أمراء المغرب، جرياً على عادة الأندلسيين الذين كانوا يرون في هؤلاء سنداً لهم، ورأى أن يلتمس مساعدتهم.

كانت أحداث المغرب آنذاك قد تمخَّضت عن قيام دولة جديدة فتية هي دولة بني مرين. ولم يلبث المرينيون أن هرعوا إلى الأندلس لنجدة إخوانهم، وبخاصة بعد مهاجمة القشتاليين لمدينة سلا، في عام (٦٦٠ هـ/ ١٢٦٢ م)، ونهبها، الأمر الذي دفع أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق، سلطان بني مرين، على رفع راية الجهاد في الأندلس. وكانت أحداث هذا البلد المأساوية تصادف وقعاً أليماً في نفسه بعد توالي رسائل الأندلسيين عليه تصف له الوضع المتردِّي وتطلب منه تقديم مساعدة عاجلة للتصدي لعدوان النصارى، فجهَّز حملة عسكرية قوامها ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة أبي معروف محمد بن إدريس بن عبد الحق المريني وأخيه عامر، عبرت إلى الأندلس في عام (٦٦١ هـ/ ١٢٦٣ م)، فاستقبل محمد بن الأحمر أفرادها وتقوَّى بهم، واستطاع بمساعدتهم أن يُجبر ألفونسو العاشر، ملك قشتالة، على فكِّ الحصار الذي ضربه على غرناطة، كما تمكَّن من أن يسترد بواسطتهم مدينة شريس من أيدي النصارى، ولو إلى حين[(١)].

خشي ألفونسو العاشر من صحوة المسلمين وتدفق المتطوعين المجاهدين إلى الأندلس الأمر الذي يؤثر سلباً على خططه، فضاعف ضغطه على المدن الأندلسية الباقية، ونجح في انتزاع أستجَّة، حيث تنازل له صاحبها، ابن يونس، عنها في أواخر عام (٦٦٢ هـ/ صيف ١٢٦٤ م)، وظهرت نياته واضحة في الانقضاض على بقية المدن والثغور، فاشتد الخوف في سائر الأنحاء. واستأنف الأندلسيون إرسال الرسائل إلى أمراء المغرب بالمبادرة إلى إمدادهم بالمساعدات، غير أن المرينيين تقاعسوا عن تلبية نداء المساعدة، ما دفع محمد بن الأحمر إلى استعمال ورقة المسلمين المدجَّنين كعامل ضغط ضد ألفونسو العاشر. وتعرَّض الملك القشتالي لثورة شعبية عارمة في جميع مدن الأندلس الواقعة تحت سيطرته في عام (٦٦٣ هـ/ ١٢٦٥ م)، واستولى الثائرون على عدد من المدن منها شريش، وطريانة، ولبلة، ووادي آنة، وشذونة، ولوشة وبقيرة، وقورية وغيرها، كما حاصر سكان إشبيلية مقر ألفونسو العاشر فيها، لكنه تمكَّن من الفرار وغادر المدينة.

---

(١) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ص ١١٢.

نتيجة استفحال الثورة استنجد ألفونسو العاشر بالبابا وطلب منه العمل على حثٍّ نصارى أوروبا بتقديم مساعدات عاجلة لإنقاذ قشتالة، كما استعان بالمنظمات الدينية وبخاصة فرسان قلعة رباح، واتصل ببعض المتمردين في غرناطة ومنهم بنو أشقيلولة[1] بمالقة ووادي آش، وشجَّعهم على القيام بالثورة على محمد بن الأحمر مع تقديم المساعدة لهم، فاستجابوا لندائه وشاركوه في حصار غرناطة بعد أن تمكن من إخماد الثورة في عام (٦٦٤ هـ/ ١٢٦٥ م).

وهكذا فوجىء محمد بن الأحمر بالثورة عليه انطلاقاً من مالقة في الوقت الذي يستعد فيه لصد هجمات القشتاليين المحاصِرين لغرناطة، وراح يترنح تحت ضربات هؤلاء في ظل إحجام المغاربة عن تقديم مساعدة عاجلة، فأدرك عندئذٍ عدم قدرته على صدِّ العدوان القشتالي وعدم تمكُّنه من إخماد ثورة بني أشقيلولة، فجنح إلى السلم وسعى إلى مهادنة ألفونسو العاشر، وبعث إليه ابنه وولي عهده محمد لعقد معاهدة أخرى، وذلك في (محرم ٦٦٤ هـ/ أيلول ١٢٦٥ م)[2].

وبموجب هذه المعاهدة، تنازل محمد بن الأحمر عن عدد كبير آخر من المدن والحصون الأندلسية الهامة، منها شريش والقليعة وغيرها، وتقع معظمها في غربي الأندلس.

وهكذا فقدت الأندلس مرة أخرى معظم ما تبقَّى من مدنها وحصونها في ظل ظروف مروعة من المحن، وباتت البلاد تشغل رقعة متواضعة هي مملكة غرناطة.

وتعرَّض أمير غرناطة لثورة أخرى قام بها أصهاره بنو أشقيلولة في عام (٦٦٥ هـ/ ١٢٦٧ م)، بعد فشله في إيجاد حلول ملائمة معهم بشأن التنازع على حاكمية مالقة، فحاصر المدينة مرتين كان آخرها عام (٦٦٩ هـ/ ١٢٧٠ ـ ١٢٧١ م)، إلا أنه لم ينل منها، كما واجه، في غضون ذلك، نشاطاً نصرانياً متجدداً حين هاجم ملك قشتالة الجزيرة الخضراء وعاث في أرباضها، الأمر الذي دفعه إلى:

ـ التفاهم مع بني أشقيلولة، وأقر صهره أبا محمد على حكم مالقة.

ـ التماس المساعدة من أمير المسلمين أبي يوسف المريني ملك المغرب.

ولكنه لم يعش ليرى نتيجة هذه الدعوة، إذ توفي بعد ذلك بقليل، في (١٥

(١) ينتمي بنو أشقيلولة إلى أسرة قوية من طبقة المولدين، وكانوا، في أول أمرهم، حلفاء محمد بن الأحمر ثم انقلبوا عليه بسبب التنازع على الحكم.

(٢) ابن أبي زرع: ص ١٢٧.

جمادى الآخرة ٦٧١ هـ/ ٧ كانون الثاني ١٢٧٣ م)، على أثر سقوطه عن جواده أثناء عودته من إحدى معاركه ضد الخارجين على حكمه[١].

اشتهر محمد بن الأحمر بالجرأة والإقدام والقدرة على التنظيم، إلى جانب البساطة والتواضع، وكان يُعرف بالشيخ ويُلقَّب بأمير المسلمين، وهو اللقب الذي غلب على حكام غرناطة فيما بعد، وبنى حصن الحمراء الشهير وجعله دار الملك، وكان يباشر الأمور بنفسه، ويعقد للناس مجالس عامة يومين في الأسبوع يستمع فيهما إلى ظلاماتهم، ويستقبل الوفود، وينشده الشعراء، وكان يجري في تصريف الأمور على أساس الشورى، فيعقد المجالس يحضرها الأعيان والقضاة وذوو الرأي[٢].

محمد بن محمد بن يوسف بن نصر: محمد الثاني، الفقيه: (٦٧١ ـ ٧٠١ هـ/ ١٢٧٣ ـ ١٣٠١ م)

التعريف بمحمد الثاني: هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، الملقب بالفقيه لعلمه وتقواه. خلف أباه في الحكم بعد وفاته، بعهد منه، وهو الذي وضع أسس الدولة النصرية، ورتَّب رسوم الملك، ووضع ألقاب خدمتها، ونظَّم دواوينها وجباياتها، فخلع عليها صفتها الملوكية[٣].

تمتع محمد الثاني بصفات حسنة من قوة العزم، وبُعد الهمة، وسعة الأفق، والبراعة السياسية، فقد حكم في زمن تعرَّضت فيه مملكة غرناطة لغزوات النصارى ولأطماع بني مرين المغاربة، فكان يتقلَّب في سياسته بين هاتين القوتين من أجل المحافظة على سيادته وسلامة أراضيه. وكان عالماً أديباً يقرض الشعر ويؤثر مجالسة العلماء والأدباء[٤]، وظهرت في عهده دولة بني مرين كقوة جديدة فتية في المغرب بعد انهيار دولة الموحدين، لذلك سنبدأ الكلام عنها.

قيام الدولة المرينية: كان زوال دولة الموحدين إيذاناً بانفراط عقد وحدة شمالي إفريقيا التي تمكَّن هؤلاء من تحقيقها بعد تضحيات جسيمة، فقامت الدولة الحفصية في إفريقيا، ودولة بني مرين في المغرب الأقصى، وتربَّص بنو عبد الواد أو بنو زيان في تلمسان بانتظار ما يمكن أن يقع من الفراغ السياسي في المناطق المتنازع عليها ليقيموا في ربوعها دولة لهم.

---

(١) ابن الخطيب: ص ٤٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ٤٤.

(٣) المصدر نفسه: ص ٥٠.

(٤) المصدر نفسه: ص ٥٠، ٥١.

والواقع أن الدولة الموحدية انتهت على أيدي بني مرين، فهم الذين دأبوا على وضع نهاية لما بقي من دولة محمد بن تومرت وعبد المؤمن بن علي، كما حلوا محلهم في ربوع الأندلس. فمن هم هؤلاء المرينيون، وكيف قامت دولتهم؟

ظهر في أحواز فاس، في عام (٦١٣ هـ/ ١٢١٦ م)، تحالف قبلي بربري يُعرف ببني مرين، وهم من بطون بني واسين من أفخاذ الزناتية، كانت مضاربهم في إقليم الزاب، ثم توغلوا في هضاب المغرب ونزلوا في وادي ملوية بين المغرب والصحراء، وأقاموا هناك حيناً من الدهر، وكانوا عوناً للموحدين في المنطقة، وأشتركوا معهم في معركة العقاب، وأصيب فيها شيخهم محيو بجرح مميت، فخلفه في الزعامة أكبر أبنائه، أبو محمد عبد الحق، فبدأ به عهد جديد في تاريخ المرينيين.

وكانت قوة الموحدين قد تراجعت، بعد معركة العقاب ووفاة خليفتهم محمد الناصر، وسرت إلى جسم دولتهم عوامل التفكك والانحلال، فشعر بنو مرين بهذه الظاهرة وقرَّروا الانسياح غرباً ودخول أراضي الدولة الموحدية، وظهرت طلائعهم أمام مدينة فاس. واشتبكوا مع الموحدين لأول مرة في عام (٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م)، عندما حاول المستنصر أن يقضي عليهم، وقُتل زعيمهم، أبو محمد عبد الحق في القتال، وخلفه في الإمارة ابنه أبو سعيد عثمان الذي تابع سياسة والده في الاصطدام بالموحدين للقضاء عليهم ووراثتهم، وأضحى بنو مرين في عهده قوة يُحسب حسابها في شمالي المغرب الأقصى حيث دفعت لهم المدن الأتاوات[١].

توفي أبو سعيد عثمان بن عبد الحق في عام (٦٣٧ هـ/ ١٢٣٩ م)، وخلفه أخوه محمد بن عبد الحق. وفي عام (٩٣٩ هـ/ ١٢٤١ م) قرَّر الخليفة الموحدي الرشيد القضاء عليهم، غير أنه تعرَّض للهزيمة، واستولى المرينيون على معسكره. وتوفي الرشيد في العام التالي، وخلفه أخوه أبو الحسن السعيد، وقرَّر هذا أن يضاعف الجهود للقضاء على هؤلاء البدو فاشتبك معهم في حرَّة أبي بياس، في مكان من أحواز فاس، في عام (٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤ م) وتغلَّب عليهم وقتل أميرهم محمد بن عبد الحق[٢].

لكن الأمور تبدَّلت عندما تولى أبو بكر بن عبد الحق، الملقَّب بأبي يحيى، زعامة الأسرة المرينية، وهو ابن ثالث لعبد الحق، ويُعدُّ هذا الرجل طرازاً فريداً من الحكام،

(١) ابن أبي زرع: ص ٩٣، ٩٤. ابن خلدون: جـ ٧ ص ١٧٠.

(٢) ابن خلدون: جـ ٧ ص ١٧١.

فاشتد في عهده ساعد بني مرين واستولوا على مكناسة في عام (٦٤٣ هـ/ ١٢٤٥ م) وفاس في عام (٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠ م)[١] مسدِّدين ضربة قاسية لدولة الموحدين، تُعدُّ نذيراً بانهيارهم النهائي.

والواقع أن الصراع اتخذ منحى قبلياً، ذلك أن انتصار الزناتيين من بني عبد الواد وبني مرين في المغربين الأوسط والأقصى، وعودة هذه النواحي إلى سيادة زناتة، يُعدُّ هزيمة لمصامدة البرانس.

واصل بنو مرين مسيرتهم الظافرة، فاستولوا على سجلماسة ودرعة في عام (٦٥٥ هـ/ ١٢٥٧ م)[٢]. ولما توفي أبو يحيى في السنة التالية خلفه أخوه أبو يوسف يعقوب ابن عبد الحق، واتخذ من مدينة فاس حاضرة له. ونشبت المعركة الحاسمة بينه وبين الموحدين في (٢ محرم ٦٦٨ هـ/ أول أيلول ١٢٦٩ م) في وادي تمغو بين فاس ومراكش حيث تعرض الخليفة الموحدي الواثق بالله، المعروف بأبي دبوس، للهزيمة وقُتل في المعركة مع عدد كبير من مقاتليه، واستولى أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق على معسكره وخزائنه، ثم سار إلى مراكش ودخلها في (٩ محرم/ ٨ أيلول)، وتسمَّى بأمير المسلمين[٣]. وبذلك انتهت دولة الموحدين في المغرب كما انتهت في الأندلس، بعد أن عمِّرت زهاء قرن وثلث قرن، وقامت مكانها دولة بني مرين التي سيطرت على أنحاء المغرب الأقصى كله، وراحت تتدخل في شؤون الأندلس.

محمد الثاني بين المرينيين والقشتاليين

نهج حكام بني الأحمر نهج أسلافهم حكام الأندلس، باستخدام قوة البربر في العدوة المغربية في لعبة التوازنات السياسية التي كانوا يقومون بها ضد إسبانيا النصرانية. فهم يتحالفون مع بني مرين كلما اشتد الضغط النصراني عليهم بوصفهم إخواناً لهم في الدين، ولكنهم كثيراً ما يفضّون هذا التحالف إذا رأوا منهم تدخلاً في شؤون بلادهم الداخلية. فقد أرسل محمد بن الأحمر رسالة إلى أبي يوسف يعقوب ابن عبد الحق يلتمس منه مساعدة عاجلة لصدِّ الخطر النصراني المتزايد على أراضيه، فجمع السلطان المريني أشياخ القبائل وتدارس معهم الموقف، وتقرر تقديم مساعدة فورية لمملكة غرناطة، غير أن الحرب مع تلمسان أخَّرت إرسال الحملة

---

(١) ابن خلدون: جـ ٧ ص ١٧٢، ١٧٣.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٧٧.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٨٢، ١٨٣.

مدة عامين، كان محمد بن الأحمر في أثنائها قد توفي وخلفه ابنه محمد الثاني. فأرسل هذا، عقب توليه الحكم، وفداً إلى المغرب يحمل رسالة استغاثة، كما أرسل بنو أشقيلولة رسالة مماثلة إلى السلطان المريني(١).

وافق أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق على طلب الأندلسيين ووعد محمد الثاني بالعبور إلى الأندلس، لكنه اشترط عليه أن يتنازل له عن بعض الثغور الساحلية لتنزل بها جنوده، فتنازل له عن رندة وطريف والجزيرة الخضراء. ويتكرر هنا ما حدث عند عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس قبل قرنين من الزمان(٢).

وبعد أن هيأت التطورات الداخلية في المغرب، من واقع وضع حد لأطماع بني عبد الواد في تلمسان، أضحى بإمكان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق التفرغ للجهاد في الأندلس، مع ما يضفي ذلك على دولته الناشئة شرعية هو بأمس الحاجة إليها، بفعل أن بني مرين قفزوا إلى السلطة بطريق الغلبة والقهر، وهي في حقيقة الأمر ليست شرعية(٣). فخرج من فاس في (٦٧٣ هـ/ ١٢٧٥ م) وأرسل ابنه أبا زيان كطليعة إلى الأندلس على رأس قوة قوامها خمسة آلاف مقاتل، فعبر البحر ونزل بثغر طريف في (شهر ذي الحجة/ حزيران) وتوغل في أراضي قشتالة حتى مدينة شريش، فعاث فيها وعاد إلى ثغر الجزيرة فنزل فيه وانتظر عبور والده(٤).

وكان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق قد انتهى من استعداداته، فعبر إلى الأندلس في (صفر ٦٧٤ هـ/ آب ١٢٧٥ م) على رأس جيش كثيف من البربر، ونزل في طريف، فهرع محمد الثاني إلى لقائه، وانضم إليه مع قواته، وكذلك فعل صهره محمد بن أشقيلولة الذي يبدو أنه أراد أن يستغل القوة المرينية لإزاحة محمد الثاني عن حاكمية غرناطة والحلول مكانه، الأمر الذي أثار العاهل الغرناطي. وحاول السلطان المريني التوفيق بين الرجلين، إلا أنه فشل، وأدَّى ذلك إلى ارتداد محمد الثاني إلى غرناطة وهو حذر(٥).

وسار السلطان المريني بجيشه إلى بسائط الفرنتيرة، فعاث فيها ثم توغل في أراضي قشتالة ووصل إلى حصن المقورة وأبدة على مقربة من شرقي قرطبة، فهبَّ

---

(١) ابن أبي زرع: ص ١٥٩ ـ ١٦٢.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٦٢، ١٦٣.
(٣) مؤنس: مجلد ٢ جـ ٣ ص ٢٤٠.
(٤) ابن أبي زرع: ص ١٦٤. ابن خلدون: جـ ٧ ص ١٩١، ١٩٢.
(٥) ابن خلدون: جـ ٧ ص ١٩٢.

القشتاليون للدفاع عن أراضيهم، وخرجوا في جيش ضخم بقيادة نونيو دي لارا، صهر الملك ألفونسو العاشر. وعندما علم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق بذلك، ارتد إلى أستجَّة، ونشبت المعركة بين الطرفين في ظاهرها يوم السبت (١٥ ربيع الأول ٦٧٤ هـ/ ٨ أيلول ١٢٧٥ م)، وأسفرت عن انتصار المسلمين، وتكبَّد الجيش القشتالي كثيراً من القتلى كان من بينهم نونيو دي لارا. وأرسل أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق برأسه إلى محمد الثاني، فأرسله هذا الأخير إلى ألفونسو العاشر ليتقرَّب منه، ويستعين به ضد السلطان المريني، وقد ندم على استدعائه إلى الأندلس. وأرسل السلطان رسالة إلى العدوة شرح فيها أحداث المعركة وما انتهت إليه من نصر باهر، فقُرِئت على المنابر[1].

وقارن المؤرخون المسلمون هذه المعركة بمعركتي الزلاقة والأرك، بفعل أن الانتصار ثبَّت أقدام المسلمين في الأندلس، بعد أن اهتزت، وأوقف اعتداءات النصارى، ولو إلى حين، كما كان أول انتصار باهر يحقِّقه المسلمون على النصارى منذ معركة العقاب.

مكث أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق بضعة أسابيع في الجزيرة الخضراء، أراح خلالها جنده ودوابه، ثم خَرج في (أول جمادى الأولى/ ٢٣ تشرين الأول) غازياً أراضي قشتالة، وتوغل فيها حتى وصل إلى إشبيلية، فدمَّر أحوازها وقطع أشجارها واستعرض قوته أمامها، وظل سكانها قابعين وراء أسوارها ينظرون إلى الجند المريني وهم يحرقون زرعهم ويدمرون معايشهم من دون أن يتمكَّنوا من فعل شيء.

وارتحل أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق بعد ذلك إلى مدينة شريش، حيث نالها ما نال إشبيلية من تدمير، خلال ثلاثة أيام من الحصار، حتى تضايق السكان، وخرج الرهبان متوسلين أن يكفّ عن قتالهم فقبل رجاءهم، فارتحل عنهم وعاد إلى الجزيرة الخضراء محملاً بالغنائم والسبي، فمكث في الجزيرة بضعة أسابيع وعاد إلى المغرب في (رجب ٦٧٤ هـ/ كانون الثاني ١٢٧٦ م)، وترك فيها قوة عسكرية قوامها ثلاثة آلاف مقاتل لمساعدة الأندلسيين على ردِّ اعتداءات النصارى[2].

والواقع أن غزوات أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ضد الأراضي القشتالية لم يكن لها من أثر على وضع الطرفين المتقاتلين، كما لم تغيِّر من وضع الأراضي، ولم

---

(١) ابن أبي زرع: ص ١٦٩، ١٧٠. ابن خلدون: جـ ٧ ص ١٩٣.

(٢) ابن أبي زرع: ص ١٥٩. Ocallaghan: P. 375.

تكن سوى مظاهرة عسكرية لعرض القوة، كما أن محمد الثاني ارتاب في نوايا السلطان المريني، وبخاصة بعد أن قرَّب إليه بني أشقيلولة وغيرهم من الثائرين على حكمه، ومثِّلت بذهنه مأساة ملوك الطوائف وغدر المرابطين بهم، فأرسل إليه يعاتبه على تصرفه في حقه ويلتمس منه، في الوقت نفسه، المساعدة على رد اعتداءات القشتاليين ضد غرناطة، وطلب منه الصفح والعفو عما بدر منه[1].

ردَّ أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق على رسالة محمد الثاني برسالة تتضمن استعداده للعودة إلى الأندلس. وفعلاً خرج من عاصمته وعبر المضيق، للمرة الثانية، في (٢٨ محرم ٦٧٦ هـ/ ٢٦ حزيران ١٢٧٧ م) ونزل في طريف ثم الجزيرة الخضراء، وسار بعدها إلى رندة واجتمع بها مع أبناء أشقيلولة ومن بينهم أبي إسحاق، صاحب آش، وأخيه أبي محمد صاحب مالقة. فرحَّب بهم، وطلبوا منه أن يشتركوا معه في الجهاد، فقبل طلبهم. وسار الجميع لغزو إشبيلية، فتوغلوا في أراضيها ووصلوا إلى أحوازها، فتصدَّى لهم ألفونسو العاشر. وجرى قتال بين الطرفين على ضفة الوادي الكبير، أسفر عن انتصار واضح للقوات الإسلامية المشتركة. وبات المسلمون ليلتهم في ساحة المدينة بعد أن أضرموا بها النار، ثم ارتحلوا في الصباح نحو الشرق، فاقتحموا حصن قنطلانة، وأرسلوا السرايا تغزو مختلف النواحي، ودخلوا حصن جليانة وحصن القليعة، وخرَّبوا حصوناً أخرى، ثم عادوا إلى الجزيرة الخضراء في (٢٨ ربيع الأول/ ٢٩ آب)[2].

وبعد استراحة قصيرة، خرج أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق ثانية إلى مدينة شريش، فحاصرها، ودمَّر أسوارها وأحرق زرعها. وأرسل ابنه يوسف فأغار على إشبيلية ثانية، وهاجم حصون روطة وشلونة وجليانة والقناطر، وعاد بالسبي إلى شريش، ثم عاد السلطان المريني إلى الجزيرة الخضراء وقد قرَّر مهاجمة قرطبة هذه المرة.

وحدث، في غضون ذلك، أن توفي أبو محمد بن أشقيلولة صاحب مالقة في (جمادى الأولى/ تشرين الأول)، وخلفه ابنه محمد، فسار على نهج أبيه في التقرب من المرينيين، فاجتمع بالسلطان المريني وتنازل له عن مدينته في خطوة موجهة ضد

---

(١) ابن أبي زرع: ص ١٦٣. ابن خلدون: جـ ٧ ص ١٩٨، ٣٦٧.

(٢) ابن أبي زرع: المصدر نفسه. ابن خلدون: جـ ٧ ص ١٩٦.

محمد الثاني وبني الأحمر، وقد زادت هذه الخطوة من مخاوف ملك غرناطة فحاول الاستيلاء على مالقة، ولكنه لم ينجح[(١)].

وخرج أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق في هذه الأثناء من الجزيرة الخضراء لغزو قرطبة، ودعا محمد الثاني إلى لقائه، فوافاه عند أرشذونة، من قرطبة، وهو حذر. وتبادل العاهلان العتاب والتعاطف من دون أن تطمئن نفساهما[(٢)]. والواقع أن التفاهم بينهما لم يكن سوى تدبير مرحلي، وكان سطحياً حيث استمر النزاع بينهما كالنار تحت الرماد. وعزَّ على محمد الثاني دخول مالقة تحت حكم السلطان المريني وهو الذي تطلع إليها بعد وفاة صاحبها أبي محمد، زوج أخته، فزادت نار الفتنة اشتعالاً بينهما، وارتاب محمد الثاني بنوايا السلطان وتخوَّف من طموحاته في الأندلس.

لم يجرؤ الملك الغرناطي على مواجهة بني مرين بما لديه من القوة لإخراجهم من مالقة، وكرد فعل على سيطرة هؤلاء على المدينة لجأ إلى الحيلة والدهاء، فاتصل بواليها عمر بن يحيى المحلى وأقنعه بعدم جدوى المقاومة وفاوضه على تسليمها إليه مقابل خمسين ألف دينار وتعويضه بالمنكَّب وشلوبانية، وهما ثغران صغيران يقعان جنوبي غرناطة، ودخلها محمد الثاني في (١٥ رمضان ٦٧٧ هـ/ ٣٠ كانون الثاني ١٢٧٩ م)[(٣)].

ولم يكتفِ محمد الثاني بذلك، بل ارتمى في أحضان ألفونسو العاشر، ملك قشتالة، وارتبط معه بمعاهدة ولاء لدفع بني مرين عن مملكة غرناطة، ودعا الأمير يغمراسن بن زيان أمير تلمسان وخصم السلطان المريني إلى الدخول في هذا الحلف[(٤)].

جاء ردُّ أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق سريعاً ضد هذا التحالف الموجَّه ضده، وبدأ في الاستعداد للعودة إلى الأندلس. وعندما علم ألفونسو العاشر بذلك أرسل أسطوله البحري، فرابط في شرقي المضيق لمنع وصول الإمدادات من المغرب إلى الأندلس، كما أنزل جنوده في الجزيرة الخضراء[(٥)]. وأرسل السلطان المريني ابنه أبا يعقوب يوسف إلى الأندلس على رأس أسطول ضخم فاصطدم بالأسطول القشتالي

---

(١) ابن خلدون: جـ ٧ ص ١٩٧، ١٩٨، ٢٠١.
(٢) ابن خلدون: جـ ٧ ص ١٩٨. ابن الخطيب: ص ٥٧.
(٣) المصدران نفساهما: ص ٢٠١. ص ٥٨.
(٤) المصدران نفساهما: ص ٢٠٠، ٢٠١. ص ٥٨. (٥) ابن خلدون: جـ ٧ ص ٢٠٣.

وتغلَّب عليه، وأنزل جنوده في الجزيرة الخضراء واستعادها، بعد أن غادرها الجنود القشتاليون، من دون قتال، ورأى أن يعزل محمد الثاني تمهيداً للقضاء عليه، من خلال التفاهم مع ألفونسو العاشر وإخراجه من الحلف، فرفض والده هذا التوجه، عندئذٍ هاجم ثغر مربلَّة، وهو من أملاك محمد الثاني، إلا أنه امتنع عليه[(١)].

انتهز ألفونسو العاشر تلك الفرصة فهاجم غرناطة في عام (٦٧٩ هـ/ ١٢٨٠ م)، ناقضاً بذلك الحلف المعقود مع محمد الثاني، بفعل أن مصلحته تقضي بذلك، فتصدى له الزعيم الغرناطي وردَّه على أعقابه.

وتعرض المجتمع القشتالي، في غضون ذلك، لحرب أهلية، فقد ثار النبلاء ضد ملكهم في عام (٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م) بفعل محاولته القضاء على امتيازاتهم، كما ثار عليه ابنه شانجة طمعاً في انتزاع العرش منه. ويبدو أن العلاقات العلمية والثقافية التي أقامها الملك القشتالي، وهو الملقب بالحكيم، مع علماء الأندلس، أثارت السخط عليه، وشكَّلت سبباً آخر للثورة عليه.

وخسر ألفونسو العاشر عرشه في هذا الصراع الذي دام عامين، والتجأ إلى أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق طالباً منه المساعدة، فاستجاب لطلبه، ونهض لاغتنام تلك الفرصة لمواصلة الجهاد وتصفية الحساب مع محمد الثاني بشأن السيطرة على مالقة، فعبر إلى الأندلس للمرة الثالثة في (ربيع الآخر ٦٨١ هـ/ تموز ١٢٨٢ م)، فهرع الملك القشتالي للقائه بأحواز الصخرة من كورة تاكرنا قرب رندة وقدَّم له تاجه رهناً لمساعدته[(٢)]، وهاجما معاً معاقل شانجة في قرطبة وإشبيلية، ووصلت القوات المرينية في تقدمها حتى حصن مجريط، ولم يجن السلطان من تلك الغزوة سوى الغنائم وتاج قشتالة. وتوفي ألفونسو العاشر مغموماً في عام (٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م)، فكان لوفاته وقع عميق في كل من غرناطة والمغرب، وأرسل كلٌّ من محمد الثاني وأبو يوسف يعقوب بن عبد الحق بتعازيه إلى البلاط القشتالي، على الرغم من أن ملك غرناطة، كان يعطف على شانجة الرابع الذي خلف والده.

التفت أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق بعد ذلك إلى انتزاع مالقة من يد محمد الثاني وتأديبه، فسار إليها على رأس جيش كبير من الجزيرة الخضراء، في عام (٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م)، فأخضع الحصون التابعة لها. وجرت حول المدينة حرب شديدة

---

(١) ابن خلدون: جـ ٧ ص ٢١٣.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٠٥.

«بلغت فيها حملات الجيش المريني إلى أن صادمت الأسوار وراء رؤوس الخيل..»[1] واستمر في حصارها نحو خمسين يوماً[2]. ولم يستطع شانجة الرابع مساعدة حليفه الغرناطي، لذلك لجأ محمد الثاني إلى أسلوب التفاهم مع السلطان المريني، وكان هذا قد خشي عاقبة التحالفات المتداخلة على أوضاع المسلمين في الأندلس، فمال إلى التفاهم هو الآخر مع محمد الثاني.

والواقع أنه انتاب الطرفين شعور متبادل لجمع كلمة المسلمين وتوحيد الجهود ضد العدو المشترك ومواصلة الجهاد معاً، لكن الأمر انتهى عند حدِّ الاجتماع من دون التوصل إلى نتيجة إيجابية، فرجع محمد الثاني إلى غرناطة، واستأنف أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الغزو، فغزا طليطلة وقرطبة وبياسة وأبدة قبل أن يعود إلى الجزيرة الخضراء ومنها إلى المغرب[3].

والحقيقة أن محمداً الثاني كان يشهد، بعين القلق، توالي عبور الجيوش البربرية إلى الأندلس والاستيلاء على معاقلها وثغورها. وكانت مأساة ملوك الطوائف مع المرابطين ماثلة أمامه، على أن وفاة ألفونسو العاشر وانتهاء الحرب الأهلية في قشتالة خفَّف من حدَّة هذا التوتر بين المملكتين الغرناطية القشتالية من جهة، وزاد من حدة العداء بين قشتالة والمرينيين من جهة أخرى. فقد أرسل أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق، بعد وفاة ألفونسو العاشر، وفداً إلى قشتالة للاستفسار عن سياسة الملك الجديد شانجة الرابع تجاه المسلمين، فردَّ الملك القشتالي رداً قاسياً ومهيناً، ولم يرضَ السلطان المريني عن هذا الجواب وقرَّر غزوه.

وفي (٥ صفر ٦٨٤ هـ/ ١٢ نيسان ١٢٨٥ م) عبر أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق إلى الأندلس للمرة الرابعة، وقام باجتياح واسع لأراضي قشتالة، فغزا مدينة شريش، وأرسل ابنه أبا يعقوب يوسف إلى أحواز إشبيلية، فعاث فيها، ثم زحف السلطان على قرمونة والوادي الكبير، وخرَّب بسائط إشبيلية ولبلة وأستجَّة والفرنتيرة. وسُرَّ محمد الثاني لهذا الاجتياح الواسع لأراضي قشتالة، وأرسل قوة عسكرية اشتركت في العمليات على الأرض. وتدخل الأسطول المريني في الحرب حيث طارد الأسطول القشتالي في مياه المضيق[4].

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام جـ ٢ ص ٢٥٣.
(٢) ابن خلدون: جـ ٧ ص ٢٠٥، ٢٠٦.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢٠٦، ٢٠٧.

وخشي شانجة الرابع من تفاقم الوضع على هذا الشكل الذي يهدِّد مملكته ورأى عُقم المقاومة، فجنح إلى السلم، وأرسل وفداً من رجال الدين إلى السلطان يطلب الصلح على الشروط التي يراها، فاستجاب السلطان إلى طلبه وتم الاتفاق على البنود التالية:

- تتوقف قشتالة عن القيام باعتداءات على أراضي المسلمين ومرافقهم.
- تتوقف قشتالة عن سياسة الدسِّ بين الأمراء المسلمين.
- تُرفع الضريبة عن التجار المسلمين عند مرور تجارتهم في الأراضي القشتالية[1].

وتفاهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق أيضاً مع محمد الثاني ووعده بعدم التدخل في شؤونه الداخلية، وقبل محمد الثاني من جانبه باستخدام الموظفين من بني مرين في أجهزة الدولة الإدارية والعسكرية، ووافق على أن ترابط قوة مرينية في غرناطة بصورة دائمة، تسمى جيش الغزاة، تكون مستقلة عن الجيش الغرناطي، ويقودها قائد يسمى شيخ الغزاة، وتولى بنو العلاء مشيخة الغزاة، وهي من المناصب المستحدثة[2].

وبعد أن رتَّب أوضاع الأندلس، عاد أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق إلى الجزيرة الخضراء ليستجم، ثم يعود إلى المغرب، ولكن أدركه المرض هناك وتوفي في (محرم ٦٨٥ هـ/ آذار ١٢٨٦ م)[3]، بعد حياة حافلة بالجهاد في المغرب والأندلس، وكان من طراز يوسف بن تاشفين وأبي يوسف يعقوب الموحدي.

خلف أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق ابنه أبو يعقوب يوسف، وقد واجه في مستهل حياته السياسية بعض المتاعب من جانب أسرته، كما ثار عليه بنو وطاس، وهم فرع من بني مرين[4]، فرأى أن يبتعد عن الاهتمام بشؤون الأندلس، مؤقتاً على الأقل، مكتفياً بما كان يقوم به غزاة بني مرين من أعمال عسكرية هناك. واستمرت علاقته بمحمد الثاني جيدة، وازدادت وثوقاً عندما تنازل له عن وادي آش والأراضي التي كانت تحت حكم بني مرين في الأندلس، باستثناء الجزيرة الخضراء وطريف ورندة، وأرسل إليه شانجة الرابع ملك قشتالة وفداً جدَّد اتفاق الصلح الذي عقده مع والده[5].

---

(١) ابن خلدون: جـ ٧ ص ٢٠٩.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٠٩، ٢١٠.
(٣) المصدر نفسه ص ٢١٠.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢١١، ٢١٢.
(٥) المصدر نفسه: ص ٢١٢، ٢١٣. ابن الخطيب: جـ ٢ ص ٢٥٤.

وفي عام (٦٩٠ هـ/ ١٢٩١ م) نقض شانجة الرابع معاهدة الصلح في ظروف غامضة وهاجم ثغور مملكة غرناطة، فاضطر أبو يعقوب يوسف أن يتدخل في شؤون الأندلس، فأمر قائده على الثغور علي بن يوسف بن يرتاجن أن يغزو شريش، وعزم على العبور إليها بنفسه، وأرسل الجند، وتوالت بعوث المجاهدين. وأرسل شانجة الرابع أسطوله إلى مياه المضيق لقطع الطريق البحري بين العدوتين ويحول من دون إرسال الإمدادات إلى الأندلس، فأرسل السلطان المريني أسطوله واشتبك مع الأسطول القشتالي، في (شعبان ٦٩٠ هـ/ آب ١٢٩١ م)، غير أنه تعرَّض للهزيمة، فأرسل أسطولاً آخر، وكان الأسطول القشتالي قد تعرَّض للإنهاك بفعل المعركة البحرية، فآثر الانسحاب من مياه المضيق(١).

وعبر أبو يعقوب يوسف إلى الأندلس في (رمضان/ أيلول)، فغزا شريش، وتوغل في زحفه حتى أحواز إشبيلية، فعاث فيها، وعاد إلى الجزيرة الخضراء، ومنها إلى المغرب.

توجَّس شانجة الرابع خيفة من مشروعات السلطان المريني، وحتى يُضعف موقفه سعى إلى التفاهم مع محمد الثاني، فَحذَّره من نيات المغاربة، واتفق معه على استعادة ثغر طريف على أن يكون من نصيب مملكة غرناطة. وتم تنفيذ الخطة المتفق عليها في (رجب ٦٩١ هـ/ حزيران ١٢٩٢ م)، فأرسل الملك القشتالي أسطوله إلى مياه المضيق ليحاصر الثغر من البحر ويحول من دون وصول الإمدادات إليه، وعسكر محمد الثاني بمالقة ليكون قريباً من القشتاليين، وراح يمدهم بالإمداد والمؤن. وصمدت حامية طريف مدة أربعة أشهر، ثم استسلمت للملك القشتالي، ولما طالبه محمد الثاني بها امتنع عليه، واحتفظ بها لنفسه، كما ضمَّ الحصون التي كان محمد الثاني قد أعطاها له مقابل طريف، فأدرك محمد الثاني عندئذٍ فداحة ما ارتكبه من خطأ حين وثق بشانجة الرابع وعادى أبا يعقوب يوسف، فعبر البحر إلى المغرب في (٦٩٢ هـ/ ١٢٩٣ م)، واجتمع به في طنجة فاعتذر له وتنازل له عن الجزيرة ورندة وعدد من الحصون التي كانت في السابق تحت حكم السلطان المغربي. وعاد محمد الثاني مسروراً، إلى بلاده، وأرسل معه السلطان قوة عسكرية لغزو طريف بقيادة وزيره عمر ابن السعود، فحاصرها حيناً، ولكنه فشل في اقتحامها(٢).

---

(١) ابن خلدون: جـ ٧ ص ٢١٥. Ladero, Quesada M.A: Granada Historia de un pais Islamico. P. 262. O'Callaghan: P. 397.

(٢) ابن خلدون: جـ ٧ ص ٢١٦، ٢١٧. O'callaghan: P. 397.

وحدث في عام (٦٩٥ هـ/ ١٢٩٦ م) أن توفي شانجة الرابع، وخلفه ابنه فرديناند الرابع، وكان طفلاً لا يتجاوز السادسة من عمره، فتولت أمه الوصاية عليه، فاستغل محمد الثاني هذا الوضع الانتقالي، وغزا جيان وحاصر قيجاطة وفتحها، كما فتح القبذاق الواقعة جنوب غربي جيان، وشحنهما بالمسلمين بهدف الاستقرار. وحتى يقوِّي موقفه عقد حلفاً مع چايم الثاني، ملك أراغون ضد قشتالة، وذلك في (آخر ربيع الآخر ٧٠١ هـ/ أول كانون الثاني ١٣٠٢ م)، ولـم يمضِ على عقده بضعة أشهر حتى توفي محمد الثاني ليلة الأحد (٨ شعبان/ ٨ نيسان)، بعد أن حكم أكثر من ثلاثين عاماً، قضاها في تثبيت دعائم مملكة غرناطة[١].

محمد بن محمد الثاني: محمد الثالث: (٧٠١ ـ ٧٠٨ هـ/ ١٣٠٢ ـ ١٣٠٩ م)

خلف محمداً الثاني ابنه أبو عبد الله محمد، الملقب بالمخلوع، وكان ضريراً، ولكنه كان داهية، عالماً، شاعراً، يؤثر مجالس العلماء والأدباء، محباً للإصلاح، ويُذكر من بين منشآته المسجد الأعظم بالحمراء. وعلى الرغم من هذه الخصال، فقد غلب عليه كاتبه ووزيره أبو عبد الله محمد بن الحكيم اللخمي، فاستبدَّ بالأمر من دونه وحجر عليه[٢].

وشهد عهد محمد الثالث، على صعيد العلاقات الخارجية، تقلبات سريعة. والواقع أنه حاول، في بداية عهده، أن يعمل على المحافظة على العلاقات الجيدة مع بني مرين، فأرسل وزير والده عزيز الداني ووزيره محمد بن الحكيم اللخمي إلى أبي يعقوب يوسف ليجدِّدا عهد الصداقة، وطلب منهما السلطان المريني إمداده ببعض الخبراء الأندلسيين في حصار الحصون، فأرسل إليه محمد الثالث جماعة منهم، لمساعدته في حصار تلمسان.

ولكن هذه العلاقة الجيدة انقلبت فجأة إلى علاقة عدائية، فقد بدا لمحمد الثالث أن يتحالف مع ملك قشتالة، وانتهز فرصة حصول اضطرابات في المغرب ليتوسع على حساب المرينيين، فهاجم سبتة واستولى عليها في (شوال ٧٠٥ هـ/ نيسان ١٣٠٦م)، الأمر الذي أغضب السلطان المريني، فردَّ القوة الأندلسية إلى غرناطة، وأرسل جيشاً بقيادة ابنه أبي سالم لاستعادتها، لكنه فشل في ذلك[٣]، عندئذٍ قرَّر أن

(١) ابن خلدون: جـ ٧ ص ٢٢٨. ابن الخطيب: اللمحة البدرية ص ٥٨.

(٢) ابن الخطيب: ص ٦٠، ٦١، ٦٣.

(٣) المصدر نفسه: ص ٦٦. ابن خلدون: جـ ٧ ص ٢٢٨، ٢٢٩.

يخرج بنفسه لاستعادتها، لكن حدث، أثناء تجهُّزه، أن اغتاله كبير الخصيان في مؤامرة دبَّرها الخصيان للتخلص منه خشية أن يبطش بهم، فتوفي في (ذي القعدة ٧٠٦ هـ/ أيار ١٣٠٧ م)، وأعقب موته نشوب حرب أهلية حول الحكم بين ولديه أبي ثابت وأبي سالم، هُزم فيها الثاني وقُتل، واستقر أبو ثابت على العرش، ولكنه لم يعمر طويلاً، فقد توفي في (صفر ٧٠٨ هـ/ تموز ١٣٠٨ م) وخلفه أخوه سليمان بن الربيع[١].

ووقعت في الأندلس آنذاك أحداث هامة، ذلك أن عوامل الثورة على حكم محمد الثالث كانت تضطرم في البلاد بفعل اشتداد وطأة وزيره ابن الحكيم على الناس. وما لبث أن انفجر الوضع، وتزعَّم نصر، أخو محمد الثالث، الثورة عليه، وسانده أعيان الدولة الذين سئموا نظام القهر الذي فرضه الملك ووزيره. وقتل الثائرون الوزير واعتقلوا محمد الثالث، ذلك في (١ شوال ٧٠٨ هـ/ ١٤ آذار ١٣٠٩ م) وأجبروه على التنازل عن الحكم ونفوه إلى حصن المنكَّب حيث قضى خمسة أعوام في الأسر، ثم أعيد مريضاً إلى غرناطة وتوفي فيها في عام (٧١٣ هـ/ ١٣١٣ م)[٢].

نصر بن محمد الثاني: (٧٠٨ ـ ٧١٣ هـ/ ١٣٠٩ ـ ١٣١٣ م)

تولى نصر الحكم بعد خلع أخيه محمد الثالث. اشتهر بالعلم، ولكنه فشل كسياسي، وتعثَّرت إدارة الدولة في عهده، وسرعان ما سخط الناس عليه كما سخطوا على أخيه من قبل، فاضطربت الأوضاع وتوالت الأزمات. وكانت أحداث سبتة نذيراً بتفاقم التوتر بين غرناطة وفاس. والمعروف أن سكان سبتة سئموا حكم الأندلسيين المتعسف، فثاروا ضده، وساندهم السلطان أبو الربيع سليمان بن يعقوب بقوة عسكرية بقيادة تاشفين بن يعقوب، فطردوا الحامية الأندلسية واستعادوا المدينة وذلك في (صفر ٧٠٩ هـ/ تموز ١٣٠٩ م)[٣].

ومن جهة أخرى، ساءت العلاقة بين غرناطة وبين كل من قشتالة وأراغون. فقد اغترَّ نصر بقوته وأغار على منطقة بلنسية ناقضاً بذلك حلف غرناطة التقليدي مع أراغون، وحينئذٍ عقد چايم الثاني حلفاً مع فرديناند الرابع ملك قشتالة واتفقا على مهاجمة غرناطة، فغزا الأول المرية، إلا أنه فشل باقتحامها وعاد أدراجه، وهاجم

---

(١) ابن خلدون: جـ ٧ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٦.

(٢) ابن الخطيب: ص ٦٧، ٦٨.

(٣) ابن خلدون: جـ ٧ ص ٢٣٩، ٢٤٠. Ladero: P. 117.

الثاني حصن جبل طارق وحاصره من البر والبحر حتى أضنى حاميته، فاضطرت إلى الاستسلام، وذلك في (شوال ٧٠٩ هـ/ آذار ١٣١٠ م)[١].

يُعد سقوط حصن جبل طارق كارثة بالغة الخطورة حلت بالأندلس منذ سقوط مدنها الكبرى، فاازداد تخوُّف الأندلسيين من المستقبل. فقد كان هذا الحصن باب الأندلس من الجنوب، وصلة الوصل المباشر بين المملكتين الغرناطية والمرينية.

وأدرك نصر فداحة الخطأ الذي ارتكبه بمعاداة بني مرين، وهذه عادة بني نصر على مراحل تاريخهم، فأرسل إلى السلطان سليمان أبي الربيع يُبدي أسفه ويطلب منه الصفح والصلح، وتنازل له عن الجزيرة الخضراء ورندة وحصونها ترضية له وترغيباً في مساعدته، وتزوَّج من أُخته، توثيقاً لروابط المودة، فاستجاب السلطان لسياسة التقارب[٢].

غير أن هذا التحسُّن في العلاقة بين الأندلس والمغرب لم يُشجِّع المرينيين على مساندة الأندلسيين كما في السابق، ذلك أن الجيوش المغربية لم تعد تعبر إلى الأندلس بكثرة وذلك بفعل عاملين:

الأول: إن أوضاع المغرب لم تعد تسمح بذلك.

الثاني: سيطرة القشتاليين على جبل طارق الذي يُعدُّ بوابة الدخول إلى الأندلس.

ووجد نصر نفسه وحيداً يواجه قوة القشتاليين المتنامية.

ونتيجة لهذه المعطيات السلبية، رأى نصر أن يتقرَّب من فرديناند الرابع تجنباً لخطره الذي يهدِّده، وتعهد له بدفع الجزية، وكان ذلك مما زاد في سوء إدارته وفي سخط الغرناطيين عليه.

ولم تلبث بذور الثورة أن ظهرت في الجنوب حين أعلن أبو سعيد فرج بن إسماعيل النصري صاحب مالقة، التمرد على حكم نصر واستولى على المرية وبلّش وغيرهما من مدن الجنوب، ثم سار في عام (٧١٣ هـ/ ١٣١٣ م) على رأس قواته باتجاه غرناطة، فاصطدم بقوات نصر وتغلَّب عليها، وأجبر نصراً على التنازل عن الحكم، ونفاه إلى وادي آش، وتوفي في عام (٧٢٢ هـ/ ١٣٢٢ م)[٣].

(١) ابن خلدون: جـ ٧ ص ٢٤٩. ابن الخطيب: ص ٧٥.

(٢) ابن خلدون: المصدر نفسه.

(٣) ابن الخطيب: ص ٧٥، ٧٦.

إسماعيل بن فرج: إسماعيل الأول: (٧١٣ ـ ٧٢٥ هـ/ ١٣١٣ ـ ١٣٢٥ م)

خلف أبو الوليد إسماعيل نصراً في حكم غرناطة، وهو حفيد لإسماعيل أخي محمد بن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة. امتاز عهده بتوطيد الملك، واستقرار الأمور، وإحياء الجهاد[١]. وغزا القشتاليون في أوائل عهده بسائط غرناطة، واستولوا على عدد من الحصون. ذلك أنه حدث في عام (٧١٢ هـ/ ١٣١٢ م) أن توفي فرديناند الرابع ملك قشتالة وخلفه ابنه الرضيع ألفونسو الحادي عشر، فتولى الوصاية عليه زعيما النبلاء بيدرو وخوان. وعلى الرغم مما كان يسود المملكة من اضطرابات بفعل المرحلة الانتقالية؛ فقد قرَّر الوصيان المضي في غزو أراضي المسلمين، وهزما هؤلاء في وادي فرتونة في عام (٧١٦ هـ/ ١٣١٦ م)، واستأنفا غزواتهما بعد مرور عامين في محاولة للاستيلاء على الجزيرة الخضراء وقطع طريق الإمداد إلى الأندلس من عدوه المغرب، بشكل نهائي، لكن إسماعيل أسرع بتحصين المدينة وأرسل أسطوله لحمايتها من جهة البحر، عندئذٍ عدل القشتاليون عن مهاجمتها واستعاضوا عنها بمهاجمة غرناطة نفسها، فتصدَّى لهم المسلمون في هضبة إلبيرة وتغلَّبوا عليهم، وذلك في (ربيع الآخر ٧١٨ هـ/ حزيران ١٣١٨ م)، وكبَّدوهم خسائر فادحة في الأرواح كان من بينهم الوصيان بيدرو وخوان[٢].

الواقع أن وضع قشتالة كان، في أوائل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، سيئاً، فقد نضبت مواردها بسبب القحط وإسراف رجال البلاط وجشع رجال الدين واختلاس الموظفين، ومناوأة اليهود الذين يديرون الشؤون المالية. وكان الطابع الصليبي للحروب النصرانية آنذاك، يوطِّد، نفوذ جماعات الفرسان الدينية، العديدة والمنتشرة في جميع أنحاء إسبانيا، والتي كانت توجِّه الحرب والسياسة[٣].

تعاقبت غزوات المسلمين ضد أراضي قشتالة بعد معركة إلبيرة. ففي عام (٧٢٤ هـ/ ١٣٢٤ م) حاصر إسماعيل الأول حصن أشكر وضربه بالحديد والنار من آلات قاذفة، حتى استسلم، وهاجم مدينة مرتش في (رجب ٧٢٥ هـ/ حزيران ١٣٢٥ م) وفتحها عنوة[٤]، وعاد إلى غرناطة منتصراً، فارتفعت مكانته وبدا كأنه قادر على بثِّ القوة

(١) ابن الخطيب: ص ٧٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ٨٤، ٨٥. ابن خلدون: جـ ٧ ص ٢٤٩، ٢٥٠.

(٣) عنان: العصر الرابع، نهاية الأندلس ص ١٢٠. (٤) ابن الخطيب: ص ٨٥، ٨٦.

والحياة في كيان مملكته الصغيرة وتمكينها من استعادة بعض ما ضاع من الأندلس، بيد أنه لم يمضِ على عودته ثلاثة أيام حتى قُتل غيلة بباب قصره يوم الإثنين (٢٦ رجب/ ٨ تموز) نتيجة مؤامرة حاكها ابن عمه محمد بن إسماعيل صاحب الجزيرة الخضراء، الذي حقد عليه لأنه انتزع منه جارية حسناء، وقتله بيده وهو بين وزرائه وأعيانه[١].

محمد بن إسماعيل الأول: محمد الرابع: (٧٢٥ ـ ٧٣٣ هـ/ ١٣٢٥ ـ ١٣٣٣ م)

خلف إسماعيل الأول ابنه محمد الرابع، وكان في الحادية عشرة من عمره، فكفله وزير والده أبو الحسن بن مسعود ولكن لبضعة أشهر فقط بفعل وفاته، وخلفه في الوزارة والكفالة وكيل والده محمد بن أحمد بن المحروق، فاستبدَّ بالأمر من دونه، فضاق به الأمير الصغير وتخلَّص منه في (محرم ٧٢٩ هـ/ تشرين الثاني ١٣٢٨ م)، فخلفه في الوزارة الحاجب أبو النعيم رضوان النصري، وهو من موالي بني نصر وأصله من أسرى القشتاليين[٢].

كانت فاتحة أعماله السياسية، على صعيد العلاقات الخارجية، تجديده لمعاهدة الصداقة مع مملكة أراغون، وكان والده قد جدَّدها في عام (٧٢١ هـ/ ١٣٢١ م) لمدة خمسة أعوام وانتهت الآن، أما علاقته مع قشتالة فكانت سيئة. فقد تبادل الغزوات مع القشتاليين، ففتح مدينتي قبرة وباجة[٣]. أما على الصعيد الداخلي فقد حدث خلاف بين وزيره المتغلب على أمره محمد بن أحمد بن المحروق وبين شيخ الغزاة عثمان بن أبي العلاء في عام (٧٢٧ هـ/ ١٣٢٧ م)، فاعتصم هذا بالمرية وبعض الثغور الجنوبية واصطدم مع السلطة المركزية في عدة معارك كانت سجالاً، وانتهز ملك قشتالة هذه الفرصة فاستولى على حصن إطابة وهدَّد المرية[٤].

ولما تفاقمت غزوات القشتاليين، قرَّر محمد الرابع التفاهم مع مشيخة الغزاة وتجديد التحالف مع السلطان المريني أبي الحسن علي بن عثمان، فعقد هدنة مع المشيخة على أن يستقر الغزاة بوادي آش تحت طاعته، وتنازل للسلطان المريني عن الجزيرة الخضراء ليتخذها قاعدة تجمع وانطلاق، كما تنازل له عن رندة ومربلَّة. واشترك العاهلان في استعادة جبل طارق من أيدي القشتاليين في عام (٧٣٣ هـ/ ١٣٣٣ م)، وأدرك ألفونسو الحادي عشر أن لا أمل له في كسب المعركة فجنح إلى

---

(١) ابن الخطيب: ص ٨٧.
(٢) المصدر نفسه: ص ٩٤.
(٣) المصدر نفسه: ص ٩٢، ٩٣.
(٤) المصدر نفسه: ص ٩٣.

السلم، وانتهى الأمر بعقد هدنة بين العاهلين الغرناطي والقشتالي[(١)].

وأثناء عودة محمد الرابع إلى غرناطة، بعد فتح حصن جبل طارق، اغتاله في الطريق جماعة من المتآمرين بتحريض بني العلاء، يوم الأربعاء في (١٣ ذي الحجة/ ٢٥ آب)، والمعروف أن رجال هذه الأسرة قد سيطروا على أجهزة الدولة وأخذوا ينازعون أمراء غرناطة، الأمر الذي ضايق محمد الرابع، فقرَّر القضاء عليهم، ولما شعر هؤلاء بنيته التخلص منهم تآمروا عليه واغتالوه[(٢)].

أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل الأول: يوسف الأول: (٧٣٣ ـ ٧٥٥ هـ/ ١٣٣٣ ـ ١٣٥٤ م)

معركة طريف: خلف محمد الرابع أخوه أبو الحجاج يوسف، وكان فتى في السادسة عشرة من عمره، وهو من أقدر ملوك بني نصر وأوفرهم مواهب. فإلى جانب جرأته وشجاعته وبراعته السياسية، كان أديباً وفناناً ورجل إنشاء وتعمير. فهو الذي أضاف إلى قصر الحمراء أعظم منشآته وأروعها، واسمه منقوش على جدرانها ونوافذها عشرات المرات؛ من قاعة المشور إلى بهو السباع[(٣)].

كان أول عمل قام به هو أنه تتبَّع أسرة بني العلاء، قتلة أخيه، فجرَّدهم من وظائفهم وقبض على شيوخهم ثم نفاهم إلى تونس، فأنهى بذلك رئاستهم في الأندلس بعد أن طالت زهاء نصف قرن، واستردَّ منهم وادي آش، وعهد مشيخة الغزاة إلى زعيم آخر من قرابة بني مرين، هو يحيى بن عمر بن رحُّو، فكان أفضل من سلفه وأصدق[(٤)].

وشهد حكم يوسف الأول ذروة الصراع بين المسلمين والنصارى في الأندلس، ذلك أن ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة عندما بلغ سن الرشد تطلع إلى أن يقتطع جزءاً من أراضي مملكة غرناطة الصغيرة، فكثرت غزواته لأراضيها الأمر الذي أثار مخاوف يوسف الأول الذي كانت وسائله الدفاعية ضعيفة، وقد دفعه ذلك إلى التماس المساعدة من أبي الحسن علي بن عثمان، سلطان المغرب، فسارع هذا بإرسال ولده، أبي مالك، مع قوات مرينية، فاخترق سهول الجزيرة الخضراء معلناً الجهاد[(٥)].

(١) ابن الخطيب: ص ٩٣، ٩٤. ابن خلدون: جـ ٧ ص ٢٥٥.

(٢) ابن الخطيب: ص ٩٧، ٩٨.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٠٢.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٠٥.

(٥) ابن خلدون: جـ ٧ ص ٢٦٠، ٢٦١.

توجست الممالك النصرانية بعامة من قدوم القوات المغربية وقرَّرت التصدي لها، فأرسلت أسطولاً مشتركاً من سفن قشتالة وأراغون والبرتغال إلى مياه المضيق، بقيادة أمير البحر الدون جوفري تينوريو لمنع عبور القوات المغربية. وبارك البابا هذه الحملة، لكن أبا مالك تمكَّن مع قواته من اجتياز المضيق، وهزم القوات الصليبية المتحالفة في معركة المضيق، أو معركة شريش، وقتل القائد القشتالي أمير البحر الدون جوفري، وذلك في عام (٧٤٠ هـ/ ١٣٣٩ م)، ونزل في الجزيرة الخضراء. وشجَّعه هذا الانتصار على التوغل في الأراضي القشتالية، فاجتاح سهل بجانة من أرض المرية[١].

وعندما علمت الدوائر النصرانية الحاكمة بذلك جهزت الجيوش للتصدي للقوات المرينية ووقف زحف أبي مالك، فنصحه بعض قادته بالدخول إلى أرض الإسلام والاحتماء بحصونها إلا أنه رفض ذلك، وأصرَّ على المواجهة المسلحة، فحاصرته الجيوش النصرانية على حين غفلة وأحاطت بمعسكره واقتحمته، فأُسقط في يده، وتعرَّض لهزيمة قاسية كلَّفته حياته، فقتل مع كثير من جنده[٢].

أثارت هذه الكارثة نفس السلطان المريني، فصمَّم على الاستمرار في مواصلة الجهاد والأخذ بثأر ابنه مهما كلفه ذلك من تضحيات، فاستنفر أهل المغرب، ودعا الحفصيين في تونس للمشاركة في الجهاد، فلبوا نداءه، وجهَّز حملة كبيرة عبر بها المضيق ونزل في سهل طريف على مقربة من نهر سلادو الصغير، الذي يصب في المحيط الأطلسي، وذلك في (محرم ٧٤١ هـ/ تموز ١٣٤٠ م)، ثم ضرب حصاراً على المدينة، وانضم إليه يوسف الأول على رأس قوات الأندلس، وشاركه بتطويقها[٣].

وكانت القوات النصرانية قد توغلت بعد انتصارها في عمق أراضي مملكة غرناطة، ووصلت إلى بسائط الجزيرة الخضراء، كما رابط أسطول نصراني في مياه المضيق ليمنع عبور الإمدادات والمؤن، غير أنه تعرض للهزيمة على يد الأسطول الإسلامي.

عندما علم ألفونسو الحادي عشر بقدوم الجيش المريني الضخم، وكان قد فَقَدَ أسطوله، التمس مساعدة البابا، وناشده بدعوة الأوروبيين إلى حرب صليبية. وتدفقت على الأندلس جموع الصليبيين من جميع مناطق غربي أوروبا، وبخاصة من فرنسا وإنكلترا، بالإضافة إلى جماعات الفرسان الدينية.

---

(١) ابن خلدون: جـ ٧ ص ٢٦٠.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٦٠، ٢٦١.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٦١، ٢٦٢.

وقاد الملك القشتالي نحو مائة ألف مقاتل، وحمل بنفسه راية البابا تدليلاً على أن المعركة صليبية، وعسكر في مواجهة الجيش المريني. ونشبت بين الطرفين رحى معركة ضارية في (٨ جمادى الأولى/ ٢٩ تشرين الأول)، أسفرت عن انتصار واضح للقوات الصليبية، وخسر السلطان زوجاته وأولاده وبعض خواصه، حين هاجمت قوة قشتالية مقرَّه، وقتلت الجميع بوحشية بالغة، ثم غادر أرض المعركة، وعبر البحر عائداً إلى المغرب، وارتد يوسف الأول إلى غرناطة[١].

تعقيب على معركة طريف

- كانت معركة طريف ضربة قاسية ليوسف الأول.
- تُعدُّ هزيمة طريف من النذر المخيفة لاقتراب نهاية الصراع على مصير الأندلس.
- استثمر ألفونسو الحادي عشر انتصاره هذا، فهاجم قلعة بني سعيد أو بني يحصب، وهي من أحواز غرناطة واستولى عليها، وذلك في عام (٧٤٢ هـ/ ١٣٤١ م)[٢].
- أراد السلطان المغربي، أبو الحسن، أن يثأر للمصيبتين اللتين حلَّتا به، وهما مقتل أسرته، وهزيمة طريف، فحشد أسطولاً للعبور إلى الأندلس، في عام (٧٤٣ هـ/ ١٢٤٢ م) فتصدَّى له الأسطول القشتالي وهزمه، الأمر الذي أدَّى إلى عزل الأندلس عن المغرب بشكل شبه نهائي[٣].
- هاجم ألفونسو الحادي عشر بعد انتصاره البحري، الجزيرة الخضراء وطريف واستولى عليهما[٤]، وأضحى هذان الثغران الجنوبيان المشرفان على المضيق في أيدي النصارى، يتحكمون من خلالهما بحركة الملاحة، ولم يبق بأيدي المسلمين سوى ممر ضيق يصل المغرب بغرناطة، وهو الذي يقوم على مدخله حصن جبل طارق.
- شكَّلت معركة طريف، وما نتج عنها، نهاية مؤسفة لتاريخ الجهاد المغربي في الأندلس، وتُعدُّ آخر الحملات الكبرى التي قامت بها دول المغرب المتعاقبة إلى أرض الجهاد في الأندلس، أي أن مصير ما بقي من الأندلس تُرك لأهله، وبدا مرة

---

(١) ابن الخطيب: ص ١٠٥، ١٠٦. ابن خلدون: جـ ٧ ص ٢٦١، ٢٦٢.
Hillagrth, J.N: The Spanish Kingdoms: I. PP. 341, 342.

(٢) ابن الخطيب: ص ١١٠. ابن خلدون: جـ ٧ ص ٢٦٢.

(٣) Robson, J.A.: The Catalan Fleet and The Moorish Sea power. P. 406.

(٤) ابن خلدون: جـ ٧ ص ٢٦٢، ٢٦٣.

أخرى أن أيام غرناطة باتت معدودة، لكن هذه المملكة عاشت بعد ذلك مائة وأربعين عاماً في صراع مع مصيرها القاسي.

ـ حاول ألفونسو الحادي عشر الاستيلاء على حصن جبل طارق لاستكمال عزل غرناطة وإحكام الطوق حولها من ناحية الجنوب، فضرب الحصار حول الحصن، وصمد المسلمون بداخله، ثم ساعدهم القدر بانتشار الوباء في البلاد الذي أودى بحياة كثير من الناس، ومنهم الملك القشتالي نفسه وأفراد جيشه المحاصِرين للحصن وذلك في (١٠ محرم ٧٥١ هـ/ ٢٠ آذار ١٣٥٠ م)[١].

نهاية يوسف الأول: استمر يوسف الأول في الحكم بضعة أعوام أخرى، ساد خلالها السلام والأمن ولكنه قُتل غيلة في (الأول من شوال ٧٥٥ هـ/ ١٩ تشرين الأول ١٣٥٤ م) وهو يصلي في جامع غرناطة يوم عيد الفطر، اغتاله شخص مخبول لم يُفصح عن دوافعه، وقد وصف ابن الخطيب حادثة الاغتيال وصفاً دقيقاً، وكان شاهد عيان[٢].

محمد بن يوسف الأول: محمد الخامس: المرة الأولى: (٧٥٥ ـ ٧٦٠ هـ/ ١٣٥٤ ـ ١٣٥٩ م)

خلف يوسف الأول ابنه محمد الخامس، الملقب بالغني بالله، وكان حدثاً يافعاً، فاستأثر حاجبه ومولى أبيه، أبو النعيم رضوان، بشؤون الدولة. وكان لسان الدين بن الخطيب مؤرخ الدولة النصرية، وأعظم كتَّاب الأندلس وشعرائها، آنذاك، من بين كتَّابه ووزرائه، وقد أرسله سفيراً إلى المغرب ليؤكد للسلطان المريني عهد الصداقة والمودة جرياً على خطى أسلافه كلما تغير الحاكم، كما ساد الهدوء جبهات القتال مع مملكة قشتالة[٣].

وطغت، في مرحلة حكمه الأولى، الأحداث الداخلية على المشكلات الخارجية، ذلك أن حكمه تعرَّض للانتكاس بفعل ثورة أخيه إسماعيل عليه بمساندة بعض زعماء غرناطة، وفي مقدمتهم صهره الرئيس عبد الله، واستطاع إسماعيل أن ينتزع الحكم منه في (رمضان ٧٦٠ هـ/ آب ١٣٥٩ م)، وقُتل أبو النعيم رضوان خلال

(١) ابن الخطيب: ص ١٠٨. O'Callaghan: P. 414. Hillagrth: I. P. 344.

(٢) المصدر نفسه: ص ١١٠.

(٣) المصدر نفسه: ص ١١٣، ١١٦.

هذه الثورة، وفرَّ محمد الخامس إلى وادي آش، ثم انتقل إلى المغرب ملتجئاً إلى المرينيين[١].

إسماعيل بن يوسف الأول: إسماعيل الثاني: (٧٦٠ ـ ٧٦٣ هـ/ ١٣٥٩ ـ ١٣٦٢ م)

اتخذ إسماعيل الثاني سلسلة من الإجراءات لتثبيت أقدامه في الحكم، فعزل الموظفين الموالين لأخيه، وعيَّن مكانهم رجالاً يثق بهم. نذكر من بين الذين عزلهم: لسان الدين بن الخطيب الذي اعتقله وصادر أمواله، ويحيى بن عمر بن رحّو شيخ الغزاة، وقد عيَّن مكانه إدريس بن عثمان بن أبي العلاء[٢]. وباستثناء ذلك، لم يشهد عهده أحداثاً تُذكر سوى المحاولة الناجحة التي قام بها محمد الخامس لاستعادة عرشه بمساعدة الوزير المريني عمر بن عبد الله المستبد بالدولة المرينية.

وتهيأت الفرصة بوقوع ثورة في غرناطة ضد إسماعيل الثاني تزعمها الرئيس أبو سعيد، وقتل خلالها الملك الغرناطي، فغادر عندئذٍ محمد الخامس المغرب إلى الأندلس ونزل بمالقة، وسار إلى رندة، وكانت يومئذٍ من أملاك بني مرين، وقد تنازل له عنها الوزير عمر بن عبد الله، وسار منها إلى غرناطة ودخلها، وفرَّ الرئيس أبو سعيد إلى ملك قشتالة. واستردَّ محمد الخامس ملكه في (جمادى الآخرة ٧٦٣ هـ/ نيسان ١٣٦٢ م)، واستدعى الوزير لسان الدين بن الخطيب، الذي كان قد صحبه إلى المغرب، فعاد إلى غرناطة واستعاد مكانته السابقة[٣].

محمد بن يوسف الأول: محمد الخامس: المرة الثانية: (٧٦٣ ـ ٧٩٣ هـ/ ١٣٦٢ ـ ١٣٩١ م)

كانت فاتحة أعمال محمد الخامس، في ولايته الثانية، القبض على إدريس بن أبي العلاء وأقربائه من الغزاة وسجنهم وأبعد بني العلاء عن رئاسة المشيخة وأسندها إلى ابنه وولي عهده يوسف، ثم عهد بها بعد ثلاثة أعوام إلى بدر الدين بن موسى بن رحُّو، وكان قد صحبه في منفاه، ولكنه ما لبث أن توفي بعد عام، فقرَّر عندئذٍ أن يمحو هذه الخطة نهائياً من خطط مملكته، وصار أمر الغزاة المجاهدين مرتبطاً بالملك مباشرة، فوضع بذلك حداً للوجود العسكري المغربي في بلاده[٤].

---

(١) ابن الخطيب: ص ١٢٠، ١٢١.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٢٧، ١٢٨.
(٣) المصدر نفسه: ص ١٢٨، ١٢٩.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٣٠. ابن خلدون: جـ ٧ ص ٣٧٦ ـ ٣٧٩.

واستهل محمد الخامس ولايته الثانية بتوثيق عرى الصداقة مع بيدرو الأول، ملك قشتالة الملقب بالقاسي، فأرسل المؤرخ ابن خلدون، الوافد من المغرب، إلى البلاط القشتالي من أجل هذه الغاية، وحظي بعطف بيدرو الأول وإعجابه وهو يعرض لنا أحداث هذه السفارة بالتفصيل(١).

وتحوَّلت هذه الصداقة مع قشتالة إلى حلف قوي دفع الملك الغرناطي إلى التضحية بالصداقة التقليدية التي تربط غرناطة بمملكة أراغون، إثر نشوب الصراع بين المملكتين. وقد برع محمد الخامس في استغلال هذا الصراع للحفاظ على سلامة مملكته، وأخذ يتدخل مباشرة في شؤون الممالك النصرانية. وعندما اندلعت الحرب بين قشتالة وأراغون، في عام (٧٦٣ هـ/ ١٣٦٢ م)، أسرع محمد الخامس بمساعدة حليفه ملك قشتالة وزوَّده بقوة عسكرية مكَّنته من تنفيذ غارة على منطقة مرسية.

تمتعت غرناطة، في هذه الأثناء، بالهدوء في ظل الصراع على العرش القشتالي بين بيدرو الأول الذي اتصف نظامه بالقسوة البالغة وبين أخيه غير الشرعي، الكونت هنري دي تراستمارا ابن إلينور دي كزمان. وقاد هذا جيشه إلى قشتالة في عام (٧٦٧ هـ/ ١٣٦٥ ـ ١٣٦٦ م)، وسانده ملك فرنسا، لأن بيدرو الأول كان قد قتل زوجته الشرعية بلانش دي بوربون، أخت ملكة فرنسا، ليتزوج من خليلته، فلم يقوَ بيدرو الأول على المقاومة لاشتداد السخط عليه، وتخلّي الشعب عنه، وفرَّ إلى ولاية جوبين الفرنسية فيما وراء البرينيه، والتمس مساعدة الأمير الإنكليزي إدوارد، ولي عهد إنكلترا، وكان يحكم هذه الأنحاء المحتلة من فرنسا باسم أبيه، فاستجاب لطلبه وسار معه إلى قشتالة على رأس قواته(٢).

والتقى الأخوان في نجارا، في (شعبان ٧٦٨ هـ/ نيسان ١٣٦٧ م) ونشبت بينهما رحى معركة ضارية انتهت بهزيمة هنري واسترداد بيدرو الأول عرشه، ولكنه لم يفِ بوعده للأمير الإنكليزي، فلم يؤدِ إليه الجزية المتفق عليها، فسخط عليه وارتد بقواته عائداً إلى فرنسا، فتجدَّدت عندئذٍ الثورة في قشتالة ضد بيدرو الأول وانتهت بمقتله وجلوس أخيه هنري مكانه على العرش، وذلك في عام (٧٧٠ هـ/ ١٣٦٩م)(٣).

---

(١) ابن خلدون: جـ ٧ ص ٤١٠ ـ ٤١٦.

(٢) العبادي، أحمد: محمد الغني بالله ملك غرناطة. مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد. المجلدان ١١ و ١٢ ص ٤٣٨.

(٣) عنان: ص ١٧٣. David, Hume: History of England II. P.P. 202, 205.

ويبدو أن البابا كان وراء هذا الصراع الدامي في قشتالة، بفعل سياسة بيدرو الأول المسالمة تجاه المسلمين، فحرَّك جموعاً غفيرة من النصارى الإسبان لمساعدة الكونت هنري، واشترط عليه في حال انتصاره على أخيه أن يعمل على تحالف الممالك النصرانية وتوجيه السياسة الخارجية ضد المسلمين لطردهم من الأندلس. وقسَّم الأملاك الإسلامية التابعة لمملكة غرناطة بين أراغون وقشتالة، فأعطى الأولى ما يلي الشاطىء الشرقي الجنوبي حتى المرية، ومنح الباقي إلى الثانية، على أن تشترك الأساطيل النصرانية في احتلال الساحل الجنوبي وتقطع طريق المواصلات بين الأندلس والمغرب، ولكن الخطة لم تُنفذ على الأرض بفعل يقظة حكام غرناطة.

استغل محمد الخامس فرصة هذا الصراع بين الأخوين لما فيه مصلحة بلاده، فاستولى على عدد من الحصون الواقعة بين مملكته ومنطقتي قرطبة وجيان، وحاصر المدينة الأولى وكاد يستولي عليها. ولعل من أهم انتصاراته التي حقَّقها سيطرته على الجزيرة الخضراء في (ذي الحجة ٧٧٠ هـ/ تموز ١٣٦٩ م)، لكنه أدرك أنه لا يمكنه الاحتفاظ بها بشكل دائم، فانسحب منها بعد عشرة أعوام بعد أن دمَّرها، ثم عقد الصلح مع الملك هنري في (شوال ٧٧١ هـ/ أيار ١٣٧٠ م) لمدة ثمانية أعوام، كما عقد هدنة أخرى، في العام التالي، مع مملكة أراغون[١].

وحاول محمد الخامس التقرب من المماليك في مصر لمواجهة التحديات التي تتعرَّض لها مملكته من قِبَل النصارى، بهدف القضاء عليها واسترداد كامل الأندلس، ولكنه وقف عند حدود المراسلات والسفارات[٢].

ونكَّل محمد الخامس بوزيره لسان الدين بن الخطيب، الذي استأثر بالنفوذ والسلطان من دونه الأمر الذي أزعجه وأتاح لخصومه الإيقاع به، فاتهموه بالإلحاد والزندقة. والحقيقة أن هذا الوزير رسم لغرناطة سياسة خارجية ثابتة تجاه المغرب تقوم على التقرب من سلاطين الدولة المرينية وإرضائهم، ما أثار غيرة وحسد كبار القادة ورجال الدولة، وبخاصة مساعده المقرَّب الشاعر أبو عبد الله بن زمرك، الذي ساهم في توتير علاقته مع السلطان محمد الخامس، ثم تولى الوزارة مكانه. وشعر الوزير ابن الخطيب بتغير محمد الخامس تجاهه، فغادر غرناطة متوجهاً إلى

(١) Lomax, D.W.: The Reconquest of Spain P. 168.

(٢) عنان: ص ١٤٢.

المغرب في عام (٧٧٣ هـ/ ١٣٧١ م) والتجأ إلى صديقه السلطان المريني عبد العزيز. غير أن الأوضاع ما لبثت أن تبدَّلت لغير صالحه، فقد توفي السلطان عبد العزيز وخلفه ابنه الطفل الملك السعيد، ثم حدث انقلاب انتهى بارتقاء السلطان أحمد بن أبي سالم، وهو صديق لمحمد الخامس، فطلب منه إعادة ابن الخطيب إلى غرناطة، فاستجاب لطلبه، وأفتى بعض الفقهاء بوجوب قتلة تنفيذاً لحكم الدين، فقُتل في سجنه في عام (٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤ م)[١].

توفي محمد الخامس في عام (٧٩٣ هـ/ ١٣٩١ م)، ويُعدُّ عهده آخر عهود ازدهار مملكة غرناطة، إذ إن خلفاءه كانوا في الغالب أمراء ضعافاً لم يعرفوا كيف يواصلون سياسته التي جمعت بين العمل السياسي البارع واستعمال القوة عند الضرورة.

خلفاء محمد الخامس ـ سقوط مملكة غرناطة

لم يتغير الوضعان السياسي والعسكري خلال ربع القرن الذي تلا وفاة محمد الخامس (٧٩٣ ـ ٨٢٠ هـ/ ١٣٩١ ـ ١٤١٧ م)، وهي المدة التي حكم فيها ثلاثة من الملوك هم: يوسف الثاني بن محمد الخامس، ومحمد السادس بن يوسف الثاني، وأخوه يوسف الثالث، وذلك لأن معاصري هؤلاء من ملوك قشتالة كانوا بدورهم ضعافاً، وانهمكوا في نزاعاتهم الداخلية إما مع منافسيهم على العرش أو مع النبلاء الثائرين. والحدث الوحيد الجدير بالذكر، خلال الأعوام الأولى من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، هو سقوط مدينة أنتقيرة في أيدي القشتاليين في (جمادى الآخرة ٨١٣ هـ/ تشرين الأول ١٤١٠ م).

توفي يوسف الثالث في عام (٨٢٠ هـ/ ١٤١٧ م) وخلفه عدد من الملوك الضعاف لم يكونوا على مستوى المسؤولية، وانهمكوا في نزاعاتهم الداخلية وصراعهم على العرش، أولهم ابنه أبو عبد الله محمد السابع الملقب بالأيسر، وشهد عهده تصاعد نفوذ أسرة عربية عريقة هي أسرة بني سراج، في ظل الاضطرابات الداخلية، وتولى أحد أفرادها ويدعي يوسف الوزارة، وخلفه ابنه عبد البرِّ. وقد اعتمد محمد السابع على بني سراج لمواجهة المؤامرات التي أطاحت مرتين بحكمه لينتهي الأمر بضعف مملكة غرناطة سواء في عهده أو في عهده خلفائه الذين خُلع بعضهم أكثر من مرة. والمعروف أن محمداً السابع الأيسر خُلع في عام (٨٣١ هـ/ ١٤٢٨ م) وخلفه ابن أخيه،

(١) ابن خلدون: جـ ٧ ص ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٤١، ٣٤٢.

محمد بن محمد بن يوسف الملقَّب بالصغير، لمدة عامين وبضعة شهر، أعيد بعدها إلى الحكم للمرة الثانية في عام (٨٣٣ هـ/ ١٤٣٠ م)، ثم خلع بعد عامين (٨٣٥ هـ/ ١٤٣٢ م) وورثه أبو الحجاج يوسف الرابع ابن المول، وكان شيخاً مريضاً، فحكم ستة أشهر فقط حيث توفي، وأعيد محمد السابع الأيسر إلى الحكم للمرة الثالثة.

وتستمر المأساة الغرناطية، وتتباين روايات المصادر حول تعاقب الحكام ومدة حكم كل منهم في جو من الغموض والتناقض، ولعل مرد ذلك يعود إلى سرعة التقلبات السياسية وتعاقب هؤلاء واعتلاء بعضهم الحكم أكثر من مرة.

وتكرَّرت الهجمات القشتالية على غرناطة ما بين عامي (٨٥٩ ـ ٨٦١ هـ/ ١٤٥٥ ـ ١٤٥٧ م)، ولعل أخطر ما تعرَّضت له المملكة هو استيلاء القشتاليين على جبل طارق في (ذي القعدة ٨٦٦ هـ/ آب ١٤٦٢ م)، ويُعدُّ سقوط هذا المعقل أول خطوة ناجعة في سبيل قطع العلاقة بين مملكة غرناطة والمغرب الذي كانت تأتي منه المساعدات للمملكة المذكورة.

وكان الضعف قد أدرك دولة بني مرين، ومضت مسرعة في طريق التفكك والانحلال، كما بلغت مملكة بني عبد الواد في تلمسان مراحل شيخوختها، وتراجعت قوة الحفصيين في تونس، فتوقفت نتيجة ذلك، المساعدات القادمة من شمالي إفريقيا، فتوجَّه الغرناطيون إلى دولة المماليك وأرسلوا سفارة إلى القاهرة تطلب مساعدة عاجلة من حكام مصر، لكن دولة المماليك لم تكن بدورها أفضل حالاً من مملكة غرناطة، أما القوة الإسلامية الوحيدة التي كان بوسعها أن تقدم المساعدة لغرناطة فهي دولة العثمانيين الفتية، والتي برزت على مسرح السياسة بوصفها أعظم القوى الإسلامية في شرقي البحر الأبيض المتوسط، ولكن العثمانيين كانوا منهمكين بفتوحهم في البلقان وصربيا بعد أن فتحوا القسطنطينية في عام (٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣ م) على يد السلطان محمد الفاتح. وهكذا شعرت غرناطة بأنها أضحت وحيدة في مواجهة عدوها القوي من دون حليف ولا ناصر.

وازداد الوضع الداخلي في غرناطة تفاقماً بفعل ما جرى من نشوب الحرب الأهلية بين أمراء البيت المالك. ففي عام (٨٦٨ هـ/ ١٤٦٣ م) ثار على الملك سعد ابن محمد بن يوسف ابنه أبو الحسن علي، الملقب بالغالب بالله (٨٦٥ ـ ٨٨٧ هـ/ ١٤٦١ ـ ١٤٨٢ م) بتحريض من بني سراج. وقام أبو الحسن بخلع أبيه ونفاه إلى مالقة حيث توفي في العام التالي.

ويبدو أنه لم يستخلص الحكم لنفسه إلا بعد صراع عنيف مع منافسيه، وعلى رأسهم أخويه، أبي الحجاج يوسف وأبي عبد الله محمد المعروف بالزغل، وقد توفي يوسف وبقي الزغل، وكان يحكم مالقة، ليخوض حياة حافلة بالأحداث ضد أخيه بمساعدة ملك قشتالة[1].

وكان ملك قشتالة هنري الرابع قد توفي في عام (٨٧٩ هـ/ ١٤٧٤ م) من دون أن يخلف ولداً ذكراً، وعارض النبلاء تنصيب ابنته الوحيدة حنا على العرش لما يحيط ببنوتها إليه من الشك. وهنا تقدمت أخته إيزابيلا مطالبة بعرش قشتالة، وكانت قد تزوجت في (ربيع الآخر ٨٧٤ هـ/ تشرين الأول ١٤٦٩ م) من أمير أراغون فرديناند ابن يوحنا الثاني، وهو الذي تولى عرش المملكة بعد وفاة والده في عام (٨٨٤ هـ/ ١٤٧٩ م) باسم فرديناند الخامس. وهكذا توحَّدت مملكتا قشتالة وأراغون، وبهذا التوحد سوف تتعاون الدولتان على الإطاحة بما بقي في أيدي المسلمين من مملكة غرناطة.

واشتد، في هذه الأثناء، الصراع بين أبي الحسن علي وأخيه الزغل، وحتى يخفف من ضغط أخيه طلب الأول من ملكة قشتالة وملك أراغون عقد الهدنة، ولكنهما اشترطا اعترافه بتبعيتهما ودفع جزية كبيرة، فرفض الملك الغرناطي، واندلعت الحرب بين الجانبين، فاستولى القشتاليون في (محرم ٨٨٧ هـ/ شباط ١٤٨٢ م) على مدينة الحامة، وهاجموا لوشة بعد أشهر، إلا أنهم فشلوا في الاستيلاء عليها[2].

أثارت هذه الهزائم الشعب على أبي الحسن علي، كما نشب الخلاف بينه وبين بني سراج، لا سيما بعد أن هجر زوجته عائشة الحرة ابنة محمد التاسع، وقرَّب إليه جاريته القشتالية الحسناء إيزابيلا دي سوليس ـ ثريا ـ والتي أضحت سيدة غرناطة الأولى، وحيكت المؤامرة التي أطاحت به في العام المذكور أعلاه. واختار الثائرون ابنه أبا عبد الله محمد مكانه وهو المعروف بابن الحرة، والتجأ أبو الحسن علي إلى أخيه الزغل في مالقة[3].

كان أبو عبد الله محمد بن علي فتى في الخامسة والعشرين من عمره، فأراد أن يحذو حذو والده وعمه الزغل في الحرب والجهاد، وبخاصة بعد أن صدَّ حملة

(١) مؤلف مجهول: نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر ص ٤١ ـ ٤٣. المقري: جـ ٦ ص ٢٦٧.

(٢) مؤلف مجهول: ص ٥٢ ـ ٥٤، ٥٧ ـ ٥٩.

(٣) المصدر نفسه: ص ٥٩، ٦٠. المقري: جـ ٦ ص ٢٧٠.

قشتالية هاجمت مالقة، وأحرز انتصاراً على القوات القشتالية في معركة الشرقية في (صفر ٨٨٨ هـ/ آذار ١٤٨٣ م)[١]، فانتهز فرصة اضطراب أوضاع النصارى عقب الهزيمة، وخرج على رأس قواته في (ربيع الأول/ نيسان) متوجهاً إلى قرطبة. واجتاح في طريقه عدداً من القرى والحصون، وهزم النصارى في عدة معارك جانبية، ثم سار إلى بلدة اللسانة فأدركه هؤلاء في ظاهرها وتغلّبوا عليه، ووقع أسيراً في أيديهم. وعادت فلول الجيش الغرناطي بدون ملكهم، فحاولت عائشة الحرة الإمساك بزمام الأمور في غرناطة واتفقت مع أعيان المملكة على استدعاء زوجها أبي الحسن علي ليتسلم الحكم، لكن هذا كان قد أثقله المرض والإعياء وفقد بصره ولم يستطع أن يضطلع بأعباء الحكم طويلاً، فتنازل لأخيه الزغل في عام (٨٩٠ هـ/ ١٤٨٥ م)[٢].

ويبدو أن وقوع أبي عبد الله محمد بن علي في الأسر ساهم في انتقال تفكير إيزابيلا وفرديناند الخامس من مجرد إخضاع غرناطة وإجبارها على استئناف دفع الجزية، إلى محاولة شنِّ حرب شاملة للقضاء عليها وإنهاء وجودها، لذلك رفضا إغراءات والده المالية لافتدائه، وآثرا أن يحتفظا بالأسير واتخاذه صنيعة لهما.

وبذلت الأميرة عائشة الحرة جهوداً حثيثة لإطلاق سراح ابنها، فأرسلت سفارة إلى قشتالة برئاسة الوزير ابن كماشة، فأجرى مفاوضات ناجحة مع الزوجين الملكيين أسفرت عن توقيع معاهدة أطلق بموجبها سراح الملك الغرناطي مقابل دفع جزية سنوية والطاعة التامة لقشتالة[٣].

وكان فرديناند الخامس يرى الاكتفاء بذلك والانصراف عن مواصلة الحرب، غير أن زوجته إيزابيلا صممت على خوض الحرب حتى النهاية. واجتاحت الجيوش القشتالية منطقة غربي مالقة في أوائل (٨٩٠ هـ/ ١٤٨٥ م) واستولت على حصني قرطبة وذكوين وعدد من الحصون الأخرى الواقعة في منتصف الطريق بين مالقة ورندة، الأمر الذي أدّى إلى عزل هذه الأخيرة وأضحى الطريق ممهداً لاقتحامها. وفعلاً هاجمها القشتاليون واستولوا عليها في (جمادى الأولى/ أيار) وأسقطوا شريطها الساحلي الممتد حتى مالقة، إلا أنهم فشلوا أمام موكلين ورُدّوا بخسائر فادحة[٤].

يُعدُّ سقوط رندة ضربة قاسية للمسلمين، وانهارت بسقوطها وسائل الدفاع عن المنطقة الغربية، وأضحى القشتاليون يهدِّدون مالقة من الغرب.

---

(١) مؤلف مجهول: ص ٦٠ ـ ٦٢.
(٢) المصدر نفسه ص ٦٢ ـ ٦٥.
(٣) المقري: جـ ٦ ص ٢٧٢. عنان: ص ٢٠٥.
(٤) مؤلف مجهول: ص ٦٥.

وسار أبو عبد الله محمد بن علي، بعد إطلاق سراحه، إلى منطقة بلش وأعلن نفسه ملكاً بمساعدة القشتاليين، وأخذ يبث دعوته المتعلقة بالاستقرار والسلم، فناصره سكان ربض البيازين، وهو حي غرناطة الشعبي. وشُغِل الزغل بإخماد هذه الفتنة عن مقاتلة النصارى، وهذا ما كان يرمي إليه الملك والملكة القشتاليان[1].

ويبدو أنه أدرك خطأه بعد ذلك وتهيب مقاتلة عمه، فأجرى معه مفاوضات انتهت إلى الانضواء تحت سلطانه ومقاومة الغزو القشتالي، الأمر الذي أثار فرديناند الخامس فألقى بثقل جيشه كله على فحص غرناطة، وهاجم لوشة مرة ثانية واستولى عليها في (٢٦ جمادى الأولى ٨٩١ هـ/ ٣٠ أيار ١٤٨٦ م)، ولما غادرها أخذ معه أبا عبد الله محمد بن علي إما أسيراً أو أنه سار معه لالتماس مساعدته في تنفيذ خطته لاستعادة عرش غرناطة، وهي خطة يؤيدها الملك القشتالي ويشجعها لأنها تخدم أهدافه في القضاء على تلك المملكة الصغيرة التي مزَّقتها الحروب الأهلية، وانتهز هذه الفرصة فاستولى على موكلين ومنتفريد وقلميرة. وتحرَّج وضع الزغل[2].

وحدث أن عاد أبو عبد الله محمد بن علي من قشتالة إلى منطقة بلش في (شوال ٨٩١ هـ/ تشرين الأول ١٤٨٦ م)، في محاولة لاستعادة الحكم، وظهر في ربض البيازين فالتفَّ أنصاره حوله. وهاجم فرديناند الخامس، في هذه الأثناء، مدينة بلش، وهي حصن مالقة من الشرق واستولى عليها في (١٠ جمادى الأولى ٨٩٢ هـ/ ٤ أيار ١٤٨٧ م)، فأسقط بذلك خط الدفاع عن مالقة التي باتت مهدَّدة بالسقوط. وأثناء عودة الزغل من بلش إلى غرناطة، بعد أن فشل في إنقاذها، علم بسقوط هذه الأخيرة في يد ابن أخيه الذي اعتلى العرش للمرة الثانية[3].

أضحت مالقة، بعد سقوط جبل طارق، صلة الوصل الأخيرة مع المغرب، لذلك كانت هدف فرديناند الخامس التالي، فزحف إليها وحاصرها من البر والبحر، في (جمادى الآخرة/ حزيران)، وتحصَّن السكان بداخلها وراحوا يدافعون عنها، واستولى على القرى والحصون المجاورة منها قمارش ومونتميور[4].

كانت المدينة تحت حكم الزغل، لكنه أحجم عن الذهاب إليها والدفاع عنها، خشية من غدر ابن أخيه أبي عبد الله محمد بن علي فتركها متحسراً تواجه مصيرها.

---

(١) مؤلف مجهول: ص ٧١، ٧٢.
(٢) المصدر نفسه: ص ٧٢، ٧٣.
(٣) المصدر نفسه: ص ٧٩ ـ ٨١.
(٤) المصدر نفسه: ص ٨٢.

وتترأس المقاومة فيها أحمد الثغري، ودافع سكانها عنها دفاعاً مستميتاً مدة ثلاثة أشهر حتى همَّ القشتاليون بالانسحاب لكثرة خسائرهم، ولكن الملكة كانت مصمِّمة على استمرار الحرب. وعانى المحاصَرون من الجوع والإعياء والمرض، ومات كثير منهم، واضطروا في النهاية إلى الاستسلام مقابل الأمان. ودخل الجيش القشتالي المدينة في (شعبان/ آب)، لكن فرديناند الخامس لم يحافظ على عهده، فأصدر قراراً ملكياً حدَّد فيه وضع السكان على أنهم رقيق يجب عليهم افتداء أنفسهم ومتاعهم، وكان هذا التصرف نموذجاً لما يضمره الملك القشتالي نحو معاملة المسلمين المغلوبين، ولما تنطوي عليه سياسته من نكث العهود[1].

يُعدُّ سقوط مالقة ضربة قاسية أصابت المملكة الإسلامية المحتضرة حيث أضحت محصورة ومحرومة من المساعدات الخارجية. واستولى فرديناند الخامس، بعد ذلك، على ما بقي من الحصون الشرقية والغربية الواقعة على أطرافها، مثل بيرة والبلشين - بلج - وأشكر وغيرها، كما استولى على ثغر المنكَّب الواقع في منتصف الطريق بين مالقة والمرية، بعد أن استسلمت حاميته بقيادة محمد بن الحاج، وذلك في (محرم ٨٩٥ هـ/ كانون الأول ١٤٨٩ م)، وحاصر المرية التي أضحت تحت رحمته[2]. وبذلك يكون الملك القشتالي قد عزل الداخل الغرناطي تمهيداً للانقضاض عليه.

وكان فرديناند الخامس قد حاصر مدينة بسطة في (رجب ٨٩٤ هـ/ حزيران ١٤٨٩م)، أمنع قاعدة في ولايات غرناطة الشرقية، وكانت تابعة للزغل، فلم يستطع هذا أن يغادر مقره في وادي آش للدفاع عنها خشية أن يهاجمه ابن أخيه أثناء غيابه، فأرسل إليها قوة مختارة من الفرسان بقيادة صهره يحيى النيار. استمر حصار المدينة ستة أشهر، عانى السكان خلالها من شتى أنواع المضايقات والعذاب، فاشتد الكرب بهم، وفتك الجوع والمرض بالعامة، واضطروا أخيراً إلى الاستسلام (في ١٠ محرم ٨٩٥ هـ/ ٥ كانون الأول ١٤٨٩ م) بعد أن أحرزوا شروطاً فيها الكثير من التساهل، وغادرها معظم سكانها إلى وادي آش حاملين ما استطاعوا من أمتعتهم وأموالهم[3].

وهرعت جميع الحصون القريبة إلى الاستسلام والدخول في طاعة الملك القشتالي، ثم استسلمت المرية بعد ذلك بقليل في (ربيع الأول ٨٩٥ هـ/ شباط

---

(١) مؤلف مجهول: ص ٨٢، ٨٣.
(٢) المصدر نفسه: ص ٨٤ - ٨٨.
(٣) المصدر نفسه ص ٨٤ - ٨٦. المقري: جـ ٦ ص ٢٧٧.

١٤٩٠م). ولما رأى الزغل سقوط قواعده تباعاً وأن الجيوش النصرانية تحيط به، قرَّر الاستسلام، فخرج من مقره إلى المعسكر النصراني واجتمع بفرديناند الخامس وعرض عليه طاعته، ودخل النصارى وادي آش[١].

وهكذا سقط القسم الشرقي من مملكة غرناطة في أيدي النصارى، ولم يبقَ سوى القسم الغربي الذي يشمل مدينة غرناطة وأعمالها، فركَّز فرديناند الخامس ضغطه عليه لانتزاعه، والقضاء على دولة المسلمين في الأندلس.

رأى فرديناند الخامس وإيزابيلا أن الوقت قد حان لتسديد الضربة القاضية للوجود الإسلامي في الأندلس، فأرسلا سفارة إلى أبي عبد الله محمد بن علي يطلبان منه تسليم ما بيده وفقاً لاتفاقية الصلح المعقودة بين الجانبين، والتي تنص على أنه متى يتمُّ تسليم بسطة والمرية ووادي آش إليهما يتنازل ملك غرناطة لهما عن القسم الواقع تحت يده[٢].

ويبدو أنهما اكتفيا بأن طلبا منه تسليم قصور الحمراء، مقر الملك والحكم، وأن يبقى مقيماً في غرناطة في طاعتهما وتحت حمايتهما، أسوة بما جرى في سائر نواحي الأندلس[٣]، وهما يدركان بأن ليس لديه أية قوة لرفض هذا الطلب، فهو أسير نفسه بالحمراء ومحاصَر بقوات نصرانية، ويواجه وضعاً داخلياً مضطرباً حيث حمَّله الغرناطيون مسؤولية ما وصلت إليه الأوضاع من تردٍّ.

والواقع أن فكرة الاستسلام كانت تلقى استنكاراً عاماً في غرناطة، لذلك رفض أبو عبد الله محمد بن علي طلب الملكين النصرانيين، ما كان سبباً في فرض حصار على غرناطة في (جمادى الآخرة ٨٩٦ هـ/ نيسان ١٤٩١ م). وأنشأ المحاصِرون في فحص غرناطة في شهر (رجب/ أيار) مخيماً تحوَّل إلى مدينة أسموها سانتا في ـ الإيمان المقدس ـ لكي تكون مركز القيادة العامة للقوات المحاصرة. وكان مقاتلون من غرناطة يخرجون لشل مخططات النصارى وإفشالها، على رأسهم موسى ابن أبي الغسان الذي نسجت حوله الأساطير[٤].

دام الحصار مدة سبعة أشهر صمد خلالها الغرناطيون، وفشلت كل محاولات

---

(١) مؤلف مجهول: ص ٨٧، ٨٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ٨٩. المقري: جـ ٦ ص ٢٧٧.

(٣) المصدران نفساهما.

(٤) مؤلف مجهول: ص ١٠٠، ١٠١. المقري: جـ ٦ ص ٢٧٩.

الاقتحام المتكررة. ومع بداية (شهر محرم عام ٨٩٧ هـ/ أوائل شهر تشرين الثاني عام ١٤٩١ م)، ونتيجة اليأس وانتشار الجوع وتفشي المرض، اجتمع أبو عبد الله محمد ابن علي مع أعيان المدينة والقادة واتخذوا قرار تسليم المدينة. وعارض القائد موسى بن أبي الغسان هذا القرار، وخرج من الاجتماع مغاضباً، وأرسلوا الوزير أبا القاسم بن عبد الملك للتفاوض مع الملك فرديناند الخامس. وانتهت المفاوضات بالتوقيع على معاهدة التسليم في (١٢ صفر ٨٩٧ هـ/ ١٥ كانون الأول ١٤٩١ م)، والتي تنص على ما يلي:

- تسليم غرناطة إلى فرديناند الخامس.
- تأمين المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم.
- احتفاظ المسلمين بشريعتهم وقضائهم ونظمهم بإشراف حاكم نصراني.
- تأمين حرية الدين والشعائر والحفاظ على المساجد والأوقاف.
- أن لا يدخل نصراني إلى مسجد أو دار مسلم.
- أن يسير المسلم في ديار النصرانية آمناً لا يحمل علامة مميزة.
- أن يجتاز من يشاء منهم إلى المغرب في سفن الإسبان، لمدة ثلاثة أعوام من دون مقابل.
- أن لا يُجبر مسلم أو مسلمة على التنصر.
- أن يعامل الحاكم النصراني المسلمين بالرفق والعدل.
- أن يخرج محمد بن علي ـ ابن الحرة ـ من قصر الحمراء، ليقيم حيث يشاء في ممتلكاته.
- أن يوافق البابا على الوثيقة(١).

فتحت أبواب غرناطة يوم الإثنين (أول ربيع الأول ٨٩٧ هـ/ ٢ كانون الثاني ١٤٩٢م) فدخلها حاكمها الجديد الكونت تنديلا، وسار خلفه موكب الملكة إيزابيلا والملك فرديناند الخامس، ورفعوا فوق برج الحمراء صليباً فضياً كبيراً وبجانبه علمي قشتالة والقديس شنت ياقب. وغادر في اليوم نفسه أبو عبد الله محمد بن علي ـ ابن الحرة ـ قصره مع أهله وتوجَّه إلى أندرش، في جبل البشرات المطل على غرناطة، وقد حُدِّدت هذه القرية مكاناً لإقامته(٢) تحت إشراف القشتاليين، وهو يذرف دموعه حسرة

(١) مؤلف مجهول: ص ١٠٣ ـ ١١١. المقري:جـ ٦ ص ٢٨٠، ٢٨١.

(٢) مؤلف مجهول: ص ١٠٧.

وألماً على المُلك الضائع. فنظرت إليه والدته عائشة الحرة ونهرته وقالت بيتها الشهير:

إيكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً   لم تحافظ عليه مثل الرجال

وبعد أشهر قليلة على إقامته، باعت إيزابيلا تلك القرية التي أقطعتها له، فأدرك عندئذٍ أن الملكة لم تعد تريده في البلاد، فعبر الزقاق إلى مليلة في المغرب واستقر في فاس مع أهله وأولاده معتذراً عما أسلفه، متلهفاً على ما خلَّفه، وتوفي فيها في عام (٩٤٠ هـ/ ١٥٣٤ م)[١].

وبسقوط غرناطة سقطت الأندلس نهائياً، وأُسدل الستار على تاريخ المسلمين فيها، ليخسر هؤلاء أهم موقع «استراتيجي» يمثل البوابة الغربية للقارة الأوروبية. «ولمثل هذا فلتبك كل عين فياضة بدموع الدم»[٢].

(١) مؤلف مجهول: ص ١٠٨. المقري:جـ ٦ ص ٢٨٣.

(٢) الذيل على نبذة العصر: ص ١٢٣.

الخاتمة

انتهت معالم السلطة السياسية الإسلامية في شبه جزيرة إيبيرية في (١ ربيع الأول ٨٩٧ هـ/ ٢ كانون الثاني ١٤٩٢ م)، إلا أن الوجود الإسلامي لم ينتهِ. فقد ظلَّ من بقي من المسلمين محتفظين بعقيدتهم ويمارسون شعائرهم الدينية وفقاً لبنود معاهدة تسليم غرناطة. والمعروف أن كثيراً من المسلمين هاجروا إلى المغرب بعد رحيل الملك محمد بن علي. وبانتهاء قصة هذا تبدأ قصة اضطهاد الأندلسيين حيث انقلبت سياسة التسامح إلى اضطهاد منظم بهدف تنصير هؤلاء أو ترحيلهم.

والواقع أنه ترسخت في إسبانيا الموحدة سياسياً فكرة تحقيق الوحدة الدينية بوصفها ملازمة للوحدة السياسية، أي أن مواطني هذه الدولة يجب أن يكونوا نصارى على المذهب الكاثوليكي، وألا يُسمح لأي شخص أن يكون على غير دين الدولة الرسمي. ومنذ أن فُرض التنصير والطرد على هؤلاء المسلمين، أطلق عليهم الإسبان مصطلحاً جديداً استبدل به مصطلح المدجَّنين القديم، وهو اسم الموريسكيين أي المسلمين الصغار، وهو تصغير للفظ مور الذي كان يعني المسلم بوجه عام، وقد قُصدَ به التحقير.

وبرزت، في هذه الأثناء، شخصية الكاردينال فرانسيسكو دي سيسنيروس، المعروف باسم خيمينيث، الذي قدم إلى غرناطة في (ربيع الآخر ٩٠٥ هـ/ تشرين الثاني ١٤٩٩ م)، فحاول استقطاب الموريسكيين في غرناطة بغية تنصيرهم، إلا أنه فشل في ذلك، لأن الكنيسة لم تكن تملك القدرة على ذلك، كما أن الموريسكيين لم تكن لديهم الرغبة في التنصير، عندئذٍ لجأ إلى استعمال القوة لإجبارهم على ذلك فاضطهدهم، وصادر ممتلكاتهم، الأمر الذي أدَّى إلى اندلاع الثورة في حي البيازين في غرناطة، ولكن هذه الثورة لم تزد الكاردينال والسلطات الحاكمة إلا تشدُّداً، فأخمدوها بالقوة والقسوة البالغة. وأجبرت وسائل القمع الوحشية، التي استُعمِلت،

الموريسكيين في باقي المناطق على حمل السلاح، لأنه كان الخيار الوحيد الذي أبقته لهم الملكة إيزابيلا الشديدة التعصب.

ولجأت جماعات من الموريسكيين إلى المعاقل الجبلية يعتصمون بها، وأخذوا يشنُّون الغارات الخاطفة ضد القوات الإسبانية التي كانت تلاحقهم باستمرار.

وفي (محرم ٩٠٧ هـ/ تموز ١٥٠١ م) أصدرت الملكة إيزابيلا أمراً يحرم على الموريسكيين ممارسة أي عمل يمت إلى عقيدتهم ولغتهم بصلة، الأمر الذي دفع الكثير منهم إلى الالتحاق بالجماعات المتحصنة بالجبال. وقد أدى هذا التضييق والاضطهاد إلى اندلاع ثورة أخرى في منطقة البشرات الواقعة جنوبي غرناطة، غير أن الحكومة الإسبانية قمعتها بالقوة.

وفي (شعبان ٩٠٧ هـ/ شباط ١٥٠٢ م)، أصدرت الملكة مرسوماً يخيِّر الموريسكيين بين التنصير والرحيل، وأمهلتهم حتى (أواخر شوال/ نهاية نيسان)، فرحل من غرناطة خلال هذه المدة نحو ثلاثمائة ألف شخص، وعُدَّ من بقي متنصراً بحكم الواقع.

توفيت الملكة إيزابيلا في عام (٩١٠ هـ/ ١٥٠٤ م)، ثم توفي زوجها في عام (٩٢٢ هـ/ ١٥١٦ م)، وخلفهما ابنهما شارلكان، فنشبت في عهده ثورة سكان المدن، فقام رعاع بلنسية ضد الموريسكيين وأجبروهم على التنصر بقوة السلاح، إلا أنه كان تنصراً شكلياً باعتراف الكنيسة والسلطة السياسية.

وازدادت السياسة الإسبانية تشدداً في عهد خليفته فيليب الثاني الذي اعتلى العرش في (٩٦٣ هـ/ ١٥٥٦ م) وقد وقع هذا الملك، منذ صغره، تحت تأثير رجال الدين، فنشأ مشبعاً بالروح الصليبية والتعصب الشديد ضد المسلمين بعامة. ولعل أخطر ما أصدره من مراسيم ضد الموريسكيين، المرسوم الذي صدر في عام (٩٧٠ هـ/ ١٥٦٣ م) الذي حظَّر عليهم حمل السلاح، ثم المرسوم الذي صدر في عام (٩٧٣ هـ/ ١٥٦٦ م)، وقد حرَّم استعمال اللغة العربية.

ورأى هذا الملك أن أنجع وسيلة لحلٍّ مشكلة الموريسكيين تكمن في مصادرة أملاكهم وأراضيهم وطمس هويتهم تماماً، فينتهي بذلك وجودهم، فأصدر مرسوماً، في عام (٩٧٤ هـ/ ١٥٦٧ م)، قضى بهجر الكفار، والمقصود هنا الموريسكيين، ملابسهم الوطنية المزركشة، واعتمار قبعات النصارى وسراويلهم، ونبذ لغتهم وعاداتهم واحتفالاتهم. ولما حاول هؤلاء إجراء حوار من أجل تخفيف مفاعيله

أصرَّت السلطة على تنفيذ مضمونه، فاندلعت الثورة التي استمرت ثلاثة أعوام، واجه خلالها الثائرون أقوى دولة أوروبية آنذاك، وأقوى الجيوش التي عرفتها أوروبا في ذلك الوقت. وانتشرت الثورة في معظم المناطق التي تواجد المسلمون فيها، ونجحت السلطات أخيراً في قمع الثورة بوحشية بالغة.

وفي (جمادى الآخرة ٩٧٨ هـ/ تشرين الثاني ١٥٧٠ م) أصدر فيليب الثاني مرسوماً يخوِّل الجنود قتل الموريسكيين وسبي نسائهم، وخُصِّصت مكافآت مالية لمن يقتل مسلماً، فتدفّق المرتزقة الأوروبيون على غرناطة طمعاً في ذلك، فاعتقلوا الموريسكيين أينما وجدوهم، وباعوهم عبيداً. كما أصدر، في العام التالي، مرسوماً قضى بنفيهم من غرناطة وتفريقهم في أنحاء البلاد ومصادرة أملاكهم، فازداد، على أثر ذلك، ديوان التفتيش في تعقُّبهم ومطاردتهم، وكانت أحكام الإعدام الجماعي تصدر عليهم بعد محاكمات شكلية.

توفي فيليب الثاني في عام (١٠٠٦ هـ/ ١٥٩٨ م) وخلفه ابنه فيليب الثالث، وكان صغير السن، ضعيف الشخصية، وقع تحت تأثير رجال الدين وبخاصة وزيره فرانسيسكو جومز دي ساندوفال، دوق ليرما، وهو من أشد أنصار فكرة التخلص من الموريسكيين، وقد طرح عدة مشروعات لإبادتهم جماعياً، وكان يعلم أن هؤلاء المسلمين المتنصرين، بدافع من سخطهم لاضطهاد فيليب الثاني لهم، قد قاموا باتصالات مع سلطان المغرب والسلطان العثماني، ومع الملك الفرنسي هنري الرابع لمهاجمة إسبانيا.

وحدث في هذه الأثناء، أن توفي سلطان المغرب أحمد المنصور، في عام (١٠١٢ هـ/ ١٦٠٣ م)، فاشتعلت الحرب الأهلية بين أبنائه الثلاثة، واستعان أحدهم، وهو أبو عبد الله المأمون المعروف بالشيخ، بفيليب الثالث للقضاء على أخويه واعتلاء العرش. وفي المقابل، ساند الموريسكيون، في بلنسية وشرقي الأندلس، أخاه زيدان على أن يقوم بغزو إسبانيا، فاتخذ الملك الإسباني ذلك ذريعة لنفي الموريسكيين عقاباً لهم.

وفي (شوال ١٠١٧ هـ/ كانون الثاني ١٦٠٩ م) بحث مجلس الدولة هذه المسألة وقدَّم تقريراً بوجوب نفي الموريسكيين لأسباب دينية وسياسية، أهمها تعرُّض إسبانيا لخطر الغزو من المغرب، فصدر المرسوم الذي يقضي بنفي هؤلاء غير حاملين معهم من المتاع أكثر مما تطيقه ظهورهم. وأُكرِهَت الأسر البائسة على بيع أملاكها

بخسائر فادحة، وساروا إلى الموانىء يتعثرون في شقائهم، وسُرق الكثيرون منهم، وقُتل البعض، في طريقهم إلى السفن التي أُعِدَّت لهم.

وخرجت أول دفعة من ثغر دانية والثغور القريبة منها، وقد بلغ عددهم نحو ثمانية وعشرين ألفاً، حملتهم السفن إلى وهران، ثم نُقلوا إلى تلمسان، وتعدَّدت الرحلات، بعد ذلك، من بلنسية ولقنت وغيرهما. وصدر في العام التالي القرار الذي قضى بنفي الموريسكيين من غرناطة وقطلونية وأراغون وإشبيلية ومرسية، وظلت السفن أعواماً تحمل آلافاً من الموريسكيين، فتُلقي بهم على سواحل شمالي إفريقيا ومصر وفي مختلف البلاد العثمانية، وكان عدد الذين طُردوا، في هذا المرحلة، يبلغ نحو ستمائة ألف إلى مليون نسمة.

وهكذا نُزعت أملاك أكثر من أربعمائة ألف أسرة من أكثر سكان إسبانيا إنتاجاً، وأُقصوا عن البلاد، وكان هذا في نظر الشعب أمجد منجزات الحكم. وتطلع الإسبان السذَّج إلى عهد أكثر رخاءً، بعد أن استرضوا الإله بتخليص إسبانيا من الكفار. واغتبطت الحاشية بالحصيلة التي تجمَّعت من مصادرة أملاك الموريسكيين.

وعلى هذا الشكل المأساوي اختتمت حياة الشعب الموريسكي بعد أكثر من مائة عام على سقوط غرناطة. وخرجت إسبانيا من معركتها العسكرية معهم بانتصار كبير، لكنها خرجت من معركتها الدينية والحضارية معهم بخسارة كبيرة. فعلى مدى أكثر من مائة عام من الاضطهاد والتنكيل والتنصير القسري لم تستطع إسبانيا إقناع الموريسكيين بأن كاثوليكية قشتالة أفضل من الإسلام، وبأن اللغة القشتالية أكثر تعبيراً من العربية، وأن العادات القشتالية أفضل من التقاليد الإسلامية.

تتجلى مأساة الموريسكيين في انقطاعهم عن العالم الإسلامي خلال صراعهم مع النصارى الإسبان، في مرحلة من أكثر مراحل التاريخ اضطراباً، حيث سيطر الصراع بين العثمانيين وبين معظم الدول الأوروبية بما فيهم إسبانيا، على أحداث القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، ونظر الإسبان إلى الموريسكيين على أنهم أعداء مثل العثمانيين والمغاربة.

وأخيراً، هل لنا أن نصدر حكماً على الوجود الإسلامي في الأندلس على مدى القرون التي شغلها؟ الحقيقة أن الشعب الأندلسي، على الرغم من حياته المضطربة والحافلة بالصراع، استطاع أن يكتب صفحة من أكثر صفحات الحضارة الإنسانية مجداً، فاستثمر موارد البلاد، وطور الزراعة والصناعة، ونشَّط الحياة التجارية،

فانعكس ذلك على العمران الذي انتشر في كافة أرجاء البلاد، فظهرت المدن والقرى التي تحمل أسماء عربية، وهي تشهد على مدى تقدم المسلمين، تماماً كما تشهد لهم تلك الآثار الرائعة التي خلَّفوها في العديد من المدن، في مختلف ميادين النشاط الإنساني. وقد جرى الاستشراق الأوروبي خلال أعوام طويلة، بدافع العصبيات الدينية والقومية، على إنكار فضل الثقافة الإسلامية، وتجاهل دور الأندلس التي كان لها الفضل الكبير في نقلها إلى أوروبا. على أن النظرة التحاملية هذه تغيَّرت، منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، حينما وُجِد عدد من العلماء المنصفين ممن تحرَّروا من تلك العصبيات القديمة. وانعكس ذلك على مسيرة البحث العلمي في إسبانيا أيضاً، إذ عاد كثير من علمائها في أواخر القرن المذكور وأوائل القرن العشرين إلى الاهتمام بالثقافة الأندلسية، يبثونها بتجرد ونزاهة، ثم بشعور الاعتزاز والتقدير بوصفها جزءاً من تاريخ إسبانيا العام.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية

أ ـ المصادر:

ـ ابن الأبار، محمد بن عبد الله القضاعي:

ـ **الحلة السيراء.** جـ ٢، تحقيق حسين مؤنس القاهرة ١٩٦٧ م.

ـ ابن أبي زرع، علي بن محمد الفاسي:

ـ **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس.** نشر فورنبرغ، أبسال ١٨٤٢ ـ ١٨٤٦ م.

ـ **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية.** الرباط، ١٩٧٢ م.

ـ ابن الأثير، أبو الحسين علي... الشيباني المعروف بالجزري:

ـ **الكامل في التاريخ**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري. دار الكتاب العربي، بيروت ط ١، ١٩٩٧ م.

ـ البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز المرسي:

ـ **جغرافية الأندلس وأوروبا**، من كتاب المسالك والممالك، تحقيق عبد الرحمن الحجي، بيروت، ط ١، ١٩٩٨ م.

ـ **المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب.** نشر دي سلان، الجزائر ١٩١١ م.

ـ ابن بلكين، الأمير عبد الله بن زيري الصنهاجي:

ـ **مذكرات الأمير عبد الله، المسماة التبيين.** تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة ١٩٥٥م.

ـ ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد:

ـ **جمهرة أنساب العرب.** تحقيق لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١ م.

- الحميدي، أبو محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله:
- **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**. تحقيق روحية عبد الرحمن السويفي، دار الكتب العلمية بيروت ط ١، ١٩٩٧ م.
- ابن حيان، أبو مروان بن خلف القرطبي:
- **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**. تحقيق محمود علي مكي. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣ م.
- **المقتبس الثاني**، قطعة تتناول عصر الأمير الحكم ومعظم عصر الأمير عبد الرحمن الثاني، مدريد، ١٩٩٩ م.
- **المقتبس في تاريخ رجال الأندلس**، القسم الثالث، تحقيق الأب ملشور. م. أنطونية، باريس ١٩٣٧ م.
- ابن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعد بن أحمد السلماني، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب:
- **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق يوسف علي طويل. دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣ م.
- **اللمحة البدرية في أخبار الدولة النصرية**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٣، ١٩٨٠ م.
- **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام**، تحقيق سيد كسردي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣ م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد:
- **العبر في ديوان المبتدأ والخبر**.. المعروف **بتاريخ ابن خلدون**، والجزء الأول منه يشتمل على المقدمة، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩ م.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن إبراهيم:
- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧ م.
- ابن سعيد الغرناطي، علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك:
- **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٧ م.
- السلاوي، أحمد شهاب الدين الناصري:
- **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الدار البيضاء، ١٩٥٥ م.
- ابن الشباط، محمد بن علي المصري التوزري:

- **وصف الأندلس وصقلية**، تحقيق أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، مجلد ١٤، ١٩٦٧ م.
- ابن صاحب الصلاة، عبد الملك:
- **المن بالإمامة**، تحقيق عبد الهادي التازي. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٩٨٧ م.
- الضبي، أحمد بن يحيى بن عميرة:
- **بغية الملتمس في رجال أهل الأندلس**، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧ م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير:
- **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٦٠ م.
- ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن:
- **فتوح مصر وأخبارها**، تحقيق محمد الحجيري، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٩٦ م.
- ابن عذارى، أبو محمد عبد الله محمد المراكشي:
- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، الأجزاء الثلاثة الأولى، تحقيق ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال. الجزء الرابع تحقيق إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ط ٥، ١٩٩٨ م.
- العذري، أحمد بن عمر بن أنس الدلائي:
- **ترصيع الأخبار وتنويع الآثار**، تحقيق عبد العزيز الأهواني، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦٥ م.
- ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد الأزدي:
- **تاريخ علماء الأندلس**، تحقيق روحية عبد الرحمن السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٧ م.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري:
- **الإمامة والسياسة**، النص الخاص بفتح الأندلس، ملحق بكتاب **تاريخ افتتاح الأندلس** لابن القوطية، تحقيق عمر فاروق الطباع، مؤسسة المعارف.
- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود:
- **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار بيروت، ١٩٧٩ م.

- ابن القطان المراكشي، أبو محمد حسن بن علي:
- **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٩٠ م.
- القلقشندي، أحمد بن علي:
- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٧ م.
- ابن القوطية القرطبي:
- **تاريخ افتتاح الأندلس** والملحق المسمى الرسالة الشريفة، وهي نبذة من أخبار فتح الأندلس، تحقيق عمر فاروق الطباع، مؤسسة المعارف.
- ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفدا:
- **البداية والنهاية**، دار المعارف، بيروت، ط ٢، ١٩٧٧ م.
- ابن الكردبوس، أبو مروان عبد الملك التوزري:
- **الاكتفاء في أخبار الخلفاء**، نشر أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦٥، ١٩٦٦، ١٩٧١ م.
- المراكشي، عبد الواحد بن علي:
- **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٨ م.
- المقري، أحمد بن محمد:
- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، تحقيق مريم قاسم طويل ويوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٥ م.
- مؤلف مجهول:
- **أخبار مجموعة في فتح الأندلس**، وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم، دار أسامة، دمشق، ١٩٦٧ م.
- **الذخيرة السنية في أخبار الدولة المرينية**، تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر، ١٩٢٠ م.
- **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تونس، ١٩١٨ م.
- **مفاخر البربر**، نشر تورنبرغ، أبسال، ١٨٤٢ ـ ١٨٤٦ م.
- **آخر أيام غرناطة، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر**. تحقيق محمد رضوان

الداية، دار الفكر، دمشق، ط ٢، ٢٠٠٢ م.
- النعمان، القاضي محمد:
- **المجالس والمسايرات**، تحقيق الحبيب الفقي، إبراهيم شبوح وحمد البعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٩٩٧ م.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب:
- **نهاية الأرب في فنون الأدب**، جـ ٢٣، تحقيق أحمد كمال زكي ومحمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠ م.

ب ـ المراجع:

- أبو الخيل، محمد بن إبراهيم:
- **الأندلس في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري**، الرياض، ١٩٩٨ م.
- أرسلان، شكيب:
- **تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط**، دار الكتب العلمية، بيروت.
- أشباخ، يوسف:
- **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، تعريب محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٦ م.
- إيمار، أندريه وجانين أوبوايه:
- **تاريخ الحضارات العام**، جـ ٢، روما وامبراطوريتها، تعريب فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، منشورات عويدات، باريس، بيروت، ط ٣، ١٩٩٤ م.
- برفنسال، ليفي:
- **تاريخ إسبانيا الإسلامية**، تعريب علي عبد الرؤوف البجي، علي إبراهيم المنوفي والسيد عبد الظاهر عبد الله، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠ م.
- بيضون، إبراهيم:
- **الدولة العربية في الأندلس**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠ م.
- **ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩ م.
- الحجي، عبد الرحمن علي:
- **التاريخ الأندلسي**، دار القلم، دمشق، ط ٥، ١٩٩٧ م.

- جمال الدين، عبد الله محمد:
- **المنصَّرون الموريسكيون**، القاهرة، ١٩٩١ م.
- دوزي، رينهارت:
- **المسلمون في الأندلس**، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥ م.
- دي إيبالزا، ميكيل:
- **المستعربون: أقلية مسيحية مهمة في الأندلس المسلمة**، مقالة في كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، الجزء الأول، تحرير سلمى الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ٢، ١٩٩٩ م.
- ديفز:
- **شارلمان**، تعريب السيد الباز العريني، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩ م.
- رمضان، عبد المحسن طه:
- **الحروب الصليبية في الأندلس**، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ٢٠٠١ م.
- السامرائي، خليل إبراهيم وعبد الواحد ذنون طه وناطق صالح مطلوب.
- **تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس**، دار الكتاب الجديد المتحد، بيروت، ٢٠٠٠ م.
- شانيدلين، ريموند:
- **اليهود في إسبانيا**، مقال في كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس. الجزء الأول، تحرير سلمى الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ٢، ١٩٩٩ م.
- الشعراوي، أحمد إبراهيم:
- **هياج الربض ـ ثورة شعبية على الحكم الأموي الأندلسي**، بحوث ندوة الأندلس، الدرس والتاريخ، دار المعرفة الجامعية، مصر.
- صلح، نادية موسى:
- **العلاقات الإسلامية المسيحية في إسبانيا في عهد الملك ألفونسو الأول**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٠ م.
- الصوفي، خالد:
- **الفتح وعصر الولاة**، منشورات جامعة قار يونس، كلية الآداب، ط ٢، ١٩٨٠ م.

- طرخان، إبراهيم علي:
- **المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى**، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٦ م.
- طقوش، محمد سهيل:
- **تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقيا ومصر وبلاد الشام**، دار النفائس، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠ م.
- العبادي، أحمد مختار:
- **محمد الغني بالله ملك غرناطة**، مجلة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، المجلدان ١١ و ١٢، ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤ م.
- **في التاريخ العباسي والأندلسي**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢ م.
- عبد الحليم، رجب محمد:
- **العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف**، دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت.
- عبد الحميد، سعد زغلول:
- **عملية الإنقاذ المرابطي**، مقال في كتاب بحوث ندوة الأندلس، كليةالآداب جامعة الإسكندرية ورابطة الجامعات الإسلامية.
- عبد الحميد، محمد:
- **الفتح الإسلامي للأندلس**، القاهرة، ١٩٨٥ م.
- العريني، السيد الباز:
- **الدولة البيزنطية**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢ م.
- العدوي، إبراهيم أحمد:
- **المسلمون والجرمان، الإسلام في غرب البحر المتوسط**، مصر، ١٩٩٤ م.
- عنان، محمد عبد الله:
- **دولة الإسلام في الأندلس**، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- العصر الأول: القسم الأول، ط ٣، ١٩٨٨ م.
- العصر الأول: القسم الثاني، ط ٣، ١٩٨٨ م.
- العصر الثاني: ط ٣، ١٩٨٨ م.

- العصر الثالث: القسم الأول، ط ٢، ١٩٩٠م.
- العصر الثالث: القسم الثاني، ط ٢، ١٩٩٠ م.
- العصر الرابع: ط ٤، ١٩٨٧ م.
- الغنيمي، عبد الفتاح مقلد:
- **معركة بلاط الشهداء**، عالم الكتب، القاهرة، ط ١، ١٩٦٦ م.
- غيشار، بيير:
- **التاريخ الاجتماعي لإسبانيا المسلمة**، بحث في كتاب الحضارة العربيةالإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط ٢، ١٩٩٩ م.
- محمود، حسن أحمد:
- **قيام دولة المرابطين**، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٦ م.
- مكي، الطاهر أحمد:
- **الأندلس، تاريخ اسمه وتطوره**، مجلة الثقافة، السنة الثانية، العدد ٢٢، القاهرة، ١٩٥٧ م.
- مكي، محمود:
- **تاريخ الأندلس السياسي**، بحث في كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ٢، ١٩٩٩ م.
- مؤنس، حسين:
- **تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس**، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦٧ م.
- **فجر الأندلس**، العصر الحديث ـ دار المناهل، بيروت، ط ١، ٢٠٠٢ م.
- نصر الله، سعدون عباس:
- **دولة المرابطين في المغرب والأندلس، عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين**، دار النهضة العربية، بيروت، ط ١، ١٩٨٥ م.

ثانياً: المصادر والمراجع باللغات الأوروبية:

- Ballestros Y. Beretta, A:
  - **Historia de Espana su Influencia en la Historica.** I. Barcelona 1918.
- Bradly, H:
  - **The Goths**, London. Fifth. Ed.
- Bury, J.B:
  - **History of the later Roman Empire.** I. London 1913.
- Cabal, C:
  - **Alfonso III el Casto**, Oviedo 1943.
  - **Camb Medieval History**, vol I, II.
- Chapman, C.E:
  - **A History of Spain**, New-York 1948.
- Conzales, J:
  - **Las Conquistas de Fernando en Andaluciaz**, Madrid, 1946.
  - **Chronica Albeldense**, Ed. Florez, T 13 Madrid 1756.
  - **Chronica Alfonso III**, Ed. Villada, Madrid 1918.
  - **Chronica Sebastiani.** Ed. Florez, T 13 Madrid 1756.
- Crow, J.A:
  - **Spain: The Root and Flower**, New-York 1963.
- Danham, S.A:
  - **The History of Spain and Portugal**, London 1832.
- Deanesly, M:
  - **A History of Early Medieval Europe**, London 1956.
- Gibbon, E:
  - **The History of the Decline and Fall of the Roman Empire**, V, 1929.
- Halphen:
  - **Vie de Charlemagne, de Eginard**.
- Hillagrth, J.N:
  - **The Spanish Kingdoms**, Oxford 1976.
- Hodgkin:
  - **Charles The Great**.
- Hume, David:
  - **History of England**, London 1848.
- Isidoro of Seville:
  - **History of the Goths, Vandals and Suevi**, Trans. by Guida Domini and Gordon, B Ford, Ed. Leiden 1970.
- Katz, Solomon:
  - **The Jews in the Visigothic and Frankish Kingdom of Spain and Gaul**,

New-York 1970.
- Lacarra, J.M:
  - **La conquista de Zarugoza poi Alfonso I Al Andalus**, Revista Madrid - Granada vol XII 1947.
  - **Alfonso el Batalledor**, Zaragoza 1978.
- Ladora, Que sada, M.A:
  - **Granada Historia de un pais Islamica**, 1232 - 1517, Madrid 1979.
- Lane - pooles:
  - **The Moors in Spain**, 1912.
- Lavisse, E:
  - **Histoire de France I**, Ed. 1911 Paris.
- Livermore, Harold:
  - **A History of Spain**, London 1958.
- Lomax, D.W:
  - **The Reconquest of Spain**, London 1978.
- O'callaghan, J.F:
  - **A History of Medieval Spain**, New-York 1975.
- Oman, Charles, W. Ch:
  - **The Byzantine Empire.**
- Pears:
  - **Spain a Companion to Spanish Studies**, London 1929.
- Pidal, R.M:
  - **La Chanson de Roland.**
  - **Historia Espana.**

ـ إنها مجموعة عن تاريخ إسبانيا أشرف عليها بيدال.

- Rios, delos Amador:
  - **Historia Social, politica Y Religiosa de los Judios de Espana Y Portugal.**
- Robson, J.A:
  - **The Catalan Fleet and the Moorish Sea Power 1337 - 1344.** English Historical Review, London vol 74, 1949.
- Saavedra, E:
  - **Esrudio sobre la Invasion de Los Arabes en Espana**, Madrid 1892.
- Strabo:
  - **The Geography II**, Trans. by H.L. Jones. Classical Library London 1923.
- Thompson, E.A:
  - **The Goths in Spain**, Oxford 1964.

دليل الخرائط الواردة في الكتاب

محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

العلاقات الخارجية

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع | **الصفحة**

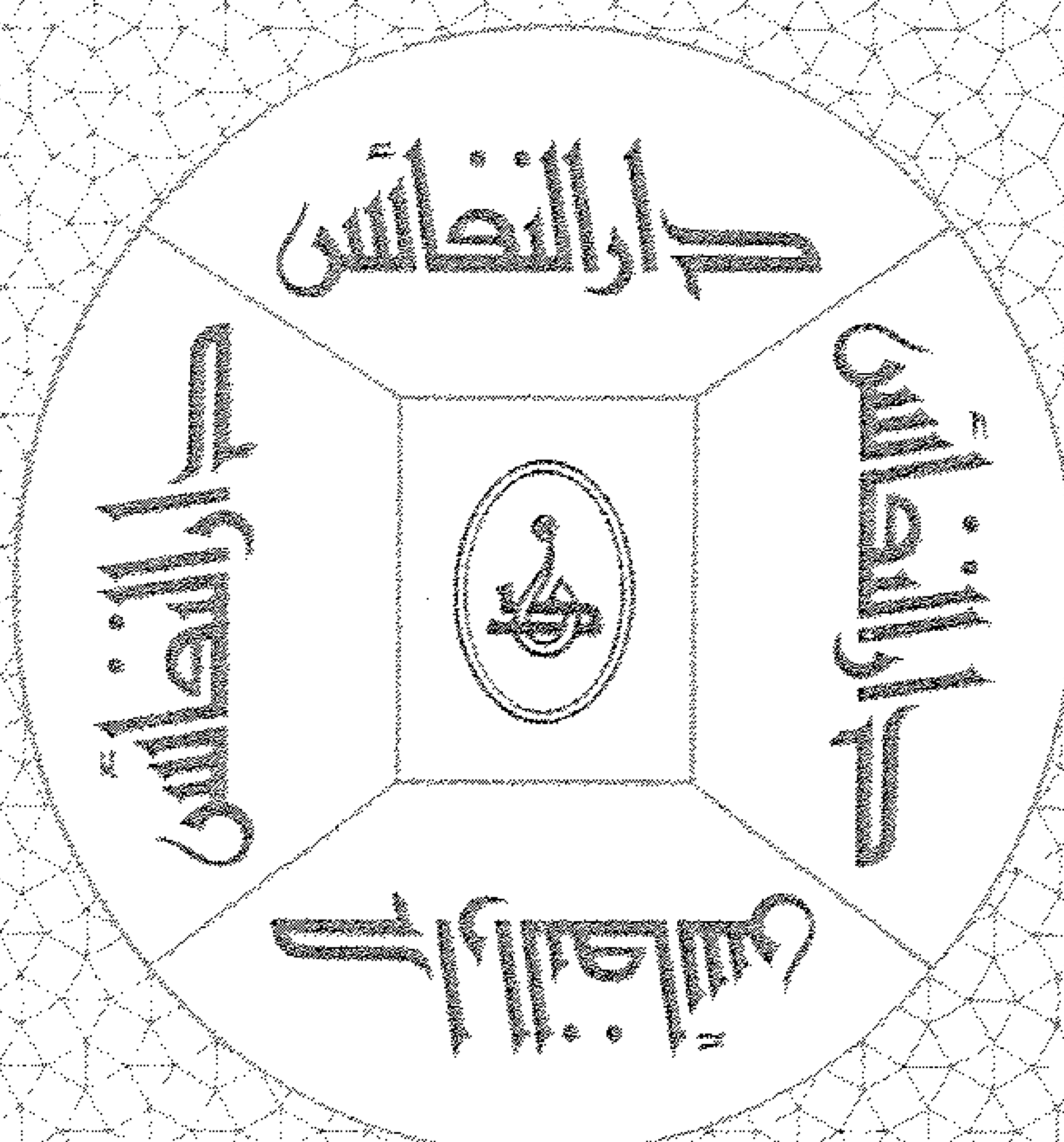
الموضوع | **الصفحة**

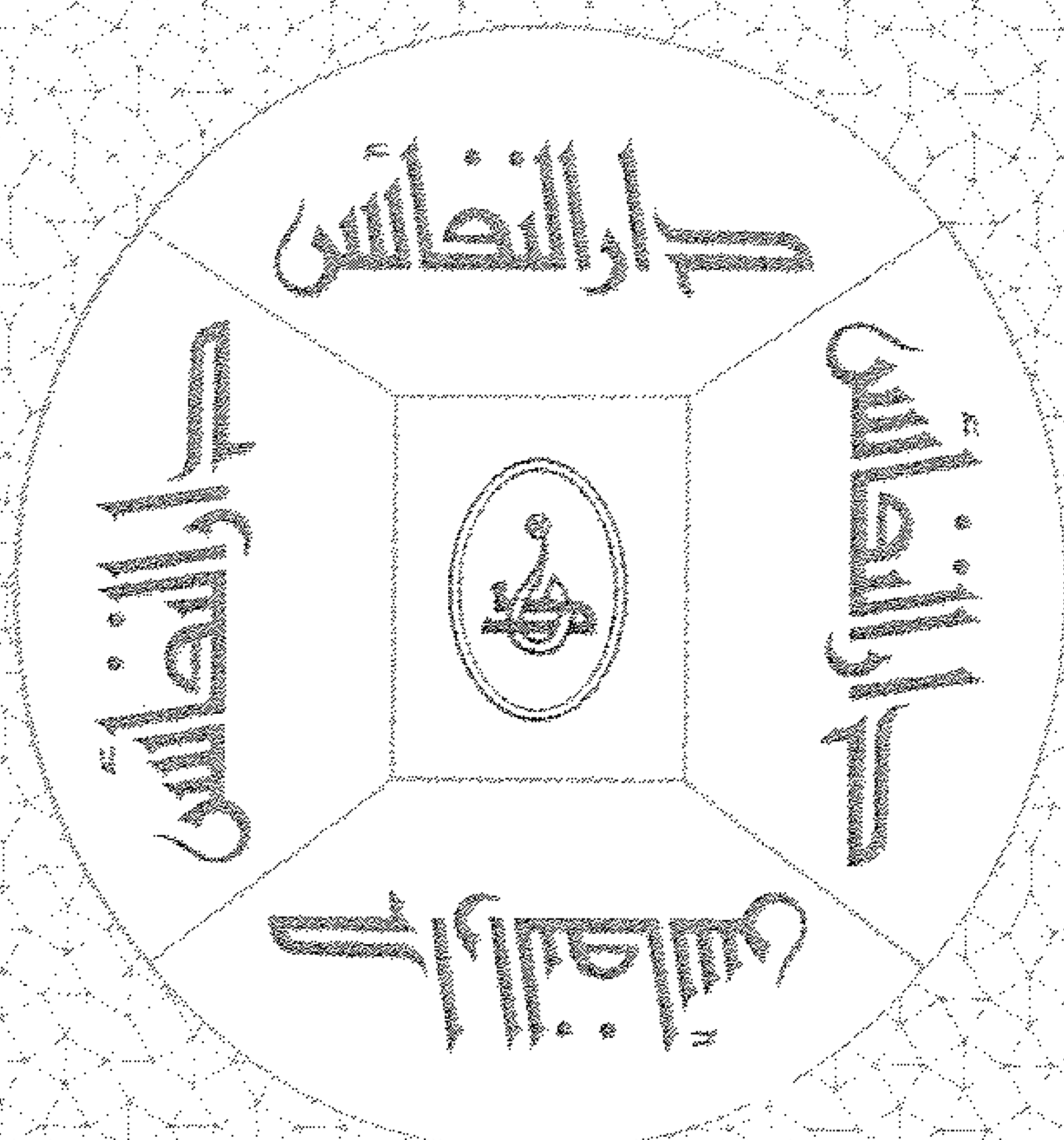
الموضوع	الصفحة

الموضوع | **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

رقم: 465 - 05


دار النفائس
دار النفائس
دار النفائس
دار النفائس


دار النفائس



بدأ المسلمون فتح بلاد الأندلس (إسبانيا) سنة 91 هـ ـ 710م، واستمر وجودهم فيها حتى سنة 897 هـ ـ 1492م. وفي خلال ما يقارب ثمانمئة عام، تعاقب على حكم تلك البلاد دول عدة، أشهرها دولة الأمويين في الأندلس التي ضاهت حضارتها حضارة العباسيين في المشرق.

إن تاريخ المسلمين في الأندلس تاريخ مشرق في مجمله ولكن العرب الفاتحين، ومعهم البربر المسلمين، نقلوا، إلى تلك البلاد خلافاتهم وأحقادهم، وقاتل بعضهم بعضاً حتى ضعفوا واستكانوا، فانقضَّ عليهم النصارى الذين لم يضيِّعوا يوماً واحداً في الإعداد لقتال المسلمين وطردهم من بلادهم، ولما تمكنوا من ذلك نكَّلوا بمن بقي منهم على دينه أو قتلوه.

إن تاريخ المسلمين في الأندلس يشكل عبرة للمعتبرين. صاغه مؤلفه بإيجاز غير مخلٍّ، وأسلوب غير مملٍّ، ليستفيد منه القارئ من أي مستوى كان.

والمؤلف أستاذ جامعي، متخصص في التاريخ، له مؤلفات كثيرة نشرتها دار النفائس تباعاً في السنوات الأخيرة.

الناشر


ISBN 978-9953-18-412-8
9 789953 184128